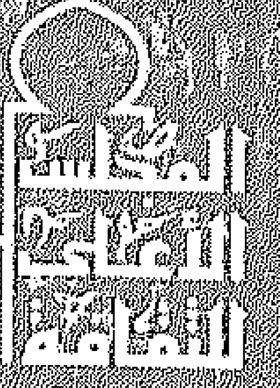
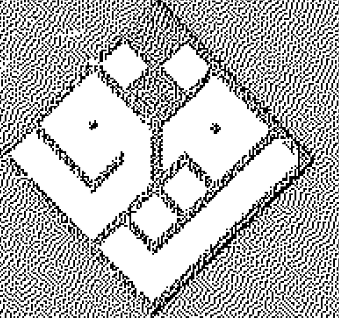




المشروع القومي للترجمة

عاش الشباب

من روائع الأدب الصيني

تأليف : وانغ مينغ

ترجمة وتقديم : وحيد السعيد العبيسى

372

المشروع القومى للترجمة

عاش الشباب

(من روائع الأدب الصينى)

تأليف

وانغ مينغ

ترجمة وتقديم

وحيد السعيد عبد الحميد العبيسى



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٣٧٢
- عاش الشباب
- وانغ مينغ
- وحيد السعيد عبد الحميد العبيسى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

هذه ترجمة عن اللغة الصينية لرواية :

青春万岁

人民文学出版社出版
(北京朝内大街166号)
新华书店北京发行所发行
北京新华印刷厂印刷
字数 226,000　开本 850×1168 毫米 $\frac{1}{32}$　印张 10 $\frac{15}{16}$　插页 2
1979年5月北京第1版　1984年9月北京第1次印刷

书号 10019・2720

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House. El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax** : 7358084 **E. Mail** : asfour @ onebox. com

---

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مـختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

مقدمة

ينتمى الأديب والكاتب الصينى الكبير " وانغ مينغ " إلى محافظة نانبى بمقاطعة خابى حيث كان يعيش أجداده ، لكنه ولد فى العاصمة بكين فى يوم الخامس عشر من أكتوبر عام ١٩٣٤ حيث كان يدرس والداه، وبعد مولده عاد فى صحبتهما إلى موطنه الأصلى فى خابى حيث مكث ثلاث سنوات، ثم عادوا إلى بكين فى عام ١٩٣٧ بعد أحداث السابع من يوليو فى هذا العام (العدوان اليابانى)، ويقول وانغ مينغ فى مقالة " رحلتى مع الأدب " : إنه مازال يذكر هذه الرحلة التى قطعوها من نانبى إلى بكين على عربة " كارو" وكيف أنهم كانوا ينصبون الخيام عندما يحل المساء ليقضوا الليل تحتها ثم يواصلون الرحلة فى الصباح ، وكيف أنه كان يخاف من أصوات الحيوانات وعواء الذئاب فى الليل.

وفى عام ١٩٤٠ التحق وانغ مينغ - وهو فى السادسة من عمره - بإحدى المدارس الابتدائية التابعة لمدرسة المعلمين فى بكين، وفى عام ١٩٤٥ التحق أيضًا بإحدى المدارس الإعدادية فى بكين ، وهى معروفة الآن بالمدرسة المتوسطة رقم " ٤١ "، فى ذلك العام بدأت مراحل استسلام الجيش اليابانى أمام مقاومة الشعب الصينى ، وبدأ وانغ مينغ منذ العام التالى - ١٩٤٦- فى الاتصال بتنظيمات الشبيبة الشيوعية السرية فى عهد حكومة الكومينتانغ الفاشية ، وبدأت عيناه تتفتحان على أحوال المجتمع وراح يقرأ كل ما يقع تحت يديه من كتب عن الماركسية واللينينية ، وفى العاشر من أكتوبر ١٩٤٨ أصبح عضواً فى رابطة الشبيبة (إحدى التنظيمات السرية للحزب الشيوعى).

تحررت العاصمة بكين فى يناير ١٩٤٩ ، وفى شهر يوليو من نفس العام التحق بمدرسة الشبيبة المركزية، وبعد أن أتم دراسته بهذه المدرسة فى مايو ١٩٥٠ ، بدأ يعمل كعضو فى لجنة الشبيبة الديمقراطية الجديدة عن المنطقة الثالثة فى بكين ،

واستمر فى ذلك حتى تولى منصب نائب رئيس الرابطة فى عام ١٩٥٦ . وكان عمله فى هذه الفترة بمثابة فرصة عظيمة احتك فيها بالشباب الثورى وعرف تطلعاته وطموحاته فى المجتمع الجديد.

قضى وانغ مينغ وأسرته الفترة من ١٩٦٣ - ١٩٧٩ فى منطقة شنجيانغ ذات الحكم الذاتى الواقعة فى شمال غربى الصين ، حتى يتسنى له البعد عن دائرة الصراع ضد اليمين البرجوازى من ناحية، وكى يعمل ويبدع ويواصل إنتاجه الأدبى من ناحية أخرى ، وكانت هذه الفترة من أغزر فترات إنتاجه الأدبى. وعاد بعد ذلك إلى بكين ، لكنه ظل يتردد على هذه المنطقة من حين لآخر للزيارة أو الكتابة.

وقد تعلم خلال هذه الفترة اللغة الويغورية التى يتحدث بها أبناء هذه المنطقة من قومية " الويغور".

وفى أوائل الثمانينات ، ولدى عودته إلى بكين رأس وانغ مينغ تحرير مجلة "الآداب" ، ثم تولى بعد ذلك منصب نائب رئيس ثم رئيس اتحاد الكتاب فى الصين ، ثم كان منصب وزير الثقافة فى عام ١٩٨٦، ومن هوايات كاتبنا القراءة والسباحة وسماع الموسيقى وتعلم اللغات الأجنبية.

ورواية "عاش الشباب" هى باكورة الإنتاج الأدبى للأديب وانغ مينغ ، وقد شرع فى كتابتها عام ١٩٥٣، وكان آنذاك عضواً فى رابطة الشبيبة الشيوعية المناهضة لحزب الكومينتانغ، وكانت إرهاصات العمل الوطنى فى البناء والتعمير آخذة فى التبلور، والمجتمع يشهد تحولاً كبيراً ، والآمال والطموحات التى تصاحب قيام الثورات والتحرر بدأت تراود الناس وتحرك مشاعرهم ، كل ذلك دفعه إلى كتابة هذه الرواية تعبيراً عن تلاحم جيل الشباب مع الثورة ومع التحرير ومع الحزب الشيوعى ، وتعبيراً عن أفكارهم واتجاهاتهم وروحهم الوطنية وآمالهم العريضة فى بناء الصين الجديدة .

وقد اختار الكاتب أحد فصول الصف الثانى بالمدرسة الثانوية السابعة للبنات موضوعاً لأحداث هذه الرواية، وتمكن قلمه الرشيق من سبر أغوار الحياة الطلابية خلال هذه الفترة بما تعكسه من آمال وطموحات وأحلام جميلة فى غد مشرق ، وفى

هذا السبيل عرض الكاتب للخطة الخمسية الأولى التى تضطلع البلاد بتنفيذها بما فيها من مشروعات وطنية عملاقة ، وما يدور حولها من حوارات ومناقشات. وأبرزت الرواية أيضًا روح الشباب البناءة الخلاقة ، ودوره فى بناء وطنه ، كما حثت على التمسك بروح الجماعة والصدق والإخلاص ، ونبذ الخلافات والكراهية والأحقاد ، ولم يفت كاتبنا أيضًا توضيح اختلاف الأساليب والمفاهيم والاتجاهات الفكرية وتباين الشخصيات والميول والطباع والرغبات فى مرحلة الشباب.

وبعد انتهاء وانغ مينغ من إبداع هذه الراوية تم نشرها على حلقات فى " جريدة بكين اليومية" وفى "صحيفة الأدب" ، غير أنها لم يكتب لها النشر فى كتاب إلا فى عام ١٩٧٩ ، عندما صدرت عن "دار أدب الشعب للطباعة والنشر" بعد حوالى ربع قرن من إبداعها بسبب صراع الكاتب ضد اليمين البراجوازى آنذاك.

ويمكن القول بإيجاز شديد إن رواية "عاش الشباب" هى إحدى الروايات الهامة التى واكبت قيام الصين الجديدة ، وعكست حياة المجتمع الصينى بما فيه من آلام وآمال وسلبيات وإيجابيات ، وتطلعات نحو غد مشرق جديد خلال تلك الحقبة من حياة الشعب الصينى.

وحيد السعيد

مقدمة شعرية

يا كل أيامى . . . . أقبلى ، أقبلى يا كل أيامى ،
دعينى أنسج منك أحلامى ،
بخيوط الشباب الذهبية،
بكل خيوط السعادة ،
أنسج منك أحلامى.
الأغنيات والضحكات تنطلق من مركب صغير،
والرقص والمرح فى فناء المدرسة تحت ضوء القمر،
ونزهة خلوية تحت رذاذ المطر،
ومسيرة جماعية قمنا بها فى بواكير الصباح مع بداية سقوط الثلوج،
والمحاورات لا تزال ساخنة ، والقلوب راقصة دافئة. . . .
هذه الأيام ، مرت مرور السحاب ، مليئة بالأحلام الوردية ،
آمالنا تتوالى وتنتشر كحبات أمطار الربيع ،
وقتنا بين أيدينا ، طاقتنا متفجرة ، عقيدتنا راسخة،
نقبل على الحياة ، ونشتاق إلى التحليق فى الأفق البعيد.
عهد البساطة والبراءة ، أيام متعددة ألوانها ،
العالم الرحب الفسيح ، يدعونا إلى دهشة عظيمة ،

يجعلنا في فرح وسرور ، وعقولنا دائماً متفتحة
دموعنا ، ضحكاتنا ، خلجات نفوسنا ، كلها لأول مرة .
يا كل أيامي ، اذهبي يا كل أيامي ،
أتطلع إلى المستقبل في تفاؤل وسعادة،
الأعباء ثقيلة ، لكنني ذو عزيمة ،
النضال مرير ، لكنني لن أتوقف ،
يوم أنظف بندقيتي ، وأعد ذخيرتي ، ويجف عرقي ،
يوم ذاك سوف أشتاق إليكِ ، أناديك ،
وبكل فخر ، وبكل زهوٍ يا أيامي أرعاك.

وانغ مينغ

(١)

" أيتها الفتيات ، الآن بدأت المياه تتفجر من عين السعادة" !

تقع تلك العين أمام الخيمة رقم ١٨ ، وحفرتها فتيات الصف الثانى بالمدرسة الثانوية السابعة للبنات، وفى التاسعة صباحًا ، وبعد عودتهن من الجبل الذى تسلقنه لرؤية منظر الشروق البديع ، وقفت الفتيات غير مباليات بالتعب على شكل دائرة حول العين لإقامة حفل افتتاح "عين السعادة" .

أعلنت "يوان شن تشى" ذات الضفيرتين القصيرتين والقوام الممشوق هذا التصريح فى جدية وحزم لايخلوان من الظُرف، ثم أحنت ظهرها وراحت تنزع غطاء عين السعادة بمنتهى الدقة والحذر وسط استحسان وتصفيق الحاضرين ، واندفع الماء العذب بقوة إلى أعلى حتى بلل تنورتها الخضراء ، ثم ضعف الماء حتى لم يعد يرتفع فوق مستوى سطح الأرض سوى بوصة واحدة.

تزاحمت البنات حول العين وأخذت كل منهن كوبًا من الماء ، رفعت "يوان شن تشى" كوب الماء بيدها عاليًا كأنها إله الحرية الشامخ الذى يرفع الشعلة ، وقاومت الضحك وهى تقول لزميلاتها فى حزم "فى صحتكن" ! وتصاعدت أصوات ارتطام الأكواب بعضها ببعض ، اشرأبت أعناقهن ورفعن الأكواب إلى شفاههن وأخذن يشربن ، ويا له من ماء بارد ، لاذع ، وله مذاق معجون الأسنان.

"حسنًا ، بمقدورنا ألا نشترى مياه غازية من بائع المرطبات حتى يموت غيظًا ، هكذا قلن واحدة تلو الأخرى بينما كن يحركن ألسنتهن ليلقين بالحصى وحبات الرمال.

آنذاك أقبلت من بعيد خمس فتيات يَعدُنَّ فى همة ونشاط وهن يرتدين " شورتات" وتنتفخ صدورهن كبرياء وشموخًا بينما يقاومن آثار الإرهاق والتعب ، اقتربن وصاحت قائدتهن "تشوشيا ولينغ " قائلة:

"كيف لا ترحبن بنا عند قدومنا؟" واستطردت وهى تمسح قطرات العرق عن جبينها ، إنهن من فريق "طلائع الجوالة الأحمر" انطلقن قبل أن تشرق شمس اليوم حتى يشاركن زميلاتهن حفل إيقاد شعلة المعسكر.

" أهلاً ، أهلاً وسهلاً ، تفضلن ، اشربن من مياه عين السعادة!

واسقين كلاً منهن جرعة من ماء العين" .

قالت تشوشيا ولينغ وملامح الأسى ترتسم على وجهها : " أماه ، أىُّ سعادة تلك ؟ ! ثم سألت : " أين تشن بوا ؟ " .

"إنها فى اجتماع داخل المعسكر"

" أمها مريضة وخالتها تريدها أن تعود على وجه السرعة"

فليهدأ الجميع ، وتذهب "يوان شن تشى" للبحث عن "تشن بوا" .

أقامت الفتيات معسكرهن فى الخلاء وسط الطبيعة حيث أقمن ما يزيد على ثلاثين خيمة مصطفة فى شكل هندسى على شكل " محبرة "

صنعن باب المعسكر من أعواد البامبو وفروع الأشجار ، وثبتن أعلاه مجموعة من الرايات الملونة المزركشة يداعبها الريح فترفرف وتتراقص، وأسفل هذه الرايات كلمتان مكتوبتان بأوراق الصفصاف " معسكر السعادة " ، وإذا ما دلفت من باب المعسكر تراءى لك على الجانب الأيسر برج مراقبة مرتفع تقف فوقه "جندى حراسة" تمسك بيدها عصى وتراقب كل جنبات المعسكر المطلة على المزارع والطرقات والبحيرات الصغيرة ، ولكنها أحيانًا ما تسمح لنفسها بأن تصوب بصرها نحو السحب السابحة فى السماء أثناء نظرها إلى جبل بعيد فتبدو كثيفة تارة وخفيفة تارة أخرى ، أو تختلس نظرة إلى تلك الربوة العالية التى تتزاحم عندها الصخور والأحجار بينما تنساب من بينها مياه النهر فى قوة واندفاع.

وفى حوالى الرابعة من صباح كل يوم وقبل أن ينقشع الظلام تكون معظم الفتيات قد استيقظن وشعرن لفرط سعادتهن بعدم الرغبة فى النوم ، ولا تنبس

إحداهن ببنت شفة خشية أن تزعج الأخـريات ، بل يرقدن جميعًا فى سكينة وهدوء فوق المراتب المحـشوة بقش الأرز يصغين إلى أصـوات صيحـات ووقع أقدام الجنود الذين يتدربون فـى معسكر الجـيش المجاور لهن استـعداداً للعـرض العسكرى الذى سيـقام بمناسبـة العيد الوطنى للبـلاد ، وأصوات عربات "الكارو" وأصـوات مذياع تتهادى من موقع عمل بعيد إلى أسماعهن على أجنحة الريح قوية تارة وضعيفة تارة أخرى ، حاملة بعض الأغنيات من الأوبرا المحـلية مثـل "زوج البنـت الصـغير" و " البنت الذكيـة ليوتشـياو"[1] ويسمعـن أيضًا نداءات غير واضـحة أو أصوات صفير القطارات فى بعض الأحيان.

إنه فى استطاعتهن - متى صحين فى بواكير الصباح وبينما ينطق كل ما حولهن بالسكون - أن يسمعن كل هذه الأصوات التى تمثل التناسق والاضطراب ، الوضوح والغموض ، التداخل والرتابة فى آنٍ واحد إذا ما رقدن فى الخيمة ملتصقات بالأرض التى يعشقنها ، وهذا ما يجعلهن على يقين مـن عدم وجود موعد نوم موحد للناس جميعًا ، فبينما يكون بعض أفراد الشعب الكادح قد خلصوا من عناء العمل وراحوا يلتقطون أنفاسهم الـلاهثة ، ويغمضون جفونهم السـاهدة ، يكون البعض الآخر قد ارتدى ملابســه، وعدل ياقة قمـيصه ونفض التراب عن حـذائه وراح يستقبل الحـياة ويؤدى دوره فيـها بكل عـز وكبرياء، وهذا هـو ناموس الحيـاة الصاخـبة ، لا تلين لمستسلم ولا تخضع لمستضعف ولا راحة دون عناء ، ولا أفراح بلا أتراح.

أشرق الصباح وانبلج يوم جديد، والفتـيات يهتفن بأن كل يوم من أيام المعسكر هو عيد من أعياد الشباب ، كل ما حـولنا اكتشاف جديد، كل ما حولنا ملك لنا ، السماء الزرقاء غطاؤنا ، السحب الوردية تشاركنا فرحتنا ، الأرض على رحبها مرتع لنا ، الأنهار والبحـيرات مسبحنا، البـلابل والعصافير تغـرد معنا ولنا أنشودة الحب والسعادة. من الصباح وحتى المساء نمرح هنا وهناك فى نزهة خلوية ، ونصطاد طائر

(١) إحدى أغنيات الأوبرا ، وهى اسم فتاة .

اليعسوب ونصطاد السمك بالصنار، ونركب القوارب ، ونجمع الأعشاب والزهور البرية، ونصعد المرتفعات ونلقى نظرة على الأفق البعيد من حولنا ، ونمضى على هذا الحال حتى يغالبنا التعب. ما أكثر مباهج الحياة التى لم نشهدها من قبل ! وما أسرع مرورالوقت الذى لن يدعنا نشهدها كلها اليوم! وما لنا غير انتظار الغد ! وما أبعد ذلك الغد ، وما أبطأ قدومه !

وفى المساء ، وحرارة الجو لم تنخفض حدتها بعد ، تكون صفارة اليوم قد انطلقت حيث يقف البواق بجوار خزان المعسكر ويطلق نفير صفارته بقوة ، وينظر إلى النجوم المتناثرة فى صفحة السماء فينتفخ صدره ويحس بأهميته ومكانته ، وفى الوقت نفسه يشعر بالأسف لأن ضحكات الفتيات انقطعت واختفت فجأة بسبب نفير صفارته .

النجوم تعلو وتبتعد رويدًا رويدًا ، ولم يعد يخترق السكون سوى نقيق الضفادع.

هكذا كانت الحياة داخل المعسكر الذى أقيم لأول مرة فى صيف عام ١٩٥٢ ، حيث لم يكن قد مضى على قيام الصين الجديدة سوى ثلاث سنوات.

عادت " يوان شن تشى " ومعها " تشن بوا " التى أمسكت " تشوشيا ولينغ " بذراعها فى رفق وأخبرتها عن أحوال أمها . فقالت " تشن بوا " :

"ربما لا يدعو الأمر إلى الانزعاج ، فأمى عندها مرض قديم ، كثيرًا ما يعاودها. ولكن إذا رجعت إلى المنزل فلن أتمكن من الاشتراك فى حفل إيقاد "شعلة المعسكر" وسأندم كثيرًا على ذلك " .

ردت يانغ تشيانغ يون : "بل إنها فى حالة يرثى لها " ، وهى صديقة حميمة " لتشن بوا "، طويلة القامة وتبدو قوية مفتولة العضلات ، ولا تنطبق عليها مقاييس الجمال - مثل الحاجبين الطويلين، الأنف السنارى، والفم الصغير - ولكن

تشعـر من وجهها الوضـاح وبريق عينيهـا أنها تشع على كل من حولهـا، وتستطيع بتعبيرات وجهها وطلعتها البهية أن تأخذ بألباب الناظرين إليها .

وكانت عنـدما سمـعت كلام " تشـوشيا ولينغ " قـد بدت وكأنهـا أكثـر قلقًا واضطرابًا من " تشن بوا " نفسها ، فضغطت بيدها اليمنى على خنصر يد « تشو » اليسرى وقالت لتشـن بوا : " ما أشد تعاستنا وخيبة أملنا إذا لم تشـاركينا الاحتفال بإيقاد " شعلة المعسكر" .

ردت تشن بوا : "ماذا يزعـجكن من عدم وجودى؟ بل إن عـدم وجودك أنت فيه ما يثيـر الحزن حقًا. ياه ، إننى لم أشرب بعد من ميـاه عين السعادة ، فلأشرب ثم أعود" .

وشـربت " تشن بوا " ، فأعادت جو الحيـوية والمرح إلى صديقاتها . وقالت " يانغ تشيانغ يون " وهى تتنهد فى تأثر شـديد "أصحبك حتى السـيارة" أومـأت " تشن بوا " فسبقتها " يانغ " فى خطى سريعة نحو المحطة.

* * *

أحنت " تشوشيا ولينغ " رأسها لتدخل الخيمة رقم ١٨ وتبعتها بقية الفتيات . والخيمة تبدو خانقة ومظلمـة وتنبعث منها رائحة الجاز رغم أن غطاءها قد رفع عنها ورغم أنهـا أكبـر خيـام المعـسكر على الإطلاق ، وانتحـت " شيـا ولينغ " جانبًـا وجلست على الأرض فى ركن مكتظ بالزمزميات والحبال والفوط ، واتجهت بساقيها ناحية اليـسار مرتكزة على يدها اليسرى وراحت تضـرب بيمناها بخفة على ساقـيها المنهكتين من كثرة المسير.

"حجرة جـميلة " قالت " شيـا ولينغ " وهى تتحسس مرتبـة القش المفروشة على الأرض، ثم أضافت : "ولكنها شديدة الحـرارة" ، " لا بل إنها شديدة البرودة فى الصباح حـيث يبلل الندى قماش الخيمة وتتـساقط قطراته فتبلل شعرنا فـيصـير رطبا نديا" .

لقد حملت لكنَّ من مدرستنا خبراً مدهشاً! اشرأبت إليها الأعناق والتفتت إليها الأنظار فاضطربت " شيا ولينغ " وقالت : "فى الحقيقة لا توجد أية أخبار ، فقط أردت أن استخدم كلمة "مدهش" فى جملة مفيدة.

أقبلت "يانغ تشيانغ يون" مسرعة وتعثرت فى الأقدام الممدودة فوق قش الأرز حتى كادت أن تقع وقالت : " ماذا دهاكن ؟ كيف تمكثن فى الخيمة فى وضح النهار . . . . "

قاطعتها أخرى : " صه . . . . تشوشيا ولينغ عندها أخبار جديدة" .

"يقال " أكدت " شيا ولينغ " على هذه الكلمة فى محاولة للتهرب من المسئولية : " يقال إن المدرسة سوف توزع ميداليات حسب نتائج امتحانات الدور الأول.

" وماذا نجنى من وراء الحصول على ميدالية؟ "سألت "ووتشانغ فو " وهى تجلس منتصبة القامة مربعة الساقين ، ووجهها يبدو مكوراً يتكدس فيه حاجباها وعيناها وأنفها وفمها ككتلة سمينة من اللحم.

ردت لى تشون ساخرة : "تعفى من التذكرة عند ركوب الترامواى"

" تقرر فى اجتماع إدارة المدرسة أمس أن تكون الدراسة مكثفة وأكثر جدية فى الدور الدراسى الثانى " .

" يا للخسارة ، إننى لم أستذكر شيئًا خلال إجازة الصيف هذه ، وكنت قد وضعت خطة لمراجعة دروسى؟ لكننى ما إن بدأت اللعب حتى نسيتها . . . . ".

"كفاك هراء ، لقد رأيتك أول أمس تراجعين دروس الجبر"

" لا تنس أننا سنكون فى " التوجيهية" العام القادم ، والمناهج كثيرة وصعبة، علاوة على جدية المعاملة ، فماذا نحن فاعلات ؟ "

"أكيد ستفوزين بالميدالية . . . . . . "

" أمتأكدة أنت؟ "

"نخشى من امتحان الجبر . . . . . . " قالت كل الفتيات.

"أمازلت تتحدثين عن نتيجة الامتحانات قالت " تشسيانغ يون " وقد بدا أنها غير واثقة من الأخبار التى حملتها شيا ولينغ : " إننى لم أحضر نصف محاضرات الدور الأول حيث كنت أنسخ معلومات فى لجنة تقصى الحقائق وخفض النفقات . وكنت أخشى ألا أجتاز امتحانات آخر العام! " سألت يوان شن تشى : " صحيح ، إننا لم نذاكر جيدًا فى الدور الأول فما الداعى إذن لتوزيع ميداليات؟ "

"كى تذاكرى جيدًا فى الدور الثانى " أجابت " لى تشون " وكأن الكلمات تخرج من أنفها ، ثم استلقت على ظهرها وراحت ترسل بصرها من أحد ثقوب الخيمة نحو الأفق البعيد.

سادت لحظات من السكون، بعضهن يتذكرن المواد التى لم يجبن فيها جيدا فى الامتحان، والبعض الآخر يتوقعن من ستحصل على ميدالية التفوق فى الدراسة ، بل ذهبن فى قلق لا داعى له إلى التفكير فى الترقى إلى الصف الثالث والدروس التى تتطلب مذاكرة وامتحانات التخرج وقبول الجامعة. . . . . . .

"كفى ! " صاحت تشسيانغ يون بصوت عال وهى تلوح بيدها" : ما الداعى للكلام فى مثل هذه الأمور ونحن فى معسكر وقد تركناها خلف ظهورنا؟ . يجب ألا ندع الامتحانات والدراسة والميداليات تعكر صفو حياتنا، ومادمت تروحين هنا عن نفسك ليوم واحد ، لتنس كل شيء وتفرحى وتمرحى وتستمتعى لأقصى درجة ممكنة بكل لحظات السعادة والصفاء ، تمامًا كما تستمتع بنت الذوات بثروات أهلها الطائلة . . . . "

تحركت " ووتشانغ فو " بجسمها كما لو كانت قد أصابها " التنميل" وقالت وهى تشد أنفها الضخم المكور : " يا للخسارة" ، لقد أحبطتن معنوياتى

بحديثكن عن الدراسة! إنه لشيء رائع ، إذا أقمنا هنا معسكرًا دائمًا، فلا امتحانات ولا أسئلة ، ولا نجاح ولا رسوب".

اعتدلت " لى تشون " فى جلستها ، ويدها تقبض على بعض أعواد قش الأرز،وأمالت رأسها الكبيرة ، ورفعت حاجبيها الكثين الطويلين ، وسرحت ببصرها من طرف عينيها وبدت كأنها تفكر فى اللاشىء ، لكن تبدو عليها علامات عدم الموافقة، ثم قالت وهى تحدق النظر فى " ووتشانغ فو: " لست على صواب ، أن نقيم هنا فى معسكر دائم أمر لا معنى له . "

إن الحياة سعى دؤوب ، ولحظات السكينة والهناء فيها قصيرة ، وما هى إلا جزءً وفاقًا لذلك السعى ، ولأنها قصيرة ، فهى جميلة ، وهى جديرة .... "

" " علامة ! " " همهمت « ووتشانغ فو » بصوت خفيض ، ونظرت إلى الأخريات بوجه عابس .

وقالت " يوان شن تشى " وهى تتمطع معبرة عن الامتعاض والملل من الحديث فى هذا الجو الخانق : "لنخرج ونمرح بدلاً من الخوض فى هذا النقاش العقيم " .

أحنت الفتيات رءوسهن وخرجن من الخيمة بالتتابع . المياه تنساب من عين السعادة فى تؤدة ، ويسمع صرير الحشرات فوق الأشجار. ولدى خروجهن أذت عيونهن الشمس التى تغمر كل أرجاء الأرض من فيض نورها ، لأنهن مكثن طويلاً بالخيمة .

فى الظهيرة ، تتبخر المياه فتبدو الخيمة شديدة الحرارة كأنها فرن ، لكن الفتيات لفرط إرهاقهن من اللعب رحن فى سبات عميق. حلمت " شيا ولينغ "، فرأت فى منامها أنها لا تطيق حرارة الجو ، فتمنى نفسها بقطعة من الآيس كريم ، فذهبت إلى كثير من محلات المرطبات لتشترى ، لكنها فى كل مرة كانت لا تجد ، وأخيراً عثرت على قطعة فاشترتها ووضعتها فى فمها وبينما كانت تهم بتناولها نادى عليها بعض الشبان: "افتحى الباب"؟

"ألم تستيقظى بعد ؟ الحر سيقتلك "

جاء تشانغ شى تشون ورفاقه لدعوة الفتيات للذهاب إلى قصر الصيف ، بينما راحت "شياو لينغ " تقص رؤياها وهى متذمرة، اعتذر لها الشبان وقالوا إن كلاً منهم على استعداد لأن يشترى لها قطعة من الآيس كريم بمجرد وصولهم إلى قصر الصيف.

قالت " يانغ تشيانغ يون " بلهجة تنم عن الكبرياء : "إنكم أكرم من اللازم ، ولكن هل يمكن شراء آيس كريم فى الأحلام بالفلوس؟ "التقط « تشانغ شى تشون » أطراف الحديث وقال "سوف أهب لك عن طيب خاطر حقى فى أكل الآيس كريم فى الأحلام طول العمر ، إذا ما دعوتنى مرة واحدة على تناوله فى الحقيقة! "

ضحك الجميع ، وبدا أن " تشانغ شى تشون " كسب الجولة.

" وتشانغ شى تشون " هو عضو لجنة الشبيبة بالمدرسة الثانوية رقم ٦٥ ، وقد تخرج منها هذا العام واشترك فى امتحانات الترقى إلى الجامعة ، وهذه هى المرة الأولى والأخيرة أيضًا التى يشارك فيها فى المعسكر خلال عهد المرحلة الثانوية، وتربطه " بيانغ تشيانغ يون " صداقة قديمة ، وقد التقت به الأخيرة لأول مرة خلال ندوة أدبية نظمتها لجنة الشباب بالمدينة فى العطلة الصيفية للسنة الماضية وكان " تشانغ " مرتديًا ملابس قديمة ، ويتحدث بصوت جهورى مجلجل ، ويثبت آراءه ومشاعره وانطباعاته بطريقة مؤثرة ، بل إنه راح يقارن بين العيوب الفكرية فى شخصه وفى شخوص الرواية ، وكانت الفتيات تعجبهن جرأته وبساطته ، وفى نفس الوقت شعرن بأنه جاد أكثر من اللازم فأخذن يبتسمن ابتسامات مستترة. وأخذ " تشانغ " ينتقد الرواية بشدة ، وعدد بعض مساوئها فقال : "عمل غير ناضج"

وأثناء الاستراحة تحدث " تشانغ " مع " تشيانغ " بلا تكلف ، فقال: "هل النقد الأخير فيه شىء من الإفراط ؟ لا فائدة ، فقد أفلتت الكلمات من فمى " ، فلم تتمالك " تشيانغ يون " نفسها من الضحك من كلام تشانغ الذى يكاد لا يختلف عنها فى طباعه الشخصية.

وبعد أن انتــهت النــدوة ، هطــلــت الأمطار بغزارة ، وكانت "تشيانغ يون" قد ركبت الترامواي وعندما توقف فى أول محطة ، أطلت برأسها فرأت " تشانغ " قادمًا من بعيد ، راكبًا دراجته يسابق بها الريح غير مبال بالمطر ، ليس معه شيء يقيه من الأمطار ، وهو يقبض بقوة على "جـدون" الدراجة بإحدى يديه ، بينما راحت يده الأخرى تلملم شـعره ، وقد تشـبعت ملابسـه بالمطر . اقترب من التـراموای. رآها، فنادى عليـهـا بصوت عــال كأنـــه صديـــق لها "يانغ تشـيـانغ يون" . وضحكت تشيانغ يون وقالت : "ياله من نضال شاق وصراع مرير !" وكان آنذاك قد سبق الترامواى بدراجته فالتفت ملوحًا بيده ورد عليها : " إذن اقتدى بى " .

ورآته " تشيـانغ يون " من جديد فى أول أيام المعسكر ،كـان عـارى الظهر ، يقود زملاءه ، يحملون القش ، وينقلون ألواح الخشب ، ويدقـون المسامير ويقيمون دعائم الخيمـة، والعرق يتصبب من جبينـه فحيّته " تشيانغ يون " قـائلة: "يا مثال العـمل الصادق ، أمـازلت تذكرنى؟" رد تشـانغ " قائلا ": إن مـلامح وسمـات حضرتك لا يمكن أن أنساها طيلة حياتى !"

وصلوا جميـعا إلى قصر الصـيف ، وتشاوروا فيما بينـهم ، وقرروا أن يذهبوا أولاً ليلعبوا بعض الوقت عند الجبل الخلفى ، اندفعـوا إليه عدوًا وقـفزًا فصـاحت " يوان تشن تشى " فى لهجة توبيخ قائلة : "ماذا بكم؟ هل أمركم أحد بالركض ؟ ألا يمكنكم أن تمشوا الهوينى حتى تستمتعوا بسحر الطبيعة؟"

مد أحد الطلاب قدمه خلسة أمام " يوان شن تشى " ، فـتعثرت فيها ووقعت على الأرض ، فصـفق الجميع فى نشوة وسـعادة وأنشد تشانغ شى تشـون بيتين من الشعر تعليقًا على ذلك :-

وقعت الفتاة وقعة رائعة ،

والفتية يتضاحكون على الجانبين،

كلهم بوقعتك هذه أكثر سعادة،

من نشوتهم بسحر الطبيعة وجمالها.

وأخذوا جميعًا يعدون بسرعة، قلوب الشباب المتحمسة لا يرضى طموحها حتى الطيران فى الهواء بأجنحة ، فكيف إذن نتحدث عن مشى الهوينى ؟ فلتتعانق ظلال الصنوبر ، ولتدر الأبراج والجواسق الذهبية ، ولتتراقص جونلات الفتيات.

وفى طريق العودة، مشت " تشيانغ يون " مع " تشانغ شى تشون " ، وقد رددا كثيراً من الأغنيات ، وتبادلا الرأى والإعجاب ، ثم تبادلا زهور اللبلاب وسألها تشانغ : "هل ستقدمين شيئًا فى برنامج هذا المساء؟ "غمزت "تشيانغ يون" بطرف عينها وارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة.

* * *

جلست الفتيات على الأرض على شكل نصف دائرة فى انتظار الإعلان عن حفل إيقاد شعلة المعسكر، تتكدس أكوام عالية من الحطب تنبئ بأن النيران سوف تكون ملتهبة وحامية. أخذ الشبان الحاضرون يسكبون الكيروسين فوق أكوام الحطب تارة وتارة أخرى يجهزون الرمل والماء استعدادًا لإخماد النيران عند الطوارئ، وتقدم أربعة من الطلائع: ولدان يرتدى كل منهما قميصًا نظيفًا ناصع البياض وشورتًا أزرقًا وبنتان ترتدى كل منهما قميصًا أكثر بياضًا "وجونلة" وردية اللون ، وفى يد كل منهم شعلة ، تقدموا وسط ضجيج الطبول وعجيج الأصوات وأضرموا النيران فى أكوام الحطب فى لحظة واحدة، فأحالت أرض المعسكر حالكة الظلمة إلى نهار قرمزى اللون ، كما انفجرت من بين الهدوء الذى يسود الحاضرين جميعًا عاصفة من التصفيق والتهليل، ورغم علمهم بأنه ليست هناك جوائز على قوة الحناجر، فإنهم جميعًا راحوا يهتفون بأعلى صوت وكأنهم يعيشون مباراة حامية لأنهم يعلمون أنه إن لم يفعلوا ذلك فسوف يفتر الجو الحماسى لمعزوفة افتتاح حفل الشعلة المهيب.

استمدت أكوام الحطب الحمية من حماس الفتية المتوقد ، فاندلعت منها ألسنة اللهب، وانتشر النور والنار، الدخان وبخار الماء وساد المنطقة لون النار الأحمر ، الشرر يتطاير تباعًا كأنه يتسابق قفزًا ورقصًا، فينتشر ويتلاشى ، ثم يظهر فى الأفق آلاف الشرر الصغير من جديد.

جلست " سونينغ " بجوار " يانغ تشيانغ يون " ، وجهها نحيف ، عيناها ، أنفها ، أذناها ، فمها ، كلها صغيرة ونظراتها وادعة لكنها حائرة، شعرها مجعد ضارب إلى الصفرة ينم عن ضعف صحتها - وهى مقارنة " بتشيانغ يون " تبدو أكثر ثقة بنفسها. لم يقيما معًا فى خيمة واحدة ، فمر اليومان الأولان وكل منهما فى حال سبيله. ولم تذكرها " تشيانغ يون " إلا فى هذا المساء حيث أحست فى نفسها بشىء من الأسف ؛ إذ خطر ببالها أن صديقتها سونينغ انتابها شعور بالوحدة والغربة عند قدومها ، لأنها لم تكن فى انتظارها ، فجاءت خصيصًا للبحث عنها والحديث معها.

قالت " سونينغ " لتشيانغ يون " وهى تمسك بيدها : "انظرى إلى هذا الشرر، كم يتطاير عاليًا، وكم هو جميل ومتعدد الأشكال ، لكنه للأسف لا يدوم طويلاً ، وإلا . . . . ".

أجابت تشيانغ يون وكانت مستندة إليها : غير أننى أحب النار، والشرر هو وليد النار "ثم انتصبت قامتها واستقامت بجذعها وتلفتت حواليها باحثة عن " تشن بوا " التى لم تكن موجودة فى المكان بطبيعة الحال ، لكن " تشيانغ " لا تزال ترغب فى البحث عنها ، لأنها ترى أن وجودها يبعث جوًا من السعادة . وربما كنت تبحث عن شخص غيرها من بين المحيطين بها .

بدأ البرنامج الفنى للحفل ، وكانت المفاجأة الأولى هى الرقص على دقات الطبول ، الذى قدمته الفرقة الائتلافية من خمس مدارس ، ورغم وجود شىء من الارتباك ، فقد أثاروا حماسة الحاضرين بعددهم الكبير ، وأزيائهم الجميلة ، وحيوتهم المتدفقة ، وأصوات طبولهم المجلجلة. وبعد انتهاء الرقصة ، انحنوا جميعًا بكل إخلاص أمام جماهير المشاهدين تحية لهم ، مما أثار حمية المتفرجين فراحوا يصفقون لهم بحرارة، ومنهم من أخذ يردد "تانى ، تانى " !

ثم جاءت فقرة الغناء الجماهيرى ، فكانت هناك الأغنيات الجماعية ، والأغنيات الفردية ، والأخرى الثنائية منها " تفتح أزهار الفراولة "باللغة الروسية ، وأغنية "أغصان شجر البرتقال" باللغة الكورية ، اللتين قدمهما الفتية بصوتهم الجهورى القوى والفتيات بصوتهن الرقيق الناعم فتناغمت فى سيمفونية رائعة. أما الرقصات فقد كانت "رقصة استقبال الربيع" هى أكثرها قبولاً واستحسانًا لدى جمهور المشاهدين.

" نرقص فى نشوة فى ظل العلم الأحمر ذى النجوم الخمسة، ونستقبل الربيع الساحر فى سعادة غامرة " ، أخذ الجميع يغنون عندما جلس طلاب الثانوية وطالبات الإعدادية القرفصاء ، ومدوا أذرعتهم وراحوا يميلون برؤوسهم ذات اليمين وذات الشمال ، وبدت شعلة المعسكر ، والناس ، والأرض والسماء وكأنها تتراقص وتتمايل فرحًا مع رقصاتهم السعيدة .

سُمعت أصوات حركة فى الركن الأيسر من المعسكر ، جذبت أنظار الجميع وأخذوا يتساءلون فيما بينهم عما حدث ، وفى الحال عرفوا أنهم نفر من الكتاب من معهد الشباب للفنون المسرحية ، قدموا لدراسة وبحث الحياة فى المعسكر.

أومأت " يانغ تشيانغ يون " مشيرة إلى أن حياة المعسكر جديرة بالدراسة ، وجديرة بالتسجيل ، ولكن من الذى تتوفر لديه القدرة على فهمها فهمًا تامًا ؟ فهى على سبيل المثال ، ألهبت شعلة المعسكر حماستها ، وخفق قلبها بين ضلوعها من فرط السعادة. ولكن ماذا بعد ؟ إنها سوف تلقى أبياتًا من الشعر بعد لحظات ، ولكنها قالت فى نفسها إن هذا ليس إلا شيئًا يسيراً ، ويجب أن نكون جديرين بكل هذه الأشياء : نعمة الحياة ، حب الأصدقاء، والليلة التى لا تنسى . . . .

أعلنت مقدمة البرامج أن " تشيانغ يون " ستلقى أبياتًا من الشعر ، بيد أن " تشيانغ يون " بقيت قابعة فى مكانها سابحة فى تفكيرها وكأنها لم تسمع شيئًا ، حتى استحثتها سونينغ ، فانتفضت ، وانطلقت فى شيء من الارتباك نحو منتصف الحلقة.

كانت شعلة المعسكر متأججة بجوارها ، والطلاب يلقون من حين لآخر بمزيد من الحطب فى أتونها الملتهب ، وهى واقفة وأمامها صفوف من زملاء الدراسة، وجوه كثيرة ، منها ما هو مألوف لديها ومنها ما هو غريب عنها ، ومن فوقها أرخى الليل سدوله ، تخترقها أضواء الشعلة. رويداً رويداً ، أخذت " تشيانغ يون " تنصرف عن ألسنة اللهب وجموع الناس ، وأطلقت لبصرها العنان نحو الأفق البعيد. وراحت الكلمات تنساب من بين شفتيها فى صوت هامس متهدج :

أمسى اللسان عاجزاً عن وصف لحظة سعادة ،

لحظة انطلاق الشعلة ، واجتماع الرفاق ،

لحظة انطلاق الأغنيات تمزق حجب الليل،

توقفت برهة من الوقت ثم عاودت الإلقاء بإيقاع أسرع :

إننى أحب الشعلة ،

أحب الليل ،

أحب المدرسة ،

أحب الحياة.

ولفرط نشوتها ، احمر وجه " تشيانغ يون " ، واختلجت نبضات قلبها ، واغرورقت عيناها بالدموع . ثم رفعت رأسها.

.. ..

.. ..

أخذت تتمتم بكلمات هى نفسها لا تعيها ، فقط أحست بمشاعر وأحاسيس دافقة تنهمر من ألسنة اللهب، من الرفاق ، ومن كل ما حولها لتصب فى عقلها وقلبها ، حتى إن أشعارها التى تعتبر من الأعمال ضعيفة المستوى اكتسبت رونقًا جميلاً من خلال الغناء الجماعى المتناغم مع زميلاتها:

آه ! كيف يتناقص الحطب رويدًا رويدًا !

وما لألسنة اللهب تتصاغر شيئًا فشيئًا !

الشرر حائر ، لا يعلم أين المستقر ،

الأغنيات ، الرقصات على كثرتها ستنتهى ،

لكن أشعارى باقية ،

ومدائحى خالدة إلى أبد الآبدين،

شبابنا دائم ، شبابنا متأجج ،

شبابنا دائم ، شبابنا متأجج،

وعادت " تشيانغ يون " إلى مكانها وسط عاصفة من التصفيق وجلست لا تستطيع أن تميز وجوه الأصدقاء الضاحكة ، وأصواتهم المختلجة ، فقد ذابت بكل كيانها ووجدانها معهم فى خضم بحر هائل من النشوة والسعادة.

انتهى الحفل واتجهت الفتيات إلى خيامهن، يمشين بخطى وئيدة بينما تدور أعناقهن يلقين نظرة على الهشيم والعمال المشغولين. قالت "سونينغ" فى تأثر شديد: "كنا سعداء طوال حفل الشعلة ، لكننا لسنا سعداء عند انتهائه " . ردت " تشيانغ يون " : "لن ينتهى " ثم ذهبت كل منهن إلى فراشها بعد أن قلن لبعضهن : "إلى اللقاء غدًا"

انتصف الليل ولكن لم تكن أى منهن ترغب فى النوم، وخاصة "تشيانغ يون" التى لم تجد عيناها إليه سبيلاً ، فهى منذ نعومة أظافرها غير مولعة بالنوم ، إذ تحس عند النوم كأنها سقطت فى هوة سحيقة مظلمة ، وفى هذا اليوم بالذات لم تكن عندها أدنى رغبة فيه مما حدا بها أن تضع معطفها على كتفيها وتتسلل إلى الخارج.

كان القمر ساطعًا فى صفحة السماء ، يرسل ضياءه من بعيد نحو الخيام فيبسط ظلالها على الأرض، والمكان الذى كان يعج بالضجيج من لحظات بإقامة حفل

الشعلة، لم يعد فيه الآن أثر لشيء ، وبعض الخيام ينبعث منها همس خافت والبعض الآخر يضج بأصوات الشخير.

اتجهت " تشيانغ يون " إلى بوابة المعسكر حيث يقف حارس صغير السن متكئا على عصا، سائلاً على استحياء : "كلمة السر !" فأجابته وخرجت وندمت على أنها لم تقل له "لا أعرف" لترى ماذا هو فاعل. اقتربت من الحقول المروية وهى تنظر فى أسف إلى مساحات كبيرة من نبات اللوتس وقد ذبلت زهوره وثماره التى لم تنضج بعد، مشت بضع خطوات ثم جلست فوق صخرة من الحجر.

سمعت صوتًا ينادى "يانغ تشيانغ يون " فالتفتت ، وإذا " بتشانغ شى تشون " قد تسلل هو الآخر خارجًا من خيمته ، نادى عليها ثانية " "يانغ تشيانغ يون ، هل ترينني ؟"

"نعم أراك وأنت فى ضوء هذا القمر الجميل ، ولكن ماذا تفعل الآن؟ "

"أردت أن أستمتع برؤية السماء الصافية . وأنت ؟ "

أجابت " تشيانغ يون " والابتسامة على شفتيها وضوء القمر يتسلل من بين أوراق الشجر ليسطع على أسنانها البيضاء : "أنا؟ أردت أن أمتع نظرى برؤية الأرض الخضراء".

صمتا برهة من الوقت ثم طقطق " تشانغ " الأصبع الوسطى من يده اليمنى وقال:

"لقد كان إلقاؤك للشعر رائعًا .... "

هزت " تشيانغ يون " رأسها فى دلال.

وواصل تشانغ حديثه فى ارتياح قائلاً: " فى فترة مقاومة الاختلاس والإسراف والبيروقراطية كنت أحرس أحد المختلسين ولصوص المال العام، وعندما انتهيت من نوبتى فى الحراسة فى إحدى الليالى وسلكت طريق العودة إلى غرفتى ، رفعت رأسى وقلّبت بصرى فى صفحة السماء فإذا بالقمر الساطع المتلألئ يأخذ بالألباب ،

فمنيت نفسى وقتها أن أجد فرصة أمتع فيها ناظرى بجمال القمر وسحره لوقت أطول" .

"ألم تتحقق أمنيتك اليوم؟"

"لكنى اليوم أرى كل شىء من حولى قد تغير تمامًا ، السماء ، القمر ، الشجرة ، كلها تبدو كأنى أراها لأول مرة ، وهذا الشعور هو مبعث السعادة الكبرى" .

"حقًا . إن كل شىء يبدو منسجمًا تمام الانسجام" . . . . "

" وكل شىء يبدو أجمل مما نتخيل " ، وربتت " تشيانغ يون " فى تأثر على يد " تشانغ شى تشون " ، تلك اليد التى انتشرت فيها "البرابيق" وقالت : "أتدرى يا تشانغ؟ عندما سرحت ببصرى نحو سقف خيمتى التى أرقد تحتها ورحت أتخيل السماء الصافية والبرك المليئة بنبات وأزهار اللوتس، تذكرت إجازتنا الصيفية، وتذكرت عهد الثانوية التى اجتزتها أنت بينما أنا لم أجتزها بعد ، فأحسست أن السعادة ترفرف حولى من كل جانب وعجزت عن أن أكفكف دموعى . . . . " .

(٢)

طالعت عـزيزى القارئ فى مـعرض روايتى هذه حـديثى عن طالبات الفـصل الأول من الصف الثانى بالمدرسة الثانوية السابعة للبنات.

فقد التحقن بالمدرسـة الإعدادية فى النصف الثانى من عـام ١٩٤٧ ، فى عهد الظلام قبل أن يشـرق فجر التحـرير ، وحيث كفاح الشـعب الصينى البطولى الرائع الذى لم يسبـق له مثيل، ذلك الكفـاح الذى توج بالنصر فى النـهاية. وكنَّ آنذاك عاجزات عن إدراك الكثـير من الأمور لحداثتهن ، إلا أن الأحداث القـاسية والنضال المرير والاضطرابات والقلاقل التى صاحبت انهيار العهد القديم ورياح الثورة العاتية، كل ذلك حرمهن السـعادة والدعة وراحة البال فى طفـولتهن ، بـل تركت كل هذه الأحداث آثارًا قـاسية فى قلوبهن ثقيلـة على نفوسهن ، لا زلن يذكرن كـيف كانت الأسعار ترتفع ثلاث مـرات فى اليوم الواحد خلال تلك الفترة ، وكـيف كان شبح المجاعة يهدد كل بيت. رأين بأمـهات عيونهن البيروقـراطيين ذوى الكروش المنتفخة يأخذون المحظيات فى أحضانهم ، واللصوص يسطون على المنازل فى وضح النهار، والمدرسين ينتـحرون تحت عـجلات القطار، وأولئك الذين كـانوا يجوبون الـشوارع بالعربات اللورى يشهرون فى أيديهم الأسلحة البيضاء ممثلين لقوات الجيش والبوليس والشرطة العسكرية ليقوموا بدور "عشـماوى" ولهم سلطة تنفيذ حكم الإعدام فيمن يلقون القـبض عليهم من المشـبوهين. استطعن أن يفـهمن بسهـولة المغزى الحقـيقى للعناوين التى كانـت تتصدر صفـحات الجرائد مـثل "القوات الحكوميـة تنسحب من مواقع القتال" ، "مصادمات بين الطلاب وقوات البوليس" "فلان مفقود" ، وكانت منهن من تقف على جنبات الطريق تراقب من بعـيد بكل مشاعر التعـاطف والتأييد والاحترام مظاهرات طلاب الجامعة الصاخـبة وهم يكتبون بالبويات الشعارات المناوئة لحكم "الكومينتانغ"[1] فى كل مكان.

(١) الكومينتانغ : هو الحزب الذى كان يرأسه تشانغ كاى شيك قبل الثورة الصينية عام ١٩٤٩ التى قادها ماوتسى تونج واضطر على أثرها تشانغ كاى شيك أن يهرب إلى تايوان .

وكانت مديرة المدرسة آنـذاك زوجة أحد أعضاء اللجنة التشريـعية ، ولـم تظهر منذ أن بدأت عملها سوى مرة واحدة خرجت فـيها تعاين أحوال المدرسة يوم إعلان تعيـينها، وبعد انتـهائها من عـملية تفقـد أحوال المدرسة وكـانت أحاديث المدرسين والطلاب والموظفين والعمال جميعًا تدور حول بدانتـها وشحومها المترهلة، وقد أذاع الأسـتاذ " يوان وين داو "- والد الـطالبة " يوان شن تشـى " - وهو معلم قـديم ومخضـرم - أذاع سرًا عن مديرة المدرسة هذه فقـال : إنها لا تزيد كثيـرا عن كونها أميـة جاهلة ، حيث إنهـا أثناء جولتهـا لتفقد أحـوال المدرسة سألت مـدرس اللغة الصينية عن مـسقط رأس "تساوده تشو"[١] كما سألت مدرس التربـية الرياضية عما إذا كانت الفتيات يستطعن ممارسة رياضة القفز بالزانة.

وكـان رئيس شـؤون الطلاب الملقب بالسـيـد هوانغ " غليظ الشـفـتين " هو صاحب السـلطة الفعليـة فى المدرسة ، وكان فـى أوقات سروره يطيب لـه أن يقول للطالبات

"لـقد كـان لى شرف مـصـافحة الرئيس تشـانغ كاى شـيك" . وفى أوقات غضبه يقول :

"إذا أخطأتن ستضربن كـالعادة ضربًا مبرحًا حتى تمشـين زحفًا ولن يشفع لكن أنكن آنسات . "

وكان " نيومـاتسه "مدرس التربـية الرياضية كثـيرًا ما يشرب الخـمر مع هوانغ غليظ الشفتين، وقـد سبق له أن تولى رئاسة إحدى اللجـان الفرعية لتنظيم الشبـيبة المنادى بالقومية، وحياة أفضل لجمـاهير الشعب، وحكم الشعب نفسه بنفسه، وذلك

(١) عاشت تساوده تشو فى أسرة هـان الشرقية وهـى أديبة وأستاذة فى علم التاريخ واشـتركت فى تأليف كتاب "تاريخ الصين فى عهد أسرة هان الشرقية" .. ومسقط رأسها مقاطعة جيانفشنى. وكانت تقوم بتعليم الإمبراطورة (زوجة إمبراطور الصين فى ذلك الوقت) واسمـها الحقيقى بان تشوه ولكن أطلق عليها اسم تساو نسبة إلى زوجها. انظر قاموس الأدب الصينى القديم "المجلد الأول". صفحة ٢٣٨ .

فى بداية عـهد حزب الكـومينتـانغ . ولكن سرعـان ما ساءت سـمعـة التنظيم بين الأوساط الطـلابيـة ، ومن ثم لم يعد يسمع بأنه استـمر فى رئاسة اللجنة الفـرعية لهذا التنظيم .

وبصفة عامة يمكن تصنيف الطالبات آنذاك إلى أربعة أصناف: الصنف الأول ، وهن مخلصات منكبات على دراستهن فى جد ومثابرة غير عابئات بالأخريات لأنهن ينتمين إلى أسر فـقيرة يتهددهن من حين لآخـر خطر فقد فرصتـهن فى التعليم فى المدارس الثانوية الحكومـية ما لم يجـتزن المرحلة الإعدادية بدرجات عـالية ، وذلك لأنهن عاجـزات عن تحمل نفـقات الدراسـة بالمدارس الخاصة. والصنف الـثانى هن بنات الذوات ، وكن يكرهن الرياضيـات ويخشين ممارسة التربية البـدنية ولا يجرؤن على تشريح ضفدعة ، بل لا يحتـملن رائحة غاز الكلور أو ثانى أكسيد الكربون ، ولكن يهوين قـراءة القصص مـثل "الحب الحرام" ، "الحب الحلال قـصير العـمر" ويطيب لهن أن يغنين أغـنية "امـشى الهوينـى" ويحببن ارتداء الأزياء ذات الموضـة المستوردة من أمريكا وهونج كونج.

وفى الشتـاء يلبسن الملابس الغربية المعـروفة باسم "الملابس الذرية"(١) وهـى بنطلون قصير وجاكت ضيق مبطن بالقطن ، كما كن كثيراً ما يتمارضن ليضجعن فى الفراش حيث يحلو لهن الثرثرة ومضغ الـلبان، وقد يحدث أن تتوقف قلة منهن عن الدراسة فجأة للتزوج من الأزواج الأرامل أو ليمارسن دور "فتاة السيارة الجيب"(٢)

وقد كـانت هناك شرذمة من حـثالة المجتـمع تضم مسؤولة اتحـاد الطالبات من المناطق المنكوبـة (مناطق التـحرير) ، وابنـة إقطاعى هارب، وعـضوة فى عـصـابة

(١) الملابس الذرية: اسم أطلقه الكاتب على الملابس التى تواكب أحدث مـوضـات تفـصـيل الأزياء فى العالم ، وهذا تشبيه مستعار من عصر الذرة فى ذلك الوقت.

(٢) فتـاة السـيارة الجيب : تعبير استـعمله الكاتب كناية عن الفـتاة التى تدع نفسـها نهبًا للغرائز الرخيصة والممارسات غير الأخلاقية.

الصعاليك (عـصابة مكونة من ثلاث عشرة فـتاة من الماجنات) ، وجاسوسـة الجهاز المركزى للإحـصاء ، وكثـيراً ما كان المدرسـون يتعاملون مـعهن بمبدأ اتقـاء مواطن الشبهات والبعد يولد الاحترام.

وخلاف أولئك هؤلاء كـان هناك نوع آخر من الفتـيات وهن عضـوات بالحزب الشيوعى وتحالف الشباب الديمقراطى[1]

ويقمن بدور بارز فى توحيد صفوف الجماهير وتنمية خلايا التنظيم وذلك تحت قيادة وإشراف الـتنظيمات السرية التابعة للحـزب ، وقد كوّنّ تنظيما شرعـيًا فى عام ١٩٤٧؛ لجنة الحكم الذاتى للطلاب التى تقوم بتوزيع الطـلاب فى إجازة الشتاء على مجموعات التقوية التى يقوم بها طلبة الجامعات التقدميين، وقد دعتهم إلى الاشتراك فى مهرجـان طلاب بكين وتيانجين، وكان من أنشطتهـا أيضا إنشاء مكتبة صـغيرة. ولكن لسـوء الحظ انكشف أعضـاء اللجنة أمام حـزب الكومينتـانغ الذى نسف كل جهـودهن،فبدأ فى أبريل عام ١٩٤٨ بجـامعة المعلمين ، ثم امـتدت يده إلى بعض المدارس المتوسطة حتـى جاء إلى مدرستهن فـألقى القبض على سبع عشـرة فتاة من عضـوات لجنة الحكم الذاتى للطلاب- كانت أصغـرهن طالبة فى الرابعة عـشرة من عمـرها - الأمر الذى شل أنشطـتها المشـروعة، كـما أجـبر الحزب بعض طـالبات المدارس الثانوية من عضوات التنظيمات السرية للحزب الشيوعى على الانسحاب إلى المناطق المحـررة ، بينمـا وضع البـعض الآخـر من الطلاب التـقدمـيين تحت رقـابة صارمة. ولم يتبق من أعضاء التنظيم سوى تشن بوا الطالبة بالصف الأول الإعدادى التى ظلت لفترة قصيرة علـى اتصال بالتنظيم السرى للحزب فى بكين ، وذلك حتى انضم للتنظيم دفعة جديدة من طالبات المدارس الأخرى فى شهر سبتمبر من العام نفسه.

(١) تحالف الشباب الديمقراطى : تنظيم سرى تابع للحزب الشيوعى الصينى إبان فترة حرب التحرير تحت قيادة اتحاد الطلاب الثوريين فى بكين .. وتيانجين ، بعد التحرير تغير الاسم من تحالف الشباب إلى اتحاد الشبيبة.

تنتمى " شن بوا " إلى أسرة بسيطة ، عمل والدها طول حياته موظفًا صغيرًا، ينسخ ويكتب ويجامل كل من يقابله دون أن يلقى تقديرًا من أحد. وفى ديسمبر من عام ١٩٤٥ ، حيث كانت فى الحادية عشرة من عمرها ، فقدت أباها الذى لقى حتفه تحت عجلات عربة جيب تابعة لجيش التحالف ، صدمه سائقها الأمريكى المخمور وهو يسير فى الاتجاه العكسى ثم استدار بالسيارة وقال له : "حسنًا " ولاذ بالهرب، أما أمها فكانت تقضى كل وقتها فى أعمال البيت، وكان أكثر ما يثير حفيظتها أن يأكل الفأر بقايا من فطيرة ، وأكثر ما يثير غبطتها أن تسرع من فور استلامها مرتب زوجها إلى شراء دقيق الذرة ،وبعد وفاة والدها انتقلت مع أمها لتقيما فى بيت خالها ، حيث كانتا تعانيان وطأة الشعور بالحياة عالة على الآخرين ، وكانت تعيش من تجارة والدتها فى الخردة وغسيل الملابس وحياكتها ومن قروض الإعانة ، وقضتا حياتهما على هذا النحو تشبعان يومًا وتجوعان يومًا.

وفى بيت خالها تعرفت على بنت أحد الجيران - " خوان لى تشينغ " - الطالبة بالمدرسة الثانوية السابعة للبنات، اصطحبتها خوان إلى جامعة بكين الواقعة فى حى شاتهان حيث شاهدتا المسرحية الكاريكاتورية "عودة المنتصر"، تلك المسرحية التى تستنكر الحروب الأهلية التى أشعل حزب الكومينتانغ فتيلها. وبعد انتهاء العرض اختلطت دموع المتفرجين والممثلين لفرط تأثرهم بها . وقد تعلمت " تشن بوا " أثناء دراستها فى الابتدائية أن تغنى أنشودة "لن تلين إرادتنا حتى وإن لان الحديد"، ثم التحقت هى الأخرى بالمدرسة الثانوية السابعة للبنات. وذات مرة اكتشفت أن هناك بعض الأمور التى تخفيها خوان عنها حيث أشرقت شمس الحقيقة أمامها فجأة لتجد نفسها لم تصبح بعد بين صفوف الجنديات المجاهدات ، بينما كان هناك كثيرون يذوقون صنوف العذاب بين جدران السجون وآخرون يقومون بأعمال ونشاطات سرية ، كانت تكتفى بغناء الأناشيد الحماسية، يا للعار! ذهبت إلى " خوان لى تشينغ " وقالت لها : "أريد أن أتحرك ، أريد أن أعمل " . اندهشت خوان وقالت فى تأثر: "أما زلت صغيرة بعد؟ "ثم صافحتها

وشدت على يديهـا ، وبذا انضمت تشن إلى تحالـف الشـــباب الديمقـــراطى فى فبـــراير من عام ١٩٤٨ ، وكانت آنذاك فى الرابعة عشرة من عمرها.

كانت الحياة فى بكين تغلى وتمور إبان التـــحـــرير . وكـــانـــت " تشن بوا " تمارس نشاطاتهـا بكل قوة وحمـاس ، فكثيـراً ما كانت تذهب فى أوقـات الدراسة لتـلقى مكالمات هاتفيـة من اتحاد الطلاب، كـانت نائب قائد فـريق الغناء الكورالى ورئيس فريق الطلائع التجريبية النموذجية.

وبينما كانت تسـتغرق فى أداء مهامهـا ، كانت تحلم أيضا بالذهاب إلى تايوان فى مهمات سرية حـيث إنها صغيرة السن ويسهل عليها التـخفى والهروب من رقابة العدو ، لكن ذلك لم يحدث بالطبع.

وفى عام ١٩٥٠ ، عـادت الحيـاة المدرسيـة إلى مجـراها الطبيـعى وبدأ الناس يلتقطون أنفاسهم اللاهـثة ويمنون أنفسهم بغد يسوده السلام وتغـمره السعادة ، لكن سرعان مـا أفزعتهم نـيران الحرب الكورية فهـبُّوا من جديد يشكون العهـد البائد ، ويقومون بالحملات الإعلامية فى الشوارع مـتحدين العواصف الرملية ويشتركون فى المناقشات السـاخنة ، ويحضرون حفـلات توديع زميلاتهم الطالبات المشـتركات فى المعاهد العسكرية. بعد ذلك جاءت حركة مقاومة الإسراف والرشوة والبيروقراطية ، وتم كشف بعـض المرتشين فى المدرسة ، وكـان كثيـر من الطالبات لا يغـمض لهن جفن للقيام بأعمال الحراسة والمراجعة والإحصاء. ثم أصـبحت " تشن بوا " عضواً فى الحزب الـشـيوعى الصيـنـى بعد انتـهاء هذه الحركة.

وفى أوج مراحل حركة مقاومة الإسراف والرشوة والبيوقراطية، اعتادت " تشن بوا " ونخبـة من خيرة زمـيلاتها نوعـًا من الحياة غـير العادية : فـأثناء الدراسة كن يستمعن إلى شرح المدرس وفى الوقت نفسه يركزن انـتباهن على نظرياته المبهمة غير واضحة المعالم.

وفى غير أوقات الدرس يعـقدن كثيراً من الجلسات والاجتـماعات، وفى المساء بدلاً من مراجـعة وتحضيـر دروسهن يذهبن لسماع المحـاضرات والندوات والمؤتمرات الكبرى.

زد على ذلك أنهن لم يضعن فى اعتبارهن المنهج الدراسى، بل كـن على أهبة الاستـعداد فى أى وقـت لتلبيـة تعليمـات وتحركـات التنظيم ، للعمل فـى كوادره والاشتراك فى صفـوف جيش التحرير ، للذهاب إلى منطقة جنوب نهـر اليانجتـسى أو حتى الانضمام إلى صفوف الحرب الكورية.

حملن من المسؤوليـات أضعاف ما تنوء بحمله كواهل شـابات أخريات فى مثل أعمارهن ، كن يتحلين بما يتـحلى به شباب البلشفيك من روح حمـاسية وبطولية ، يجتـهدن فى عملهن ليـل نهار، مضت ثلاث شـهور متـواصلة دون أن يرجعن إلى بيـوتهن ، خلعن عن أنفـسهن ثيـابهن الجـميـلة ، تنازلن عن طعـامهن وأمـوالهن لزميـلاتهن اللاتى يعشن ظروفا صعـبة ، كثيـراً ما يراجعن أفكارهن ويقـمن بالنقد الذاتى ولا يفـوتهن تسجيل يـومياتهن يومـا بيوم ، وإذا مـا قلبت الغلاف الأحـمر لإحدى هذه اليوميات ، ثم صـورة الزعيم ماوتسى دونغ ، وقعت عيناك على أحب الكلمات وأقربها إلى قلب صاحبتها والمكتوبة بالخط اليدوى الصينى.

(" إن أغلى ما يملك الإنسان حـياته . . . . فإذا ما استعـرض ماضيه ولم يندم على ما قضاه سدى من العمر ، ولـم يخجل لما بذله دون نتيجة ، يمكنه أن يقول لنفسه فى عز وكبرياء: لقـد وهبت نفسى لأروع قضـية فى تاريـخ البشـرية ألا وهى قضية النضال من أجل تحرير الشعوب. ")

وربما وقعت عيناك أيضا على كلمات أغنية تحبها مثل :

شبابنا متأجج كشرر النيران الأحمر،

يحترق فوق السهول البرية المليئة بالأشواك،

شبابنا مغوار ومقدام كطيور أعالى البحار،

التى تحلق فى الفضاء بين الأعاصير والأمطار . . . .

وإن لم تجد بصدر يومياتهن أية كلمات ، فإنك ترى على الأقل صورة منجل وفأس مرسومة بالحبر الأحمر الثقيل.

ولكن ماذا حدث الآن؟

إن تطلعات الإنسان كلما كانت عظيمة ، شعر بأنها بعيدة المنال، ولكن مع دوران عجلة الحياة تتحول الآمال إلى واقع ، وحينئذ يكتشف الإنسان أنه كان ينقصه الاستعداد الكافى.

والجنرال مكاس عندما كان يضع خطة "الهجوم فى عيد الكريسماس" قبل أقل من عامين جاء فى أحد التقارير المشهورة للحكومة الصينية "ثلاث سنوات للاستعداد، وعشر سنوات للبناء" ومن ثم كان الحديث عن الخطة الخمسية المزمع تنفيذها أشبه بحلم جميل ، حيث إن قلوب الشعب الصينى كانت لا تزال معلقة بأبنائه الصناديد بين صفوف جيش المتطوعين للشعب الصينى فى حرب كوريا ضد أمريكا، ولكن الآن وبعد أن تم بصفة أساسية إنجاز حركة الإصلاح الديمقراطى ، وبعد أن تم إحراز الانتصار العظيم على ساحة الحرب الكورية ، أصبحت أعمال البناء تتصدر قائمة الأولويات. وأصبح الموضوع العام الذى شملته الوثائق والتقارير وأحاديث الناس اليومية هو بداية "مد البناء الاقتصادى والثقافى بناء شاملاً مبرمجًا وعلى أوسع نطاق" لكن الوقت لم يمهلهم لاستقبال وتجربة هذه المتغيرات حيث جرفهم تيار الحياة بمشاكلها وتقلباتها السريعة.

وبينما كانت حركة مقاومة الرشوة والإسراف والبيروقراطية فى أوجها ، أحدثت "صحيفة الشعب اليومية" أثرًا مدويًا بين صفوف طلاب المرحلة الثانوية بالتقرير الإخبارى الذى نشرته تحت عنوان "نشأة مزرعة جماعية" ، فراحوا يرددون

وقد ارتسـمت على وجوههم ابتسـامات عريضـة "ستتـغير قـرانا عـلى نحـو هـذه المزرعة . . . . " ، وكان من الطبيعى أن تدور مناقشاتهم حول ترويض نهر "خواى" والمشروع الهندسى لمنع فيضان الجزء الأوسط لنهر اليانجتسى . وفى هذا العام أدخلت تعديلات على الأقسام داخل المعاهد الجامـعية ، وبدأ طلاب المرحلة الثانوية يحلمون بحياتهم الجامعية المستقبلية، ودعت لجنة رابـطة الشبيبة المركزية أثناء احتفالها بذكرى حركة الرابع من مايو خريجى المرحلة الثانوية إلى الاسـتعداد الجاد لخوض امتحانات التأهيل للالتـحاق بالمعاهد العليـا ، الأمر الذى لفت أنظارهم فبدأوا يتـحدثون عن رغبتهم فى الدراسة الجامعيـة خلال حديثهم عن بناء البلاد ، بينما كانت لجان رابطة الشبيبة الفـرعية تنظر حتى عهد قريب إلى من يتحدثون عن الالتـحاق بالجامعة على أنهم عناصر مـتخلفة. وفى عـيد أول مايو من هذا العـام ظهرت الفتـيات فى بكين لأول مـرة بملابسهن المزركـشـة ذات الألوان الزاهيـة ، والأكثـر من ذلك أن طلائع البلشفيك بدأوا يخططون ويحـسبون لحياتهم الطلابية فى المستـقبل ، فنجدهم يغنون "الإخوة والرفاق ، لنتطلع نحو العلا والمجـد ، نحو الحرية ! " وينشدون أيضًا فى نشوة وسعادة : "ما أجمل الحياة وما أكثر مباهجها . . . . . . دع النجوم المتلألئة تشع علينا من فيض نورها . . . . "

وقد شـعروا جمـيعًـا أن حياتهم ليـست سلسلة من النضال العنـيف المتواصل فـحسب، بل بدأت أيضـا تشهـد مراحل البـناء الاشتـراكى واسع النطاق والذى لم يشهده التاريخ من قبل .

إن طلاب المرحلة الثـانوية فى بلادنا يقـفون على أعـتـاب مرحلة جـديدة من مراحل التاريخ.

(٣)

أول سبتمـبر ، الشوارع مكتظة بالطلاب يحملون حقائبـهم المدرسية ، الإذاعة تبث كلمة وزير التعليم للتهنئة بالعام الدراسى الجديد، أبواب المدارس مزدانة بلافتات الترحيب بالطلاب الجـدد ؛ فقد بدأ فى بكين والصين كلها بل فى مـعظم بلاد الدنيا عام دارسى جديد.

"أصبـحت تلمـيذة بالإعـدادية " ، "أصبـحت طالبة بالثـانوية " "التحـقت بالصف الثالث الثانوى، وما هو إلا عـام دراسى واحد حتى أتخرج" . هكذا رددت الفتيات وقلوبهـن تفيض سعادة وبهجة بفرحـة الانتقال إلى الصف الدراسى الأعلى وكأنهـن شعرن أنهـن كبرن فـجأة وزدن ذكـاء ومهـارة بسبب ارتقـائهن إلى الصف الدراسى الأعلى، بينما العكس هو الصحـيح ، ومن غير الطلاب يستطيع أن يدرك بثقـة وثبـات لا يتزعـزع " أن ارتقاءهم إلى المرحلة الأعـلى يقربهم يومًـا بعد يوم وعامًا بعد عام من المستقبل المشرق والغد المأمول؟ "

لكـن مـشاعـر " تشن بوا " فى الـيوم الأول للدراسة كـانت متبـاينة ، حيث شعرت بشىء من القلق بسبب الإعلان التالى الذى قرأته على لوحة الإعلانات:

من أجل حث الطالبات على الاجتهاد فى الدراسة قررت إدارة المدرسة التالى:

١- منح ميداليات للطالبات المتفوقات دراسيًا.

٢- تمنح الميداليات طبقًا للشروط التالية:

أ-.... .....

ب-..... ....

٣- سوف يعقد اجتماع مشترك للأساتذة والطلاب فى الساعة الثانية بعد ظهر السبت القادم بصالة الاجتماعات بالمدرسة وذلك لتوزيع الدفعة الأولى من ميداليات التفوق الدراسى ، برجاء الحضور فى الموعد المحدد.

ثم توقيع ناظرة المدرسة والوكيلة.

قرأت " تشن بوا " شروط الحصول على الميداليات عدة مرات، ولا يمكن القول بأنها صعبة، لكنها لم تصل بعد إلى مستوى هذه الشروط ، وقد حدث أن تغيبت كثيرًا عن دروسها لأكثر من شهر فى بداية النصف الأول من العام الدراسى ، وخلال هذه الفترة كانت نتائج امتحاناتها سيئة نظرًا لانشغالها فى مساعدة لجنة الترشيد والمتابعة فى عمل الإحصاءات حيث لم تكن حركة مقاومة الرشوة والإسراف والبيروقراطية قد انتهت بعد، وبعد ذلك اجتهدت واستجمعت طاقاتها ولكن المتوسط العام فى مادتين لم يصل إلى المستوى الأول المطلوب تحقيقه، وراح كثير من الزميلات اللاتى قرأن الإعلان تعلقن عليه بلهجة لا تخلو من المزاح والسخرية كعادتهن دائما عند قراءة أى خبر جديد :

"ما فائدة هذا الإعلان ، على أى حال ليس لى نصيب من هذه الميداليات" .

"من فى فصلنا فى اعتقادك يمكن أن تحصل على ميدالية ؟ ربما . "

"ترى ما شكل هذه الميداليات ؟ وهل هى جميلة أم لا ؟ " .

"ما أشد حرج أولئك الطالبات المتفوقات فى السياسة والمتخلفات فى الدراسة هذه المرة " .

كان لهذه العبارة الأخيرة وقع شديد على الأسماع ، مما لفت أنظار "تشن بوا" إلى قائلتها فإذا بها " لى تشون " قصيرة القامة التى ترتدى معطفها الرمادى وقد دست يديها فى جيبها ومالت برأسها الضخم كأنها تبدو - فى هيئتها هذه - فى قمة

اللامبالاة وعدم الاكتراث ،وما إن نظرت " لى تشون " حتى رأت " تشن " أمامها فغمزت بطرف عينها وسألتها فى صوت عال : "أجئت من فورك ؟ عسى أن تكونى قد استمتعت بإجازة الصيف ! "

اقتربت " تشن بوا " منها وتمتمت ببضع جمل ارتجالية ثم تركتها مسرعة بعد أن قالت : "أنا ذاهبة إلى المكتبة لإعادة هذه الكتب" .

تركت هذه العبارة جرحا عميقا فى نفس " تشن بوا " ، فمن المسلم به أن عدم الحصول على ميدالية ليس نهاية العالم ، إلا أن " تشن بوا " التى اعتادت منذ التحرير أن تكون دائما فى المقدمة فى كل الأحداث والمناسبات الكبرى ، وأن تقود الصفوف لإنجاز كل ما يجب إنجازه ، وأن تدعو وتحث الآخرين على التقدم فى جرأة وصلابة ، تجد نفسها هذه المرة ليست على مستوى المسؤولية ، ولم تحافظ على أمجادها فى أداء مهامها الدراسية البسيطة قياسا إلى غيرها والأساسية فى الوقت نفسه .

وكيف يمكنها بعد ذلك تشجيع زميلاتها على الاجتهاد فى الدراسة بصفتها سكرتيرة فرع منظمة الشبيبة الشيوعية بالمدرسة ، وعضو الحزب الشيوعى الصينى فى الوقت نفسه ؟ ترى . . . . هل ينظر إليها على أنها من أولئك "التقدميات" اللاتى يتشدقن بعبارات جوفاء ؟ .

مرة ثانية حيتها بعض زميلاتها فى الفصل ، فنفضت التراب عن طرف ثوبها لتتخلص من هواجسها واتجهت ناحيتهن محيية .

* * *

كان وقت الاحتفال بتوزيع الميداليات قصيراً ومثيراً فى الوقت نفسه . ألقت مديرة المدرسة كلمة شرحت فيها مغزى منح الميداليات ، ثم بدأت مراسم التوزيع حيث أخذت المديرة ، وقد اتشح وجهها بابتسامة عريضة ، تصافح كلَّ واحدةٍ من

الفائزات وهى تسلمهـا ميداليتها وسـط عاصفة من تصفيق الحـاضرين، وكانت كل فائزة تصعـد إلى المنصة من ناحية اليـسار ، تتسلم ميداليـتها فتعلقـها على صدرها وتستدير ليراها الجميع ثم تهبط من على المنصة من ناحية اليمين . والميدالية مستديرة فضيـة اللون ، بها خطوط زرقاء، مـحفور عليهـا قلم وكتاب مفـتوح ، سن القلم يرتكز على زاوية الكتـاب وكلاهمـا يبدو فى شكل يبـرز قليلاً عن مـحيط الميـدالية الدائرية الشكل ، وكانت الزمـيلات يمددن أعناقهن ويحدقن النظر فـى الميداليات ، ولا يحولن أبصارهن عن واحدة إلا إذا شاهدن ميدالية أخرى.

تجاوز عدد الفائزات بميداليات الأربعين طالبة، كان أكثرهن يحنين رؤوسهن عند استلام الميداليات وقد احمرت وجوههن كأنهن يشعرن بالخجل أكثر مما يشعرن به إذا ما وقع عليهن عقاب ، وهذه صفة مشتركة عند كل البنات.

أما "لى تشون" فكانـت هادئة رزينة ، أحنت رأسها انحناءة كبـيرة أمام المديرة بدلاً من مصـافحتهـا ثم تسلمت ميداليـتها بإحدى يديـها وعلقتهـا على صدرها ، ونزلت من فوق المنصـة واضعة يديها فى جـيبها ومـائلة برأسها كعـادتها ويشع من عينيها بريق البهجة والسعادة.

وكانت " يوان شن تشى " ممن فزن بميداليـات من طالبات الصف الثالث ، لم تستطع أن تمنع نفسـها من التعبيـر عن فرحتها ، ولكنهـا لم تفرط فى ذلك ، فقط قفزت من فـوق المنصة قفزات مـتتالية حتى عـادت إلى مقعدها حـيث صفقت بود وإخلاص لغيرها من الفائزات.

وبعد الانتهاء من توزيع الجوائز كان إلقاء الكلمات اختياريًا ، فمن بين الطالبات اللاتى فزن بالميداليات قالت إحداهن : "إننى بطبـيعة الحال لست جديرة بالفوز بهذه الميدالية غير أنى أشكر إدارة المدرسة على تشجيعها لنا،وفى الوقت نفسه أعدكم بأنى قد عقدت العزم على أن أكون عند حسن ظن الجميع" . وكن يستعملن أدوات الربط فى كل جملـة ويتمايلن فى حـياء شديـد أثناء الحديث مما انتزع ضـحكات جمـهور

الحاضرين حتى عمَّ القاعة جو من المرح والفرح . وصعد إلى المنصة أيضا بعض ممن لم يفزن بميداليات ليؤكدن على أنهن عقدن العزم على الاجتهاد فى الدراسة لتعويض ما فاتهن، ولكن منعهن الحياء فى ذلك الوقت من الحديث عن عزمهن على الحصول على ميداليات فيما بعد، وأخيراً جاء دور "لوتشن" أمينة لجنة رابطة الشبيبة التى وقفت مرفوعة الهامة تتحدث ملوحة بيدها قائلة:

"الرفيقات عضوات رابطة الشبيبة والزميلات العزيزات ! لقد أفدنا أيما إفادة من اجتماع اليوم ، وكسبت كل منا مكاسب عظيمة . . وإن الحزب الشيوعى الصينى يدعونا إلى مزيد من الاجتهاد، ويطالبنا بالتربع على عرش العلم، وعلينا تحقيق ذلك بتفوق منقطع النظير . . . . " انفتحت أبواب القاعة الأربعة، وتدفقت الطالبات للخروج وهن يتصايحن تنادى كل منهن على زميلتها ويجذبن بعضهن البعض.

استدعت "قوا" - مديرة المدرسة وسكرتيرة فرع الحزب الشيوعى بها - الطالبات الأعضاء بالحزب إلى مكتبها الذى يتكون من حجرتين شماليتين "بحريتين" كبيرتين تفصل بينهما ستارة ، الغرفة الداخلية بها مكتبها الخاص ومكان استراحة خاص بها ، أما الخارجية ففيها أريكة وبضعة كراسى خيرزان وهى مخصصة لاستقبال المدرسين والطلاب وعقد الاجتماعات المصغرة.

وجلست طالبات المدرسة اللاتى ينتمين إلى عضوية الحزب الشيوعى وعددهن سبع طالبات على أريكة واحدة ، من بينهن ثلاثة فقط يتكئن إلى مسند الأريكة.

وقفت المديرة مستندة بإحدى يديها إلى الكرسى وهى تجول ببصرها فى وجوههن كما تنظر الأم إلى أولادها أو الضابط فى الجيش إلى جنوده وقالت:

" ماذا ترين ، لم تحصل من الطالبات الأعضاء بالحزب على ميداليات سوى طالبة واحدة بالصف الثانى ، ألا يدعو ذلك إلى الأسف ؟ " .

أخذت الطالبات السبعة يتبادلن النظرات والابتسامات ولم تنطق إحداهن ببنت شفة غير " تشن بوا " التى ردت فى هدوء: "نعم -بالتأكيد يا حضرة الناظرة- يدعونا ذلك إلى شىء من الأسف ".

ردت حضرة الناظرة مقلدة " تشن بوا " وهى تقهقه بصوت عال مثلما يضحك الرجال:

شىء ؟ .... هاها .... " وكانت عندما تتحدث مع الآخرين تحب دائما أن تبدأ حديثها بابتسامة ، ثم تنحو جانبا لتتناول زمزمية من فوق المنضدة وتصب لنفسها كوبًا من الماء.

"حسنًا ، إن هذا الشعور سوف يكون حافزا يدفعكن بسرعة إلى الأمام "

وواصلت مديرة المدرسة حديثها وهى تقترب منهن كأنها تسقيهن خبراتها وخلاصة تجاربها : إن كنتن-كعضوات فى الحزب- لم تحققن نتائج دراسة طيبة فهذا لا يعنى إلقاء اللوم -كل اللوم- عليكن، وليس هناك ما يدعو إلى الحزن ، فلم يمض على تحرير بكين سوى ثلاث سنوات ، ومنذ بداية التحرير كانت مهمتنا الأساسية تكمن فى تعبئة الجماهير وإزالة آثار العدوان ، وهكذا كان حال المدارس أيضًا، لم تتوافر لديها الظروف الملائمة للدراسة ، ولقد شاركتن خلال هذه الفترة مشاركة فعالة فى كافة الحركات السياسية والأنشطة العامة فى المجتمع ، بينما كانت دراستكن- وهى رسالتكن الأولى - فى المرتبة الثانية، ولكن الحال سيكون مختلفا بعد الآن ، وستكون الدراسة الجادة أساسا لكل شىء.

إن الدراسة عمل جاد وواقعى ودقيق، أما الاعتماد على الحماس والشعارات الجوفاء فإنه - كما قال ستالين - يشبه هجوم الخيول الرعناء، وهذا أمر غير مقبول، إن المشكلة مطروحة أمامنا مؤلمة وواضحة لكل ذى عينين ، وعلينا إما أن نسرع فى العمل حتى نفى بالمطلوب ونجمع بين العمل السياسى والدراسة العملية الجادة ، وإما أن يفوتنا الركب ونصبح من الساسة ذوى العقول الجوفاء فتضيع هيبتنا وسمعتنا

الطيبة لدى الجماهير. " وهكذا أنهت مديرة المدرسة كلامها بحماس شديد وراحت تجوب وجوه الطالبات ببصرها وكأنها تنتظر الرد على حديثها.

ردت إحدى طالبات الصف الثانى والعضوة بالحزب : "لكنى أخشى أن تتباهى بعض الطالبات اللاتى يركزن اهتمامهن على الدراسة دون الأنشطة السياسية فيعتقدن أن مواقفهن السلبية تجاه هذه الأنشطة كانت سليمة، وكأن لسان حالهن يقول :

"قلتن إننا متخلفات ورجعيات ، لكننا اليوم حصلن على الميداليات" .

أومأت أخرى بالإيجاب وأضافت : " ليست المشكلة أن تخشى أو لاتخشى ، فلقد ظهرت مثل هذه الظواهر بالفعل" .

"وفيما بعد سيكون من الصعب علينا القيام بمهامنا كما ينبغى" .

ردت المديرة قائلة : "وما العمل إذن ؟ هل هناك من وسيلة غير الدراسة الجادة؟"

أجابتها طالبة أخرى من عضوات الحزب : "لتشتعل المنافسة بيننا وبينهن ، ولنعض على النواجز، ولا خيار أمامنا سوى التفوق عليهن" .

قالت المديرة والابتسامة على شفتيها : "هذه روح معنوية عظيمة لا غبار عليها، ولكن المنافسة الفردية وحدها لا تعالج الموقف، فيجب عليكن أن تساعدنهن ، وعليكن أن تقدمن البراهين من خلال أعمالكن على أن تبنىٍّ الأفكار التقدمية أمر ضرورى ، ليس فقط للأنشطة السياسية بل أيضًا لدراسة الجبر واللغة والأدب" .

دار حديث بين الفتيات السبع عما يجب أن يهتموا به داخل الفصل فيما بعد ، وذهب عنهن تدريجيا الشعور بالخجل والخزى الناتج عن عدم إحراز الميداليات وحل محله شعور بالحماسة تمخض عن العزيمة على اللحاق بالركب، ولم يعد يساور إحداهن شك فى أنها ستحقق ما عقدت العزم عليه وخاصة أنهن جميعا اكتسبن خبرة فى القيام بالمهام الجسام منذ تحرير البلاد.

عادت " تشن بوا " إلى حجرة الدرس فوجدت " يـانغ تشيانغ يون " تتشاجر مع لى تشون . كـانت " تشوشيـا ولينغ " تنتحى جانبًـا وتجلس على منضـدة فى أحـد أركان الفصل ، بينما تجلـس كل من " يانغ تشيانغ يون " ، " ولى تشون " كل على حدة عند طرفـى المنضدة ، وقد أعطت " لى تشـون " ظهرها " لتشـيانغ يون " دون أن تلـقى لها بالاً. وقالت " تشيانغ يون " : "أعرف أنك ستقولين إن " تشيانغ يون " لها تحفظ على عملية توزيع الميداليات لأنها لم تفز بواحدة ، ولكن ما صلة هذا بى شخصيًا ؟ إننى لا أخاف ، وتعودت أن أعبر عن رأيى كالمعتاد كلما كان لى رأى، وأنا أرى أن طريقة توزيع الميداليات هذه غـير عادلة ، لأن الجميع لم يأخذن فرصـة الاستعداد على قدم سـواء، لذا هناك بعض ممن يستحققن مـيداليات ولكنهن لم ينلنها ، بينما البعض الآخر فزن بها دون استحقاق على الإطلاق" .

ردت " لى تشون " ببـرود شديد وقد أمالت رأسـها على كتفهـا وهى تضرب الأرض بقدمها اليسرى: "ومَن تلك التى تستحق ميدالية ولم تنلها ؟"

أجابت " تشيانغ يون " على الفور ودون تفكير وهى تشير نحو تشن بوا.

"إنها هى ، تشن بوا" ، احـمرَّ وجه " تشن بوا " خـجلا وقالت " لتشـيانغ يون " مستنكرة فى تواضع : "مالك تهذين بهذه الكلمات؟" .

وهذه هى طبيعـة " تشيانغ يون " ، لا تجامل ولا تنافق حـتى إنها جعلت من صديقتها خصـمًا لها دون أن تكترث بذلك. وردت لى تشـون: "إذن فـأنـا الـتى لا أستحق الميدالية؟"

"يمكنك أن تحتكمى إلى نفسك" .

خلعت " لى تشـون " ميداليـتهـا ووضعتـها فى يد " تشـيانغ يون " دون أن تعطى لغيـرها فرصة لفهم مـا يدور ، وانتحت بنفسهـا جانبا ، وارتسمت ابتـسامة صـفراء على شـفتيـها وهى تقـول : "إذن دعى من تسـتحق الميـدالية تزين بهـا صدرها" .

واحمر وجه " تشيانغ يون " خجلا .

كانتا كثيراً ما يدب بينهما الجدل والنقاش ، وكانت النتيجة دائمًا فى صالح " تشيانغ يون " بعكس هذه المرة التى أنهت فيها " لى تشون " الجولة لصالحها بهجوم مضاد بارع ، وقد سبق أن ربطت صداقة قوية بين " لى تشون " و " تشيانغ يون " منذ أن التحقتا معًا بالصف الأول الثانوى فى خريف عام ١٩٥٠ ، بعد أن تخرجت " لى تشون " من إحدى المدارس الإعدادية فى تيانجين ، وتأهلت للالتحاق بالمدرسة الثانوية ببكين .

واستطاعت " لى تشون " أن تنال إعجاب وحب "تشيانغ يون" بلباقتها وحسن مظهرها . وكانت "لى تشون" على النقيض تمامًا من زميلتها "ووتشانغ فو" ، فكانت تحضر لزميلاتها بكرم وسخاء شديدين الكعك والباوزه[١] اللتين اشتهرت بهما بلدها تيانجين ، بينما كانت "ووتشانغ فو " القادمة من إحدى المدارس الإعدادية خارج بكين تملأ جيبها بالفول السودانى وتقشره فى جيبها حبة حبة ، ثم تدس يدها خلسة من حين لآخر لتخرج من جيبها حبة وتلقى بها فى فمها بسرعة بعيدًا عن أنظار زميلاتها خشية أن يطلبن منها بعضًا منه ، وقد قامت " لى تشون " أثناء الأحتفال باستقبال الطالبات الجدد بتقديم أغنية ويغورية ، وأغنية شعبية من الفلكور على دق طبول موسيقى بكين المحلية مما أثار إعجابًا شديدًا لدى زميلاتها وخاصة " تشيانغ يون " ، وسرعان ما ظهر للجميع تفوقها الدراسى . وقد اشتركت فى رابطة الشبيبة فى عام ١٩٤٩ وأصبحت عضواً بلجنتها الرئيسة فى مدينة تيانجين ، ونشر لها مقال فى صحيفة "تيانجين" اليومية ، ورغم أن هذا المقال لم يتجاوز المئة رمز ، إلا أنه لم يكن شيئًا بسيطًا فى نظرهن .

وعندما جرت انتخابات أعضاء اللجنة التنفيذية لاتحاد الطالبات ، لم تتردد زميلاتها فى انتخابها كعضو فى اللجنة ، كما أنها اشتهرت بينهن نظرا لقيامها بأعمال الثقافة الجماهيرية ، وتنظيم الجماعات الطلابية ، والإشراف على الحملات المسائية .

(١) الباوزه : نوع من الأكلات الشعبية المشهورة فى الصين ، وهى عبارة عن رقائق من الخبز المحشو باللحم المفروم والبصل والثوم وبعض الخضروات المفرومة ، ويتم إعدادها فوق البخار.

وكانت " تشيانغ يون " كثيرا ما تبحث عن " لى تشون " ليتجاذبا أطراف الحديث . ولم تكن موضوعات أحاديثهما عن صعوبة الامتحانات أو ألقاب الأساتذة أو تسريحات الشعر فهما لا يأبهان بكل ذلك ، بل كان موضوع حديثهما الدائم هو الكتاب ، وخاصة الروايات المترجمة.

ولم يمض وقت طويل على التحاقهما بالثانوية حتى اندلعت فى البلاد حركة مساعدة كوريا ضد العدوان الأمريكى ، فتوقفت الدراسة ونزل معظم الطلاب إلى الريف وإلى الشوارع للقيام بالأعمال الإعلامية لفضح هذا العدوان. وكانت " لى تشون " آنذاك تصل الليل بالنهار دون كلل أو ملل فى كتابة الأزجال وحجز المسارح لإقامة الندوات والإشراف على إصدار نشرة "النداء" المنسوخة باليد فى المواعيد المحددة ؛ ولذا كان طبيعيا أن يكون اسم " لى تشون " على رأس قائمة التقدير التى أعلنتها رابطة الشبيبة فى المدرسة لمن ساهمن بأعمال إيجابية فى حركة مساندة كوريا ضد العدوان الأمريكى ، ولكن " لى تشون " تحت هذه الظروف زلت قدماها فى طريق دراستها زلة أدت إلى استدارتها على عقبيها.

فتحت المدرسة العسكرية أبوابها فى ديسمبر عام ١٩٥٠ ، وكان هذا مثار دهشة "لى تشون " التى لم تكن تتوقع أن يتم تجنيد الطلبة، ألم يكن عدد جنود الجيش كافيًا؟، ألم يتم تسريح بعضهم فى الوقت الحالى؟ فهى نفسها فى الصف الأول الثانوى وتوشك أن تلتحق بالجامعة فلا تلبث أن تتخرج منها مهندسة. . . . .
ولكن إذا توقفت الآن عن الدراسة ، فما العمل إذن فى المستقبل ؟ عسى أن تكون حرب مقاومة العدوان الأمريكى فى كوريا حربًا مؤقتة ، ثم إن الاشتراك فى الجيش لا يرجى من ورائه مستقبل ،وإننى كفتاة لا يتاح لى الآن إلا أن أكون ممرضة فى الجيش على أكثر تقدير ، أما إذا التحقت بالجامعة فيمكننى دراسة الطب والعمل كطبيبة أو أستاذة فى علوم الطب ، زيادة على ذلك أنه إذا انتهت الحرب فى المستقبل

سيتم تسريح كل المجندين ، حيث أكون قد تقدم بى العمر ، فماذا أعمل آنذاك ... ... ؟ لا ، لن أتقدم بطلب لتسجيل اسمى أبدًا.

ثم إن تقديم الطلبات يتم اختياريًا ، وهناك أعداد كبيرة من الزميلات لم يقدمن طلباتهن بالفعل ، ولكن ألاّ تتقدم " لى تشون " بطلبها فهذا ما يثير دهشة الأخريات ، فوقت الكلام تكون أكثرهن إيجابية وعندما يجد الجد تنكمش وتتراجع، وهذا ما سوف يثير ضدها جواً من السخط العام . أخذت " لى تشون " تتقلب ذات اليمين وذات الشمال وأصابها السهد حتى جاءتها " يانغ تشيانغ يون " وخاطبتها قائلة : "لى تشون" غدا يبدأ تقديم طلبات التسجيل ، فلنذهب معًا ! "

"نذهب ... ."

مرضت " لى تشون " وأخذت إجازة لأسبوعين ، وعندما عادت إلى المدرسة كان قد عقد اجتماع وداع الزميلات اللاتى التحقن بالمدرسة العسكرية ، وقد أثار تصرف " لى تشون " تعجب كل زميلاتها فى الفصل ، بل أثار غضبهن وحتى استخفافهن بها ،ومنهن من قالت بصراحة : "آه، أتعودين مدعية المرض ! " وكانت بعض زميلاتها قد ذهبن لرؤيتها ولكنهن لم يستطعن مقابلتها ، وبعد عودتها إلى المدرسة كانت طول الوقت تلف حول عنقها لفاحا وتضع على فمها كمامة ، وصوتها يحمل نبرات أنفها وأصبحت فتاة أخرى غير تلك المنطلقة المتفائلة التى كانت من ذى قبل ، وكان الشعور بالخزى والخجل لا يزال يعذبها ، حتى إنها شعرت ببرود مشاعر الأخريات تجاهها ، فبعضهن يقابلها بالجفاء والبعض الآخر يحاول التقرب إليها ، ولكنها تشعر أن الأمور ليست طبيعية ومن ثم تجهم وجهها وقالت فى نفسها: "نعم ، إنهن يستخففن بى !" وفى الفترة الثانية من العام الدراسى طالبت بعدم الاشتراك فى أعمال اتحاد الطلاب بحجة سوء حالتها الصحية وتخلفها فى الدراسة ، فاضطر الاتحاد إلى الموافقة على طلبها ، وقد أثار ذلك غضب " لى تشون " ، إنكن تلفظوننى كما توقعت حتى إنكن لم تبدين محاولة فى الإبقاء على " .

شحذت " لى تشون " الهمم ، ودفنت نفسها بين الكتب ، وكانت تقول لنفسها : "لنتنافس ، إنكن تزدرينني الآن،ولكن لابد أن تعجبن بى فى يوم من الأيام !"

أخذ الجفاء يزداد شيئًا فشيئًا بين " لى تشون " وزميلاتها وخاصة " يانغ تشيانغ يون " التى سجلت تصرف " لى تشون " فى يومياتها بقولها : "...... ...... أحسب أننى عرفت وجه " لى تشون " الحقيقى ، لقد اختلست صداقتى ! "وكانت " يانع تشيانغ يون " كثيرًا ما تهاجم " لى تشون " فى وجهها مثلما حدث فى ربيع عام ١٩٥١ عندما كانت الطالبات يضعن لوائح حب الوطن.

وكانت هذه اللوائح تضم بندًا عن مطالعة الصحف لمدة نصف ساعة يوميًا ، لم توافق " لى تشون " على هذا البند وقالت: "هذا بند رنان ، ولكن لا يمكن تنفيذه، يحسن به ألا يدخل فى اللوائح ، ودعونى أقولها بصراحة إننى لن أستطيع تنفيذه".

ردت " يانغ تشيانغ يون ": "أنا أستطيع ، وأنتن؟"

أجبن كلهن بأنهن يستطعن .

وأضافت " تشيانغ يون ": "إننى أقترح الموافقة على هذا البند على أن نلحقه بملاحظة : باستثناء " لى تشون".

"ماذا تقصدين ؟"

"ننطلق من أرض الواقع".

"أنت هكذا تتعمدين الإساءة إلىّ " .

"لا يمكن من أجلك أن نتنازل عن موافقة الفصل بالإجماع".

وتمت الموافقة على لائحة حب الوطن وبها ثلاثة بنود ملحق بها ملاحظة "باستثناء لى تشون".

ومن ثم تعرضت " يانغ تشيانغ يون " لبعض الانتـقادات بسبب تصـرفها مع " لى تشون " . وتحدثت الجماعة الفرعيـة لرابطة الشبيبة فى هذا الفصل عدة مرات فى هذا الشأن ، وفـى الوقت نفسه بذلت الـزميلات مـحاولات للتـقرب إلى "لى تشـون" . فـتـحـسنت الأمـور بعض الشىء وأصـبـحـت " لى تشـون " داخل الفصل"ملتزمة بالنظم واللوائح " تشارك فى الاجتـماعات وتؤدى ما يسند إليها من أعمال عامة، غير أنها لم تستطع التخلص من التهكم على الأخريات والكلام عنهن فى سخرية لاذعـة ، مصممة فى نفسـها على التفوق على زميلاتهـا عازمة على ألا ترضى بديلا عن استعادة كل ما فقدته.

ويبدو أن ذلك الوقت قد أتى ، فقد حصلـت على ميدالية بينما لـم تحـصـل كل من " تشن بوا " و "يانغ تشيانغ يون " على شىء ،أليس ذلك شيئًا جميلاً ؟!

(٤)

وجـهت " يانـغ تشـيـانغ يون "سـؤالاً إلـى " تشن بـوا " بعـد ذلك : "أيحزنك أنك لم تفـوزى بميدالية ؟ "أجابتـها تشن بوا: "لست أدرى ، عندى نوع من الإحساس بأننى كطالبة بالثانوية يجب أن أبدأ من جـديد، أشعر أن هناك الكثير الذى يجب أن أفعله ، فمثـلاً كان يساورنى نفس الشعور قبل أن أشـترك فى الحركة الفعلية للثـورة ، وذلك قبل انضمامى إلى التحالف الديمقـراطى ، وإنه لمن العجيب أننى حينما أعتزم القيام بتلك الأعمال التى لم أقم بها من قبل أشعر بسعادة من نوع خاص . . . . ".

فكـرت " تشيانغ يون " مليًا ، ثم أطلقت بصرها نحـو الأفق البعيد ، فبدت عيناها وكأنهما لا تـعكسان فقط ما تقعان عليه من أشياء، بـل أيضًا تشعان نوعًا من الجمال الغامض ، وردت قائلة : "أنت على حق! نعم إنهـا السعادة ، وقد شعرت بها فى بداية اشتراكى فى المعسكر ، وإن أمـر توزيع الميداليات يمكن أن يكسب الحياة مـذاقًـا جديدًا، " تـشن بوا "، ينبـغى علينا أن نعـمل بكل الجـد". . . . . استـرجعت" تشن بوا "ذلك الحوار بعد أن مـضى عليها ست سـاعات وهى تجلس بالفصل.

ظهرت مـلامح الحيـاة الجديدة فى كل مكان، فـمثلاً هذا الفـصل الذى يعتـبر أفضل حجرة فى المدرسـة ، حيث يفتح بابها ونافذتها فى الجـهة البحرية ، ويلصق على جدارها القبلى المواجه للنافـذة لوحة عليها خمسة رموز مكتـوبة بالحجم الكبير وباللون الأحمر: "فلنـتقدم نحو العلم" ووضع تحتـها علامة تعجب كـبيرة، وعلى الحائط الغربى علقت سبورة جديدة من الزجاج الأخضر الداكن ، واقترحت الجماعة الفرعية الثـالثة لرابطة الشبيبة بـالمدرسة مساعدة المدرسين قبل الحصـة ، حيث يقمن بإعداد الوسائل التعليمية مثل تعليق الخرائط والصور التوضيحية على الحائط وتنظيف السبورة حتى تصبح كخد فتاة جميلة فى ليلة ربيعية ، أما الحائط الخلفى للفصل فهو

مكان مجلة حائط بعنوان "الدراسة" ، وهذه الكلمة المكونة من رمزين تم قصها من غلاف مجلة بعنوان "مجلة الدراسة" ثم ألصقت فى أعلى المجلة، وقد اتخذت هذه المجلة من امتحان الفترة موضوعًا أساسيًا لها ، ولقد تعددت الاختبارات فى هذه الفترة ، فقد يطالب الأستاذ الطالبات فى الدقائق العشر الأخيرة من الحصة بأن تجهز كل منهن ورقة لتجيب على بعض الأسئلة التى يطرحها عليهن عن درس الأمس. . . . . وبجوار مجلة الفصل تلصق على الحائط صورة لفتاتين من فريق البحث والتنقيب يعلوها عنوان: "لنقدم إلى وطننا ربيع أعمارنا".

وما إن تدخل الفصل حتى تشعر بروح الحماس والعمل الدؤوب ، وأنه ليس هناك ثمة مكان للكسل والكسالى، ورغم أن الوقت كان يصادف نهاية الأسبوع (السبت) ، إلا أن بعض الطالبات بقين فى الفصل يذاكرن فى جد ، فمنهن من أطبقت كفيها واستغرقت فى التفكير، ومنهن من راحت تستذكر دروسها وهى تدق رأسها بأناملها فى خفة وحنان، ومنهن من ينساب قلمها فى خفة على صفحات الورق ، وتشهد " تشن بوا " كل ذلك فتشجع نفسها قائلة: لن يغمض لى جفن حتى أحقق غايتى".

استغرقت " تشن بوا " طيلة فترة ما بعد الظهر فى محاولة لحل مسألة ، ولكن باءت جهودها بالفشل ، فواصلت محاولاتها بعد تناول العشاء ، استهلكت رزمة كبيرة من الورق فى التجارب حيث جربت الكثير من الصيغ الحسابية والأرقام والرسوم مستخدمة أقلام الرصاص ذات السن الخشن والأخرى ذات السن الناعم ، الأحمر والأزرق ، ولم تعرف كم سنتيمترًا مكعبًا استهلكتها من ممحاتها. وقد حاولت " تشن بوا " مرات أن تقنع نفسها قائلة: " أن أبدأ أولاً بما هو أسهل" ، ولكن ما إن تبدأ فى الإجابة عن سؤال آخر حتى تحس كأن ذلك السؤال الصعب يشدها إليه، وفجأة رأت أنها أصبحت قادرة على الإجابة، فدفعت بكتاب العلوم جانبًا بسرعة وتناولت ورقة بيدها المرتعشة، وأخذت تكتب المعادلة الحسابية وتحلها

خطوة بعد خـطـوة يا للخسارة ! لايزال هناك مجهـول واحد أعجز عن معرفته ألا يمكن أن يكون السؤال قـد وضع خطأ ؟ لا ،مستحـيل ، ولا يمكن " لتشن بوا " أن تخدع نفسهـا ، فأطبقت جفنيها وأراحت نفـسها برهة من الوقت ، ثم راحت تفكر وهى تبرى القلم الرصـاص، تناثرت نشارة الخشب على مـلابسها وفـخـذيها وراح سن القـلم يطول شيئًا فشيئًـا ، حتى أطاحت به الشفرة ، وعادت تبرى وتبرى من جديد.

اقتـربـت منهـا "ووتشانغ فو " فى خـفـة ودعة ونادت : "تشـن بـوا ! " فالتفـتـت " تشـن بوا " ووقع نـظرهـا عـلى " ووتشانـغ فو " ذات الوجه المطهم واللحم الذى يـتكدس فوق خـديهـا ، حـينذاك أضاء المـصبـاح الكهـربائى فانعكست أضواؤه على أنفها المكور الضخم الذى رسم ظلا بين فمها وخدها الأيمن.

أحنت " ووتشانغ فو " قامتها ، وأظهرت كـتابًا كانت تخفيه خلف ظهرها ثم سألت " تشن بوا " مـشيرة إلى أحد الأسـئلة فى الكتاب : "معـذرة ، إننى شديدة الغبـاء، بالطبع يجب علىَّ أن أحاول بنفسى ، لكنى لا أسـتطيع ، حتى إذا فكرت ثلاثة أيام فلن أصل إلى شىء، ساعدينى بالشرح والتحليل ، ولو بالإشارة" .

نظرت " تشن بوا " إلى سـؤالها ، ثم تناولت كتـابها هى الأخـرى وقالت : "انظرى " ! ألست متعثرة أيضًا ؟ إننى مثلك ، لا أعرف" .

قـالت "تشن بوا " ضـاحكة: "هل يمكـننى إذا كنت أعـرف أن أتظاهر بعـدم المعرفة؟ تعالى نفكر معًا . . .   . "

شرحت لها " تشن بـوا " الاحتمالات الثلاثة التى توصلت إليـها كطرق ممكنة للحل ، وقد هزت "ووتشانغ فـو " رأسها بالموافقة على كل من هذه الاحـتمالات وقالت : "نـعم ، إنه يبدو كذلـك" ثم اسـتدركـت بأنه هكذا ، بل إنـه كذلك ، وعلى غير المتـوقع لم تكن " تشن بوا "متضايقة مما تبـديه " ووتشانغ فو " ، بل نظرت إليها فى أسف لأنها نفسها لم تستطع أن تقدم لها المساعدة المطلوبة.

سُمع وقع خطوات رشيقة متلاحقة ، ودخلت " يوان شن تشى " الفصل ضاحكة مهرولة، وتقدمت حتى أصبحت أمام مقعد " تشن بوا " وأمسكت بيدها وجذبتها فأوقعتها وصافحتها بشدة.

"ماذا دهاك حتى أصبحت بهذه الصورة من الجنون؟ "واستخدمت "تشن بوا" عبارة "بهذه الصورة من الجنون " التى مرت بها فى أحد نصوص اللغة التى درستها أخيراً.

توقفت " يوان شن تشى " عن الضحك ، فهى لا تضحك أبدا عندما تتكلم، لكنها تُضمِّن هذه البسمات والضحكات كل كلمة تنطقها ، بل وكل حرف يدور على لسانها.

قالت : "نجحت فى الحل ووجدت حلاً بعد تفكير عميق، ولهذا الغرض جئت إلى هنا على دراجتى . عندما رجعت إلى البيت ، لم أهنأ بتناول طعامى ولم أهتم بالرد على أحد، فقط ركزت كل تفكيرى فى هذه المسألة . وقد أصاب أمى الفزع إذ اعتقدت أننى مريضة . يا للجهد الكبير الذى بذلته بعد ظهر اليوم! "

أطلقت " يوان شن تشى " هذه الكلمات دفعة واحدة فى ترتيب عكسى، ثم أخذت تتحدث فى تسلسل طبيعى قائلة: "هل فهمت مفتاح حل هذه المسألة ؟ إنها فى الواقع ليست مسألة صعبة إذا ما قورنت بغيرها من المسائل الصعبة حقًا . . . "

استوقفتها " تشن بوا ": "كفى !"

"هل توصلت إلى حل؟"

"أنت التى توصلت إلى الحل ، أما أنا فمازلت فى موقف حرج ، دعينى أفكر بنفسى !" قالت " يوان شن تشى " متوسلة: "من فضلك ، دعينى أتكلم ، إننى سعيدة حقيقة أود أن أساعدك . . . . . . "

ردت تشن بوا فى إلحاح هى الأخرى : "لا ، لا تتكلمى من فضلك ، بالله عليك لا تشرحى وإلا فسوف أسد أذنى بإصبعى !"

أخرجت " يوان شن تشى " لسانها مداعبة ، وقد انتحت جانبًا، وعندئذ اقتربت منها " ووتشانغ فو " وقالت : "من فضلك ، هلا حدثتنى عن الحل؟ " نظرت يوان شن تشى " إلى " تشن بوا " فإذا بها قد خرجت من الفصل، فأخذت الأولى تشرح المسألة " لووتشانغ فو " خطوة خطوة وهى تتوق شوقًا إلى أن تجد من يسمعها وهى تحل هذه المسألة الصعبة ، لم تترك شيئًا، حتى مراحل التفكير وطريقة الحل والتجارب وتحليل وتقييم المسألة ، كل هذا شرحته وفسرته دون أن تتوقف بأسلوب شيق ومثير يشبه فى ذلك أسلوب "سون ووكونغ"[(١)] وهذه المهارات التى كسبتها " يوان شن تشى " من خلال عملها فى الطلائع ، مكنتها من أن تشرح وتحلل المسألة بأسلوب قصصى ، ومن الطبيعى أن تشعر " ووتشانغ فو " بالامتنان ، ومن ثم أخرجت من جيبها (وياله من جيب سحرى) حفنة من اللب ووضعتها فى يد " يوان شن تشى ".

عادت " تشن بوا " إلى الفصل ، وقد شعرت بالقلق لنجاح " يوان شن تشى " فى مهمتها ، وقالت فى نفسها : "لقد تخلفت عن الركب" . بعد خروجها إلى أرض الملعب ، وبعد أن ملأت رئتيها بالهواء النقى فكرت وهى على يقين أن مفتاح الحل الذى توصلت إليه صحيح ، ثم أخذت نفسًا عميقًا وعادت فى ثقة وعزم إلى مقعدها فى حجرة الدرس.

لقد تجاوزت التاسعة ، وعندما قررت " يوان شن تشى " العودة إلى المنزل بعد أن فرغت من حل المسألة " لووتشانغ فو " ، دخلت " تشوشيا ولينغ " الفصل

(١) سون ووكونغ :هى فى الأصل اسم قرد ، ولكن استخدم "ووتشن إن " الكاتب والأديب البارز فى عهد أسرة "ينغ" هذا الاسم فى روايته الخيالية الشهيرة ذات الصيت الذائع فى الأدب الصينى "رحلة إلى الغرب " وذلك رمزًا للذكاء والدهاء والمهارة والحيلة، ومن ثم فإن هذا الاسم يستخدم فى الصين حتى الآن كناية عن الذكاء المتوقد والمهارة الفائقة .

مع زميلاتهـا الصينيات المغتربات اللاتى عدن إلى البــلاد وهـن يتغـنين ببعـض الأغنـيـات ، وما إن دخـلت " شـيا ولينغ " ورأت هؤلاء اللائى يذاكـرن حتى بدت عليـها عـلامـات الدهشـة وضـمت قـدميـهـا ورفـعت يمناها مـحـيـيـة، وصاحت: "أيمكنكن فى مثل هذا الوقت الجميل أن تحتبسن داخل الفصل وتذاكرن ، إنه شىء عظيم ! أرجو أن تسمـحن لى نيابة عن الغوغائيات المهـرجات أن أعبر عن إعجابى واحترامى وتقديرى لكل مدعيات العلم! "

ضحكت جـميع الطالبات ، وردت علـيها زميـلاتها اللواتى يؤدين واجـباتهن "اذهبى عنا، وكفاك إزعاجًا لنا ! ردت " تشوشيا ولينغ " فى مـسرح وسعـادة : " ما أجمل هذا اليوم، لقد تجولت فى الشوارع الكبرى فوجدتها تموج بمظاهر السعادة، إن العـيد الوطنى على الأبواب وكـذلك عـيد " منتـصف الخريف " ، ألا تعـرفن ذلك، إن الشوارع العامة الآن يباع فيها التفاح والعنب والموز والكمثرى وبطيخ "دى تشـو " الأحمـر والكعك المحشو بالعـناب، وتباع أيضًـا لعـب الأطـفال التى على شكل أرنب . . . . "

غرق الجـميع فى الضحك وسـألوها : "وماذا أكلت ؟" هرشـت " تشوشـيا ولينغ " رأسها وأجابت : "أمتعت ناظرى وأشبعت عينى " .

ثم وقع نظرها على " يوان شن تشى " فنادت بصوت عال: "يوان شن تشى ، أنت . . . . . . "

وضعت " تشن بوا " كـراستها وقالت سـاخرة من " تشوشيـا ولينغ " : "فيم تنادين "يوان شن تشى "؟ إنها ليست بطيخة حمراء. " .

لم تعبأ " تشوشيـا ولينغ " بكلام " تشن بوا "، بل اقتربت من " يوان شن تشى "وراحت تقلب فيها البصر : "ماذا بك ؟ اعتقدت أنك مريضة " .

ردت " يوان شن تشى " : "كنت أحـاول حل إحدى المسائل ولم أنتـه منها ، لذلك لم أخرج " .

سألتها " تشوشيا ولينغ " : "وتذكرة الفيلم؟" .

"للأسف !، ذهبت هباء" .

"إن قدرتك على المثابرة تدعو للإعجاب ، ولكن هل تعرفين كم من الزميلات وقفن فى الصفوف دون الحصول على تذكرة لمشاهدة الفيلم؟ أما أنت فقد أضعتها سدى . . . "

وتوقفت " تشوشيا ولينغ" عن الكلام لشعورها بالأسف العميق ، وألقت بنفسها فوق أحد المقاعد ردت " يوان شن تشى " معبرة عن تقصيرها ، وعلى شفتيها ابتسامة باهتة ، ثم قالت إنها يجب أن تعود " أدراجها إلى البيت " ، فنهضت " تشوشيا ولينغ " لوداعها وخرجتا معًا .

ولم تعد باقى الطالبات يرغبن فى البقاء بالفصل ، فرحن الواحدة تلو الأخرى يجمعن كراساتهن وكتبهن وأدواتهن المدرسية، وأخذت المقيمات خارج المدرسة فى الاستعداد للعودة إلى منازلهن ، بينما تأهبت المقيمات بها للنوم.

لم يعد فى الفصل سوى " تشن بوا " وحدها ، وقد بدا الفصل أكثر هدوءًا بعد أن كانت الضحكات تجلجل فى أرجائه ، حيث تتهادى إليها أصوات موسيقى من الخارج ، كان هذا اليوم يصادف نهاية الأسبوع ، غير أن " يوان شن تشى " ضحت بمشاهدة الفيلم ، وظلت حتى تمكنت فى النهاية من حل المسألة . رفعت " تشن بوا " رأسها ونظرت إلى علامة التعجب الضخمة المثيرة الموجودة على الحائط حيث توجد صورة فتاة من فريق الفتيات للتنقيب عن المعادن وهى ترتدى قبعة حمراء، وكأنها تنظر إليها وتبتسم قائلة لها : "يا بطيخة داتشو الحمراء." ، وتهادى إلى أذنيها صوت ضحكات " تشوشيا ولينغ " ، اجتمع كل ذلك فى آن واحد مما جعل " تشن بوا " تشعر بالمسئولية والسعادة فى آن واحد، تململت فى مقعدها حيث قفز إلى ذهنها تصور غير واضح لحل المسألة.

عادت " تشوشيا ولينغ " و " يوان شن تشى " مسرعتين وقد تشابكت يداهما وهما تصيحان فى " تشن بوا " : "اخرجى بسرعة، دبابة ، دبابة !"

سمعن صوت هدير الدبابات يتزايد شيئًا فشيئًا مع اقترابها منهن.

وصاحت " تشن بوا " فى ارتباك : "مهلاً ، مهلاً . . . . "

ولم تلبث " تشوشيا ولينغ " و "يوان شن تشى " أن خرجتا من الفصل ، وأصبحت " تشن بوا "وحيدة فى الفصل من جديد والصوت يقترب والأرض تهتز تحت قدميها هزات متلاحقة وكأن الدبابة تشق طريقها إلى داخل المدرسة . كان قلب " تشن بوا " يخفق بين ضلوعها وهى تفكر فى الخروج لمشاهدة الموقف ، ولكن شيئًا ما أكبر وأهم شدها ، حيث كانت تريد أن تحاول مرة أخرى تجربة طريقة جديدة لحل المسألة، كان هدير الدبابة يحثها على الخروج ، وهى تحاول الحل المرة تلو الأخرى وتقول لنفسها : " تمهلى قليلاً" ، "لا تقلقى " ثم صاحت ، آه ، وجدتها ، لقد وجدت الحل !

وكادت تصرخ : "وجدت الحل !" "هدأت نفسها وأخذت نفسًا عميقًا وراجعت حل المسألة ، نعم إنه صحيح !

وجدت الحل، توصلت إلى النتيجة، بعد تسع ساعات متواصلة اقتحمت القلاع الحصينة ! وقد تهلل وجه " تشن بوا " بالسعادة وهى تدور حول الكرسى دورة كاملة حتى كادت تصطدم بالمنضدة . كان صوت الهدير يدق فى مسامعها كالرعد وكأنه يهنئها ،وكانت خيوط الضوء تتراقص كأنها تشاركها فرحتها ، وظلها يطول ويتمايل مع اهتزاز المصباح، فبدت أكثر مهابة وكبرياء ، واقتربت من صورة فتاة فريق التنقيب عن المعادن ، ولوحت بيدها قائلة : "انظرى ، لقد تمكنت من حل المسألة".

قبعت "تشن بوا "فى الفصل طويلاً كأنها كتلة جامدة فى جو شديد الحرارة ، أما الآن فقد انطلقت وأخذت تقفز قفزات متتالية وهى تكاد تطير ، وقد أحست من جديد بنسمات ليل الخريف المنعشة فأخذت تستنشقها فى نشوة بالغة وهى تهمس فى نفسها، بل وتهز رأسها كالأطفال: "أخيرًا وجدت الحل . . . . "

كانت المحطة المجاورة لناصية الحارة تعج بالطالبات اللاتى أفسحن "لتشن بوا" مكانًا بينهن وقال لها بعضهن : "سوف تقام تدريبات العرض العسكرى فى ميدان تيان آن مين مساء اليوم" ، أومأت برأسها وأرسلت بصرها تشاهد مع زميلاتها فى شغف تلك القاطرات التى تجر المدافع الثقيلة بفوهاتها الواسعة الشامخة كأنها تعلن عن تحد شديد ، وأجسامها المصقولة التى ينعكس عليها ضوء القمر ، والدبابات العملاقة ذات الجنازير الضخمة تهز الأرض من تحتها وتتقدم فى مهابة وتؤدة ، تاركة بصماتها فى عرض الطريق ، ودخانها يزكم الأنوف، لكن جموع المتفرجين على جانبى الطريق تستنشقه فى سعادة بالغة وهم يشعرون بارتياح عظيم ، وأخذن يرقبن بشغف كل حركة من حركات هذا السرب الحديدى الجبار خشية أن تفوتهن لمحة واحدة ، منهن من حبست أنفاسها وراحت تعد واحد ، اثنين، . . . ، عشرة . ومنهن من تضم زميلتها إلى جوارها والابتسامة تعلو شفتيها ، ومنهن من أخذت تتمتم قائلة: "ما أشد روعة السرب وما أكثر تنوعه !" . وقد تحمست الجماهير بشدة حتى إنها تفوقت فى ذلك على أولئك الجنود الرابضين فوق الدبابات وتتطلع أبصارهم إلى الأمام فى عز وكبرياء.

كانت مديرة المدرسة تشاهد التدريبات هى الأخرى ، وقالت: "كل ذلك ملك لنا" ! وقد تركت هذه العبارة البسيطة أثرًا عظيمًا فى نفوس أبناء الجيل الجديد من هذه الدولة الفقيرة التى عانت صنوف التعاسة والعذاب ، والتى تتقدم شيئًا فشيئًا نحو القوة والازدهار. همست " تشن بوا " فى نفسها مخاطبة الدبابات التى تمر أمامها :

"علىّ أن أذاكر دروسى بشجاعة وإقدام مثل المدافع ومثل الدبابات !"

(٥)

كن يسرن فى الشوارع الكبرى جنبًا إلى جنب عشية يوم "أول أكتوبر" ، فلقد انتهين لتوهن من مشاهدة فيلم "لا محيص عن ترويض نهر خواى" ولم يعدن من نشوة السعادة إلى أرض الواقع بعد، كن يمشين بخطى متأنية.

قالت " سونينغ " ، وحسنة سوداء فوق شفتها العليا تظهر وتختفى :

"إن هذا الفيلم ترك فى نفسى أثرًا عظيمًا ، حتى كان من الصعب علىّ أن أتركه، بل أثار فى نفسى شيئًا من القلق ، وحينما كنت أشاهده كنت أعيش فيه بكل كيانى ، وأنفعل مع لحظات السعادة ومع لحظات الحزن، وأنسى كل شىء، ولكننى عندما أسدل الستار ، وظهرت على الشاشة كلمة النهاية ، وفتحت النوافذ ودخلت أشعة الشمس ، وسمع من مكبر الصوت أصوات موسيقى لا علاقة لها بالفيلم انصرفت وأنا أشعر بالحزن والأسف .... " وأخرجت منديلاً حريريًا صغيرًا وراحت تمسح به جبينها .

هزت " تشوشيا ولين " رأسها وقالت : "عندما انتهيت من مشاهدة الفيلم وغادرت السينما لم أشعر بأدنى قدر من الأسف" ، كانت خطوة واحدة من خطواتها تعادل اثنين من خطوات سونينغ ، وأضافت "أحب أن أقص حكاية الفيلم على من فاتها مشاهدته من الزميلات حتى أثير فضولهن وأجعلهن يندمن على عدم مشاهدة هذا الفيلم ، يالها من سعادة تغمرنى حقًا ! "

قالت يوان شن تشى معترضة على كلام " سونينغ " : إن الحياة أكثر روعة وجمالاً من الفيلم" كانت تمشى فى مقدمة الصف بخطوات رشيقة ، والتفتت مشيرة إلى الجانبين وقالت : "الشوارع الكبرى عشية أول أكتوبر ، أليست أكثر جذبا للانتباه ولفتا للأنظار من الفيلم ؟" .

سرحت أبصارهن تجوب الشوارع التى ازدانت بزى العـيد، وقد أقام الكثير من الهيئات والإدارات أقواس الزينة عند مـداخلها ، وعلقت الفوانيس الأثرية المصنوعة من قمـاش الحرير الأحمـر والتى ظلت ترسل أضواءها طوال الليـل ، وعلى جانبى الطريق ينشغل الـباعة فى تقديم طـلبات العيـد التى أوشكت أن تنتهى مثل الفـواكه والكعك إلى الزبائن المتزاحـمين الراغبين فى الشراء. ويستخـدم القائمون على إدارة المسيرة الجير الأبيض فى وضع علامات التوقف والانطلاق عند حافة الرصيف. وفى الاتجاه العكسـى يسير الكثـير من الطالبـات الأخريات مثلهن تمامًـا ، يرتدين الحلل الزاهية المزركـشة ويأكلن البطيخ والتـفاح ويتقـدمن متشـابكات الأيدى وهن يرددن الأغنيات.

قالت سونينغ وهى تتنهد: "إن شوارع بكين جـميلة ونظيفة، ولكن متى تصل شوارع الريف إلى هذا المستوى؟ لا أعرف إلى متى يطول هذا الوقت" ؟.

قالت " تشيـانغ يون " التى تسير بجوار " سونينغ " وقـد استندت بيدها إلى كتفها "لماذا تقولين إن ذلك بعيـد ؟ إننى أشعر فى الأيام الأخيرة أن كل شىء قريب المنال ،قريب جـدا، وأن الحيـاة تمضى آلاف الكيلومترات فى الـيوم الواحد وكـأنها مربوطة بطائرة نفاثة ، عـودى بذاكرتك إلى الوراء قليلاً ، حيث كـان شعرنا ممشطًا ومضفراً فى ضـفائر قصيرة ، وحيث كنا نرقص رقـصة "يانغ تشو"[1] فى شـــارع "دونغ جيـاومين شانغ" لنرحب بمقدم جـيش التحرير إلى المدينة وكـأن ذلك حدث بالأمس القريب، وقد كان هناك كوم ضخم من الزبالة يجثم على أنفاس هذا الشارع آنذاك. سيبدأ تنفيذ الخطة الخمسية من العام القادم ، وقد نستيقظ من نومنا ذات يوم لنجد كل الريف الاشـتراكى من حولنا قد شـيدت به محـطات توليـد الكـهرباء. "وما إن فرغت من حديثها حتى بادرت بابتسامة لشدة طموحها وعظيم أحلامها.

(١) إحدى الرقصات الشهيرة فى شمال الصين .

وشاركت " تشن بوا " هى الأخـرى فى الحديث وقالت: "إننا سعـيدات بهذا الحديث ، فقد عايشنا الكثير من الأحـداث خلال مرحلة الدراسة المتوسطة ، عايشنا نهاية حـزب الكومينتانـغ وقيام الصين الجـديدة، ومساندة كـوريا الشماليـة فى وجه الاعتداءات الأمريكية، وعندما نتخرج يمكننا اللحاق ببداية مرحلة البناء ! "

علقت " تشوشيـا ولينغ " بغرض إضحاك زميـلاتها قائلة : "ولكن ذلك من سوء حظنـا ، حيث إن الأساتذة يأخـذون من متطلبـات مرحلة البناء ذريـعة لوضع أصعب الأسئلة فى الامتحانات. "

وبعد أن ضـحك الجميع ، طرحت " لى تشـون " سؤالاً ، فقالت وقـد جاء صوتها بنبراته الهادئة ونغمته المتأنية بين حـديثهن الضاحك ليوحى بأن صاحبته كأنها متقدمة فى العمر:

"بمناسبة الحديث عن حـسن الحظ وسوئه ،دعننى أطرح سؤالاً : هناك نوع من الأبطال ، مثل بطل هذا الفيلم الذى يبدو أنه محظوظ جـدًا، وهناك أيضًا نوع آخر من الأبطال نعرفـهم جميـعًا مثل ليـوخولان ، ودونغ تسون روى وهؤلاء ضـحوا بأرواحهم ،أليس كذلك؟. "

هزت " تشوشيا ولينغ " رأسها وقالت : "لست أفهم ما تقصدين " .

لم تتعجل " لى تشون " فى الرد ، وابتسمت ابتـسامة خافتة ، وانتظرت حتى عبرت مـفترق الطرق ، ثم عـادت فسألتهـا: "أى نوع من هؤلاء الأبطال ترغبين فى تقليده؟ "ثم نظرت إلى " يانغ تشيانغ يون " نظرة استفزازيـة فوجدت فى عينيها كما توقعت نظرات الريبة وعدم الاقتناع .

ردت " تشوشيا ولينغ " نفس السؤال على " لى تشون " : "وأنت؟" .

أجابت " لى تشون " : " لم أفكر فى ذلك الأمر " .

لم تطق " تشيانغ يون " صبرًا ، وفكرت مليًا ، وانطلقت الكلمات من فمها: "ربما تختلف مصائر الأبطال ، ولكن أولئك الذين يحسبونها ويختارون مصائرهم بأنفسهم ، لا يمكن أن يكونوا أبطالاً طوال حياتهم".

لم تغضب "لى تشون "، بل قالت فى صراحة شديدة: "عظيم جدا ، كلام أشبه بالحكم ، لكنه أيضًا لا يخلو من نكهة فلسفية ، ولعل التى تستطيع قول مثل هذه الحكمة لا يمكن أن تفتقر إلى الروح البطولية ، إننى أحب الكلام الواقعى الصادق وإن كان يتعارض مع مثل هذه الحكم ، وإن كان من الطبيعى أيضا أن تشوبه بعض الأخطاء".

توقف الجدل بينهما عند هذا الحد. اصطحبت " تشوشيا لينغ " زميلتها " تشن بوآ "وراحتا تتحدثان عن الأطفال على ضفتى نهر خواى، وأخذت" تشو " تتذكر ملامح كلاً من هؤلاء الأطفال وهى تقلده تارة ، وتارة أخرى تسأل تشن :

"هذا التقليد مضبوط أم لا " ؟ ، أما " يانغ تشيانغ " يون فلم تبال بالآخريات وراحت تمضى فى طريقها مبطئة حينًا ومسرعة حينًا آخر . وأخذت " يوان شن تشى " ، وسونينغ تسترجعان موسيقى أغنية "الزهور تتفتح على جانبى نهر خواى " فتذكرتا المقدمة الموسيقية للأغنية ونسيتا الخاتمة مما أثار فى نفسيهما شيئًا من الإحباط ، وبعد تشاور اتفقتا على مشاهدة الفيلم ثانية على أن تحفظ إحداهما المقدمة وتحفظ الأخرى الخاتمة.

سمعن صوتًا يصيح " يارفيق " ممنوع ركوب الدراجة بدون إضاءة ، توقف " نظرن فشاهدن شرطى المرور ، ورجلاً فى منتصف العمر ينحنى فوق دراجته وينطلق بها بسرعة كبيرة ، والشرطى ينادى عليه بالتوقف مرة ثانية لكنه غير مبال .

أطلقت " يوان شن تشى " ساقيها للريح تريد أن تطارده ، منعتها " تشوشيا ولينغ " وقالت :

" بل أطارده أنا " ! ، وأحنت خصرها وانطلقت كالسهم وكأنها فى سباق ١٠٠ متر عدو ، استغلت شيا لينغ الفرصة واستمرت تطارده عدوا حتى لحقت به وقالت له فى حدة : " انزل ! "

نظر الرجل فوجدها فتاة فرمقها بعينيه وقال : " وما دخلك أنت ؟ "

حينئذ كانت زميلاتها قد لحقن بها ، وسمعن كلام الرجل غير المنطقى فأحطن به وقلن فى نفس واحد : " نقوده إلى البوليس ! يجب تسليمه الى نقطة البوليس لمخالفته قواعد المرور ! " ، وقالت لى تشون بلهجة أكثر صرامة : " إن من يخالف قواعد المرور يعد خارجًا على القانون ، وها أنت ذا تخرج على القانون ولا تستجيب للتعليمات ؟"

وما كان لهذا الرجل أن يعرف مدى حزم وصرامة هؤلاء الفتيات لولا أن تعرض لحصارهن ، وأخيرًا استسلم " الخارج على القانون " تمامًا ، وأخذ يتمتم ببعض العبارات غير المفهومة ، وحينذاك وصل شرطى المرور ، وعندما بدأ فى اتخاذ إجراءاته مع الرجل انصرفت الفتيات .

ما إن عدن إلى الرصيف حتى اكتشفن أن مطاردتهن لهذا الرجل " الخارج على القانون " قد أوصلتهن أمام باب مؤسسة استهلاكية حديثة البناء ،و لأن هذه المؤسسة بدأت العمل حديثًا ولأن يوم غد عيد أول أكتوبر ، فقد امتدت ساعات العمل بها ، وكانت الفوانيس النيون الحمراء لا تزال تبعث أضواءها فى المكان ، والزبائن ما زالوا يتزاحمون رغبة فى الشراء ، اقترحت " تشوشيا ولينغ " قائلة : " نقوم بجولة داخل هذه المؤسسة الاستهلاكية " .

وردت لى تشون : " حسنًا ، لنتزود بخبرة فى شؤون الحياة " .

ودخلت جميع الفتيات المؤسسة بينما كانت يانغ تشيانغ تشعر برغبة قوية فى العودة مبكرًا لتفكر كيف تقضى العيد القومى غدًا ، فأحيانًا يكون التفكير فى العيد أجمل من قضاء العيد نفسه .

ما إن دخلن حتى لفحت وجوههن موجة حارة ، فعادة تتسم ليالى أول الخريف بالنسمات الرقراقة ، ولكن الجو داخل المؤسسة بدا حارًا بسبب شدة الزحام رغم وجود مروحتين تدوران فى السقف . كانت صفوف متراصة من المناضد الزجاجية ورفوف البضائع ، كلها تزدحم بالسلع الممتازة التى تبدو تحت ضوء المصابيح كأنها زهور ربيعية متفتحة .

اتجهن يمينًا لمشاهدة قسم الكماليات وقسم الملابس الجاهزة ، وشاهدن كل أنواع الصابون ومساحيق التجميل ، كريمات لنضارة البشرة ودبابيس ملابس ومشابك الشعر ، وأيضًا الكثير من الروائح العطرية ، وبودرة الوجه وأصابع أحمر شفاه . كل من هذه السلع مغلف تغليفًا رائعًا جميلاً ، فمشابك الشعر مرصوصة على ورق الكرتون المقوى على شكل مروحة هلالية الشكل ومرسوم على الكرتون صورة فتاة جميلة رشيقة شعرها الطويل يتهدل على كتفيها ، زجاجات الروائح العطرية مشدود حولها شريط من الحرير الأحمر وهى مرصوصة على شكل برج ، توجد منها مجموعات مرصوصة على شكل دوائر ، وهناك أيضًا بعض العلب المرصوصة بالتدرج حسب أحجامها ، مما يكون أشكالاً هندسية بديعة زاهية .

وكانت سونينغ تعرف الكثير عن هذه المعروضات ، فراحت تجيب على أسئلة زميلاتها فى استحياء وتعدد ميزات عيوب كل ماركة من البضائع على حدة وتشرح كيفية استعمال الثمين من هذه البضائع . ألقت " يانغ تشيانغ يون " نظرة اشمئزاز واحتقار على هذه البضائع وقالت : " كلها فى سبيل خدمة ورفاهية البرجوازية " لفت كلامها أنظار بقية زميلاتها ، فدفعتها " يوان شن تشى " دفعة خفيفة وقالت لها : " لا تفترى كذبًا على مؤسسات بلادنا الوطنية ! "

اتجهن بعد ذلك إلى قسم الأحذية والقبعات التى يغلب عليها اللون الغامق ، حيث لا توجد بطبيعة الحال أحذية مزركشة متعددة الألوان ، وقد عرضت أحذية

شتوية طويلة الرقبة مبطنة بالصوف ، تنبعث رائحة غير طيبة من هذا القسم ، لذلك اقتادت تشيانغ يون زميلاتها قائلة : " هيا بنا ، هيا ، ليس هنا ما يلفت النظر " .

وجدن في طريقهن لعب الأطفال ، حيث كانت أم تقود طفلها وتنادى على البائع ليجرب لها لعبة الضفدعة ، وهى لعبة على شكل ضفدعة مصنوعة من الحديد وبها سلك زنبركى يجعلها تتحرك فى قفزات متتالية . نظرت الفتيات إليها وغرقن فى الضحك ، وأخذت " تشيانغ يون " تمد عنقها ذات اليمين وذات اليسار وتقلب النظر بحثًا عن لعبة غريبة نادرة .

أرادت " يوان تشن تشى " شراء لعبة ، ليس لأخيها أو أختها الصغرى ولكن لها هى نفسها ، أخذت تبحث وتفتش وأخيرًا اهتدت إلى دمية صغيرة هزازة ذات قاعدة مستديرة إذا مالت تعتدل بنفسها ، على شكل رجل عجوز مصنوعة من مواد كيماوية حمراء اللون ، هذه الدمية صغيرة جدًا حتى إنه يمكن وضعها فوق إصبعها، ومن ثم أعربن جميعًا عن اقتناعهن بها .

أما ما يجذب الانتباه ويثير فى النفس شعورًا أعمق فهى البضائع فى الأقسام التالية - وبالطبع عرف القراء ماذا أقصد - إنها المعروضات الوفيرة لمنتجات شركة هاميلين للأطعمة المحفوظة بشنغهاى ، وشركة تشنغداو للمنتجات المائية ، وشركة أيلى لمنتجات الحلويات فى بكين وشركة دا وشيا نغشون لمنتجات الحلويات والشيكولاتة فى تيانجين ، وهذه المنتجات لا يكفى أن تشاهدها فقط ، بل تتطلب أن تشم رائحتها وتتذوق طعمها . أخذ الطالبات تلقين عبارات الثناء على هذه المنتجات .

وأخذت " تشوشيا ولينغ " تحاول أن تتذكر انطباعاتها عن طعم ومذاق كل ما تناولته من قبل من الحلويات ، وفى النهاية أجمعن على شراء بعض الحلويات من نوع عالى الجودة .

نابت عنهن تشوشيا ولينغ التى أشــارت إلى علبة الحلويات المختارة وســألت : من فضلك كم ثمن القطعة فى هذه العلبة؟ " .

ابتسمت البائعة وقالت : " نبيع بالجن (١) دون النظر إلى عدد القطع "

"كــم ثمــن الجن الواحـــد ؟ وكم قطعة يمكن أن توجد فى الجن ؟ " .

وحسب ظروفهن المادية ، كان فى استطاعة كل منهن أن تشترى قطعة واحدة ، وعلى كل اشتــرين وأكلن فارتفعت معنويــاتهن إلى عنان السماء كأنهن اشــترين كل السلع المعروضة فى المؤسسة .

وأخيراً قمن بجولة تفقدية حــرة ، اشترت " سونينغ " منديلاً ، واشترت "لى تشون" مفكرة يوميات، كل منهن اشترت لنفسها شيئًا .

لم تعد تشيانغ يون تنقد المؤسسة الوطنية تلك الانتقادات الحادة .

لقد جنت كل منهن جزءًا يسيرًا من جهد وعرق وإبداع العاملين الأحرار .

شعرن بالزهو والكبرياء وكأن كل منهن قد تحولت فجأة إلى مليونيرة حقيقية .

وبينمــا كانت " تشن بوا " تتــحدث مع تشــيانغ يون وهمــا تتأهبان لــلخروج سمــعت صوتًا ينادى عليــهما من الخلــف ، فتاة فى حــوالى الرابعة والعــشرين من عمرها تحمل فى يدها ترموسًا جديدًا اشترته لتوها من المؤسسة ، كانت ترتدى فستانًا من الصوف الأزرق ، شعرها الناعم ظهر مجعدًا باستخدام أساليب صناعية ، عيناها واسعتان ، رشيقة ، رزينة وجمــيلة ، جذبت يد تشن بوا قائلة : " يا شقية، أخيرًا قابلتك هنا ! "

كادت " تشن بوا " تطير من الفرح ، إنها " خوان لى تشينغ " .

(١) الجن هو وحدة الوزن الصينية وقدره ٥ . كجم .

انطلق لسان " بوا " بلا توقف قائلاً : " يا بنت ، كيف لك ألا تفكرى فى زيارتى طيلة هذه المدة ؟ كتبت لك رسالة ولم تردى أيضًا ، وكنت فى ذلك اليوم قد طالعت فى الصحيفة مقالتك عن خبراتك المكتسبة . لا ، ليست مقالة بل تلخيص .... "

ردت " خوان لى تشينغ " : " أما زلت تلومينني ، لقد اتصلت بك هاتفيًا مرتين ، ولم أجدك ، وطلبت من مكتب الاستعلامات أن يخبرك ، ومع ذلك لم تحاولى الاتصال بى " .

" من ذا الذى يخبرنى ؟ لقد بلغت اللامبالاة والإهمال بعامل مكتب الاستعلامات فى مدرستنا مبلغًا عظيمًا " .

توقفتا عن تبادل الاتهامات عند هذا الحد ، اتفقتا على إلقاء اللوم على عامل مكتب الاستعلامات ، كانت الزميلات مازلن فى انتظار " تشن بوا " ، لكنها أذنت لهن بالانصراف ، حيث مازال فى جعبتها الكثير الذى تريد أن تفضى به إلى خوان لى تشينغ .

استمرت " خوان لى تشيننغ " بعد التحرير فى عملها بأحد المراكز التجارية .

وكانت تلتقى كثيراً مع " تشن بوا " فى الفترة التى أعقبت ثورة التحرير مباشرة ، وكانت " تشن بوا " كثيراً ما تطرح عليها أسئلة وتطلب منها الجواب ، وكثيرا ما كانت تتحاور معها ، وما إن التقيتا حتى عدن بذاكرتهن إلى الوراء إلى ما قبل التحرير وتذكرتا أيام المصاعب التى تفيض أيضًا بالمواقف الشجاعة ، وتذكرتا نضال التنظيم السرى عندما كانتا على أعتاب مرحلة الصبا ، وكانتا تتغنيان أحيانًا بأنشودة حركة الطلاب فى ذلك الوقت . :

إذا سقطنا   سوف ننهض ،

عظامنا صلبة ، عزيمتنا لا تلين

أخذتا بعد ذلك تتبادلان عبارات التشجيع وقالت إحداهما للأخرى :

" علينا بعد التحرير أن نعمل بجد ودأب أكثر ! " ثم انشغلتا وندرت لقاءاتهما ،وكانت " تشن بوا " قد انضمت إلى كوادر الحزب بعد انقضاء فترة الحروب الثلاثة (١) وكتبت إلى " خوان لى " خطابًا مطولاً . وأسرعت " خوان " إلى منزل " تشن بوا " لتهنئتها ، لكنها كانت فى اجتماع بالمدرسة ، انتظرتها " خوان لى تشينغ " حتى عادت وصافحتها ثم غادرت مسرعة لتلحق باجتماع هى الأخرى .

إن الإنسان الذى يأخذ بيدك وأنت على مشارف رحلة الحياة ، الإنسان الذى يعد من أوائل من أشعلوا شرارة الثورة كثيرًا ما يترك فى حياتك انطباعات عميقة وجليلة ، هكذا كانت " خوان لى تشينغ " بالنسبة "لتشن بوا " . لقد كانت فتاة يافعة هى الأخرى ، لكنها كانت تدلل " تشن بوا " وتناديها " يا شقية " " أيتها الشيطانة الصغيرة " ، وقد تعودت " تشن بوا " على هذا النداء وأحبته ، واعتادت أيضا أن تنظر إلى خوان على أنها أختها الكبرى التى توليها ثقتها واحترامها .

خرجتا معا من المؤسسة ، واتجهتا نحو مدرسة " تشن بوا " ، وضعت " خوان لى تشينغ " يدها على كتف " تشن بوا " فى حنو وقالت لها :

"لقد صرت شابة يافعة "

" وأنت أيضًا . كيف حالك " ؟

" بخير "

(١) فترة أعقبت الثورة الصينية أعلن فيها الحزب محاربة الرشوة والبيروقراطية والفساد استمرت من (١٩٥١ - ١٩٥٢) .

" أيه ؟ مالك اشتريت هذا الترموس الضخم ؟

ســـرت حمرة قانية فى وجه " خوان " ، وأجابت : " أحمل فيه الماء .

سألت "خوان" عن صـحة أم "تشن بوا" المريضة ردت " تشن " فى ألم بأن المرض يشتد على أمـها ، وأنها الآن تستريح فى مـنزل خالها وتشغل نفسـها ببعض أشغال الإبرة ، مشـاغل تشن بوا كثيرة ، ليس لديها وقت لرعاية أمـها ، وهذا يثير فى نفسها إحساسًا بالألم والمرارة.

كانت خوان تلتفت وراءها من وقت لآخر ، سألت تشن بوا عما إذا كان هناك ما يشغلها ، تمتمت " خوان " بالإيجـاب ، وبعد قليل لحق بهما شاب طويل على مـشارف الثـلاثين وسـأل خـوان : " ماذا جـرى ؟ أين ذهبت ؟ إننى مـازلت فى انتظارك" .

قدمته " خوان " إلى " تشن بوا " : إنه زميلى ، الرفيق قومينغ " .

قدمت "تشن بوا" نفسـها له ، فقال قو : " أنت "تشـن بوا" ، لقد حدثتنى لى تشينغ عنك كثيرًا من قبل " . وكان يحمل فى يده حقيبة كبيرة .

تذكرت " تشن بوا " أخيرًا أن " خوان لى تشينغ " يجب أن تمشى فى الاتجاه العكسى لتعود إلى مقر حكومة بلدية بكين ، فألحت عليـها ألا تصحبها حتى المدرسة . قـالت " لى تشـينغ " : " إذا تيـسـر لى بعض الوقـت أذهب لزيارة والدتك " . أومأت " تشن بوا " برأسهـــا ، وأخذت " خوان لى تشـيـــنغ " كعكة كبيرة من حقـيبـة " قومـينغ " وأعطتهـا لتشن بـعـد إلحـاح ثم افـترقـتـا . من يكـون "قومـينغ" ؟ يتضح ذلك بالطبع من خـلال الملاحظة . لقد استنـتجت تشن بوا من حديثه الودى مع لى تشينغ ، ومن حديثها لـه عنها ،ومن خروجهما لشراء بعـــض الحاجيات مـعًا أن قومينـغ هـو خـطـيب " لى تشـينغ " ، ومن الواضح أنهما خرجا معًا لشراء متطلبات الزواج ، لقد سيطر هذا الاستنتاج على " تشن بوا "حتى

تشـوشت أفكارها ، فهـى ترى أن " لى تشينغ " يجب ألا تمـر بمثل هذه التجـربة العادية البـسيطة غيـر المحببـة إلى النفس وترفض هذا السلوك ، وربما ذلك التـفكير مدعاة للضحك ، لكنها ترفض ....

كانت الأضـواء الكاشفة تتـلاقى وتتشابك فى الليل ، بينمـا كانت طائرة ذات مصـابيح صغـيرة حمـراء تتهـادى فوق المكان ، وعربات رش الماء انـتهت من رش الشوارع وقد خفف الماء اثار العلامات التى خطها قادة المسيرة على جانب الطريق .

راحت " تشن بوا " تسـرع الخطى وهى تـفكر فى المهـرجـان والاحتـفـالات الصاخبـة التى ستقام فى اليـوم التالى . ثم أخذت تهرول لتلحق بزمـيلاتها ، وفى الوقت نفسه تحاول تقسيم الكعكة التى أعطتها لها " لى تشينغ " إلى ستة أجزاء .

(٦)

لم يمــر وقت طويل على احتـفالات العـيد القـومى حتى بدأت الطالبـات فى الدخول فى معمـعة امتحانات الدور الأول، وقد تضمن امـتحان كل مادة من المواد أسئلة كـثيرة وصـعبة وأكد كل أسـتاذ قبل توزيع ورق الأسـئلة على أهمية ومـغزى الامتحــان فى هذه المرة . وأكد عليهن بأنه لن يقـبل البتة بأن تكون الإجابـات غير موفـقة فى مــادته ، كمــا أكد على أن الدراســة والمذاكرة الجـادة هى المهمــة الأولى والأساسية والأكثر أهمية بالنسبة لهن جميعا .

كان وقع هذا الكلام عليهن تماما كمن يسكب البنزين فوق النار ، وخيم التوتر والقلق على جو الفصل . وعنـدما تسلمن ورقة الأسئلة كنت تسمع بعـضهن تأخذ نفسًا عـميقًا ، والبعض الآخــر يتنهدن تنهيدة طويلة ويقــلن : " يا للخسارة ! " ، وقد كانت إجابات " شونينغ " فى المواد الثـلاث الأولى سيئة ، وما أن وصلت إلى امتحان المادة الرابعة - الفيزياء - حتى اشتد عليها الصداع ولم تستطع سوى الإجابة على ربع الأسئلة .

وقـد بذلت " تشن بوا "جهـدا جهـيدا من أجل الاسـتعـداد لهذا الامـتحــان وحددت لنفسها بألاتقل عن تسعين درجة فى أى من مواد الامتحان .

وأرادت من خلال هذا أن تقول لنفسها ولـزميلاتها : " لقد لحقت بكن . " ، تريد أن توضح لـ " لى تشون " بما لا يدع مجــالا للشك (وما الداعى للإخفاء) بأنها ليست تلك الفتاة التقدمية التى تطلق الشعارات الجوفاء .

لقــد بذلت كــل جهدهــا قبل الامتحان لاستـيعاب كل مسألة صعـبة ، حتى ودت لو تحـفظ المسألة ذاتــها عن ظهــر قلب . وبينمــا كانت تـؤدى امتـحان مــادة الرياضيات فى الحصة الأولى أوقعتها كثرة عدد المسائل وتنوعها فى حيص بيص رغم عدم صعوبتها ، وجاءت إجاباتها عــلى نحو غير جيد مما أثر على معنوياتها . وأثناء امتحان مادة الفيزياء ، انتابها القلق من أجل "سونينغ " وكانت النتيجة أن ارتبكت ووقعت فى خطأ بسيط . فالساعة تساوى ســتين دقيقة وهذا أمر لا يخفى على طفل

فى السابعة ، لكنها وهى التى ستلحق بأحد المعاهد العليا بعد أقل من نصف عام - بسبب ارتباكها - كتبت أن الساعة تساوى مائة دقيقة ، وهذا ضرب من ضروب الخيال فى ألف ليلة وليلة .

وبعد أن فرغت " سونينغ " من امتحان الفيزياء ذهبت إلى العيادة الطبية ودهنت جبينها بزيت النعناع[1] ، ثم عادت إلى الفصل وانخرطت فى البكاء ، وأخذت تخبر زميلاتها وهى تنتحب أنها لن تزيد عن صفر فى هذه المادة . كانت إجابات " ووتشانغ فو " سيئة هى الأخرى غير أنها لم تكن شديدة التأثر ، لكنها ما إن رأت سونينغ تبكى حتى حاولت تهدئتها ببعض الكلمات ثم انفجرت هى الأخرى فى البكاء وهى تؤكد لها أن إجاباتها أسوأ منها بعشرات المرات . ازدادت "سونينغ " حزنا ، وانزوت ومعها " ووتشانغ فو " بجوار منصة الفصل وتكومتا واندفعتا فى البكاء . نظرت " تشن بوا " إلى هذا المشهد فتسمرت فى مكانها ، وصارت " تشيانع يون " بين الضحك والبكاء . وفى اليوم التالى أخذت " سونينغ " إجازة مرضية .

وبعد أسبوع جاء الأستاذ " يوان " ليجتمع بالفصل ويعلن على الطالبات نتائجهن . ويبلغ الأستاذ "يوان وين داو" الواحدة والخمسين من عمره هذا العام ، وهو أطول مدرسى المدرسة فى مدة الخدمة . وقد بدأ وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، وقت دراسته فى الجامعة ، التدريس فى المدارس المتوسطة بالإنابة ، ثم زور بعد ذلك شهادة تخرج نظرًا لأنه لم يستطع أن يواصل الدراسة بالجامعة لأسباب مادية ، ليعمل مدرسًا منتظمًا لمادة الرياضيات وقام أيضا بتدريس بعض المقررات الأخرى مثل اللغة ، والرسم ، والموسيقى ، وغبار الطباشير دائما يكسو ملابسه ويغطى شعره وأنفه وأذنيه ونظارته ، وهو لا ينفضه عن نفسه . وكان كثيرا ما يقول

(١) أحد أنواع الأدوية الصينية الذى يستخدم كدهان لإزالة صداع الرأس .

للآخرين مازحًا : " عندما تشرحون جسدى بعد موتى تستطيعون أن تستخلصوا منه غبار الطباشير الذى سيكفى لصنع ثلاث دست من أصابع الطباشير " .

لقد استطاع أن يحفظ الكثير من المسائل نظرًا لطول الفترة التى عمل فيها بالتدريس ، عندما تطرح عليه طالبة سؤالاً ، غالبا لا ينتظر لتفرغ الطالبة من سؤالها حتى يعاجلها بالجواب مكتوبًا على السبورة ، جسده يبدو هزيلا ووجهه يفيض بالثنايا والتعاريج ، وقد وصف نفسه قائلا : " لقد امتلأت تضاريس الوجه بالجبال والأنهار والأخاديد " .

لكنه لكون طبيعة عمله مدرسًا يبدو معتدل القوام مستقيم الوسط صوته جهورى مجلجل بنغماته الطويلة المنسجمة ، فتسمعه بوضوح جميع الطالبات من الصف الأول حتى الأخير .

لم يكن يرغب الأستاذ يوان فى تولى ريادة الفصل ، اعتقادًا منه أن طالبات الصف الثالث " ليس من السهل التعامل معهن " ، لكنه تولى هذه المهمة لأن قسم الإشراف والتوجيه طلب منه أن يقوم بهذا العمل .

وقف الأستاذ يوان بالفصل وبدأ حديثه قائلاً : " أيتها الطالبات ، لقد جاءت النتيجة على غير ما يرام ، وأطنب : " لقد بلغ عدد غير الناجحات فى اختبار تلك الفترة ثلث عدد الطالبات بالفصل ، منهن خمس طالبت رسبن فى مادتين، وثلاث رسبن فى ثلاث مواد ، ولم تحصل أى طالبة على تسعين درجة فى أى مادة من المواد ، بل سبع طالبات فقط هن اللاتى حصلن على أكثر من ثمانين درجة فى كل المواد " .

وواصل الأستاذ يوان قائلا : " إن نتيجة فصلنا سيئة ، بل وفى واقع الأمر لم يسبق لها مثيل فى السوء ، وأنتن طالبات الصف الثالث – قدوة المدرسة إذا كنتن غير قادرات على تحقيق نتيجة متفوقة ، فلا يجب أيضا أن تكون النتيجة على هذا النحو من التدهور ، بالطبع ستنبرى من بينكن من تقول : " يا أستاذ ، أليست

طريقتكم فى تـوزيع الدرجات صارمـة وقاسيـة " ؟ ،" نعم " فقد كـان الأساتذة صارمين فى توزيع الدرجات هذه المرة ، فلنأخذ على سبيل المثال موضوع الرموز فى هذا الاختـبار دليلاً على ذلك . كانت لا تنقص درجـــــات مــن قبل على أخطاء فى كتابة الرمـوز ما دامت اللغة صحيـحة ، ولكن هذه المرة تغير الأمـر فلم نتغاض عن الخطأ فى كـتابة الرمـــوز فى أية مـادة من المواد . "وهل مثل هذه الصـرامة يا أسـتاذ واجـبة ؟ " ،" نعم ، أعـتقـد أنكن وصلتن إلى الصف الثـالث من المرحلة الثانوية ، وتعرفن مدى مـسئوليتنا تجاه الوطن وبناتنا الطالبات . يمكن لكن جـميعا أن تتحاورن وتتناقـشن لإبداء آرائكن فى نتيجة امتحـان هذه الفترة ، وأن تـطـرحن اقتراحاتكن التى من شأنها أن تصحح مسارنا فى المستقبل " .

طأطأن رؤوســهن ولم تنبس إحـداهن ببنت شفـة ، وراحت كل منهن تخـمن نتيجتها فى الامتحان .

استحثهن الأستاذ " يوان " مـرة ثانية قائلاً : " يمكن أن نناقش موضوع سوء نتيـجة الامتحـان ، وما أسباب ذلك ؟ "لاحظ أن الأسـاتذة ذوى الباع الطويل فى عملية التدريس غالبا ما يستخدمون عند حديثهم مع الطلاب عبارات "يمكن إثبات" " مزيدا من البحث " ، " العكس صحيح " ، " أسباب ذلك " إلخ .

قالت " تشوشيا ولينغ " وهى منكسة الرأس "الأسئلة بالغة الصعوبة" ، وقالت طالبات أخريات : "الأسئلة كثيرة ، ولم يسعفنا الوقت للإجابة عليها جميعا" .

رد الأستاذ "يوان" عن غير اقتناع "تقصـدن أن سوء نتيجة الامتحان ترجع إلى أن الأستاذ طرح أسئلة غير مناسبة؟" .

قالت " يوان شن تشى " لأبيها : "الاضطراب هو السبب الرئيس "

ولماذا الاضطراب ؟ "

ردت " تشوشيا ولينغ " مرة ثانية : "لأن الأسئلة كانت صعبة"

"أتقولينها ثانية !" .

رفعت " يانغ تشيانغ يون " يدها ونهضت من مقعدها قائلة : "أتلقين باللوم على الأسئلة ، إن أصعب الأسئلة لا تخرج عن كونها من صميم المنهج الذى درسناه. وإن أداءنا للامتحان بصورة غير جيدة جاء نتيجة لعدم استعدادنا الجيد ، أيصعب علينا الاعتراف بمثل هذه الحقيقة البسيطة الواضحة ؟" .

قالت " يوان تشن تشى " : " لماذا اجتاحنا الشعور بالاضطراب ؟ . . . . لأننا لم نعرف مفاتيح حل الأسئلة ، ولماذا لم نعرف ؟ لأننا لم نحسن الدراسة والمراجعة .

ولماذا حدث ذلك ؟ لأننا لم نجتهد بالدرجة الكافية !"

سُمع صوت يتمتم فى أحد أركان الفصل : "لم نجتهد بالدرجة الكافية؟ إننا جميعا نكاد نسقط من فرط التعب والإرهاق !"

قالت "تشن بوا " : "إننا جميعا منذ بداية الدراسة ، وخاصة فى الأسابيع الأخيرة نواظب على المذاكرة ، ولكن لا يمكن القول إن هذه المذاكرة جاءت على النحو المطلوب ؛ فأنا على سبيل المثال لم أهضم الدروس هضمًا جيداً ، وفى الآونة الأخيرة راجعتها مراجعة سريعة ، لذلك فإن جميع المعلومات تسبح داخل عقلى غير متسلسلة وغير مترابطة وأيضا غير مفهومة. لذا أنسانى الخوف من الفشل هذه المعلومات ، زد على ذلك رهبة الامتحان ، كيف لنا إذن أن نجيب على نحو جيد؟" .

قالت " لى تشون " : "إننى أؤيد رأى " تشن بوا " ، لقد كان استعدادنا للامتحان سيئًا ، والأمر ليس موضوع يوم أو يومين" .

هز الأستاذ " يوان " رأسه قائلاً : " هذا صحيح ، جد صحيح"

ثم استطرد : "لكن ما العمل فى المستقبل ؟" .

عادت الطالبات إلى الصمت مرة أخرى .

ود الأستاذ يوان لو تتمكن الطالبات بعد الانتهاء من بحث أسباب سوء نتيجة الامتحان من مواصلة البحث والتفكير فى المهام المستقبلية والتعبير عن عزيمتهن على تنفيذ ذلك. وقبل أيام حدث أن أحد فصول المدرسة الإعدادية جاءت نتيجته فى الامتحان على غير ما يرام، فأعلنَّ أمام رائد الفصل عن قرارهن هذا وتعهدن ببذل المزيد من الجهد. وأعرب قسم الإشراف والتوجيه عن رضائه تجاه هذا العهد . ويأمل الأستاذ يوان أن تسلك طالبات الصف الثالث الثانوى نفس المسلك.

ولكن الطالبات لم يعرفن شيئا عن تخطيط الأستاذ يوان ومن ثم فلم يساعدنه فى ذلك .

واضطر الأستاذ أن يطرح بنفسه هذه الفكرة قائلاً: " ألا ينبغى عليكن أن تكتبن خطابًا إلى إدارة المدرسة تعربن فيه عن شعوركن، وتتعهدن بمزيد من الاجتهاد فى المستقبل لتقليل ، بل والقضاء على ظاهرة الرسوب " .

لم تجد هذه الفكرة صدى عند الطالبات، فمشاكل الدراسة كثيرة ومتعبة ، فما جدوى كتابة مثل هذا الخطاب إذن ؟ .

ولما لم تلق الفكرة التى طرحها الأستاذ يوان قبولاً ، سألهن فى حرج : "ما رأيكن ؟ أتوافقن أم لا ؟" .

قالت " يانغ تشيانغ يون " فى صراحة ووضوح : "لا طائل من وراء كتابة مثل هذا الخطاب " .

" كيف " ؟.

" هناك العديد من المشـاكل لم يتم حلها بعد ، فكتابة هذا الخطـاب تعد هباءً منثوراً " .

رد الأستاذ يوان وقد قطب حاجبيه : "إذن فقولى ما العمل "؟.

"لست أدرى ما العمل"

أعربت بقيـة الطالبات عن اتفاقهن فى الرأى مع" تشـيانغ يون " . ولم يؤيدن فكـرة كتابة الخطــاب، اشتاط الأستاذ يوان غيظًا وقال لهن : "واصلن النقاش بقيادة رائدة الفصل ، عندى اجتماع مع اللجنة الفرعـية المنبثقة عن النقابة" . ثم خرج من الفصل مستاءً دون أى تعقيب .

واعتلت الرائدة " تشوشيا ولينغ " منصة الفصل دون أن تدرك الموقف وسألتهن ما إذا كانت هناك أراء وأفكار أخرى ؟

قالت " يانغ تشيانغ يون " : "أرى أننا يجب أن نأخذ الأمور مأخذ الجد وألا نعمد إلى السطحيات ، ونمر على المشاكل مرور الكرام" ، ومضت تقول وهى تشعر بانفراج الجو فى الفصل بعض الشىء بعد أن تركه الأستاذ . "لقد تكلمنا من لحظات عن الارتباك وأن سببه عدم المذاكرة بإتقــان ، لكنى أرى أن هناك سبباً آخر وهو عدم وضوح الهــدف من الدراسة، فهناك من تدرس من أجل الأمـتحان والحـصول على الدرجات ، ولذا تخشى الصعوبات ولا يتوفـر لها شىء من العزيمة والـصلابة وإذا ما أخـفقت فـى الجواب حتـى عن سؤال واحــد تحطمت معنوياتهــا ، وبذلك تزداد اضطرابًا كلما كانت إجاباتها فى الامتحان غير جيدة والعكس صحيح . "

بعد لحظة نهضت "لى تشون " لتتحدث وقــالــت فى لهجة ساخرة : " أولاً أود ألا أتحدث طويلاً فى موضوع إتقان الدراسة من عدمه فهذا أمر كلنا نعرفه ونحن فى غنى عن الحديث عــنه ، لقد ذكرت " يانغ تشـيانغ يون " أن نتيـجة الامتـحان جاءت سيئة لعدم وضوح الهدف من الدراسة ، وهذه كلمات رنانة. بمقدورك عندما

تأخـذك الرهبـة أثناء الامتـحـان أن تتفـوهى بجـملة واحـدة "إننى أتعلم من أجل وطنى" ، أليس ذلك كفيلا بأن يطرد عنك الشيطان ويخلصك من الارتباك ؟ "

حينئذ سألت " ووتـشانغ فو " زميلاتها بصوت خـفيض : " ماذا تعنى بطرد الشياطين ؟ يالها من كلمـات غريبة؟ ، إن نتيجتنا فى الامتحان سـيئة ، بالغة السوء مثلما ذكر الأستاذ ، كلنا نشـعر بالحزن والأسـى ولكن " يانغ تشيانغ يون " تخرج علينا بهذه الكلمات الرنانة ! فلنأخذ " تـشن بوا " على سبيل المثال ، إنـنى أذكـر ما يعن فى خاطرى ، " تشـــن بوا " . . لايـأخذك الغـضب ، إننى أعـرف أن " يانغ تشيانغ يون " لم تكن أبد تقصـدك بكلامها عن الهدف من الدراسة ، ولكن تشن أخبرتنى أنها كانت أكثرنا ارتباكًا ورهبة ، حـتى أنها كتبت أن الساعة فيها مائة دقيقة ، إن الأمر غاية فى البساطة ، علينا أن نحاسب أنفسنا ، ما الذى جعل نتيجة امتـحاناتنا تصل إلى هذا الحد الذى نخجـل معه من لقاء الآخـرين "ألم يلق فصلنا الكثير من المدح والثناء من قبل ، لقد قمنا تحت قيادة أحـد فروع رابطة الشبيبة بعقد الاجـتمـاعات وإصـدار الشعـارات وتقـديم البرامج ، ولكـن من منا التفـتت إلى الدراسة؟ إننى أذكر أنه عندما انضمت " تشوتشيـا ولينغ " إلى منظمة رابطة الشبيبة أن امتدحتها " يانغ تشيـانغ يون " ولم يكن ذلك لتحلّيها بنكـران الـذات أو لغيره من المعانى بل لأن " تشوشيا ولينغ " تقوم بالأعمال العامة دون اهتمام بما إذا كانت تؤثر على دراستـها ! إن مقولـة " تشن بوا " صحيحـة فلم نكن نستذكـر بإتقان ، الأساس ليس جيدًا ، أساسنا جميعًا ليس جيدًا.

"إننى أنصح " تشن بوا "من صميم قلبى ، وبالطبع فـإنه من حقها أن تأخذ أو لا تأخذ بهذه النصيحة ، لا حاجة إلى عـقد الاجتماعات والحديث مع الزميلات واحدة واحدة ، لتهتمى أولاً بدراستك ، وأيضا أتوجه بالنصيحة إلى " يانغ تشيانغ يون " وأنا أعرف أنها تكرهنى ، أقول لها ابتعدى عن التـشدق بالعبارات السياسية ، أليس من الأفضل إذا توفر لك وقت فراغ أن ترسمى بعض الرسوم الهندسية ؟ وبقية

طالبات فصلنا علينا جميعًا أن ندرس بجدية، أما أن تنتخبينى أو أنتخبك ، أو الحديث عن الأفكار السياسية، أن تنتقدينى أو أنتقدك ، أن نطلب عضوية الحزب ، فهى كلها أمور مستقبلية وعلينا أن نرجئها الآن . "انتهى كلامى ،وبالطبع هو خطأ من وجهة نظركن ، ولكنى أستأذنكن فى أن تمعنوا فيه الفكر ، اختتمت لى تشون كلامها وألقت بنفسها فى تأثر على المقعد.

لم تتوقع إحداهن أن تتحدث " لى تشون " طويلاً بهذه الصورة ، وما لبث هذا الحديث أن أثار نوعًا من النقاش والجدل بينهن. وقد جاء الحديث كما لو كان حبيسًا بين ضلوعها فلم يهدأ لها بال حتى أفرغت كل ما فى جعبتها دون لف أو دوران ودون خوف أو وجل . كانت هناك بعض الزميلات اللاتى لم يدركن المقصد الرئيسى من كلام " لى تشون " ، وأخذن يتساءلن : "هل وصل فصلنا إلى هذا الحد من السوء الذى تتحدث عنه لى تشون ؟ "إن الحديث عن الهدف من الدراسة هو فى حقيقة الأمر حديث معنوى " "ألا ترحب " لى تشون " بانضمام طالبات أخريات إلى صفوف الحزب؟"

حارت " تشوشيا ولينغ " فى أمرها ، ووقفت تنادى "على من ترغب فى الحديث أن ترفع يدها بسرعة" قالت " يوان شن تشى " : "إننى أرجو من لى تشون أن تشرح لنا المغزى النهائى الذى يكمن وراء فكرتها"

- "إن فكرتى تتلخص فى أن نستذكر دروسنا جيدًا "
- "ولا نشارك فى الأنشطة العامة؟"
- "لم أقل ذلك"
- "ولا نهتم بالاتجاهات الفكرية ؟"

"لم أقل ذلك أيضًا"

نظرت " يانغ تشيـانغ يون " إلى " تشن بوا "، وهـى تنتظر منهـا أن تلقى الضـوء على هذا الموقف لكنهـا لزمت الصـمت برهة ، ثم نهـضت من مـجلسهـا وتحدثت لـكـن كلامهـا جاء مخيـبًا لآمـال " تشيانغ يون ".

قالت " تشن بوا " : إننى أرى أننا لم نسـتعد جيـدًا لعقد اجتـماع الفصل ، أيضا الأستاذ غير مـوجود ، ولا يمكننا على هذا النحو المفاجئ أن نقلب آراء " لى تشون " ، لذا فـإننى أقتـرح أن ننهى الاجتـماع ونفكر جمـيعًـا فى هذا الأمر من جديد"

أعلنت " تشوشيا ولينغ " عن انتهاء الاجتماع.

ذهبت " تشيانغ يون " تسأل " تشن بوا " : " لماذا لا تتكلمين ؟ "

- "ماذا أقول ؟"

- " ماذا تقولين ؟ بالطبع سيكون معـارضا لكلام لى تشون ، وكلام لى تشون به أيضا بعض الجوانب الصحيحة"

- "طبعا ! طالبة صينـية تتحدث اللغة الصينية ، فهى تتكلم بلغـة صحيحة من حيث القواعد على الأقل ، أعتقد أنه يجب ألاَّ تتراجعى !"

- "إذن على أى أساس أشهر سلاحى "

- "أهكذا تقولين ، هل لك أيضا أن تأخذى بنصائح لى تشون"

- "عزيزتى يانغ ، أنت تعرفين أن هناك الكثير من المشاكل والهموم لأن حالتى الدراسية ليست على ما يرام ! وغالبا إذاً لم نستطع تحقيق نتائج فعلية فإننا لا نستطيع سوى التشدق بـالكلام تعبيراً عن صحة مـوقفنا ، ولكن ماذا نجنى من وراء ذلك ؟ حتى إذا لم تكن " لى تشون " موجودة فإننـى أخشى اتهام الزميلات بقولهن لى :

"سيـادة سكرتيرة اللجنة الفرعـية لرابطة الشبـيبة، حضـرتك لا تعرفين أن السـاعة تساوى ستين دقيقة. "

- "كفاك أنانية ! إن " شونينغ " لم تحضر إلى المدرسة لأكثر من أسبوع، وربما وقعت فى حالة نفـسية سيئة بسـبب سوء أدائها فى الامتحان . وأيضًـا ووتشانغ فو التى أخبرتنى أنها شربت شربة الأرز فى طفولتها [١] لأن لبن أمها لم يكن كافيًـا ، ولذا فهى على درجة خاصـة من الغباء ولا سبيل أمامها للتـفوق فى الدراسة . وقد ثارت قبل وبعـد هذا الامتـحان عديد من المشاكل ، ليس بسبب نتيجة الامتحان، وإنما السبب يكمن فى نفوسنا نحن ، إنك تستغرقين فى الخجل ولوم النفس ، فهل يحق لك هذا الاستغراق فى الخجل على طول الخط ؟ "

نظرت " تشن بوا " إلى " تشيانغ يون "وأحست أنها محقة فى كلامها .

فأحيانًا مـا تتكلم " تشيانغ يون " كلاما جادا غيـر متوقع ينم عن الذكاء وهى نفسهـا لا تشعر بذلك، لكن " تشن بوا " أحست بروعـة هذا الكلام، وعبرت عن شكرها لتشيانغ ووصفتها بأنها شجاعة لذلك كـثيرًا ما تصيب ، وبطبيعة الحال كثيرًا ما تخطئ أيضا ، ولكن إذا ما حدث هذا الخطأ فتصـحيحه أمر يسـير . وعلى أى حـال فشـعـور " تشن بوا " بالخجل ولوم النفس لم تخف حـدته بعد ، لذلك سمرت ناظريها على " تشيانغ يون " دونما أن تنبس ببنت شفة .

جـاء العامل المختص بحجرة التحضير الخاصة بالأساتذة يخـبر " تشن بوا " بأن الأستـاذ " يوان " يريدهـا فى أمـر هام. عـادت " يانغ تشيـانغ يون " إلى مجـلسهـا وأخذت تفكر بعض الوقت ثم ذهبت إلـى مكتبـة اللجنة الرئيسـة لرابطة الشبيبة .

(١) هناك اعتقاد سائد فى الصين بأن من يشرب شربة الأرز فى طفولته يصير غبيًا فى شبابه .

(٧)

توجه الأستاذ " يوان " إلى مكتب التحضير الخاص بالمدرسين بعد أن غادر الفصل ، وفى ذلك الوقت لوحت له مديرة المدرسة السيدة "قوا" التى كانت تقف عند باب مكتبها فغير وجهته نحو مكتب المديرة التى طلبت منه الجلوس ، وسألته : " هل كان اجتماع الفصل على ما يرام ؟ "

- " لا، لا ، لقد قلت من قبل إننى لا أستطيع القيام بمهام ريادة هذا الفصل وعلاوة على ذلك فهن طالبات الصف الثالث ، وكلهن أعضاء فى الحزب الشيوعى أو فى رابطة الشبيبة ، وهن على درجة عالية من الوعى السياسى ، ومن الصعب التعامل معهن " .

سألت المديرة فى دهشة : " أعضاء فى الحزب الشيوعى وفى رابطة الشبيبة فكيف يكون التعامل معهن صعب ؟ . "

أخذ الأستاذ " يوان " يقص عليها كيف أن يانغ تشيانغ يون أفسدت ، فى غير احترام ،خطته فى كتابة خطاب موجه إلى المديرة يحيطها فيه بحيثيات الاجتماع.

وما أن انتهى من كلامه حتى بادر المديرة سائلاً : " هل تريد المديرة منى شيئا؟ " .

أرادت المديرة أن تتحدث معه فى موضوع " مارى " وهى طالبة بالصف الثالث انتقلت إلى المدرسة فى أول العام الدراسى، وهى مسيحية كاثوليكية ، ماضيها غير معروف على نحو واضح ، تقيم الآن فى إحدى دور الراهبات الكاثوليك ، يقوم على رعايتها كاهن يدعى " لى " ، وقد أجابت هذه الطالبة إجابة غريبة عن أحد

أسئلة امتحان التاريخ الذى أجرى مؤخرًا ، مما جعل مدرس التاريخ ينقل هذا الموقف إلى مديرة المدرسة ، وكان السؤال هو : " اسردى تاريخ نضال حركة " لى خه توان "[1] وكانت إجابة مارى : " إن الحركة هى أكبر كارثة وقعت فى الصين على رأس الكاثوليك ، حيث قام الأبالسة من أعضاء الحركة بحرق الكنائس وقتل رجال الدين حتى إن الكثيرين من الكاثوليك قد راحو ضحية لهذه الكارثة ، فأرسلت السيدة العذراء ابنها اليسوع لينزل عقابه بهؤلاء الشياطين ويلقى بهم فى الجحيم .

وأسفل هذه الفقرة كتبت (الإجابة الأخرى المطابقة) للمعلومات التى قرأتها فى كتاب التاريخ ، وكتبت تحتها: "هذا هو الجواب المطابق لشرح الأستاذ ، وأرجوه أن يضع الدرجة حسب هذه الإجابة".

سحبت المديرة ورقة الإجابة الخاصة " بمارى " وأعطتها للأستاذ " يوان " يقرأها ، والذى حملق فى الورقة مذهولاً وهو يقول : " هذه الفتاة لم أشهد لها مثيلاً من قبل . "

اقتربت المديرة من الأستاذ " يوان " وقالت له فى حزم : "إن الأمر ليس هينًا . "

فالسموم تسرى فى عروقها ، حيث تقوم ذيول الإمبريالية داخل الجمعية الكاثوليكية بحشو عقلها بمثل هذه الأفكار السامة ، وهذه هى الاستفزازات التى تعلنها علينا الذيول الإمبريالية داخل الجمعية الكاثوليكية محاولة أن تدخل معنا فى صراع على عقول الشباب . هل نسمح لإحدى الطالبات بأن تنظر الى أبطال بلادها

(١) هى حركة منبثقة عن (انتفاضة الفلاحين) فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهدفها هو محاربة الإمبريالية التى كانت تعتدى على الصين .

الوطنيين على أنهم أبالسة ، وتصف الغزاة من جيوش التحالف الثمانية[1] بأنهم رسل قديسون ؟ " .

رد الأستاذ " يوان " : " سوف أستدعيها لأتحدث معها فى هذا الأمر " .

هزت المديرة رأسها وقالت : " فلنستطلع الأمور أولاً ، ونتحدث مع اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة ومجلس الفصل ، ولنعرف من زميلاتها من هى الأكثر قربًا منها ؟ . ومن هنا تبدأ العمل . لأنك إذا استدعيتها مباشرة سوف يصيبها الخوف والوجل " .

بعد انتهائهما من التشاور حول هذا الموضوع ، عادت المديرة تسأل : " هل كانت يانغ تشيانغ يون غير مهذبة مع أستاذها ؟ " .

أشعل الأستاذ سيجارة وسحب منها نفسًا عميقًا وقال : " فى حقيقة الأمر لم تفعل تشيانغ يون شيئًا ، غير أن ريادة هذا الفصل من الأمور الصعبة ، فهن يشاركن فى كافة الأنشطة والتنظيمات ، ومعرفتهن تفوق دائرة معارف الأستاذ فهن وثيقات الصلة برابطة الشبيبة الشيوعية ،وكثير من الأمور التى لم نعرفها بعد ، هن على دراية تامة بها . إنهن يمضين فى وثبات متتالية ، ورائد الفصل لا يستطيع أن يلاحقهن فى ذلك ، لقد حدد مكتب الإشراف والتوجيه المهمة الرئيسية لرائد الفصل فى حدود التربية الفكرية للطالبات ، ولكن أعباءنا الفكرية فى حقيقة الأمر تزيد على أعباء الطالبات بكثير ،وإذا تولينا ريادة الفصل عجزنا عن القيام بمهامها وإذا لم نقم بها فهذا أمر غير ملائم وفى غير موضعه ، هناك عدد غير قليل من رواد الفصول فى مدرستنا يعانون من هذه المشكلة . "

(١) جيوش التحالف الثمانية هى جيوش " روسيا وأمريكا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا واليابان والنمسا" المتحالفة والتى كانت تعتدى على الصين فى سنة ١٩٠٠ وتحتل كثيراً من أراضى الصين وتجبر حكومة الصين على قبول شروطها .

هزت المديرة رأسها بالإيجاب وقالت فى تأثر شديد : "نعم " ، فجيلنا جيل سيء الحظ فعندما كنا طلابًا لم ننخرط فى صفوف الطلائع ولم ننضم إلى رابطة الشبيبة ، ولم نتلق مبادئ وتعاليم الحزب الشيوعى ، لكن يجب ألا تتحطم معنوياتنا وعلينا أن نساير الركب ونلاحق العصر ، وليكن ارتياد الطلاب لهذا المجال وانطلاقهم فيه حافزًا ودافعًا للطالب. وإذا تفوق تلاميذنا علينا فهذا هو غايتنا ومبعث سعادتنا. وإذا استطعنا أن نمد لهم يد العون ونساعدهم فهذا يزيد من سعادتنا وبهجة نفوسنا . . . . " .

شعر الأستاذ "يوان " من كلام مديرة المدرسة ولهجتها وملامحها أن لديها فيضًا من الحب العميق للشباب والطلاب ، وشعر أن عدوى هذا الحب قد انتقلت إلى قلبه هو الآخر فصمت ، ومر على سكوتهما وقت طويل وهما يفكران فى ظروفهما وظروف وأحوال الطلاب وأحوال الجيل الحالى وجيل المستقبل . ولم يتوقف الأستاذ " يوان " عن التدخين بينما أخذت المديرة تنقر بأصابعها على المكتب.

عاد الأستاذ " يوان " إلى حجرة التحضير وطلب " تشن بوا " وتحدث معها فى موضوع مارى ، وما لبثت " تشن بوا " أن عادت إلى الفصل واستغرقت فى التفكير فى هذا الموضوع حتى جاءها العامل يطلبها مرة أخرى لترد على التليفون.

كيف تأتيها مكالمة تليفونية على حجرة المدرسين ؟ انتابها القلق وذهبت لترد ، إنه صوت خالتها ، وما إن سمعته حتى خفق قلبها بين ضلوعها .

" تشن بوا ؟ عودى على وجه السرعة ، أمك مريضة ، . . . . لا ، عودى فورًا ، ماذا تقولين ؟ تراجعين دروسك ؟ على راحتك . . . "

ثم أغلقت التليفون فى وجه تشن بوا .

اصفر وجهها ، وطلبت إجازة واستعدت للعودة .

* * *

ذهبت " يانغ تشيانغ يون " إلى رابطة الشبيبة بالمدرسة ، ولم تكن " لوى تشن " سكرتيرة الرابطة موجودة ، بحثت عنها طولا وعرضا حتى وجدتها ـ فقدمت لها تقريراً شفويًا عن أحوال ما بعد الامتحان ، وطرحت أمامها العديد من الملاحظات عن " لى تشون " ، والأستاذ " يوان " و " تشن بوا " . . . .

أبدت " لوى تشن " تأييدها لآراء " تشيانغ يون " ، وقالت : " نعم لقد انتهيت من فورى من مناقشة مشكلة المزج بين الدراسة وتعزيز التوعية الفكرية فى لجنة رابطة الشبيبة بالحى ، إن آراء لى تشون غير صحيحة ! فهى تتنافى مع الاتجاهات والأفكار السياسية وأن " سونينغ " و " وتشانغ فو " يجب أن تحظيا بالمساعدة حتى تستطيعا تصحيح أفكارهما ، بشىء من الجد والمثابرة سوف تتحسن دراستهما ويحصلان على الدرجة النهائية، وعلى تشن بوا أن تتمسك بآرائها وأفكارها الصحيحة ، غير أنه يجب أن تولين الاهتمام بدراستكن بالفصل ، حتى إذا ما تحسنت أحوالكن استطعتن أن تلعبن دوراً أكبر وأعمق . وهذا الطريق بالطبع لا يخلو من العقبات ، ولكن متى كنا نحن شابات رابطة الشبيبة نخشى هذه العقبات !

* * *

استعارت " تشن بوا " من المكتبة بعض الكتب التى تسجل أحداث حركة " يى خه توان " التى قام بها الفلاحون ، وأثناء خروجها من باب المدرسة شاهدت مارى وهى تحمل حقيبة كتبها وتسير إلى جوار سور المدرسة ، نادتها : " مارى ! " التفتت نحوها وتوقفت، وقعت عينا " تشن بوا " أول ما وقعت على عينى مارى اللتين يغلفهما حزن دفين ، وجفنيها المسدولين على العينين كأنهما جفنان مزدوجان

هاتان العينان تبدوان أكثر اتساعًا وسط وجهها النحيل الشاحب ، ترى البلادة فى عينيها حينًا وتراها متوقدة براقة أحيانا ، ترى فيهما الشك والخوف حينا ، والصدق والإخلاص أحيانًا أخرى . لها ندب وسط الحاجب الأيسر وآخر أسفل ذقنها . ساعدها الهزيل يجعلك تشفق عليها من حمل حقيبة الكتب ، يبدو جسدها كأنه شجيرة ذابلة هزيلة تكاثرت عليها نكبات الدهر ونوائبه . هزت رأسها بالاستفهام .

سألتها تشن بوا : " أتعودين إلى المنزل ؟ "

أومأت بالإيجاب .

قالت تشن بوا : " وأنا أيضا أعود إلى المنزل، أمى مريضة "

نظرت إلى تشن بوا وأومأت معبرة عن التعاطف معها .

سألتها تشن بوا : "أين تسكنين ؟" أشارت بيدها وقالت : " فى هذه الناحية " .

وعندما وصلتا إلى الشارع العمومى ، أرادت " مارى " أن تأخذ جانبًا ، بينما ستسير " تشن بوا " فى طريق مستقيم . قالت " تشن " : " إلى اللقاء " وكأن مارى قد تذكرت فجأة ، وقالت " أمك مريضة ، اصطحبيها إلى المستشفى " .

ثم دخلت فى حارة ضيقة .

توقفت بوا عن السير برهة وراحت ترقب جسد مارى النحيل وهى تحمل حقيبتها المكتظة بالكتب وتختفى عن الأنظار شيئًا فشيئًا . فاعتمل فى قلب "تشن" شعور بالألم والمرارة لا تقدر على وصفه .

* * *

عادت تشن إلى البيت ، فوجدت أمها قد ذهبت إلى المستشفى فأسرعت إلى هناك . قال لها الطبيب : " لا تنزعجى فالأمر لا يتجاوز نزلة برد حادة ، غير أن درجة حرارتها وصلت إلى أقصى حد ممكن - ٤١ درجة . إن المريضة شديدة الضعف والهزال ، وتعانى لفترة طويلة من أمراض القلب ، لذلك أصيبت بالإغماء ، وتحسنت حالتها بعض الشيء بعد أن أعطيتها جرعة من الدواء .»

حملت تشن بوا الدواء واصطحبت أمها عائدة أدارجها إلى المنزل .

ترقد الأم فى إحدى الغرف الشرقية ،تتكسر أشعة الشمس عند الغروب فوق حقيبة بالية وسرة أكل عليها الدهر وشرب .

رقدت الأم على ظهرها ، وبللت تشن بوا فوطة بماء بارد ووضعتها على جبين أمها وفقًا لنصيحة الطبيب ، واربت الأم عينيها الذابلتين وسألت :

"أوليس عندك دروس ؟" .

- "انتهيت منها " .

- « ولا اجتماعات " .

- "لا" .

سألت " تشن بوا " أمها عن حالتها المرضية ، فرسمت الأم على وجهها ابتسامة مغتصبة وقالت : " لا شيء " ، ألا تعرفين أننى أمرض مائتى يوم فى السنة ؟" .

وقالت لها زوجة خالها مرة تلو المرة ، بأن أمها لا تهتم بصحتها ، فما إن تحسنت حالتها حتى شغلت نفسها فى أمور كثيرة لكى ترقد طريحة الفراش من جديد . إنا مازلنا فى الخريف ولكنها شغلت نفسها بإعداد معطف محشو بالقطن ترتدينه أنت فى الشتاء ، وصادق أن تساقط رذاذ مطر خفيف ليلة أول أمس حيث

كانت مشغولة بعمل المعطف ، وأضافت زوجة الخال : "ونحن الآن فى الخريف حيث يشتد البرد مع كل سخة مطر وإذا تركنا نسماته الباردة تنفذ الى العظام ، فكيف لنا ألا نمرض ؟" .

أعدت " تشن بوا " وجبة من المكرونة ،أكلت الأم قليلاً منها ثم راحت فى سبات عميق ، كنست تشن الأرض ، ورفعت غطاء الشباك الورقى قليلا ، ثم جاءت بفوطة أخرى مبللة بالماء ووضعتها على جبين أمها . بدأ الليل ينسج خيوطه، جلست "تشن" وتذكرت أنها لم تتناول العشاء ، فأحضرت قطعتين من المانتو (١) ، والتهمتهما فى نهم وهى تجوب بناظريها أنحاء هذه الغرفة الصغيرة التى قضت فيها طفولتها البائسة ، وفجأة تهادى إلى سامعيها صوت دقات طبول تاجر الخردة المتجول مما جعلها تجهش بالبكاء . . . . . . "

تذكرت نفسها وهى فى الخامسة ولم تلتحق بالمدرسة بعد ، كان أشد ما يؤلمها أنها لا تعرف فيم وكيف تقضى أيامها . ذات يوم من أيام الصيف القاتلة ، كانت الشمس معلقة فى كبد السماء والجو شديد الحرارة وكان الكبار يأخذون راحة وقت القيلولة فماذا عسى أن تفعل طفلة صغيرة " كتشن بوا "؟، لم يكن لها صديقات ، وليس لديها دمية ولا مربية ، وأنما كان كل عالمها هو ذلك الحوش الصغير .

تذكرت « تشن » عندما التقطت عودا من الحطب وجعلت منه دميتها وراحت تقذفه الى أعلى وتتلقاه وهى تكاد تطير معه من فرط النشوة والسعادة ، حتى رمته بقوة فلم تعرف له مستقراً - الحوش لا يختلف كثيرا عن الحجرة حيث يزدحم بالأشياء القديمة البالية - وبحثت عنه فى كل مكان ، على السلالم ، ووراء عتبة الباب ، وحتى فى كومة الفحم فلم تجد له أثراً ، وقفت تبكى حتى تورمت عيناها، ولكن ما من مجيب ، وفجأة سمعت أصوات دقات الطبول الخفيفة ذات الإيقاع

(١) المانتو هو الخبز الصينى ، يصنع من العجين المخمر المنضوج على البخار .

الرتيب فاندفعت نحو الباب ، وأخذت تمعن النظر فى تاجر الركشة ، ووقفت كأنها تسمرت فى مكانها وكـأن شيئا يجثم على صدرها . فقد سيطر علـى قلبها منذ عهد الطفولة البـريئة شعـور بالفقر والذلة والحـياة الفارغـة . عهد الطفـولة ، والطفولة البريئـة، الوردية قضتنهـا بين طبول تاجر الركشـة الرتيبة الإيقـاع ووسط هذا الفراغ الكئيب والملل القاتل .

نـادت الأم عـلى تشـن : " صـغيرتى بـوا ألم تعودى للمدرسة بعد ؟ " .

– "لن أعود حتى تتحسن صحة حضرتك يا أمى " .

– " لاداعى ، لاتتأخرى عن دروسك . "

– " لا يهم " .

اطمأن قلب الأم ، ثم تأهبت للنوم مرة أخرى .

سقط حـجر فى الماء ، فتطاير الرذاذ فـى كل اتجاه ، وما إن تكلمت مع أمـها حتى ذهبت عنها هواجس الذكريات . غاصت الأم فى نوم عميق ، وراحت أنفاسها تدخل وتخرج بانتظام .

يبدو أن مرضـها هذه المرة لم يكن مزعجًا إلى حـد كبير ، وأنها سـوف تسترد صحـتها قـريبًا ، وأصبح علـى " تشن بوا " أن تتردد على البيت للاطـمئنان على أمها، هذا هو الواجب ، فهى تشعر بتقصير شديد فى واجبها نحو أمها .

مـا إن سحـبت « تشن بوا » كتاب " تاريخ الصـين الحديث " من الحقيـبة ، حتى تذكرت على الفور مارى وعينيها اللـتين تنطقان بالحزن والأسى كما لو كان لها دين فى عنق تشن ، وتذكرت أيضـا " تشيانغ يون " ، "سـونينغ" ، "لى تشون" ، والأستاذ "يوان" ، شـعرت بالتقصيـر فى حقهم جميـعًا ، فقد انتظروا جمـيعًا أن تؤدى الكثير من الواجبات ، لكنها لم تؤد واجـبًا واحدًا على خير ما يرام ، وعندما

اهتدت إلى التفكير فى هذا الأمر،كانت كعادتها دائما فى مواجهة هذه الأحاسيس ، لم تستول عليهـا الهموم ولكن دبت الروح والنشاط فى كيانهـا : "إن الحياة تطالبنى دائما ببـذل المزيد من الجهـد والعرق ،ولن أتقاعس ، عـلىَّ إذن أن أعمل ولا شىء غير العمل ! "

ثم عادت إلى ذكريات طفولتها التى ذكـرتها "بخوان لى تشينغ" ، التى أشعلت نار الثورة بداخلها فبعثت نور الأمل فى قلبها الذى كان يعمه الحزن ومن ثم استمرت على درب النضال ، لم تفتر لها عزيمة ولم يفت لها فى عضد .

عضت على أنيابها وتنهدت تنهيدة عميقة ثم أضاءت المصباح وثبتت عليه ورقة (لتمنع أشعـة الضوء من إزعاج أمها) ، وقلـبت الصفحة على انتفـاضة "يى خه توان "وأخذت تطالعها صفحة تلو الأخرى بدقة متناهية .

عادت "تشيانغ يون" من مقر رابطة الشبيبة ، ووجدت الرسالة التى تركتها لها تشن بوا "لقد مرضت أمى من جديد ، وعدت للاطمئنان عليها " .

وضعـت الورقة فى جيبها ثم أخذت تضع برنامجا لنفـسها : " أولاً ، أذاكر مادة التاريخ جيداً مساء اليـوم. ثانيًا ، غدا السبت أذهب بـعد الـظـهـر لـزيـارة « سونينغ». ثالثًا : أفكر فى كيفية رد الصاع صاعين إلى «لى تشون» . . . .

* * *

وصلت «تشيـانغ يون» إلى منـزل «سـونـينغ» ، الـباب داكـن اللون ،عليه آثار رموز غير واضحة " النجوم سحر السماء ، والرجال العظام روعة الأرض " كل من حلقتى الباب مثبتتـين داخل فم رأس حيوان منحوتة على الباب ، ووالد سونينغ هو أحد أصحاب المصانع الخاصة وقد ألقى القبض عليـه أثناء فترة مقاومة عناصر الفساد الجسيمـة بسبب تصرفاته الخطيرة التى تندرج تحت هذه العناصر ورفـضه التعاون مع فرقة التـفتيش والاستـقصاء ، لكنه أفرج عنه أخـيراً ؛ لذلك تشعر "تشـيانغ يون" باضطراب بسبب هذه الزيارة .

قرعت "تشيانغ يون" الباب بخفة ولطف ، أطلت عجوز قصيرة القامة إلى حد يثير الضحك برأسها من بين فرجة مصرعى الباب ، شعرها ملفوف على مؤخرة رأسها ، وتربط حول وسطها مريلة ذات لون أبيض باهت .

سألتها : " من تريدين ؟ " .

- "سونينغ " .

أخذت عينا العجوز تجوب " تشيانغ يون" من أم رأسها حتى أخمص قدميها ، ثم كست وجهها ابتسامة عريضة ، وقالت لها بلسان بكينى ناعم ينم عن المكر :

" سيادتك تسألين عن حضرتها ، إن حضرتها مرهقة هذه الأيام، وعلى ما أعتقد أنها تأخذ الآن قسطًا من الراحة " .

" أنا زميلتها ، جئت للاطمئنان عليها ، ويمكن أن أنتظرها إن كانت نائمة " .

" تفضلى إذن " وقادتها من المدخل إلى داخل فناء البيت الذى تحوطه الغرف من الجهات الأربع ، أشارت إلى أحد الممرات القريبة وقالت : " تفضلى بالسير فى الممر حتى تصلى إلى الحوش الخلفى الصغير حيث تسكن الآنسة سو فى الحجرة الشرقية من الصالون الشمالى»

لم تفهم "تشيانغ يون" ماذا تعنى العجوز بكلمة الآنسة ، وعندما استوعبتها فيما بعد حارت دمعة فى المآقى وبسمة مرة على الشفاه .

وصلت «تشيانغ » إلى الحوش الخلفى ، صعدت الدرجات المؤدية إلى الصالون البحرى ونادت : " سونينغ " .

انفرجت ستارة من الحرير الأبيض عن شباك شرقى من الزجاج ، وأطلت «سونينغ» بوجهها ، لم تطق «تشيانغ يون» صبرًا حتى تهلل وجهها لرؤية «سونينغ» واندفعت كالريح إلى داخل الحجرة .

سلمت تشيانغ على زميلتها سو ، وجلست إلى جوارها عند رأس السرير الذى يوضع إلى الجنوب ، ويستند إلى جوار الشبـاك ، وسونينغ تجلس نصف جلسة على السرير ، واللحاف مكوم على طرف الفراش بشكل لا يبـعث على الراحة، سحبت "تشيانغ يون" طرفه المتدلى على الأرض ، وجابت الحجرة بطرف عينيها فإذا بالركن الشرقى الشمـالى تـرى فيه مكتبـة صغيرة مـهملة تتكدس فوقها كـومة من الكتب والجرائد ، بجوارها منضدة صـغيرة من الخيزران عليها مقلمة من الـبامبو وليس بها أقلام ، ومزهرية من الصينى ، خالية من الزهور أيضـا، وفى مواجهة المكتبة توجد أدوات الغسيل والاستحمام.

وعلى الحـائط تعلق لوحة من البـامبـو للرسام الشـهيـر تشن باى تشـياو، (١) وصورة أخـرى مبـتذلة فى حـجم لوحة نتـيجـة الحائط لفـتاة حـسناء ترقص على الأرجوحة ، ثم صورة فوتوغرافية بالألوان الطبيعية للبحيرة الغربية.

وبجوار فراش «سونينـغ » توجد منضدة صغيرة عليهـا بعض زجاجات الدواء، وترمس وكوب ماء.

شمت " تشـيانغ يون " بما تتـميـز به من حاسة شـم قوية رائحة غـريبة غـير متـجانسـة، هى خليط من رائحة الدواء والصـابون والأوراق واللوحات القـديمة ورائحة لحاف سونينغ . قالت تشيانغ "افتحى الشباك ، جددى الهواء الفاسد".

قالت سونينغ فى تردد : "إن الشعب الهوائية . . . . "

أطلت «تشـيـانغ يون» برأسهـا إلى الخـارج وقالت : "الـيوم لا توجـد رياح، والشمس مشرقة ومن الأفضل لصحتك أن تفتحى النافذة".

صعدت «تشيانـغ يون» إلى قاعدة أرضية النافذة لتفتح الجـزء العلوى الصغير منه، لمحت عيناها كتاب "عشق الأرواح" للكاتب شويو، موضوعًا على قاعدة النافذة.

(١) شاعر ورسام وخطاط شهير فى الصين فى أواخر القرن الماضى .

هبطت «تشيانغ يون» والتقطت الكتاب وأخذت تقلب صفحاته فى ريبة وشك، بينما أحنت سونينغ رأسها وكأنها ارتكبت فعلاً شائنًا.

- " يا للسماء، ما هذا الذى تقرأين؟ " .

ردت "سونينغ " فى لـهجة التى تبـرر خطأها : "إننى مريضـة وقراءة الكتب الأخرى فيها مشقة على النفس" .

قـالت " تشـيـانغ يون " والغـيظ يكاد يفـتك بها : " عـشق الأرواح ، هذا الكتاب يبدو من عنوانه أنه فـارغ عديم الفائدة؟ تتعبـين من قراءة الـكتب الأخـرى ولا تنزعجين من قراءة مثل هذا الكتاب"؟ .

تلعثـمت " سونينغ " ولم تجـد ما ترد به ، بل أخذت أصـابعهـا تفرك طرف اللحاف وبـدت فى حـالة يرثى لـها . سـألتها " تـشيانغ يون " عن صـحتـها ، قالت: " لا شىء سوى نوبات من وجع الرأس وهـذا ليس ليوم أو يومين ، ولكن كلما تكدرت نفسى داهمنى صداع قاتل، وأشعر برأسى أصبح بلا فائدة. "

- " رأسك أصبح بلا فائدة " .

ردت " سونينغ " وقد حملت مخدتها ووضعتهـا فوق ركبتها وأخذت تداعبها فى لطف ومودة: "أشـعر أننى ، أصير غـبية شيئًـا فشيئًا ، ذاكـرتى وقدرتى على الفهم انخفضتا بشكل غـير معقول، أحس وأنا فى الفراش بدوار فى رأسى ، وآلام مثل وخذ الإبر ، إننى أخشى . . . . "

قـالـت " تشـيـانغ يون " فى عطف يشـوبه القلق : " لا توهمى نفـسك ، ليست هذه أول مرة أعرفك فـيها ، أعرف أنك لست غبية ، لكن تحـبين أن تصبغى نفسك بلون من التـشاؤم ، وربما تسللت إليك هذه الأفكار بسـبب وحدتك فى هذه الحجرة السقيمة" .

نظرت " سونينغ " إلى " تشيانغ " نظرة حب وارتياح ، واقتربت منها وأومأت قائلة : " نعم عندى بعض المخاوف ، وأخشى ألا أتمكن من متابعة الدروس ، والرسوب فى الامتحان وعدم النجاح فى الدور الثانى ، ثم التخلف" .

ردت " تشيانغ يون " فى غضب : " يا لك من فتاة ! إن الإنسان تكون صحته على أحسن ما يرام ، فيقول فى نفسه : "ويحتمل أن أمرض إذا أصابتنى نوبة من البرد ، وإذا لم أشف من هذا المرض يحتمل أن أصاب بعاهة ، وإذا لم أعالج من هذه العاهة يحتمل أن أموت . . . . ، أليس هذا لون من الهذيان ؟ إن فصلنا جميعا يستذكر دروسه بكل الجد والحماس ، لم تتكسر معنوياتنا، ويبدو كأنه قد ثارت ثورته ، فلماذا تفكرين أنت بمثل هذه السلبية وفقدان الأمل فى المستقبل؟ " .

قطع كلام " تشيانغ يون " الحماسى وقع خطوات ، إنها خطوات شاب نحيف طويل القامة ، فى ظهره انحناءة خفيفة ، يتقدم فى أدب ولياقة نحو الحجرة، وعندما رأى " تشيانغ يون " تراجع إلى الخلف وهو يهز رأسه تعبيرًا عن التحية.

قدمته سونينغ : "أخى الأكبر" .

نهضت " تشيانغ " فأسرع قائلاً : " تفضلى بالجلوس " ثم مد يده وصافحها بلطف بأصابعه ذات الأطراف الصفراء الشاحبة من فرط تأثير دخان أعقاب السجائر. نظرت " تشيانغ " إلى شعره الطويل المجعد الذى يسقط على عينيه وجبهته العريضة ذات الخطوط المتوازية ، تبدو عليه مسحة من الوسامة المشوبة بالضعف والهزال ، قدم نفسه : "سوجون" ، وقدمت " تشيانغ يون " نفسها هى الأخرى. نظر إلى تشيانغ وهمَّ أن يقول شيئًا ولكنه صمت لحظة ، ثم استدار واتجه نحو المكتبة.

أخذته فجأة نوبة قوية من السعال ، حتى أحنى وسطه .

تذكرت " تشيانغ يون " حديث سونينغ عن أخيها . إنه أخوها لأبيها من زوجته الأولى ، يكبرها بنحو سبع سنوات ، تحبه سو وتخشاه فى الوقت نفسه. كان فى صغره يرافق جده لوالدته فى الريف لدراسة اللغة الكلاسكية وفن الرسم التقليدى ، وكان جده قد حصل على شهادة التعليم المتوسط فى عهد أسرة تشن القديمة ، بعد ذلك التحق سوجون بالجامعة لدراسة اللغة الصينية ، وكاد ينتحر لفشله فى الحب، ثم أصابه بعد ذلك مرض السل اللعين، ومكث فى البيت طلبًا للنقاهة والشفاء منذ عام ١٩٤٨ .

ترك سوجون الكتاب الذى كان يتصفحه وأحضر من التفاح ثلاثة، أعطى أكبرها " لتشيانغ يون " وأوسطها لأخته سونينغ واستبقى لنفسه الصغرى، لم تستعمل " تشيانغ " سكينه الصغير ولكن مسحتها بمنديلها وراحت تقضمها فى سعادة.

"هل أنت يانغ تشيانغ يون؟" .

- " نعم ، هى أنا " وابتسمت تشيانغ وهى تحاول أن تكسر الحاجز بينها وبين ذلك الشخص الغريب عنها فى شجاعة وبراءة.

بادلها الابتسامة وقال: "رائع ، إن أختى كثيرًا ما تحدثنى عن مساعداتك الكثيرة لها ، وأنك صديقتها الصدوقة، أليس كذلك؟.

- أشكرك على هذا " .

ردت فى شىء من الخجل والحياء : "علام تشكرنى؟" .

رمقها بطرف عينه وأجال بصره فيها بنظرة سريعة فاحصة . وكنوع من الأدب واللياقة غلف نظرته لدرجة يصعب معها الإحساس بها .

ثم سألها بلهجة الرجل الكبير الذى يسأل الأجيال الأحدث سنًا : "ما هى أحوال وظروف طلاب المرحلة المتوسطة فى هذه الأيام؟"

- "ماذا تقصد حضرتك ؟ . . كل شيء على مايرام" .

- " هل تجدين فى أختى ما لا يرضيك ؟ " .

"أخى ، ماذا تقول ؟ . . . . "اعترضته سونينغ فى ارتباك واستنكار .

لكنه أشار لها بيده أن تهدأ.

أجابت " تشيانغ يون " فى صراحة " سونينغ حسنة الطوية ، لكنها غير نشيطة ، وتميل إلى السكينة"

قال " سوجون " وهو يحنى وسطه ويضرب الأرض بسن حذائه فى خفة ، إننى أغبط طلاب المرحلة المتوسطة فى هذا الوقت ، فهم يعيشون ظروفًا أفضل مما كنت أعيشها وقت دراستى. ، غير أننى أشفق عليكم أيضًا من الأعباء التى تثقل كاهلكم ، وآسف على المشاغل عديمة الفائدة والحماس الأجوف، أنت تساعدين أختى وأنا أشكرك على هذا ، لكنى أتمنى ألا تدفعيها إلى مثل هذه الدوامة . "

لم تجد " سونينغ "مفراً من أن تنادى فى استنكار : "أخى . . . . " .

وطالبته " تشيانغ يون " فى حزم : "لو تكرمت حضرتكم فسروا ما ذكرتم" .

وقد نشط ذهنها وأحست بأنها مقبلة على مناقشة جدلية ساخنة.

أخرج " سوجون " منديلا حريميًا من الحرير الناعم وأخذ يمسح جبينه على طريقة النساء.

ثم أعاد المنديل إلى جيبه وقال فى تؤدة : "أهناك حاجة إلى تفسير؟ إن دروسكن كثيرة ، وأنا لست ضد المواظبة على هذه الدروس ، ولكنى أيضًا لا أحبذ أن تغلقن أنفسكن على الدراسة فقط . وأغلب الظن أنك عضو فى تنظيم الشبيبة الشيوعى ، أنا لست ضد تكوين المنظمات وعقد الاجتماعات ، لكنى أيضا

لا أشجع هذا الحزم وهذه الصرامة فى مثل هذه السن الصغيرة. إن الشعارات والنداءات فى حياتكن كثيرة ، بطبيعة الحال يمكن أن تكون الحياة بها بعض الحماس والحمية ، ولكن أعنى أن أى عمل من شأنه إثارة الحماس الرخيص يعد عملاً من أعمال الجريمة . . . . . . ؟ "

- "إذن ، كيف يجب أن تكون الحياة فى اعتقادك ؟ "

- " هذا السؤال غير موفق ، فالحياة ، لها مجراها الطبيعى الذى لا يتغير ، ولا يمكن أن نقول هكذا يجب أن تكون ؛ فالإنسان وهو أذكى وأقدر المخلوقات يحيا بين السماء والأرض ، ويرتمى فى أحضان الأيام والليالى ، وبطبيعة الحال لا يمكنه أن يتجنب كافة أنواع العثرات والملمات التى تأتيه من خارج نفسه ومن داخلها، لكنه رغم ذلك عليه ألا يبخل على نفسه بشىء من الراحة والترويح عن النفس. . . . . . فمثلاً ، ومد " سوجون " يده وأخذ المقلمة الموضوعة على المنضدة الخيزران وأشار إلى الصورة المرسومة عليها لتراها " تشيانغ يون " . وهى صورة لفتى وفتاة فى الملابس التقليدية القديمة وهما يرفعان كأسى الخمر . ومكتوب ، "الإنسان خالى البال ، قرير العين ، وحياته هنيئة فى عبق الورد والرياحين " وقد نمى العفن الأخضر بين هذه الرموز.

- "أليست الحياة بهذه اللذة الطبيعية السلسلة نوعًا من الأحلام ؟ "

أطرقت " تشيان يون " مستغرقة فى التفكير ، دون أن تتلقى كوب الماء الذى تقدمه لها سونينغ ثم هزت رأسها تجاه سوجون وقالت فى حزم وثقة : "إن كلام حضرتكم ليس فيه شىء من الصحة أو ربما أننى لم أستوعبه بعد ، فهذا الكلام فيه شىء من الغرابة على مسامعى ، غير أننى أشعر أن حضرتك لم تستوعب أسلوب حياتنا أنا وسونينغ، إن كلامك مثله تمامًا كمثل هذه المقلمة ، أكل عليه الدهر وشرب ، أى أعباء جسام تلك التى تتحدث عنها ، إننا نعيش حياة إيجابية

ذات هدف واضح ، وإن مانتحمله ليس بالأعباء الجسام لكنها المسئوليات التى تكسب الزهو والفخر ، إن اهتماماتنا ليست جوفاء ، فمثلا عند دراسة لغة أجنبية ، تكون أول الأمر لا تعرف عنها شيئًا ، لكنك ما إن تنشغل بها حينًا من الوقت حتى تعرف أبجديتها وتفك رموزها وتركب جملها ، فكيف يمكن أن يكون ذلك عبثًا؟ على العكس ، إن أولئك الذين يبعثرون أعمارهم دونما عمل حقيقى تعتبر حياتهم نوعًا من الراحة الجوفاء التى لا معنى لها ، وبالنسبة للحماس فالإنسان مثل شعلة من النار ، إذا احترقت لم يتبق منها غير الرماد . والشعلة ليست عبثًا لأنها تبعث الدفء والضوء . أما الرماد فتذروه الرياح ، وأولئك الذين يطلبون الحياة الرغدة الناعمة دون عمل أو تعب كما ذكرت حضرتك ، أفكارهم قديمة وأحلامهم بالية- مثل الضفائر الطويلة عند الفتيان ، وأقدام النساء ذات القوالب الصغيرة - وليست فقط بالأفكار الجوفاء ، لكنها أيضًا تبعث على الضحك والازدراء . ثم ضحكت "تشيانغ يون" ضحكة عالية مجلجلة تعبر عن النصر ولا تخلو من الاستخفاف بخصمها " سوجون " الذى دحضت أفكاره وآراءه بأسلوب صريح ساخر.

قال سوجون وهو يفرك في يده "أنت خطيرة" .

ورغم أن النقاش بين " سوجون " و " تشيانغ " فى أول لقاء يتم بينهما بالصدفة كان حادًا على نحو غير متوقع إلا أن " تشيانغ يون " شعرت بأن هذا الحديث جاء صريحًا وبلا قيود ، وربما ربط كلاهما بالآخر ذلك الاهتمام المشترك بسونينغ ، فكانت تواصل حديثها فى شجاعة وحماسها يتدفق من بين ثنايا كلماتها لدرجة لا تسمح لها بالتوقف من آن لآخر .

"أشد سونينغ إلى الدوامة ، إذا كنت حضرتك ترى أن الحياة هى الدوامة ، فعليك إذن أن تفتح قلبك لها ، ألا يعنى عدم دخولك فى خضم هذه الدوامة أنك تلقى بنفسك فى ركن معزول ميت ؟ لكن عليك ألا تضيع شبابك هباء منثورًا . . "

كســى الوجــوم وجـه " سوجون " النحـيل ، وكبس شعـره الطويل بيده ، وقــال بشىء من الحزن والكآبة : "يا ذات الحـظ السعـيد، إننى أغـبطك . . " ثم انفجر فى سعال شديد حتى احمر وجهه واستدار منصرفًا عن المكان فى خطى وئيدة تاركا تفاحته فوق الكرسى بعد أن قشر نصفها .

أمسكت " تشيانغ يون " بيد " ســونينغ " وقالت " إن الجو فى منزلكم غير صحى ، ففى رئتى أخيك جراثيم وكـذلك كلامه ، أخشى أن تنتقل إليك ! وهناك أيضا مربيتكم المتحـــذلقة التى فتحت لى الباب ، إنها تدعوك "الآنسة" ثم لا تنسى كتاب "عشق الأرواح" هذا . . . . . "

قالت " سونينغ " وقد اغرورقت عـيناها بالدموع : " لا يأخذنك الغضب من أخى ،فقد أصيب ذات يوم بمرض ، إنه فيما عدانى على خـلاف بيِّن مع كل أفراد الأسرة : أبى ،أمى ، أعمـامى ، أخوالى ، حتى هذه المربية التى حـدثتنى عنها ، كلهم لا يبالى بأحد منهم . . . . "

- " أهكذا يكون الحال ؟ فى حقيقـة الأمر ، إن الحياة فى بيتكم تخلو من أى معنى للسعادة . . . "

قالت ســونينغ والدموع تترقرق فى عـينيها : " نعم إن حيـاتنا غير سـعيدة ، وأنت لم تعـرفى بعد أكـبر أسبـاب تعاسـتنا . إن أبى الذى أفرج عنه من الـسجن مؤخرًا، يهـدد ويتوعد بأنه سيـتوقف عن تجارته ليقطع مـصدر الرزق عن كل أفراد الأسرة . وأمى - التى تشفق علىَّ أكثر من أى شخص آخر - إذا استبد بها الغضب يخيل إلىَّ أنها تكاد أن تخنق أبى ، وإذا صارت كسيرة الفؤاد أراها تكاد يغمى عليها من فرط البكاء ، ولى أخت كـبرى ذهبت مع زوجهـا الأخرق إلى تايوان ، وهناك أيضا هذه الدادة وهى أستاذة فى الفتنة والوشاية وتسرق الكحل من العين . . . . . . إننى أفكر أن أهجر هذا البيت ، ولكنى أخشى أن يموت أخى حزنا وكمدًا . . . "

وقعت تشيانغ يون فى حيرة وارتباك بسبب بكاء سونينغ ، وشعرت أنها أخطأت ، فقد جاءت زيارتها لتزيد متاعب سونينغ . أرادت أن تنقذ الموقف فقالت فى اضطراب : "لا ، لا تبكى فليس هناك ما يدعو للبكاء، لقد كان كلامى طائشا، وكنت متهورة . وكان حديثى مع أخيك جارحًا أيضًا ، وأرجو أن تبلغيه اعتذارى. إن الحياة فى أسرتكم بطبيعة الحال ليست على ما يرام، غير أن هذا الأمر لا يحتاج سوى بعض من التغيير بالنسبة لوالديك، وصحة أخيك يمكن أن تتحسن بصورة ملموسة، ومرض السل ليس من الأمراض الخطيرة كما يتصور العامة، وأنت مما لا شك فيه فتاة من الجيل الجديد ولك الكثير من الزميلات والصديقات وتنتمين إلى مدرسة لها مكانة مرموقة عودى إلى مدرستك بمجرد أن تتحسن صحتك ، ومن ثم تحل كل المشاكل" .

قالت سونينغ فى صوت مختنق بالبكاء : "فى أول الأسبوع " .

خرجت " تشيانغ يون " تصحبها الدادة إلى باب المنزل مرة أخرى ، وبينما كانت أقدامها على وشك تجاوز عتبة الباب قفزت إلى ذهنها فكرة فصاحت " آه ، نسيت شيئًا " وأسرعت عائدة إلى حجرة سونينغ .

"سونينغ " ، نادت تشيانغ يون بسعادة ولهفة : "نريد أن نساعدك فى ترتيب هذا المكان ليصبح أكثر بريقا وجمالا ، سوف نحضر غدًا ، ما رأيك ؟ "

وكان اليوم التالى هو عطلة نهاية الأسبوع ، واصطحبت تشيانغ يون " تشوتشيا ولينغ " وزميلة أخرى إلى منزل سونينغ ، تشاورن معها ثم شمرن عن سواعدهن وبدأن العمل ، قمن بتنظيف الأتربة والأوساخ العالقة بجدران الحجرة والمتراكمة فى أركانها ووضعن فى أحد هذه الأركان تمثالاً نصفيا من الجبس للزعيم "ماوتس دونغ" ..ولصقن على الحائط صورة لينين بين الأطفال " المرسومة بالرصاص ،

وصورة المناضلة صوفيا[1] . وأهدين إليها مجموعة من الكتب مثل "حياتنا فداء للحزب" و " السيرة الذاتية لليوخولان" و "المعارف الأساسية حول رابطة الشبيبة" ، وضعت سونينغ هذه الكتب فى أبرز مكان بمكتبتها ، وبناء على رأى " تشوشيا ولينغ " قمن بلصق بعض الشعارات على الحائط مثل "أهلا بتيار بناء الوطن! و " تعلم ، تعلم ، ثم تعلم" وبعد أن انتهين غرقن فى الضحك كمن قهرن المستحيل . وضحكت معهن " سونينغ " .

(١) فتاة روسية شاركت فى الدفاع عن الوطن ضد ألمانيا وقبض عليها الجنود الألمان وقتلوها .

(٨)

انقضى أسبوع ، وذات يوم بعد انتهاء الدراسة ذهبت الطالبات لمشاهدة إحدى المباريات فى كرة القدم ، ولم يتبق فى الفصل سوى " مارى " . عادت " تشن بوا "بعد أنت انتهت من مناقشة أحد الموضوعات مع سكرتيرة رابطة الشبيبة ، واقتربت من مارى .

التفتت مارى نحوها كأنها تسألها بطرف عينيها "ماذا تريدين ؟ " جلست " تشن بوا " إلى جوارها وسألتها : "لم لا تذهبين لمشاهدة المباراة؟ "

- " لم أنته من أداء واجباتى "

- " هل تحبين لعب الكرة ؟ "

- " لا أعرف "

ثم لاذت بصمت محرج ، سألتها تشن بوا : "هل أنت مريضة؟ يبدو من لون وجهك أنك لست على ما يرام"

- "لا ، لا شيء"

- "ما هى أحوالك فى هذه الأيام "

- "كالعادة"

توقفت مارى عن الكلام ، وعادت تنظر فى دفاترها من جديد .

" وتشن بوا " مازالت جالسة إلى جوارها ، شعرت مارى أن ذلك ليس مناسبا فاستدارت مرة ثانية نحو تشن بوا وأخذت تنظر إليها نظرات عميقة معبرة عن الحيرة والتساؤل.

أحـنت شـن رأسهـا ، ثم رفعتهـا فجأة وقـالت فى عـجـالة : " مارى ، أخبرينى ، لمـاذا تعزفين عن الحديث مع الآخـرين؟ لقد مضى شهران علـى انتقالك إلى فصلنا ، لكنك مازلت على نفس الحال الذى كنت عليه فى أول الأمر ، يفصل بينك وبيننا حاجز الشعور بالغربة : إننا فى آخـر فترة دراسية فى المرحلة الثانوية ، فـياله من شىء رائع إذا أصبـحنا أخوات مـتـحابات تربـطنا روح الأسرة الواحـدة المتماسكة.

تكهرب وجه مارى وسرت فـى وجنتيها حمرة قانية ، ورفعـت عينيها وأخذت تحملق فى تشن بنظرات لا تخلو من الريبة والشك.

وقالت : " فيما بعد ، فيما بعد سأحاول أن أقترب من الزميلات. "

هزت تشن رأسـهـا وقـالت : "لا ، لا تأخـذى الأمـر بمثل هذه البسـاطة ، أخبرينى، هل تحبين فصلنا ؟ هل تحبين زميلاتنا؟ هل ترغبين فى أن يتعانق قلبك مع واحد وخمسين قلبًا فى فصلنا؟"

ارتعد قلب مـارى من هذه الأسئلة التى لم توجه لها من قـبل ، ولكن أليست أيضًا هذه هى الأسئلة التى ألحت عليها كثيرا ؟

قالت مـارى : "أنا . . . . أنا لا أعرف ، إنـنى أعيش وحـيدة ، تعـودت على ذلك ، ليس لى أقـارب ، وليس لى . . . . صـديقـات ، إننى أختلف عنكن"

وأردفت تقـول فى صوت خـفيض : "لا داعى للإخـفاء ، إننى ذات عـقيـدة سمـاوية ، أنا الوحيدة بين كل طالبـات فصلنا الاثنين والخمـسيـن . . . . "وأنـتن ، أنـتن لماذا لا تؤمن برب السماء ؟ "

مــارى ابنة التسعــة عشر ربيعا ، قضـتها جميعًا بين البـؤس والوحدة ، فمنذ نعومة أظافـرها ، منذ بدأت تعى ما حولها وجدت نفـسها يتيمـة فى "دار الرحمة" للمسـيحـيين الكاثوليك ، لم تعـرف هل كان ذلك بسبب الفـقر ، أم أنهـا جاءت سفاحًا ، أم أن أبويهـا وافتهما المنية ، فـقد أودعت هذه الدار منذ ولادتها ، لا أب لها ولا أم ، ولا ذلك "البيت " الصغير الذى يوفر لها الدفء والحنان.

وتقع "دار الرحمـة " بجوار القاعـة الشماليـة للكنيسة الكاثوليكيـة فى شارع الخزان الغربـى فى بكين ، ويتضح من الاسم أن "دار الرحمة" ملجـأ الايتام مكان لرعاية الأطفــال والحنو عليهم ، ولكنها فى حقـيقة الأمر مكان لمص دمـاء الأطفال والتجـارة فيهم ، وهى جـهنم التى تفزع الأطفال وتثـير الرعب فى نفوسـهم، وقد ارتكب الاستعماريون فى الجمعية الكاثوليكية ما لا يحصى من الجرائم ضد أطفالنا.

كان الأطفـال فى "دار الرحمـة " ينهضـون من نومهم فى الرابعـة صبـاحا ، يؤدون صلوات الصباح ، ثم يعملون طوال اليـوم ويطالعون الكتب ساعتين ويؤدون صلاة أخرى فى المساء ، قبل كل وجبة من الوجبات الثلاث وقبل النوم يقرأون شيئًا من الإنجيل . وكان كل طفل فيـها يبدأ العمل من سن الخامسة كصـبى مساعد لمن يكبرهم فى العـمر قليلاً ، شيـئًا فشيـئًا تعلموا أشـغال الإبرة ، وقص تصميـمات القمـاش، ونسـخ الأشـرطة ، وتــطريز المنـاديل ، وتثـبيـت الـقمـاش أو الحرير على البراويز الخشبية. كانت مارى وزميلاتها يعملن يومًا كاملاً فى البرواز الواحد. وكن فى أول الأمر قصيرات القـامة، والبرواز منصوب على قوائم طويلة ، ومن ثم تقفن طوال النهار على أقدامهن وأعنـاقهن ممدودة حـتـى يصيـبهن التعب لـدرجة لا يقدرن معها على الحركة فى المساء ، وعـندما كبرن وصرن طويلات القامة أصبح البرواز قـصيراً ، فـرحن يحنين ظهورهن حتى يعجزن عن الاعـتدال بها فى المساء من فرط الألم، بعد ذلك ترسل هذه المشـغولات اليدوية الجميلة الدقيـقة إلى السوق لتباع بأسعار عالية لبنات الأكابر اللاتى يرتدين معاطف من الفراء.

أما أصحاب دار الأيتام "دار الرحمة" فكن يدُعَيْنَ بالراهبات ، وترتدى كل منهن لباسًا أسود من رأسها حتى إخمص قدميها ، لا يظهر سوى الوجه والكفين ، يتدلى على صدرها صليب فضى اللون معلقًا فى سلسلة من البرونز مدلاة من الرقبة، منظرها يبعث على النفور وعدم الارتياح ، وطباعها غريبة فى معظم الوقت لا تتوقف عن ضرب الأطفال وكيل السباب لهن دون أى سبب.

وهكذا بدأت مارى حياتها بين تراتيل الإنجيل التى تشبه صرخات الشياطين ، وبجوار قوائم التطريز التى تُعد لونا من ألوان التكدير والتعذيب ، وتحت نظرات الراهبات الأجنبيات القاسية التى يتطاير منها الشرر.

وعندما بلغت مارى الثانية عشرة من عمرها ، قدم إلى الدار طفل جديد فى السابعة من عمره لا يعرف له اسم ينادونه "ماوماوجوان" وقد روى طفل أكبر منه سنًا أن والدى هذا الطفل قد زج بهما فى السجن مؤخراً ، وكان شعره خفيفًا ضارباً إلى الصفرة ، عريض الجبهة ، غائر العينين طويل الأنف ، يقولون عنه إنه يشبه الدمية" . فمه صغير وشفته السفلى دائما ممطوطة كأنه يعبر عن سخطه على الآخرين ،صوته رنان وواضح ، وهو يتكلم لهجة بكين ثم يمزجها ببعض الكلمات من لهجة أهل الجنوب.

من الواضح أن ظروفه المعيشية فى سنواته السبع الماضية لم تكن سيئة ، فقد بدت عليه علامات الصحة والحيوية والشقاوة بين أطفال "دار الرحمة " الآخرين. وبدا أنه لم يكن فى إمكان الكنيسة المظلمة ووجوه الراهبات الكئيبة العابسة أن تخنق حيوية هذا الطفل دفعة واحدة ، وبعد أن انتقل من بين أحضان والديه إلى دار الرحمة بكى لمدة يومين.ثم هدأت ثورته وسكت، وما لبث أن كسب حب الآخرين وأثار شغفهم به ، كان يطيع أوامر الراهبات كلما طلبن منه أن يفعل شيئًا، وكان كلما انصرفت الراهبات يلعب بقسمات وجهه فيثير جواً من المرح والبهجة فى نفوس زملائه من حوله ، لم تكن تتوافر سعادة الطفولة فى دار الرحمة حينذاك ، ولكن

الأطفال ما أن تعرفوا على "ماوماوجوان" حتى دبت فيهم روح الطفولة من جديد، كان الكل يتودد إليه ، يتمنى أن يمسك يده أو يهدى إليه الخيوط الملونة الباقية من العمل. وخاصة مارى التى كانت تهرع بحثاً عنه كلما فرغت من عملها ، تستمع إلى أغانيه ونكاته أو تثبت له أزرارًا فى سترته ، كانا مثل الأخت وأخيها.

حل خريف العام التالى، وقد دبت النحافة والهزال فى جسد "ماوما وجوان" ، ذات يوم فقدت "لى" نائبة رئيسة جمعية الراهبات كعكتين، وكانت فى ذلك اليوم قد استدعت "ماوما وجوان" لتنظيف حجرتها ، فاتهمته بأنه السارق، وأتت به وأخذت تستجوبه وتؤنبه وتقرصه فى خده حتى بكى وهى تعتقد أن هذا البكاء هو دليل على ارتكابه للجريمة، ثم عاقبته فى تلك الليلة بعدم السماح له بالنوم فى داخل الحجرة ، وكان الوقت فى منتصف الخريف حيث الجو البارد وسقوط الأمطار المنهمرة ، والرياح الباردة، ولم يغمض لكل الأطفال جفن فى تلك الليلة بسبب قلقهم وخوفهم على "ماوما وجوان" ، ولم يظهر فى اليوم التالى.

سبّته الراهبة "لى" قائلة "إنه لص وقد هرب " . لكن الجميع لم يصدقوا ذلك: فدار الرحمة "أسوارها عالية ، فكيف يستطيع طفل فى الثامنة الهرب من فوق هذه الأسوار؟ "

ذهبت فى ذلك اليوم كان دور مارى لتحضر المياه ، ذهبت إلى البئر وأرسلت بصرها فيه فإذا بها ترى جثة "ماوما وجوان"، استبد بها الرعب ، ألقت بالدلو وعادت مهرولة ، وقفت جامدة كالصنم ثم انفجرت بالبكاء وغرقت فى بحر من الدموع، مات، جثته طفت فوق سطح البئر وجنحت نحو حافته ، مات "ماوما وجوان" وجهه منكمش ومتيبس ، وقد ظهرت عليه تجاعيد كأنه رجل عجوز ، وبقع الدم على وجهه . اقتربت مارى فيه وتسمرت فى مكانها وهى تحملق فيه برهة من الوقت ، كان فى جيبها لعبة على شكل طائر ورقى صغير صنعتها لتهديها إليه، ولكنه الآن لم يعد يريد هذه اللعبة ، ولا أى شىء آخر . . . .

شتمت الراهبة "لى" الأطفال ، وقالت لهم إن روح الصغير "ماوما وجوان" قد صعدت إلى السماوات العلى ،وعليهن ألا يبكين حتى لا يعذبنه، وشرحت الراهبة للأطفال النعيم الذى يتمتع به هناك ، فكفت مارى عن البكاء حيث إنها على ثقة من أن طفلاً صغيراً مثل "ماوما وجوان" يمكن أن يحظى بنعيم الجنة ، لكن الحزن مازال يعتصر قلبها من أجله.

توجهت مارى بعد أداء صلاة القداس الجنائزى نحو قس صينى عجوز يدعى القس "خوان" وقالت له فى تأثر وندم : مات "ماوما وجوان" ، وقالت الراهبة " لى " إنه دخل الجنة ، ويجب علىّ ألا أبكى لكننى بكيت ، فارتكبت بذلك ذنبًا ، سيدى القس ، إذا كان من يموت يدخل الجنة فإننى أطلب منك أن تعجل بموتى. .

لم ينطق القس خوان ببنت شفة ، وإنما سلمها جثمان الطفل المقدس وفرائصه ترتعد، واكتشفت مارى أن هناك دمعتين تحدرتا على خديه من عينيه الجامدتين ، ثم لم يلبث أن انصرف .

فى عام ١٩٤٨ كانت حرب التحرير فى أوج مراحلها ، وأطفال "دار الرحمة" لا يدرون شيئًا عما يجرى خارج الأسوار وخلف ظلال الأشجار . بدت مارى نحيفة وضئيلة البنيان بسبب نقص الغذاء والعمل المرهق فى الطور المبكر من عمرها. لكن عينيها تغيرتا بوضوح، اتسعتا ، وطالت رموشهما ولم تعد ترقصان ذات اليمين وذات اليسار كأنهما عينا دمية. ومنذ ذلك الوقت بدأت فى مراقبة كل ما حولها من أشخاص وأشياء فى اهتمام وحزن ودعة فى وقت واحد.

دخلت مارى مرحلة جديدة من حياتها هى أجمل المراحل بالنسبة لغيرها وأتعسها بالنسبة لها وهى مرحلة المراهقة. اتسعت مداركها ونشطت حواسها، حياتها غير الواعية بدأت تكسبها نوعا من الخبرة ، فى الربيع عندما تتطاير أزهار

الصفصاف، تمسك ماري بعض هذه الأزهار المتطايرة فى الهواء فى رفق وتنفخها بفيها وترقبها وهى تطير فى الفضاء الذى تظله السماء الزرقاء . وفى الصيف تحب المطر الذى يهطل بعد حرارة الشمس المتلهبة، فتمتع ناظريها بأغصان الأشجار ومدرجات الأحجار التى غسلتها مياه الأمطار ، حيث تشعر بسعادة وفرحة عارمة تحت وطأة حرارة الجو الشديدة كأنها بدأت الحياة من جديد، وفى أمسيات الخريف الباردة عندما تسرى أصوات الوطاويط المتقطعة ،تحب ماري أن تلتصق عند نومها ببعض الأطفال الآخرين حتى تشعر بالدفء ، وعندما تتطاير الثلوج فى عيد الميلاد المجيد ، يخيل إليها أنها تستمتع بنعيم الجنة" .

بدأت ماري - مثلها فى ذلك الوقت مثل كل المراهقات اللاتى بدأن يشعرن بنبض قلوبهن- تتوق إلى الحنان والشفقة، وهذ باالطبع لا يمكن أن يأتى من جانب الراهبات، وبطبيعة الحال فإن الأطفال الآخرين الذين شوهتهم حياة "دار الرحمة "، وأصابتهم بالبلادة والعاهات النفسية والفكرية ، ليس بمقدروهم أن يرووا ظمأها الروحى ، وبعد أن أصبح "ماوما وجوان" يسكن فى واحة الذكريات ، أهناك شيء آخر جميل ؟ أهناك شيء جميل بين هذه الحياة المهلكة ، بوجباتها الثلاث اللاتى يتناولونها من الخبز المعجون من الردة والخضروات المملحة الملوثة التى لا تخلو من المرارة؟

تعلمت ماري الكثير من الرموز وعرفت معانيها ، وبدأت تشعر بقوة تأثير الإنجيل وتراتيل صلاة القداس . كانت هذه الطفلة البائسة لا تشعر بالحب والرحمة والشفقة التى لم تعرفها من قبل فى " دار الرحمة " إلا فى أداء الصلوات كانت تقرأ :

" يا بنت رب السماء المقدس تقبلى صلواتنا الخالصة المتبتلة "

ارحمى عذابنا ، لينّى القلوب القاسية ، امسحى دموع الأشقياء

ساعدى الضعفاء والمساكين ، وامحى الحقد والبغضاء. . . .

باسمكم العظيم ، باسمكم المقدس ، المدوى فى علياء السماء،

استحلفك أن تؤاخى بين كل شعوب الأرض ، لتصبح كأسرة واحدة . . . . "

ثم انهمرت الدموع من عينيها ، وشعرت أن الروح القدس قد حل بقلبها ، وأن الخشوع قد حل فى هذه اللحظات القصيرة محل ألم ومرارة وشقاء السنين ، وأن قوة العقيدة فى قلبها تنساب مثل مياه النيل العظيم - كما وصفه الإنجيل- فى قوة وصفاء وعذوبة لتروى ظمأ نفسها مثلما يروى الأرض الظمأى .

وكلما حل عيد من الأعياد الدينية الرئيسة الأربعة ، ميلاد المسيح ، وعيد القيامة ، ويوم نزول العذراء إلى الأرض، ويوم ذكرى وفاة العذراء ، توقف الصبية والأطفال عن أعمالهم وذهبوا إلى القاعة الشمالية ، وخاصة فى عيد الميلاد حيث شجرة الميلاد ذات الأضواء المتلألئة والمسيحيون المريدون يتدفقون من كل حدب وصوب .

وترتسم ابتسامة باهتة على وجه الراهبة "لى" - التى تدعو ملامحها دائماً إلى النفور - وهى توزع قطع الحلوى وبعض الصور على الأطفال. . ثم يدق صوت الجرس المهيب ، ويقف الكاردينال أو نائبه بملابسه الحمراء بين مئات من الكهنة الصينيين والأجانب فى الكنيسة ،يتلون الصلوات.

وتشعر مارى بسعادة غامرة كأنها فى حضرة الروح القدس، غير أن يدها كانت تقبض على صورة صغيرة لمنظر يوحى بالقسوة والألم: إنها صورة المسيح وهو مصلوب، ورأسه تتدلى على صدره والدماء تسيل من جسده . . .

وذات يوم استدعيت مارى إلى حجرة الراهبة "لى" فوجدت بالحجرة شخصًا ذا ساق عرجاء يربو على الثلاثين من عمره ، وفى الجزء الأيمن من جبهته ندب كبير ، والعروق بارزة من ساعديه ، ورائحة الخمر تفوح من فمه.

وأخبـرتها الراهبـة أن هذا الشخص سوف يكون زوجـها المنتظر، وأنهـا سوف تصحبه بعد أيام ثلاث، وقالت:

"لقد جمعت بينكما إرادة السماء ، وإننى أصلى من أجلكما . . . . "

لكن ذلك الأعرج مط شفتيه وتمتم قائلا : "يالهـا من فتاة صغيرة، سأدفع من أجلها ورقة بخمس يوانات. . . . . . . "

وهكذا حال كل فـتيات "دار الرحمة" ، عنـدما يبلغن سن الخامسـة عشرة أو حتى الثـانية عـشرة من عمـرهن يتم تزويجهن عن طريق الراهبـات ، ولكن أولئك الرجال الذين يقدمون إلى الدار سعيـا للزواج البخس لا يدفعون سوى بضع يوانات من الفضة تعبيراً عن تقديرهم واحترامهم للراهبات وأنصار السيدة العذراء.

وبكت مـارى بـكاء مـراً وراحت تتـوسل فى كـل مكان : " لا أريد أن أبرح الكنيسة ، لا أريد أن أترك الـراهبات والكهنة، إننى أقطع العهد على نفـسى راضية بأننى لن أترك الكنيسة حتى أصبح من الراهبات. "

حيئذ تقدم معلمهـا الكاهن "جوزيف لى" وأنقذها ، حيث قال للراهبة "لى" "أبدليها بفتاة أخرى ، فهذه البنت نشيطة، ولعل فى بقائها هنا فائدة . . . . "

ردت الراهبة "لى" فى اعـتراض : "أليس هذا هو حـال كل فتاة مـقبلة على الزواج؟ وإذا تزوجت هدأ كل شىء ، آمين! " .

بعـد ذلك أصبح الكاهـن "جوزيف لى" هو صـاحب الفـضل الوحيـد على مارى.

فلم يشعر أحد مثله بآلامـها ومعاناتها ، ولم يحترم أحد رغبـتها ويخلصها من ورطتها سواه، وهى لن تنسى له ذلك أبدا، كانت تـعامله كأنه أبوها، كانت تعامله بكل ما أوحى به الإنجيل وتعاليم الصلوات من معانى الأخلاق.

أقسمت بينهـا وبين نفسها على أن تظل طوال عمرها خـادمة للكاهن جوزيف لى، وكانت تتـبعه حيثـما ذهب، وعلى استعـداد أن تضحى من أجله بكل شىء. كانت تناجى السيـدة مريم العذراء فى تعبدها فى جـوف الليل أهذا صحيح أم لا ؟ ولم تجبها العذراء، ولكنها استشعرت بالطمأنينة فى نفسها ، واعتقدت أن ذلك عبارة عن الرد الأكيد لمناجاتها، وأن خدمة الكاهن "جوزيف لى" هى من إرادة الله.

وبعد تحرير بكين انتقل الكاهن "جوزيف لى" مصطحـبًا معه مارى إلى منطقة "لوان" الدينية فى مقاطعـة شانشى ليشتركا فى أنشطة نشر الدين المسيـحى وتعاليمه التى تقوم بهـا "جمعيـة الزهد فى الحياة" الموجودة فى هذا المكان برئاسـة الأسقف الأجنبى "قانغ شيان تشى" وهذا هو اسمه الصينى.

والتـحـقت مـارى بالمدرسـة الإعدادية فـى منطقـة "لوان" (اسمـهـا الحـالى تشانغتشى).

وكان الكاهن " جوزيف لى " يحشو رأسها يوميا بقوله : "إن الحزب الشيوعى هو الشيطان بعـينه، وأن المصائب سوف تحل بالدين لمجرد وجـود هذا الحزب ، وأن كل من لا يعتنق الدين سوف يقذف به فى السعـير، وإذا اتبعت كلامهم سوف يلقى بك فى جهنم وبئس المصـير " . وكانت مارى تواقة إلى أن تحـسن الدراسة وتحسن الاستماع إلى دروسـها من ناحية ، لكنها من ناحية أخـرى تود لو تصم آذانها لأنها تخشى أن تحشو رأسها "الأيدلوجيات المتطرفة والأفكار الشيطانية" .

تحدث إليهـا مدرس التاريخ فى المدرسة عن عدوان الجـيوش الثمانية المتـحالفة والنضال البطولى لحركة "إيخه" ،وقد جاء هذا الشرح مناقضًا لما سمعته من الكاهن "جوزيف لى " من قبل ، فاختلطت عليها الأمور ووقعت فى حيص بيص.

وعادت إليه تسأله فحملق الكاهن فيها مـتعجبًا وقال : " ماذا دهاك؟ ألا تثقين بكلامى ؟ وأعطيت أذنيك لـلشائعـات والأكاذيب ، نسـيت كـلامى ونسيت كـلام

السماء" . (رسم صليبًا على صدره بإصبعه وهو يكاد يشتاط غيظا) وهو يقول: " يجب أن تلعنى هؤلاء دون تفكير، ارسمى الصليب واحفظى الإنجيل وادعى السيدة العذراء لإنزال العقاب بهم، ولا تخشيهم ، أفأخذك الخوف منهم؟" .

تراجعت مارى من شدة الخوف والرهبة ، وتابت فى قرارة نفسها .

وأخذت على نفسها موثقًا بألا تستمع لأية كلمة بعد ذلك سوى كلام الكاهن. وكان ذلك هو السبب أنها عبرت منذ ذلك الحين ، فى إصرار وعلانية ، عن موقفها تجاه حركة "إيخه" .

ولكن لم يكن من السهل أن تسلم بأن المدرسة وكر للشياطين.

فالمدرس لطيف معها ، يتحمل مسئولياته نحوها ، وزميلاتها يساعدنها مساعدة صادقة من أجل تحصيل دورسها التى تخلفت عنها، ومهما بلغت درجة عزلتها داخل المدرسة ، إلا أن جو الحياة المدرسية بما فيه من الصداقة والمرح، هو فى مجمله أفضل وأكثر تشويقًا وجاذبية من ظلام وكآبة "دار الرحمة" وعزلة "جمعية الزهد فى الحياة" . بدأت حياتها تأخذ مسارها الطبيعى - تذاكر دروسها جيدًا، وتختلط بالزميلات ، وتشترك حتى فى الحفلات العامة - لكن التعاليم الدينية الراسخة والمخاوف والشكوك المتأصلة مازالت تجثم على صدرها ، مما جعلها فى حالة من التعب والهزال واللاوعى كأنها فى شبه غيبوبة.

وكانت الحياة فى منطقة "لوان" الدينية أكثر صعوبة من ذى قبل ، "وجوزيف لى" الذى اعتاد حياة الكهنة منذ عشرين عامًا ، يصحو مبكرًا ، وينام مبكرًا، يتمشى ، ويقرأ فى الإنجيل بعد تناوله الطعام ، أصبح يميل شيئًا فشيئًا إلى العصبية وحدة المزاج.

وذات مرة اكتشف أن الأسقف "قانغ شيان تشى" اختلس بعضًا من المال من "جمعية الزهد فى الحياة" واشترى به (لحمًا) يأكله ، فانفجر غاضبًا وانقلب عليه ،

وقد اشتاط "قـانغ" غيظًا هو الآخر وقال باللغة الصينيـة فى صعوبة: "أى نوع من رجال الدين . . . . أنت ؟".

عاد " جوزيف لى " إلى حجـرته وأخذ يسبه بصوت عال غيـر مبال بالدهشة التى بدت على وجه مارى قائلا : "يا له من أسـقف وقح ، إنه اليهودى الذى خان اليسوع !"

ومرة أخرى كان يريد أن يدخن ، ولفـحت مارى يده بالنار فى غفلة منها وهى تشعل له الغليون، فوضع الغليون من يده وصفعها على وجهها.

لقد بدأت الـهالة التى تحيـط بالكاهن جوزيف لى - والتى تتـوهمهـا مارى - تذوب وتنزوى شيئًا فشيئًا من خلال معايشتها له ، وأخذت تكتشف يومًا بعد الآخر أنه يفتقـد حب اليسوع ، وليس فيه صـدق تلميذ اليسوع الأكـبر، بل على العكس ظهر أنه يتصف بقدر غير قليل من الوقاحة والرذيلة.

لكن مارى كانت عندما يعـتريها حزن أو يجتاحهـا خوف سواء بسبب أو بدون سبـب ، كانت تسـرع وتركع أمام " جـوزيف لى " الذى يستـمع إلى اعتـرافاتـها وتوسلاتها فى مـهابة يغلفها الغموض ، حـيث أصبح هذا الكاهن فى نظرها صورة مجـسدة لإله السمـاء ، كانت تندم غاية الندم عـلى ما سبق أن بدر منهـا من عدم احتـرام تجاه الكاهن "جوزيف لى" لاعـتقادها أن ذلك يعتـبر إثما عظيـما فى حق قداسته .

وفى عام ١٩٥١ طرد الأسقف " قانغ شيان تشى " من البلاد لأنه أخفى جهازًا لاسلكيا سريًا، ونشر الآراء الرجعية المناهضة للثورة.

وعاد الكاهن " جوزيف لى " إلى بكين ومعه مارى بعد أن قرآ معًا فى جمعية الزهد فى الحياة آيات طرد ومقاومـة الشيطان فى الإنجيل ، وكانت الحكومة فى ذلك الوقت قد تسلمت إدارة دار الرحمة فبحث جوزيف لى عن حجرة وجعل منها كنيسة

صغيرة يتعبد ويقيم فيها . أما مارى فقد دخلت إحدى المدارس الثانوية المقامة حديثًا فى أطراف بكين ، ثم انتقلت عام ١٩٥٢ إلى المدرسة الثانوية السابعة للبنات القريبة نسبيًا من مسكنها .

* * *

تساءلت مارى فى لهجه لا تخلو من الألم والمرارة : " لماذا لا تؤمنون بوجود الله ؟ ولم تشعر إطلاقًا بأن زميلاتها فى الصف الثالث بالمدرسة من ذلك النوع المتردى الشرير ، بل على العكس ، شعرت أنها أقل من غيرها فى كل النواحى ، فهى لا ترقى إلى مستواهن فى الدراسة ، وأقل منهن شجاعة ، بل وأقل منهن أيضًا فى أداء الخدمات للآخرين ، أو ليس العمل لخدمة الغير من أهم تعاليم الرب ؟ لقد شعرت أن الكثيرات من زميلاتها _ فيما عدا ما يبدو عليهن من بعض الغرور وعدم التواضع _ يمكن أن يكن جميعا من أتباع تعاليم المسيحية ، واللاتى يستطعن إظهار بهاء الدين الأكثر تألقا وبريقًا.

آه لو أن " تشن بوا " من أتباع المسيحية ، وأيضا " يوان شن تشى " ، آه لو تدعو " يانغ تشيانغ يون " فى حماس عن البشائر المسيحية ، آه لو أن كل هذا الفصل أعلن عن اجتماعه حول دين المسيح .....، ....، لكن شتان لا يؤمن بدين المسيح فى الفصل سواها ، بينما هذا الحشد من الزميلات وقعن فى حبائل الشيطان ، وأصبحن عدوّات لدين المسيح . "

سمعت " تشن بوا " كلام " مارى " فودت لو تناديها من قلبها بصوت عال: " مارى ، تعالى انضمى إلى صفوفنا وامتزجى بنا! " ثم نذاكر دروسنا معًا بعد ذلك ، ونخرج إلى بحيرة بيخاى لنجدف بالقوارب الصغيرة ، ونغنى معًا ثم نضحك ثم نغنى ثم نغرق فى الضحك .... لكن " تشن بوا " أدركت أن ذلك ليس من الممكن، فذمت عينها اليسرى حتى انكمشت وضاقت ، وحدجتها بعينها اليمنى ، وهى علامات تظهر عليها كلما ألمّ بها ضيق وحزن شديد...

وقالت تـشن : "ألأننا لا نعتنق دينك ، تبـعدين عنا ، ولا تردين لنا تحـــية ، ولا تثقين فى صدق نوايانا ، أيمكن أن تبقى وحدك فى هذه العزلة إلى الأبد؟" .

بدا على مارى أنه كان من الممكن أن تمد يدها إلى يد "تشن بوا" التى انتظرتها طويلا، لكن كلمات الكاهن "جوزيف لى " دوت فى أذنيها فى ذلك الوقت : "إن أعضاء الحـزب شياطين ،وكلام الشـياطين معسول ! " إن كـلام تشن بوا من غواية الشيطان ! ولكن كيـف لها أن تنظر إلى " تشن بوا " التى تحظى باحترام زمـيلاتها وحب أساتذتهـا ، الصادقة ، البسيطة ، والمحـبة للآخرين ، كيف تنظر إلـيها على أنها شيطان ؟ ولم يكن أمام مارى إلا أن تذرف عيناها الدموع فى صمت.

(٩)

بعـد امتـحان الفترة الأولى ، كـانت " لى تشون " أكثـر زميلاتها حـيوية ، كـانت تستـيقظ قـبلهن بنصف سـاعـة ثم تخرج إلى الفناء تـدرب حنجرتهـا على الغناء: " دومى سودا ، آه ، آه ، آه "

ثم تقوم بأعمـالها اليومية فى نشاط وانـسيابية ، وهى أكثر زمـيلاتها تدوينا فى دفاترها أثناء الشرح ، بل لا تتوقف عن تبديل الأقلام فى الكتابة ، قلم الحبر ، قلم الرصاص الأحمـر أو الأزرق . حتى إذا بلغ مسمعـها " ما يعجبـها " ضربت على فخذها = فمن كانت تستطيع أن تكون بهذا " التحرر " داخل الفصل ؟ وعند انتهاء الدروس بعد الظهـر ، كانت تحمل حقيـبتها المحشـوة بالكتب والكراسات والأدوات الكتابية وتسرع نحو المكتبة ، وتختار مقعداً بعيداً عن الباب وقريباً من النافذة وتخرج كل ما فى بطن الحـقيبـة وتكومه أمامهـا على المنضدة كأنه جـبل صغيـر . ثم تبدأ المذاكـرة ، وكانت تحب عـادة أن تضع أمـامهـا أشيـاء كثـيرة حـتى لـــو كـانـت ستســتخدم كراسة واحدة فـقــط . ولا يـسدب "الحماس الذهنى" فى عقلها إلا إذا فعلت ذلك ، تبدو أمـام زميلاتها مفـعمة بالحيـوية ، وكعادتها دائما تشـترى الفول السودانـى وتوزع عليهن وتشـرح لهن القصص المسليـة ، ومن ثم تزداد الزمـيلات التفافا حـولها وهـــن يأكلن ويستمعن إلى الحكايات .أما بالنسـبة إلى "يانغ تشيانغ يون" ، فيبـدو أن " لى تشون " قد أدركت وضعها المـتميز ، فكانت كريمة مـعها على نحو خـاص ، حيث لوحت لها مجـبية وأعطتـها كتابا تطالعـه. ولو أن الأمر التالى لم يحدث لكانت حياتها قد استمرت على هذا النحو من السعادة ولتقبلت أى هجوم من " تشيانغ يون " بصدر رحب ونفس مفعمة بالثقة .

بمناسبة الاحتفال بعيد ثورة أكتوبر ، نظم اتحاد الطلاب حفلات عديدة لمشاهدة الأفلام الروسية ، وكان اليوم التالى هو نهاية الأسبوع ، حيث تجمعت " لى تشون " وزميلاتها بالفصل " يعلقن " على الرقصات الروسية . قالت إحدى الطالبات العائدات إلى الصين الأم من ما وراء البحار الجنوبية " إن من خصائص الرقص الروسى أنه يرتكز على حركات الأقدام فترهق الساقان ، أما رقص ما وراء البحر الجنوبى فيعتمد بصفة أساسية على حركة اليدين ، سألت إحدى الطالبات عن سبب ذلك ، فأجابت أخرى بأنه ربما يرتبط ذلك بالأحوال المناخية والجغرافية ، فمنطقة روسيا شديدة البرودة ، والروس حينما يرقصون يضربون الأرض بسرعة هائلة وذلك للتخلص من لسعة البرد. أما ماذا يكون الحال فى مناطق الجنوب؟ فهذا الموضوع فى حاجة إلى بحث. .

انتقدت " لى تشون " هذا الكلام فى شدة وقالت : "لا تشوهى صورة الرقص الروسى فى نظر الآخرين ، وما علاقة الرقص بالتخلص من لسعة البرد؟ إن الرقصات الروسية والأوكرانية ذات سمات واحدة ، فهى رقصات حماسية مليئة بالحركة والدوران من أعلى لأسفل ومن اليمين إلى اليسار أو بالعكس ثمانى عشرة دورة فى الرقصة الواحدة كأن الراقصين لديهم نوع من الطاقة لا ينفد . . . . . . "

هزت " ووتشانغ فو " يدها المستديرة المكورة بالنفى قائلة : " لا ، غير صحيح. فمثلا فى رقص الباليه ، هل ترقص راقصة الباليه المشهورة "أولاننووا" بهذا الأسلوب ؟ (ومدت " ووتشانغ فو " يديها ومالت بوسطها ورفعت إحدى ساقيها محاولة أداء رقصة أميرة بحيرة الإوز العراقى)" .

ربما كان كلام " ووتشانغ فو "، أو لهجتها ، أو ، بالأحرى هيئتها هى التى أثارت ضحكات وقهقهات زميلاتها ، وشعرت أنها مثار ضحكات الأخريات ومحور

حديثهن ، فانبرت تطلق آراءها فى غير انقطاع وهى تمد عنقها لقصر قامتها:

" إن الرقصات ألوان وأنواع مختلفة ، تختلف كل منها عن الأخرى ، فمثلا تختلف رقصات الجيش الأحمر عن رقصات الباليه وكذلك رقصات الأولاد عن رقصات البنات . . . . ".

صاحت " تشوشيا ولينغ " ضاحكة " : "كلام فارغ ".

فاعترضتها ووتشانغ فو قائلة : " اسمعن ، هل تعرفن ما هى أكثر الرقصات التى أعجبتنى ؟ (ثم جابت وجوههن ببصرها) ، لاتعرفن ، إننى أرى أن رقصة الطائرين الصغيرين فى فيلم (الحياة السعيدة) هى أفضل الرقصات. ألا تفهمن ؟ هاتان الراقصتان البدينتان، انظرن ، وما إن ذكرتهما حتى غرقن جميعًا فى الضحك، إنهما بدينتان، (واستمرت تقول وهى تمثل) ، ترتديان التنورة الواسعة الفضفاضة ، أردافهما ممتلئة (وهى تمثل) ، أيديهما اليمنى تمسك بطرف التنورة ، ترقصان وتغنيان تارة ، وتتصايحان تارة أخرى. نعم ، هذا هو الفن. إن من يتمتع بمشاهدة هذا الرقص مثل من يتمتع بحمام بارد فى عز الصيف أو يأكل رأس فجل فى الشتاء [1] أو مثل من يسلك حنجرته فيشعر براحة فى الكلام ، وإن هذا الرقص ليساعد على الهضم والتنفس السليم ويطيل العمر".

ضربت الزميلات بأيديهن على كتفى " ووتشانغ فو " ، وغرقن فى الضحك.

وقالت " لى تشون " وهى تغالب الضحك : "الهدوء ، الهدوء أيتها الزميلات ، إننى اقترح أن نطلب من ممثلتنا الرائعة ، أستاذة الباليه الموهوبة ، وراقصتنا الفاتنة " وو - تشانغ - فو " أن تقدم لنا رقصة "الطائر الصغير" ، فماذا ترون؟

- "اقتراح رائع !"

(١) جذر الفجل الصينى من النوع الضخم الذى يقترب وزنه من واحد كجم ، وبه نسبة من السكر ، يقطعه الصينيون إلى شرائح ويأكلونه فى الشتاء ، ويمكن أن يصنع منه حساء.

وتدافعت الطالبات وتزاحمن حتى دفعن " ووتشانغ فو " إلى أعلى منصة الفصل ، وأسرعت " تشوشيا ولينغ " إلى إحضار ملاءة سرير، وقامت " لى تشون " نزولاً على رغبة الجميع بوضع الماكياج " لووتشانغ فو " تزيينها . وأحضرت كرة من خيط الصوف الأحمر وصنعت منها ضفير قصيرة لها . . . .

شعرت " ووتشانغ فو " أن ، زميلاتها يجعلن منها مادة للضحك ،فحاولت أن تمتنع ، لكنها لم تكن حازمة فى ذلك ، لأنها هى الأخرى تحب جو الضحك والمرح .

أحضرت " تشوشيا ولينغ " ملاءة السرير وربطتها " لى تشون " حول وسط " ووتشانغ فو " ، ثم ابتعدت عنها وصاحت : " واحد - اثنين - ثلاثة " ، وحاولت تشانغ فو أن تتراجع ، لكن لى تشون اعترضتها ، وتجمعت الأخريات حولها يصفقن لها تصفيقًا إيقاعيا راقصا ، استحيت تشانغ فو فى بادئ الأمر ثم بدأت تتحرك فى بطء وعلى استحياء ، حتى أسرعت من إيقاع رقصها الارتجالى مع نغمات تصفيق زميلاتها . ضج الفصل بالضحك ، وأخذت الطالبات يتمايلن على بعضهن البعض وقد غرقن فى ضحك مستمر.

وأخذت " لى تشون " تنادى بصوت عال : "أقبلن ،أسرعن ، هنا رقصة الخنزير السمين ، بدون تذاكر ، بدون فلوس ! "

تجمعت الطالبات عند نافذة الفصل وأخذن يتدافعن ويتساءلن :

"من هذه الراقصة النشيطة؟.

جاء الأستاذ يوان إلى الفصل على إثر صياح لى تشون ، معتقدا أن شيئًا قد وقع فى فصله ، ومرت " لوى تشن " بهذا المكان فدخلت هى الأخرى.

وقد أثار نداء " لى تشون " "رقصة الخنزير السمين " الإحساس بالغرابة لدى

زميلاتها بما فيهن " ووتشانغ فو " والأستاذ يوان " ولوى تشن " على حد سواء . وعندما رأين الأستاذ تجمدن فى أماكنهن ، وتوقفت كل مظاهر الهرج والمرج.

جاب نظر الأستاذ يوان ، ولوى تشن وجوه الطالبات حتى وقع نظرهما على منظر " ووتشانغ فو " المزرى ، وللوهلة الأولى ظنت لوى تشن أنه ربما يكون شيئا قد أصاب " تشانغ فو " حتى خرجت عن طورها ، وسألها الأستاذ يوان فى استغراب ودهشة : "ماذا دهاك . . . . . ؟"

نكست رأسها واحمر وجهها من شدة الخجل ، ونسيت أن تنزع الضفيرة القصيرة المعرقصة التى ترفع ذيلها فى وجه الأستاذ يوان كأنها عصا خشبية.

سأل الأستاذ يوان : "ماذا حدث ؟ وقد تراجعت الطالبات عن المنصة كأنهن لا من شاف ولا من درى (وهذا هو حال الطلاب دائمًا فى مواجهة أستاذهم) ، ولم يعد على المنصة سوى " ووتشانغ فو " المسكينة ، " ولى تشون " المضطربة، والأستاذ يوان ولوى تشن . بحيرتهما وقلقهما أمام المنصة .

حملقت لوى تشن فى وجه لى تشون وكأنها عثرت على ضالتها فى صورة " لى " المسئولة الأولى عن هذا المشهد ، سألتها: "ماذا تفعلين ؟ "

أجابت لى تشون فى شىء من الكبرياء : "نلعب"

"وفيم كنت تتصايحين من لحظات؟"

"أدعو الجميع للفرجة" وكانت " لى تشون " بعد أن أطلقت صيحاتها قد أحست أنها أخطأت . وعندما سألتها لوى تشن ، فكرت على وجه السرعة ماذا تفعل ، أتنكر أم تعترف . . . .

وعادت لوى تشن تسأل : "وماذا أيضا ؟"

"لا أعرف"

"كنـت تتصـايحين عن رقصة الخنزير السمين ، وسمعك الجميع !"

هز الأستاذ يوان رأسه مستنكرا : "كلام فارغ !"

وقالت لوى تشن : "حدثينى ، ماذا تقصدين "برقصة الخنزير السمين ؟" .

اتجهت لى تشـون نحو الأستاذ يوان وقـالت فى خضوع : "لن نفـعل ذلك مرة ثانية" .

ثم اتجهت نحـو "ووتشانغ فو" لتـزيل "آثار الزينة" فدفعـتها " تشـانغ فو " ونزعت بنفسها ضفيرة خيـوط الصوف الحمراء ، وخلعت عن نفسها تنورة الرقـص "المـلاءة " وألقـت بها على الأرض، ونظرت " تشوشيا ولينغ " إلى ملاءتها فى ضيق وحـزن دون أن تستطيع مد يدهـا لالتقاطهـا ، وحملت الزميـلات الأخريات كتبهن استعدادا للانصراف ، وانسحبت المتفرجات من أمام النافذة.

وقال الأستاذ يوان مخاطبًا الجـميع : "مثل هذا الهرج نوع من العبث الخاطئ ، والضحك من الآخرين (وأخذت لوى تشن منه خيط الحديث) وأكملت : يعد إهانة لهن واسـتخفـافًا بهن ! ، أيـن إذن روح الزمالة التى يجب أن تسـود بينكن ؟ أنتن طالبـات الصـف الثالث - أعلى صـفوف المدرسـة - تقف تلمـيذات الإعـدادية الصغيرات يتفرجن عليكن من النافذة ، أى قدوة تلك التى تضربنها لهن ؟

أجابت لى تشون : "لن يتكرر ذلك " .

وتوجـهت لوى تشن بكلامـها إلى " تشـانغ فـو " قائلة : "أمـا أنت فـقليلة الاحترام لنفسك إلى هذا الحد!" .

وكانت " تشانغ فو " قد أدركت من جراء الانتقادات التى وجهها إليها الأستاذ يوان ولوى تشن أنها فقدت مـاء وجهها ، فما إن سمـعت كلمات لوتشن هذه حتى أجهشت بالبكاء كالأطفال وخرجت من الفصل مهرولة عائدة إلى غرفتها وقد دفنت وجهها بين يديها.

دخلت " ووتشانغ فـو " إلى الغرفة ، وألقـت بنفسهـا على سريرها وتمددت على بطنها ودفنت وجـهها فى الفراش، وساقـها اليسرى مـدلاة من فوق السرير ، وهى تجهش بالبكاء تارة ، وتسترجع الأحداث وتحاسب نفسها تارة أخرى:

" ووتشانغ فو ، يالك من غبية بلهاء. لقد فقدت كرامتك فى عيون الآخرين، وأصبحت مادة للهو والملهاة ،قـالت لى تشون إنك خنزير سمين ، وقالت سكرتيرة رابـطة الشـبيبة إنك لا تحترمين نفسك ، فماذا بقى لك . . .

"الزميلات يهـزأن بك ، ألا تدركين ذلك ؟ يجعلن منـك مـادة للتسلـية ، ألا تبدين أى اعتراض على ذلك؟ "

" ووتشانغ فو "، هكذا تكون نظرتهن لك ! وبرغم أنـك لـست متفوقة فى دراستك ، ولست عـضواً فى رابـطـة الـشبـيبة ، ولا يسـتدعونك للمشـاركة فى اجتماعت اللجنة الفرعية للرابطة لكنك تحاولين أيضًا فى سبيل الدراسة الجادة ، فما إن بدأ العام الدراسـى الحالى حتى ذهبت تبـحثـين عن " تشن بوا " لتسـاعدك فى وضع خطة للمذاكرة، وكثيراً ما تستعيـرين "مجلة شباب الصين " التى تشترك فيها رابطة الشبيبة لتطالعيها ، وخلال حملة النظافة الماضية، عملت طوال اليوم وبـذلت جهـدا أكـبـر من " لى تشون " ، " ويانغ تشيـانغ يون " ، حتى إنك أنت التى أفرغت سلة القمامة.

"اشحذى عزيمتك ، اتخذى قـرارا حازمًا بألا تمزحى مع الآخرين بعد ذلك ، وأن يـكون كلامـك معهن فى حـزم وصرامة ، وأن تحـدى من سخريـتهن منك ، ولكن . . . . . . "

وعندما اقترب مـوعد تناول الغذاء ، هدأت ثورة " ووتشانغ فو " شيئًا فـشيئًا فأحـضرت وعاء الماء وغسلت وجـهها . وفى ذلك الوقت جـاءت إليها " تشوشـيا

ولينغ " لتعتذر لها ، وظلت ساكتة صامتة وعلامات الغيظ تعلو وجهها فى أول الأمر ، غير أن الحياء أخذها عندما كررت " شيا ولينغ " اعتذارها ، فوجدت نفسها مضطرة إلى الضحك معها ، ثم ذهبت إلى المطعم تتزاحم من أجل الحصول على الحساء (حيث إن كل طالبة لها نصيب محدد من الخضار المطهو تحصل عليه دون تزاحم ، لكن الحساء يلحق به من يبكر ، ومن يتأخر لا نصيب له فيه ، ولذلك لا بديل عن التزاحم) وعندئذ انقشعت عنها تمامًا غيوم الكآبة التى كانت قد خيمت عليها.

* * *

ظهرت صحيفة الحائط بالفصل تحمل مقالاً جديدًا بعنوان "أهذه روح الزميلة تجاه زميلتها ؟ " ينتقد "حادثة ووتشانغ فو " بشدة ، ويدين " لى تشون " على وجه الخصوص . والتوقيع على المقال "إحدى طالبات الفصل" . وما أن قرأت " لى تشون " هذا المقال حتى أسرعت تبحث عن رئيسة الفصل " تشوشيا ولينغ " وتسألها "من كاتبة هذا المقال؟"

- "ولماذا تسألين هذا السؤال؟" .

- "إن هذا تهويل من حجم الأمور البسيطة وانتهاز الفرصة لضرب الآخرين" .

- "إذا كان لك رأى مخالف يمكن نشره أيضا" .

- "باختصار ، من كتبت هذه المقالة ؟ أليست يانغ تشيانغ يون؟" .

- " ليس من شأنك . " .

" ليس من شأنى ؟ " واجتاح لى تشون الغضب وقالت فى لهجة آمرة : " أطالب بنزع هذه المقالة من الصحيفة " .

" هذا ليس من سلطتك " . وانصرفت " تشوشيا ولينغ " عنها إلى الاهتمام بأعمال أخرى .

فنظرت " لى تشون " وقالت ، " حسنًا ، إن "تشوشيا ولينغ" تتشبث برأيها وترفض آراء الآخرين فيما يشبه مزاح الأطفال . ثم أسرعت إلى صحيفة حائط الفصل ونزعت عنها المقالة ومزقتها .

بعد مضى يوم عقدت اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة اجتماعا موسعا لأعضائها ، ناقش تصرف لى تشون ، وقد شارك فى هذا الاجتماع جميع الأعضاء وغير الأعضاء باستثناء مارى ، ورغم أن الجميع يعرفن القصة ، قامت "شيا ولينغ" بسرد الأحداث كاملة ، وعندما وصلت إلى موقف تمزيق لى تشون لصحيفة الحائط ، أخذها الغضب وقالت :

"لقد اشترك الجميع فى إحداث الجلبة والضوضاء مع " ووتشانغ فو " فى ذلك الوقت ، وكنت أنا واحدة من هؤلاء ، لكننا جميعًا لم نعمل عقولنا فى ذلك الوقت ، بل على العكس رغبنا جميعا فى المزاح والتهريج ، لكنه بطبيعة الحال زاد عن حده . لكن لى تشون ليست هكذا تمامًا ، إنها – لست أدرى ماذا أقول – إنها حقيقة عندها شيء من الاستهتار بالآخرين ! ومتسرعة ،وخير دليل على ذلك تمزيقها لصحيفة الحائط بقوة وعنف يفوقان قوتها عندما تصوب الكرة الطائرة محرزة نقطة فى الفريق المنافس ! "

أعطت " تشن بوا " رئيسة الاجتماع الكلمة إلى " لى تشون " التى نظرت إلى الأخريات وقالت وهى تتنهد :

" لقد أخطأت ، ويجب أن أصحح خطئى ، آسفة يا ووتشانغ فو ، لن أمزح معك مرة ثانية " .تشوشيا ولينغ " ، تقبلى اعتذارى، لن أصدر أى تعليق بعد ذلك على صحيفة الفصل . ومثل هذا الأمر المؤسف يجب أن تقع مسئوليته على شخص واحد – وبالطبع هذا فى صالح الآخرين – وأنا أرغب أن أكون ذلك الشخص . . . . "

صاحت زميلاتها :

- " ماذا تقصدين بعدم المزاح ؟ " .

- "ومن تلك التى تمنعك من التعليق على صحيفة الفصل ؟ " .

- "وما هى المسئولية التى تقع عليك على حد زعمك؟ " .

رفعت لى تشـون يدها وقالت لتـشن بوا : " يا رئيسـة الاجتمـاع ، هذا العدد الكبير مـن الزميلات يتكلمن فى وقت واحد ، وهذا يصـعب من عملية الاسـتـقبال عندى " .

وتحدثت يوان شن تشى فقالت : " لم أكـن موجودة فى ذلك الوقت ، وعندما سمـعت بما حدث لم يمكننـى تصديقه. فـهل من الممكن أن تفعل زمـيلة ذلك إزاء زميلة أخرى ؟

لم تكن يانغ تشـيانغ يون تحب أن تسمـع يوان شن تشى تتكلم بمثل هذا الرفق واللين ،فلم تمهلها حتى تنتهى وقاطعتها قائلة :

" إننى أرى ألا يقيم هذا الموقف بمفرده ، لأنه جزء صغير من مجموعة الأقوال والأفعـال المشينة التى صدرت عن لى تشـون فى الفترة الأخيـرة .وإن ، الزميلة لى تشون من ذلك النوع المتغطرس المستبد برأيه الى حد بعيد . . . . . . "

قالت لى تشون : " يبدو أن موقف تشـيانغ يون تجـاهى سـوف يتحسـن إذا ما فقدت أنا ميـداليـة التفـوق الـدراسى وفازت هـى بها . . . . . "

نهضت تشيانغ يون من مجلسها وقالت : " أنت . . . . . "

قالت لى تشون : " تفضلى اجلسى " .

ردت تشيانغ يون : " دنيئة ، تافهة " .

نهضت لى تشون وهمت بالانصراف .

صاحت تشن بوا " : " لى تشـون ! " فتوقفـت وظهرها لهن ووجههـا نحو الخارج ، قالت تشن بوا : " ارجعى ، مازال هناك موضوع أهم يجب مناقشته "

سـألـت لى تشـون دون أن تنظر إلى مـحدثتـها : " أى موضـوع هذا ؟" ، قطبت تشن بوا حاجبيها وبدا صوتها متهدجا بعض الشىء فقالت فى تمهل : " مثلا ، نناقش ما إذا كنت قد حافظت على صورتك كعضو فى رابطة الشبيبة ؟" :

استدارت لى تشون " إيه "؟" .

وخـيم صـمت مطبق على الفصـل إذ تجـمدت لى تشون فى مـكانها ، ولم يكن أحد يتـوقع هذا الكلام حتى تشـيانغ يون نفسـها التى راحت تتفـرس فى وجه "تشن بوا" أكثر مما تتـفرس فى وجه لى تشون . مازالت تشن بوا جـالسة ، رفعت رأسها ونـظرت إلى لى تشون نظرة تعبر عن الحـزن والألم أكثر مما تعبـر عن الضيق والغضب ، وراحت تشد الممحاة التى كانت بيدها من طرفيها حتى قطعتها.

وقالت : "لى تشـون ، لا يمكن أن تستمرى على هذا الحـال ! " ثم انصرفت بنظرها عن لى تشون ، وخاطبت جميع الزميلات : "لقـد شاهدنا جميعا تصرفات لى تشون ، وسمعنا كلامها ، وأخذتنا الدهشة والتعجب لأن ذلك يختلف كثيراً عن الأفكار والسلوك التى يجب أن يكـون عليهـا العضو بـرابطة الشبـيبة. ثـم أى أمر مؤسف ذلك التى تقع مـسئوليتـه عليها وحـدها؟ لأن فى ذلك نفع للآخرين ، أى نظام هذا وأية قـوانين ؟ وفى أية دولة وفى أى مـجتـمع توجد هذه القـوانين ؟ أى أناس نحن ؟ وما مـوضـوع " يانغ تشيانغ يون " والميـدالية ، عليـك ألا تحـاولى استـخدام أساليـبك الخاصة فى الضـغط على الآخرين ، أتعـتقد "لى تشـون" أنها بتفوقهـا فى دراستها تكون قد حقـقت كل شىء . لا بأس ، إنه أمر طيب أن تتقنى دراستك ، وعلينا جـميعا أن نحـذو حذوك ونطلب مسـاعدتك . ولكن هل يكون للنجاح من قـيمة أو فائدة إذا افتـقد الإنسان الأخلاق والمثل العليـا وافتقد احـترامه

لزملائه ، حتى ولو حقق كل الدرجات النهـائية أو ضعفها ، إذا كنت ترين أن تفوقك الدراسى سيحد من جرأة الزميـلات على انتقادك ، فأنت مخطئة ، وإننا لن نسمح لك بأن تتمادى فى الخطأ ، ولا نسـتطيع أن نتركك تخرجين عن طريق رابطة الشبيبة . . . ! "

مازالت لى تشون جامدة فى مكانها ، والكلمات تجرى على شفتيها .

وقد راحت تراجع حساباتها تحت ستار الليل فى أناة رغبة فى معرفة أخطائها . فإن كانت قد أخطأت فلن تتـراجع عن تصحيح تلك الأخطاء ، وإن لا ، فلن تدع نفسها نهبا للاستسلام والخنوع .

وقد عـاشت لى تشون منذ نعومة أظفـارها فى كنف عمهـا . كان والدها من صغار الملاك فى مقاطعة خنيان ، ومات وهو فى ريعان شبابه ، فذهبت زوجته ومعها طفلتها بـنت الحولين لى تشون - إلى عم البنت الذى يعمل فى بنك تـيانجين - ولم يرغب العم "لى جه شيان" الذى تخطى الأربعين بقليل ، والذى لم يرزق أطفالا ، لم يرغب عن وجود لى تشـون وأمها فى بيـته . ولكن زوجتـه لم تكن ترحب أبدا بهاتين "الرزيتين العاطلتين" ، فلم تدخر وسعًا فى استغلال سلفتها (أم لى تشون)، وجعلت منها خـادمة للبيت كله ، وفى الوقت نفسه كـثيرا ما كانت تعبس وجـهها وتتهكم عليها وتسـتكثر كميات خبز الذرة التى تأكلهـا . فأخذت أم " لى تشون " تذبل شيئًا فشيئًا ، فقد سلبها مـوت زوجها نصف عافيتها وروحها ، وذهب تعذيب وتأليب زوجة العم بالنصف الآخـر ، فلم يمض عليها عـامان حتى لفظت أنفاسـها الأخيرة متأثرة بمرض الربو.

وفى آخر لحظات العمر ، تركت لابنتها ذات السنوات الأربع كلمات أربعة:

"لا تكونى قليلة الحيلة مثلى " . وبعد موت أمها كانت لى تشون تتلقى عطف وحنو عمهـا وتعانى قسوة وذل زوجة عـمها فى الوقت نفسـه ، وأخذت لى تشون

تفهم شيئًا فشيئًا أنها إذا أرادت البقاء فلابد لها أن تتودد إلى عمها وتستدر عطفه، وتتجنب زوجته قدر استطاعتها . وأثناء وجود عمها فى البيت، كانت تنزوى فى أحد الأركان ، تنتظر أى عمل تأمرها به زوجته فتقوم به طواعية خير قيام. وفى عدم وجوده، كانت تهرب إلى مكان بعيد من الصعب الاهتداء إليه . وكانت إذا اشترى لها عمها لعبة أو قطعة من الحلوى لا تخبر زوجته بذلك ، وإذا ضربتها فكرت فى حيلة لتجعل عمها يعرف ذلك، وقد نجحت بهذا الأسلوب فى اكتساب المزيد والمزيد من حب عمها لها ، مما أدى إلى تشاجره مع زوجته أكثر من مرة بسببها . وهكذا اعتمدت " لى تشون "الصغيرة على ذكائها ونباهتها حتى استطاعت الوقوف على قدميها فى غياب والديها .

لذلك تعودت " لى تشون " منذ صغرها على تدبير أمورها بنفسها ، وأن تكون مفعمة بالثقة فى نفسها . وكانت تجتهد فى دراستها لشعورها - إلى حد ما - أن الآخرين إذا لم يحسنوا الدراسة فسوف يعيشون فى كنف ذويهم، أما هى فلا سبيل أمامها سوى الاعتماد على نفسها . كانت تزدرى الأطفال الذين يجيئون إلى المدرسة ويغادرونها فى صحبة أهليهم. هؤلاء الأطفال ليست لديهم همة وشجاعة، لكن "لى تشون" لا تخشى شيئا ، بل تعتمد على نفسها فى كل شىء . وفى الماضى كان من السهل على التلميذ أن يكتسب الشهرة، حيث كان فى استطاعته أن يحظى بإطراء جميع الزملاء فى الفصل خلال مدة أقل من أسبوع إذا كان مجدًا فى الدراسة ، وأنيقا فى الملبس ، وفصيحا فى الكلام ، ويشتهر فى المدرسة كلها إذا واظب على الدراسة شهرًا كاملاً . هكذا كانت " لى تشون " فى فترة المرحلة الابتدائية ، وعندما جاء وقت تخرجها من المدرسة طلبت من أساتذتها أن يسجلوا لها كلمة فى الأوتوجراف ، فكتب لها معظمهم: " متميزة ومتفوقة " وعندما التحقت بالمرحلة المتوسطة (الإعدادية) ، أدركت لى تشون بالتدريج أنها رغم تميزها وتفوقها ، فإن المستقبل أمامها ليس مشرقًا فى واقع الأمر، وذلك بسبب

عهـود الظلام لحزب الكومـيـنتانغ ، فـقد كـانت تمقت هذا الحزب، تمقت المجـتمع القديم، لأن الشـباب ، وإن كان ذكيًا ومـجدًا فى هذا المجتمع ، لم يكن ليـستطيع الوصول إلى أهدافه ،كادت تطير من فرط سعـادتها بثورة التحرير ، فلم تتردد لحظة واحدة منذ اليوم الأول للتحـرير فى المشاركة الإيجابية فى كافة الأنشطة التـقدمية ، وسرعان ما انضمت إلى رابطة الشبيبة الشيوعية.

وأصبحت على ثقة ويـقين بأن، آفاق المستقبل أمامـها - كفتاة ذكية ومـجتهدة وعانت من "الاضطهاد" فى الماضى - هى آفاق "رحبة وبلا حدود".

مـاذا لو لـــم تكن الدعوة إلى الانضمام لمدارس الكوادر العسكرية . . . . .

وعندما اهتدى تفكير " لى تشون " إلى هذا الحد أحست أنه ما كان من السهل عليها أن تصيـر إلى ما هى عليه الآن. وأى طالبة أخرى - مثل سـونينغ مثلاً - لو مكثت فى بيتها هذا لكانت قد ماتت كمدا من قـسوة زوجة عمها ، ومثلا ووتشانغ فو التى لا تـتمتع بهـمة عاليـة ، لو كانت فى محلهـا، لدرست عامـين فقط على أحسن تقدير ثم ينتهى أمرها بأن تتزوج عندما تصل السابعة عشرة من عمرها وينتهى الأمر، أما هى فقـد واجهت الظروف البائسة التى عاشتهـا منذ مطلع طفولتها ، لم تذق طعمـا للراحة والطمأنينة فـى يوم من الأيام ، بل ذاقت ما لم يذقه غـيرها من المرارة ، وبذلت ما لم يبذل غـيرها من الجهد حتى أصبـحت - على عكس ما كان متوقـعًا - طالبة متفوقـة ، درست مجانًا طيلة السنوات الخمس ، حـصلت خلالها على ميدالية التفـوق ثلاث مرات . . . . آه ، فمن يعلم عنها كل ذلك؟ وقد شعـرت بالندم على أنها لم تسجل اسـمها عند التـقدم للالتحـاق بمـدرسـة إعداد الكوادر العسكرية ، وإنها متفوقة فى الدراسة ، ويؤمل لها أن تصبح عالمة كبيرة فى المستقبل ، فكيف يسمح لها بدخول صفوف الجيش ؟ ألم يحدث أيضًا أن تقـدمت " يانغ تشيانغ يون " ، و" تشن بوا " ولم تقبلا ؟.

لقد أخطأت فى هذه الخطوة .

لم يكن يسيراً على " لى تشون " أن ترفع رأسها خلال هذه الفترة الدراسية الأولى من العام ، فلماذا فاجأها وقوع هذا الأمر المؤسف !؟.

رقدت " لى تشون " فى الفراش ، تتقلب ذات اليمين وذات اليسار ، وكأن صوت " تشن بوا " يرن فى أذنيها : "نناقش ما إذا كنت مثالا طيبًا لعضو رابطة الشبيبة !" كيف أمكن لتشن بوا أن تقول مثل هذا الكلام فى اجتماع اللجنة الفرعية للرابطة ؟ تذكرت العبارة الملحقة بلوائح حب الوطن القائلة : "فيما عدا لى تشون" فعادت جراح كبرياؤها وكرامتها تؤلمها من جديد. نعم ، لقد كان فى تصرفها مع " ووتشانغ فو " شيء من الازدراء ، ولكن ألم يكن فى سلوك تشن بوا ، ويانغ تشيانغ يون تجاه تشانغ فو ازدراء أكبر ؟ إنه من الحقائق الموضوعية أن تواضعهما كاذب وعدم تقديرهما واحترامهما لتشانغ فو على حد سواء ، فلماذا إذن تتحديانها إلى هذا الحد؟.

ولم تعد لى تشون تفكر مليًا فى تمزيقها للمقالة التى نشرت عنها فى صحيفة الفصل ، ولا فى المناقشات التى جرت فى اجتماع اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة ، أو فى الموقف الذى وقفته فى الاجتماع ، لأنها أدركت خطأها حينذاك ثم زادت إدراكا لهذا الخطأ بعد ذلك ، وما دام قد وقع الخطأ فليس هناك داع لكثرة التفكير.

وفى النهاية استنتجت لى تشون بأنها لم ترتكب خطأ فادحًا ، أما عن كلام تشن بوا ، فإما أنه للتخويف والتهديد وإما أنه جاء اعتباطًا من عفو الخاطر . لكن الاحتمال الثانى ضعيف ، إذن فمن المؤكد أن هذا الكلام كان للتخويف والتهديد . وكلما أمعنت " لى تشون " التفكير اشتد بها الغضب ، فبعد أن كانت عضو اللجنة الرئيسية للرابطة وهى فى تيانجين ، هوت إلى الحضيض الأسفل لتتهمها سكرتيرة اللجنة الفرعية للرابطة بأنها لم تعد تحتفظ بمواصفات عضو الرابطة. وإذا

استمر الحال على هذه الصورة فهذا يعنى أن حياتها لن يعود لها قيمة ، قض القلق والضجر مضجعها ، فأخذت تتقلب فى الفراش ، أزاحت الغطاء عن نفسها بقدميها، لكنها شعرت كأن المرتبة من تحتها خشنة وغير مستوية ، فنهضت تسحبها وتفردها ، لكنها كلما سحبتها زادتها طيا فجلست فوقها وهى تكاد تشتاط غيظًا . وفجأة اهتدت إلى فكرة ، ارتدت معطفها الرمادى الداكن بسرعة ، وجرّت حذاءها فى قدمها كالشبشب منطلقة نحو فصلها فى جنح الظلام ، حيث أخرجت قلما وورقة ، ثم أسرعت إلى الممر الجنوبى ، وجلست تحت أحد المصابيح ، أخرجت جلدة من الورق المقوى لتستند عليها ، ثم أخذت تكتب خطابين أحدهما إلى مديرة المدرسة والآخر إلى الأستاذ يوان ، المصباح يرسل ضوءًا أصفر باهتًا نحوها فيرسم لها ظلاً خلفها ، رياح ليل الخريف الباردة تلسع قدميها العاريتين ، كانت تسكب غضبها على الورق تارة، وتتنهد فى أسف تارة أخرى وهى تسترجع "مسيرة تاريخها النضالى" .

وقد اجتاحتها رغبة عارمة فى الثأر ورد الاعتبار .

كان الأستاذ يوان وين داو يعتز بتلميذته النجيبة لى تشون ، لأنها متفوقة فى دراستها وخاصة مادة الرياضيات ، بل إنه على حد تعبيره هو نفسه له "دوافعه الخاصة" فى اعتزازه بهذه الطالبة. فقبل أكثر من عشرين عامًا عندما بدأ العمل كمدرس ، قال له أستاذه المخضرم الذى كان يعتبره مثله الأعلى: "عندما تعمل فى مهنة التدريس يتعلم على يديك الآلاف من التلاميذ والتلميذات ، فإذا صاروا جميعًا من ذلك النوع العادى غير المتميز ، فأنت كأستاذ لهم لن تحوذ إعجاب الناس وانتباههم ، أما إذا ظهر بين أفواج تلاميذك عشرة أو خمسة أو حتى تلميذ واحد من ذوى القدرات المتميزة ، يحق لك حينئذ أن تفخر بما قدمت من أعمال جليلة" .

ثم ربت المدرس المحنك بيده على كتف الأستاذ يوان قائلا: "يجب أن تهتم باكتشاف المواهب من التلاميذ ، وتقوم على رعايتها ، ومن ثم يكتب لك البقاء لأنهم لن ينسوك!" وانطلاقا من هذا المبدأ راح الأستاذ يوان يبحث ويفتش عن

"الموهوبات" بين تلميذاته، قبل التحرير وقع اختياره على بضع عشرة طالبة، لكنهن بعد التخرج ، ويا للأسف، منهن من انقطعت أخبارها ، ومن وقعت فريسة للمرض ورحلت عن دنيانا ، ومنهن من تزوجن وعملن ربات بيوت، (ومما يأسف عليه الأستاذ يوان أنه يعمل دائما فى مدارس البنات).

وقد خلف هذا الأمر جرحًا غائرا فى نفسه ، أما بعد التحرير ، وخلال هذين العامين ،فقد وقع اختياره على " لى تشون " ويأمل أن تصبح هى "الطالبة الممتازة ذات القدرة الخاصة" وقد ظل ذلك من مكنونات نفسه ، حتى ابنته لم تكن تعلم به.

قرأ الأستاذ يوان خطاب " لى تشون " ، وأول ما أزعجه أنه لم يعرف بنبأ اجتماع اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة قبل انعقاده ، فأخذ يتساءل فى نفسه : "من يقوم بحل مشاكل هذا الفصل ، الأستاذ الرائد أم اللجنة الفرعية للرابطة؟"

وبالتالى أثارت كلمات لى تشون التى ، قصدت بها التهويل والتضخيم ، تعاطفه معها إذ قالت فى هذا الخطاب: "عقدت اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة اجتماعا ليشنوا ضدى حربا شعواء ، وأرادت تشن بوا أن تنزل بى العقاب . . " ، ورأى الاستاذ يوان أن تشن وزميلاتها ليس عندهن نوع من التسامح والحلم ، غير أنه رأى أيضا أن هذا يعتبر من الأمور الداخلية للرابطة ، وتردد لأنه رأى أنه ليس من المناسب أن يتدخل فيه ، عاد إلى البيت ونادى ابنته يوان شن تشى يسألها : "بنت ، قولى الحقيقة ، أيرى فصلكن أننى كرائد فصل ليست لى أهمية ؟" .

وبعد أن باحت يوان لوالدها بكل ما حدث بالتفصيل ، قالت له: "لقد أخطأنا عندما عقدنا هذا الاجتماع دون الرجوع إلى حضرتك ، ولكن هفوة واحدة لا تعنى أبدا أننا لا نحترم رائد الفصل " . وزاد من غضبه أن ابنته "يوان شن تشى" نصبت نفسها ممثلا "للجنة الفرعية لرابطة الشبيبة " وقامت أمامه بدور الوساطة (الدبلوماسية).

قرأت مـديرة المدرسـة خطاب " لى تشون " ، ثم ذهبت تسـأل الأستـاذ يوان الذى قام بدوره بتسليمها الرسـالة التى تلقاها هو الآخر وقال : "اننى أقوم فى هذا الفصل بدور الريـادة الروتينية وما عـدا ذلك فأنا لا أعرفـه !" ، استنتـجت مديرة المدرسة مـا يرمى إليه الأسـتاذ يوان، وقالـت له : "يمكنك أن توجه انتـقاداتك إلى اللجنة الفرعية لرابطة الشـبيبة ، وتسألهن لماذا عقدن الاجتـماع دون التشاور معك ؟ " ضحك الأستـاذ يوان وسلمته المديرة الخطابين وقالت : "نـاقش هذا الأمر مع فرع رابطة الشبيـبة ، وابحث عما إذا كانت هناك خلافـات بينهن وبين لى تشون ؟ إنهن جميعـا دون العشرين ، ويجب بطبيعة الحال أن نوجـه إليهن النقد ، ولكن إذا كان الحال كأن هناك سـيفًا يلمع وقوسًا يـشَرع حسبمـا ورد فى خطاب لى تشون ، فإن الأمـر يكون خطيـرًا ، وعلينا أيضـا أن نفكر فى السـبل التى تدفـعـهن على طريق التضامن والاتحاد " .

كان الأستـاذ يوان يرغب فى أن يسلم الرسالة إلى المديرة ويتركهـا تتصرف فى الأمر كيفما تريد ، لكن كلامها هذا يعنى أنها - ألقت الكرة فى ملعبه - وتركت له الموضوع وهذا وضع طبـيعى ، وهل يمكن لمديرة المدرسـة أن تضطلع وحدها بكل هذه الأمور ؟ ولكن كيف يتصرف هو فى هذا الأمر ، فـهو لم يوجه انتقادا إلى اللجنة الفرعية قط من قبل. وأخذ يفكر ويمعن التفكير بينما انصرفت مديرة المدرسة.

فى ذلك الوقت كـانت " يوان شن تشى " قـد أخبـرت " تـشن بوا " بآراء والداها فى اللجـنة الفـرعيـة للرابـطة ، وكانـت " يانغ تشـيـانغ يون " تقف إلى جوارهمـا تسمع هذا الكلام ، قـالت تشن : "نعم فقـد كان تنسيـق أمورنا مع رائد الفصل فى الآونة الأخيرة قليلاً حقا" .

ردت " يانغ تشيانغ يون " : "لكن الأستاذ يوان لم يطلب الاجتماع بنا قط ! "

فقاطعتها " يوان شن تشى " : "إن والدى لم يرغب أصلاً فى أن يكون رائدًا للفصل " .

قالت " تشن بوا " : "وهذا يحتم علينا أن نسعى إليه من آن لآخر " .

وبعد أن تشاورن فيما بينهن ،انطلقت بوا و " يوان شن تشى " إلى مكتب شئون تدريس وأبحاث مادة الرياضيات لزيارة الأستاذ يوان.

هذا المكتب عبارة عن حجرة صغيرة ، يعمل بها - فقط - أربعة أساتذة لمادة الرياضيات ، وعندما وصلتا لم يكن هناك سوى الأستاذ يوان الجالس بجوار النافذة يطالع العدد الأخير من مجلة "علم الرياضيات" .

طرقت " تشن بوا " الباب، ولم تجد ردًا من الأستاذ يوان ، نظرت من خلف زجاج الشباك فرأته يطالع المجلة فى شغف ، ثم يقربها من الشباك فى اضطراب وهو يتمتم : "هو ، ليس هو ؟" وقفت تشن بوا وتشيانغ يون برهة على وجهيهما علامة استفهام ، ثم طرقتا الباب مرة ثانية فانتبه الأستاذ والتفت فرآهما من زجاج النافذة.

طلب الأستاذ منهما الدخول والجلوس وطوى المجلة التى كانت فى يده ، ثم فتحها ثانية بسرعة وطوى طرف الصفحة التى كان يقرأ فيها، وقبل أن يسألهما الأستاذ بادرته تشن بوا بالحديث عن الاجتماع الذى عقدته اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة مع الاعتراف بأنها نسيت أن تتشاور فى ذلك مع رائد الفصل قبل موعد انعقاده.

هز الاستاذ يوان رأسه وأعطاهما رسالة لى تشون ، وما أن رأت "تشيانغ يون" الرسالة حتى اشتاطت غضبًا وقالت : " لقد شوهت . . . " .

فجذبتهـا تشن بوا من طرف قميصها فـسكتت ولم تكمل ، قصت تشن وقائع الاجتماع كاملة على الأستاذ يوان.

سأل الأستاذ : "ماذا ترون بالنسبة لشخص لى تشون؟ . "

رفعت تشيانغ يون رأسها وقالت : "أنانية . . . . " .

سأل الأستاذ يوان مستنكراً وكأنه لم يتوقع ذلك "أنانية ؟" .

أجابت "تشيانغ يون" وهى تستعـين بإشارات من يدها: "حضرتك لا تعرف، إنها لا تتـصف بهذا النوع من الأنانيـة ، لكنه نوع آخر ، إنهـا فى حياتـها اليومـية ليست بخيلة أبدا ، لكنها فى كل شيء ترسم وتخطط لنفسها فقط . . . . "

وقالت تشن بوا : "إنها تنتفخ غرورا !"

سأل الأستاذ يوان : "وأنتن هل تكرهنها ؟" .

ردت تشيـــانـغ يون : "لا ، إنها لا تدفعنا إلى كـراهيتهـا ، بل إلى الغضب منها . . . . " .

وأضافت تشن بوا : "وتدفعنا أيضا إلى القلق عليها " .

سأل الأستاذ : "أى المواقف التـى تـدفعــكن إلى الغضـــب منها . . . " .

وأضافت تشن بوا : "وتدفعنا أيضا إلى القلق منها؟ .

انبرت تشيانغ تعدد عيوب ومساوئ لى تشون : "إنها مغرورة ومتغطرسة ،تنأى بنفسها عن الجماعة ، لا تشارك فى الأعمال العامة، لا ترغب فى خدمة الجماهير ، تميـــل إلى التفـــوه بالتعـــبيرات اللاذعــة . . . . " .

رد الأستاذ يوان بعد أن أمعن التفكير : " اسمعا رأيى وأرجــو ألا يغـضبكما، إن رأيى فى زميلتكن لى تشون لا يتفق تماما مع رأيكمـا ، فهى منكبة على دراستها

ومحبة للعلم ، ولديهـا القدرة على الاستنتاج والاستنباط وهذه قـدرة وكفاءة جديرة بالثناء . وبطبيـعة الحال فـإن لديـهـا بعـض جوانـب النقـص التى تحتـاج إلى مسـاعدتكن . . . . " .

لم ترد تشن بوا وزميلتـها وأطرقتا تفكران فى كلمـات الأستاذ يوان الذى تناول مجلة "علم الرياضيـات" من جديد، ورسم على شفتيه ابـتسامة صفراء مـفاجئة ، وقال لتشن وصاحبتها : "أترغبان أن أحكى لكما قصة؟" .

أمعنت تشن بوا النظر فى الأسـتاذ يوان ، وطرفت تشيانغ يون بعـينيها دون أن تفهم ما يقصده.

بدأ الأستـاذ يوان يقول : "وقـعت هذه القصـة منذ ثلاثين عامًا ، حـيث كنت أدرس فى جامعـة تشاويانغ، وأقوم فى الوقت نفسه بالتـدريس بالنيابة لمادة الهندسة المستوية لطلبة الصف الثالث بإحدى المدارس الإعدادية للبنين ، كان فى هذا الفصل تلميذ - لا داعى لذكـر اسمه - حاد الذكاء متـوقد الذهن ، نحيل قصيـر القامة ، ملابسه رثة باليـة ، وكان له عيب خلقى فى عينه ، حيث يتراقص جـفناه فى حركة مسـتمرة ، لا يحب شيـئا سوى مادة الرياضـيات ، وهى عشقـه الأول - حتى إنه تفوق علىّ فى ذلك - وقيل إن والده ضربه ذات مرة لأنه ظل ممسكا بكتاب الحساب طوال اليوم. فى يوم من الأيـام ، بعد انتهـاء الحصة الأولى جـاء يبحث عنى وهو يحمل إحـدى المسائل التى واجهـها فى الهندسة المستـوية ، يطلب منى الحكم على صحتـها . ماذا كانت هذه المسـألة فى اعتقادكم ؟ إنهـا تقول إن النقطة لا يمكن أن تتحرك ! لأن أى نقطة عندمـا تتحرك فإنها يجب أن تمر بأقرب نقطـة لها ، غير أن هذه النقطة لا يمكن تحـديدها . ما إن قرأت هذا الكلام ، حـتى قلت فى نفسى : أليس هذا ضربًا من ضروب اللهو والعبث ! فكيف يمكن إذن أن يظهر تلميذ يدرس الهندسة المستوية ولم يتجاوز العاشرة سوى ببضع سنوات ، إنه يتعمد أن يضعنى أنا - المدرس الشـاب الذى يتدرب على التـدريس - فى مـأزق . ثم أصبح بعـد ذلك

يسبب لى متـاعب أكثر أثناء الدرس ، إذ كان يطاردنى أثناء الـشرح بإتمام كلامى ، ويستـوعب المعلومات قبل أن أفـرغ مــن شـرحها، وأحيانـا يقـومـنى أو يصحح كلامى . كان زمـلاؤه يحاولون إسكاته ويسخرون منه ، بل ويوجهـون إليه الألفاظ النابية. وفى بعض الأحيان ينسى نفسـه أثناء الدرس ويجلس ذاهلاً معقود اللسان ، حيث يتوقف جفنا عـينيه عن الحركة ويتأمل فى عمق ، وأنظر إليه فأجـد فمه فاغراً كأن شيئا فى حلقه . وأحيانا أخـرى أجده يقذفنى بكومة من الأسئلة المعقدة التـى لا أدرى من أين أتى بهـا ، فأجـدنى أفكر بينى وبين نفـسى هذا التلميـذ يريد أن يجرى قبل أن يتعلم المشى ، ويحاول أن يخوض البـحر وهو يكاد يغرق فى ساقيه، وكان المدرسون الآخرون يقولون أيضـا إنه يطالع كتب الرياضيات أثناء حصص المواد الأخـرى. وذات مرة لاحظتـه يقـرأ فى كتـاب الجـبر المقـرر على الشـانوية فى أثناء حصتى. فاشتـد بى الغضب، وطلبت منه أن يغلق الكتاب ، لكن لم تمض لحظات حتى فتح كـتاب الجبر من جديد، فدفـعنى حماس الشباب ولطمتـه لطمة قوية على خده - وكان ضرب التلاميذ فى ذلك الوقت من الأمور العادية المستباحة - ثم رحت ألومه وأوبخه لمدة ثلاث ساعات بعد انتهاء الحصة . . . " .

وساد الوجوم وجه الأستاذ يوان واستطرد قـائلا : "أصر هذا التلميذ ألا يحضر حصتى بعد ذلك أبداً ، ذهبت إلى مدير المدرسـة وعرضت عليه الأمر ، مصراً على طرد هذا التلميذ الذى فصل بالفعل من المدرسة . . . . ولم يمض وقت طويل حتى تركت هذه المدرسة أنا الآخر . . . . " .

وتنهد الأستاذ يوان تنهـيده عميقة ، ورفع النظارة عن عينيه ، وأخـذ يمسحها بطرف المنديل ويده ترتعش رعشة خفيفة.

اتسعت عينا يانغ تشيانغ يون وسألت فى لهفة : "وماذا بعد؟" .

أجاب الأستاذ يوان فى صوت أجش تشوبه بحة خفيفة : "وبعد ذلك" .

وسعل فذهـب وبصق فى السلة ثم عاد وتناول مجلة "علم الرياضـيات" وقال لتشن بوا ويانغ تشيانغ يون : "انظرا ، إنه كاتب هذه المقالة" .

وأخرج الأستاذ يوان سيجـارة ، ومن عادته أنه لا يدخن أمام الطالبات . لكنه لم يطق صبـرًا وأشعل السيجارة وراح يسـحب نفسًا بعد الآخـر وينفث الدخان فى الهواء .

اقتربت تشن بوا ويانغ تشيانغ ببصرهما من المجلة ، وأخذتا تطالعان فى إجلال وإكبار عنوان المقال الذى يوحى بأن الموضوع صعب وعـميق وغير مطروق ، وراحتا تتنهدان بعمق فى وقت واحد .

أطفأ الأستاذ يوان السيجارة وألقى بها جانبا ، وقال : "لنرجع إلى موضوعنا ، لقد عملت بمهنة التدريس ثلاثين عاما ، وتوصلت إلى أن الـطالب كلما كان متفوقا فى دراسته ، كان عـيبه كبيرًا وواضـحًا . . . . وأن المعلم إذا لم يكن حذرا قادرا على استنتاج العواقب فإنه يكلف تلاميذه حياتهم التى تذهب هباء ثمنا لخطئه ، ثم أتم كلامه قائلا: "أرى أنه يحسن بكن أن تتصرفن مع لى تشون بشىء من الحذر . . . ."

قالـت تشن بوا : "شكرا يا أستـاذ على ما زودتنا بـه من خبـرات ، فقـد كان تفكيرنا قاصرا ودائرة معرفتنا محدودة للغاية ، ثم نظرت إلى الأستاذ يوان فى ارتباك وسألت : "لكن حضرتك ذكرت أن الطالب كلما كان متفوقا فى دراسته كانت عيوبه كبيرة وواضحة ، أليس هناك مناص من ذلك ؟ ربما كـان ذلك واقعا قبل التحرير ، أمـا الآن لمـاذا لا يتـطـور الطـالب حـتى يصـبح كامـلا متكامـلا من جمـيع النواحى ؟" .

كانت تشيانغ يون تنصت إلى حديث الأستاذ يوان بمشاعر وأحاسيس من تستمع إلى قصة ، وقد اسـتطاعت بخيالها الواسع أن ترسم فى عقلها صـورة لهذا التلميذ

النحيل الجسد ذى الجفنين المتراقصين ، المولع بمادة الرياضيات؛ فشعرت أن قلبها يفيض تعاطفا معه،بينما استمعت إلى حوار تشن بوا والأستاذ يوان بلا اكتراث.

هز الأستاذ يوان رأسه موافقا على رأى تشن بوا : "نعم ، إننى أحكى عن موضوع قديم ، وربما اختلف الحال اليوم. لقد عملت بالتدريس لسنوات طويلة، وتعرفت على نماذج ونوعيات مختلفة من الطلاب والطالبات، ومازلت أذكر الكثير من الأحداث ، ووقعت فى عديد من الأخطاء . . . . .لنعد مرة أخرى للحديث عن لى تشون ، إنها طالبة متميزة ومجتهدة ، فهى من ناحية قوية الشخصية ،عالية الهمة ، واثقة بنفسها ، محبة للعلم ، تعمل ذهنها فى التفكير ، وكل هذه خصال وصفات طيبة ومحببة إلى النفس ومن ناحية أخرى نجدها متكبرة، عنيدة ، تركب رأسها، وأحيانا تفكر فقط فى الارتقاء بنفسها دون الاهتمام بمن حولها ، وإننى أرى أنها بخصالها وصفاتها الطيبة يمكن أن تكون نموذجا للفتاة التى تبشر بالآمال إذا حظيت بالإرشاد والتوجيه ، أما بالنسبة لأسلوبها الفكرى وعلاقتها بمن حولها فإن ذلك يحتاج إلى المزيد من التوجيهات من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإننا لا يمكن أن نطالب كل الزميلات بأن يكن مثل سكرتيرة اللجنة الفرعية لمنظمة الشبيبة ، وإن معلوماتى محدودة فيما يتعلق بنظريات التربية الحديثة ، هذا هو رأيى فى هذا الموضوع ، ولست أدرى إذا كان صادفه الصواب أم جانبه ، "وعند هذا الحد انتهى كلام الأستاذ يوان .

فكرتا برهة من الوقت ، ثم أومأت تشن بوا وقالت : "لقد كنا نأخذ من لى تشون موقفا معارضا من قبل على طول الخط ، ويمكن القول إن هذا الموقف ميراث "تاريخى" ، حيث إن المهمة الأساسية للجنة الفرعية للرابطة تكمن فى تعبئة الجماهير للمشاركة فى مجالات التحرك السياسى، ومن يتقاعس أو يخرج عن هذا الخط نسبب له المتاعب ، وفيما يتعلق بالزميلة لى تشون ، فإننى أعتقد أن هناك فى

شخصيتها بعض الجوانب التى لم نستوعبها بعد بالدرجة الكافية. فماذا ترين يا تشيانغ يون ؟".

نظرت تشيانغ يون بطرف عينها وقالت : " آه يجب أن أعيد التفكير ، فأنا دائما أتقبل ما أراه صحيحًا، وأرفض ما أراه غير ذلك ، ولا أفكر فى احتمالات أخرى ، لكن فيما بعد يجب أن أفكر فى روية وأناة".

آتى كلام الأستاذ يوان ثماره ، حيث بدأتا - منذ برحتا المكان - فى التشاور والتفكير فى كيفية الالتقاء والتآلف مع لى تشون.

* * *

أصاب البرد لى تشون عندما كانت تكتب الرسائل فى منتصف الليل ، علاوة على أنها لم تنم جيدا ، فشعرت فى الصباح بأن رأسها ثقيلة وأنها غير قادرة على فتح عينيها . غسلت وجهها بالماء البارد لعلها تنتعش بعض الشيء، تمكنت من حضور الحصة الأولى بمشقة ، ثم بدأت تشعر بألم فى صدغى رأسها من آن لآخر ، وخمول ينتشر فى الكتفين كأنها حملت عليهما ما لا طاقة لها به من الأحمال ، ولما لم تقو على المقاومة ، استأذنت وعادت إلى حجرتها وألقت بجسدها فى الفراش.

الحجرة واسعة ، يفتح بابها فى الجهة القبلية ، ينتشر فيها شيء من رائحة الرطوبة التى تختلط برائحة الصابون ، تسكن فيها اثنتا عشرة طالبة، وينزوى سرير لى تشون فى أحد أركانها البعيدة المظلمة . رقدت لى تشون على الفراش وسحبت اللحاف على نفسها ، وبصرها معلق باثنتى عشرة منشفة وتنورة واحدة منشورات على الحبل داخل الحجرة. لا تعرف أيا من هذه المنشفات تخص أيًا منهن. هذه المنشفة الناصعة البياض المكتوب عليها "صباح الخير" هى على الأرجح منشفة الآنسة تشانغ، أما تلك القديمة البالية ذات الخطوط الحمراء والتى تصرخ من كثرة الثقوب الصغيرة ، فأغلب الظن أنها منشفة وتشانغ فو ، أما هذه الجميلة الجديدة

ذات اللون السمـاوى ، فلمن تكون؟ إنها لا تستطيع أن تتـذكر ، عندئذ هبت ريح عاصفة فـأحدث الباب صريرًا ،وفى الوقت نفسه تهادى إلى الأسـماع صوت جرس المدرسة ، وأصوات ضجـيج وعجيج مختلطة مع صياح الطـالبات اللاتى انتهين من الحصة الثانية، وخيل إليها كأن صوتا ما يناديها. أخذت نفسًا عميقًا فشعرت أن أنفها امـتلأ برائحـة الرطوبة ورائحـة الصـابون ، ثم راحت تسـتعـرض من جـديد تلك المنشفـات واحدة تلو الأخرى . وفجـأة اكتشفت أن منشـفتها لم تكن مـوجودة بين منشفات زميلاتها ، بل وجدتها ملفـوفة على أحد طرفى الحبل ، عندئذ هاجمها ما يشعر به المريض غالبًا من هواجس الإحسـاس بالغربة والعزلة والضعف ، وتساءلت لى تشون: "هل أصبحت أنا منفية معزولة مثل هذه المنشفة؟" .

دق الجرس من جديد ، وبدأت الحصة الثالثة ، إنهـا حصة القواعد التى تلقيها الأستاذة ليـو ذات الشعر الناعم الطويل ، القادمة من مـقاطعة سيتـشوان ،إنها ذات أسلوب رشيق وطريقة عرض شيقة ، ما أجمل الحياة المدرسية ، تلك الحياة الجماعية المنظمة التى يحكمها جرس المدرسة ، لكنها متعبة ومريضة.

وماذا لو لم تكن مريضة؟ هناك من ينتقـدنها ، من تنفرن منها ، وأيضـا مـن يأخذن منها موقفا عدائيا . ليست لها صديقات مقربات ، لا ، بل ليس لها صديقة واحدة . لا تحب من تتود إليها وتقترب منها من زميلاتها.

وعندما كـانت بالمدرسة الإعدادية فى تيانجـين، كانت نشيطة مـفعمة بالحـيوية منفرجة الأسارير، لا يعلو صوت على صوتها بين جـموع الزميلات ، كانت عضوا باللجنة الرئيسة لرابطة الشبيبة هناك، كانت مشاغلها كثيرة، ودائما تلتقى مع طالبات المرحلة الثـانوية ، وتقـوم بتنسـيق بعض الأمـور مع كوادر الاتحـادات الطلابيـة فى مدارس البنين ، وكذلك الصحفيين بجريدة الشباب.

أمـا الآن فقـد تخلت عن كل ذلك وتركـته لـغيـرها ، وتفرغـت لدراسـتهـا وأصبحت غيـر راغبة فى ذلك . لا ، يجب ألا تخدع نفسهـا ، فهى مازالت تواقة إلى القيام بهذا الدور ، وتحـتاج إلى الصديقات كحاجـة الظمآن إلى الماء، تحتاج إلى الشعور بالدفء بين الجماعة ، فى شوق إلى أن تحظى بشرف خدمة الآخرين . لكن ما العمل؟ .

أتذهب إلى تشن بوا تستجديها السماح لها بالقـيام ببعض الأعمال العامة؟ لقد سبق أن قررت بنفسها ترك العمل العام، فما الداعى إذن لأن تتوسل وتحنى رأسها ؟ إذن ، ماذا عسـاها أن تفعل بعد كل ذلك حـتى تستطيع إظهار قـدرتها الحقيـقية ، وإسكات الألسنة التى تتقول عليها ، وكسر الجـمود الذى يسود حياتها ، بل وتحقيق المزيد من التلاحم مع عدد أكبر من الزميلات اللاتى يحترمنها؟.

اختلط عليها الحابل بالنابل وغالبها النعاس حتى استغرقت فى النوم.

وعند الظهيرة جاءتها بعض الزميلات للاطمـئنان عليها، وقد حملن إليها طعام الغداء ، وعدد اليوم من صحيفة "الشـباب " اليومية. تناولت قليلا من الشعرية ثم نحت الطبق والعـصى جانبـا ، ووضعت يدها على خـدها ورجعت بجـسدها إلى الوراء ، وهى تطالع الصفحة الأدبية التى نشر فيها نثر عن الحياة الطلابية. فرأته فلم تشعـر بارتياح تجاه هذا المقـال ، فما يكـتب عن الطلاب الآن لا يعدو كونه قـشوراً تتناول صغائر الأمور مثل إعارة الشمسية لزميل عند سقوط المطر، وإهدائه تفاحة إذا أصابه مرض . . . . دعك من التـفاح فإن لى تشون ليست بحاجة إلـى التفاح حتى وإن اشتـد بها المرض . إنها إذا قدر لـها أن تكتب عن الحياة الـطلابية ، فلن تكتب مثل هذا الكلام . إنهـا تريد أن تسخر، تسـخر من الكلمات الجـوفاء ، ومن ذلك المقال المنشور فى "صحـيفة الشـباب اليومية" ؟إنها تجيد فن الكتابة، ولها تجربة فى ذلك ، فهى تحصل دائما على أكثر من تسعين درجة فى مادة المقال . وإذا حدث أن نُشر لها أحد المقالات ، فـسوف تندفع تلميذات الصف الأول الإعدادى إلى الصف

الثالث الثانوى يسألن والصحيفة فى أيديهن: "هل أن لى تشون كاتبة المقال هذه هى نفسها لى تشون زميلتكن؟" وما أروع هذا السؤال إذا تصادف أن وجهته الصغيرات إلى تشيانغ يون ! وربما تلقت لى تشون رسالة من أحد طلائع الأطفال فى جزيرة هاينان وهو يخاطبها بلقب "الخالة لى تشون" اعتقادًا منه أنها أستاذة متقدمة فى السن ، إزاء ذلك ازدادت دقات قلب لى تشون ، وقد قرأت المقال سبع مرات ، وفى كل مرة اكتشفت فيه عيبا جديدا ، إنها إذا كتبت مقالا بنفسها ، لن يكون فيه هذا العدد الكبير من النقائص والمآخذ ، ازدادت ثقتها بنفسها وإيمانها بقدراتها ،لكن جسدها المريض لا يستطيع أن يقاوم انفعالات الكتابة القوية.

وفى الخامسة بعد الظهر ، جاءت تشن بوا إلى الحجرة ، حيث كانت لى تشون قد أحست بشىء من الراحة وجلست تقرأ فى الفراش ، سألتها تشن عن صحتها وأخذت فى الوقت نفسه تقص عليها وقائع اليوم الدراسى. قالت تشن إن الأستاذ طرح سؤالا فى حصة اللغة الروسية، ووقعت تشوشيا ولينغ فى خطأ فى النطق عند إجابتها على السؤال ، صحح لها الأستاذ خطأها ، لكنها لم تستطع النطق السليم، وكلما حاولت وقعت فى نفس الخطأ مما أثار موجة من الضحك بين الزميلات، أمرها الأستاذ بالجلوس ،فتمتمت وهى تجلس "بكلمة نابية" ، سمعها الأستاذ واعتقد أنها تسبه فثارت ثورته ولم يهدأ إلا عندما أكدت له "يوان شن تشى" أن هذه الكلمة هى "لازمة" تشوشيا ولينغ التى تقولها دائما عن غير عمد. وغلب الضحك لى تشون عندما سمعت ذلك .

وبعد أن انتهت من سرد هذا الموقف سألتها تشن بوا : "لقد أخذت على بعض المآخذ بسبب الاجتماع الماضى ، أليس كذلك؟. "

بدأ التوتر على لى تشون ظنًا منها أنها علمت بموضوع الرسائل، ردت لى تشون ،وقد اكتسى وجهها بالحزن: "نعم، لى عليك بعض المآخذ " .

احمر وجـه لى تشون ، إنها لا ترغب فى الدخـول فى حديث ، "من القلب للقلب" ، "حديث يقوم على النقد والنقد الذاتى" . شعرت أنها إذا دخلت فى هذا الحديث سوف تقع فى الفخ الذى نصبته لها تشن بوا . فقالت فى نفسها "نعم ، إن لى مآخذ عليك ، أما ما هى ، فاذهبى إلى مديرة المدرسة واعرفى منها" .

غير أن لسانها ظل صامتا.

رأتها تشن بوا على هذا الحال، فقالت فى إيجاز : "لقد قلت فى ذلك اليوم إن سلوكك لا يتـفق مع ما يجب أن يكون عليـه عضـو الرابطة، ولـم يكن هذا الكلام ملائما ، وما كان يجب أن أتهور فى الحـديث وأجرح شعورك ، أرجو أن تصفحى عنى. أما بالنسبة لآراء بقية الزميلات . . . . . فـبالطبع لنا كلام آخر بعد أن تشفين من هذه الوعكة الصحية" .

خرجت تشن بوا ، وشعرت لى تشون بنوع من الراحـة . فقد جاءتها تشن بوا الآن "تعترف بخطئها" وهذا فيما يبدو يشير إلى أن الخطاب "المحبوك" الذى صبت لى تشون غضبها فيه قد نجح وآتى ثماره.

ولكن ماذا عاد عليها من ذلك ؟ لقـد أخذها القلق والتوتر وقتًا طويلا، وبدت كما لو أنهـا قد أصيبت بحمى الملاريا. بينمـا تشن بوا فى حالتها الطبيـعية ولم يقع عليهـا أى ضرر. كانت لى تـشون تفضل ألا تعـترف تشن بوا بخطئـها بل تمنت لو شب الغضب فى حناياها، لكن تشن بوا – على العكس– ظلت هادئة . فماذا عسى لى تشون أن تفعل معها؟

(١٠)

أجرت تشن بوا تقييـما شاملا لحالتها الدراسيـة وقت مرض أمها، وأعلنت فى اجتماع الفصل الذى انعقد بعد امتـحان الفترة الأولى أنها لم تكن قد استعدت على نحو جيد . إن الجميع يدرسن نفـس المقررات ، وفى الأوقات نفسها ، بل إن وقت المذاكرة بالنسبة لتشن بوا يكون فى بعض الأحيـان أقل من زميلاتها لكثرة ما تضطلع به من الأعمال العامة فكيف لها إذن أن تلحق بهن فى أسرع وقت ممكن، وكيف لها أن تتقن دراستها؟ .

أدركت تشن بوا أن ذلك لن يتأتى إلا بزيادة الفعالية الدراسية داخـل الفـصل. فالأخريات يمكن ألا يفهمـن وألا يحفظن أثناء الدرس ، لكنها يجب أن تفهم ،بل وتحفظ أيضًا فى الوقت نفسه ، وأن تجتهد لتؤدى فى ساعة واحدة ما تؤديه الزميلات الأخريات في سـاعتين. ويجب أن تسـتجمع طاقاتهـا البدنية والذهنيـة وصولاً إلى زيادة الكفاءة والفعالية الدراسية.

وفى الوقت الذى أرهقت فـيه مـشكلة لى تشون أعـصابهـا ، أعلنت تشن بوا حملة الهجوم على جبهة الدراسة. .

أحضرت كرتا وكتبت عليـه بخط واضح ومنظم: "دعنا نستغل كل دقيقة وكل ثانية الاستغلال الأمثل ! ، ثم ثبتته بدبوس على الجانب الأيسر من سطح المنضدة . وكلما قـرأت هذا الكارت مع بداية كل درس، تولدت لديها إرادة وطاقـة جديدة . فتستقيم قامتها وتتـسع عيناها ، وتطبق قبضتها ، وتنصت لكل كلمة وكل جملة فى انتباه شديد.

قالت تشن بوا فـى نفسهـا فى سعادة : "إن هذا الكرت يمكـن أن يدفعنى إلى الاستماع إلى دروسى بتركيز وانتباه شديدين. " .

لكن ما إن جاء اليوم التالى ، حتى وقع منها أمر بسيط فى الحصة الأولى من دروس اليوم وكانت حصة اللغة الروسية ، حيث كان الأستاذ يشرح القواعد ، ووجدت تشن بوا نفسها لا تفهم بعض ما يشرحه ، وفى ذلك الوقت لاح خلف زجاج الشباك شىء يقفز قفزات متتالية فيخايل عينيها ، نظرت بطرف عينها فإذا به عصفور صغير يقفز فوق البلاط بجوار الفصل ، وقد ربط فى ساقه شريط أحمر صغير . أدركت تشن بوا أن هذا المخلوق الصغير من المؤكد أنه كان أسيراً لأحد الأطفال وقد انطلق الآن مكبلاً بالقيود والأغلال باحثا عن حريته، شاهدت تشن بوا هذا العصفور الصغير الهزيل يقفز قفزات متثاقلة فى صعوبة بالغة، وكأنها قرأت عينيه الزائغتين الحائرتين، بينما ظهر ظل شخص مقبل نحو الطائر ، إنه فراش المدرسة يقترب منه شيئا فشيئا ، وهو يمد يده خلسة محاولا الإمساك بهذا العصفور الصغير. . . . .

كادت تشن بوا تنادى : "قف ، لا تفعل !" ، وتحرك جسمها فاصطدم مرفقاها بالمنضدة وأحدثت صوتا. وانتابها الفزع ، ثم هدأت من روعها، ومضت دقيقتان لم تستمع خلالهما لشرح الأستاذ : خفق قلبها وكأنها ارتكبت جريمة ، وأخذت تنظر إلى الآخرين ، بينما لم ينتبه إليها أحد.

وضعت لنفسها بعد ذلك نظاما تلتزم به ، وهو أن تصوب عينيها نحو وجه الأستاذ طوال شرح الدرس، وألا تسمح لبصرها إلا بمتابعة حركاته وانفعالاته، وألا تسرح بناظريها مع عصفور يهبط أو يطير ، وألا تنظر إلى أى طائر آخر حتى لو كانت البومة فى وضح النهار.

كان لذلك بالطبع جوانبه الإيجابية، فلم تفتها حركة أو انفعالة واحدة من حركات وانفعالات الأستاذ ، استطاعت أن تعيش الحصة الأولى بانتباه وتركيز شديدين. غير أنها أحست أن هذا الأسلوب مرهق بدرجة كبيرة ، وشعرت بألم وحرقان فى عينيها ، بالإضافة إلى القلق والخوف المستمر من وقوع ما يقطع

تركيـزها الشديد. ولما جاءت الحصـة الرابعة ، بلغ بها التـعب مبلغا كبـيرا وراحت تغالب النعاس وتقاومه وهى لا ترى من الأستاذ سوى شعره الخفيف. وتجاعيد وجهه الغائرة وحركـة شفتيه . أما مـا يشرحه ، فلم تمض نصف دقيقة حـتى عجزت عن السمع والمتابعة وفشلت الخطة !فأخذها الغضب وعاقبت نفسها بقرصة شديدة.

فى المساء أخـذت تشن بوا تحاسب نفسهـا فى روية وهدوء ، وعـندما وصلت إلى ما يحدث أثناء الحصص بدت وكأنها تتشاجر مع نفسها .

وفى المطعم أثناء تناول العشاء راحت تسأل زميـلاتها اللاتى يجلسن معها على نفس المائدة : " كيـف تركـزن انتباهكن أثناء الدرس؟ كيف أعجـز أنا دائـما عن ذلك ! "

ردت بعـض الزمـيـلات : "هذا السؤال مـن الصعب الإجـابة عليـه" . إننا نحاول الاستماع إلى الشـرح ، وكفى ، أما عن كيفية تركيـز الانتبـاه فهـن أيـضا لا يعرفن إلى ذلك سبيلا.

أخذت ووتشـانغ فو تنقّل العـصى بين طبق الأرز وصحن الخـضار فى سـرعة ولهفـة بينما تقول ضاحكة " :إذا أردت تركـيز الانتباه ، يجب أن يتـوفر لديك أولاً عامل الرغبة والتشويق . فأنا مثلا أكون فى غاية التركيز والانتباه عند تناول اللحم ، بينمـا يقل ذلك عند تناول الكرنب المطبـوخ ، وذلك لأن شـوقى ورغبـتى فى أكل اللحم أكثر من رغبتى فى أكل الكرنب" .

ضحكت يانغ تشيانغ يـون حتى كاد الحساء يتطاير من فمهـا وسألتها : "إذن ، أيهما أحب إليك ، حضور الدرس أم الأكل؟ " .

لم تعرها ووتشانغ فو اهـتماما وواصلت كلامها : "وتزداد قـوة التركيز عندى عندما يحل بى الجوع ، وأحيانا أسرح ويشرد ذهنى عند الشبع" .

توقفت تشوشيا ولينغ عن الطعام ، وفكرت قليلاً ، وانبرت قائلة:

" إن قوة التـركيـز عندى تبلغ ذروتها عـند لعب الكرة الطائرة ، ولا يمكن أن يشغلنى شـيء آخر حتى لو انطبقت السماء على الأرض " .

ثم ساد الجميع موجة مـن الضحك ، ونسين السؤال الذى طرحته تشن بوا عن كيفية التوصل إلي التـركيز أثناء شرح الدرس ، وراحت كل منهن تذكر الشيء الذى عندما تفعله تصل إلى ذروة التركيز المعنوى والنفسى .

قالت إحداهن إنها عندما تشاهد مسرحية – بشرط أن تكون من النوع المأساوى – تبلغ قوة انتبـاهها الذروة . وقالت أخرى إن انتـباهها يزداد عندما يبثـهن الأستاذ نصائحه وتعـاليمه. وقالت ثالثة إن تركـيزها وصفاءها النفســى يأتى عند الإقبال على النوم – حيث لا تفكر فى شيء .

قالت لهن يانغ تشيـانغ يون : " إنى أرى أنه ليس هناك ما يشد انتبـاهكن أكثر من هذا الكلام الفارغ " فشتمنها جميعا فى وقت واحد.

عادت تشن بوا إلى الفصل ، وأخـذت تفكر فى صمت ، كيف تركز انتـباهها أثناء الدرس ؟ إن ما جرى الآن رغم أنه حديث ضاحـك من قبيل التهريج ، إلا أنه لا يخلو من بعض الحقائق .

قالت ووتشانغ فو إن تركيزها يزداد عندما يتوفر لديها عنصر الرغبة والتشويق ، وهذا يحدث لها عندما تشعر بالجوع، هل تشعر تشن بوا إذن بالرغبة والتشويق أثناء الدرس ؟ وهل تكون جائعة؟.

بدأت تشن بوا فى إعداد دروس اليوم التالى ، الحصـتان الأولى والثانية فيزياء، فتحت الكتاب ، الكتب العـلمية مترجمة ومنقحـة ، والمشكلة لا تكمن فى صعوبة المضمون العلمى فحسب ، ولكن أيضا فى عبارات الكتاب التى تفتقر إلى السلاسة.

قرأت تشن لأول مـرة ولم تفهم ، ثم قـرأت قراءة جـهرية ولم تفـهم أيضا ، وضعت الكتاب وأخذت تفكر قليلا فى صمت ، وفهمت قليلا ، لكنها مازالت غير

قادرة على الاستيعاب الكامل . فأمسكت بالقلم الأحمر ووضعت علامة وانتظرت لسماع شرح المدرس فى اليوم التالى . . . .

وبدأت الحصة ، وأخذت تشن بوا تنتظر على أحر من الجمر أن يجيب الأستاذ على تساؤلاتها الصعبة من خلال تناوله للدرس. لكنه لم يبدأ بشرح هذه التساؤلات، بل بدأ بإعادة شرح بعض القواعد والنظريات الأساسية . لا تدرى تشن بوا لماذا يبدأ بتكرار شرح هذه القواعد ، إنها قلقة من أجل الوقت الذى يمضى ثانية بعد الأخرى، وهل يجد الأستاذ وقتا كافيا ليشرح الدرس الجديد بإيضاح؟ الأستاذ مستمر فى شرح الدرس ، بينما تشن تفكر، هل يمكن أن تكون هذه القواعد والنظريات هى الأساس الذى يؤدى إلى الإجابة على تساؤلاتى ؟ ثم انتابها شىء من التوتر ، وراحت تحاول البحث عن ذلك الخيط الذى يربط بين القواعد التى يشرحها الأستاذ والتى سبق لها معرفتها من قبل وبين المشاكل والتساؤلات الصعبة التى واجهتها أثناء تحضير الدرس. وهذا الخيط يسبح داخل عقلها ، كلما اقتربت منه وكادت تمسك به هرب منها .

وأخيرا وصل المدرس إلى هذه النقطة وشرحها.

تنفست تشن بوا الصعداء بعد أن فهمت. وانحنت بصدرها نحو المنضدة وغاصت كلتا يديها فى شعرها تصففه وتدفعه إلى الخلف ، وأخذت ترهف السمع فى سعادة وارتياح .

لكن الأستاذ لم يمر على هذه المشكلة مرور الكرام ، بل طرح عدة احتمالات مختلفة للحل .

اختلط عليها الحابل بالنابل، تشتت أفكارها ، وحارت تشن بوا ، أهو هذا؟، أهو ذلك؟ تعبت رأسها وأخذت تشد شعرها.

قالت فى نفسها يجب أن يكون الحل هكذا ! وفى الوقت نفسه الذى استقرت فيه تشن على هذا الحل ، كان الأستاذ قد توصل أيضا إلى تلخيص لنفس المضمون.

وكادت تشن بوا تصيح من فرط سعادتها : " لقد فكرت بنفس الطريقة، وتوصلت إلى نفس النتيجة ! وأدركت فى نفسها أنها لا تجلس فى الفصل "كآلة تتلقى المعلومات" ولكنها هى الجندى المجهول الذى يشارك الأستاذ فى التنقيب عن العلوم والمعارف ، وشعرت تشن أنها زادت عزيمة وقوة على قوتها .

ولم يكتف الأستاذ بالتلخيص النظرى ، لكنه استعان بالرسوم التوضيحية.

وكان قد أعد الرسوم والوسائل التعليمية اللازمة قبل بداية الدرس ، فهمت كل ما يتعلق بالدرس فهمًا كاملاً دون أن يساورها شك فى ذلك ، ولم يقف الأستاذ عند الشرح على الرسوم التوضيحية فقط ، بل الأكثر من ذلك أنه يعدد عيوب وأخطاء الطرق الأخرى للحل ، وأخذت تشن بوا تهز رأسها فى رضاء تام واقتناع عميق.

ما أروع أن تتحول الفكرة الهلامية فى لحظة واحدة إلى حقيقة منطقية واضحة، وما أجمل أن تتحول الحيرة والتردد إلى ثبات وثقة ، تنفست تشن بوا الصعداء، وأحست بالراحة تسرى فى جسدها ، فقد كسبت الكثير من وراء هذه الحصة ! وأخذت تنظر إلى الأستاذ فى تأثر بدور ألفة وامتنان ، حتى انتهت الحصة فصاحت الطالبة التى تقوم بألفة الفصل: "قيام ، تحية " وانحنت انحناءة كبيرة تحية واحترامًا للمدرس.

بمثل هذا الأسلوب تكون الحصة التى تستغرق خمسًا وأربعين دقيقة ثرية ومفيدة وكأنها حقبة طويلة من الزمان، وبعد ذلك جاءت حصة التاريخ التى تناولت

الإمبراطور ليوبانغ [1] بذكائه الشديد وحيلته البارعة والجنرال تساوهوى[2] بجرأته وشجاعته العسكرية. ثم جاءت بعدها حصة الجغرافيا التى تناولت بناء قناة الفولجا والكفاح البطولى لشعب أمريكا اللاتينية . ثم حصة تناولت استخدام الأشعة فى العلاج والتهديدات التى ينطوى عليها الانشطار النووى. وأخرى عن آفاق المستقبل الرحب للبناء الاشتراكى الشيوعى فى بلادنا، الحصص تمضى تباعًا، واحدة تلو الأخرى، وأنا أشعر أننى أستزيد شيئا جديدا وأتقدم خطوة للأمام بعد كل حصة جديدة. وبمرور الحصص والكثير من الدقائق على مثل هذا النحو من الروعة تتحول الفتاة الغريرة شيئا فشيئا إلى شابة ثرية بالعلم والمعرفة الغزيرة !

يجب علينا ألا نترك الوقت يمر سدى فى أثناء المراجعة الذاتية أيضًا ، فتحاول تشن بوا أن تستغل كل دقيقة من وقتها. كانت دائما تعد الكتب والمذكرات وأوراق التجريب قبل المراجعة وتضعها بالترتيب ، عندما يدق الجرس تكون أول من يدخل الفصل ، وفى الوقت الذى تكون فيه زميلاتها مشغولات بفتح أدراجهن ، تكون هى قد أخرجت أدواتها وهيأت نفسها . وعندما تشعر بحاجة إلى الراحة بعد دراسة لوقت طويل ، تستغل تشن بوا وقت الراحة فى أن تبرى القلم الرصاص، ثم تبرى قلما آخر ، ثم تواصل مذاكرتها ، وخلال ذلك إذا أصبح سن القلم غير حاد أو انقصف فإنها تبدله بسرعة بالقلم الآخر حتى لا تضيع وقتا فى إعادة برى القلم . . .

وإذا جلست للمذاكرة لا تهتم بما يدور حولها. أحيانا تعلو وجهها ابتسامة، ثم تبدو ملامحها جادة بشكل مفاجئ ويتقطب جبينها كأنها تشعر بشيء من المرارة ، وأحيانا تبدو عليها علامات الضيق والقلق ، ترفع رأسها وترسم عددا من الدوائر على سطح المنضدة تارة ، وتدفن رأسها بين كفيها وتلوذ بالصمت تارة أخرى ،

(١) اسم أول إمبراطور فى أسرة هان الملكية ، وهو مؤسس الأسرة .

(٢) اسم قائد عسكرى برتبة جنرال وهو قائد شجاع جسور ، وكان فى عهد الإمبراطور ليوبانغ فى أسرة هان .

أحيانا تتـسع عيناها وتنظر إلى الأفق البعيـد، وأحيانا أخرى توارب عيـنيها جبينها وينتفخ أنفها وينكمش. . . . .

وهكذا اقتنصت تشن بوا كل دقيـقة من وقتها بفعـالية وإصرار، وتمك بعد الأخرى من ملاحقة أكثر زميلاتها تفوقا وفى الوقت نفسه كان ذلك ر مجلجلا على نتيجتها السيئة فى امتحان الفترة الأولى.

(١١)

إذا جاز لنا القول إن لى تشون عندما تؤدى واجباتها تأخذها الشجاعة والحماسة وكأنهـا تكتب بحثًا علمـيًا ، وإذا قلنا إن يوان شن تشى أثناء أدائهـا واجباتهـا تبدو خفيفـة ماهرة وكأنها تحكى قصة ، وإن تشن بوا تبـدو مكدودة وكأنها ثور يدور فى ساقيـة، فإن يانغ تشيانغ يون تبدو أحيـانا لطيفة هادئة كأنها تغنى ، وأحـيانا أخرى تبدو عنيفة ثائرة كأنها فى عراك مع نفسها.

كانت تنهض فى الصبـاح الباكر لتحفظ مفردات اللـغة الروسية، ومن ذا الذى يستطيع أن يكتشف أنها تحفظ المفردات؟ إنها تستند بظهرها إلى جذع إحدى الأشجار الضخمة المواجـهة للمكتبة ، ساقاها متـشابكتان، فمها يتمـتم بكلمات ذات نغمات غريبة ، عيناها تغـمضان وتفتحان ثم تعيـد الـكرة من جـديد ، وفى النهاية تمد ساقـيها وتضرب بحـذائها قطعة من القـرميد المكسـر فتقذف به فى الهـواء وتصيح "برافو" ، فماذا حدث ؟ حفظت إحدى المفردات.

إنهـا موسـيقى ! تكتـشف يانغ تشـيانغ يـون فى كل مادة من المواد نوعًـا من الموسيقى . فمثلا اللغة الروسية ، يالها من لغة موسيقية ذات إيقاع مريح على الآذان غيـر أن الكثيـرين يكرهون فى هذه اللغـة التحـول بين المفرد والجـمع ، والتذكـير والتأنيث وإعراباتها المخـتلفة، ولكن تشيانغ يون تشعر بأن هذا التغيـير يجعل القراءة مريحة وشيقة. وهناك أيضا الحـروف الساكنة التى تدفع المبتدئين فى دراسة اللغة إلى الشعور بالضـيق ، والتى تصبح ذات إيقاع جميل على الآذان عندما تـتحد مع أحد الحروف اللينة. حتى الحساب تشعر أن فيه موسيقى ، بل وغناء، فأنت عندما تعرفين النظرية، تصـبح كنغمة أو مـعزوفة أو أغنـية معـروفة. ما إن تبـدأ حتى تسـتطيعى إكمـالها. وعندما تنتـهين من حل المسألة، تكونين كـأنك قد انتهـيت من الكوبليه

الأخير من الأغنيـة ، ورفعت طبقة صوتك ، وأخذك الحـماس وأنت تعلنين النهاية وسط تصفيق المستمعين بحرارة.

وعندما تواجه أحد الاسئـلة الصعبة، تبدو يانغ تشيانغ يون كأنهـا تعارك نفسها وتنظر إلى السؤال وهى تقطب جبينها وتهمهم قائلـة : " أيهـا الســؤال الصغير ، أتريد أن تضعنى فـى مأزق ؟ هـه ، هـه، هاه .! " وإذا اكتـشفت أن طريقتـها فى الحل ليست صحيحة ، قالت للسـؤال : "حسنا لقد كسبت هذه الجولة ، لكنى لن أيأس ، صـبرًا جـميـلا ، سأفـكر فى طريقة أخـرى أجيـب عليك بها على وجـه السرعة. " ولا تترك هذا السؤال الصغير " حتى تتوصل إلى إجابته.

وذات مرة سألتها إحدى الزميلات : "كـيف أراك لا تبذلين مجهودا كبيرا أثناء أداء الواجبات؟ " أجابت تشيانغ يون والابتسامة تعلو شفتيها: "إننى أستطيع أن أفكر فى الفيـزياء حتى وأنـا أرقــص. " أحـقيقـة ذلك الأمر ؟ وكانـت اللواتى سبق أن جلسن بجانبـها قد سـمعن هلوسة تشـيانغ يون التى تطـــاردها فى نومـــها بعــد انتهائها من أداء واجـــباتها ، حيــث تردد فى نـومها دائما : "صحيح ، صحيح ، آه تنقصها نغمة خفيـفة ، لا ، لـيس ثلاثة ، أربعة ، سبعة . . . . " .

لكــن كانــت هناك مـادة تتكسر عندها الروح الحمـاسية لتشيـانغ يون ، إنها مادة الرسم الهندسى ، وبدأ الأمـر بعدم حبها لمدرس هذه المـادة ، فهو رجل طاعن فى السن ، يقـوم بالتدريس فى عدة مـدارس ، أحيـانا كان يعلق على صــدره عدة شارات بأسـماء المدارس التى يعـمل بها ، وما إن يبـدأ الدرس حتى يفـتح الكتاب ويقرأ، فـإذا ما انتهى مـن القراءة أمسك بإصـبع الطباشيـر واندمج فى الرسم على السبورة وبينما يرسم يهمهم ببعض الكلمات كأنه يحفظها، وإذا طرحت عليه إحدى الزميـلات سؤالاً أجاب بلا اكتـراث : " نعم ، نعم " ، حتى إنه ذات مرة سـألته زميلة : "أليس واجبنا اليوم هو أن نجيب على أسئلة التدريب الخامس؟ " أجاب على

الفور : "نعم " وسـألت زميلة أخرى : "أليـس ذلك بالإضافة إلى أسـئلة التدريب السادس ؟ أجـاب أيضا : "نعم ، نعم " فضـج الجميع بالضـحك ، وبدا هو وكأن شيئًا لم يكن.

وأيضا لا تحب يانغ تشيانغ يون "المجـهود الآلى " الذى يبذل فى حصة الرسم الهندسى. إنها تشـعر أن هذه المادة لا تتيح لك فرصـة الإبداع ، بل عليك فقط أن تنفذ ، لست مطالبًا بالحكمة ولكن بالحذر، فـقط عملية مرهقة ومملة ، ولكن يجب أن تتحمل حـتى ترسم شكلا من الأشكال ، على الـرغم من أن ذلك فى النهـاية لا يضيف شيئًا إلى دائرة المعرفة الشخصية.

وكان هناك أحد الرسوم الهندسية الشديدة التعقيد التى يجب أن تنتهى منها من قبل ، ولكن تشيانغ يون أجلتها بضعـة أيام حتى جاء يوم السبت - آخر الأسبوع - بعد أن انتـهت من تناول الغداء ، ضـغطت على نفسـها وجـهزت المـحاة والورق والقلم البوص. . . .

لقد نفذت معظم الزميلات هذا الرسم ، بعض طالبات الفصل يرددن الأغنيات بصوت خفـيض ، وهناك من تقرأ رواية، ومن تسمع لنفســهـا النــصوص بصوت عال. وتشيانغ يون تغبطهن على ما هن فيه ، لكن لا سبيل أمامها ، أمسكت القلم الرصاص وضربت به بشدة فوق المنضدة.

تنتــمى الطالبـة التى تقرأ النصوص بصـوت عال إلى مـقاطعة شـانشى ، إنها تجتهد من أجل دراسة لهجـة بكين ، لكن شانشى تعلن عن نفسها بين الحين والحين فتبـدو النغمة نشازا غريـبا، وتسببت فى إرباك تشيـانغ يون التى كانت لاتزال تمسك بقلمهـا وتواصل رسم المسودة ، فلـم تطق صـبرا وألقت بالقلـم واتجـهت ناحـية طالبة شانشى وقالت: "هلا غضضت من صـوتك هذا قليلا؟ "فضحكت وأمسكت بيدى تشيـانغ يون وطلبت منها المساعدة لتصـحيح وتقويم لهجتـها المحلية. أطلقت

تشيانغ تنهيدة عميقة وجلست بجوارها وأخـذت تصـحح لها النطـق ، وفى أثـناء تعليمهـا تضحك منها قائلة : "لا ، غير ممكن ، مهما تعلمت ستبـدو فى لهجتك رائحة الخل "[1].

عادت تشيانغ يون إلى مكانها لتواصل الرسم مرة أخرى حتى انتهت من الرسم الكروكى بشق الأنفس ، وفـى ذلك الوقت جاءت سـونينغ تبـحث عنهـا وطرحت عليها أحد الأسـئلة ، فأجابتها تشيانغ : "هذا السـؤال فى غاية السهولة! إنه طويل ويبدو كأنه صعب، لكنه فى حقيقة الأمر ليس كذلك ! لا تأخذك الرهبة أبدًا من أى سؤال ،فمهما كانت صـعوبته، إلا أنه لا يخرج عن المحتوى الدراسى . . . . " وواصلت كلامـها فى لهـجة قـاطعة ، لو أن سو نيـنغ لم تشعر "برهـبة" من هذا السؤال ، لكانت "عـرفت الجواب بمجرد الـتفكير فـيه " ثم أخذت تشـجع سونينغ على التفكير حتى بدأت تمسك بطرف الخيط ، هزت تشيانغ رأسها وكأنها تشجعها : "نعم ، صحيح ، إنه هو . . . . "

لم يكن يستغرق شـرح هذا السؤال أكثر من خمس دقائق وينتـهى الأمر ، غير إن هذا الأسلوب قد أخذ منها أكثر من ساعة كاملة.

عندما انتـهت من شرح السؤال كان قـد حان موعد تناول العشـاء ، فاضطرت تشيانغ يون أن تلملم أوراقها وأقلامها حتى تواصل العمل فى المساء.

حان وقت المـساء ، ولم يعد فـى الفصل غيـر نفر قليل ، فـغدًا عطلة نـهاية الأسـبوع ، منهن من رجـعت إلى أسـرتها، ومنهن من ذهـبت إلى السينمـا، ومن خرجت تتمشى فى الشوارع الكبرى .

(١) إشارة إلى مقاطعة شانشي حيث تنتشر عادة كثرة استعمال الخل فى الطعام .

ركزت تشيانغ يون انـتباهها هذه المرة وسخطت على نفسـها : "يا لك من فتاة متراخية، أيمكن أن تنهزمى أمـام هذا الرسم "الملعون" ؟ وردت على نفسها " لا ، لابد أن أنتصر عليه ! " . ثم استأنفت الرسم فى حذر شديد.

حدث عيـب فى سن القلم البوص فرسم خطا جانـبيا خفيـفا. حقيـقة إن هذا الخط لا يمكن ملاحظته مالم تدقق النظر فيه ، غير أن تشيانغ يون حزمت أمرها على أن يخرج الرسم دون عيوب. تناولت الممحاة وأخذت تمسح ، ياللهول ! إن الممحاة من نوع ردىء ، لقد مسحت الخط الجانبى لكنها تركت بقـعة كبيرة قذرة على سطح الورقة الشفافة البيضاء.

شعرت تشيانغ يون بالإحباط ، كـيف تتصرف ؟ عليها أن ترسم من جديد بعد أن أمـضت عدة سـاعات سـاكـتة جـامدة كـالموتى . عـدة ساعـات ، هذا الوقت الثمين،ضاع كله فى هذا الرسم الملعون! اضطرمت نيـران الغيظ فى صدرها ، مدت يدها، أمسكت بالرسم ، نظرت فيه ثم مزقته .

مـــزقت تشيانغ يون الرسم ، ثم انطلقت تعدو إلى خارج الفصل ، مرقت من الفناء وخـرجت من بوابة المدرسـة ،استندت إلى سـور المدرسـة من الخارج بجـوار البوابة ، وأخذت تئن من الضيق والألم وهى تكلم نفسها :

"أريد أن أبكى ، ليت عينىَّ تجودان بالدمع"

لكن ذلك لم يحـدث. هبت ريح عـاصفـة ، تشيـانغ يون تقـاوم الإحسـاس بالبرودة ، شـعرت كأن هذه الريح حملت إلـى سمعهـا هذه الكلمات تتهادى عـبر الأثير من بعيد:

الخيوط السوداء ، والخيوط الزرقاء

الخيوط الزرقاء ، زرقة كالسماء

....

كأننى سمعت هاتين الجملتين فقط ، ثم انقطع الصوت.

أليســت هى ؟ أليست لان خــوا خوا [١] ؟ كـانت يانغ تشيـانغ يون أول من استـمعت إلى هذا الأغنيـة من بين زميـلاتها، فـقد بدأت الإذاعـة تذيعهـا فى عام ١٩٥١ ، سمعتـها تشيانغ يون وأحست على الفـور بروعتها وبساطتهـا وقدرتها على تحريك المشـاعر، فكرت فى طريقة تحفـظ بها هذه الأغنية ، نادت إحدى الزمـيلات لتسـمعهـا هذه الأغنية . قالت الزمـيلة : "أى غناء هذا الذى يؤدى بهذه النغـمات الركيكة المـرتجلة ؟ " غضبت تشـيانغ يون . وبعـد ذلك انتشـرت هذه الأغنية وذاع صيتها يومًا بعد يوم ، فرحت تشيانغ يون وقالت : "أرأيتن ، ما أروع ذوقى ! "

ما مصدر هذه الأغنية التى تتهادى إلى أذنى ، من تحب الاستماع إليها وهى فى مأزق حرج بسبب عدم الانتهاء من الرسم؟.

ثم سارت تشيانغ يون تجاه الشارع الرئيسى .

يأست من أن تعرف فى أى متجر يوجد المذياع الذى تنساب منه هذه الأغنية ، بل إنها لم تسمع الأغنية من بادئ الأمر ، فقد كانت أجهزة المذياع الموجودة فى عدد من المتاجر تذيع أوبرا بكين الليلية.

تجمـدت فى مكانها ، مر بجـوارها شاب وشابة متـحابان، أيصعب عليـها أن تميزهمـا ؟ شاب على ضـوء حكم تشيـانغ يون فى أغلب الظن أنه مـوظف بإحدى الهيـئات الحكومـية ، يضع على كتـفيـه معطفًا من الصـوف ، لا يكف عن الكلام والضحك وطرح الأسـئلة، وماذا عن تلك الفـتاة ذات الضفـائر التى ينسدل عليـها منديل أبيض مزهر ؟ شـعرت تشيـانغ يون بما لا يدع مجالا للشك أنهـا ممـرضة ، وإلا فكيف تبدو على هذه الدرجة من النظافة؟ إنهـا تبتسم فى صمت ، كلما أطلق

(١) اسم فتاة ورد ضمن كلمات هذه الأغنية وهى إحدى الأغانى الشهيرة فى مقاطعة شانشى .

الشاب قهقهة عالية، انفرجت أسنانها عن ابتسامة خفيفة ، رأت تشيانغ يون "أنهما مثيران للضحك " لكنها شعرت فى الوقت نفسه "أنهما سعيدان !"

ثم راحت تشيانغ يون تحلق ببصرها فى الأفق البعيد ، شاهدت النجوم الصغيرة المتناثرة فى صفحة السماء ، إنها صغيرة ، غـريبة ، تشعر بالوحشة لأنها ليست بها حيـاة ، ولأنها بعيدة عن تشـيانغ يون . تذكرت تشـيانغ يون مشـاهدة النجوم أثناء المعسكر ، ألم يكن وقتًا جميلاً مع الزميلات؟.

ألم يكن تشانغ شى تشـون لطيفا ؟ ثم هبت ريح باردة ، ارتعدت تشـيانغ يون من البرد ، تلفـتت حولها ، فشـاهدت الأشجار على جانبى الطريق قـد عريت من أوراقهـا . وبائع برتقال عجـوز يدفع أمامـه عربة يد صغـيرة فى روية وأناة . . . . أيمكن أن يكون قد حل فصل الشتاء ؟ لم يخبرها أحد بذلك . وفى الوقت الذى كانت فيه تملى انتقاداتها على لى تشون ، والوقت الذى لم تطق فيه صبرًا على الرسم الهندسى ، لـم تتوقف عـجلة الزمن ، بل دفـعت عام ١٩٥٢ إلـى حافـة النهاية.

(١٢)

سقطت الثلوج لأول مرة خلال هذا الشتاء .

بعد الظهر ،تلبدت السماء بالغيوم القاتمة ثم سقط رذاذ خفيف .

الناس فى كل مكان يقولون : "يا للعجب ، أتسقط الأمطار فى الشهر الحادى عشر من السنة القمرية ! وبعد لحظات تحول المطر إلى برَد صغير يدعوه أهل بكين "كريات ثلجية صغيرة " وهناك من يسمونه "حبات الأرز" . كريات الثلج الصغيرة التى تشبه حبوب الأرز البيضاء تتساقط بغزارة ، وتذوب وتتلاشى عندما تصل إلى الأرض . والناس بصفة عامة يكرهون هذه الكريات الثلجية لأنها سريعة الذوبان فعندما تسقط على الجسم تذوب قبل محاولة إسقاطها على الأرض - ولأنها ليست نظيفة ، والأهم من كل ذلك أنها لا يمكن الاستمتاع واللهو بها مثل الأمطار أو الثلوج . فى ذلك اليوم سقط الكثير والكثير من هذه الكريات ، ثم أظلمت السماء ولم يعد يسقط شيء.

كانت تشيانغ يون هى أول من عرفت بسقوط الثلوج حيث كانت تحمل الإناء فى طريقها إلى حجرة غلاية الماء لتحضر ماء الشرب، فشاهدت وهى تسير فى أحد الممرات بضع كريات من الثلج تتسلل من إفريز السطح تحت أشعة الضوء ، فتبدو تحت خيوط الضوء التى تخترق الثقوب الصغيرة الضيقة وكأنها لا تتساقط مباشرة ، بل تتراقص فى شكل يأخذ بالألباب وهى فى طريقها إلى الأرض . وقفت تشيانغ يون بأحد الأركان، نظرت حولها ، لا توجد ثلوج، نظرت أسفل أشعة الضوء فشاهدت بعض الكريات الثلجية ، أسرعت هناك ، كأن الثلوج تسقط فقط فى هذا المكان ، حيث تتساقط تحت هذه الأشعة بضع كريات ثلجية قليلة من الأفق البعيد الذى يسوده ظلام دامس ، تتساقط على فترات متباعدة وكأنها تهبط على استحياء لأنها جاءت قبل موعدها ، أو كأنها تنزل خلسة لتستطلع أحوال وأخبار البرية .

ومدت تشيانغ يـون يدها وبسطت كفها تستقبـل الثلج ،لكن لا شيء ، بينما أرنبة أنفهـا تلسعها برودة شـديدة. أخيرًا، وبعـد طول انتظار ، سقطت قطعة ثلجـية فى راحة يدها ، وما إن أسرعت تنظر إليها تحت الضوء حتى ذاب ضلعان من أضلاعها الستة. هذه القطعة الثلجية المسكينة المبتورة المشوهة تلمع وتتلألأ تحت أشعة الضوء . بسطت تشـيانغ يون جناحـيهـا وطارت نحو الفـصل ، وصاحت فـى زميلاتـها : "الثلوج تسقط ، الثلوج تسقط . "

ومـدت يدها لتريهن ، لكن ماذا كان فيها ؟ لم يكن بها أثر لثلج .

وهذا هو حال الثلوج التى تتساقط قبل مـوعدها ، تكون قليلة وسريعة الذوبان لا تتحمل حرارة يد الفتاة ! .

وبالرغم من عدم وجـود أثر للثلج فى يدى تشيـانغ يون ، إلا أن زميـلاتها لم يأخذهن الـشك فى حقيـقة "الخـبر" الذى حملتـه لهن. وخرجت مـجمـوعة من الزميـلات اللاتى كن فى الفصل ومـددن أيديهن ووجوههن ، وألسنتـهن تستـقبلن باكورة الثلج الباردة المنعشة التى تسقط لأول مرة خلال العام.

وعندما تلمس إحدى الكريات الثلجـية أى جزء من أجسامهن ويـشعرن ببرودة الشتاء المنعشة تسرى بينهن موجة من الضحك والإثارة والسعادة.

* * *

فى ذلك المساء الذى سـقطت فيـه الثلوج لأول مرة كانت تـشن بوا قد ذهبت للمشاركة فى زفاف خوان لى تشينغ. وصلت تشن بوا إلى المركز التجارى للمدينة ، دخلت غرفة الاسـتعلامات ووقعت باسـمها فى سجل الضـيوف ، ثم توجهت إلى قاعة الحفـلات حيث كان يقام حفل الزفاف وما إن دفـعت الباب حتى تدافعت إلى مسامعها مـوجات مـــن الضجيج والعجيج، قاعة الاحتفالات صـالة كبيرة مستطيلة الشكل ، تتـوسطها مائدة طـويلة عليها بـطانية مزركـشة فـوقها مـفرش سـفرة ،

مرصوص عليـها أكواب الشاى والمأكولات الباردة . فى أول الصـالة وآخرها يوجد موقد من الفحـم. تعلق على الحوائط أحجام مختلفـة من اللوحات والكلمات التى تعبر عن الحب والتـهانى . أشار إليها شخص يقف لدى الباب بـأن توقع باسمها ، وقفت أمـام منضدة صغيـرة ، وأمسكت بفرشـاة صغيرة مـصنوعة من شعـر الماعز تستعمل كقلم وسجلت اسمها على قماش من الحرير الأحمر.

بحـثت عن مكان تجلـس فيـه حيث يوجـد حشـد هائل من المدعوين ، وقـد ازدحمت الأماكن القـريبة من المائدة عن آخرها ، والأطفال المنتـشرين فى كل مكان عدا الكوشة، لم ينـتظروا حتى تبدأ مراسم حفل الزفـاف، وتسلقوا سيقـان أمهاتهم وأخذوا يتخطفون المأكولات. وبدا أن المدعويـن الجالسين فى الدائرة الخارجية زملاء العروس فى الـعمل ، فكلهم يلبـسون ثيابًـا أنيقة نظيـفة ، الزمـلاء ينفثـون دخان سـجائرهم ، الزمـيلات يرتـدين المعاطف الصـوفيـة ، وتبـادلن الحديث الهـامس والضحكات تنبعث من كل مكان.

وقعت عينا تشن بوا على خوان لى تشينغ وقد ارتدت فستانًا جديدًا بسيطًا أزرق اللون لم يستطع رغم بساطته إخفـاء روح العروس المتـدفقـة. أمسكت يد تشن بوا وحيتها وشكرتها قائلة: "لقـد حـضرت ، ياللك من صديقة مخلصة ، كنت أخشى ألا تحضرى . . . . " كلمـاتها تفيض باللطف والحيوية، الابتسـامة لا تفارق وجهها ، تهز رأسها وفى عينها بريق لا يزول .

أخذت تشن بوا تمعن النظر فى خوان لى تشينغ ، إنها سعيدة بالطبع لما تراه من علامـات السعادة البـادية على خوان ، هنأتهـا ومزحت معـها وتبادلتـا الضحك . غمزت خوان لى تشـينغ بحاجبها ، وأخذت تشن بوا من يدها وأسرعت بهـا، سألتها تشن : "ماذا تفعلين؟" .

قالت خوان : "نبحث عن شخص" . "من ؟ " "حاولى أن تخمنى ؟"

أسرعتا إلـى أحد جوانب القاعة ، جابت عـينا خوان المكان ، ثم جذبت تشن بوا إلى الجانب الآخـر المواجه للمكان الذى كانتـا فيه من قبل ، كـان هناك شخص ينكب على أحد الكتب ، يطالع ويقـرأ حتى فى هـذا المكان ، إنه حقيقة أمـر غير مناسب ، اقتربتا من هذا الشخص ، نادت خوان لى تشينغ : "انظر ، من أحضرت معى ؟" .

رفع رأسه ونهض واقـفا ، نظر إلى تشن بوا ثـم ألقى بالكتاب جانـبا ، أطلق ضحكة مجلجلة وأشار بيده نحوها قائلا: "أنت . . . . القزعة !"

"وأنت تيان لين !"

هز تيان لى رأسه : "نعم"

وتيان لين هو ابن خال خوان لى تشينغ ، كـان قبل التحرير يدرس فى المدرسة المتوسطة رقم ٦٥ ، تعرف على تشن بوا فى احدى الجماعات الفرعية لمنظمة الشبيبة الديمقراطية ، كانت تشن آنذاك قصيرة القامـة ضئيلة الحجم ، وكان تيان لين يناديها "قزعة" .

سألت تشن بوا فى تعجب : "ألست تعيش فى . . . . كيف جئت إلى هنا ؟

قال تيان لين : "جئت بالطائرة من أجل حضور زفاف ابنة خالتى" .

أشاحت خوان لـى تشينغ بيدها : "يا سلام عليك" وقـالت تشن بوا : "لقد انتقل إلى جريدة الشباب اليومية" منذ أسبوعين "

سأل تيان لين : " وأنت يا تشن بوا ، أين أنت ؟" .

ردت تشن بوا فى شىء من الحرج والخجل : "مازلت هناك" .

كانت تشن بوا أصغـر سنا من الرفقاء الذين كانت معـهم فى نفس المنظمة قبل التحـرير ، فمنهم من التحق بـالعمل ومنهم من دخل الجامـعة ، أما هى فـمازالت طالبة فى المدرسة الثانوية .

غادرت خوان لى تشينغ ، ثم عادت تحمل صينيـة عليها الفول السودانى والتمر والبرتقـال ، سحبت أحـد المقاعـد ووضعت عليه الصـينية أمام تـشن بوا وتيان لين ترحيـبًا بهمـا. وهمّت خوان لإحضـار الشاى لكن تيـان منعهـا قائلا: "لا داعى لإحضار الشاى ، أنا أعرف أن تشن بوا لا تشربه . إنها لا تشرب الشاى أبدًا . من الأفضل أن تأتى بسيجارة" . "ماذا"؟

سألته تشن بوا في تعجب : "أنت هذا الشاب الصغير تدخن؟ "أخرج تيان لين لسـانه وقال لخـوان لى تشـينغ: "لن أدخن إذن ، اذهبى أنت إلى حـال سبـيلك، واتركينا نـتحدث ثم اعـتذر لتشن بوا قـائلا : "يحدث ذلك أثناء العـمل فى الليل فقط، لكنى فى أغلب الأمر لا أدخن" .

ثم نهض واقفًا، تمطع ، وجلس يقشر برتقالة.

قالت تشن بوا : "يا لك من طويل القامة !"

"نعم واستطرد تيان لين : أصبحت طويلاً ، عريضًا ، ولكن نحيفًا " ، يتكلم وهو لا ينظر إلى الآخرين ، وإحدى قدميه تهتز بعصبية.

ضحكت تشن بوا قائلة : "أنت حقيقى . . . . "

لم يتمكنا من الاستمرار فى حديث القلب إلى القلب. حيث ظهر شخص بدين فى حوالى الثـلاثين من عمره ، وأعلن فى صـوت جهورى عن بداية فقـرات حفل الزفـاف. أعطى تيان لين نصف البـرتقالـة التى قشـرها إلى تشن بوا ، ثم استـدار واعتدل وراح يرقب منظم الحفل.

أحست تشن بوا خلال الوقت القصير الذى اقتربت فيه من تيان لين أنه شاب ذو صفات متميزة ، كل تصرفاته تأتى ترجمة لأسلوبه وفكره المستقل، أحيانا يتصرف على سجيته بلا قيود، وأحيانا أخرى يكون جادًا صارمًا ، يبدو فكهًا مهرجا حينا ، ورزينا هادئا لدرجة البرود حينا آخر . أفعاله وأحواله غالبا ما لا تتفق مع البيئة والظروف المحيطة به ، لم تتعرف تشن بوا ، على وجه التحديد ، على مواطن الجاذبية فى شخصية تيان لين ، لكنها فقط شعرت أنه شاب لطيف ، حسن الطوية ونقى السريرة.

وأخذ الضحك يغالبها كلما نظرت إلى هيئة تيان لين الوقورة وجلسته المعتدلة بدون حركة.

بدأت مراسم الزواج ، المدعوون كثيرون ، المحيطون منهم بالعريس والعروس يمطون أعناقهم لمشاهدتهما، لذلك لم تتمكن تشن بوا من رؤية خوان لى تشينغ وعريسها . بعد ذلك أعلن منظم الحفل عن قيام العروسين وتبادل التحية بانحناءة الظهر ، وعندئذ تمكنت تشن من مشاهدتهما ، وانتشرت فى أرجاء قاعة الزفاف موجات متفرقة من التصفيق والضحك المجلجل ، واصطدم العريس قومينغ بأحد الكراسى مما أثار جوًا من الضحك والمرح بين الحضور ،وبعد انتهاء المراسم طلبوا من مدير المركز أن يلقى كلمة ، وأثارت كلماته الضحك بين المستمعين . لقد أصبحت حفلات الزفاف بعد التحرير أكثر بساطة، فلم تعد تشهد وجود الفرق الموسيقية أو نثر الزهور أو إقامة المآدب ، ومن ثم فإن المدعوين يعوضون كل ذلك النقص بالضحك والبهجة .

هكذا أقيم الزفاف السعيد وسط بحر خضم من البهجة والفرح.

وجاء الدور بعد ذلك على العروسين ليقصا على المدعويين قصة حبهما.

قبلت خوان لى تشينغ الدعوة ونهضت دون تردد وقالت فى ذكاء ودهاء : " ربما تريدون إيقاع العروس فى شراك الخجل ، لكننى أكثر جرأة من الجميع ، فليتفضل من لديه سؤال ، ويمكن أيضا إرسال الأسئلة مكتوبة . . . . . . "

وهكذا اجتازت خوان لى تشينغ أكبر المواقف حرجًا فى حفل الزفاف ، بعد ذلك بدأ الحديث الحر. أخذ المدعوون واحدا بعد الآخر يعبرون عن أطيب أمنياتهم للعروسين . خشيت تشن بوا أن يغلق عنبر نوم الطالبات أبوابه ، فكتبت ورقة وأعطتها إلى خوان ، وتسللت فى خفة مغادرة المكان قبل انتهاء الزفاف.

كانت الثلوج تسقط فى الخارج بغزارة والطريق مفروش بطبقة بيضاء ، وقد طردت برودة الثلوج المنعشة الإحساس بالإرهاق عن تشن بوا.

وقفت على جانب الطريق وترددت برهة من الوقت ، كأن هناك شيئا لم تنته منه ، ثم استدارت وبدأت تمضى نحو محطة الترموای.

"قزعة ! " لم تلتفت تشن بوا. نادى نفس الصوت مرة ثانية "قزعة ! " ، أدركت تشن أن هذا النداء لها ، التفتت فإذا بتيان لين يلاحقها فى سرعة.

"لماذا انصرفت دون وداع؟ "

ردت تشن بوا: "وأنت؟"

"جئت أودعك" .

واستطرد تيان لين : "لا يصح منك ذلك ، فنحن لم نلتق منذ فترة طويلة ، وأنا دائم التفكير فيك، وعندما التقينا اليوم بعد طول انتظار وبمحض الصدفة ، تنصرفين دون كلمة وداع . . . . " .

"متأسفة" .

أخذهما الحديث فتجاوزا محطة الترامـوى ، فكرت تشن فى أن تركب من المحطة التالية ، وواصلا السير.

سألت تشن بوا دون أن تنظر إلى تيان لين : "لماذا تتزوج خوان لى تشينغ؟"

ضحك تيان قائلا : "هذا سؤال مضحك".

نظرت تشن بوا إلى وجهه النحيل والخطوط المنتشرة فى صفحة جبهته عندما يتكلم والتى لا تتناسب مع عمره، وقالت : "أمازلت تذكر ؟ ذات يوم من أيام عام ١٩٤٨ أو ربما من عام ١٩٤٧ تساقطت أيضًا كريات الثلج ، ذهبنا نتجاذب أطراف الحديث مع خوان لى تشينغ ، ويومها أعطتنا "مذكرات وين بى دوا"، فى ذلك الوقت كنت لم أسمع عن وين بى دوا بعد،كنت لا أزال صغيرة ، شرحت لنا خوان تشينغ كيف أنه لم يحلق ذقنه إلا بعد الانتصار فى حرب المقاومة ضد اليابان احتفاء بهذا النصر ، وكيف كان حبه للشباب واعتزازه بهم ، وأنه أقام النصب التذكارى لشهداء أول ديسمبر الأربعة ، وكيف قتله عملاء حزب الكومينتانغ . . .

لقد كان حديثها عميقا قاطعا مؤثرا . . . . " واستطردت تشن بوا فى حماس " : إن خوان لى تشينغ فتاة رائعة. فى فترة ما قبل التحرير، كانت كل كلمة تقولها تنطلق إلى أعماق قلبك . . . . "

"هل تذكرين ؟ " قال تيان لين فى حماس هو الآخر : "أتذكرين كيف كانت توصينا وتوجهنا قبل انسحابها إلى المناطق المحررة؟ كانت آنذاك لاتزال طالبة بالثانوية!، لكننا كنا ننصت لها ونهتم بكلامها أكثر من أساتذتنا وهم يشرحون لنا الدروس . . . . "

" هل مازلت أنت الآخر تذكر ذلك جيدًا؟"

"طبعًا ، كل رفقاء ما قبل التحرير ، وكل عمل ومهمة ، وكل مكان من أماكن الاتصال واللقاءات ، مازلت أذكر كل ذلك جيدا . . . . لقد كنا جميعا

صغار . . . . . . يسعدنى كثيرا أن أراك اليوم ، لأننا بالذات من بين رفاق النضال السرى ، وكأن شيئا خاصًا كان يربط بين قلبينا . . . . "

وصلا إلى محطة ترمواى أخرى ، نظرت بلمحة سريعة وقررت فى نفسها : "أركب من المحطة القادمة. "

وعادت تشن بوا تسأل : "لكن لماذا تتزوج خوان لى تشينغ ؟ "

هز تيان لين رأسه وهو غارق فى التفكير : "إن هذا أمر طبيعى " ألا تعرفين أن خوان لى تشينغ تملك قلبا شابا نابضًا بالحياة؟ ألم يكن من الأمر المستحسن أن تنمو وتنضج ؟ "

أحست تشن بوا بالسعادة ، وشعرت أنها تكاد تثنى على هذه الإجابة الذكية والكلام الجميل ، لكنها لم تفعل ، وقالت :

"انظر ، ثلوج كثيفة تراكمت على ملابسك. " ثم ساعدته فى نفض هذه الثلوج عن كتفيه وظهره.

بعد ذلك تحدث كل منهما عن حياته الخاصة . فى عام ١٩٤٩ ذهب تيان لين إلى مقاطعات جنوب الصين للعمل فى المناطق المحررة حديثًا ، عمل فترة من الوقت فى التوعية الثقافية داخل كوادر الجيش ، وانخرط بعد ذلك فى أعمال رابطة الشبيبة الشيوعية. وبعد انتهاء حركة المقاومة الثلاثية (مقاومة الفساد ، والإسراف ، والبيروقراطية)، انتقل للعمل فى تحرير الصفحة الأدبية فى "صحيفة الشباب اليومية" . .

قالت تشن بوا يخالطها شعور بالسعادة : "أنت محرر صحفى ، عظيم . '

أشار تيان لين بـيده : "أتعرفين كيف تأهلت للعـمل كمحرر صـحفى ؟ فقط هناك شرط واحد وهو أن أقـرأ الروايات الأدبية دائما – مهما كنت مـشغولا – حتى الساعة الثانية عشرة مساء. "

"تقرأ الروايات؟ إنك فعلا مجتهد . . . . "

"مهمـا اجتهدنا لن نتـمكن من اللحاق بكن ، فأنت على أعتـاب التخرج من الثانوية وبعدها تلتحقين بالجامعة حيث الظروف المواتية للدراسة والاطلاع . . . . . "

تجاوزا محطات الترمواى واحدة تلو الأخرى ، واكتـشفت بوا فجأة أنهما اقتربا من الناصيـة المؤدية إلى المدرسة الثانوية الســابعة للبنات فصـاحت فى ارتباك : "إننا على وشك الوصول إلى مدرستى ، توقف هنا . لكنك . . . . "

" إن الإدارة التى نعـمل بها هناك "وأشـار تيـان لين بيده : " قـريبة جـدا من مـدرستك . . . . إذن ، علـىّ أن أغيـر مـسارى من هنا . "مـع السلامـة " وتشابكت يداهمـا وتصافحـا فى حرارة ، ونظر تيان لـين إلى تشن بوا تحت الضوء الخافت المنعـكس على صفحـة الجليد فشـاهد الوجه المسـتدير والحاجـبين الطويلين السوداويين ، والـعينين الوديعـتين الصافيـتين والذقن الجمـيلة التى تنم عن الصـحة والحيوية ، وعندها اكتشف سر القوة التى تكمن وراء هذه الملامح المألوفة المحبوبة.

قـال تيـان لـين وهو يهم بالانصـراف : "أحب أن أراك " أومـأت تشن بوا بالموافقة، مشى تيان وظلت تشن جامدة فى مكانها تـتبعه ببصرها وهو يمشى متمايلا فوق الجليد الذى يكسـو الأرض ويخلف وراءه آثار أقدامه الواضحـة ، وأسرع حتى اختفى فى الحارة دون أن يلتفت إلى الوراء.

ضحكت تشن بوا ضحكة نابعة من القلب.

ثم ضحكت طويلاً وهى لا تعـرف علام تضحك . حسنا إنهـا أول ليلة تسقط فيها الثلوج، الشوارع هادئة وخالية وليس هناك من يسمع ضحكاتى ، ولن تزعجنى كريات الثلج الصغيرة المتساقطة . ولكن ألا تعرف هذه الثلوج بسر سعادتها؟ بلى ، إنها تعرف . وإذا لم تكن تعرف ، فلماذا إذن تـتزاحم وتتراقص هكذا فى الفضاء ؟ ولماذا تلف هذه الكريات الثلجية وتدور حول تشن بوا ؟ إنهـا تتساقط على شعرها ، على حاجبـيها ، على أذنيها ثم سرعـان ما تذوب . بل إنها تداعب قلب تشن بوا فى خفة ودعة . وتوقفت تشن بوا بلا حراك ، أثارت هذه الثلوج عـواطفها الفياضة الكامنة . فعنـدما تهطل الأمطار الغزيرة ، وتهب العـواصف الرعدية يشـعر الناس بويلات الطبيعة . لكن تشن بوا تنظر إلى باكورة الثلـوج الناصعة الخالدة وهى تشعر بعظمة الطبيعة ، ومن مثلها فى هذا الوقت وهى أسعد إنسان فى الوجود؟

تشابـكت يدا تشن بوا ، وأخذت تفكر ثم انطلـقت وهى تغنى هذا المقطع من أغنية كانت أمها تغنيها لها وهى فى الرابعة من عمرها:

لا أريد سراجًا ، لا أريد شعلة ،

فقط أريد ندفة ثلـــــج صغـــــــيرة

تضىء لى الطريـــق ،

تهدينـــــى إلى بيتى ..... –

وقرقعة الثلوج تحت قدميها تجاوبها وتردد معها .

....

(١٣)

بدأت حصة الرسم الهندسى ، أعاد الاستاذ كراسات الواجب إلى الطالبات ، اتجه نحو يانغ تشيانغ يون ،وقال لها: أنا متأسف ، لقد فقدت الرسم الذى سلمته لى هذه المرة ، لكن أذكر أنه كان على مستوى طيب ، وقد أعطيتك فيه خمسًا وتسعين درجة.

نهضت تشيانغ يون من مجلسها واحمرت وجنتاها وتلعثمت وقالت "أستاذ . . . . "

بدا أستاذ الرسم الهندسى وقد انزلقت نظارته من فوق أنفه ، وهو ينظر إلى تشيانغ يون من فوق النظارة ويقول لها مرة ثانية : "أنا فى غاية الأسف. "

ردت تشيانغ يون: " لكنى فى الأصل لم أسلم الواجب هذه المرة. "

سمعت الزميلات هذا الكلام ، فرحن يتبادلن الضحك فى صوت هامس.

وشعر كل من الأستاذ والطالبة بالارتباك ، وانفجر الأستاذ غاضبا من شدة الحرج ، وسأل تشيانغ يون فى لهجة لا تخلو من الاتهام : "أيه ؟ ألم تسلمى الواجب؟ "

قالت تشيانغ : "جاء رسمى هذه المرة غير دقيق. "

" أو يستدعى ذلك ألا تسلمى الواجب؟ وأنت طالبة فى الصف الثالث ! "

ولم يكن شرح المدرس فى هذه الحصة هادئا ومتزنا كعادته ، وجلست تشيانغ يون على مقعدها يساورها القلق وعدم الراحة.

وعندما جاء مساء يوم السبت ، انتهت تشيانغ يون من تناول العشاء ، ثم حزمت أمرها وعادت تحاول من جديد تنفيذ الرسم الهندسى المشئوم. بينما هناك بعض زميلاتها يستعدون للذهاب للتزحلق على الجليد ، وتشو شيا ولينغ بجوارها تنصحها وهى تغير ملابسها:

"كيف لك ألا تذهبى معنا ؟ واليوم يوم افتتاح موسم التزحلق على الجليد . وكم مرة يمكن أن نتزحلق فيها معًا طوال العام ؟ إن عدد مرات التزحلق سوف تنقص بالنسبة لك إذا تخلفت هذه المرة . ولقد اتسعت مساحة أرض التزحلق هذا العام بمقدار النصف ، وتم بناء مقصفين جديدين وثلاث غرف لتغيير وحفظ الملابس. وسمعت أنه من المحتمل قدوم فريق من شمال الصين أو لاعبى الفريق القومى الصينى لتقديم عرض بمناسبة بداية موسم التزحلق على الجليد. "

ردت تشيانغ يون فى ضيق : "اذهبى وشأنك ، يجب على أن أنتهى من الرسم " .

"ترسمين ، تجلسين هنا ترسمين ولا تشاركين فى افتتاح ملعب التزحلق على الجليد ! لقد مضى وقت هذا الرسم ، وإذا رسمته وأعطيته للأستاذ لن يقبله منك. أتعتقدين أنك صديقة بمعنى الكلمة؟ لقد وعدتنى عندما كنا نسبح معًا فى الصيف بأنك سوف تذهبين معى فى الشتاء للتزحلق على الجليد . واليوم سيذهب جميع الزميلات ، لكنك تتخلفين وتخرجين عن روح الجماعة! "

قالت تشيانغ يون وهى تنقر المنضدة بالقلم الرصاص : "اذهبى بدلاً منى " .

انتهت تشوشيا ولينغ من ارتداء الزى الرياضى ، لكنها لا تريد أن تغادر وحدها فتجر تشيانغ يون لتصحبها . وتشيانغ يون ساكنة لا تتحرك . أمسكت شيا ولينغ بحذاء التزحلق على الجليد وأخذت تلوح به أمام تشيانغ يون وأشعة الضوء تنعكس على سكين الحذاء وهى تضربهما ببعضهما فيصدر عنهما صوت رنين قالت تشوشيا

ولينغ : "أتعـتقدين أن سـاحة التزحلق علـى الجليد يمكن أن تفتـتح إذا لم تذهبى معنا؟ لقد ذهـبت كل الزميلات،وكلهن الآن يتزحلقن لكن لا توجـد بطلة التزحلق على الجليد يانغ - تشيانغ - يون ! وضربت تشوشيا ولينغ على فخذيها فى أسف : "يا للروعة ، النسمات المنـعشة تتراقص فوق سطح الجليد ، اللاعبـون يتزاحمون ، أضواء المصـابيح مشرقة سـاطعة كالقـمر فى ليلة الخامس عـشر من الشهر القـمرى تتكسر فـوق السطح الجليدى الفـضى الأبيض . . . . ". أغمضت شـيا ولينغ جفنيها تريد أن ترتجل من الكلام العاطفى الموزون ما يشـبه الشعر ، لكنها سرعــان ما شعرت بالضيق لإدراكـها فقر حصيلتها من مفردات اللغـة ، وأخيرا أشارت نحو تشـيانغ يون وهى تقـول : "لن نستـمتع بـأى شىء إذا لم تذهبى معنا . "نهـضت تشيانغ يون من مجلسها وقـالت فى غضب : "أتمشين أم لا ؟ سوف أضربك إذا لم تكُفّى عن هذا الكلام الفارغ! "

حينئذ تنهدت شيا ولينغ فى غضب وحملت حذاء التزحلق على الجليد وذهبت تبحث عن زميلاتها.

وخرجت تشـوشيا ولينغ وتشـيانغ يون قلقة لا تـستقر فى مـكان، لقد تعلمت التزحلق على الجليد منذ الصـغر، وكان عشقها للتـزحلق يزداد يوما بعد يوم، وبعد أن سمعت كلام تشوشيا ولينغ الذى يشبه حواديت خيالية، تمنت لو تطير إلى ساحة التزحلق على الجليد فى بحـيرة "شيشا" لتمـارس هوايتها التى تعشقـها. أحضرت أوراق الرسم الهندسى ، لكنها رغم كل شىء لا تستطيع تذكر ما يجب أن ترسمه، وأخيراً مطت شـفتيها وقررت : "أن أذهب هذا المسـاء أولاً للتزحلق على الجليد ثم أقوم بتنفيذ الرسم غدا وهذا ، أفضل كثيـراً من ضياع ساعتين من وقتى هنا الآن فى عذاب نفسى وأخرجت حذاءها للتزحلق وخرجت للحاق بتشوشيا ولينغ.

عشة تـغيير أحـذية التزحلق على الجليد مكتظة عن آخـرها ، منهم من يحمل حذاءه ولا يجد لنفسه موضعًا يجلس فيه، ومنهم من غير حذاءه ويسير فوق الألواح

الخشبيـة متمايلا مسـرعا نحو حجرة حفظ الملابس. تتناثر فـوق أرض العشة أوراق الحلوى وأربطة الأحـذية المقطوعة والخـرق الباليـة والأوراق القديمة المستخـدمة فى تنظيف ومـسح سكين حذاء التـزحلق على الجليد. تدور على ألـسنتهم فى سـعادة وحمـاس بعض التساؤلات : "ما ثمن هذا الحـذاء؟ "هل انتهيت من شـحذ سكين الحذاء ؟ ، هل ساحة التزحلق فى قصر ثقـافة الشعب العامل تعادل هذه الساحة فى روعتهـا أم لا؟، وهناك بعض من الشباب المخلص الصدوق الذين انـحنوا يساعدون زميلاتهم فى ربط الأحذية.

نظرت إلى كل هذه المشاهدة المألوفـة بالنسبة لها ، وتلك الصـورة التى تمر بها كل عام وضربت تشـيانغ يون بيدها على فخذها وقـالت : "نعم ، لقد أصبت ". وانطلقت فى رشاقـة وتزاحمت وجلست فى أحد الأماكن ، خلعت الحـذاء ولبست حذاء التزحـلق ، وضعت ملابسهـا فى مكان حفظ الملابس، تسلمت قطعة مـعدنية برقم هذا المكان ، وضعـتها فى أحد جيـوبها الصغيرة وربطت الحـبل المعلق بها فى أحد أزرار قميصها.

وأطلقت صفارة من فـمها وانطلقت فى حمـاس شديد وبثقة كبـيرة نحو أرض ساحة التزحلق على الجليد.

أخذت تشيانغ يون تدور من أجل التسخين. الأضواء تتلألأ فوق صفحة الجليد الذى يبدو مشرقا كأننا فى وضح النهار. بيـنما الظلام الحالك يلف الأفق البعيد بعد أن غاب نور الهلال والنجوم المتناثرة.

الفتـيات يرتدين مـعاطف صوفـية حمـراء، وترفرف حول أعـناقهن كوفـيات مزركـشة ، يتـراقصن فى خطوط ملتـوية ويخلفن وراءهن آثار أحذيتـهن متـشابكة ومتقاطعة تختلف ما بين ضحل وعـميق وقصير وطويل . هناك بعض المتسابقين من الشباب يضعون على رؤوسهم قبعات حـمراء صغيرة ويرتدون فانلات مقلمة باللون

الرمادى، ويحنون هاماتهم وينطلقون فوق سطح الجليد مثل عصافير السنونو، يظهر بجوارها فجأة أطفال صغار يلبسون فى رؤوسهم طواقى صوفية مثبت فى أعلاها زر مكور ، وعندما تدور دورة أخرى تشاهد المبتدئين ينقلون أقدامهم فى خوف وحذر وقد وضعوا على أكتافهم معاطف القطن الثقيلة.

نظرت تشيانغ يون إلى الجليد تحت قدميها ، إنه يبدو اليوم غاية فى الروعة ليس رخواً ولا صلبا ولا توجد به أى تشققات ، رفعت قدمها اليمنى سكين التزحلق الموجود أسفل الحذاء يبدو لامعًا تحت أضواء المصابيح ، نقرت به على الساحة الجليدية فسمعت صوت "تشاتشا " وجرفت منها قطع الثلج، أحنت وسطها ومدت يديها لتلامس سطح الجليد، فلم تشعر بشىء من البرد لأن القفاز يحميها ، اعتدلت ولامست خدها بالقفاز ، وسقطت بعض الكريات الثلجية الصغيرة على جيدها فشعرت بالبهجة والانتعاش حتى إنها ودت لو لم يوجد أحد من الناس لتنحنى وتقبل أرض هذه الساحة الجليدية المحببة إلى نفسها القريبة من قلبها. فيالروعة الساحة ، ويالجمال الشتاء ، ويالبهجة الحياة !.

تنهدت تشيانغ يون وقالت وهى تبتسم : "لو لم يكن هناك رسم هندسى لكان الوقت أكثر روعة وبهجة.

شدت تشيانغ يون حزام الوسط ، ووضعت يدها فى جيب البنطلون وقالت فى نفسها : "انظرى ، إننى أتقن كل فنون التزحلق ! ، ثم انطلقت تجرى وتدور فوق أرض الساحة فى سرعة مجنونة.

دارت عدة لفات حتى أصيبت بشد عضلى فاستندت إلى الدرابزين المحيط بالساحة حتى وصلت إلى عشة تغيير الأحذية. شعرت بالظمأ الشديد ، تزاحمت حتى وصلت إلى الكافتيريا المعلق على واجهتها أوراق الزينة الحمراء والزرقاء أشارت

إلى مشروب فواكه أحمر اللون ثقيل القوام تطفو على سطح الكأس فقاقيع ، ونادت على البائع وقالت : " من فضلك " أعطنى كأسا ! ، "

فى ذلك الوقت شعرت بيد عريضة تنبسط على كتفها ، وسمعت صوتًا هامسًا لأحد الشباب : "تعزمينى " .

التفت تشيانغ يون : " معـقول أنت ، تشيانغ شى تشون الذى لم أره من زمن طويل ! "

كان يرتدى معطفًا أسود ويبـدو أنه ازداد طولا وعرضا ، نزع القفاز عن يده ، وصافح تشيانغ يون .

رفعت حاجبيها وسألت فى دهشة : " متى جئت إلى هنا ؟ " .

" منذ وقت غير قصير ، وأنت ؟ " .

" منذ لحظات ، حقيقة أنهـا مفاجاة غير متوقعـة ، فلم أكن أعتقد أننى سوف أراك مرة ثانية "

طلبا كأسين من مشروب الفواكه الأحـمر ، ودفعت الحساب ، رفع كل منهما كأسـه إلى فمـه وأنزله فارغـا فى نفس واحد . زاد هذا المشـروب المثلج ذو الطعم السكرى اللاذع من حماسهما وبعث فيهمـا روحا جديدة مفعمة بالحيوية ، أمسكت تشيانغ يون بالكأس الفارغة فى يدها اليسرى وراحت تنقـر عليها بإصبعيها الوسطى والسبابة من يدها اليمنى .

وسألت تشانغ شى تشون ، " أتشرب كأسًا أخرى ؟ " ، هز رأسه بالنفى .

بحثا عن مقـعد وجلسا ، تأخر الوقت ، لم يعد هناك سوى نفـر قليل يغيرون أحذيتهم ، وتنبعث فى آفاق الساحة موسيقى مقـطوعة " الدانوب الأزرق" ، التى تأخذ بالألباب للموسيقى النمساوى العظيم شتراوس .

قالت تشيانغ يون : " لقد كنا معًا آخر مرة فى الصيف ، والآن نحن فى بداية فصل الشتاء .

قال تشانغ شى تشون : " لقد فكرت أكثر من مرة فى الذهاب إليك ، لكنى لم أجرؤ على ذلك . وفكرت أن أكتب لك خطابا ، لكن لم أتشجع على ذلك أيضا . "

ابتسمت تشيانغ يون ابتسامة خفيفة وقالت : " هل أنا مخيفة إلى هذا الحد ؟ " .

"وسألته : "أين أنت الآن ؟ " .

" فى معهد الجيولوجيا ، إنه معهد ممتاز ، سوف ننتقل فى الربيع إلى مبنى جديد خارج المدينة ، لقد قررت أن أكون من ملاك الأراضى ، وأن أعيش فى الصحراء . . . ، . . . "

سمعت تشيانغ يون حديثه عن معهده ، وأومأت ثم سألته : " هل تحب التزحلق على الجليد ؟ " .

نعم، وأنت ؟ " .

" أحبه جدًا ، إننى أشعر أن التزحلق على الجليد يجمع بين الرياضة وفن الرقص " .

" هذا صحيح ! إن السعادة بالتزحلق على الجليد تشكل وحدة متكاملة . . . . " .

ردت تشيانغ يون ضاحكة من كلامه : " وحدة متكاملة ؟ أتريد أن تنشر بحثا؟ " .

واصل تشانغ شى تشون حديثه فى دقـة وإتقان : " مثلا ، عندما تأتين إلى هنا تذهبين أولاً لشحـذ سكين حذاء التزحلق على الجليد ، ومن أجـل ذلك تقفين فى طابور طويل فى قلق ولهفـة للحصول على المارك ، وبعد طول انتظار يـأخذ العامل الحذاء ، ويمـرر سكين التزحلق على المشـحذ الكهـربائى فيتطاير الشـرر هنا وهناك وحينئذ تشعرين بسعادة كبـيرة ! وبعد ذلك تخلعين حذاءك ثم تبحثين عن مكان بين الزحام لتجلسى فيـه وتلبسى حذاء التزحلق وتصبحين جاهزة وعلى أهبـة الأستعداد للانطلاق إلى ساحة التـزحلق ، وعندئذ تشعرين بنوع أخر مـن السـعادة ! وعندما تذهبين مثـلا إلى الكافيتريا لشراء بعض المأكـولات ، أو تسمعين موسـيقى الفالس الراقصـة التى تبثهـا إذاعة الساحـة بالإضافـة إلى لقاء الرفاق والأصـدقاء فى أرض الساحة ، ومـقابلة صديق تتوقين إلى رؤيتـه من زمن طويل ، هذا أيضا من المباهج التى يحققهـا التزحلق ، وكل هذه الألوان السابقة من السعادة بالإضـافة إلى سعادة التزحلق فى حد ذاتها تتحد وتتجمع وتكون الوحدة المتكاملة لبهجة وسعادة التزحلق على الجليد .

أنك تحلل وتفند التزحلق على الجليد كأنك تحلل الطبقات الجيولوجية " .

ضحك تشانغ شى تشـون فى براءة ودعة . وشعر بشىء من التوقـد والحماس لأنه وجد الفرصـة المناسبة والشخص المناسب الذى يفـضفض أمامه عن مـشاعره ، وأفكاره الخاصة .

صمت تشانغ برهة من الوقت ثم قال : " احكى لى قصة " .

رقصت تشيانغ يون ببصرها فى تعجب وقالت فى دهشة : "أحكى لك قصة ؟ أنت لست طفلا فى الثـالثـة ، بل إننـى أراك لا تتوافـر لديك الرغبة الصادقة فى الاستماع " .

أخذ تشانغ يلح عليها إلحاحـا شديداً ، وكأنه طفل يتوسل إلى جدته كى تحكى له حدوتة .

ثم بدأت تشيانغ يون تحكى .

"بمناسبة أننا فى فصل الشتاء سوف أحكى لك قصة عن سقوط الثلوج " .

" كان ياما كان ، كانت هناك سيدة عجوز تعيش وحدها حياة منعزلة بائسة، تعمل بجد وإخلاص ، قلبها يفيض بالطيبة والبساطة ، لم يكن معها إنسان آخر فى المنزل ، فكانت تجتر آلام الوحدة ، وفى أحد فصول الشتاء أخذت تجمع الثلوج وتكومها حتى صنعت من الثلج فتاة فائقة الحسن والجمال ، وأخذت طوال اليوم تناجى هذه الفتاة الثلجية : " سوف أجعل منها ابنة لى فإن الوحدة تكاد تخنقنى . وفجأة دبت الحياة فى الفتاة الثلجية - إننى أحكى بإيجاز - أصبحت فتاة ترتدى ثيابا بيضاء ، عندما تغنى ينصت إليها كل شىء حتى ذئاب الجبال تتوقف عن العواء ، عندما ترقص تبدو كأنها زهرة ندية بيضاء . كانت تساعد العجوز فى حمل الماء وغسل الملابس وطهو الطعام وأعمال التطريز ، وتظل على هذا الحال طول النهار بلا كلل ولا ملل . وتغير شكل حياة العجوز المسكينة بعد وجود هذه الفتاة ، لكن الجو بدأ يسرى فيه الدفء شيئا فشيئا ، وخيم الحزن والوجوم على الفتاة الثلجية ، وأصبحت عيناها كثيراً ما تذرفان الدموع ، وسألتها العجوز عما يكدر صفوها، لكنها لم تتكلم ، كانت هناك عادة معروفة فى قرية العجوز وهى الاحتفال بدفء الجو ومقدم الربيع ، حيث يشعلون النار عند سفح الجبل ، ويلتف الشباب حولها فى دائرة وتتشابك أيديهم ويرقصون ويغنون ثم يقفز كل منهم على حدة من فوق النار، وبذلك يكون قد ودع الشتاء.

وأثناء حفل استقبال الربيع ، جاء الدور فى النهاية على الفتاة الثلجية لتودع الشتاء ، فغنت أغنية حزينة ترقرقت لها دموع كل الحاضرين ثم قفزت من فوق النار وذابت واختفت من الوجود .

"بكت العجوز بكاء مراً على الفتاة التى فقدت حياتها بصورة مفاجئة بسبب الدفء والحرارة ، فحياتها ستصبح أكثر قسوة ووحشة من ذى قبل ، ولم يعد

لحياتهـا قيمة ، فاتجهت نحـو أحد جيوب الجبل سعـيًا إلى الموت ، وعندما وصلت إلى الجبل سمعت هذه الأغنية :

لا تحزنى يا أمى الحبيبة ،

فقد مضت أيام سقوط الثلوج .

نزلت إلى الأرض الفسيحة وتركتها إلى الأفق البعيد ،

لتذيب أشعة الشمس الذهبية أنهار الجليد .

بعد اثنى عشر شهرا ، بعد أربعة فصول ،

سوف أعود إلى الأرض من جديد . . . .

غرق تشـانغ شى تشون فى تفكيـر عميق ، توقـفت الموسيقى وتهـادى صوت المذيعـة الداخليـة يعلن : " . . . . سـوف تغلق السـاحة أبوابهـا اليـوم فى التاسعـة والنصف ، ومازالت هناك خمس عشرة دقـيقة من الآن . . . . . وبدأت الجموع تتدافع نحو عشة تغير الأحذية فى موجات متتالية . . .

قفزت فكرة فى نفس تشيانغ يون ، فدفعت تشانغ شى تشون ، ونهضت فجأة من مجلسـها واتجهـت نحـو ساحة التـزحلق ، رفـعت يدها وصاحـت فى غـير تردد : " تشانغ، اتبعنى بسرعة "

نهض تشانغ وتـبعهـا قبل أن يفهم حـقيقـة الأمر ، ومد يـده يريد أن يمسك بيدها، وفى لمح البصر كانت تشيانغ يون فوق صفحة الجليد .

أخذت تقفز نحو الأمـام فى وثبات واسعة متلاحقة ، لم تفـتر لها عزيمة ولـم تهن لهـا قوة وهى فـوق سطح الجليد ، تنحنى بوسطهـا وتثنى ساقـها فـتندفع إلى الأمام.

تمايلت تشيانغ يون بجسـمها وهى تطلق ضحكة عالية ، والتفتـت فإذا بجماعة من الأطفال يمسك بعضهم بأيدى بعض فسـدُّوا طريق تشانغ شى تشون فعاقوه عن التقدم ، فحاول اللحـاق بهـا لكنـه لم يستطع. لوحت له تشيانغ يون بيدها فى تحد بيِّن وقالت فى أسلوب استفزازى :

"هيا ، هيـا بنا نتسابق . تشـيانغ يون تطير فـوق صفحة الجليـد ، وقد فكت أزرار الملبس الخارجى فظهر من داخله الفانلة الصوف وحركت يديها بقوة تعبيراً عن التحدى والكبرياء .

كلما زادت سرعتهـا شعرت أنها خفيفة ، وازدادت قـوة الرياح المعاكسة لها ، الهواء يداعب شعرها ، يطير ملابسها ، يحرك شال رأسها . لكن ما إن تحنى رأسها حتى ترى الجليد الأبيض الناصع فتتراجع قدماها ثم ترفع رأسها من جديد . وتشعر بالأضـواء المرتعدة تخـيم عليهـا وتقتـرب منها وتنعكس عليـها لتـرسم ظلالا على الأرض، قدماها تتبادلان أوضاعهما على التوالى ، وهى تشعر فى نفسها بالرغبة فى الغناء مع هذه الإيقاعات المنسجمة .

هناك شاب وفتاة يرقصـان رقصة السامبا فى رشاقة وانسيـابية فوق أرض ساحة الجليد ، وتظهر أيضا ثلاث فتيات صـغيرات يتراقصن ويلعبن وقد تشابكت أيديهن، و هناك شاب يافع يرقص ويدور فوق الجليد بسرعة فائقة كالنحلة (لعبة خشبية) . هذه المشاهد تبدو غـير واضحة الرؤية لتشـيانغ يون ، لكنها فقط تبـدو وكأنها ترى شخـوصًا فـوق صفـحة الجـليد ، بعضـهم منتصب القـامة ، وبعـضهم يتـمايل ويتراقص ،والبعض الآخـر ينحنى ويبدو وهو يتزحلق وكأن جزعـه يتحرك فى خط متوازٍ مع الأرض . كلهم لا يختلفون عنها فى الجمال وقـوة البنيان . آثار التزحلق والخطوط الكثيرة المتنوعة المختلفة فوق صـفحة الجليد تداعب خواطر تشيانغ يـون ، " هذه هى الحياة التى أحـبها " . "أليست هذه هى الحياة التى تحـبها ؟" . وانطلقت

تشيانغ يون وسبقت الجميع ، بينما كل ما يحيط بها من مظاهر ثراء الطبيعة وجمالها المدهش يجذبها ويثيرها ويملؤها بهجة وسعادة .

إنها عادة ما يكون تأثرهــا بما حولهــا كبيرًا وعميقًا ومثيرًا للمشاعر .

فقد أخذت المـظاهر والمناظر الغنية التى تلوح لها الليلة وهى تطير فـوق صفحة الجليد ، ونسمات المساء السـاحرة الرقراقة التى تداعبها ، مشاعر الصـحبة والصداقة التى انبعثت من حيث لا تدرى ، تهز أوتار قلبها وتداعـبة مثلما يداعب موج البحر أحجـار الشاطئ ، لكن تشيـانغ يون لا تدرى كنه هذه الأشياء وجـوهرها ، فكلها أمور يصـعب الحديث عنهـا ويصعب وصـفهـا . وبينما كـانت تشيانـغ يون تحاول استـجلاء أسرار غمـوض هذه الأشياء المثـيرة ، تكشفت وانقـشعت كلها فى خـفة ونعومة مثلما ينقشع الضباب .

ثم شعرت أن جسمها الضئيل غير قادر على احتواء قلبها المضطرب القلق الذى تستعر به نيران الحماس المتوقد ة

وشعرت بالإثارة والحماس اللذين لا يكفيان لتلبية رغباتها ، ولكن هذه الدرجة غير العادية من سرعة التزحلق جعلتها تشعر للحظات بالطمأنينة وهدوء البال .

سمعت صوتًا عاليًا ينادى" يانغ تشيانغ يون ، يانغ تشيانغ يون ،

إنه صوت تشوشيا ولينغ ، ألم تحضر تشـيانغ يون سعيًا وراء شيا ولينغ ؟ كيف نسيت ذلك ؟قـفى بسرعة . وعندما أرادت تشـيانغ يون أن تتوقف اعتـرض طريقها فتى صغيـر ، ترددت لحظة وقبل أن يصطدمان غيرت اتجاههـا فجأة وهى تندفع إلى الأمام ، واختل توازنها، وسقطت على أرض ساحة التزحلق .

وقد زحـفت على الأرض مسـافة ليست بالقـصيرة بعـد وقوعـها متـأثرة بقوة اندفاعـها إلى الأمام ، نهـضت من وقعتـها وقد علقت الكـريات الثلجية بملابسـها

وجسمها وكأنها قد سقطت علـيها لتوها موجة من الثلوج . خلعت القفاز من يدها وأخذت تتـراقص فى حركات ارتجـالية لتنفض عن نفـسها هذه الكريات الثلجـية ، وخطر ببالهـا " لم يذكر تشانغ شى تشون أحـد ألوان المتعة ، فيـجب على الوحدة المتكاملة من متـعة وسعادة التـزحلق على الجليد أن تشتمل علـى الوقوع فوق أرض الساحة على الأقل مرة واحدة .

ضحكت تشيانغ يون فى سعادة ونظرت حولها فإذا بتشوشيا ولينغ تقبل نحوها فى ود للاطمئنان عليها ، أما تشانغ شى تشون فقد اختفى ولم يظهر له أثر .

(١٤)

يبدأ العام الجديد بعد أسبوع ،كل من بالمدرسة من المدرسين والطلاب والموظفين والعمال مشغول بالإعداد للاحتفال بهذه المناسبة. كل يوم بعد الساعة الرابعة بعد الظهر تجدهم فى كل مكان يستعدون لهذه الأعياد ، منهم من يتدرب على رقصة الأشرطة الحريرية الحمراء، ومن يستعد لتقديم أوبرا غنائية قصيرة ، بل وهناك بعض الأستاذة يستعدون لتقديم أوبرا بكين فتسمع أصوات " لونجا لونغ ، لونجا لونجا . . . . . . ، " أصوات الآلات الموسيقية الوترية وغير الوترية، أصوات المقطوعة الموسيقية الأوبرالية" أيتها السماء جودى بريح شرقية . . . . . . ، تنبعث فى كل ركن من أركان المدرسة .

أقام اتحاد الطلاب معرضا تحت اسم "كل شيء من أجل الوطن العظيم" ، يحتوى على ثلاثة أقسام رئيسة ، قسم يسمى" بشائر مشروعات البناء فى الوطن الكبير " يدور حول مراحل بناء شركة الحديد والصلب فى مدينة آنشان ، القسم الآخر بعنوان " دعم وتأييد أبطال الشعب " ويتحدث عن الانتصار المظفر والمآثر البطولية على الجبهة الكورية فى حربها ضد أمريكا ، والقسم الثالث والأخير " غزو قلاع العلم " ومضمونه فى الأغلب يحتوى على النتائج الدراسية المتميزة لطالبات المدرسة ، والمقالات والإنتاج الفنى خارج نطاق الدراسة . . . . . . يانغ تشيانغ يون هى المسئولة عن تنظيم وترتيب القسم الأول ، وهى سعيدة بالطبع بتحمل هذه المسئولية ، وجميع زميلاتها فى الفصل يساعدنها باستثناء لى تشون ، ذهبت بنفسها تبحث عن لى تشون لمساعدتها ، لكنها رفضت لأنها كانت لا تزال مشغولة بكتابة مسرحية تنبئ عن موهبة تثير الدهشة والإعجاب ، وبحثت الطالبات فى كل الصحف والمجلات عن الأخبار والتحليلات والصور التى تتعلق بمراحل بناء مصنع الحديد والصلب فى مدينة آنشان ، وأرسلن خطابا الى العاملين فى المصنع ، وقامت فتيات الطلائع اللاتى تشرف عليهن يوان شن تشى بإرسال بعض الزهور التى جمعنها فى دقة واهتمام إلى العمال يلححن عليهم فى الرد بخطاب تفصيلى عن

أحوال المصنع ، وبدأت ردود العمـال تتوالى بسرعة ، بل إنهم قـاموا بإرسال نموذج لأحد الأنابيب المعدنية تعبيراً عن تهنئـتهم للطالبات بقرب حلول العام الجديد ،وهز هذا الخبر كل أرجاء المدرسة وراح الجميع يتحدث عن هذا الحدث السعيد .

لم يكن مجتمع المدرسة يتحـدث عن الهدية فقط ، بل أيضًا عن مصنع الحديد والصلب فى مدينة آنشان . كل يوم ، وفى الصبـاح الباكر ، وبعد أن ينطلق صوت المذيعة الحماسى المثير من إذاعة الشعب مـن بكين تشرح للطلاب مراحل بناء مصنع الحديد والصلب فى آنشان ، ينهض الكل من مجلسه بصورة تلقائية ويهتفن ويصفقن بحماس منقطع النظير . ويعد ذلك تدور المناقـشات حول هذا الموضوع فى حجرات الدرس وفى ممرات المدرسة وحتى فى المطعم :

" هل تذكرين ؟ أتذكـرين كم طناً من الورق استـخدم فى رسم التـصميـمات الفنية والهندسية لهذا المصنع ؟" .

" نعم ، لقد استهلكت تصميمات حفار القلاووظ فقط عدة أطنان . "

" صه ! ليس اسمها تصـميمات حفار القلاووظ ، ولكن التصمـيمات الخاصة بحفر الأساس ! .»

" تعالى نتـأكد ، أليس هذا هو المشـروع الهندسى رقم ١٩٢ . أليس هذا هو الموقع رقم ١١ الذى بلغت كمـيات الحفر فيـه سبعة آلاف وبضع مئـات من الأمتار المكعبة ؟ ألم يتطلب ذلك أكثر من مائتى طن من المعدات وقطع الغيار ؟. "

(الطالبة التى قالت هذه الفـقرة من الطالبات ذوات المستوى الضـعيف فى مادة الرياضيات لكنها أعملت كل ذهنها من أجل حفظ هذه المجموعة من الأرقام).

" انظرى . (وأشرن إلى اللوحـة) عاملتا اللحـام الكهربائى هاتان كانتـا قبل ستة أشهر فقط تقومان بتربية الخنازير فى الريف ، أما الآن ستة ....

حل شتاء عام ١٩٥٢ ، ومن ذا الذى لا يرنو ببصره نحو مدينة آنشان ، نحو أول قلعة صناعية عصرية تبدد وحشة البيداء تقيمها بلادنا بقطرات العرق والدموع ! إن مثل وطننا العظيم كمثل عملاق عظيم : يد تخترق اللهيب والدخان لتحمى جبل شانجان فى كوريا ، ويد ترتفع وسط أصوات العويل تغسل مخلفات وسموم العصر القديم

" المقاومات الثلاث " ،[١] " المقاومات الخمس "[٢] ، وهناك السواعد القوية التى تصنع أسس الاشتراكية القائمة على تحقيق السعادة والرخاء .

وكان الجميع يعلمون أن البناء قادم على الطريق ، لكن لا يتوقعون أن يكون بهذه السرعة ! وعلى هذا النطاق الواسع . وبمثل هذه المعدات الفنية الجديدة ! هذه الأيام ، من ذا الذى يستطيع أن يذكرها دون أن يترقرق الدمع فى عينيه وتهتز نفسه من فرط التأثر ، سواء أكان من أصل الجيش الأحمر القديم الذى ذاق الأمرين وبذل الدم والدموع من أجل الصين الجديدة ، أم كان من أجيال المستقبل التى تتطلع إلى المجد ؟ .

فى هذه الأيام تفرز لى تشون عصارة مخها من أجل كتابة مسرحية من فصل واحد ، ولم تكن فترة مرضها الأخير سوى محاولة من جانبها للكتابة واختبار مقدرتها فى هذا المجال ، وأيضا كى تشتاق إليها زميلاتها ؛ ولكن ما إن تولدت الفكرة حتى تقافزت إلى رأسها أشياء كثيرة . " آه لو استطعت أن أكتب هذه المسرحية . . . . . كانت هذه الفكرة تسيطر على عقلها دائما ، أثارت فى نفسها كوامن السعادة والشعور بالتوقد والحماس ، وشعرت أنها قد حددت لها هدفًا عمليًا وهو كتابة مسرحية " تنبئ عن موهبة تثير الدهشة والإعجاب " وأصبحت هذه

(١) مقاومة الفساد والإسراف والبيروقراطية .
(٢) مقاومة الرشوة ، التهرب الضريبى ، السطو على المال العام ، التحايل على التعاقدات الحكومية ، سرقة التقارير الاقتصادية .

الفكرة تلح عليها وتطاردها كالشبح : تفكر فيها وهى تأكل وهى تقرأ ،وفى أحلامها حتى إنها تشعر بالرهبة والخوف يداخلانها عندما تبتسم ، وعندما كانت تلتقى بيانغ تشيانغ يون ، كانت تخاطبها فى نفسها : " انتظرن وسوف ترينً وعندما تمر بمسرح بكين تقول : " يا سلام لو تم تقديم مسرحيتى على هذا المسرح . . . . . " نشرت صحيفة تياجين اليومية قصة كتبها طالب بالمرحلة الثانوية وأنا أيضا طالبة فى نفس المرحلة ، هل أنا . . . . . . أقل منه كفاءة ؟ " تغبطه حينا وتحسده حينا آخر ، شعرت طيلة هذه الليلة بالسهد والأرق .

بدأت الفكرة كأنها واضحة فى ذهنها ، تريد أن تكتب عن طالب ذكى ، صريح ، دغرى وذى عقل راجح ، وكيف أنه يتعرض لسوء فهم من جانب زملائه، وكيف يتعرض لهجومهم عليه، وفكرت أيضا فى الكلمات التى ستختم بها المسرحية ، وهى على النحو التالى :

يخاطب سكرتير اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة (هذا الطالب قائلا) : «لن نبالى بك مرة أخرى ، أنت إنسان متخلف ، وأفكارك لا تتمشى مع المبادئ والأيدلوجيات الماركسية اللينينية . . . . (انصرف) .

يرد الطالب الذى تعرض للهجوم : سوف أجعلكم تضحكون من أنفسكم ، وتبكون على أنفسكم ، وأنا هو أنا ! إن الوقت يمضى مثلما ينساب سلسبيل الماء ، عجلات الزمن تدور دون توقف ولكن قلبى ، قلبى ! "

هذه هى كلمات فقرة الختام التى كثيرا ما ترن فى أذنى لى تشون .

إنها نفسها لا تفهم مغزى هذه الكلمات ، لكنها تشعر أنها عكست نوعًا من المشاعر وأن هذه الكلمات تبدو كان بها شيئا من " العمق " .

وعندما بدأت لى تشون تسكب هذه المشاعر على الورق ، اكتشفت عدم قدرتها على كتابة أى شيء ،لم تذهب فى عطلة نهاية الأسبوع لمشاهدة الأفلام ، ولم

تخرج إلى الشارع ، بل ذهبت بمفردها إلى مكتبة بكين وهى تصارع الشعور بالألم والمرارة ، عثرت هناك على بعض الأعمال المسرحية، وأخذت تطالع حتى اكتسبت بعض المهارات ، وكتبت بضعة سطور ، فشعرت بسعادة غامرة .

احتفظت بما كتبته سرًا ، ووضعت المسودات التى كتبتها بين فكى مشبك وأخفتها داخل دوسيه ووضعته فى حقيبة كتبها .

كانت تشعر وهى تحمل حقيبتها أن هذه الحقيبة كأن بها كنزا ثمينًا فريدًا من نوعه ، وأنها أصبحت خفيفة ناعمة تحوى حصاد صاحبتها .

بدأ الجميع يلاحظ التغير الذى طرأ على لى تشون ، بعد فترة مرضها أصبحت على غير عادتها صامتة ، لاتدخل فى مناقشات مع الآخرين ، لكن كثيرا ما ترسل عيناها نظرات تعبر عن التيه وإكبار الذات والاستخفاف بالآخرين ، كانت تخرج فى يوم العطلة من نهاية كل أسبوع ، تسألها زميلاتها أين تذهب وماذا تفعل ؟ تتمتم ولا ترد . أحيانا تنكب على المنضدة وتكتب بعض الأشياء ، وعندما تمر واحدة بجوارها تسارع إلى إخفاء الورق داخل الدوسيه ، تساءل الجميع فى حيرة ودهشة ، ما هذا الذى يحدث ؟ حاولت تشن بوا الاقتراب منها والحديث معها ، لكنها لم تبح لها بشىء .

كان آخر أيام عام ١٩٥٢ . كل الفصول تلمع من شدة النظافة .

ارتدت الطالبات حللهن الجديدة بياقاتها الناصعة المزهرة ، ورحن يلتقين بوجوه مستبشرة ، ويتبادلن الأحضان الدافئة بحرارة متدفقة على غير العادة .

المدرسون يشرحون دروسهم بوجوه متهللة مشرقة .

كانت الحصة الأخيرة للأستاذة تشونغ مدرسة الكيمياء ، إنها مدرسة صارمة تزيد على الأربعين بقليل ، غير متزوجة ، لكنها اليوم تلبس حذاء جلديا فاخرًا ذا كعب عال ، تتكلم بلطف حتى إنها أبدت شيئا من التحرر والانطلاق فى تعاملها

مع الطالبات . علامات القلق وعدم الاستقرار بادية عليهن أثناء الحصة لكنها تتسامح معهن أيضا .

انتهت من شرح الدرس ، بقيت عشر دقائق على انتهاء الحصة، طوت الكتاب وأخذت تحدثهن عن مشاعرها ، وانطباعاتها حول العام الجديد :

" غدًا يبدأ عام جديد ، ويبدأ معه تنفيذ الخطة الخمسية ، حقيقة !

إننى دارسة للهندسة الكيميائية ، لكن لم تكن هناك فرصة لإقامة صناعات فى المجتمع القديم . ولقد استقبلت من قبل كثيرا من الأعوام الجديدة ، ولم ألمح فى أى منها بارقة أمل فى تحقيق الرخاء والازدهار ، لكن مع بداية عام ١٩٥٣ ، حقيقة! أتمنى لكُنَّ عامًا جديدًا سعيدًا !

احمرَّت عيناها وهى تواصل الحديث عن آمالها فى جيل الشباب.

" . . . . كيف لا تستطعن إتقان دراسة مادة الكيمياء ؟ اسمعن قول العالم رومنرسوف :[١] « لقد دخلت الكيمياء إلى كل مجالات حياتنا . . . . ، إنكن لم تخضن العذاب ، لذا لا تعرفن مدى الظروف الدراسية المواتية والسعيدة التى تمرون بها فى هذه الأيام ، إن أيام الشباب هى أثمن أيام حياتكن ، بل وأقصرها أيضًا ، سرعان ما تمضى إذا أضعتموها فى شىء من عدم الأكتراث واللامبالاة . ومن ثم عليكن استغلال كل دقيقة، وكل ثانية فى الدراسة وفى العمل ! .

دق الجرس ، انتهت آخر حصص عام ١٩٥٢ . حيت الطالبات مدرستهن بأنحناءة كبيرة وتدافعن فى مرح وسعادة نحو الفناء . . . .

يوان شن تشى هى " المسئولة عن خطة تزيين وتجميل الفصل ، الطالبات المرافقات لها يحملن " فروخ الورق الحمراء والزرقاء ويحملن سلة من البامبو بها دبابيس وخيط ومواد لاصقة ومقص ، ويسرن فى ركبها .

(١) أحد كبار علماء الكيمياء الروس ، وكان أيضًا شاعرًا وأديبًا معروفًا .

تشعر يوان شن تشى بالإعجاب تجاه تصميماتها لهذا العمل وفهمها المسبق له ، وأخذت تشرح لزميلاتها المراحل والتخطيط الذى وضعتة لتنفيذ هذا العمل :

« لقد كانت طريقتنا فى تجميل وتزيين الفصل فى الماضى طريقة تقليدية ورتيبة ،حيث نَقصُّ الورق الملون إلى قصاصات طويلة رفيعة ونعلقها فى أشكال متقاطعة ونعلق عند نقطة التقاطع فانوسًا كهربيًا كبيرًا على شكل سمكة ذهبية ذات عينين مستديرتين كعينى التنين . وهذ صورة تقليدية قديمة . . . . "

سألت سونينغ التى تشارك فى أعمال تجميل وتزيين الفصل: " وكيف تكون الصورة جديدة معبرة عن الإبداع ؟" .

أشارت يوان شن تشى إلى أعلى وأجابت : " سوف نبقى على نظام تعليق أشرطة الورق الملون الطويلة الرفيعة فى أعلى الفصل ، بحيث تكون متقاطعة تقاطعا أفقيا ، ثم نقُصُّ أشرطة قصيرة من الورق ذات اللون الأخضر الفاتح ونلصقها فى الأشرطة الأفقية الطويلة بحيث تكون مدلاة بشكل رأسى وتتمايل مثل أغصان الصفصاف . ونقص أخرى صفراء على شكل عصفور السنونو الصغير ، ونلصقها جميعا فى أغصان الصفصاف " .

سألت إحدى الزميلات : " وما علاقة ذلك بالعام الجديد ؟" .

ردت يوان شن تشى فى زهو وكبرياء : " إننا مع قدوم العام الجديد نبادر باستقبال الربيع فى فصولنا " .

وبدأ العمل .

علاوة على أعمال تزيين الفصل ، رسمت الطالبات بالطباشير الملون على السبورة المعلقة فى واجهة الفصل صورة لطفل صغير يضع على رأسه قبعة حمراء كبيرة وأخرى لطفلة ذات ضفيرة قصيرة ، الطفل يحمل حقيبة كتبه فى إحدى يديه ،

والطفلة تمسك بإحدى يديها لعبة من ريشة طويلة تصل الى منتصف صاحبتها ، وقد تشابكت يداهما وانطلقا نحو الأمام

وفى الطرف الآخر من السبورة يوجد الهدف الذى يسعيان إليه ، رسمن قرص الشمس الحمـراء التى أشرقت بنصف وجهها . وفى الوسط كـتبن بخط فنى جميل ١٩٥٢ - ١٩٥٣ . أما خلفية الفصل فقد بدت أكثر جمالا ، حيث كانت عبارة عن ستارة جمـيلة من القماش ذات اللون الأزرق السماوى شـديد الصفاء ، تلصق على طرفها الأيمن القـريب من الأرض قصاصات من الورق مـرسومة على شكل أوراق وأغصان الصنوبر الخـضراء المتغضنة ، وتتناثر على صـفحة الستارة الأوراق البـيضاء المقصوصـة على شكل قطع وكريات ثلجيـة ، تتخللها هذه الكلمـات " عام جديد سعيد ، وعمر ربيعى مديد . استطاعت سواعد البنات القوية ومعنوياتهن المرتفعة أن تحول الفصل الكئيب إلى مكان ينبض بالحياة وكأنه الجنة .

وفى المكتبـة (حيث يقام معـرض " كل شيء من أجل الوطن " ، كانت يانغ تشيانغ يون أكثـر انشغالا من أم العروسة كانت تندفع حينـا إلى خارج المكتبة لتلقى نظرة على جموع الزميلات الزائرات وتستقبل الضيوف من طالبات المدارس الصديقة "وعـمـال المصانع المجـاورة ، حـينا آخـر إلى مـعرض " صـرح آنشـان للحـديد والصلب" ، لتسـتمع إلى أقوال وآراء المحللين ، ثم نحو باب الخـروج لتطالع سجل آراء الزوار والذين يثنى معظمهم على المعـرض ، مما يجعلها تشعر بسـعادة غامرة . هنـاك شخـص فقط كتب بخطه الملتوى : " المضمون يفتقر إلى الحقيقة " .

لم تقتنع تشـيانغ بهذا الكلام ، ثم من يكون صـاحب هذا الرأى الشارد ؟ ربما كان أحد طلاب المـدرسة رقم ٦٥ الثانوية للبنين ، إنهم يستـخفون بنا نحن مـعشر الطالبات ، هه !

حقيقة أن محتويات المعرض ليست كثيرة ، لكنه يضم شيئين يجذبان الأنظار ، أحدهما عبارة عن مظلة قفز سليمة تماما أرسلها أحد جنود جيش المتطوعين الصينى فى كوريا لإحدى طالبات الصف الثانى الإعدادى عندما كانت تبادله الرسائل فى ذلك الوقت ، والشيء الثانى هو نموذج الأنبوبة المعدنية (التى وصلتنا صباح اليوم ، وأصابتنا جميعا بالدهشة) ، إنها جديدة تماما ، سوداء مصقولة ، جاءت فى صندوق خشبى ، تحتها شلتة من القماش ، عندما شاهدها الزملاء ، منهم من تساءل : " أهذه من مصنع آنشان ؟ معقول ؟ ما إن سمعت تشيانغ يون هذه التساؤلات حتى انبرت تقول : " أرسله عمال مصنع آنشان للحديد والصلب إلينا خصيصا ، فكيف تقولون إذن إنه مزيف .

انتهت لى تشون صباح اليوم من كتابة المسرحية ذات الفصل الواحد ، تنفست الصعداء ، وكتبت فى النهاية : " عشية عام ١٩٥٢ " مضى عام غير مأسوف عليه ، وأقبل عام ١٩٥٣ وقلبها مفعم بالأمل لأنها أنجزت شيئا ليس بسيطًا ، طالبت بإعداد بعض الأشياء الخاصة باحتفالات ليلة رأس السنة ، طُلب منها أن تصحب ووتشانغ فو وتذهبان لشراء بعض الحاجيات ، أخذت النقود من زميلاتها وذهبتا إلى الجمعية التعاونية لشراء الحلويات والأطعمة الخفيفة .

ووتشانغ فو تنتقى وتختار وتماطل أثناء الشراء ، ودت لى تشون لو تم الشراء بصورة أسرع ، كانتا تتبادلان عبارات الجدل والخلاف أثناء شراء الحاجيات .

مديرة المدرسة تجلس مع الأستاذة تشونغ على الأريكة فى حجرة المدرسين وقد استبد بهما القلق ، حيث تخشيان أن تطلب الطالبات منهما تقديم فقرة خاصة أثناء حفل المساء ، بينما لا تجيدان أداء أى نوع من الأغنيات ، أخيرًا طلبتا مدرس الموسيقى ، وفكرتا فى حفظ أغنية بسيطة سريعة ، اختار لهما أنشودة " نحن زهور الربيع المتألقة وأخذت أبلة الناظرة والأستاذة تشونغ تنشدان : " . . . . لنتقدم إلى الأمام فى حيوية وإقدام . . . . . . "

وفى الساعة السادسة والنصف بدأت طقوس الاحتفالات فى كل فصل على حدة وفى مجموعات مشتركة من الفصول .

المدرسة تزدحم بالفوانيس الكهربائية والشرائط الورقية الملونة وتعج بأصوات الطبول والنواقيس النحاسية التى تصم الآذان . اشترى عامل حجرة الاستعلامات (البواب) بما ادخره من النقود كميات كبيرة من البمب ماركة " أرتيجياو " وأخذ يفجره فى فناء المدرسة .

وعند باب المدرسة وقفت طالبات يمثلن كل الفصول لاستقبال الضيوف المشاركين فى حفل المساء ، ومن بين الضيوف الذين دعاهم كل فصل من فصول المدرسة يوجد متفوقين فى مجالات عملهم ، جنود من جيش المتطوعين الصينى، جنود من جيش التحرير، ممثلون، كتاب، كوادر من اللجان الرئيسه والفرعية لرابطة الشبيبة فى بكين . . . . . الضيوف يقبلون وتقودهم أصوات الطبول إلى الفصول .

استضافت طالبات الصف الثالث أحد الجنود من جيش المتطوعين الأبطال ، وطلبن منه أن يكون أول المتحدثين فى الحفل ، وما إن استهل حديثة بقوله " صديقاتى الصغيرات . . . . "حتى ضج الفصل بالضحك ، فقد تعود الرفيق المتطوع على لقب " العم " فى خطاباته التى كان يتبادلها مع أعضاء تنظيم الطلائع، ولذا فإنه يدعو طالبة الصف الثالث الثانوى أيضا "صديقتى الصغيرة " .

تخفت كل الطالبات فى الملابس التنكرية . منهن من تنكرت فى فستان زفاف أمها الذى كانت ترتديه منذ ثلاثين عاما ، ومنهن من تنكرت فى ملابس مشابهة لملابس أبطال الأوبرا المحلية الخاصة بمقاطعات تشجيانغ ، جيانفسو ، وشنغهاى فى جنوب الصين وتزينت لتصبح مثل الممثل ليانغ شانبو ، أو الممثلة تشوين تاى ، ومنهن من تنكرت فى أزياء بنات التبت ذات الكم الطويل .

وبعضهن تنكرت فى زى المرأة الهندية وطبعت على جبهتها وشمة حمراء . . . . .

شاهدت مديرة المدرسة والأستاذ يوان وين داو أنشطة الصف الثالث الثانوى وجلسا وسط الطالبات . أثنى الأستاذ يوان ثناء حسنا على تزيين وتجميل الفصل ، واستمر فى هذا الإطراء أمام حضرة الناظرة ، وأخبرته إحدى الطالبات القريبة منه : " إن هذا من ابتكار ابنة حضرتكم " فازداد سعادة فوق سعادته .

بعد أن أنهى أحد جنود جيش المتطوعين الصينى كلمته ، دخل إلى الفصل رجل عجوز فى ملابس فضفاضة وذو لحية طويلة بيضاء ، فتغامز الجميع ، من هذا؟ وبدأ العجوز يقول: بناتى الصغار، أنا قادم إليكن من كوكب المريخ ، خصيصا لمشاركتكن حفلكن هذا . . . . . . "ثم اتضح لهن مَن الصوت أنها تشوشيا ولينغ التى حاولت أن تغير من نبرات حنجرتها حتى تصدر صوتا رجاليًا عجوزا ، لكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلا ، فكانت النتيجة أن جاء صوتها مسخًا لاهو بصوت العجوز ولا هو بصوت شابة صغيرة ، وذهب العجوز الذى انكشف أمره ، أخرجت الطالبات كل ما فى جعبتهن عند تقديم البرامج ، حتى إنهن قدمن ما سمعنه من جداتهن عن الأوبرا الخاصة بمقاطعة خابى ، وما تعلمنه عن عم أطفال الجيران من أعمال السحر والشعوذة .وأثناء تقديم البرامج سمعن طرقات قوية على الباب وصوت يقول : "رسالة !" .

ودخلت ثلاث فتيات تعملن بالبريد المدرسى ترتدين ملابس خضراء اللون ، وتحملن عدة أكياس ، لوحت إحداهن بيدها فى جميع الاتجاهات محيية ، وقالت :

« إننى نيابة عن فريق الطلائع الذى يقوم بتوزيع بريد العام الجديد ، أهنئكن جميعا بحلول عام جديد متمنية لكن الصحة والسعادة ! " ثم أعلنت " فى هذه الأكياس بطاقات ورسائل وهدايا مرسلة إليكم من أنحاء البلاد تهنئة بالعام الجديد ،

من بينها عشرة كيلو جرامات من التفاح هدية لفصلكن من الأستاذ يوان " .

ثم وضعت التفاح فوق المنضدة ووزعت الهدايا وانصرفت - بينما أخذت الزميلات فى التهام التفاح وقراءة الرسائل والثناء على الهدايا . وكان كل المدرسين والطالبات فى المدرسة قد قاموا بكتابة هذه الرسائل وإعداد الهدايا المتبادلة قبل بداية الاحتفالات وسلموها إلى فريق الطلائع المعنى بتوزيع بريد العام الجديد ليقوم بهذه المهمة ، فمنهن من فازت مذكرة ومن تسلمت لوحةً مصورة ، أو لعبة أو كتابًا أو حتى قلم رصاص ، تلقت ووتشانغ فو مذكرة يوميات غلافها مطلى بماء الذهب، سعدت جدا بهذه الهدية ، لكنها ما إن قلبت الغلاف ونظرت فى أول صفحة حتى مطت شفتيها ، وقالت لسونينغ ، " انظرى . . . "

وقرأت فى الصفحة الأولى هذه الكلمات ، "أول شيء تواجهينه بعد بداية العام الجديد هو الامتحان النهائى ، أتمنى أن تحصلى على مئة درجة فى كل مقرر من المقررات ، وأن تحققى نتيجة عظيمة باهرة " .

وتلقت يانغ تشيانغ يون ظرفًا سميكًا من ورق الصحف ، مكتوب عليه : " فى الداخل شيء ثمين ، افتحى هذا الظرف بعد شهر " لم تهتم تشيانغ يون بهذا الكلام ، وفتحت الظرف فلم تجد به شيئا سوى نموذج دجاجة صغيرة فى حجم ظفر اليد منحوت من الخزف فسارعت بتقديمه لزميلاتها .

ذهبن إلى صالة الرقص ، حيث أخذن يرقصن مع طالبات الصف الثالث فى الفصل الآخر .

داخل الصالة شجرة تنوب ضخمة تم صنعها من أغصان شجر الصنوبر الأبيض، تلصق عليها نجوم متلألئة وأوراق ملونة ، وقد علقت بها نماذج أشخاص صغيرة مصنوعة من قشور الفول السودانى وقشر البيض وحيوانات صغيرة من القش، ونماذج ورقية أخرى لكافة الآلات والأدوات الموسيقية ، وتختفى داخل

شجـرة التنوب مصابيح صـغيرة حـمراء وخضـراء أضاءت جمـيعهـا عندما دخلت الطالبات إلى الصالة .

وعندما بدأ تشغيل شريط الأغـانى الراقصة ، لم تندمج فى الرقص سوى بضع طالبات ،حيث إن طالبات الثانوية لم يعتدن الرقص الجماعى .

ثم جاءت تشوتشيا ولينغ أسفل شـجرة التنوب ،ونادت بصوت عـال : " أيتها الزميـلات ، هذا هو العام الأخيـر لنا فى المرحلة المتوسطة ، وفى العام القـادم تبدأ بلادنا بتنفيـذ الخطة الخمسية بـعد أن حققت نتائج كـبرى . . . . . لذلك يجب أن نرقص ومهما كانت الحجج والأعذار يجب أن نرقص " .

وبعد أن رقصن عدة رقصات على مجمـوعة من المقطوعات الموسيقية ، تصببن عرقًا وخـلعن معاطفـهن واحدة تلو الأخـرى ، وظهرت البلوفـرات من كل شكل ولون . وكلما اشتـد سريان الحمرة فى وجوههن بدين أكثـر جمالاً . وآنذاك دخل الصالة ثلاثة طلاب .

دخلو فى صحبة رئيسة اتحاد الطالبات ، قدمتهم قائلة : " إنهم وفد اتحاد طلاب المدرسة المتـوسطة رقم ٦٥ ، جاءوا إلى مدرسـتنا لتهنئتنا بالعـام الجديد ،ونشكرهم على ذلك.

وقف أحدهم وسط تصـفيق الجميع وهو يلف كـوفية حول عنقـه وقال " لقد حملنا إلى فـصلكن خطابين من زملائنا ، ولن نـقرأهما لأنكن جـميعـا ترقصن ، وإننى نيابة عن كل الإخوة فى مدرستنا أنقل لكـن تمنياتنا لكل طالبة من أخواتنا بعام جديد سعيد .

ضحكن جـميعـا . وأخرجت تشـوشيا ولينغ لسـانها قائـلة : " ياله من كلام معسول ، ياله من شاب مناور " .

واستمـر الحفل الراقص ، وجلس ثلاثتهم بجوار أسطوانة الجـرامفون فى شىء من الشعـور بالغربة ، وبعد لحظات اندمج اثنان مـنهم فى الرقص ، أما ذلك الذى يلف حول عنقه كـوفية خضراء فـقد جلس جامدا فى مكانه . شعـرت تشيانغ يون تجاهه بشىء من التعاطف، وتقدمت ناحيـته ومدت يدها له فى شجاعة ، " أيمكن أن نرقص معًا ؟" فاحمر وجهه الساذج البـرىء فجأة ، وشعر بالخجل والسعادة فى الوقت نفسه ، نهض فى حرج وارتبـاك ، ولف يده حول وسطها فى حذر وتردد ، لكنه لم يجرؤ على الاقتراب منها .

وما إن بدأ الرقص حـتى أدركت تشيـانغ يون أنه يجيده ، لكـنه لا يجرؤ على النظر إلى وجهها ، بل يحيد ببصره الذى يرسله فوق كتفها الأيمن .

شعرت تشيـانغ يون بأن ذلك شيئا يثيـر الضحك . ما أعظم الفـارق بين هذا الشاب وبيـن تشانغ شى تشون ؟ ولـكـنه نطـق وسألهـا : " ما اسم حـضرتك ؟ فـردت عليـه السـؤال " مـا اسـمـك أنت ؟" - وهى تقـول " أنت " - اسـمى تشـاوجـيـان ، طـــالب بالصـف الثـانى " ، الفـصل الأول بالمدرســـة الثـانوية للبـــنين ٦٥ " .

" من سألك عن ذلك ؟ إنى أقول لك فقط أن اسمى يانغ "

أسرعت إيقاعات المـوسيقى ، وأخذ الجميع يرقص ويدور فى خـفة وسرعة . والمصـابيح المتـلألئة فـوق شـجرة التنوب تـرسل أضواءها المبـهـرة فى كل مكان ، اندمجت الطالبات فى الرقص ، تراقـصت ضفائرهن وقد أشعلت مواقـد التدفئة فى أركان الصالة الأربعة ، والشرر الأحمر المنبـعـث منهـا يتراقـص فى خفة وحيوية . الأقدام تنفرج وتلتقى بسرعة ،والعيون تسبل وتفتح .

ويتراقص على إيقاعات أقدامهن . بحر خضم من الألوان والأضـواء . تشيانغ يون ترى أن تشاوجيان يرقص بخطوات بطيئة جدا ، فاستقر رأيها على تغيير موقفها

السلبى واتخـذت موقـفا إيجـابيًا في الرقص وقـادته فيـه حتى يرقـصا فى سـرعة وحيوية، الأمر الذى جعل تشاوجيان يتصبب عرقا من طرف أرنبة أنفه .

ورقص الأسـتاذ أيضًـا ، فرقص أولاً مع ابنتـه شن تشى التى كـانت تراقصـه وتعلمـه فى الوقت نفسـه ، وبعد أن أتقن عـدة حركـات ذهب يبحث عن حـضرة الناظرة ليرقص معها ، رقصا بعض الوقـت ثم جلسا للراحة والتقاط الأنفاس ، قال لها : " كم إن طالباتنا من ذلك النوع الممتاز من الطالبـات ، إنهن سعيدات ويبحثن عن كل ما يزيد من سعادتهن . . . " .

سمعت تشيانغ يون من أنغـام الموسيقى صوتًا غنائيًا رقيقا عذبا متـدفقا فشعرت فجأة أن هذا الصوت وتلك الأغنيـة التى لا تعرف صاحبها قريبة منهـا ، مألوفة لها وليست غريبة عنها ، " كأنه عصفـور الـسنونو المغرد الصداح يعود إليها " وأخذت تفكر فى أى مكان سمعـته ، دفعت تشاوجيان جـانبًا ، وقالت : " انتظرنى لحظة " ثـم أسـرعـت نحـو الجرامـفون وسـألت الزميلة المسـئولة عن الإذاعـة : " ماهذه الأغنية " .

" أغنية الطالب الجامعى " .

انصرفت تشـيانغ يون وهى تضحك ، ولا عـجب أنها طلبت منى السـماع . وبعد غناء مـقطع من الأغنـية ، أخـــذت تـشيانغ يون تدندن ،وأطبـقت جفنيـها وهى تتصور الحياة الجـامعية : البالطو يثقبه حامض الكبريتـيك ، بداية مسابقة عدو المائة متـر ، الانتـقـال من صف إلى صـــف دراسى أعـلى ، الانـتـقـــال مــن فـصــل إلى فــصــل آخــر ، . . . . . .

شعرت تشيانغ يون بالسعادة ، فـأغنية " الطالب الجامعى " من الأغنيات بالغة الروعة . لـقد أصبح تشـانغ شى تشون طالبًـا جامـعيًـا ، والعام القادم أصـبح أنا الأخرى طالبة جامعية أيضا . لماذا لا توجد أغنية لطالب الثانوية ؟ "

" أغنية خاصة بهم ومعبرة عنهم ؟ "

وعادت تشيانغ يون ، بينما تشاوجيان ما زال واقفًا فى أحد الأجناب ، نادته تشيانغ ، " تشاوجيان ، دعك من سباتك هذا ، هيا بنا نرقص ! "

"حسنا ، يانغ . . . . " وأخذ يناديها يانغ عدة مرات وهو عاجز عن النطق باسمها كاملاً.

قرائى الأعزاء ، كيف قضيتم الساعات الأولى من ليلة رأس السنة هذه ، أيمكن أن يكون بمثل هذا الحماس والتنوع الذى قضى به مجتمع الطلاب ليلتهم ؟

لقد ودعوا العام القديم فى سعادة ونشوة ، واستقبلوا عامهم الجديد المفعم بالأمل والإشراق والبهجة . إنهم يعتزون بكل الأعياد ، وكل عيد يترك لهم أجمل الذكريات .؟ وأنتم ، يا أيها الرابضون تحت الثلوج والرياح والأنواء على الحدود وعلى الجبهات ، فى قيعان مناجم الفحم وبين أصوات الآلات التى تصم الآذان ، يا قرائى الكبار إنها سواعدكم التى تحمى شبابنا وتصنع لهم السعادة . تقبلوا خالص تقديرى وعظيم شكرى .

غير أنهناك نوعًا آخر من القراء عنده نوع من الاستهانة نحو الشعور بالوقت ، ويفتر حماسه يوماً بعد يوم تجاه هذا الوقت الذى يمضى كالسيف . لماذا يقضى رأس السنة بمثل هذه الكآبة والملل ، لماذا لا تنطلق ضحكاته ، لماذا لا يشعر بسعادة الحياة ومباهجها ؟»

قرائى الأعزاء : عمال ، فلاحون ، جنود ، موظفون . . . . . اذهبوا إلى المدارس عند الاحتفال بقدوم عام جديد ، لا تقاطعوا دعوة أبنائكم .

فهم فى كل المدارس ، يتزاحمون عند الأبواب ،يحيونكم ويرحبون بقدومكم فى مساء اليوم الواحد والثلاثين من ديسمبر كل عام .

(١٥)

انتـهى الحفل الراقص فـى الحادية عـشرة ، وتجـمعـت طالبات كل فـصل من الفصـول على حدة فى صـالة الاجتـماع ، وتجمع الأسـاتذة والطالبات والمـوظفين والعمال بالمدرسة فى " حشد كـبير " . وفى البداية يقوم كل من ممثل اتحاد الطلاب وممثل النقابة بالمدرسة بإلقاء كـلمة التهنئة . حيث قام ممثل نقابة التـعليم بإلقاء كلمته أولاً لتـهنئـة الزملاء بمقـدم العـام الجـديد ، ثم تلاه ممثل الطلاب تلمـيـذ بالمرحلة الإعدادية ، قرأ على المدرسين خطاب شكر فى صوت متهدج تشوبه نبرة الطفولة :

" أساتذتنا الأعزاء ، إنـنا ونحن على أعتاب عام ١٩٥٣ ، نسـترجع بعواطف فياضـة جياشة مـا بذلتموه علـى مـدار عـام كـامل فى سبيلنا من جـهد صـادق دؤوب . . . . . . "

ثم قرأ بعد ذلك خطاب الشكر الموجه إلى العاملين بغرفة الاستعلامات .

وفى النهـاية جاء دور الخطاب الموجه إلى الطهاة والعاملين بالمطبخ :

الرفيق العزيز كبير الطهاة ، أرجو أن تتقبلوا أسمى آيات التقدير والتحية ، لأن الأطعمة التى تطهونها ذات مذاق شهى ورائحـة فواحة، والأرز جيد الطهى ، وخبز المانتو مستدير وأملس السطح . . . . . .

وإننا فى حقـيقة الأمر لا يمكن أن نحـصى كل من يجب أن نشكرهم فى هذه المناسبة ! وبعد الانتهاء من قراءة هذه الخطـابات ، كان عقربا الساعة قد أوشكا على التطابق ، نقل الميكرفون ما يذاع فى محطة الإذاعـة ، وبعد أن أذيعت آخر مقطوعة موسيقية ، أعلنت المذيعة لمن فى الحفل قـائلة : " الساعة الآن الحادية عشرة والدقيقة التاسعة والخمسون .

فحبس المحتـشدون داخل القاعة أنفاسهم ، وأخذوا يـرهفون السمع الى دقات الساعة دا، دا ، " باقى من الزمن عـشر ثوان " ، " باقى خمس ثوان . . تن ! "

بدأ عام ١٩٥٣ ، وهلل الجميع . هناك اثنتان من فتيات الطلائع تتناقشان ، " ياه ، بهذه السرعــة ، تدق الساعة دقة فينقـضى عام ١٩٥٢ ويأتى عام ١٩٥٣ " . وبدأت المحطة تذيع النشيد الوطنى ، ووقف الجميع فى مهابة وجلال .

صعدت مديرة المدرسة المنصة لتلقى كلمتها :

"زملائى الأساتذة ، أبنائى الطلاب كل عام وأنتم بخير !

رد الجميع فى صوت واحد : " وأنت بخير ياحضرة الناظرة " .

سندت بقبضة يدها فـوق المنضدة وقالت : " إننا جميعا يغـمرنا شعور بالدفء والسعــادة ونحن نتجــمع هنا فى مثل هذه المناسـبة . إننا نشـعر أن الصـين الجديدة المزدهرة المتقدمة سوف يتم بناؤها بأيدينا نحن أنفسنا ، ونراها الآن ماثلة أمامنا . هل يعرف الجميع عن تشييد الصرح الكبـير المتمثل فى قلعة الحديد والصلب فى آنشان ؟ إن زوجى ، وربما لا ينبغى لـى أن أتحدث الآن عن أحوالى العــائلة ، (ضحكت) قد انتقل أخـيرًا من كتائب الجـيش إلى مدينة باتوه ، العائلية وأخـبرنى أنهم سوف يقميون فى هذه المديـنة مجمعًا جديدًا آخر لصناعــة الحديد والصلب ! أيها الزمــلاء والزميلات ، إنــنا لا يمكن أن نكتفى بإقامة قلعــة صناعية واحدة ، أو بنــاء مجمع واحد للحــديد والصلب ، بل يجب أن تكون عشرة ، عشــرين ، خمـــسين ، بل مائة !

ضجت القاعــة بالتعليقات المعبرة عن الإعــجاب والاستحسان ، وأخــذ الجميع يتبادلن النظرات ويرددن كلمات الناظرة . ضحكن ، لكنهن شعرن أن هذا الضحك غير كاف للتعـبير عن مشاعرهن المتأججة فرحــن يشددن على أيدى بعضهن البعض فى قوة .

واصلت مديرة المدرسة حـديثها : " أيتها الطالبـات ، إننى أغبطكن على حسن حظكن ، فسوف تشاركن فى المستقبل فى الخطة الخمـسية الثانية والثالثة ، وسيكون

لكن موقعكن الذى ينتظركن فى المصانع والمناجم والصحراء ، وفى كل مكان ! إننى أشعر بصفة خاصة فى مواجهة مـراحل البناء العظيم بفقر معلوماتى وخبراتى لدرجة تبعث على الرثـاء . إننى آمل حقيـقة أن أبدأ طالبة بالمرحلة الثـانوية من جـديد ، وأدرس الجبر والفيزياء واللغة والآداب والهندسة ، وأتعلم قيادة الجرار ، حتى أجعل من نفسى أكـثر نفعًا فى المرحلة التـاريخية الجـديدة مـن عـمر بلادى ، لكنهم لن يقبلونى إذا تقدمت لأى مدرسة ، والتفتت نحو أحد المدرسين وسألته : " هل يمكن أن تقبلونى طالبـة بالـثانوى ؟ " ضحك المدرس وهز رأسـه قائلاً " لقد مـضى زمان حضـرتك " وضجت القـاعة بالضحك ، لا سـبيل أمامى ، لا يـمكن أن أحصل عـلى نفس الظروف المواتيه للدراسة ، لكننى لن أستسلم ، سوف أعلن التحدى . لقد نسـيت معظم ما تعلمت من المعـارف فى كافة العلوم فى البيـئة المخضبـة بدماء الحـروب ، والآن علىّ أن أبدأ من جـديد . أيتـها الـزميـلات ، لتـسـد بيننا روح المنافسة، ونرى من يتعلم أكثر ومن يكون أكثر نفعًا لبلاده ! "

واختتمت مديرة المدرسة كلمتها بين الضحكات العالية والتصفيق الحار.

وهبطت من على المسرح ، وقد سرت فى وجهها حمرة قانية من فرط التأثر.

قام الجـميع بمراسم التـهنئة الجمـاعيـة بحلول رأس السنة الجديدة ، ثم اتجـهوا جميـعًا إلى المطعم الكبير لتناول وجـبة إضافية، فـوق كل مائدة طبق من ثريد الأرز الأحمر وكعكة منضوجة على البخار. دخلت مارى المطعم فى تباطؤ وتؤدة ، كانت زميلاتهـا بالفصل قد تجمعن وجلست كل مـجموعة أمام إحـدى الموائد ، فأسرعت إلى أحد الأركان وجلست على مائدة واحدة مع بعض تلميذات الإعدادية الصغار، بينما كـانت الطالبات قـد تناولن أطباقهن وبدأن فى مـلئها بالأرز الأحـمر، طرقت رئيسة جماعـة الترفيه على طبق الخضار وقالت فى صوت عـال: "أيتها الزميلات ، لقد اختارت جماعة الترفيه إحدى الطالبات لتقوم بدور كبير الطهاة وتعد هذا الطعام بنفـسهـا ، وذلك من أجل توفيـر الراحة اليـوم للرفاق الـطهاة العـاملين بالمطعم ،

وتمكنت من صنع هـذا الطعـام ، أرجو لكن طـعامًـا شـهـيًـا، ثم تطرحن آراءكن وتعليقاتكن على هذا الطعام" .

بدأت عِصِـى الطعـام تداعـب الأطـبـاق ، ورددن فى أصـوات مخـتلطة : " شكرًا " ، انتهين من الأكل على وجه السرعة ، بينما أحنت مارى رأسها وراحت تقرأ فى نفسها تراتيل ما قبل الطعام ،ويدها ترسم الصليب.

اقتـربت عضوات فـريق الطلائع الجالسات مـعها من حافـة المائدة، لم يتناولن الطعام، بل دفعهن الفضول إلى مراقبة تصرفاتها الغريبة ، وفى النهاية فهمت إحدى التلميذات الصغيرات ، فهـمست إلى زميلتها فى فريق الطلائع قائلة : "الرب ،إنه الرب ! " وأخذت كل الفتيات يهمـسن في آذان بعضهن البعض . ظلت مارى تقرأ فى نفسها تراتيل الإنجيل فى شىء يدعو إلى الغرابة والتعجب ، ولم تطق التلميذات الصغـيرات صـبرًا فـانفجرن فى الضـحك . قالت إحـدى التلميـذات الصغـيرات المهرجـات في صوت خفـيض : "لقد قال الرب إنكن جـميعـا "أبنائى" . وقامت أخـرى بإخـفاء الطـبق والعصى الخـاصـة بمارى وهى تؤدى التـراتيل. رأت مـارى وسمعت كل ما يدور حـولها ، وبعد انتهائها من التبـتلات لم تجد الطبق والعصى. رمقت الصغـيرات المهرجات الـلاتى تـشـاركنها فى الجـلوس على نفس المائدة بنظرة من طرف بصرهـا ، ولم تنبس ببنت شفـة ، وانطلقت خارجة من المطـعم الغضب يكاد يفتك بها وهى تغالب دموعها.

شعرت فتيات الطلائع الصـغيرات فى بداية الأمر بشىء من الغرابة والدهشة ، وأردن الضحـك والمرح ولم يقصدن إغـضاب مـارى التى نظرت إليهن قـبل أن تهم بالانصـراف والشرر يتطاير مـن عينيـها. قلبت الفـتـيات الموضـوع من كل جوانبـه فاكتـشفن وقوعهن فى خطأ ، أما الفـتاة التى كانت قد خبـأت طبق وعصى مارى، فقد دفنت وجهها بين كفيهـا وانخرطت فى البكاء ، اصطحبت كبرى هؤلاء الفتيات

تلك التلميذة الباكية من يدها وذهبت تبحث عن يوان شن تشى رائدة الطلائع ، اقتربتا منها وقالت: "حضرة الرائدة ، حدث شيء مؤسف ! "

رأتهما يون شن تشى على هذه الحالة ، فانتفضت من مكانها وسألتهما فى الحال عما حدث . أجابت التلميذة الصغيرة التى مازالت تبكى : "لقد تسببت فى غضب الرب، . . . . . . لا ، بل فى غضب زميلة كانت تردد التراتيل حتى إنها انصرفت من المكان ! "

"زميلة تردد تراتيل الإنجيل ؟ من هى ؟ "

"نحن . . . . لا . . . . نعرفها ، إنها . . . . أكبر منا ، يبدو أنها إحدى طالبات فصلكن . "

أعملت تشن بوا ذهنها وردت : "إنها مارى " . ثم نظرت فيمن حولها فلم تجد مارى بين طالبات الصف الثالث ولا فى أى مكان آخر ، وبعد أن سمعت تفاصيل ما حدث قالت ليوان شن تشى : "نعم، هى مارى ، سوف ألحق بها . "ثم ألقت عصى الطعام من يدها وانطلقت إلى الخارج غير مبالية بنداء يوان شن تشى عليها. . .

بحثت تشن بوا عنها فى فصلها أولاً ، الفصول والقاعة يلفها الظلام حيث تركها الجميع وذهب إلى المطعم . فكرت فى نفسها أن مارى فى أغلب الأمر قد عاودت أدراجها إلى بيتها وانطلقت نحو بوابة المدرسة.

وقفت عند الباب فلم تر أثرًا لإنسان ، تذكرت تلك المرة التى شاهدت فيها الطريق المؤدية إلى بيت مارى ، أخذت تجرى فى هذا الطريق ، الرياح تهب عاصفة من الشمال، الجو قارس البرودة وقد انطلقت من المطعم وهى لا ترتدى سوى سترة خفيفة من الصوف، البرد الذى ينفذ فى العظام يلفح وجهها لفحا ، ضمت ساعديها

إلى صدرها وأطلقت ساقيهـا للريح ، وعندما وصلت إلى الشارع الرئيسى شاهدت ظل شخص من بعيد، نادت بأعلى صوتها : "مارى! توقف الظل لحظة عاود السير من جديد ، تبعتها تشن بوا وقد تقطعت أنفاسها حتى تمكنت أخيراً من اللحاق بها. ونادت : "مارى" ، فتوقفت عن السير.

أمسكت تشن بوا بذراع مارى التى تكـاد تتجمد وقالت "كيف تمشـين وتتركين الحفل ؟"

ردت مارى " أصابنى التعب والإجهاد"

"أعرف أن بعض الزميلات الصغيـرات قد تكلمن عنك فى غير أدب ولياقة" . لكنهن مازلن صغيرات ولا يقصدن شيئا ، هل غضبت منهن حقا؟"

وواصلت تشن بوا : "كـيف لك أن تغضـبى ونحن نعيـش أولى ساعـات عام ١٩٥٣ ، وكيف تخرجين وتغـادرين الجماعة؟ بعد انتهـاء هذه الفقرات هناك الحفل العام للمدرسة كلها. ياله من عام جديد سعيد . . . . "

تحسست مارى مـلابس تشن بوا وشاهدت وجهها المتجـمد من البرد ، ونظرت فى عينيها اللتين تحملان كل معانى الود والصداقـة فشعرت أنها فتاة طيبة ذات معدن أصيل ، وأحست بإحساس لم تجربه من قـبل ، إنه تعاطف واهتمام وروح الصداقة التى لا تقدر بثـمن ، ومن ثم أرادت أن تعبر لهـا عن امتنانها ، إلا أنها اسـتدارت دون أن تتكلم متجـهة نحو المدرسة فى صـمت متقدمة على تـشن بوا التى سعدت بعودتها إلى المدرسة لدرجة أنستها برد الشتاء القارس.

أخذت تـشن بوا مارى من يدها وتزاحـمتـا إلى إحدى الموائد لتناول الطـعام. وأسرعت التلمـيذات الصغـيرات من أعضـاء فريق الطلائع - كـما طلبت يوان شن تشى منهن - بالاعـتذار إلى مـارى ، وردت عليـهن مارى فى صـوت خفـيض ،

"متأسفـة" . وأخذت الزميلات الجالسات إلى نفس المائدة يتسـابقن فى تقديم حساء الأرز إلى تشن ومارى ، وخلعت يوان شن تشى معطفها القطنى ووضعته على كتفى تشن بوا.

وما إن هدأت تشن واحتـست رشفتين من الحساء حتى سـمعت صوتًا ينادى : "تشن بوا موجودة؟ هناك شخص جاء يبحث عنها !"

خرجت تشن وفى صدرها شىء من الضيق . من ذا الذى يبحث عنى فى مثل هذا الوقت ؟ هل عاود المرض أمى من جديد ؟ وخفق قلبها بين ضلوعها.

وصلت إلى بوابة المدرسـة ؛ فشـاهدت شابًا طـويل القامـة يقف مسـتندا إلى دراجته فى منطقة شـبه مظلمة ، كأن ذلك الشخص لم تعجبـه الأضواء المتلألئة من الفوانيس الكهربائية الحمراء المعلقة على بوابة المدرسة وتعمد أن يختبأ فى الظلام .

تعرفت عليه تشن بوا وصاحت فى لهفة ودهشة : "تيان لين !"

دفع الدراجة أمـامه وتقدم نحوها يسـاوره شعور بالخجـل ، بينما تنعكس على عدسات نظارته أشعة أضواء الفوانيس الحمراء.

" كل سنة وأنت طيب ! "

"وأنت طيبة !"

" إنه شىء رائع منك أن تـأتى لزيارتى فى مـثل هذا الوقت ، "قـالتـهـا فى سذاجـة وبراءة ، وبدا أن هذا الكلام يحمل معنـى التساؤل، لكنه فى الوقت نفـسه يعبر عن شكر عميق .

"جئت أبـحث عنك ، وكان أشـد ما أخشـاه ألا أجدك ، أو ربما تكـونى قد خلوت إلى الراحـة ، أو لا تسمح لى الاسـتعـلامات بزيـارتـك فى هذا الوقـت المتأخر . . . . . "

"ماذا تخشى ، ها قد وجدتنى ، ها أنذا ماثلة أمامك . "

قال : "لقد أحضرت لك هدية بسيطة تهنئة بقدوم العام الجديد. " راح يتناول حقيبة معلقة فى مقود الدراجة ويخرج منها أربع حبات كبيرة من الطماطم .

تساءلت تشن بوا وهى تضحك "طماطم؟ طماطم فى الشتاء؟"

"هل تذكرين عندما كنا نأكل الطماطم معًا فى عام ١٩٤٨ ؟ عندما كنا نناقش الخطوط العريضة لقانون الأراضى ، فى الجماعة الفرعية لتحالف الشبيبة الديمقراطى، لقد تناولت عدة حبات من الطماطم وأنت تقولين : أحب الطماطم حبًا جمًا. حتى إننى أود أن آكل منها نصف كيلو كل يوم .لكنها يا للأسف لا تزرع فى فصل الشتاء ، ولذلك أهدى إليك الطماطم مع بداية الساعات الأولى من عام ١٩٥٣ م . "

"من أين أتيت بالطماطم فى الشتاء؟"

"فى فصل الشتاء توجد أيضا بعض المناطق الدافئة التى تزرع بها الطماطم"

قالت تشن بوا وقد غمرتها السعادة : "حقيقة ، إنك شاب رائع. أهدى تيان لين إلى تشن بوا أيضًا شارة الطلائع ، وكان قد حصل عليها كهدية عندما كان جنديًا فى المناطق الوسطى والجنوبية وقام بوضع هذه الشارة على صدرها . أحنت تشن بوا رأسها ونظرت إلى الشارة ثم نظرت إلى تيان وأمسكت بإحدى حبات الطماطم وقضمت منها قضمة كبيرة.

وسألته : "كيف قضيتم رأس السنة؟ وأين استقبلت مطلع عام ١٩٥٣ م "

رد تيان لين ، وقد انفرجت أسنانه عن ابتسامة لا تخلو من الدهاء: " فى الشارع ، إننى عند ساعة الصفر كنت أركب دراجتى وأجرى بها فى الطريق ، كنت أسابق الريح ، تحركت من عندى فى عام ١٩٥٢ ووصلت إليكم فى عام ١٩٥٣ "

قالت تشن بوا فى تأثر بالغ للمرة الثالثة : "يالك من شاب رائع"

كـانت صالة الـطعام فى ذلك الوقت تعج بكل ألوان الهـرج والمرج ، وعندما كانوا على وشك الانتهاء من تناول حسـاء الأرز ، أعلن رئيس نقابة التعليم بالمدرسة أن المدرسين قد اشتروا بضعة آلاف من كعك رأس السنة [1] ، وأنها مازالت فى الماء المغلى ، وطلب من الجمـيع عدم الانصراف وأن ينتظرن لـتناول الكعك، وقد ألهبن الطالبات أكـفهن بعاصـفة من التصفـيق الحار احتـفاء بهذه الهـدية غير المتوقـعة . وأخـذت كل مجـموعـة تجلس إلى مـائدة واحدة تتـبـادل الأغانى انتظارًا لوصـول الكعك. هذا الفصل يطلب الغناء من ذلك الفصل والطالبات يطلبنه من المدرسين ، وهناك من ينادى على طالبة باسـمها ويطلب منها تقديم منولوج أو رقـصة منفردة. وأخذن يتبادلن التهنئة بالعام الجديد بين موجات الصياح وأصوات الغناء .

قامت تشوشيـا ولينغ بمصافحة سونينغ قائلة : "أهنـئك على أن عمرك قد ازداد عامًا ! "

ردت سونينغ : "وأنا أهنئك أيضا على نفس الشىء !"

ثم فكرت سونينغ وقـالت : "لا ، غير صحـيح ، إننا حسب قواعـد الحساب الحديثة يجب أن ننتظر حتى يأتى يوم عيد الميلاد حتى يمكن القول إن العمر قد ازداد عاما"

قالت تشوشيا ولينغ فى حيوية : « لا بأس ، إننا نتبادل التهنئة مسبقا؟ "

هنأت يوان تشن زمـيلتها لـى تشون قائلة: "أهنـئك متمنيـة لك أن تكون كل أمورك على خير ما يرام" .

فكرت لى تشون لحظة وعاجلتـها : "وهل كانت المسرحيـة ذات الفصل الواحد على ما يرام؟ . "

(١) عبارة عن كريات معجونة من دقيق الأرز ومحشوة باللحوم وما يشابهها وتنضج فى الماء المغلى .

يانغ تشيانغ يون تعدو وتروح هنا وهناك، وتوزع التهانى فى كل مكان . هنأت وونشانغ فـو قائلة : "أتمنى أن يزداد شـعرك كثـافة كلمـا ازداد طولاً " . (وكانت وونشانغ فو كثيراً ما تشـكو من سقوط شعرها عند غسله) ، وهنأت يوان شن تشى قائلة : " أتمنى أن تزدادى تألقًـا وجمالا بمرور الأيام" وهنأت سـونينغ قائلة : "أتمنى لأخيك مزيدًا من الصحـة والعافية !" وعندما يقع بصرها علـى أى أستاذ تهنئه فى جرأة وشجـاعة: "أهنئك يا أستاذى ، وأتمنى أن تكون حيـاتـك ربيـــعا دائما ! "

. . . .

"أهنئك ! "

"أهنئك !!"

"أهنئك !!!"

(١٦)

تلقت يانغ تشـيـانغ طرداً بريديًا وخطابًا فى أول أيام العـام الجـديد، الطرد به كتاب جديد حديث النشر يصف مساندة كوريا فى حربها ضد أمريكا بعنوان "الجبال والأنهار على أراضى كوريا " . والخطاب الذى أرسله لها تشانغ شى تشون يقول :

عزيزتى يانغ تشيانغ يون:

أهدى لك هذا الكتـاب تهنئة منـى بقدوم العـام الجديد ، وهدية مكافـأة على سرعتك الفائقة في التزحلق على الجليد، هل تعتقدين أننى كان بمقدورى اللحاق بك فى ذلك اليوم؟ هيهـات ! إننى أعلم أنه إذا أراد شخص ألا يطارده الآخرون ، فلن يلحق به أحد مهما كان .

إن حياتى الجامـعية تمضى على أحسن حال. غيـر أن هناك أمرين لست راضيا عنهمـا : الأمر الأول : أن الدراسة ليست بالصـعوبة التى سمعنا عنهـا ، حيث كنا ونحن فى المرحلة الثانوية نسمع الآخرين يقولون " إن الدراسـة فى الجامعة صعبة ، أصعب من الصـعود إلى السماء" ، ولقـد استعددت جـيدا وفكرت فى تجهيـز عدة الحرب أو الاسـتعداد للقتـال وجها لوجـه بعد دخول الجـامعة ، غيـر أننى وجدت الدراسـة عادية ولا تتطلب أن أخـرج كل ما فى جـعبـتى ، الأمر الثـانى : هو أن الوقت المخصص للنوم طويل للغاية ، ثمانى ساعات ونصف الساعة منذ أن تخفض الأضواء حتى النهـوض من النوم ، وغير مسـموح بالتأخير فى النـوم أو التبكير فى الاستيـقاظ . بينما تكفيـنى خمس أو ست ساعات نوم فـقط وفقا لحالتى الصـحية والبدنية . وإننى (وفقا لما قـيل عن الإمبراطور الروسى العظيم بيدا داد وإنه كان ينام أربع سـاعـات فقـط يومـيًا وعـاش عمـراً مديداً) لا يغـمض لى جفن فى المـساء فأضجع فى الفـراش أفكـر فى حل المسائل وأحفظ أبيات الشعر .

ماذا تخططين لنفسك مع بداية عام جـديد ودخول البلاد فى مرحلة من التطور والتقـدم؟ إننى أقتـرح عليك دراسة الأدب ؛ حـيث إن لك أسلوبًا مـثيـرًا فى سرد القـصص والأحداث. إننى أرى أنه يـنبغى عليك فـى هذا العام الجـديد أن تدرسى إحدى الآلات الموسيـقية ، وتتعلمى رسم المناظر الطبيـعية، وتطالعى خمسـين قصة على الأقل ، وذلك علاوة على المذاكرة الجيدة للمـواد الدراسية،وفى مجال الرياضة يمكن أيضا تعلم التزحلق على الجليد فى قفزات رشيقة مثل قفزات عصفور السنونو على سطح الماء، وألا تكون مثل الكلب الضال الذى يهيم على وجهه .

يمكنك بطبيعـة الحال ألا تفكرى فى اقتراحاتى هذه . لكنى أرجـو ألا تعتقدى أنها مستحيلة التنفيذ ! فالحياة عمل وكفاح !

سوف توافقين على هذه الاقتراحات عندما تقرأين الكتاب

التوقيع

تشانغ شى تشون

قرأت تشيانغ يون هذا الخطاب عدة مرات فـى نشوة وسعادة ، قرأته أيضًا على بعض الزميلات . قالت يوان شن تشى: " حقيقة، إنه شاب مستميت" شعرت يانغ تشيانغ يون بالرضا التام عن هذه الصفة وأخذت تفكر فى قدرات تشانغ شى تشون، ثم تذكرت زميـلاتها فى الدراسة ، وشعـرت أن الشباب لديهم الكثيـر من المميزات التى لا تتوفر للفتيات.

كتبت خطابا ردا على رسالة تشيانغ ، استهلته بكلمة : "أيها المستميت المحترم . . . . "

لم تنته بعد من كتـابة الخطاب ، طالعت اسم الرواية "كيف تصلّب الحديد" . وما أن رات هذا العنوان حـتى شغفها حب الـرواية ، إن فضولها يثور دائـما عندما تقرأ كتابًا أو تقوم بعمل شىء ، فما بالك بمثل هذه الرواية القيمة! عادت إلى البيت

بعد ظهر أول أيام العام الجديد، لم تتحدث مع أفراد الأسرة ، بل انكبت على هذه الرواية ، واصلت قراءتها حتى منتصف الليل ، انتهت من قراءة أكثر من نصفها فى نفس اليوم.

"كيف تصلَّب الحديد" ، هذه الرواية يبدو أنها لاقت صدى كبيرا فى نفسها ، شخصيات الرواية يدب فيها النشاط والجدية ، تفيض بالحماس ونقاء السريرة وإنكار الذات وهذه هى المثاليات عند تشيانغ يون. وفى مساء أول أيام العام الجديد، راح كل أفراد الأسرة يغطون فى نوم عميق ، بينما ظلت هى تطالع الرواية ، تفجر فى نفسها نوع من الأمل ، تمنت لو تركت عنبر النوم الضيق والفصل الدراسى الصغير وانطلقت إلى ساحة النضال الملتهبة بالحماس لتعيش حياة عظيمة تختلف تمامًا عن الحياة الطلابية.

جاءت حصة المراجعة ولم تكن قد انتهت من قراءة الرواية فاستمرت فى قراءتها فى وقت الدراسة الحرة. وعندما جاء الأستاذ يوان يتفقد دراستهن الحرة ، قال لها : "إن الزميلة (يقصد تشن بوا) تغلبت على كل الصعوبات واستجمعت كل قدراتها من أجل المراجعة ، فكيف لك تطالعين هذه الرواية فى حرية واسترخاء ؟ أغلقت تشيانغ يون الكتاب دون أن ترد ، وقالت فى نفسها : ألا يمكن أن أطالع كتابًا من القراءات الخفيفة؟" .

كانت قد انخرطت فى قراءة الرواية ، ونسيت إتمام الرسالة التى ترد بها على تشانغ شى تشون، ثم انشغلت بعد ذلك فى المراجعة ، وقالت فى نفسها لا داعى للاستغراق مرة ثانية فى كتابة الخطاب ، ولم ترد على تشانغ.

* * *

توفيت أم تشن بوا فى ثالث أيام العام الجديد ، فى جوف الليل شعرت الأم باضطراب فى القلب، وعدم انتظام التنفس ، وتنميل وخدلان فى الأطراف ، نزلت من الفراش لتنادى من يسعفها ، وما إن تحركت حتى سقطت على الأرض ، سمعت زوجة خال تشن بوا أصوات الأم فأسرعت إليها ، كانت قد راحت فى

غيبوبة ، أخذت تدور حولهـا فى فزع وارتباك ، وأخيرا طلبت بوليس النجدة الذى ساعدها فى نقلـها إلى المستشفى حـيث حجزت هناك. قال الطبيـب إنها تعانى من أزمة قلبية حادة، وطلب إحضار أقـاربها . أسرعت تشن بوا بالحضور ، كانت الأم قد سـاءت حالتـها ،الأنفاس تـخرج ولا تعود ، فـتحت الأم عـينيهـا عن آخرها ورمـقت تشن فى قلق وحـيـرة دون أن تتكلم ، قـالت زوجـة الخـال لتـشن بوا : "تكلمى بسـرعة ، دعى أمك تطمـئن ، دعيـها تسـتريح وتغـمض جفـونها . . . . " قاومت دموعها، وقالت وهى تئن : "أماه ، أنا صغيرتك بوا ، استريحى يا أماه " . زادت أنفاسـها اضطرابا وقالت فى نبرات مـتقطعة : "إن . . . . أمك لن . . . . ترعـاك . . . . من بعـد . . . . الزعيم ماو . . . . سوف يرعاك. "هدأت لحظة ثم قالت فى ألم ومـرارة " حـتى . . . . النفس . . . . أصـبح . . . . عـزيزاً" . ثم أطبـقت جفنيها ، وتحدرت دمعتان من مقتلتيها .

* * *

أمى ، أمى الحبيبة كيف وافتك المنية مبكرا . . . .

أمى ، لشد ما تحبين ابنتك ، ولشـد ما تحبك ابنتك . إن أول شىء أتذكره فى حياتى ، هو أننى رأيت فى منامى ذات ليلة قطين أسودين كـبيرين ففزعت ونهضت من نومى خوفا . وعندئذ رأيت ذراعيك الحـانيتن تضمان رأسى فى حنو وعطف ، فذهب عنى كل خـوف ، فهكذا البنت لا تخـشى شيئـا فى الوجود ما دامت أمـها بجوارها. وأتذكـر أيضا عندمـا مات أبى ، جاء زمـيله مهرولاً يقـول إنه مات تحت عجـلات سيـارة جيب أمريكـية ، خيم عليك الذهـول وتجمدت فى مـوقفك غـير مصدقة، ولما أعـاد ذلك الزميل كلامه سقـطت على الأرض مغـشيا عليك . طلب زميل أبى أن أفيقك بسرعـة ، انحنيت إلى جوار أذنك ، وصحت بأعلـى صوتى : " أمى ، أنا صغيـرتك بوا " تماما مثلما طلبت منى زوجة خـالى أن أفيقك فى هذه المرة . آنذاك كنت تفيقين ، أما هذه المرة . . . . .

بعد ذلك دب فى جسدك الضعف والهزال ، وغارت عيناك ، واخشنت يداك، وتورمتا ، كنت كل يوم تغسلين وتنشرين عشرات القطع من الملابس ، حتى ظهرت البرابيق فى جلد أصابعك الخشنة الحمراء كحمرة الجزر ، وبدت التشققات كثيرة عميقة فى ظهر يديك. قلت لك : أمى ، اشترى قليلاً من زيت البشرة وأمسحى به ظهر يديك ، فضحكت من القلب ورددت : " لا ، نوفر الفلوس لنشترى بها مكرونة نأكلها " .

وقد كنت دائما غير مطيعة لك عندما تطلبين منى أن آكل المكرونة .

فقد كنا ذات مرة نأكلها معًا ، وغرفتى لصغيرتك شيا وطبقا من الإسباجتى ، ثم سكبتِ عليها الخل الذى جاء أكثر من اللازم ، وعندما تذوقتها أحسست بطعمها اللاذع ، وصرخت بصوت عال ، أسرعت تهدئين من روعى ، وسكبت كل طحينة السمسم فى طبقى حتى تزيلين منه المذاق الحامض اللاذع ،ثم تذوقت وأطلقت ضحكة مجلجلة وولت : " غير لاذع ، ورائحته طيبة " غير أننى لم أتناولها ، بل أخذت فى البكاء . . . . . . لكن كيف أتت هذه المكرونة ؟ أذكر ذات يوم أن جاء رجل يقول إن أبى كان يداينه بدين قبل أن يموت . . . . . .

وقد كنت غير مطيعة إلى حد بعيد .

بعد التحرير ، تغيرت ،أبصرت طريقى ، أصبح لى صداقاتى وحياتى الخاصة، أرفض خوفك وقلقك علىّ ، وأعجب أننى ما زلت فى عينيك الطفلة الصغيرة ، لكن هل يمكن للابنة ألا تظل الطفلة الصغيرة فى عينى أمها ؟ .

أماه، أصفحى عن ابنتك يا أماه ، إنها تحبك حبا جما ، لقد شغلت عنك ، لكنك كنت دائما ملء قلبى وعقلى ، كنت عندما أرى التجاعيد تزداد فى جبهتك يوما بعد يوم ، أتمنى أن تنأى عنك هذه التجاعيد وتنتقل إلى جبهتى أنا ، كنت أفكر فى رعايتك فى المستقبل كأحسن ما تكون الرعاية ، لكنك رحلت ولن أرعاك،

في هذه السنوات اقتربت من كل الناس، لكن لم أقترب من أمى ، لقد كانت أوقات قليلة تلك التى جمعتنا معًا.

مازال عندى الكثير لم أحدثك به . كيف أتعلم، كيف ألعب ، من هم أصدقائى، كيف يعدون لنا الطعام فى المدرسة ؟ كل ذلك لم أحدثك عنه. لكن كيف يمكن للأم ألا تهتم بكل أمور ابنتها هذه ؟ هكذا ، حتى عندما كنت على مشارف الموت ، لم يمهلنا القدر لنتحدث معا حديث القلب إلى القلب. . . .

يوم لم تطلع له شمس ، السماء ملبدة بالسحب والغيوم، دفنت تشن بوا أمها. وشارك فى مراسم الوداع مأمور القسم ونائبة رئيسة جمعية المرأة، كانت أم تشن بوا قبل أن تتدهور صحتها تساعد قسم الشرطة وجمعية المرأة فى أداء كثير من الأعمال. أخذت يانغ تشيانغ يون وعدد آخر من الزميلات إجازة وذهبن إلى هناك . ولحقت بهن خوان لى تشينغ بعد أن أخبرتها تشن بوا بوفاة أمها ،لكنها لانشغالها بأمر ما سارعت بالعودة قبل انتهاء الجنازة.

وبعد ظهر ذلك اليوم ، أقامت الزميلات - بناء على مبادرة من اللجنة الفرعية لمنظمة الشبيبة - مراسم حفل تأبين متواضع لأم تشن بوا ، علقت كل طالبات الفصل على صدورهن الزهور البيضاء . لم تتوقف سونينغ عن البكاء ، دموعها أكثر انهمارًا وتدفقًا من تشن بوا . ومارى تربت على يدى تشن وقد جلست بجوارها ذاهلة. تشيانغ يون تقطب حاجبيها . ووتشانغ فو تنظر ذات اليمين وذات اليسار ويعلو وجهها شحوب واصفرار.

ترأست يوان شن تشى حفل التأبين . وبعد أن وقفت لحظة حداد قالت :

"إننا نعيش داخل أسرة كبيرة، ويجب أن نشارك أصدقاءنا أفراحهم ونشاطرهم أحزانهم. لقد وافت المنية أم تشن بوا ، وهى بطبيعة الحال فى غاية الحزن ، ونحن لسن أقل حزنا منها. لقد ذهب بعضنا إلى بيت تشن بوا وشاركنا فى وداع أمها الودودة الكادحة. . . . . . . ".

عندئذ ، لم تستطع يوان الاستمرار، وخيم السكون على الفصل ، ولم تسمع سوى دقات عقارب ساعات بعض الزميلات" تن ، تن . وبعد لحظة استجمعت يوان أفكارها ولملمت شتات نفسها واستطردت تقول "نأمل ألا يستبد الحزن بتشن بوا ، وألا يؤثر على حالتها الصحية . إنها إحدى زميلات فصلنا الطيبات ، ولم تضن علينا بالعون والمساعدة فى كل المجالات ، كلنا نحبها ونتوق إليها " .

جلست يوان شن تشى، وأجهشت سونينغ فى البكاء بصوت مسموع.

قالت تشن بوا : "لا تبكى يا سو " . وتحرك حلقها كأنها تبتلع شيئا ما ، ثم قالت فى صوت خفيض : "أشكركن جميعا على حضوركن هذه المناسبة . لقد رحلت أمى ، ولم يعد لى من أهل لكنكن جميعا أهلى.

« إن أمى لم تكن من النساء الثوريات، لم تزد عن ربة بيت عادية ، لكنها كانت طيبة القلب، صادقة، مخلصة، أمينة، لم تفعل قط شيئا يسىء إلى الآخرين: تحملت طيلة حياتها صنوفًا شتى من المشاق والصعاب، وعندما تحررت البلاد اعتلت صحتها ولم يمهلها القدر لتعيش فى المجتمع الجديد ، لذلك أشعر تجاهها دائمًا بالأسى فقد أمضت حياتها تكافح من أجل المأكل والملبس ،من أجل ابنتها ، تشقى ، تكدح ، تتعب ، ثم رحلت.

لم تبرح مقاطعة خابى طيلة حياتها. درست المرحلة الابتدائية، لكنها كانت قلما تطالع كتابًا ، فمن أين لها بالوقت ؟ وأين المعنويات التى تسمح لها بالقراءة فى ذلك الوقت ؟

كنت أشعر بالتقصير فى حق أمى خاصة عندما نتجمع أنا وزميلاتى ونقضى معا وقتا ممتعا ، أليس من حقها أن تسعد هى الأخرى ؟ لكن حياتها . . . . لا حاجة الآن إلى الكلام ، إنها لا يمكن أن تعود إلى الحياة من جديد" . وانطلقت

فجأة من عينيها الساهدتين نظرات حـادة كأنها تنذر بالثأر ، وقالت : ماذا أفعل بعد ذلك من أجل تخليد أمى ، من أجل إحياء ذكرى حياتها المريرة ؟ يجب أن أعيش ! إننى آمل أن يعايش الفرد قضايا الجماعـة ، وأن يعيش الفرد حياة الجماعة ! وبذلك يمكن لأمى - إذا علمت بذلك - أن تقـر عينا وتقول : " لقـد كانت حـياتى وأبناء جيلى مفعمة بالمرارة والأسى ، لكن الجيل التالى يعيش حياة كريمة وذات قيمة ! .

توقـفت سونينغ عن البكاء ، وأخـذ الجمـيع يسـتمع إلى تشن بوا فى صـمت وسكون. شعرها منكوت ومبعثر ، تحيط بعينيها هالة سوداء، بينما رفعت هامتها فى شموخ وكـبرياء. شعرن جـميعا من كـلامها أن لديها القـوة التى تهزم كل الظروف وتتخطى كل الصعاب. انتقلن من "الموت" إلى "الحـياة" ، من مآسى ومرارة الجيل الماضى إلى التفكيـر فى حياة أبناء جيلهن ورسـالتهم التاريخية، وشـعرت كل منهن بقلبها الذى يسـتعر حماسـا يكاد يقفز من بين ضلوعها . أخـرجت سونينغ منديلاً وأخذت تمسح الدموع التى أغرقت وجهها .

وبينـــما كـانت الزميلات على وشك الانـصراف ، جاء الأستـاذ يوان ، سأل تشن بوا عن البيت وعن أحوالها الصحية. أجابت بأنها انتهت من ترتيب البيت وأن صحتهـا مازالت طيبة، وليس هناك ما يدعو إلى القلق . وأخـبرها الأستاذ يوان أنه اتصل بقسم التوجيه والإشراف واتفقا على أنـها يمكن أن تؤجل امتحان نهاية الفترة على أن تؤديه بعد إجازة الشتـاء . ردت تشـــن من فورهـــا : "لا داعى للتـــأجيل يا أستاذ، يـمكننى أداء امتحاناتى كـالعادة " . هز الأستاذ يوان رأسـه وقال "أعرف أنك ذات عزيمـة قوية ، ولكن لا تتعـجلى ، ولتستـريحى بعض الوقت . طالبت تشن بإلحاح بأن تؤدى الامـتحانات مع زمـيلاتها . توسلت إليـها زميلاتهـا : "لقد تغيبت عدة أيام ، يمكن أن يؤثر ذلك على نتيجتك" .

عضت بأنيابها على شفتهـا السفلى وهى توضح قائلة : "ما لم تعرفوه عنى ، أننى كلمـا ألم بى خطب ، ازدادت عـزائمى ، ولن تهـدأ نفسـى إذا لم تتركـونى لدراستى وامتحاناتى .

بعد هذا القول ، وافق الأستاذ يوان وقال لها:

"يمكنك الحـضـور إلىّ فى أى وقت إذا واجـهـتك صـعوبـات فى مراجـعـة الدروس.

رحبت تشن بوا وانصرف الأستاذ يوان.

تسابقت الزميلات لكتـابة الدروس التى لم تحضرها تشن ، كأن كل منهن ترى سعادتها فى أن تقدم لها بعض المساعـدة. رفعت تشن غطاء درج كتبها فى تأثر بالغ لتخرج دفاترها ، وشمرت الزميلات عن سواعدهن ، ماهى إلا لحظات وينتهين من تكملة الدروس الناقـصة . لكن لا توجـد الدفـاتر ، اندهشت تشن بوا، أيمكن أن أكون فـقدتها فى مكان مـا ؟ مستـحيل ، لأننى عندمـا أسرعت إلى المستـشفى فى منتـصف الليل هذه المرة لم آخذها مـعى . فى ذلك الوقت تقدمت مـارى وأعطت الدفاتر لتشن بوا ، وقالت لها : "إن مسـتواى الدراسى ليس جيدا،وليس بمقدورى أن أقدم لك مساعدة تذكر، وإنى أعتذر لك إذ قمت قبل أيام-دون إذن منك - بأخذ دفاترك ،وسجلت نيابة عنك الدروس التى لـم تحضريها. " تأثرت تشن لذلك تأثراً بالغا، إنهـا مارى التى سجلت لهـا دورسها ! وهذا أكـثر شىء أسعـدها ، وقالت الزميـلات "حقا ، إن مـارى زميلة عظيمـة " .ابتسـمت مارى وانتحت جـانبا فى صمت.

وفى اليـوم التالـى ذهبت تشن تبـحث عن مارى : "أتوافـقـين على أن نراجع دروسنا معًـا ؟ أومأت مارى بالإيجاب ، وسـألت تشن فجأة: " هل تشـعرين أننى متبلدة جـامدة المشاعر ؟" ردت تشن : «مشاعـرك حماسية ومتـوقدة ، لكنك كأن

ثمة حجر طاحونة ضخم يجثم على صدرك ، تمتمت مارى ثم قالت : "أحب أن أراجع دروسى ، أحب الجلوس معك " .

وأثناء مراجعة الدروس ، كانت زميلات كثيرات تنصحن تشن بوا ، استريحى قليلا ، حتى لا تتوتر أعصابك ، فكانت تشكرهن على اهتمامهن وتواصل المذاكرة . وكلما طالبتها الزميلات بالراحة ، ازدادت عزيمتها على العمل . تشعر بسهولة فى مراجعة دروسها ، فقد ظهرت الآن ميزة انتباهها إلى الشرح أثناء الحصة ، هناك كثير من الدروس استوعبتها تماما دون الحاجة إلى مراجعة خاصة ، ثقتها فى نفسها كبيرة فى مواجهة الامتحان .

اندهشت زميلتها مارى التى تراجع معها ، سألتها : " ماذا حدث لك ، أتستطعين فى مثل هذا الوقت وهذه الظروف أن تذاكرى بهذه الجدية ؟ " .

أجابتها تشن بوا : " هل ما زلت تذكرين كلمات حضرة الناظرة فى حفل ليلة رأس السنة ؟ إن بلادنا تتطور بسرعة ، وهذه السرعة تتطلب الاستعداد ، وتدعونا إلى التحفز ، فكيف لى أن أستكين ؟ " .

(١٧)

كانت عزيـمة بوا فى مراجعـة دروسها درسًا لكل زمـيلاتها ، فبذلـن قصارى جهدهن فى المذاكرة . طوت تشيانغ يون الرواية وما لبثت أن استغرقت فى الدراسة. وحدث تقدم فى المستوى فى امتحان هذه المرة عن سابقتها .

وبذلك انتهى نصف العام الدراسى الأول ، وبدأت إجازة الشتاء .

وانتهت تشيانغ يون من قراءة كتاب كيف تصلّب الحديد" .

فى اليوم الأول من الإجازة . . تأثرت به تأثرا شديدا ، وشعرت بوجود رابطة بينها وبين شخصيات الكتاب ، رشحت هذا الكتاب لتقرأه سونينغ ، وقالت لها فى لهجة تجـمع بيـن الأمـــر والرجـــاء : " اقرئى هذه الرواية من فضـلك ، أتعرفين كم هى رائعة ! كيف لك لا تقرأين مثل هذه الرواية ؟ لابد أن تطالعيها !

وبعد أسبوع ، ذهبت تشيانغ يون إلى بيت سونينغ فى وقت الظهيرة ، تريد أن تستطلع أحوال قراءة سو للرواية .

إنها الدادة تشاو التى تفتح الباب لتـشيانغ يون ، لكنها لم تقـــل هـــذه المـــرة " الآنسة " قاصدة سونينغ ، بل سألتها : " حـضرتك تريدين . سونينغ ؟ " .

ودخلت تشيانغ يون حجـرة سونينغ ، شكل الحجرة وترتيبها لا يخـتلف كثيراً عن تلك المرة التى قمن فيها بتجميلهـا بأنفسهن ، اختفت الكتب القديمة التى كانت فوق المكتـبة وحلت محلهـا كتب جديدة ، معلق عـلى الحائط صورة زيتيـة جديدة بعنوان - " الزعيـم مـاو يقود مسيـرتنا لبناء وطننا العظيم " الصورة للزعـيم يمسك بقلم أحمر ويطالع خـريطة القلاع الصناعية فى بلادنا ،ترابيزة الشاى عليـها فازة بها زهور صناعية .

علقت سونينغ معطف تشيانغ يون فى إحدى جنبات الحجرة ، مدت تشيانغ يديها المتجمدتين من البرد نحو الفحم لتدفئها ، وسألت سونينغ : " كيف لا تدعوك الدادة تشاو " بالآنسة " ، أشاحت سونينغ بيدها فى ضيق واشمئزاز وقالت ، بعد زيارتك السابقة لى ، أمرتها بألا تنادينى بهذا النداء مرة ثانية .

وبينما كانتا تتكلمان ، جاءت الدادة تشاو تحمل فى يدها إبريقا معدنياً كبيراً ، وضعته فوق موقد الفحم بعد أن أيقظت نيرانه . واستدارت وسألت سونينغ : " الآنسة . . . . . ، آه معذرة ، أيتها الرفيقة سو ، ألدى حضرتك ملابس تودين غسلها ؟ " أجابتها : "غسلت ملابسى بنفسى .

وبعد انصراف الدادة تشاو ، تمددت تشيانغ يون على فراش سونينغ وهى تضحك ضحكة طويلة ، وتقلد الدادة تارة أخرى .

"الرفيقة سو ، الرفيقة سو ، يا له من مزاحٍ .

جلست سونينغ على الكرسى وقد وضعت يدها اليمنى على خدها ، وقالت لتشانغ يون " لقد حدثت بعض التغيرات فى أسلوب حياتى ، فلم أعد أسمح لأحد بأن ينادينى ، " الآنسة " ، كل ملابسى أغسلها بنفسى ، وعندما تعطينى أمى مصروفى آخذ منها أقل القليل . "

جلست تشانغ يون ، " وصفّت خصلات شعرها بيدها ، وأومأت تعبيراً عن الاقتناع والترحيب ، استطردت سونينغ ، " لقد انتهيت من قراءة رواية (كيف تصلب الحديد ؟)

سألتها تشانغ يون فى توثب واهتمام : " وما رأيك ؟ "

" رواية رائعة "

صفقت تشيانغ فى تلقائية وهى تهتف" نعم، إنها لرواية رائعة"

قالت سو : " بعد قراءة هذه الرواية انتابتنى بعض الأحزان ، ساورتنى بعض الشكوك . . . ونهضت من مكانها ، وأتجهت نحو ترابيزة الشاى واستطردت تقول ويدها تداعب فازة الزهور وبصرها منصرف عن تشيانغ يون " ما يحزننى أن حياة الآخرين عظيمة وذات آفاق فسيحة ، بينما حياتى ضيقة محدودة لدرجة تثير الأسى ، أشعر أننى لست مثلهم ، فليس لدى ما يتوفر لهم من شجاعة وإقدام ، وقوة إرادة ، وحمية وحماسة . وإننى ربما تسلل الخوف إلى نفسى إذا ما وضعت فى هذه البيئة ، وما يثير الشكوك فى داخلى ، ترى هل باستطاعتى أن أصبح مثل هؤلاء الناس ؟ "

أجابت تشيانغ يون بلا تردد : " نعم باستطاعتك " .

هزت سونينغ رأسها ، وتمتمت فى نفسها : " أنا . . . . . لا أستطيع أن أفعل شيئا " .

نزلت تشيانغ يون من فوق السرير ،اتجهت إلى الناحية الأخرى من ترابيزة الشاى ، ورمقت سونينغ بنظرة قلقة حائرة ، لم تستقبل سو هذه النظرات المباشرة ، استدارت ، اقتربت إلى جوار رفوف المكتبة ، ألقت بنفسها فوق أحد المقاعد القديمة المتهالكة ، أحنت رأسها وأخرجت منديلا وراحت تجفف العرق من راحة يدها .

قالت تشيانغ يون فى شىء من الغضب والضيق : " حقيقة لست أدرى ، أليست أحوالك على خير ما يرام بعد هذه الفترة الدراسية ؟ كيف أما زالت تراودك هذه الأفكار ؟ ، إن أمرك محير دون سبب يدعو إلى ذلك .

صمتت سونينغ ، هزت كتفيها ، رشفت من أنفها كما يفعل الأطفال ، واستطردت تقول فى صوت أجش : " على خير ما يرام فى هذه الفترة ؟ لا يوجد سبب يدعو إلى ذلك ؟ إن أسرتى هذه ، آه هيه .

وما إن نطقت سو بكلمـة " على خير ما يرام " حتى كسا وجـهها الحزن والكآبة ، وعندما ذكرت كلمة أسرتى " تطاير من عينيها شرر حقد دفين .

لم تفهم تشانغ يون مغزى هذه المشاعر ، ووقـفت تشيانغ - التى تعتقد أن لها القدرة على قراءة عـيون الآخرين - حائرة فى فهم صـديقتها . ثم لفهـما الصمت والهدوء .

زال هذا الموقف الحرج بعد فترة من الصمت ، واقتربت سونينغ من تشيانغ يون وتظاهرت بالسعادة ، وقـالت لها : " إنك ما إن رأيت وجهى حـتى بدأت توجهين إلى الانتـقـادات ، دعـينا من ذلك ولنتـوقف عند هذا الحـد فلقـد أعـددت بعض المأكولات الخفيفة استعدادا للترحيب بك " .

قالت سونينغ : " أتحـبين تناول حبات منَ أبو فروةً ؟ لـكنها مع الأسف ليست ساخنة ، وهى كلما كانت ساخنة كانت حلوة وطرية ، وإننى أحبها كثيرا .

أومـأت تشيـانـغ يـون ، "مدت يدها وأخذت إحدى حـبات " أبو فروة ، إنها تريد أن تقول شيـئا ، لكنها لا تجد الكلمات المناسبة . وأخـذت سونينغ تحدثها فى صوت ناعم خفيض وهى تلملم كلمة من هنا وكلمة من هناك ، لكن تشيانغ لم تعرها اهتمامًا كافيًا . واستوت نيران الموقد واشتدت حرارتها .

من يجلس فى مثل هذه الحجرات الدافئة فى الشـتاء يغالبه دائما النوم . تحاول تشيانغ أن تقشر حـبة " أبو فروة " ، لكنها هيهات أن يتحقـق لها ذلك ، فالقشرة الداخلية تلتصق بالثمـرة ، فألقت بها كلها فى فمها ، أخـذت تمضغها بعض الوقت حتى امتصت بعضا من حلاوتها ثم ألقت بها فى سلة القمامة .

تذكرت سونينغ كلمات آخر مقطوعة موسيقية سمعتها وهى مقطوعة (شنتيانيو) الخاصة بشمال مقاطعة شانشى

" لم تأت فى موعدك المحدد ،

لقد أبليت ثلاثة أحذية فى انتظارك عند قمة الجبل . . . . .

وأكملت تشيانغ يون الجزء الثانى من المقطوعة :

وتضربك أمك بسبب لقاء الحبيب ،

وإلا فأخبرى الحبيب لماذا أردت تجرع السموم ؟. . . . .

لم تذكـر سونينغ المقطع الثـالث ، ولم تجب على السؤال الذى طرحـه المقطع الثانى . أخذت المياه داخل الإبريق الذى وضعته الدادة تشاو فوق النار تصدر أصواتا غريبـة من فرط الغليان وكأنـها تدندن بكلمات أغنيـة غير مفـهومة تشبـه الأصوات والهمهمات التى تصدر عن المرأة الغنية تعبيرًا عن النفوذ والسلطان .

خرجت تشيانغ يون من بيت سونينغ وهى تتأبط الرواية التى أعادتها سو إليها، شعرت أن تصرفاتها مع سو لم تكن مناسبة ، فقد اعتقدت ببساطة أنها ليست لديها أى مشكلة ، بينما وجه سو مازال ينطق بالضيق والألم ، ترى ما سبب ذلك ؟ .

هبت رياح شـمالية غـربية ، دفـست تشيانغ يون عنـقها داخل ياقـة معطفـها الكبيرة، سـمعت وقع أصوات خطوات سريعة تلاحقـها ، وتبعها صوت يخـاطبها قائلا :

" أهلا وسهلا ! أمازلت تذكريننى ؟»

" سوجون ؟ نعم أذكرك " .

يرتدى سوجـون معطفاً من الجلد رمـادى اللون ، ذا ياقة طويلة مرفوعـة حول رقبته مصنوعة من جلد كلب البحر ، وعلاوة على هذه الياقة ، هناك أيضا كوفية لم تشهد تشيانغ يون لها مثيلا من قبل فى طولها وعرضها ، لفها حول عنقة عدة لفات وكأنها رباط طبى.

يلبس فوق رأسه قبعة من الجلد ، ويضع على فمه وأنفه قناعًا من النسيج الرقيق [(١)] ، ولم يعد يظهر من وجهه سوى عينيه . وما ان نظرت تشيانغ يون إلى عينيه اللتين تفيضان بالعصبية والقلق حتى أدركت على الفور أنه سوجون ، فنظرت إليه فى شىء من الشك والحيرة .

قال سوجون فى صوت خفيض " أريد أن أتحدث معك فى أمر ما ، أيمكن أن نبحث عن مكان مناسب نتكلم فيه ؟ . "

" ما هو ذلك الأمر " . ؟

لم يجبها وقال : " لنبحث أولاً عن مكان نتحدث فيه " .

طلب سوجون وهو يخلع المعطف عن نفسه : " اثنين زلابية ، وواحد بقلاوة " .

وقال لتشيانغ يون " لحظة " عندما وصلت الطلبات ثم استطرد : " سمعت أن حساء " اليووتشا " الذى تقدمه هذه الكافيتريا يمتد تاريخه إلى مئات السنين، إنهم يستخدمون فى صنعة الدهن المستخرج من عظام العمود الفقرى للبقر " .

سألته تشيانغ وهى تقلب الحساء بملعقة صغيرة : " فيم أردت أن تحدثنى ؟ "

رد سوجون بكلام لا يمت بصلة لسؤالها " إن مكسبات الطعم واللون من مكسرات وفواكه وتوابل فى هذه الكافتيريا . . . كلها مصنوعة بطريقة جيدة .

واستطرد يخبرها : " سوف أذهب بعد نصف شهر للعمل فى قوانغتشمو ، لى صديق هناك طلبنى للعمل فى ترتيب وتصنيف الآثار ، سوف أكون " موظفًا هناك " .

" رائع ، أهنئك على ذلك "

(١) هذا القناع من القماش الأبيض الرقيق يستخدمه معظم شعوب جنوب وشرق آسيا وقاية لهم من البرد والأتربة والغازات .

" شكرا ، إن ذلك يتطلب منى أن أشكرك " .

"تشكرنى ؟" .

واصل سوجون حديثه قائلاً " أتمنى بعد أن أسافر إلى قوانغتشو أن تهتمى كثيرًا برعاية أختى " وركز على نفس المعنى مكررًا

" أتمنى أن تساعديها ، وألا تعتبريها متخلفة فكريًا فتستخفى بها " .

"هذا أمر طبيعى "

"أريد أن أخبرك بشىء " قالها سوجون وقد تقطب جبينه ، ورفع رأسه ، سادت وجهه صفرة وشحوب ، وقد طفرت فوق عظام خديه حمرة كرزية ، كأنه مريض استبد به المرض " وقال " اقتربى قليلا من فضلك ، إن مرض السل الذى أعانى منه لم يعد معديًا ، لكنه أعاد الغطاء الواقى إلى فمه بعد هذا الكلام .

اقتربت تشيانغ يون منه .

"أتعرفين ، ما السبب فى أن أختى الصغيرة لا تستطيع أن تكون مثلكن ؟ "

"ما هو هذا السبب ؟" .

أطلق سوجون تنهيدة طويلة ،وأخذ يطقطق أصابعه واحدًا تلو الآخر ، حتى إن عظام عقلات الأصابع كانت تصدر أصواتًا حادة وقال فى جدية وصرامة : " إن هذا الموضوع ، لا يعلم أحد عنه شيئا ، حتى أبى وأمى ، سأخبرك به ، وأرجوك . . . . . . "

" شكرًا لك على هذه الثقة ؟

" حسنا " وبدا أنه شعر بشىء من الراحة ،دفع بطبق اليوتشا جانبًا ، وتلفت حوله ليطمئن إلى عدم وجود أحد من الناس ، ثم قال فى حزن وأسى وقد ارتعدت

فرائصــه : " عندما كانت أختى الصـغيرة فى الحـادية عشرة من عمـرها ، قام زوج أختها . . . . . . "

شعرت تشيانغ يون بالريح تصفر فى أذنيها ، وكادت تحبس أنفاسها .

واصل سوجون قائلا :«كان زوج أختها الكبرى - أى زوج أختى التى تصغرنى - قائد فرقـة فى جيش الكومينتانغ ، يكبر أختى بـكثير ، فى تلك السنة ، لم يكن مضى كثيراً على زواجهما . وذات مـساء اصطحب أختى الصغرى وخرج إلى أحد المتنزهات ،وعادا فى وقت متأخر ، كان شعرها مبـعثرًا ، عيناها منكسرتان كأنها قد أصابها مرض الحـمى ، كانت علاقتها بى طيبـة دونًا عن كل أفراد الأسرة ، لذلك انتظرت حتى نام الجميع ثم سألتها ، فقالت إن زوج أختها اقتادها إلى أحد الكهوف الصناعيـة فى المتنزه. . . . . وكانت آنذاك صـغيرة وليـست على درجة كافـية من الوعى . . . وبعد سـماع الحدث ، فــكرت آنــذاك أن أســـتل سكيـنًا وأنحر رقبته . . . . "

احمر وجهها وسألته فى نبرة لوم واتهام "و لماذا لم تنحرها ؟" .

"يقـف اثنان من جنـود الخــدمة لحراسته ، يحمل كل منهما بندقية ، اقتحمت عليه حجــرته فى اليــوم التــالى وصفعته على وجهه . . . . .

" قتلته أم لا ؟" .

" ضربنى حتى كاد يقتلنى ، ثم صحب زوجته وانتقل إلى مكان آخر .

واتهمنـى كــل أفــراد الأســرة بالجنــون ، واســتدعوا لى الطبيب . . . .

" ولماذا لم تخبرهم بذلك ؟" .

« هيه . إنهم ينظرون إليـه على أنه كبير الـعائلة » ثم واصل حديثه فى نبـرة تفيض بالتأثر : " لذلك ، عليك ألا ترمى غـيرك بالتخلف ، فأنت لا تعـرفين كم تكبدت من المعاناة والآلام . »

وفى لحظة ، مرت بخاطرها أفكار وأساليب لا حصر لها للانتقام لسونينغ ، ثم ما لبثت أن تلاشت جميعًا.

أرجوك أن تحيطى أختى الصغيرة برعايتك .

" سوف أفعل ، إننى أستطيع ذلك ، سوف أُسرى عن سونينغ، أكيد ، لاشك فى ذلك يجب أن أشفى جراحها وأخفف عنها آلامها .

فالأمر ليس جـد خطير ، وتستطيع أن تعيش حياتهـا فى سعادة ، ولا بأس مما حـدث . رددت تشيـانغ يون هذه الكلمـات وهى تلوى أصابعـها فى حـزن وأسى شديدين .

صافحها سوجـون قائلا : " إننى أشكرك مرة أخرى " . ونادى الجرسون ودفع له الحساب وعندما حانت لحظة الوداع ، قال سوجون فجـأة فى تـردد وخجـل : " وأنا ، لى عندك طلب . . . . "

سألت وهى تلبس القفاز فى يديها " ما هو "؟.

" إننى سوف أنتقل إلى قوانغتشو ، ألا أجد معك صورة لحضرتك ؟ " .

وكانت هذه المرة الوحيدة التى يناديها بلقب " حضرتك " .

احمر وجهها خجلا ، وقالت " ليست معى صورة "

قال سوجون وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مريرة حزينة :

" فلتصفحى عنى إذن ، وكأن شيئا لم يكن .

وبينما تشيانغ يون فى طريق عودتها إلى المدرسة ، كان الليل قد أسدل ستائره، حيث إن نهار الشتاء قصيـر . هبت الرياح المزمجرة ، حبات الرمل والحصى تضرب

وجهـها . "تشعر بنوع جـديد عليها من الحـزن والأسى يعتصر قلبـها . فما أكـثر الأمور التى لم تدركها بعد فى هذه الدنيا .

وما أكثر مآسى الحياة ،وما أتعس أن تكونى فتاة فى هذه الأيام .

حقيـقة ليس هناك أتعس من أن تكونى فتاة فى يوم هو أشبـه بالكابوس الثقيل مثل ذلك اليوم .

(١٨)

كانت لى تشون قد أرسلت " بالمسرحية ذات الفصل الواحد " إلى صحيفة الشباب اليومية وذلك قبل بدء امتحانات نصف العام الدراسى . وكانت فرحتها عند عودتها من مكتب البريد أشبه بفرحة جندى المدفعية الذى يطلق قذيفة من مدفعه لأول مرة . وظلت لعدة أيام بعد ذلك تتذكر باستمرار انطباعاتها ومشاعرها وهى تلقى الظرف السميك الذى يحمل مسرحيتها فى صندوق البريد ذى اللون الأخضر. وكانت أحيانًا تفكر بطريقة خرافية ، إذا أكلت أرزا ولم تأكل المانتو (الخبز الصينى) فى وجبة الغداء اليوم ، فسوف يكون هناك أمل فى نشر المسرحية ، ولن تنشر إذا حدث غير ذلك . وتكون النتيجة أن تجد المانتو على الغداء فينتابها حزن وقلق شديد . وتقول أيضا فى نفسها إن المسرحية يمكن أن تنشر إذا لم تهب الرياح غدًا ، ويأتى اليوم التالى كما تمنت بجوه اللطيف ونسماته الرقراقة ، فتنتشى وتسرى الفرحة فى كيانها . وعندما تخرج من حالة الأسى ، أوتنتهى نشوة السعادة تسخر من نفسها قائلة " كلام فارغ . . . . . .

حلت عطلة الشتاء ولم يصل خبرعن المسرحية . كل يوم تسارع لى تشون لقراءة " صحيفة الشباب اليومية " كأنها تهتم بما نشر فى الصحيفة من الأحداث أكثر مما كان فى أثناء وضع الميثاق الوطنى عام ١٩٥١ . تقلب الصحيفة ورقة ورقة، وسطرًا سطرًا ، وكلمة كلمة فلا تجد أى خبر عن نشر مسرحيتها ، فتشعر بالقلق ، ألا يمكن أن يكون الخطاب قد فقد فى البريد ؟ أو يكون المحرر البيروقراطى قد ألقى بمسرحية الطالبة المغمورة فى سلة المهملات ؟ وتزداد قلقا يوما بعد يوم ، ولاتشعر بطعم للأكل ولا راحة فى مضجع ، كأن جسدها فى المدرسة وقلبها تركته مع المظروف فى صندوق البريد الأخضر .

وذات صباح ، بينما كانت تتناول الحساء جاءها عامل يخبرها بأن لها مكالمة تليفونية . ورفعت السماعة فقال لها الطرف الآخر على التليفون " نحن الصفحة الأدبية بإدارة التحرير فى صحيفة الشباب اليومية ". خفق قلبها حتى كاد يقفز من

بين ضلوعها ، وقالت وهى تتهته وكأن لسانها قد انعقد : " كيف - الحال ؟ " فرد الطرف الآخر : " لقد طالعنا مسرحيتك . . . .

ردت لى تشون " حسنًا ، حسنًا ، " وقال الطرف الآخر " إننا نستأذنك فى الحضور إلى الصحيفة للتشاور والبحث ، ماذا ، ماذا تقول ؟ كرر على أسماعها نفس العبارة .

وسألها " متى يسمح لك الوقت بالحضور ؟ " . ، " ماذا ، الوقت؟ ألو ، عندى متسع من الوقت الآن ، يمكننى الحضور الآن " .

واتفقت مع محدثها على أن تذهب إلى قسم التحرير " بصحيفة الشباب اليومية " فى الحال ، ثم عادت لى تشون إلى صالة المطعم ، فلم تستطع الانتهاء من تناول طبق الحساء . هل تنشر المسرحية أم لا ؟ إنه لم يخبرها بذلك ، لكن كلماته إليها تبدو شديدة التكلف والتصنع . . . . . دفعت الطبق فى غضب .

وصلت إلى مقر صحيفة الشباب اليومية ، بدا لها المبنى البسيط فى ذلك الوقت فخمًا مهيبًا ، وزاد عندها هذا الشعور عندما رأت سيارة واقفة أمام الباب .

اقتادها شخص إلى مكتب استقبال الضيوف ، وجلست على إحدى الأرائك بالقرب من مدفأة الفحم ، تسمع دقات قلبها وهى تنتظر وصول الرفيق المحرر .

دخل شاب طويل القامة ، نحيل ، يضع نظارة على عينيه ، يتهادى فى خطوات وئيدة ، ثم تبعه ساعى ليصب لهما الشاى .

سألها : " أنت الزميلة لى تشون ؟ " .

" نعم ، أنا لى تشون "

تفضلى ، اجلسى ، اسمى العائلى ، اسمى الكامل تيان لين " .

وسألها " هل أنتم فى إجازة ؟ " .

أجابته ، وتبادلا بعض الحـديث العادى ، وهى تنتظر رده الحاسم على أحر من الجمر . أخرج تيـان لين مسرحية لى تشون من جيبـه . ظهرت الثنيات على أحرف الورق مما يوحى أنهـا تناقلتها أيادى عـديد من الأشخـاص . قلب تيان لين مـسودة المسرحـية ، وابتسم ، وتناول سيـجارة بيده اليـمنى ووضعها بين شـفتيه . وفـجأة انتزعها من فمه وألقى بها على المكتب .

" عزيزتى لى تشـون ، أتسمحـين لى أن أسألك ما هو هدفك من كـتابة هذه المسرحية ؟ " .

صمتت لى تشـون فقد كانت تتـوقع أى سؤال غير ذلك الذى طرحـه عليها : "وقالت : " أنا كتبت المسرحية من أجل . . . . "

لاحقها تيان لين : " لنتحدث حديثًـا عفويًا . إننى لم أفهم هذه المسرحية على النحو التام ، وقد شعرنا بعد قراءتها أن مضمونها غير واضح ، ماذا أردت أن تقولى من خلالها ؟

تمتدحين هذا البطل ، لمَ تمتدحينه ؟ ، تنتقدين أمين أحد اللجان الفرعية لرابطة الشبيبة ، لمَ تنتقدينه ؟ " .

تحدثت لى تشـون بعدة جمل غـير متـرابطة ، وتيان لين يسمع بإنصـات ويهز رأسـه بالإيجاب ، ثم طرح عليـها السـؤال من جـديد ، فتـشجـعت بعض الشىء وقالت : " أردت أن أنتـقد أولئك الذين يثـرثرون حول النظريات الجـوفاء ، وأنتـقد نماذج من ذوى المستوى الدراسى المتدنى الذين يحسدون الآخرين . . . . . .

ثم بحث تيان لين مـعها مـسيرة ومصـير هذه الشخـصيات داخل المسرحـية ، استغرقا طويلا فى البحث دون إزالة الغموض الذى يكتنف مضمون المسرحية .

قال لهـا تيان لين : " إن مـحاولتك إبراز المشـاكل والتحدث عنـها شيء رائع للغاية ، لكنك لم تفكرى بوضوح ، وكذلك لم تـعبرى بوضوح أيضا . . . . . بل على العكس ، تعطى الـقارئ انطبـاعـًا خاطئـًا ،و كأنك تـريدين أن يتصـرف كل شخص بصفة فـردية حسبما يريد ، وترفضين الجمـاعة والرابطة ، نعم إنك تكتبين عن الطلاب ، ولكن ذلك مختلف عن واقع الحياة الطلابيـة الآن ، بل إن ما كتبته أشبه بتجميع لكثير من النقائض والعيوب . . . . .

ضاع الأمل ، لا أمل فى ذلك نهائيا ،

وكادت الدموع تسـيل من عينى لى تشون وهى تتسلم مـسرحيتـها من يد تيان لين. ما أجمل لحظة إرسال هذه المـسرحية بالبريد ، وما أصعب لحظة اسـتعادتها ، اتضح لتيان لـين أنها فى أسى فقال لها وقـد ارتسمت على شفتـيه ابتسامـة ساذجة كابتسامة الأطفال :

" أتمنى أن تكتبى فيما بعد لنا قصصًا قصيرة ، وألا يتسرب اليأس إلى قلبك ، فكم من كتاب وأدباء عظام ذهبت بعض كتـاباتهم إلى سلال المهملات وهم فى أول الطريق . . . .

ولم تكن لى تشـون بحـاجة إلى سـمـاع هذه الكلمـات ، فقـد دست أوراق مسرحيتها فى حقـيبتها فور خروجها من مقر الصحيفـة ، خشية أن تظهر أمام أعين الآخرين فـيقولون : " ها هى مـسرحيـتها قـد ردت إليها . " إن لى تشـون ليست بالطالبة الغـبية ، فلأنها لم تعـط قدرًا كافيًا من الاهتـمام وأخذتها نشـوة الإعجاب بالنفس والخيلاء وقت كتابة مسرحيتها ، نجدها قد استمعت الى تحليل تيان لين ، ثم أدركت حقيقة أن ما كتبته دون المستوى المطلوب ، ولم تفكر مقارعة آراء تيان لين ، ولن تجد إلى ذلك سـبيلا ، شعـرت أنها وضعت نفـسها فى موقف حـرج ، وأنها أضاعت وقتًـا طويلاً دون جدوى ، كان من الصعب عليـها تحمل هذا الموقف " أنا لى تشـون ، منذ التحـاقى بالمرحلة الابتدائيـة ، لم يواجهنى أبدًا مـثل هذا الموقف

المخجل . . . . . " وراحت تقطع الشارع الطويل وهى تشعر أن قامتها قصرت إلى النصف فجأة .

وعادت إلى المدرسة ، الفناء المواجه لقسم التوجيه والإشراف يكتظ بالزميلات. ألقت نظرة على المكان ، وقع بصرها على تشوتشيا ولينغ التى لوحت لها بيدها قائلة ، "أسرعى ،أسرعى ، إنهم يوزعون الشهادات . "

أقبلت لى تشون ،وجهها يحمر تارة ويصفر تارة أخرى ، همست لها تشوتشيا ولينغ فى أذنها وكأنها عصفور صغير : " مالك لا تذهبين لاستلامها ؟ "

لقد تسلمت معظم زميلاتنا فى الفصل شهاداتهن ، وأنت لن تقل درجاتك فى أى مادة من المواد عن مائة درجة ، حقيقى ، اذهبى وتسلميها بسرعة حتى نرى ، وتشعر تشوشيا ولينغ بسعادة غامرة ، فقد حققت نتيجة لا بأس بها فى أكثر المواد صعوبة بالنسبة لها ، مادة اللغة الروسية.

وضع مكتب الإشراف الشهادات فوق عدة مناضد ، كل فصل على حدة حسب ترتيب الفصول ، الطالبات فى الفناء على شكل مجموعات ، كل مجموعة تتحاور فيما بينها . كل طالبة تريد معرفة درجات الأخرى ، وأن تقارن نفسها بزميلاتها ، لكن لا ترغب أى منهن أن تطلع الأخريات على شهادتها.

اختلطت أصواتهن العالية وهن يدرن فى دورات ارتجالية.

"كيف الحال؟ هل النتيجة طيبة؟"

"اذهبى عنى ، فقد رسبت فى عدة مقررات؟"

ترد أخرى وقد قطبت حاجبيها : "يا إلهى ! لقد أخبرتينى فى الفترة الدراسية الماضية أنك رسبت فى عدة مقررات ، وكانت الحقيقة أنك حصلت على مائة درجة فى كل من هذه المقررات،

" خسئت ، كفى عن هذا الهراء . . . . . . "

"إذن ، دعينى أرى درجاتك " .

"أرينى أنا أولاً . . . . "

يدور هذا الحوار فى كل مكان فى المدرسة ، كانت لى تشون قد تسلمت شهادتها وسط هذا الضجيج والعجيج،نظرت إلى درجاتها فى عجالة ، إنها لا بأس بها . فقد انشغلت أثناء الامتحانات بكتابة المسرحية ، لذلك جاءت نتيجتها هذه المرة أقل من المعتاد، أقبلت تشوشيا ولينغ ، تريد أن ترى شهادة لى تشون ، فأعطتها لها دون كلام ، وتريد لى تشون أن تعود لغرفتها بسرعة لتريح جسدها ، وتهد من روعها ، خاطبتها تشو فى لهجة رقيقة : "يا للروعة ، كيف حققت مثل هذه النتيجة الطيبة فى امتحان الرياضيات؟ والكيمياء أيضًا. "

" أخبرينى ، هل كان امتحان الكيمياء صعبًا هذه المرة أم لا ؟ إن الأستاذة تشونغ شديدة المهارة، لقد تخيرت الأسئلة الصعبة ! كنت أتوقع أن يضم الامتحان أسئلة فى الكيمياء العضوية، لكنه خلا منها تمامًا. . . . . . . "

أجابتها لى تشون بنحنحة ، ومدت يدها تسترد شهادتها ، وفجأة سمعت تشوشيا ولينغ تقول :

"أحصلت على تسعين درجة فى الفيزياء ، أقل من تشن بوا"

ثم خفضت صوتها، وأشارت بإصبعها ، وقالت فى صوت هامس : "أتعرفين، لقد حققت تشن بوا نتيجة رائعة فى هذا الامتحان ، إنها فتاة مغامرة ! "

" أتذكرين امتحان الفيزياء الماضى ، عندما أجابت بأن الساعة بها مائة دقيقة ؟ "

حصلت هذه المرة على مائة درجة ! "

كان وقع هذا الخبر شـديدًا على لى تشون ،تفـوقت تشن بوا عليهـا فى مادة الفيزياء ! بينمـا انهزمت هى فى العمل الاجتماعى ، وفى العـلاقات العامة ، وفى كتابة المسرحـية ، وحتى فى مادة الفيزياء ! لماذا فكرت فى كتابة المسـرحية الملعونة ؟ وكانت النتيجـة هزيمة مضاعفة ! " وخـشيت أن تلحظ تشوشيا ولينغ حالتـها غير الطبيعية ، فحاولت إطلاق بعض القفشات ، ثم انصرفت.

عادت إلى غرفتها وطوت لحافـها المبطن بالقطن وارتكزت عليه بكوعها ، بدت خائرة القـوى ، وأخذت تارة تسترجع عـزمها على كتـابة المسرحية أثناء مـرضها ، وتارة أخرى تتذكر انتقـادات اجتماع اللجنة الفرعية لرابطة الشبيـبة ، وحينا تسترجع مشهـد يدها المرتعدة وهى تمتد لتسـترد مسرحيـتها من تيان لين ، وحـينا آخر تذكر التسعين درجة ، المائة ، التسعين.

اعترفت لى تشـون لنفسها فى حزن وأسى ، "تشن بوا واسعـة الأفق ، وأكثر منى تفوقا ، إنها لم تخدع نفسها أبدا. وإسهـامات تشن بوا فى الأعمال الاجتماعية كثيرة ومتعددة ،ولقد توفيت أمها حديثًا ، وأساسها الدراسى لم يكن متينا من قبل، لكنهـا انطلقت سعـيدة نحـو القمة ، أمـا أنا . . . . " أيمكن أن أكـون قد أخطأت؟، هل أخطأت؟ "نعم ، لقد أخطأت!" ثم ألقت برأسها فوق اللحاف . .

دخلت ووتشانغ فو الحجـرة لتغير ملابسها ، ورأت لى تشـون وقد بدت عليها علامات انكسار القلب وفتور العزيمة ، فانتابها شعور شديد بالغرابة.

فهى لا تتـحدث مع لى تشون إلا نادرًا ، وذلك مـنذ تلك المرة التى مازحتـها فيها.

اعتـقدت أن لى قد أصابهـا مرض هذه المرة ، فاتجـهت نحو فراشـها فى حنو وإخلاص ، ومدت يدها تتحسس جبهـتها وهى تتساءل : "أيمكن أن تكون قد ألم بها مرض ؟ " .

وكانت لى تشون قد أغمضت عينها ، وأخذت فى النعاس ، وعندما أحست فجأة بيد كبيرة توضع فوق جبينها ، فتحت عينيها ، رأت ووتشانغ فو ، فنهضت مفزوعة وخرجت من الحجرة دون أن تتكلم .

سيطرت الدهشة على ووتشانغ فو ، وجلست جامدة على فراش لى تشون ، دون أن تفهم شيئا.

ولم تظهر لى تشون وقت تناول الغداء ، سألت بعض الزميلات: "أين لى تشون؟ ردت ووتشانغ فو : "دعونى أقول لكن شيئا ، وأرجو أن تصدقننى ، لقد رأيت لى تشون كأنها أصابها مس من الشيطان ، فقد دخلت عنبر النوم صباح اليوم لأغير ملابسى فوجدتها وحدها هناك ، أتدرون كيف كان حالها؟ كانت تدفن نفسها حتى منتصف رأسها تحت اللحاف ، وجسمها يتلوى ذات اليمين وذات الشمال ، شد انتباهى هذا المنظر ، وما إن اقتربت منها ، حتى أزاحت الفراش كأنها ترفسه ونهضت من فورها ، وخرجت من الحجرة !"

"هراء ! أيمكن أن تكون خرافة "الأرواح الشريرة" لاتزال تعيش بيننا حتى هذا العصر ؟".

"لكن أن تصدقن أو لا تصدقن ! غير أن هذه الفكرة تتطابق مع دراسة بابيلوف، وإنها انعكاس لظروف معينة.

انتابهن القلق عندما أكدت ووتشانغ فو على صحة كلامها فبحثن عن لى تشون وقتا طويلا دون جدوى ، وفى الرابعة بعد الظهر دخلت لى تشون من بوابة المدرسة عائدة من الخارج سألتها "أين ذهبت ؟" ، فأجابت بأنها خرجت تتمشى، وسألنها إذا كانت تناولت شيئا ، فقالت إنها أكلت ، وسألنها كثيرا فكانت ترد قليلا قليلا .

ترى ماذا أصاب لى تشون؟ .

(١٩)

جاء عيد الربيع ، ولم تعد تشيـانغ يون إلى بيت العائلة، فهى تخشى أن تترك تشن بوا بمفردها فى المدرسة تجتر آلام الوحدة، وتصر على أن تقضى العيـد معها. وعندما حل اليوم الثـانى من العيد ذهبت يانغ تشيانغ يون ومـعها تشن بوا إلى منزل يوان شن تشى وهنأتا الأستاذ يوان " بقدوم الربيع الجديد" . وكان الأستاذ يوان قد وجه لهما الدعوة لزيارته أثناء الإجازة.

دخلتا من البوابة الكبيرة ، ونادتا على يوان شن تشى . خرجت إثر هذا النداء طفلة ترتفع عن الأرض بقليل ،فى رأسها بنسة شعـر صغيرة ، وعلى صدرها مريلة بيضاء ، وهى تعدو نحوهما. وعندما اقـتربت منهما وقعت على الأرض ، أسرعت تشيـانغ يون لتسـاعدها على النهوض ، فـسمـعت يوان شن تشى تقـول وهـى تخرج مسرعة : "لا تساعديها، دعيها تنهض بنفسها" ثم خاطبت الطفلة الصغيرة : "هيـا يا أخـتى ، انهـضى وحـدك هذه المرة" . مكثت علـى الأرض لحظة ثم استـجمعـت قواها ونهضت مـرة واحدة . ولم تبك ، بل أخـذت تضرب الأرض بقدمها وهى تتمتم : "لقد أوقعتنى ، أيتها الأرض الرديئة ! " وإلى جوارها تشيانغ يون وتشن بوا تقهقهان بضحكات عالية.

استـقبلت يوان شن تشى وأختـها الصغيـرة ضيفـتيهمـا وقادتاهما إلى حـجرة استقبال الضيوف ، ولم يدخلن صالـة البيت ، حتى وجدن الأستاذ يوان قد سحب الستارة استعداداً لاستقبال الضيفتين ، ولم تتوقف تشيانغ يون عن الثناء على الطفلة الصغيرة أخت يوان شن تشى ، فقالت : أولاً : إنها لا تخشى الغرباء عنها ، ثانيا: عندما وقـعت نهضت اعتماداً عـلى نفسها ، وثالثـا : إنها لا تبكى ، والطفلة التى تتحلى بهذه الصفات الثلاث ، طفلة تتوفر لديهـا مقومات "المستوى الاشتراكى" ، قالت يوان شن تشى مـخاطبة تشـيانغ يون: "كـفـى ، لا تغـذى روح الغرور عند

الطفلة الصغيرة ". حينئذ ، وأمام هذا المبدأ "التربوى "توقفت تشيانغ عن هذا الثناء.

صالة البيت تتكون من حجرتين متصلتين مثيرتين ، يفتح عليهما جناحان شرقى وغربى وهما مصدر الإضاءة ، دخلوا جيمعا الصالة ، أشار الأستاذ يوان إلى يانغ تشيانغ يون وتشن بوا أن تجلسا على أريكة جديدة بعض الشىء ، وسألهما عن حياتهما فى الإجازة . أجابته تشن بوا ، بينما راحت تشيانغ يون ترسل بصرها فى كل اتجاه لتقدر مساحة هاتين الحجرتين : إحداهما صغيرة ، تزدحم بما فيها من أشياء ، هذه الأشياء تختلف فى طبيعتها وصبغتها فهى تمثل حياة أشخاص فى عدة أجيال متعاقبة.

يعلق على الحائط برواز به صورة عتيقة تحتها كتابة بالخط اليدوى ، وعلى أحد جانبيها صورة البطل دونغ تسون روى، على جانبها الآخر راية تقدير مكتوب عليها " العامل التقدمى" أما الصورة العتيقة فهى على الأرجح منحة للجد الأكبر شن تشى ، وصورة دونغ تسون روى هى بالتأكيد تابعة ليوان شن تشى ، أما راية التقدير فهى بطبيعة الحال ملك للأخ الأكبر ليوان شن تشى . أما الحجرة الأخرى فيوجد بها مكتبة، ومكتب ، وأباجورة ، وهى أشياء خاصة بالأستاذ يوان ، كما توجد حقيبة جلدية وشنطة كبيرة وصرة من القماش وهى أشياء خاصة بأم يوان شن تشى ، على قاعدة الشباك عروسة من القماش ومركب صغير وهذه لعب الطفلة الصغيرة. وهكذا كان حديث تشيانغ يون "التحليلى" إلى جمهور الحاضرين، فأثنى الأستاذ يوان على قوة ملاحظتها . قالت لها يوان شن تشى : "لقد رصدت كل شىء ، فيما عدا شيئا واحدا ، "ما هو ؟" ، "انظرى هناك !" إنها سلة زهور تعبيرا عن الاستحسان ، إنها ليست سلة زهور ، بل ساق فجل كبيرة مجوفة معلقة فى وضع معكوس،تختزن الماء بداخلها، وقد غرست ساق كرنب فى بطنها، ومن ثم نمت براعم ساق الكرنب وأزهرت زهوراً صفراء متجهة إلى أعلى ، بينما نمت أوراق الفجلة الخضراء متجهة إلى أسفل وظهرت واضحة على قشرة ساق الفجل .

نادت تشيانغ يون على تشن بوا لتشهد معها هذا المنظر، وامتدحت هذا "العمل البارع" الذى قامت به يوان شن تشى.

آنذاك حضرت أم شن تشى ، فرحبت بالضيفتين ترحيبًا حارًا ، وقدمت لهما الشاى والبلح المخلى وكوكتيل فواكه. قالت لهما يوان شن تشى: "سأترككما هنا تتجاذبون أطراف الحديث ، وأذهب لأعد لكم الطعام."

سألتها تشيانغ يون : "أتجيدين الطهى ؟ "ردت أمها الواقفة بجوارها : "إن ابنتنا شن تشى لطاهية ماهرة، وجذبت شن تشى أمها من يدها وذهبتا لإعداد الطعام. جلستا على الأريكة . تشن بوا لا تتكلم إلا قليلا، لقد تذكرت بيتها، فلم تعد لها أسرة. ويبدو أن الأستاذ يوان لاحظ ذلك ، فبادرها قائلا : " لا تحملى همًا ، عليك بزيارتنا كثيرا لنمرح معًا فأهل شن تشى ، هم أيضا أهل لك".

وراحو يتجاذبون أطراف الحديث ثم قال الأستاذ يوان : "حدثانى عن رأيكما فى عملى كرائد لفصلكن."

قالت تشيانغ يون :"يا للهول ، كيف نجرؤ على ذلك؟.

وابتسمت تشن بوا قائلة : "لقد جئنا لتهنئة حضرتكم بالعيد ، آملين أن تعرفنا بنقائصنا وعيوبنا فى هذه الفترة الدراسية ، وهيهات هيهات أن تطرح الطالبة رأيا فى أستاذها " .

رفع الأستاذ يوان النظارة من فوق عينيه ، وأخرج منديلا من جيبه وراح يمسح عدستيها، وهو يقول : "لا بأس فى أن تنتقدى الأستاذ إذا وقع فى خطأ ، وفقًا لمبدأ " إننى أحب أستاذى ، لكننى أحب الحقيقة أكثر ". وفى واقع الأمر، إننى على الرغم من قيامى بالتدريس لكُن لعدة سنوات، ورغم أننى رائد الفصل فى الوقت نفسه، إلا أن التفاهم بينى وبينكن - بين الأستاذ والطالبات - مازال قاصرا . . . . "

اقتربت تشيانغ يون وسألته : "أستاذى ، هل صحيح أن حضرتك لا تستريح إلىّ كثيرا؟" .

"أبدا ، كل ما في الأمر أن احتكاكى بكن محدود جدا، وربما لأننى أشعر نحوكن بشىء من الرهبة" .

تساءلت تشن بوا وتشيانغ يو معًا فى غير صبر " رهبة؟" .

" نعم ، إن الجميع يسلمون برهبة الطالب من أستاذه بينما قليل منهم الذى يعرف أن الأستاذ يرهب تلميذه بنفس القدر ، وربما أكثر بكثير، فمثلا عندما اندلعت حركة مساندة كوريا ضد العدوان الأمريكى بين مختلف طوائف الشعب من عمال وفلاحين وجنود وطلاب فى أكتوبر من عام ١٩٥٠ ، عقدت مدرستنا اجتماعا واتخذ هذا الاجتماع قرارًا بأن يقوم الأساتذة بتوجيه الأنشطة الطلابية والإشراف عليها. وقمت آنذاك بالإشراف على أحد فصول الصف الثالث ، وكنتن حينئذ فى الصف الأول . ولكن أى إشراف وأى توجيه؟ مناقشات الطالبات تفيض حماسة ، سكرتيرة اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة تشرح فى صفاء ذهنى وتسلسل منطقى سليم. وطلبن إلىّ أن أفند وأضيف ، فقلت ، إننا نطالب بمقاومة أمريكا ومساندة كوريا، وحماية الديار والدفاع عن الوطن ... . حماية الديار والدفاع عن الوطن، مقاومة أمريكا ومساندة كوريا ... .. وتلعثمت الكلمات على لسانى دون أن آتى بجديد ، حتى احمر وجهى.

وبطبيعة الحال ، لم يعبرن عن سخريتهن فى مواجهتى ، حيث إنهن جميعا ناضجات شابات عن الطوق، ومنذ ذلك الوقت تولد عندى شعور باحترام الطالبات - وخاصة عضوات الحزب الشيوعى ، ورابطة الشبيبة - وشعور بشىء من الرهبة أيضا" ، وسعل الأستاذ يوان عدة مرات، وأضاف فى صراحة أكبر : "لقد ترعرعتن فى كنف الزعيم ماو، ولذا فأنتن أحسن حظا منا بكثير ، وتفوقتن علينا كثيرًا ، وإننى أشعر أن رسالة أمثالى من الأساتذة قد أصبحت بالغة الصعوبة" .

قالت تـشن بوا : "يبدو أن هذا هو حـال الطالبات دائمـا، فنحن ننصت إلى شرح الأسـتاذ أثناء الدرس ، ثم تبدأ حـياتنا الخاصة بعـد انتهاء الحـصص ، حيث نحضـر الندوات، ونقرأ الروايـات ، ونتناقش فيـما يتعـلق بلوائح منظمة الشـبيـبة الشيوعى، ونحاول جذب أعضاء جدد لهذه الرابطة. . . . . . "

"ويمكن أيضـا القول " ، وتناول الأستـاذ يون قدح الشـاى وشربه فى رشـفة واحدة، "إن عضوات رابطة الشـبيبة يقدمن فى هذه السنوات كثيـرا من الإسهامات فى مجال الأعمال والأنشطة الطلابية وإننا كأساتذة يجب أن نشعر بالخجل من أنفسنا أمام هذه الإسهامات ، لكننا مازلنا نقول إن الأسـتاذ لم يتفاعل بعد مع الطالبات ، وإننى ،ومنذ أن بدأت عطلـــة الشـــتاء أفكر كل يوم فى هذا الأمر : كـيف أقوم بعملى كأستاذ ؟، كيف أظهر أمام الطالبات ؟ وأخذت أقلب الأفكار فى رأسى بحثا عن حلول جذرية ، هل تعرفان خوان لى تشينغ ؟".

أجابـت تشن بوا :" نعم أعرفـها " وأشـارت تشيـانغ يون إلى تشن بوا وهى تقول للأستاذ يوان ، " إنهما صديقتان حميمتان ".

" إننى لا أعـرف بذلك أيضـا ، لقد كـانت خـوان لى تشينغ مـشـار فخـرى واعتزازى من قـبل ، لكنها منذ النصف الثانى من عام ١٩٤٧ انشـغلت بإنشاء اتحاد الطلاب المستـقل ، ومن ثم بدأت تهمل دراستهـا . وقد لاحظت فى ذلك الوقت أنها على صلة بتنظيمات الحزب الشيوعى . . . . . . "

سألته تشن بـوا فى تعجب " تقول إن حضرتك لاحظـت ذلك ؟" حيث إنها تعتقد أن خوان لى تشينغ وجماعتها كن يخفين هذا الأمر جيدا ".

" كيف يمكن ألا ألاحظ ذلك ؟ وقد كانت خوان كثيرًا ما تطلب منى فى ذلك الوقت أن أشارك فى اجتماعـاتهن الليلية . وقد ذهبت فى أول مرة ، ولم يكن من الأساتذة سواى والأستاذ تشونغ . وبعد ذلك كنت اختلق الأعذار ، ولم أذهب مرة ثانية وقـد شعـرت بالحزن العمـيق والأسف الشديد عندمـا ألقى حزب الكومـيتانغ

الرجعى القبض على مجموعة من طلابنا فى ظل مرحلة التحول الكبرى التى تشهدها بلادنا ، بينما نحن ننتحى جانبا وقد سيطر علينا شبح الخوف والتردد ، ومنذ ذلك الحين أخذت الهوة بيننا وبين الطلاب تزداد اتساعا بمرور الوقت " .

أخذت تشيانغ يون تستمع وهى تضع يدها على خدها ، ثم رفعت يدها بعد لحظة وانبرت تقول : " هكذا كان الحال يا أستاذ ! كنا نشعر من قبل أن المدرس لا يفهمنا جيدا ، ونحن لا نفهمه بالدرجة المطلوبة ، أذكر أننا عندما كنا فى النصف الثانى من العام الدراسى ونحن فى الصف الثانى الثانوى أن الأستاذ ليو مدرس التاريخ قال لنا ذات مرة : " يجب عليكن أن تتعلمن منى جيدا ! " ، بعدها ضج الفصل بالضحك ، كلما دخلت زميلة إلى الفصل قالت ساخرة: " عليكن أن تأخذن عنى جيدا ! " . .   . . فقد كنا أحيانا نهمل دور الأستاذ ونتعالى عليه ، وكأننا لا يمكن أن نستفيد منه بدرجة أكبر فى غير الحصص الدراسية " .

التفت الأستاذ يوان إلى تشن بوا وسألها : " وماقولك ؟ " .

" أرى أننا مخطئات فى بعض الجوانب ، فعلى سبيل المثال لم نتشاور مع حضرتك قبل الاجتماع الذى انتقدنا فيه لى تشون ، لكننا استفدنا كثيراً من كلمتكم لنا بعد ذلك وقد ذكرت حضرتكم أن الفجوة تتسع تدريجيا وأنا أرى أن ذلك كان فى الماضى ، أما الآن . . .   " .

" أود الآن أن أقول لكما ولكل طالباتى ، ونحن نتقارب شيئا فشيئا إنه على الرغم من تخلفى عن الركب إلا أننى على يقين بأنى لن أدخر وسعا فى سبيل اللحاق به ، وهذا يتطلب أن تمددن لى يد العون" .

"لكن حضرتك ستظل أستاذنا الذى يوجهنا وينتقدنا ، وإننى لا أدرى ماذا أفعل أمام كلمات حضرتك التى تفيض تواضعا ،" وكانت تشيانغ يون تتقلقل من مكانها بينما تتكلم وكأنها تشعر بحرج حقيقى.

أقبلت يوان شن تشى على الضيوف محيية فى حيوية ونشاط ، وكأنها ربة بيت صغـيرة ، قائلة : الطعام جـاهز . . . . . ، وقد أعدت مـائدة الطعام ، ووزعت عليها أربعة أطباق ، وقطع خبز المانتو التى تزينها نقط حمراء متناسقة .

وجلس الجميع إلى المائدة ، وبينما كـانوا على وشك البدء فى تناول الطعام ، دخل شاب ممتلئ قصير القامة ، إنه الأخ الأكبر ليوان شن تشى .

قالت الأم : " أسرع يا شن يو لتناول الطعام "

" تناولت طعامى يا أمى " .

" عجبا لك يا شن يو ، حتى يوم العيد لا تقضيه معنا " .

وطالبته شن تشى فى إلحاح " أخى العزيز ، أكنت عند شياوليو ؟ "

دع عنك هذا . . . . . . دعـه عنك " احـمر وجـهه خـجـلا وهو يندفع إلى الداخل ، بينما غرق الجميع فى الضحك .

وكان الأستاذ يوان يخاطبهمـا فى أثناء تـناول الطـعام قائـــلا : " استزيدا من مكعبات الدجاج بالخيار المخلل المغموس فى الصوص ، إنها لذيذة الطعم . . . إذا كانت الظروف المعيشية التى تمر بها لى تشـــون هى كما ذكرتما الآن ، فما رأيكما فى أن أستدعيها وأتحدث معها ؟ " .

قالت تشن بوا " هذا رأى حسن ، فإنها تولى حضرتك قدرا كبيرا من الاحترام . . . . . . خلى عنك ، لاتتـعب نفسك ، نـحن نأخذ بأنفـسنا . . . يوان شن تشى ، ماذا تقولين فى هذا الرأى ؟ " .

أجابت شن تشى التى لم تكن تشاركهم الحـديث " لا تناقشوا هذه الأمور أثناء الطعام ، وإلا أثر ذلك على الهضم .

سألت تشـيانغ يون من جديد : " أستـاذ يوان ، ما رأى حضـرتك فى الزميلة سونينغ ؟ " . " هل تربطك بها علاقة طيبة ؟ "

"نعم"

" ماعمرها ؟ "

" لم تتم الثامنة عشرة بعد " .

" ماذا ؟ أما زالت بنت السابعة عشرة ، يبدو أنها أكبرمن ذلك " .

" بنيانهـا ليس بنيان فتاة صـغيرة ، "واسـتطرد الأستاذ يوان وقد قطب جـبينه "أرى أنها تفتقر إلى روح وحيوية الشباب، وهذا ، بطبيعة الحال ،ليس سوى انطباع مؤقت . أليس كذلك؟ ماذا حدث لها فى الآونة الأخيرة؟" .

ردت تشيانغ يون وقد نكست رأسها : "لا شيء . . لم يحدث شيء" .

بعد تناول الطعام ، انتقل الجميع إلى حجرة المكتب الخاصة بالأستاذ يوان.

قدمت أخت شن تشى الصغـرى للضيفتين عديدًا من الفـقرات المسلية، وغنت لهما أغنيتين ، بينما أمهـا تطرح عليهمـــا بلا كــلل ولا ملل العديد من الأسئلة ، مـثل "كم تبلغين من العــمر؟" ، "مـا هو مـسقـط رأسك ؟" ، "كم عدد أفـراد أسرتك؟" ولما علـمت أن تشن بوا يتيمـة الأبوين ، سكتت فجـأة واسـتغرقت فى تفكير عميق.

اقتربت يانغ تشيانغ يون من المكتب ، فرأت كثيرًا من الصور الفوتوغرافية أسفل زجاج المكتب ، معظمـها لمن تتلمذوا على أيدى الأستاذ يوان ، وعلى أحـد جوانبه مجموعة من الكتب، يعلوها جميعا كتاب بعنوان "كلنا فداء الحزب الشيوعى" ، لم تستطع تشيـانغ يون مقاومة رغبتـها فى أن تقلب صفحات هذا الكتـاب ، فوجدت تحت أسطره كثيرًا من خطوط القلم الأحـمر، ثم ألقت نظرة على الكتب الأخرى ، "جندى عادى" "سيـرة ليوخولان" . . . . سألت الأسـتاذ يوان فى شيء من الريبة ، "هل تقرأ حضرتكم هذه الكتب ؟ "اقـترب منها وأومأ برأسه قائلا ، "أود

أن أنتهى خلال إجازة الشتاء من قراءة كل الكتب التى تلقى قبولاً وحبًا من جموع الطلاب والطالبات" شعرت تشيانغ يون فى أعماقها بالاحترام والتقدير تجاه أستاذها، ورددت فى نفسها : "يا له من شيء رائع".

* * *

" حقا إنها عائلة محترمة " ، واستطردت تشيانغ يون مخاطبة تشن بوا وهما فى طريق العودة إلى المدرسة" لقد أحببت أخت يوان شن تشى الصغرى ، فهى طفلة لطيفة وحبوبة" سألتها تشن بوا " وما قولك فى أسرتك" .؟

"إننى لا أشعر باشتياق شديد نحو أسرتى : فوالدى مشغول بالكتابة طوال اليوم ، وإذا رجعت إلى البيت ، وجب التزام الهدوء وحرم علىَّ كل شيء حتى أن أسعل ، لذا فإن مسألة العودة إلى البيت ليست ذات أهمية عندى. وأنت لم تذهبى إلى بيت سونينغ ، إن أسرتها فى حقيقة الأمر أسرة بالغة السوء" .

سألت تشن بوا فى شك وريبة "هل حاق هذا السوء بكل أفراد الأسرة؟" .

فكرت تشيانغ يون برهة من الوقت ثم أخبرتها بذلك الموضوع الذى كان سوجون قد حدثها عنه.

تساءلت تشن بوا وقد سيطرت عليها الدهشة والمفاجأة : "هل حدث ذلك فعلا؟ أحقيقة ما تقولين؟" .

وربتت تشيانغ يون على يدى تشن بوا قائلة : "نعم حقيقة يا تشن ، حدث ذلك لسونينغ بنت السبعة عشر ربيعاً التى تعدلنى فى العمر . . . . . . إن زميلاتنا فى الفصل تتراوح أعمارهن جميعا حول هذه السن الصغيرة ، لكن يبدو أن كل ما يدور فى المجتمع من حولنا ينعكس ، علينا فكيف لا أفهم ذلك؟ إننى حقا ساذجة إلى حد بعيد . . . . تشن، ماذا ترين فى هذا الأمر ؟ . "

نكست تشن بوا رأسها ، مضت تقطع وتقذف الأحجـار الصغيرة بقدمها وهى تقول : "كـنت دائما أقـول فى نفسى إننى لست سـوى طالبة بالمرحلة المتـوسطة ، لست سوى فـتاة ككل الفتـيات ،لكنى كلما تكشـفت لى المآسى التى تعيشـها كل زميلة من الزمـيلات، استيـقظت عندى روح عضو الحزب الشـيوعى وروح الجندية البروليتارية، وإننى أزداد يقينا يومـا بعد يوم أن ذلك العالم القديم الذى ولى الأدبار ورحل عن دنيانا، مـازال يخلف لنا كثيرا من القـاذورات التى تلوثنا وتتراكم داخلنا نحن الفتيات الصغيرات ، فمثلا ، الزميلة مارى - أعود للحديث عنها مرة أخرى - كانت علاقـتها بى فى الآونة الأخيرة علاقـة طيبة ، لكننى عندما تحدثت معـها قبل عدة أيام فى مـوضوع حركة "بى خـه توان" ، وما كتـبته ذات مرة بخـصوص هذا الموضوع فى ورقة الإجابة ، تبدل لونها فى الحال وقالت لى : "تشن بوا، إننى أود أن أبقى على عـلاقتى الطيـبة بك ، ولكـن بشرط ألا تناقـشينى أبدا فى مـثل هذه الموضوعات ، فـأنا فى هذه الأمور لا أسمع سوى كلام الكـاهن ، ما العمل؟ إننى أخشى أن تهرب من لقائى بعد ذلك ، إنه أمر مـحير ، يقول الأستاذ يوان إن جيلنا أسعد حظا ، ولكننا فى حقيقة الأمـر نعيش أياما صعبة ، يجب علينا أن ننفض عن أنفسنا مخلفات وآثار المجتمع القديم ، علينا أن نواصل النضال ، نتحول من المعركة الصغرى إلى المعـارك الكبرى ! وبذلك - بذلك فقط - نصبح حقا جـيلا جديدا ، ونصبح أبناء الزعيم ماوتسى دونغ الحقيقيين" .

وعندما وصلتا إلى المدرسة ، قال أحد العمال لتشيانغ يون: "لقد جاء لزيارتك أحد طلاب معـهد الجيولوجيا، إنه فـارع طويل القامة ، انتظرك فى حجرة استـقبال الضيوف أكثـر من ساعة ونصف الساعة، لقد تأخرتما قليلا ، فـقد انصرف قبل أقل من عشر دقائق " .

سألته تشيانغ يون : "ألم يترك لى مكتوبًا؟"

"لقد رأيته يكتب رسالة مطولة ، ثم مزقـها ، وانصرف حتى دون أن يترك لك رسالة شفهية" .

"يا له من شاب غريب ! " وابتـسمت تشيانغ يون وأخـذت طريقها مع تشن بوا إلى داخل المدرسة.

* * *

وفي مساء اليـوم التالي ، استمـر الحديث في حجرة مكتب الأسـتاذ يوان بينه وبين لي تشـون حـتى سـاعة مـتـأخـرة من الليل، برنيطة الأبـاجـورة ذات اللون الأخضر تعكس ظلالها في أركان الحجرة الأربعـة ، الأستاذ يوان يضجع فوق مقعد مريح ، ورأسه تعلو مـستوى ضوء الأباجورة ، يضع على ساقيـه قطعة من اللباد ، تكورت فوقها قطة صغيرة، يربت الأستاذ يوان بيده فوق شعرها بينما راحت أنفاسها تتوالى وهي تغط في نوم عميق.

كانت تشـيانغ يون في بادئ الأمـر تجلس فوق كـرسي متحـرك، وهي تواصل حديثها مع الأستاذ يوان، ثم ما لبثت أن تناولت مقـعدا خشبيا منخفضا بدون مسند وذا قاعـدة مستـديرة ، وجلست فوقه على مـقربة من الأسـتاذ . ارتدت المعطف ، واشرأب عنقها وهي تتحدث مع أستاذها وقد أضاءت الأباجورة النصف الأسفل من وجهها . الـرياح تتسلل بخفة من ثقوب وفتـحات النافذة، فتحرك السـتائر ،تُسمع أصوات المفرقعات النارية. إن التي لا تتوقف ابتـداء من عيد الربيع حتى عيد حلول منتصف الشهر الأول للسنة القمرية. الحجرة تفوح منها رائحة حساء الجياوزة (١)

سألها الأسـتاذ يوان : "أبسبب هذا الموضوع ساءت حالتك النفـسية في الآونة الأخيرة؟"

(١) طعام صيني من رقائق الخبز المحشو باللحم المفروم والتوابل .

أجابت لى تشون : "نعم ".

وكانت لى تشون قد أخبرت الأستاذ يوان بموضوع كتابتها المسرحية ذات الفصل الواحد . فهى تشعر فى تعاملها معه بنوع من عاطفة الأبوة؛ ففى عام ١٩٥٠ وعندما كانت لى تشون فى بداية عهدها بالمدرسة الثانوية، وقعت فى خطأ بسيط جدا، فخصم الأستاذ يوان عدة درجات بسبب هذا الخطأ، ولم تقتنع هى بذلك وذهبت غاضبة تبحث عن الأستاذ يوان الذى لم يتحرك له ساكن ، وسألها : "هل تعلمين السبب فى أننى شديد الحزم تجاهك؟ واستطرد قائلا : "لقد كنت أراقب عليك فى امتحان التأهيل لدخول المرحلة الثانوية ، وعندما أخذت أوزع أوراق الاسئلة ، سارعت بالنظر فيها دون مبالاة بى ، فما إن تسلمت الورقة حتى سللت قلمك وأخذت فى الإجابة دون إعمال للذهن، وشد انتباهى أنك سرعان ما سلمت ورقة الإجابة بغير مراجعة، وتذكرت اسمك منذ ذلك الوقت، وبعدها أردت أن ألقنك درسًا ، أن أكون حازما معك، وأن أجعلك تتفوقين أكثر فى دراستك، فلماذا إذن أبديت عدم اقتناعك ؟ بدّل هذا الكلام غضبها إلى سعادة ، وقالت لى تشون فى نفسها وقد غمرها شعور بالسرور "حسنًا ، لقد غمرنى الأستاذ يوان بالثناء والتقدير ! " ومن ثم أصبحت تشعر تجاهه بالاعتزاز والثقة .

وهز الأستاذ يون رأسه قائلا : "لا داعى للضيق ، فهذا أمر بسيط، كتبت مسرحية من فصل واحد ولم يكتب لها النجاح ، فماذا يضيرك؟" .

"أمر بسيط ؟ وانفجرت لى تشون قائلة : "يا أستاذى الفاضل ، أتعرف حضرتكم كم واجهت من الأحداث التى تثير الحزن والأسى خلال السنوات الثلاث هذه من المرحلة الثانوية ، لم أتقدم لتسجيل اسمى عندما أعلن عن فتح باب دخول الجيش ، ومن ثم لم أجرؤ على أن أرفع رأسى داخل الفصل، ولذا عندما حصلت على ميدالية التفوق فى الفترة الدراسية الماضية، كانت نظرات الزميلات تنم عن عدم الارتياح، ولما تبادلت عبارات المزاح مع ووتشانغ فو ، تلقيت عبارات النقد واللوم

الشديد من اجتماع اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة. وأخذت جميع الزميلات تنظرن إلى بازدراء، ولم يعد لى بينهن من صديقة . حتى تلك المسرحية التى كتبتها . . . انتهى أمرها . ناهيك عن تشن بوا وغيرها من الزميلات اللاتى اقتربن من التفوق علىّ. ألا يعنى كل ذلك أننى لست على ما يرام؟"

اعتدل الأستاذ يوان فى جلسته ، ورفع النظارة كعادته ، وحمل القطة عن ساقه إلى الأرض ، فراحت تحرك ذيلها وتصدر أصوات "مواء" تعبيرا عن احتجاجها . انصرف عنها وقال: "لقد حضرت يانغ تشيانغ يون وتشن بوا لزيارتى بالأمس، روحهما المعنوية فى السماء،تقبلان على الحياة بصدر منشرح وقلب مفتوح ، تحدثتا عن دراستهما وعن نشاطاتهما داخل الفصل . . . .

قاطعت لى تشون : "هذا أمر طبيعى بالنسبة لهما" .

"ولماذا يعتبر ذلك أمرا طبيعيا ؟" .

"لأنهما من المتفوقات"

"ماذا تعنين باستخدامك ضمير الغائب (هما ،أكثر من مرة ؟ ، أنتن جميعا زميلات دراسة، وهما يكنان لك كل تقدير وإعزاز" .

"أى تقدير وأى اعتزاز ؟ وماذا عن ذلك النقد اللاذع الذى وجهتاه لى فى اجتماع اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة؟ وهذه الشعارات الجوفاء التى يتشدقان بها فى حب الوطن والاشتراكية ، هل أعجز عن التشدق بمثلها؟ ، إننى أشعر أنه لا طائل من وراء الكلمات البراقة، ولذا تعتقدان أننى متخلفة ورجعية ، حسنا ، تقدما أنتما يا أيتها التقدميتان" .

"لى تشون ، لا أستطيع أن أوافقك على هذا ، أنت مخطئة ! " ورفع الأستاذ يون النظارة عن عينيه ووضعها فوق اللبادة التى غطى بها ساقيه، واستطرد قائلا:

"لقد كنت أنا الآخر فيما مضى لا تثير إعجابى تشن بوا أو ما شاكلها من الطالبات، فقد كنت أعتقد أنهن يشغلن أنفسهن بأمور تافهة ، حتى إننى كنت أشعر تجاههما بالأسف والأسى، ولكن الواقع أثبت لى - لست أدرى ، أى الكلمات يمكن استخدامها للتعبير على وجه التحديد؟ - أن لديهما روحًا عالية خلاقة وعزيمة قوية، يذاكران دروسهما بروح مقاومة العدوان الأمريكى وتأييد النضال الكورى ، ولذا فلم تشتكيا أبدا من صعوبة هذه الدروس ، لديهما روح الكفاح والتغلب على الصعاب، فأى شىء - حتى وإن كان وفاة الأم - لا يمكن أن يؤثر عليهما أو يعوق مسيرتهما، أيمكن أن يكون ذلك كلاما فارغا؟ إنهما تعملان بحماس لخدمة الجميع، انظرى إلى كل مكان حولك ، إلى زميلاتك فى الفصل، ستجدين أن الجميع يحبهما ويلتف حولهما، وأن لهما الكثير من الصديقات ، هل هذه أيضا مجرد كلمات براقة ؟ إنهما لا تسعيان أبدا إلى الحصول على وضع خاص داخل الفصل ؟ أيمكن أن يكون ذلك من الشعارات الجوفاء؟" .

جاءت كلمات الأستاذ يوان متلاحقة سريعة ، مما جعله يسعل بشدة.

أسرعت لى تشون وصبت له كوبا من الشاى.

نحى الأستاذ يوان كوب الشاى جانبًا ، وقال فى روية وهدوء : "أغلب الظن أنك تذكرين أننى عرفتك منذ الامتحان التأهيلى للقبول بالمرحلة الثانوية ،فأنت طالبة مجتهدة على درجة عالية من الذكاء ، لكن فيك عيب خطير - وقد كنت وأنا طالب كثيرا ما يتطرق أستاذى إلى الحديث عن موضوع العلاقة بين الدراسة والأخلاق - وهو أنك تستطيعين تحقيق التفوق الدراسى لكنك تفتقدين تطبيع نفسك على الأخلاق الحميدة، وتزعمين أن الأخريات ينظرن إليك بازدراء، بينما الحقيقة أنك أنت التى تفعلين ذلك ! وتدّعين أن الأخريات يتشدقن بالكلمات الفارغة والشعارات الجوفاء ، بينما الحقيقة أن نظرتك إلى الأمور قاصرة ومحدودة !"

نهضت لى تشون من مجلسهـا ، وقالت وهى تمسح بيدها رجل بنـطلونها فى عصـبيـة ، "أستاذى الـفاضل ، ربما أكون مـخطئة كل الخطأ ، ولـكنك ذكرت أن نظرتى قـاصرة ومـحدودة ، فـماذا تعـنى بذلك؟ ، وقد طالعت "مـذكرات مـدام كورى" وأنا فى نهـاية المرحلة الابتـدائيـة ، هذا الكتاب الذى ربما لم تقـرأه معظم طالبـات الثانوية بعـد، بينما قـرأته أنا فى مثل هـذه المرحلة المبكرة. كنت آنذاك فى الحادية عشـرة من عمرى، وكنت أنهض من نومى فى منتـصف الليل، وأقسم على نفسى أننى إذا لـم أقدم للبشـرية مثلما قـدمت مدام كـورى من إسهامـات ، فإننى سأعتبر حياتى دربًا من دروب اللهو والعبث . ومنذ نعومة أظفارى، كنت أعمد إلى الإقلال من اللهو والمرح ، بل أضحى بلحـظات السعادة من أجل القراءة ،من أجل أن أقرأ كتابا. " .

رفع الأستاذ يوان النظارة من فوق اللبادة ، ونهض من مجلسه فى روية وتؤدة، وسقطت اللبادة من فوق ساقيه على الأرض. اقترب من المكتب وفتح أحد أدراجه ، وأخذ يقلب فى محتوياته ثم أخـرج دفترا قديمًا ذا لون باهت ، وأشار بذراع النظارة فاقتربت منه لى تشون:

قال الأستاذ : "انظرى ، هذه مذكراتى عندما كنت طالبا ، مضى عليها ثلاثون عاما ، انظرى !"

قلبت الصـفحـة الأولى ، فإذا بالكلمـات التاليـة مكتوبة بخط ريـشة جمـيل ومنظم:

"سوف أهب نفـسى للعلم والدراسة مـادمت حيا ، فـإذا لم أشق طريقى بين المثالب والأشـواك وأحقق مـا لم يحققـه السلف من المنجزات، ألا يـكون هذا أمرا مؤلما؟ وإن لـم أستطع أن أكون مـثل نيوتن أو أديـسون ، ألا يكون ذلك أمـرًا مؤلما أيضا؟

وأعادت لى تشون قراءة هذه الفقرة أكثر من مرة.

أغلق الأستاذ يوان سجل مذكراته ، وقال ساخرًا من نفسه " لقد كان عندى طموح كبير منذ الصغر ، لكنى الآن مضى بى العمر ، دون أن أحقق ما لم يحققه السلف من منجزات ، ولم أستطع أن أكون مثل نيوتن أو أديسون ، فلم يتبق لى سوى "الألم" .

وراح الأستاذ يقول وهو يقطع الحجرة ذهابا وإيابا : "كنت آنذاك شابًا يافعًا قوى البنيان ، ينتفخ صدرى غرورًا وكبرياء ، أشعر كأن الشمس والقمر يمكن أن يأتمروا بأمرى. وبعد ذلك عملت مدرسًا بالمرحلة المتوسطة لأنى لم أتم دراستى الجامعية بسبب ظروفى الأسرية السيئة ، كنت أعمل بالتدريس نهارا ، وأستغرق فى القراءة ليلا ، لا يغمض لى جفن قبل الثانية صباحا على الأقل ، كنت أعيش عدة أشهر على الخبز الجاف ، لا أذوق طعم اللحم أو الخضروات المطهوة كى أوفر ما يكفى لشراء كتاب، أريد أن أكون مثل نيوتن مهما كانت السبل المؤدية إلى ذلك! وفى النهاية انهارت صحتى ، وأصبت بالحمى التيفودية ، ونصحنى كل الزملاء ، "كفاك يا سيد يوان ، إننا من ذوى الخبرة ، ومررنا جميعا بهذه الفترة ، وامتلأت صدورنا بغبار الطباشير وذراته حتى نكسب قوت أولادنا، وانتهى بنا الأمر عند هذا الحد ، فأى رياضيات تلك التى تبحث فيها ؟ ، وبعد أن تحسنت صحتى فصلتنى المدرسة من العمل، ولم يعد لى مورد للرزق ، فبعت الكتب ، ومن ثم فشلت فشلا ذريعا فى تحقيق آمالى العريضة بسبب الحمى التى لم تبرح جسدى طيلة أربعين يوما" .

وعاد الأستاذ يوان من جديد إلى مقعده المصنوع من الخيزران والقماش ، وأخذ قطعة اللباد من الأرض ووضعها فوق ساقيه ، وتنهد فى حزن وأسى ، فقد تجدد الجرح الذى كان قد اندمل وأصبح فى طى النسيان. . . . أسبل عينيه ، وقال محاولا تهدئة نفسه ، "لقد كانت آمالى عريضة وطموحاتى هائلة، بينما كنت أنا فى واقع

الأمر ضعيف القدرات محدود الهمة ! أفتقر إلى رؤية واضحة وحقيقية لمستقبلنا ومستقبل بلادنا ، أفتقد الهدف الأسمى الذى يوقظ فى نفسى إرادة التغلب على الصعوبات وإزالة العقبات ، فقد كنت أشعر بالوحدة ، وأفتقد مساعدة التنظيمات وتأييد الأصدقاء، كانت تراودنى أحلام محمومة بالنجاح ، لكنى افتقدت القدرة على تحقيق الأحلام وإدراك النجاح ، يا لها من معاناة!"

أثارت هذه الكلمات شجون الأستاذ يوان الذى أشار إلى لى تشون قائلا : "إن الظروف الآن أفضل من ذى قبل ، وإننى على يقين من أنك - وأنت تلميذتى - قادرة على تحقيق أحلامك ، بل وتحقيق أحلام أستاذك فى نفس الوقت.

ولكن عليك ألا تركزى اهتمامك فقط على الامتحانات والدرجات وتهملى الجانب الروحى والمعنوى ، وألا تهتمى فقط بنفسك وتنصرفى عن الآخرين.

فمن يفعلون ذلك لابد أن تواجههم العقبات الكأداء التى لا يمكن اجتيازها.

إن كل إنسان نقى السريرة نافذ البصيرة يجب أن يكون على يقين بأن قدراته بمفرده محدودة. "ابنتى لى تشون عليك بالحذر واليقظة !"

ساد بينهما صمت طويل ، واشتد برد الليل ، وشد الأستاذ يوان قطعة اللباد فوق ساقيه . وسحبت لى تشون معطفها وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة وهى ترتعد قليلا من شدة البرد.

"ربما أكون قد تجاوزت بعض الشىء فى حديثى معك ، لكن ، هل مازلت تذكرين انتقاداتى لك بسبب ورقة الامتحان؟"

أومأت لى تشون ، واتجهت نحو النافذة وسحبت الستارة جانبا ، الليل حالك الظلمة، يتهادى من بعيد صياح الديكة "كو - كو -كوكو" وكاد الليل الطويل ينقضى فى حديثهما الذى يفيض حماسة وحرارة.

(٢٠)

" . . . . أيتها الطالبات ، هناك ثلاث مناسبات ، هى أهم ما يواجهنا فى هذه الفترة الدراسية ، ألا وهى : الاحتفالات بعيد المدرسة ، ويوم الأول من مايو، ويوم الرابع من مايو. فنحن جميعا نعلم أن يوم التاسع والعشرين من أبريل هو العيد السنوى لمدرستنا- ففى مثل هذا اليوم من عام ١٩٤٨ ، قام جواسيس حزب الكومينتانغ الرجعى بشن هجوم مفاجئ على مدرستنا ، فاعتبر هذا اليوم يوما من أيام النضال. ونعلم أيضا أنه بعد يومين من هذا التاريخ ، وفى يوم أول مايو يحين عيد العمال العالمى، هذا ، وماذا بعد ثلاثة أيام من عيد العمال؟ إنه يوم الرابع من مايو عيد الشبيبة ، وأيضا الاحتفال بمرور أربع سنوات على قيام رابطة الشبيبة الشيوعى.

" أيتها الطالبات ، لقد قرر مجلس المدرسة أن نحتفل بهذه الأعياد الثلاثة مرة واحدة. وعلينا أن نستقبل هذه الأعياد بإنجازات ونجاحات ومظاهر احتفالية جديدة، وأن نعرض منجزات مدرستنا وطالبات مدرستنا فى رفع مستوى الأعمال التعليمية والتربية الفكرية وإعداد المتفوقين وأصحاب المواهب . . . . الزميلات العزيزات،لقد قررت اللجنة الرئيسة لرابطة الشبيبة واتحاد الطلاب إقامة مسابقات فى كتابة المقالة قبل يوم الرابع من مايو، وكذلك إصدار مجلة خاصة بمناسبة الاحتفال بعيد أول مايو وعيد الرابع من مايو وعيد المدرسة ، وإجراء مسابقات فى النظافة والصحة وحماية البيئة . . . . وقد تم تحديد يوم "الرابع من مايو" ليكون يوم العودة إلى المدرسة ، تعود فيه الخريجات العاملات فى شتى نواحى الحياة إلى مدرستهن الأم ، نلتقى معًا ، وسوف تقام فى ذلك اليوم المهرجانات الفنية ومسابقات الخطابة وعروض الجمباز ومنافسات فى ألعاب كرة السلة والكرة الطائرة، وبالطبع سيقام حفل تذكارى، وهناك الكثير والكثير من الأنشطة والفقرات الأخرى . . . .

"زميلاتى العزيزات ، علينا أن نستعد بصورة جماعية لاستقبال عيدنا العظيم !

وإننى نيابة عن اللجنة الرئيسة لرابطة الشبيبة واتحاد الطالبات أنادى بأن يسعى كل فصل من أجل الحصول على المراكز الأولى فى المسابقات ، فهذا شرف وفخر ولكن الأهم من هذا كله هو المواظبة على الدراسة ! فهذه الأنشطة لا يجب أن تعوق مسيرتنا الدراسية، ولكن تدفعنا إلى المحاولة ،بل يجب أن تشجعنا وتحثنا على الدرس! وبذلك ،نستطيع من خلال هذه الأنشطة أن نرفع مستوى عمل الرابطة ، ونرفع كذلك من مستوى الوعى عند الزميلات الأخريات ! "

وفى النهاية أعلنت لوتشن أن على كل فصل أن يناقش على حدة ، بأى وضع نستقبل أعيادنا؟ " . .

وختمت لوى تشن كلمتها التى ألقتها فى اجتماع العناصر الطليعية ، وخرجت تشوشيا ولينغ وزميلاتها من قاعة الاجتماعات ، تقلد لوى تشن وهى تمشى "زميلاتى العزيزات . . إننى أنادى . . "

ثم التفتت تسأل يوان شن تشى ويانغ تشيانغ يون قائلة : "حتى السؤال الذى طرحته كان سؤالا وجيها - وقهقهت - بأى وضع نستقبل أعيادنا؟ ربما كان هذا الوضع ؟" ثم أحنت وسطها وأخذت وضع الاستعداد لعدو مسافة مائة متر.

وبينما كانت تشوشيا ولينغ على هذا الوضع ولم تعتدل فى وقفتها بعد ، أحست بيد تنبسط على كتفها، وسمعت صوت لوي تشن يقول " : "كيف الحال؟ ما رأيكن فى الترتيبات التى طرحناها اليوم؟ " وفزعت شيا ولينغ وانتفضت معتدلة.

وردت يوان شن تشى : "ليست لدينا ملاحظات، ومازلنا نفكر فيما سيفعله فصلنا، فالتفتت إليها لوي تشن وسألتها "أنت يوان شن تشى ؟ لقد تم اختيارك رئيسة الفصل فى هذه الفترة الدراسية ، أليس كذلك ؟ ، عليكن طالبات الصف

الـثالث أن تعملن بكل جدية ، وأن تكن الطليعة والقدوة فى كل شىء ، فهذه هى فرصتكن الأخيرة ! "

وأومأت يوان شن تشى بالموافقة

* * *

وبعد الانتـهاء من مناقشة هيـئة ووضع الفصل خـلال الاحتفالات بالأعـياد ، أخذت طالبات الصف الثالث يتشاورن فى العروض والمسـابقات التى يشتركن فيها ، "لا ، أنا لا أحبـذ المشاركة فى عـروض الرقص ، فإن رقصـات قوميـة التبت التى أنتمى إليها قد أصبحت بالية أكل عليها الدهر وشرب. "

"ماذا تقولين ؟ لا نشارك فى مسابقات الكرة؟ هل تعلمين بأهمية التدريبات الرياضية؟ "

"فلندع كل واحدة تشترك فى المسابقات التى ترغب المشاركة فيها" .

"عليك أن تذعنى لرأى الجماعة ! ويجب أن يكون لفصلنا برنامج جماعى يعبر عنه" .

"إننا ينبغى أن نشكل فريقـا للغناء الجماعى . ونأخذ على سبـيل المثال حنجرة شيا ووانغ فهى تطلق صوتا أجمل بالتأكيد من صوت المطربة المشهورة قولان ينغ.

ثم قررن المشـاركة فى كل النشاطات وأن يحددن دور كل منهن. وفى الـساعة الرابعة بعد الظهر كان الفصل مشـرقا متلألئا ، فلم يكن قد مضى وقت طويل على قيـام الطالبة النوبتجـية بتنظيف أرض الفـصل ورشها بالماء ،ورغـم أن ذرات الغـبار أخذت تـستكين وتسـتقـر ، إلا أن حركة الزمـيلات وزحـامهن جـعل هذه الذرات تتصاعد فى جو الفصل من جـديد ، حتى إنه يمكنك أن تـشاهـد بـوضوح أعداداً لا حصر لها من هذه الذرات التى تتأرجح وتتبـختر داخل أشعة الشمس التى تتسلل إلى الفصل .

نهضت يانغ تشيانغ يون تتحدث إلى زميلاتها ، "الزميلات العزيزات ، إن ترشيحاتى تأتى على النحو التالى: أن تسند مسئولية المسابقات الرياضية إلى تشوشيا ولينغ . . . . وجذبتها ووتشانغ فو من الخلف ، فسألتها تشيانغ يون فى صوت خفيض : "ماذا حدث ؟، فردت عليها تشانغ فو فى مزيد من الاهتمام : "ابتعدى برأسك عن مسار شعاع الشمس لأنه يحمل أعدادا كثيفة من ذرات الغبار. "

واستطردت تشيانغ يون وذرات الغبار مازالت تتسلل إلى أنفاسها : "وإننى أرشح سونينغ لتكون مسئولة عن فريق الغناء الجماعى بالفصل. فإن لديها حسًا موسيقيًا على مستوى عال علاوة على أنها تجيد العزف على الكمان.

أما بالنسبة لمسابقة الخطابة فإننى أحبذ ترشيح يوان شن تشى . . . . .

وقبل أن تنتهى تشيانغ يون من حديثها ، قاطعها عدد من الزميلات : "مهلا مهلا ، كيف تنتهين من الترشيحات فى دفعة ؟ ألا تعطى فرصة الاختيار للزميلات الأخريات؟ "

وتولت يوان تشى عملية التصويت على الترشيحات السابقة ، وخطبت تشوشيا ولينغ بالموافقة على توليها مسئولية المسابقات الرياضية ، بينما أبدت بعض الزميلات اعتراضهن على ترشيح سونينغ لتكون مسئولة عن فريق الغناء ، لكن تشيانغ يون استخدمت كل الأساليب الصادقة والمخلصة حتى تمكنت من إقناعهن بترشيحها لسونينغ ، وانتقلن بعد ذلك إلى ترشيح من تشارك فى مسابقة الخطابة ، فقالت يوان شن تشى : "أيتها الزميلات ، دعونى أعبر عن رأيى الشخصى" . وابتسمت إلى تشيانغ يون ابتسامة تعبر عن الاعتذار واستطردت ، "إننى أقترح لى تشون لمسابقة الخطابة ، وإننى لعلى يقين من أنها ستمثلنا خير تمثيل وستحقق النجاح " .

أحنت لى تشون رأسها ، وقلبها يخفق خفقات سريعة متلاحقة.

ثم ما لبثت أن رفعتها عندما أدركت أن انحناء الرأس أمر غير طبيعي ، ووضعت يدها اليمنى على خدها ، وراحت ترنو ببصرها إلى صورة "جويا " المعلقة على الحائط والتى تنعكس عليها أشعة الشمس فتزداد إشراقا وتألقا ،وبدت لى تشون وكأنها لا صلة لها بما تناقشه زميلاتها.

ساد الفصل هدوء لبرهة من الوقت ، وأخذ الجميع يقارن بين الطالبتين المرشحتين، بينما يوان شن تشى تجوب وجوه الزميلات بنظراتها فى محاولة للتأكيد على سلامة وصحة اختيارها.

وحينئذ نهضت ووتشانغ فو من مجلسها دون سابق إذن ، فاصطدمت بالمنضدة والكرسى وأوقعت القلم الحبر على الأرض.

وانحنت تلتقط القلم من الأرض وهى تقول : "يا للحظ العاثر ، لقد انكسر سن القلم ، ما العمل؟ لقد كنت قد اشتريته مؤخرا . . . . . (ومطت شفتيها وابتسمت). زميلاتى ، إننى أرشح لى تشون لمسابقة الخطابة ، فأنا على علاقة طيبة بالجميع ، والكل يعرف بوقوع المناوشات بينى وبين لى تشون فى الفترة الدراسية السابقة ، لكننى لا أضمر لها ضيمًا شخصيا فى نفس الوقت ، وقد اعتذرت لى فى ذلك اليوم ، وتصافحنا ثم تعاتبنا وتصافينا. . . ما علينا من ذلك ، لندخل فى صلب الوضوع ، إن لى تشون متفوقة فى دراستها ، وذات عقل راجح ، بل والأكثر من ذلك أنها تجيد الكلام ، أليست الخطابة لونًا من ألوان الكلام ؟ إن كنتن لا تثقن فى كلامى ، جربن وتحدثن مع لى تشون وجادلنها لترين من التى تتفوق فى الكلام؟ هـه ! هناك من يقولون إن للفم وظيفتين ، إحداهما تناول الطعام والأخرى الكلام، وربما كان فمى من ذلك النوع الأول الذى خلق لتناول الطعام - هذا أمر ليس مجاله الآن- ولكنى متأكدة أن فم لى تشون خلق من أجل الكلام ، والكلام فقط !

قهقـهت جميع الحاضـرات ، ورفعت ووتشانغ فـو قبضتهـا وهى تقول ، "علينا أن نرشح لى تشـون " ثم جلست وهى على اقـتناع تام بكلامـها ، وكـانت جلستها هذه المرة تعبر عن شعور بالاعتزاز والقوة لم يخالجها من قبل.

وهكذا ، وتحت تأثير كـلمات ووتشانغ فـو الشجاعـة المقنعة ، وافقت جـميع الطالبات على ترشيح لى تشون للاشتراك فى مسابقة الخطابة.

فى أى وقت اعـتذرت لى تشـون لووتشانغ فـو ؟ ولماذا ؟ هذا حدث بعـد حديث لى تشون مع يوان شن تشى وتشن بوا ويانغ تشيانغ يون.

هدأت أعصـاب لى تشون بعـض الشىء بعد حـديثها خـلال عطلة الشـتاء مع الأستاذ يوان ، لكنها فى الوقت نفسه بدت مهمومة أكثر من ذى قبل. وقضت اليوم التالى كله فى المغسلة تغسل ملابسها فقد غـسلت ملابسها وجواربها المتراكمة وملاءة السرير . اسـتعارت طستًـا كبيراً من البـلاستيك أخضـر اللون ، ملأته بالماء الدافئ ووضعت فيـه الغسيل ، وجلست أمامه فوق مـقعد صغيـر من الخشب ، عن يمينها الصبانة ومسحوق الغسيل ، وعن يسـارها وعاء صغير من ذلك النوع الذى يستخدم فى غسل الوجه . واسـتندت ببطنها إلى لوح خشبى صغـير تدعك عليه الملابس ، وأخذت تدعك الملابـس وتغسلها ورغـوة الصابون تطفـو وتسيل على قـدميهـا وقد انبعثت منها رائحة غير محببة للنفس هى مزيج من رائحة الملابس والصابون. وراحت تغسل والأفكار تدور بخلدها فى صـمت ، وفى بعض الأحيان تتحدث إلى نفـسها بأصوات مسموعة.

"أغلب الظن أننى لسـت على صواب، فـقـد قـال الأستـاذ يوان أيضـا إننى مخطئـة، الجميع أعلنوا أننى مـخطئة ، ولكن أين يمكن هذا الخطـأ؟ لـقـد حدثنى الأستـاذ يوان عن فتـرة شبـابه ، فمـا علاقـة ذلك بى ؟ وإننى فى نفس الوقت لم أخطئ خطأ واضحا ! كيف تختلط علىّ الأمور بهـذا الشكل ؟ لقد أخبرنى الأستاذ

يوان أنه كانت تنقصه بعض الخبرات في شبابه مثل : تحديد هدفه فى الحياة ، والقدرة على الانخراط فى صفوف الجماعة، وأشعر أننى تنقصنى نفس هذه الخبرات أيضا ! يساورنى إحساس أننى لست مثل تشن بوا ، ويانغ تشيانغ يون وبقية الزميلات، بل أقل منهن انطلاقا إلى الأمام ، أليست هذه حقيقة واقعة؟ ماذا أفعل ؟ أن أراجع نفسى . . . . ماذا أقول؟ أبعد هذا السباق والمنافسة الطويلة أذهب إليهن صاغرة مقرة بخطئى ؟ أشعر بقلبى ينتفض بين ضلوعى ! لماذا لا أحاسب نفسى بنفسى ؟ ماذا أزيد أنا عنهن . . . . "

انتهت من غسيل قطعة من الملابس ونقلتها إلى الوعاء الآخر وشطفتها بالماء النظيف ، حركت رأسها يمنة ويسرة واسترخت برهة من الوقت ، ثم تناولت قميصًا قديمًا وفردته على اللوح الخشبى وراحت تدعك بالماء والصابون.

"ماذا يدعونى للتعالى والكبرياء؟ ملابس من النوع البسيط المألوف ،صابون من النوع الرخيص - ثمن القطعة عشرة فن - ويمكن شراؤه من أى مكان ، والماء هو الماء الذى يستخدمه كل الناس والمكون من ذرتين من الهيدروجين وذرة واحدة من الأكسجين ، وإناء بلاستيكى أخضر من النوع العادى المألوف ،كل شىء بسيط ، ومألوف . . . . ".

وفى اليوم التالى أرادت أن ترتق الجورب ، بحثت عن الإبرة فى كل مكان فلم تجدها ، استعارت من إحدى زميلاتها إبرة كبيرة من ذلك النوع الذى يستخدم فى خياطة نعل الحذاء ، كانت تتحرك فى بطء بذهن شارد وعزيمة واهنة وهى تشعر أنها لا حول لها ولا قوة ،وقالت ساخرة من نفسها : "ماذا أفعل الآن سوى رتق الجوارب وغسيل الملابس ؟ " ثم راحت الجورب فى خفة وسرعة وكأنها تسرى عن نفسها ، والإ برة الطويلة تدخل وتخرج فى حركات متعاقبة متوالية. وانزلق إصبعها من فوق الإبرة ، فانغرس سنها المدبب فى إصبعها الإبهام الذى يقبض على

الجورب ، وتألمت من هذه الوخزة الشـديدة المفاجئة ، وسالت من إصبـعها قطرات الدم ذات اللون الأحمر القانى.

وألقت لى تشون بالقالب الخشبى الذى كانت تثبت عليه الجورب والإبرة جميعا على الأرض ، ووقع القالب فـوق الإبرة فانكسر سنها، وعلقت الأوسـاخ بالجورب من الأرض التى لم تكن نظيفة ، وشـاهدت زميلاتها حولهـا ذلك المنظر، فأسرعن وأحضرن لها الميكروكروم ، وسألنها فى حنو واهتمام ، "هل تشعرين بألم؟"

هزت لى تشون رأسها ، ووضعت على إصبعـها قليلا من الميكروكروم، ولفّته برباط أبيض ، ثم لملمت الأشياء التى كـانت قد وقعت على الأرض ، استندت إلى السرير ، وعقدت يديهـا على رأسها من الخلف ،وأطلقت تنهيدة خفيـفة ، وفجأة اجتاحها شعور بالسرور، لأنها اعتادت أن يقع لها مكروه بعد كل مرة تشعر بالحزن: فمثـلا عندما التحقت بالمدرسة الابتـدائية ، تشاجرت ذات مرة مع إحدى زمـيلاتها فاجتاحهـا شعور بالحزن وعدم الارتياح ، وبعد ذلك خرجت إلى الشارع فـصدمتها دراجة، وعندما كـانت أصغر من ذلك حدثت مـشادة بينها وبين زوجة عـمها والتى قامت على أثر هذه المشادة بتـحطيم عروستها الجديدة المصنوعـة من الخزف ، كانت لى تشون تصل إلى ذروة التـعاسة عندما تقع هذه المصـائب المفاجئة علـى رأسها ، ولكـنهـا كانت دائما فى مـثل هذه الظروف تستـيقظ على تساؤل لمـاذا أسلم بالأمر الواقع ،ومن ثم كانت إذا مـا واجهت شعـورا بعدم السـعادة ، إما أن تتـغلب عليه وتخرج منه وإما أن تدخل فى حالة جديدة تنأى بها عن هذا الشعور.

توصلت لى تشون إلى هذه التجربة من جديد وهى تستند إلى سريرها.

وسألت نفسها : "أيمكن أن أستمر على هذه الحالة من الكآبة وعدم السعادة؟" .

"ماذا ارتكبت من الأعمال المشينة ؟ لم أرتكب شيئًا من هذا القبيل .

"هل أنا على أحسن ما يرام ؟ بل حالتى لا بأس بها . نعم هناك بعض الأمور غير السارة، ولكن ألا يمكن أن أدور بنفسى مائة وثمانين درجة ؟ هل يمكن أن تنقصنى الشجاعة التى تدفع إلى الاعتراف بالخطأ ؟ لا ، بل يجب أن يندهش الجميع لشجاعتى . . . يجب أن أتغير بداية من الفترة الدراسية المقبلة ،أن أكون أكثر إيجابية ،أكثر تواضعا ، أكثر رغبة فى خدمة الجماهير.

يجب أن أنطلق ، أن أملك زمام المبادرة !"

ثم ذهبت تبحث عن يانغ تشيانغ يون، قالت لها فى نبرة صادقة : "هل عندك وقت بعد ظهر غد؟ أريد أن أتحدث معك، لقد كثرت أخطائى ومثالبى ، وآمل أن تمدى لى يد المساعدة، واستجابت تشيانغ يون للدعوة فى سرور.

ذهبت تشيانغ يون تقول لتشن بوا ، "هل تعلمين ؟ لقد جاءت لى تشون أيضًا للغرض نفسه . وأخرجت تشيانغ يون طرف لسانها وهى تقول ،"يا إلهى ، لعلها تريد أن تعقد مؤتمرًا !"

وبعد ظهر اليوم التالى التقت الزميلات الأربعة ، ورأت لى تشون أن الفصل به زميلات أخريات، فاقترحت أن يذهبن إلى عنبر النوم، وهناك وجدن زميلات أخريات أيضًا . وأخيرًا طلبن مفتاح معمل الأحياء من قسم الإشراف والتوجيه ، وذهبن إلى هناك، وجلسن ، ومن خلفهن نموذج هيكل عظمى للإنسان، وإلى جوارهن الدوارق الزجاجية بها عينات من كافة أنواع الحشرات والديدان.

وتعلق على حوائط المعمل لوحات مصورة متنوعة تبعث على الخوف ، ورائحة الكحول تفوح من كل مكان بالمعمل. بدت لى تشون راضية تمام الرضا عن هذا المكان الهادئ ، وبدأت الحديث وصدى الصوت يتردد فى أرجاء الغرفة الواسعة.

"كل ما أريد أن أقـوله إننى خلال الفترة الدراسـية الماضية ارتكبت الكثـير من الأخطاء قولاً وفعلاً ، وخـرجت فى كثير من المواقف عن روح عضو رابطة الشـبيبة الشيوعية وأتمنى أن أظهر بمظهر جديد. ونحن الآن على أعتاب فترة دراسية جديدة، لذا أطالب ثلاثتكن - يانغ تشـيانغ يـون،ويوان شن تشى ، وتشن بوا - أن تطرحن على مسـامعى آراءكن وانتـقاداتكن لى . آملة ألا تـدخرن وسعـا فى إبراز أخطائى ومثالبى دون أدنى تحفظ وبكل ما أوتيتن من قوة" .

وقـبل أن تنتـهى لى تشـون من كـلامـهـا ،أطلقـت يوان شن تشى ضـحكة عالية،حتى تجهمّ وجه الأولى، وأشاحت شن تشى بيدها قائلة:

"يا إلهى ،مـا هذا الذى نفعله؟ هل هو اجـتمـاع رباعى لوزراء خارجـية دول أربع؟ إن لى تشون تستخدم معنا نحن الثلاثة، أسلوب التكلف والمجاملة.

أجئنا إلـى هذا المكان الموحش، وجلسنا مع الهيـاكل العظميـة لتسـود وجوهنا الصرامة ويكسوها الجـمود ونبدأ فى توجيه الانتقـادات ، إننى لا أحتمل هذا الجو ! فلنطلق الحديث على سجيتـه، تطرح كل منا آراءها فى الأخرى حتى إذا تعبنا تحدثنا فى أمور أخرى. ماذا ترون فى هذا القول؟. "

انتقلت عـدوى الضحك إلى الأخريات فـضحكن، ووافقن . وهكذا - وكـما تنطفئ فقاقيع الصـابون - تمكنت يوان شن تشى من إزالة ذلك الجو الصارم الكئيب الذى خيم على الجلسة.

نادت تشيـانغ يون "لى تشون !" وخـاطبتهـا وهى تنظر إليهـا وقد زادت عيناها اتساعا ، : "كدت أطير من السعـادة عندما سعيت إلىّ بالأمس ، فقد كنت أريد أن أتحدث معك أنا الأخرى . لم يهنأ لى نوم ليلة أمس وأنا أفكر ما هو الجديد الذى جد على لى تشـون؟ لماذا حدثت هذه الخـلافات التى مزقت وحـدتنا؟ ، لقد

حان الوقت لكى نتبادل الآراء. لى تشون دعينى أسألك أولاً ، هل حالتك النفسية سيئة فى الآونة الأخيرة ؟" .

هزت لى تشون رأسها بالنفى.

"لا ، لا أصدق ، لقد كانت حالتك النفسية سيئة ، لماذا تخفين ذلك ؟ ورغم أنك لم تخبرينى بالسبب ، إلا أننى عرفته بالتخمين" .

"تعرفينه بالتخمين؟" .

"انظرى ،لقد اعترفت على نفسك ! "وأمسكت تشيانغ يون بشدة بطرف الخيط الذى سقط سهوا من لى تشون ، ولم تستطع أن تغالب نفسها من النهوض والاقتراب منها، وسحبت مقعدا آخر وجلست عليه ، بينما يوان شن تشى تجلس وهى تلف يديها حول ركبتيها فى انتظار حديث تشيانغ يون، وبدت تشن بوا وكأنها لاتعى شيئا مما يدور حولها وهى تنظر إلى لى تشون التى احمر وجهها وقد بدت عليها علامات الشك وعدم الاقتناع.

"نعم ، لقد استطعت أن أخمن ، إن حالتك النفسية ليست مستقرة وهذا ليست مرة واحدة من قبيل الصدفة ، فأنت أقل منا حيوية وانطلاقا ، أرى أن فيك كثيرا من المزايا ، فأنت ذكية ذات عقل راجح ومتفوقة فى دراستك ، لكن لست سعيدة ! وذلك لأنك - وأنا هنا أقر حقيقة - لأنك أنانية ! "

وتوقفت تشيانغ يون لحظة لترى أثر هذه الكلمة على وجه لى تشون التى ابتسمت ابتسامة صفراء، وحينئذ سحبت يوان شن تشى ضفيرة شعرها من فوق ظهرها وسحبت عنها الفيونكة المصنوعة من المطاط وراحت تضفره من جديد فى دعة وهدوء.

عقـدت تشيـانغ يون يديها على صـدرها وقالت فى تأثر شـديد : "أرجو ألا تغضبى منى ، فـهكذا أنا ينطق لسانى بما يعتمل فى قلبى. أرى أنك تفتـقدين القدر الكافى من النبل وإنكار الذات ، لأنك تعـيشين وسط الجماعـة بينما لا تفكرين إلا فى نفسك، وإذا ما حققت نجاحا فى جانب ما أخذك الزهو وقلت فى نفسك هـه ، إنى رائعة ، بل إنـى أتفوق عليكن جمـيعـا ، ثم تظهرين فى الفصـل وكأنك طائر الغرنوق وسط جماعة الدجاج . لكنى أقول إن الإنسان إذا عاش لنفسه فقط لابد أن يصده الحائط يومـا من الأيام ، وهل يستطيع الإنسان أن يجد لكل مـا يصادفه هوى فى نفسه ؟ ومن ثم تشعرين بعدم الانسجام وعدم الشعور بالسعادة مع الآخرين ! "

أومأت لى تشون "نعم ، هذا صحيح ! "

وسألتها تشن بوا ، هل تشعرين أن اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة تفيدك؟ "

"نعم"

"حقيـقة تفيدك؟ إننا هنا نتحدث حديثا صريحًا من القلب للقلب " .

"حقيقة تفيدنى ، فقد أبانت لى عن كثير من عيوبى" .

ضحكت تشـن وهى تقول : "وتلك هى المشكلة ! فـإن اللجنة الفرعـية لرابطة الشبـيبة تشيـر إلى عيوبك فقط ، لكـنها لا تساعدك على إبراز وإظهـار مميزاتك ، وإحداها أن روح البحث الدراسى بارزة وقوية عندك ، لكـن المهام الرئيسة للجـنة لا تزال تنصب على جوانب النقد والعمل الاجتماعى . . . . وأنت لا تبدين اهتمامًا كافيًا بهذه الجوانب مما يجعلنا نصطدم معًا" .

عـاودت لى تشون حـديثها من جـديد "لقد قررت أن أصـحح نفسى ، وهذا ليس بالأمر العسـير ، فسوف أكـثر فيما بعـد من الاشتراك فى الاجتمـاعات وقراءة الصحف وأقوم بالمزيد من العمل وتقديم الخدمات" .

نهضت تشيانغ يون من مجلسها، وعادت إلى مقعدها السابق ، وقالت وقد جلست فى مواجهة لى تشون "غير صحيح، إن كلماتك هذه نوع من سوء الفهم ، هذا ، هذا . . . " ولم يسعفها الكلام لتعبر عن الحقيقة التى تريد إبرازها.

قالت تشن بوا: "إننى أوافق تشيانغ يون فى رأيها ، فالمشكلة ليست مشكلة الاشتراك فى الاجتماعات أو شيئا من هذا القبيل ، بل ليست هناك حاجة للمزيد من الاجتماعات . حيث إن آراء اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة فيك وانتقاداتها لك تدور كلها حول أسلوبك فى التعامل مع الآخرين وطريقتك فى مواجهة مشكلاتك الأساسية الخاصة. وهناك أمر ترك فى نفسى انطباعا عميقا ، هل تذكرين عندما ذهبنا فى العام الماضى لمشاهدة فيلم "لابد أن نروض نهر خـواى"، عندما قلت ، نحن فى طريق العودة إلى المدرسة، إن هناك بعض الأبطال يحالفهم التوفيق وحسن الحظ ، وهناك أيضا أبطال يصادفهم حظ عاثر ، أخذتنى حينئذ دهشة شديدة، فكيف تبرعين إلى هذا الحد فى تقييم ما يحسب للأبطال وما يحسب عليهم؟ إنهم قد صاروا أبطالا كذلك لأنهم أسقطوا من حساباتهم كل ما يتعلق بأشخاصهم من كسب وخسارة. وذكرت آنذاك أيضا أنك لا تحبين قول الحكم ومأثور الأقوال ، وأقول إذا كانت هذه الحكم صحيحة وسليمة فهى بالتأكيد لن تخدعنا ، ومن ثم أتساءل لماذا لا نطبقها على سلوكنا وأفعالنا؟ أشعر أننا مازلنا صغيرات ، وأننا عندما نطالع كتابا لا نستطيع أن نفهم ما تحمله سطور هذا الكتاب. لكننا سنكبر وتنضج أفكارنا يوما بعد يوم، وتستطيعين فى المستقبل إنجاز المهام الجسام وتختلطين بأعداد أكبر من الناس ، ومن ثم يمكن أن تبدو فى شخصك عيوب أكبر وأكثر . ويمكن القول إنك منذ بداية هذه الفترة الدراسية ظهرت عليك علامات الغرور والكبرياء بدرجة خطيرة. وكان عدم احترامك لووتشانغ فو أحد هذه المظاهر ، ولم يكن أبدا لونًا من ألوان التهريج والمزاح " .

وقالت تشيانغ يون مؤكدة "نعم ، هذا صحيح !"

شعرت لى تشون بشىء من الحيرة والارتباك ، وأحست بالاختناق والحرارة رغم برودة الجو . وكانت قد هيأت نفسها لتلقّى سيل من الشتائم من تشيانغ يون والزميلتين الأخريين ، وقالت فى نفسها فى بساطة وسذاجة : " دعيهن يخرجن شحنات الغضب ، ثم نلتقى ونتآلف فى الفترة الدراسية المقبلة !" لكن كلمات تشن بوا جاءت شاملة وغير جائرة وعميقة فى الوقت نفسه ، غير أن لى تشون شعرت أنه من العسير عليها أن تعترف بذلك فى شجاعة ، وأن تستوعب هذه الكلمات بصورة تامة ومستفيضة ، بل إنها كان يخالطها شعور شديد بعدم الارتياح وهى تسمع هذه الكلمات التى كانت أكثر إيلاما من كل صنوف الشتم .

وراحت تضغط على ساقيها فى ضيق وألم .

" صحيح كلامك ، لكن تشيانغ يون تقول إننى أنانية ، وأنا لست كذلك ! بل أشعر أننى شديدة الكرم وإنكار الذات " .

ردت عليها تشيانغ يون بقولها " إن الأنانية لها ألوان وأشكال مختلفة . . . . "

وكانت يوان تشى قد فرغت من تصفيف وضفر ضفيرة شعرها الصغيرة فأمالت رأسها وقالت فى خفة وحيوية : " إذا كان على أن أتكلم فإننى أشعر أن حياة لى تشون تمضى رتيبة وعلى وتيرة واحدة بشكل يتزايد يومًا بعد يوم ، فى الوقت الذى أرى فيه الحياة ذات دروب شتى وألوان متعددة . فمثلا هل تعرفين خطوط الأتوبيسات الجديدة ، وأى طريق شيدت على جانبيه المبانى العالية الشاهقة ، وما هو أحدث فيلم وردت فيه أغنية تحب الجماهير ترديدها ، هل تعرفين كل ذلك؟ أعتقد أنك لا تعرفين.

لماذا تغلقين نفسك على الكتاب فقط ؟ إن الإنسان إذا اهتم بكل ما حوله استطاع أن يقطف من كل بستان زهرة . وإن كل جديد فى بكين يمكن أن يدفعنا الى حب بلادنا ونظامنا ومدينتنا ، خلاصة القول إن الإنسان بهذا الأسلوب يكون مثل عين الماء ، منتعشا متجددا تدب فى عروقه الحيوية والنشاط ، يتغلب بسهولة على

أى مشـكلة فكرية تواجهـه ، أما إذا كـانت أعصـابنا دائمة التـوتر فى زمن الصـبا والشبـاب ، فإننا يمكن أن يشيـب شعرنا عند بلوغ الثـلاثـين ، وفى هـذا المجـال لاتختلف يانغ تشيانغ يون عن لى تشون فى شىء ، فهـما مثل الأختين الشقـيقتين ما إن تجمعـهـما جـلسة واحـدة حتى تتبادلا إلقاء الشعـر ، أو تدخلا فى مناقشات فكرية ساخنة " .

ابتسمت لى تشون دون أن تتكلم .

وبعـد ذلك ذهبـت لى تشون لأخذ رأى ووتشانغ فو هى الأخرى .

وكانت بطبيعة الحال قد انتقدت تصرفـها مع ووتشانغ فو خلال الفترة الدراسية السابقة انتقادًا ذاتيا ، لكنها لم تقدم أى اعتذار عن هذا التصرف.

وفى الوقت الذى تم ترشيـحها فيه للاشـتراك فى مسابقـة الخطابة ، كانت لى تشون تحاول إخفاء السعادة التى تعتـمل فى قلبها . فقد كانت تتوق إلى خوض هذه التجربة ، بل وتحلم بتحقيق النجاح فيها فى الوقت نفسه ، وكانت تقول فى نفسها، وقد تبدل شعورها بالمرارة إلى إحساس بالراحة والسعادة ، " إننى لم أمثل أى تجمع جماهيرى منذ فترة طويلة فى تقديم عمل تسلط عليه الأضواء " .

لكن فشلها فى كتابة المسرحيـة فى المرة السابقة هزها هزة عنيفة ، حتى إنها لم تعد تثـق فى أن الحظ سوف يبتـسم لها من جـديد . وفى الوقت الذى أعلنت فـيه الزميلات موافـقتهن على ترشيحها ، كـانت لا تزال تحـذر نفـسها قائلة ، " ليس هناك ما يدعو إلى السعادة ! فأولاً يمكن أن يغيـرن رأيهن ويستبدلنها بزميلة أخرى ، ثانيا يمكن أن يطرأ تعـديل على خطة الأنشطة المدرسية برمتها وتلغى هذه المسابقة ، وثـالثًا هب أننـى تفـوقت فى هذه المسابقة تفوقـا ملحوظا ، ماذا سيـحدث بعد ذلك ؟" .

لم تدعهـا زميـلاتها تستـغرق فى التـفكير ، حيث انفض اجـتمـاع الفصل ، واقتربـت من لى تشون بعض الزميلات يتـجاذبن معهـا أطراف الحـديث ، وقالت ووتشانغ فو ، وقد بدت كأنها أسدت لها جميلاً كبيرًا :

" لم أخطئ عندمـا قلت منذ البداية يجب ترشـيح لى تشـون ! فمــن المؤكد أنها . . . " وقالت إحدى الزميلات وهى تتهته " : إن عقابى بحل ثلاثين مسألة فى الجبـر لأسهل من أن يـسند إلىَّ القيـام بالخطابة ، حيث يمكن أن تهـرب روحى إذا رأيت رؤوسًا كثيرة متراصة أسفل خشبة المسرح " .

دخلت ووتشانغ فو فى الخط قائلة : " مالصـعوبة فى ذلك ؟، لقد سمعت أن هناك خطيبا ضليعًا كان يتدرب على الخطابة واقفًا أمام أرض مزروعة بالفجل . فإذا أردت النجاح فى الخـطابـة ، يـجب ألا تنظرى إلى جمـهور المستمعين على أنهم أشخاص ، بل تنظرين إليهم على أنهم أعواد فجل " .

ردت لى تشون فى فتور متعمد : " ووتشانغ فو ، لشد ما أكرهك "

ماذا كسبت من مساعدة يوان شن تشى فى إلقاء التبعة على كاهل الغير ؟ !

لقد سـعى اتحاد الطالبـات خلال هذه الفـترة الدراسـية إلى تكليـفى بمسئـولية الإشراف على جمـاعة الفيزياء ، وكان فى ذلك ما يكفى ، لكن مـاذا أفعل بعد أن أسند إلىّ هذه المهمة الصعبة الجديدة ؟"

قالت يانغ تشيانغ يون : " لا بأس ، بمقدورنا مساعدتك ، وعليك أن تحاولى بكل السبل من أجل النجـاح فى الخطابة . ويمكن أن نساعدك جـميعا فى الحـصول على أى معلومات تحتـاجينها . وتستطعين أيضا أن تجرى أكـثر من تجربة فى الخطابة أمام الزميلات فى الفصل ، وتستمعين إلى آرائهن وتعليقاتهن .

تلعثمت الكلمات على لسان لـى تشون . فهى لا ترغب فى قبول هذه الفكرة الأخيرة ، لأنها ترى أن موضوع كلمتها سيكون قديما فى نظر الآخرين إذا ما كشفت عنه فى وقت مبكر ، وكانت شديدة الاهتمـام بملاحظة انطباعات يانغ تشيانغ يون ، وراحت تنظر إليهـا فى حذر وهى تتسـاءل : " هل يانغ تشيانغ يون سعـيدة أم لا ؟ إنهـا لم ترشحنى لأداء هذه المـهمـة . بل ألا يمكن أن تكون هى نفـسهـا تفكر فى الاشتراك فى مسابقة الخطابة ؟

(٢١)

كان شهر مارس يطوى صفحته الأخيرة ، عندما هبت ريح عاتية مفاجئة .

إنها الرياح الشمالية الغربية التى هبت ثلاثة أيام وثلاث ليال ، وانخفضت على إثرها درجة حرارة الجو حتى وصلت إلى ما تحت الصفر ، واضطرت بعض الزميلات ممن كن قد خلعن المعاطف القطنية إلى البحث عنها وارتدائها من جديد . وأخذ الجميع يسب هذا الجو المتقلب الذى لا يثبت على حال بكل أنواع السباب ورحن يتحاورن ويتبادلن الآراء فيما بينهن حول " تقلبات الطقس " فى هذا العام ، حتى تلميذات الصف الأول الإعدادى اللاتى بدأن دراسة جغرافية الطبيعة ، كن يسألن أستاذهن أثناء الدرس " أستاذ ، أليس صحيحًا أن الجو لن يكون معتدلا دفيئًا هذا العام ؟ ألا يرجع سبب ذلك إلى التغيرات التى طرأت على الطاقة الشمسية ؟ " .

ولما كان اليوم الأول من أبريل ، نامت الرياح وسكنت فى هدوء،وسرعان ما كشفت عن وجهها وحرارتها التى لم تطقها طالبات الصف الثالث وهن فى حصة الرياضة البدنية . لم يدركن حقيقة الأمر فى البداية حتى إن إحدى الطالبات فكرت وسألت زميلاتها ، " هل حقًا ذهب الشتاء وقدم الربيع ؟ وكيف أننا ما زلنا نرتدى هذه المعاطف القطنية الثقيلة ؟ " .

وكانت أول من خلعت معطفها ، وتبعتها فى ذلك بصورة مفاجئة زميلاتها فى الفصل واحدة بعد الأخرى ، وعندما حل مساء ذلك اليوم لم تكن هناك من بين طالبات المدرسة من ترتدى معطفا ، شعرن جميعا بسعادة غامرة ورحن يمشين ويتنقلن فى خفه وحيوية ونشاط .

فى صبيحة يوم الأحد الموافق الأول من شهر أبريل ذى الشمس المشرقة ، الشهر الذى نعبر من خلاله إلى مايو الذى تتفجر فيه المشاعر وتستيقظ القلوب ،

جاء تيان لين يبحث عن تشن بوا ، كان مجيئه مبكرًا وكانت الطالبات قد نهضن لتوهن من الفراش .

تشيانغ يون فى انتظار حلول موعد تناول طعام الإفطار ، لكنها لم تطق صبرا، فجلست منحنية الظهر تقلب صفحات مجلة " رؤية جديدة " بصورة عشوائية ، وهى تترنم بكلمات أغنية جديدة ، وأخذت تشوشيا ولينغ تجرى تدريبات مهارية حيث راحت تضع المهفة المصنوعة من الريش رأسيًا فوق أرنبة أنفها محاولة تثبيتها دون أن تسقط على الأرض . أما ووتشانغ فو فقد جاءت بقميصها بعد أن جف وفردته فوق السرير وملأت فمها بالماء وأخذت " تبخ " القميص برذاذ الماء وهى تفرده وتسويه وتشده من أطرافه ، ثم طبقته بطريقة منظمة ووضعته تحت المرتبة . ولم يكن خارج العنبر سوى تشون التى حملت حزمة من الكتب منذ الصباح الباكر وذهبت إلى حجرة الدراسة لتجهز مسودة الموضوع الذى ستشارك به فى مسابقة الخطابة .

جاء تيان لين إلى غرفتهن مما تسبب لهن جميعا فى الإزعاج ، ووجهن نظرات التعجب والفضول نحو تشن بوا وذلك الشخص الغريب الذى تصحبه معها إلى الحجرة . وأسرعت تشو شيا ولينغ إلى حمل المهفة عن أنفها ، ونهضت تشيانغ يون من فوق مقعدها ، أما ووتشانغ فو فقد ظلت تجلس جلسة معتدلة فوق ملابسها حتى تضغط عليها بينما تسمرت عيناها عليهما . بدأت تشن بوا يخالطها شعور بالسعادة والارتباك فى نفس الوقت فى تقديم كل من الطرفين للآخر قائلة : الرفيق تيان لين ، زميلاتى فى الحجرة. .

انحنت تشوشيا ولينغ برأسها انحناءة كبيرة تحية لتيان الذى احمر وجهه خجلاً. وقالت يانغ تشيانغ يون ووجهها يشرق ببهجة وسعادة: " أهلا بحضرتك ضيفًا على حجرتنا المتواضعة . "

ودرات بينهم كلمات سريعة مرتجلة سرعان ما أصبح تيان لين بعدها صديقا لهن جميعا،ورغم أنه جاء يبحث عن تشن بوا بالتحديد، إلا أن الزميلات الأخريات التففن حوله وتجاذبن معه أطراف الحديث .

سألته يانغ تشيانغ يون " ما رأيك فى حجرتنا وفى ظروفها الصحية ؟" .

هز تيان لين رأسه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة .

وسألته تشوشيا ولينغ بدورها : " هل تستطيع أن تخمن أين سرير تشن بوا ؟" .

عاجلتها تشن بوا بقولها : " كفى ، كفى " .

لكن تيان لين ما زال يحاول التخمين ، وتساءل " هل هو هذا ؟" .

مشيرا الى سرير مفروش عليه مفرش وطبقت فوقه بطانية صفراء من الصوف .

رددن جميعا فى أصوات مختلطة " خطأ ، خطأ "

" إذن ، هل هو هذا ؟ وهو يشير من جديد إلى سرير آخر مفروش عليه ملاءة بيضاء وتتكدس فوقه كومة من الملابس .

ارتفعت قهقهاتهن وقلن : " بل خطأ أكبر "

وابتسم تيان لين فى شىء من التحسر والألم وهو ينظر إلى أسرَّة البنات المنسقة البسيطة والجميلة فى الوقت نفسه . ربما يتحسر على عهد الدراسة بالمرحلة الثانوية الذى مضى بالنسبة له ولن يعود ؟ وربما يرجع السبب أيضا إلى الروابط القوية التى تربط تشن بوا بعدد كبير من زميلاتها وقضائها معهن الليل والنهار وكأنهن أسرة واحدة ، بينما هو لم يتعرف على ظروف حياتها ، بل لا يعرف حتى السرير الذى ترقد عليه .

وسألها تيان لين فى صوت خفـيض ، " ما رأيك فى أن نخرج للتنزة بعضا من الوقت ؟" أجابت تشن بوا بعـد تردد وحيرة : " علينا أن نقوم صبـاح اليوم بتنظيف الفصل " وأحنى تيان لين رأسه وبدا عليه التأثر الشديد .

وسمعت الـزميلات ما دار بينهمـا ، فقلن لتشن بوا فى صـوت واحد : " ماذا يقلقك إذا لم تشاركى اليوم فى تنظيف الفصل .

وهكذا اجتمعن على مساعدة تيان لين ، واستجابت تشن بوا .

وعندما كانا على وشك الانصراف ، أصرت تشيانغ يون على أن يقوم تيان لين بأداء إحدى الأغنيات ، وخـشى تيان لين من الاستعـراض أمام البنات فى أول لقاء يجمعه بهن فقال إنه لايجيـد الغناء ، وجـاء رد تشـيانغ يون بسـيـطا مختـصرا " لا أصدق ذلك " ثم قادت الأخريات وحثتهن على التصفيق والتشجيع .

ووجد تيـان لين نفسه مضطراً إلى الغناء فـغنى الفقرة التاليـة دون إجادة ، بل ودون أن يطلق لحنجرته العنان .

الشمس تغرب خلف الجبل لكنها تشرق فى الصباح التالى

الأزهار تذبل وتتساقط لكنها ستتفتح فى الربيع القادم

وبعد أن فـرغ من الغناء ، قفز قـفزة واحدة صـار بعدها خارج باب الغـرفة ، ولوح بيده لهن قائلا " عفواً ، أرجو أن تسمحن لى بالانصراف ، إلى اللقاء " وقد شعر أن وجوده معهن هذه الدقائق القصيرة أيقظ فيه روح النشاط والحيوية .

وراح تيان لين وتشن بوا يقطعان الشارع بخطى مـتهادية ، السماء لا تخلو من سحب خـفيفة غـير كثيـفة ، والشمس تطل بوجـهها من حين لآخر ، واللافـتات القمـاشية عـلى واجهات المحـلات ذات الطراز القديم تمضى واحـدة تلو الأخرى ، والزبائن يهـبطون السلالم أمـام هذه المحال بعـد أن اشتروا حـاجيـاتهم وفى أيديهم

لفافات حمراء أو خضراء . وهذا طفل صغير يجرى وقد حمل فى يده طبقا ، بينما تتبعه أخته الكبرى وتصيح " نريد شراء طبقًا آخر أكبر حجما . . . . ويرد الطفل فى غير مبالاة أو اهتمام : " أعرف ، أعرف كل ذلك " .

وعلى باب أحد محال بيع الخمور ، شاهدا زجـاجات كافة أنواع الخمور معلقة فى أسـلاك مـعدنيـة منهـا زجـاجة نـحاسـيـة اللون بهـا بيـرة ماركـة الحـصـان الطـائر، وأخرى بنفسجية اللون بها نبيذ ماركـة تشانغيو ، وثالثة صغيرة الحجم بها خمر ووتهو المعروف فى بكين .

" إننى أستنشق نسمات الربيع وأنا أسير فى هذا الشارع " .

واستطـرد تيان لين وهو يرفع نظارته : لا حـاجة لنا للذهاب لمشـاهدة الزهور والنباتات والأشـجار ، فـإن هذه المحال وواجهـاتها وهؤلاء المشـترين من الشـباب والفتيان ، والأطفال الذين يغدون ويروحون هنا وهناك ، كل ذلك يجعلنى أشعر بما حولى يفيض نشاطًا وحيوية . . . "

أومأت تشن بوا فى صمت ، سألته : "لماذا تتأخر زيارتك كل هذا الوقت ؟"

أجاب وعلى شفـتيه ابتسامـه ، "إننى لم أخبرك بعد ، لقد سـافرت للعمل فى شنغهاى وعـدت من هناك منذ وقت قصير ، ثم أخـذ يحدثها عن المناظر الطبيـعية الفنيـة الجميلة فـى شنغهاى ، ثم انـبرت تشن فجـأة : " لقد سـرنا طويلا فى هذا الشارع ، قل لى إلى أين المسير ؟" ورمقته بنظرة لا تخلو من الشكوى والضجر .

قال تيان لين فى توجس وحذر " ألا نذهب إلى المتنزه ؟"

ثم صعدا إلى ترمواى مزدحم بالركاب تقوده سيدة .

السياح ينتشرون كالنمل فى منتزه " تشونغشان " قال تيان لين مازحًا :

" كـأنهم ذاهبـون إلـى السـوق ، وبدا على تشن بوا الـقلق وعـدم الارتيـاح وصامت عن الكلام كـأن شخصا مـا قد أغضبهـا وأثار حفيظتهـا. وأحس تيان لين بذلك ، فحار فى أمره ولم يكن يكثر من الكلام .

وبعد أن اجـتازا الممر المزين بالرسـومات الجمـيلة ولوحة الإعلان عن مـعرض النحت على العاج وصلا إلى صالة الزهور .

وصالة الزهور هذه عبارة عن حجرة فسيحة مضيئة تنخفض عن سطح الأرض، جدرانهـا من الزجاج وتـنفذ أشعـة الشمس إلى داخـلها من خـلال هذه الجدران ، وتترعرع النباتات والزهور داخل هذه الصالة فى ظل رعاية واهتـمام البستانى المسئول عنها .

وما إن دخـلا الصالة حـتى اقتـحمت أنفـيهمـا الرائحة الناتجـة عن الرطوبة ، واستحوذت عليهما الزهور بألوانهـا وأشكالها المتعددة فى كل جانب . وأشرق وجه تشن بوا بالسعـادة بعض الشيء عندما شاهدت أنواعًـا من الزهور التى لم تراها من قبل ، وبدأت تسأل تيان لين عن أسمـاء الزهور وهـو يرد عليهـا بمعـلومـات وفيـرة لا ينضب لها معين:

" انظرى ، هذه الصغيرة الحمراء المتفتحة اسمها زهرة الكرز ، إنه اسم جميل، وهذه ساق زهرة البرقوق الجـميلة ، إنها ساق شائكة خشنة الملـمس ومـضلعة غير مستديرة تشبه سلسلة من عقد نبـات الخلنج . شمى، يالها من رائحة فواحة ، إنها رائحة زهرة " التـوليب، تلك الزهرة التى تحب زوجات النبلاء فى روسـيا أن يزين بها صـدورهن عند ذهابهن إلى الحفـلات والسهـرات . وهذه زهرة الجرس ، أحب الزهور إلى قلبى ، انظرى إلى لونها البنفسجى الفاتح ، ذلك اللون الذى يتدرج من البنفسجى الغامق للورقة الخارجية للزهرة ثم يتحول تدريجيًا إلى اللون السماوى فى الوسط ويتدرج حتى يصل إلى اللون الأبيض عند حامل الزهرة . . . "

كانت تشن بوا تومىئ ، باستمرار ، إنـها تحب فى تيان لين ثقـافته ومـعلوماته الغزيرة ، لكنهـا فى الوقت نفسه تخـشى أن يلفت شرحه المسـتفيض انتبـاه الآخرين اليهما ، ولذا كانت تسارع بالتحرك إلى الأمام .

وتتوسط صـالة الزهور جبلاية صناعيـة غنية بالأعشـاب تنتصب فى وسط هذه الجبلاية نافورة طويلة بيضاء ، وتحوطها بركـة ماء بها كثير من السمك الذهبى الذى يسبح هنا وهناك ، بينـما تتكدس فى قاع البركـة الصافيـة أعداد كبيـرة من الحصى الصغيرة المتألقة ذات الألوان البديعة .

جلس تيان لين القرفصاء يتفرج على الحصى والأسماك ، وبعد فترة صاح فجأة بصوت عال : " سلحفـاة صغيرة "فالتفت إليـه الناس من حوله وقالت له تشن بوا فى صوت خفيض : " اغضض من صوتك . ثم نظرت إلى المكان الذى يشير نحوه فشاهدت أحد أنواع الزواحف الصغيرة ذات الغطاء الأخضر داكن اللون ، المستدير ، مصفح الشكل ، وقالت فى نفسها .

" إنها حيوان لطيف ، فلماذا إذن يتخذها الناس هزوا ؟ "

وبعد أن خرجا من صالة الزهور ، أراد تيان لين إضفاء نوع من البهجة والحيوية على جو اللقـاء فبادر قائلاً : " هيـا نستبق ، ونرى من يصل الى تلك التـبة أولاً . هزت تشن بوا رأسها وقالت كفاك هراء بينما كان تيان لين قد انطلق فى العدو وهو يتمايل يمنة ويسرة ، فلم تكن قدماه قد اتسقتا بعد داخل حذاءه الجلدى الجديد غالى الثمن ، شعره يتطاير مثل الحشائش الصغيرة غير المنسقة عندما يداعبها الهواء .

وكان بدّال الدراجة قد مزق رجل البنـطلون اليـمنى ، وجوربه القـديم الذى لا يتماشـى مع حذائه الجديد لا يخلو من الثقـوب ، عدوه بهذ الطريقة اللـخمة ، سحنته غير الجميلة ، وعـدم قدرته على انتقاء ملابسه ، كل ذلك جعل تشن بوا لا تستطيع إخفاء شعورها بالعطف تجاهه حتى كاد الدمع يسيل من عينيها .

وفجأة تعثرت قدما تيان لين حتى كاد يقع على الأرض ، واندفعت تشن بوا نحوه قائلة : " انظر ، يا لك من . . . . "

وقالت تشن بوا فى نفسها إنه ما زال فتى غريرا يعاملنى مثل هذه المعاملة الطيبة ، يحاول أن يجد سبيلا لإسعادى ، فلماذا تبدو مشاعرى نحوه بمثل هذا البرود ؟" ولم يساورها أدنى قدر من الخجل الذى كانت تشعر به من قبل .

ثم بحثا عن تبة صغيرة وجلسا عليها تحت ظلال شجرة كبيرة .

زهور الربيع المتفتحة تبدو أمام ناظريهما ، وزهور أشجار البرقوق الصفراء والقرنفلية اللون تغطى الأرض من حولهما ، الصبية الصغار الذين يرتدون زى العسكرية البحرية أخذوا أماكنهم بين الزهور فى انتظار قيام آبائهم وأمهاتهم بالتقاط الصور لهم ، وعلى الجانب الآخر باغودا تحوطها الأشجار ، يجلس الطلاب تحتها فى حلقه دائرية يلعبون الورق ، توقفت تشن بوا وتيان لين عن الكلام برهة من الوقت وراحا ينظران إلى المناظر الجميلة الخلابة وإلى السياح الذين تبدو عليهم السعادة ، إنهم جميعا يرون الحياة جميلة ومتجددة وهنيئة على هذا النحو . نظر تيان لين إلى تشن بوا ، وكانت هذه هى المرة الأولى التى ينظر إليها وجهًا لوجه فى ذلك اليوم ، فشاهد عينيها الصافيتين الوديعتين اللتين تعبران عن شىء من الخوف ، القميص ، ذو اللون الأزرق السماوى الذى ترتديه تشن بوا ، لايعرف كم عدد المرات التى دخل فيها الغسيل ، فالياقة والأساور أصبح لونها باهتا ، نسمات الهواء تداعب رداءها ، مما أبان عن البلوفر الصوف الرمادى اللون ، هذا البلوفر به ثقب تم رفؤه فبدت فيه رقعة صغيرة ، وسرت حمرة خفيفة فى وجه تشن بوا ، وبدت عليها علامات الإثارة التى كانت تقاومها ، وقطبت ما بين حاجبيها كأن شيئا من الضيق والارتباك يعتمل داخلها ، وما إن لاحظت نظرات تيان لين الساذجة الجامدة التى لا تتحول عنها حتى مرت ابتسامة بوجهها بسرعة، وتركت على شفتيها البارزتين الطريتين أثرًا يعبر عن مشاعرها الصادقة بلا مواربة . نهض تيان لين ،

واستند بـإحدى يديه إلى شجـرة ضخـمة ، وأخذ ينـظر إلى شعر تشن بـوا الرقيق الناعم وهو يقـول : " أتدرين ؟ يبدو أنـنى تغيـرت خلال هذه الأيام . إننى أفـرح بسهولة وأحزن بسهولة أيضا ، لقد كنت أفكر فى أمور كثيرة متداخلة ومتشابكة وأنا أسـتقل القطار لدى عـودتى من شنغـهاى إلى بكين . . . يالرحـابة أرض بلادنا ، مظاهر الربيع تبدو فى كل مكان ، الزهور ، الخضرة ، الأشجار العملاقة ، السحب فى السماء . إننى لا أرغب فى البقاء بالمكتب ، واستمرار العمل فى القص واللزق، بل أرغب بشدة فى الخـروج والتنزه . لقد انتهت أجـازتكن الربيعيـة لتوها ، أليس كذلك ؟ حسنا . . . . . أحيانا أمرح وألهـو فى سعادة شديدة لبعض من الوقت ، وبعدها أشـعر بالقلق والضيق يعـتمل فى قلبى . فأقـول فى نفسى إن على أن أضع كل طاقتى فى العـمل ، ولا أستريح حتى فـى يوم العطلة الأسبوعيـة . ولم أحقق نتائج أو منجزات ملحوظة فى عملى بعد ، لم تتفجر بعد طاقات الشباب الحقيقية . لم يعد لى حق فى اللهو ، فقد بلغت الثانيـة والعشرين من عمرى . . . . . قرأت فى الأيام القليلة الماضـية موضوع تلـميذ صغـير يكتب عن الربيع ، أسلوبه جـميل وجذاب . . . . . . فى الأسـبوع الماضى تلقـيت خطابا من صديق قـديم يعمل فى إحدى المناطق الحـدودية ، قال فى خطابه إن أحـد الجواسيس أطلق عليـه الرصاص ذات مرة ، لكنـه لـم يصـــب بأذى . إن النـضـــال مرير ولا يحـتاج إلى التـفكير الأعمى المشوش . . . .

لكنى ما زلت غير قادر على منى نفسى من التفكير فى ذلك والتفكير فى تلك، رغم معرفتى أن ذلك ليس صحيحًا . إننى أحب القراءة ،فقد انتهيت فى ليلة واحدة من مطالعـة كـتاب " وانغ شـيـاو خه الـذى لا يموت " وقد بهـرنى هذا الكتـاب بشخصياته الرائعة حتى إذا فكرت فى نفسى وجدت أن هناك بونًا كبيرًا بينى وبينهم. أريد أن أعـمل ، وأعـمل فقط ، فلم يـعد عندى وقت للـقراءة . . . . . مـضت لحظـة ، وعاد يـسألها من جديد : " تشن بوا ، لماذا لا تعيرينى اهتماما ؟ " .

استدارت تشن بوا بوجهها بسرعة ، ورفعت رأسها ونظرت إلى وجه تيان لين النحيل الطويل وقالت " تحدث يا تيان لين ، تحدث ، فإن حديثك طيب" ، وواصلت قائلة بصوت خفيض وشعور عميق : " يكفى أنك تتحدث . وأنا أسمع ، لقد استمعت إلى كل شىء . فأنا أحب أن أسمع ، لكنى لا أجيد الكلام ، حقيقة لا أجيد الكلام ، واصل حديثك ، واعفنى من الكلام ، جلس تيان لين ، وهدأ قلبه ، وانتزع غصنًا صغيرًا وراح يرسم به على الأرض .

" اقترب عيد أول مايو ، وهذه المرة الأولى التى أقضى فيها هذا العيد فى بكين. ماذا يمكن أن أقول للزعيم ما و عندما أكون وسط طوفان من البشر فى ميدان تيان آن مين ؟ إن عيد أول مايو عيد جميل ، ولكن هل أنا جميل مثل هذا العيد ؟ إننى أتساءل ، هل يستطيع الإنسان إذا كان قلبه لا يعتمل به شىء ولا يقلقه ولا يضنيه شىء – أن يجذً على أنيابه ويتقدم دون توقف ؟. . . . . لقد وضعت مؤخرا خطة لدراسة العلوم الثقافية ، إن معلوماتى فى العلوم الطبيعية فقيرة . . . . . لقد وضعت الدولة لنفسها خطة خمسية ، وأعتقد أننى يجب أن أضع لنفسى مثل هذه الخطة . . . . . "

تكلمت تشن بوا فقالت : " تيان لين. بعد أن استمعت إلى حديثك ، شعرت أن حياتى تمضى بصورة عشوائية . إننى أيضا مجتهدة ، ولم أكن أبدًا عالة على الآخرين ، ولكن هل هذا يكفى ؟ يجب أن أضاعف ثم أضاعف جهدى . . . . ولكن أريد أن أقول كلمة ، كلمة تلقائية : إننى أرى أنك إنسان عظيم ، وأشعر وأنا معك أننى طفلة صغيرة . لماذا إذن تبالغ فى تعذيب الذات ؟ إن حزمك مع نفسك لا يعنى أبدا أن تتخلى عن التفاؤل والثقة والاعتزاز بالنفس . . . " ثم أخذا يتبادلان النظرات برهة من الوقت ، وكل منهما يستمد من نظرات الآخر القوية طاقة هائلة لا حدود لها .

وفجــأة تساقطت قطرات المطر ، فأسـرعا واختـبأ تحت سقف أحـد الممرات . أغصان البرقوق الزاهرة تتمايل فى خفة وهدوء . مجموعات من سلاسل المياه تجرى فى رقة وعذوبة أسفل الكوبرى على هذا الجانب .

وحبات مياه الأمطار تتدحرج كحبات اللؤلؤ فوق الحشائش فى المروج الخضراء على الجانب الآخـر ، وجرى أحد الأطفال بمحض إرادته ليقف وسط الأمطار وهو يقفز ، ويضحك ، ويصيح قائلاً : " أمطرت السماء

ظهرت الفقاقيع على سطح البحيرة ،

واختفت السلاحف تحت الأعشاب كأنها ارتدت قبعة .

هبت ريح شرقـية ، محملة برذاذ المطر الخـفيف المختلط برائحة الأرض الطـيبة الحبيبة ، وداعبت وجـه تيان لين ، وهو يقول : " ياله من شعور بالراحة ، ثم راح يتمطع ، وعندمـا فرد ذراعيه ، نظرت تشن بوا إلى الساعـة فى معصمـه ، فإذا بها الواحدة والنـصف ، ولم يتناولا شيـئًا من الطعام بـعد، ولكن لا بأس، فلم يشـعر أحدهما بجوع.

وكـانت حـملة النظافـة قد بدأت فى فـصل الصف الثـالث بعـد تناول طعـام الإفطار. وقبل بداية عـملية النظافـة ، قامت يوان شن تشى بحـملة تعبئـة ، حيث قالت : " لن نتوقف أبدا عن التنظيف إذا بقيت ذرة من الـتراب ! " ثم قامت جميع الطالبات بحـمل كل المناضد والمقـاعد إلى الفناء ، وأنزلن مـا على الحائط بما فيـها السبورة والخريطة ولوحات الوسائل التـوضيحية . . . . . كلها تم إنزالها ، وهناك فريق من الطـالبات يقوم بغـسل المناضد والمقـاعد فى الفناء ، وفريق يـنفض التراب داخل الفـصل ، ولم يكتفين بتنظيف سـقف الفصل وحـوائطه وأركانه فـقط ، بل نظفن أيضا التراب المتـراكم على شيــش نافذة الفصل ، ومسحن زجـاج النافذة مرة تلو الأخرى استـخدمن فى ذلك قطعة من القماش المبلل بالماء ، ثم أخـرى جافة ،

واستخدمن مسحوق الغسيل ، ثم مسحنه بقطعة قماش جافة . . . وبينما كن يعملن كن يغنين أغنية جماعية عن النظافة :

هلمى أيتها الزميلة العزيزة إلى العمل ،

نريد أن نزيل كل القاذورات والأتربة ،

لا نريد فصلاً نظيفًا جميلاً فحسب ،

بل نريد عالمًا نظيفًا جميلاً .

تعاونت يانغ تشيانغ يون مع ووتشانغ فو فى " كشط طبقة الطين "

(حيث إن أرضية الفصل مبطنة بقطع الأحجار ، وترسب الطين على السطح وكوّن كريات صغيرة صلبة من الطمى الجاف) . وكانت هناك فى بكين فكاهة قديمة تقول إن هذه الكريات الطينية الصغيرة عبارة عن قطع من الحلى الثمينة ولايجب إزالتها ، وإلا حل الفقر بمن يزيلها من مكانها . وبطبيعة الحال تتم أعمال كنس الأرض والتنظيف اليومية دون المساس بها) . أمسكت تشيانغ يون بمجرفة من الحديد وراحت تزيل هذه " الحلى الثمينة " بقوة ، بينما تمسك ووتشانغ فو بمكنسة وجاروف لتكنسها وتحملها . وقد ربطت ووتشانغ فو رأسها بمنديل ، ووضعت على فمها كمامة أصبحت ذات لون رمادى ، وراحت تعمل بكل قواها . وفجأة قفز إلى خاطرها شيء ، فبربشت بعينيها الصغيرتين تحت جفنيها المتربين وسألت تشيانغ يون " أخبرينى، تيان لين . . . . ذلك الشاب ، ما صلته بتشن بوا ؟ " .

" لاأعرف "

" حتى أنت لا تعرفين ؟ "

" اسكتى ! يبدو أن هذه الكريات الطينية الملتصقة بأرضية فصلنا لم يتحرك لها ساكن منذ بنائه ، حقيقة إنها أكثر صلابة من الحديد . "

" بم يشتغل فيما تظنين ؟ "

لا أعرف الظن ، أسرعى فى التنظيف "

"اسمعى !. سأقول لك ، ولكن عليك ألا تخبرى الأخريات ، لقد رأيتهما يخرجان من المدرسة وقد تشابكت يداهما . . . . "

"شىء غريب ! لقد كنت لفردها تجلسين فوق الملابس لكيها عند خروجهما من باب المدرسة ! ولسوف أضربك بهذه المجرفة إذا استمررت فى هزوك هذا ! "

"إن ما أقوله صدق. تصدقين أولا تصدقين أنت حرة ! إن تيان لين وتشن بوا . . . . . "

"أتسكتين أم لا ؟" وقد رفعت تشيانغ يون عليها المجرفة وتساقط منها بضع قطع من الطين الجاف على رأس ووتشانغ فو فأسرعت وأخفت رأسها بين يديها .

ورغم أن يانغ تشيانغ يون ترى أن كلام ووتشانغ فو محض خيال غير صحيح، ورغم أنها شد ما تكره فى ووتشانغ فو اغتيابها للآخرين ، إلا أنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من استعراض مواقف وذكريات تيان لين من جديد . وعندما انتهت من تناول طعام الغذاء ، واضجعت فى فراشها منهكة متعبة، واكتشفت أن تشن بوا لم ترجع بعد ، راحت تركز كل تفكيرها فى موضوع تيان لين .

تذكرت ملامحه المبتسمة الممعنة فى التفكير والتأمل. وتذكرت خبراته الكثيرة ونفسه التى يعتريها شىء من الخجل. تذكرت بنطلونه البالى القديم وحذاءه الجديد. تذكرت تعبيرات وجهه الموحية المعبرة ذات المغزى العميق عند الكلام.

لقد ترك لدى تشيانغ يون انطباعًا عميقًا خلال لقاء قصير . من هو تيان لين ؟

وكيف لم تحدثها تشن بـوا عنه من قبل ؟ لكنه وتشن بوا على هذه الدرجة من الود . . . .

ألا يمكـن . . . . تشـن بوا ، يا لـك من . . .   . ، وانـطـلـقت تشيانغ يون فجـأة تقهقه بصوت عال دون أن تعرف لذلك سبـبًا . ثم أخفت رأسها واستمرت تضحك خفية، وبعد أن انتهت من الضحك أخذت تضرب جبهتها وتقول لنفسها ، "آه منك يا ذات الضفيرة القصيرة! "

ثم تقلبت وبدأت تستغرق فى النوم.

عادت تشن بوا إلى المـدرسة فى الثالثـة بعد الظهر ، دخلـت الفصل الذى بدا جديدًا وكأنها تدخل قاعة مبهرة، أشعة الشمس تسطع على المناضد والمقاعد المغسولة فتبدو مشرقة متلألئة ، شفافية الزجاج النظيف تجعله كأنه غير موجود، دخلت تشن بوا فى حـذر شديد خشـية أن تلوث الأتربة العـالقة بملابسـها هذا الفـصل النظيف الجميل.

الركن الأمـامى الأيسر تم تزيينه باللون "الأخـضر " حـيث يوجد حـوض به أسماك صغيرة وضفادع ومحار بالإضافة إلى شتلات الثوم الأخضر ، والركن الخلفى الأيمن مزين باللـون "الأحمر" حـيث علقت به لوحات توضح الموقف على سـاحة الحرب فى كوريا وفيتنام ، وعلقت به أيضا الميـداليات والشهادات التى حازت عليها الطالبات بصفة فردية أو جماعـية . . . . . . وأخذن يشرحن لتشن بوا مراحل حملة النظافة وهى تومئ برأسها معبرة عن الأسـف ، ولسان حالها يقول : "سامحننى من فضلكن ! "

تناولت تشن بوا كـتابا لتقـرأ ، لكنها لم تجد إلى ذلـك سبيـلا ، إنها تريد أن تفعل شيـئًا ، أخذت تنظر نحو اليـمين ونحو اليسار ، الفـصل الذى لم يعد به ذرة واحدة من التراب، لم يعـد به أيضا ما يحتاج لإصـلاح ، ثم خرجت من الفصل،

وأخذت تروى الزهور أمـامه ، سكبت بها بضع زمـزميات من الميـاه ، وعادت إلى عنبر النوم تبحث عن تشـيانغ يون لتتحدث إليها . لكن تـشيانغ يون كانت لا تزال تغط فى نوم عميق ، وقد ارتسمت ابتسامة خفـيفة على شفتيها دون أن يتـحرك لها ساكن. جلست تشن بوا إلى جوارهـا تنتظرها حتى تستيقظ ، لكن يبـدو أنها كلما تعمـقت فى النوم زادت متعتـها به . وتشن بوا على هذه الحالة من الانفـعال وعدم الاستقرار ، وفى قلبها كثير من الكلام تريد أن تخرجه. وسألت نفسها "لست أدرى ما يحسن بى أن أفعل ؟" ثم خرجت من عنبر النوم ومن المدرسة واتجهت إلى منزل يوان شن تشى . وهناك ، وفى جو آخر ، ربما تستطيع تشن بوا أن تقضى الساعات الثلاث السابقة على وقت المراجعة الذاتية المسائية فى طمأنينة وهدوء.

(٢٢)

لم تستيقظ يانغ تشيانغ يون إلا فى الرابعة والنصف .

نظرت إلى الساعة ، : " ياه ، كيف نمت كل هذا الوقت الطويل؟

نعتت نفسها بضيق الأفق ، فقد أضاعت فترة ما بعد الظهر فى يوم الإجازة الثمين هباء منثورا . وبعد أن نهضت شعرت بدوار شديد فى رأسها. لا يوجد فى العنبر سواها، ولا تسمع إلا صوت زقزقة عصفور صغير خارج الشباك ،وأصوات وقع كرة السلة على أرض الملعب.

حملت يانغ تشيانغ يون وعاء غسيل الوجه الأبيض وذهبت إلى دورة المياه لتغسل وجهها. وما إن دخلت حتى سمعت صوت وضحكات ووتشانغ فو وقد ملأت المكان ضجة وجلبة.

كانت ووتشانغ فو تغسل رأسها وقد كشفت عن ساعديها السمينين البيضاويين ، وراحت تدعك رأسها بشدة، وشعرها المجعد ينتصب فوق رأسها وقد غرق فى رغوة الصابون .

وتجلس تشوشيا ولينغ فى أحد الجوانب وقد انكبت على غسل ملابسها فى همة ونشاط.

صاحت فيها ووتشانغ فو : " آه ، ماذا تريدين ؟ إن شعرى يتساقط كلما غسلته ! ففى كل مرة أغسله فيها يتساقط منه حوالى كيلوجرام ! فبعد عدة مرات ، لن يكون أمامى إلا العمل راهبة فى معبد بوذى" .

حملت تشوشيا ولينغ طست الغسيل وذهبت لتغير الماء، وقالت مازحة مع ووتشانغ فو : "اشترى قليلا من زيت الشعر واغسلى به شعرك " وكانت قد ركزت انتباهها فى الكلام ، فتساقط رذاذ الماء سهوا على ووتشانغ فو.

صرخت ووتشانغ فى وجهها : "أما إنك صحيح قليلة الذوق ! لقد لوثت ثيابى الجديدة بماء الغسيل ".

تقدمت تشيانغ يون منهما وسألتهما " أين زميلاتنا فى الفصل ؟"

أجابتها تشوشيا ولينغ : "أغلب الظن أنه لا يوجد هنا سوانا نحن الثلاث ولقد نظفن الفصل فى الصباح ، ألا يحق لهن الخروج للعب بعد الظهر ؟

وقالت ووتشانغ فو فى لهجة لا تخلو من التلميح "تشن بوا لم تعد حتى الآن. "

صححت تشوشيا ولينغ كلامها وقالت : "لا ، كأنى رأيتها بطرف عينى منذ قليل ".

أومأت تشيانغ يون بأنفها لووتشانغ فو ، وانتحت جانبا لتغسل وجهها ، ولم تسمع سوى ووتشانغ فو تواصل حديثها قائلة لشوشيا ولينغ : "إن هذا الشىء الفارغ الذى يدعونه زيت الشعر لا تستعمله الجميلات المهذبات. هل رأيت كاريكاتير "العم ماوسان" ، لقد اشترى زيت شعر ودهن به إصبعه ، فنبت الشعر فى هذا الأصبع ، ويمكنه أن ينظف أسنانه بإصبعه بدون حاجة إلى فرشاة الأسنان".

ضحكت تشوشيا ولينغ حتى انبطحت على لوح الغسيل .

ولم تعد تشيانغ يون ترغب فى سماع كلامها الفارغ ، فأسرعت بغسل وجهها وخرجت . وقالت فى نفسها ، "حقا إنه سخف لا معنى له . . . . . . "

إن الحجرة المجاورة لدورة المياه هى مكتب اتحاد الطلاب.

مرت تشـيانغ يون من أمامـه فلمحت ظل شخص . ودفـعت الباب فوجـدتها سونينغ .

"سونينغ ؟ كيف لم تعـودى إلى البيت ؟ من لحـظـات إنه لا أحد هنا ، كيف ذلك وأنت هنا "؟

أشارت سونينغ إلى الآلة التى تحت يدها ، وقالت لتشـيانغ يون "لقد استعرت آلة الطباعة الخاصة باتحاد الطلاب لأنسخ إحدى الأغنيات لفصلنا" .

وضعت تشيانغ يون وعاء غـسيل الوجه على الأرض ، وتقدمت إلى جوار سونينغ وقـالت لها " رائع " يدا سونينـغ وجهها ومـلابسها كلهـا عليها آثار حـبر الطباعة . لم تكن سونينغ ماهرة فى القبض على البكرة التى تمر فوق حبر الطباعة، ومن ثم راحت تدفعها بقوة فوق ورق الإستنسل.

وقد جـاءت كلمات الأغنية المطبـوعة حبرها خـفيف فى اليسـار وثقيل فى اليمين بسبب عدم توازن القوى الضاغطة.

قالت لها تشيانغ يون فى حماس وشجاعة "دعينى أساعدك" .

وعندما رأت سونينغ ترفض مـساعـدتها شـرحت لها قـائـلة : "حـقيقة إن لدى خبرة فى الطباعة بالحبر، فبعد التحرير بعدة أيام جئت إلى هنا لأدفع ذراع آلة الطباعة. "

ثم تسلمت تشيانغ يون ذراع الآلة من سونينغ وتولت القـيام بالعمل الرئيسى . ووقفت سونينغ إلى جوارها تساعدها فى قلب الورق.

سونينغ : " إنك إنسانة رائعة " . ولم تكن تشيانغ يون تنظر إلى الآلة عند دفعها لـلذراع ، بل كانت تركز نظراتها على وجه سونـينغ واستـطردت تـقول :

"انظرى إلى نقط حبر الطباعة التى على وجهك ، إنها أجمل وأحسن رائحة من كل الروائح ومساحيق التجميل علاوة على العلم الأحمر الذى يرسم خلفية لك من وراء ظهرك ، حقيقة رائعة الجمال" .

قالت سونينغ وقد بسطت يدها : "كفاك مزاحًا ، فإن الفضل يرجع إليك ، فقد أسندت إلىّ الإشراف على فريق الغناء الجماعى. ثم أين معرفتى هذه ؟ إننى لا أقوم بهذا العمل على النحو المطلوب . . . "

"كفاك أيتها الرفيقة القائدة ، فلقد قمت بقيادتنا فى التدريب على أغنيتين" . ثم قامت تشيانغ يون بغناء عدة جمل من آخر أغنية تدربن عليها . وأضافت تشيانغ يون "ألا تشعرين أثناء قيادتك لفريق الغناء بالبهجة والسعادة حتى يصل بك الأمر إلى الشعور بأن روحك المعنوية ارتفعت عاليا فى السماء ؟ عندما يغنى أعضاء الفريق إحدى المقطوعات ويعشن جميعا فى موسيقى الأغنيات ، آنذاك ، تشعرين بـ . . . . . ، "

"إننى أحب الغناء ، وشعورى عند الغناء مثلما تصفينه الآن ، ولكن فى بعض الأوقات أحب أكثر أن أدندن بصوت هامس" .

قطبت تشيانغ يون جبينها ، ولم تعد تشرح لسونينغ مشاعرها وأحاسيسها وقت الغناء . بل أخذت تسكب الحبر وتحرك الذراع فى سرعة كبيرة ، مما يجعل حركة أصابع سونينغ رغم بساطتها عاجزة عن ملاحقتها . ونظرت سونينغ إلى تشيانغ يون، وقد تحركت شفتاها عدة مرات وكأنهما تريدان أن تقولا شيئًا.

لكن تشيانغ يون لم تلحظ ذلك .

ترنمت سونينغ بإحدى المقطوعات الغريبة فى صوت خفيض.

أثار ذلك دهشة تشيانغ يون ، فهذه المقطوعة من التراث القديم أصبحت فى طى النسيان ، لكنها تظهر فجأة من جديد. وأدركت تشيانغ يون كلمات المقطوعة التالية والتى لم تترنم بها سونينغ.

أشجار الصفصاف اخضرت وأينعت ،

الأخت تركب الحصان ، والأخ يعدو بجوارها ،

الرحلة الطويلة الشاقة تضنى الأخ وتتعبه . . . .

صاحت فيها تشيانغ يون : "ماذا تغنين ؟".

"ماذا ؟" واحمر وجه سونينغ وقالت فى ارتباك :

" أنا . . . . إنه كلام من عفو الخاطر . . . . . . "

توقفت تشيانغ يون عن الطباعة وسألتها : " ألم تنسى بعد أغنيات التراث القديم هذه ؟"

" استمرى فى الطباعة حتى ننتهى بسرعة ، وأنا . . . . . . حقيقة إنه شىء من وحى الخاطر . . . . "

قالت لها تشيانغ يون فى صوت هامس : " ماذا ترين إذا غنيت من وحى الخاطر أيضا نشيد جيش المتطوعين ، أليس ذلك جميلاً ؟"

لم تجبها سونينغ .

وانتهتا من طباعة الأغنية ، وأخذت تشيانغ يون تجمع وتسوى الأوراق ، وقالت لها سونينغ :

"لقد ذهبت للبحث عنك منذ قليل ، وكنت نائمة ".

" هل هناك شىء ما ؟".

" أبدا . . . . لا شيء " .

تركت تشيانغ يون عدم تأثرها بأغنيات التراث القديم التى تغنت بها سونينغ منذ قليل جانبًا ، وسألتها : " تكلمى ، أيمكن أن يكون هناك شيء تريدين إخفاءه عنى؟ إننى متعبة وقد نمت كثيرا فى نهار اليوم . . . . . "

استندت سونينغ إلى المنضدة المتهالكة التى توضع عليها آلة الطباعة وهى تداعب طرف ثيابها بأصابعها . جذبت تشيانغ يون يدها لأنها ملوثة بحبر الطباعة ، فرفعت رأسها وراحت تنظر من النافذة ، حيث كانت ووتشانغ فو وتشوشيا ولينغ تحملان وعاء غسيل الوجه وآنية غسيل الملابس وتمران من تحت الشباك بعد أن طرقتا عليه .

" انظرى ، إن ووتشانغ فو تشمر عن ساعديها ، ألا تخشى البرد ؟ " .

أقلق تشيانغ يون طول الانتظار ، فسألت سونينغ وهى تطرق رجل المنضدة بأطراف أصابع قدمها : " خبرينى فيم كنت تبحثين عنى ؟ "

"يانغ تشيانغ يون ، إننى أخشى أن تغضبى منى . لكنك أحسن الناس معاملة لى ، لذا فإننى أتشاور معك قبل أن أقدم على عمل أى شيء " ، وما زالت سونينغ تنظر من النافذة عبر الزجاج النظيف لترى فريق شباب الطلائع يحملون الأعلام عائدين من الاحتفال بيوم الطليعة ،ضحكت تشيانغ يون حتى شعرت عن يقين أنها لم تغضب قط من قبل وقالت : " كيف لى أن أغضب ؟ " ثم أمسكت سونينغ وهى تحثها : " قولى ، تكلمى . "

سحبت سونينغ يدها ، وأخذت تداعب أظافر يدها اليسرى بخنصر يدها اليمنى، وقالت " إننى كثيرا ما أكون مع مارى فى الآونة الأخيرة ، وتوقفت ونظرت لترى رد فعل تشيانغ يون .

أومأت تشيانغ يون برأسها

" كنت لا أفـهمهـا من ذى قبل . وذات مـرة خرجت جـميع الزمـيلات الى الملعب وبقـينا نحن الاثنتين ، قلت لهـا اليوم عيـد ميـلادى فسـألتنى فى شىء من الغموض : " وما أدراك ؟ " ، ضحكت ، وقلت أخبرتنى أمى بذلك اليوم ، وما هى إلا لحظة حتى انخـرطت فى البكاء ، وقالت : " حتى يوم عيد ميلادى لا أعرفه ، وبعد ذلك تعارفنا على بعضنا البعض وتوقفت سونينغ عن الكلام من جديد .

" كيف ؟ " وبدا أن تشيانغ يون تتحلى بأقصى درجات الصبر .

" فى الأسـبوع الماضى ، خلعنا جميعًـا عن أنفسنا المعاطف القـطنية ، بيـنما لا تزال مارى ترتدى مـعطفها ، وسألت عن السـبب فقالت إن لديها فـقط معطف قطنى ثقـيل وثـــوب آخر خـفيـــف ، ولا شىء سوى ذلك . أردت أن أهديهـا ملبسا صوفيا من عنـدى ، ولكنها لم توافق أبدًا ، قلت لها إنها لا يجب أن تعذب نفسها. لكنها ، هل تعرفين مـاذا قالت ؟. . . . . قالت : " أشعر أننى أكثر الناس سعـادة لأننى صاحبـة عقيـدة : " وأضافت : عندما أتذكـر السيدة العـذراء وأتذكر معاناتها التى فاقت آلامنا بملايين المرات وهى تنظر إلى ابنها المسيح المصلوب من أجل البشـرية حينئذ مـاذا تعنى معاناتى البـسيطة هذه ؟ استمـعــت إلى كلامهـا وعيناى تحملقـان فيها ، فلم يسـبق لى أن سمعت مـثل هذا الكلام من قبل قط . . . . ولكن ما لاتـعرفينه ، أن عـينيهـا آنذاك كان يخـرج منهمـا شعاعـان قـادران على اختـراق. وكان لكل كلمـة من كلماتهـا وزن ثقيل . . . . . . " والتقطـت سونينغ أنفاسها بعد أن تحدثت بمشاعر لا تخلو من النبل والاحترام .

أظلم وجه تشـيانغ يون فى الوقت الذى بـدأ الليل ينسج خيـوطه أيضا ، ولم تستبن سونينغ ذلك .

وواصلت سونينغ حديثها فى إثارة ولهفة : " سألتها ، لماذا تعتقدين فى وجود إله ؟ قالت : لأننى ضعيفة بنفسى ، ولكنى عندما تحل روح السيدة العذراء فى قلبى، لا أخشى شيئًا وإن كان صعود الجبال على أسنة الرماح" .

وسألتها مرة أخرى " علام تستندين فى إثبات وجود الله ؟"

لأننى كما تعرفين لاأؤمن بوجود إله ، فقد درسنا نظريات تاريخ التطور الاجتماعى والعلوم الطبيعية . آنذاك ضحكت مارى وقالت لى فى براعة وإتقان : " أنا وأنت ، نحن أنفسنا الدليل ، والدليل على وجود الله فى كل مكان" .

وأشارت إلىّ ، لماذا منحت الحياة؟ لماذا لم تخلقى حجرًا أصم ؟ لماذا ولدت فى يوم الثانى من مارس على وجه التحديد دون تقديم أو تأخير ؟ ثم أشارت إلى نفسها، لماذا منحت الحياة أنا الأخرى ؟ بل لماذا نحن - أنت وأنا - شخصان ؟

" لماذا القمر فى السماء ؟ ولماذا الماء فى البحر ؟ "

" لماذا تتفتح الزهور ثم تذبل وتسقط ، ويعيش الإنسان ويموت؟ "

" كل ذلك لأن هناك إله " ! [كلامها بالنسبة لى كان شيئًا غامضًا مبهما مثل الغيوم المتحركة . ثم عادت تسألنى من جديد ، ألا تشعرين فى بعض الأوقات أنك ضعيفة ؟ ألا تشعرين أن هناك كثيرًا من الأمور التى تعجزين عن فهمها وإدراكها أو تجرى على عكس ما تشتهينه؟

ألا تشعرين بالفراغ ، ألا تشعرين كأنك فى مفترق الطرق لا تعرفين ماذا تفعلين ؟ كل ذلك لأنك لست صاحبة عقيدة ! "

قالت تشيانغ يون وهى تفكر أن تستدعى مارى لتجادلها :

"هراء ، إن لنا . . . . . . "

غيرت سونينغ هذه المرة من عادة التوقف عن الكلام عندما يقاطعها أحد ، وانطلقت تقول ، بعد ذلك حكت لى قصة أحد الرعاة : " ذلك الراعى الذى عثر على إحدى نعاجه الضالة ففرح بها أكثر من النعاج الكثيرة التى يمتلكها. تقصد بذلك أن الرب ينتظر دائما أن يؤوب إليه كل من لا يؤمن به . وظللت أفكر طوال هذه الأيام فى كلامها هذا ، إننى فى واقع الأمر يداخلنى الشك والريبة فى أمر الأديان ، ولكن يبدو أننى قد تأثرت ، ليس بسبب كلامها ولكن بسبب روحها ومعنوياتها.

إننى أفكر ، ماذا لو جربت ، وإما أن أكون مع هذا الأمر أو أكون ضده . إننى أريد أن أدخل معها الكنيسة عدة مرات . . . "

قالت تشيانغ يون وهى تضرب كفًا بكف "أجننت ؟ "

"معقول هذا الكلام . . . . . . " حيث كان كلام سونينغ مفاجأة مذهلة لها .

أحنت سونينغ رأسها قائلة : "لا تغضبى ، هذا الذى قلته ، لا . . . . . "

عضت تشيانغ يون على شفتها السفلى وقد انتحت جانبًا ، لكنها لم تطق صبرا، قالت وهى ترتجف :

"أنا لم اغضب ، وبأى حق أغضب ؟ إن حرية العقيدة أمر مكفول ، اذهبى . . . . واسجدى للعذراء ، أما أنا إذا تدخلت فى أمرك ،فيعد هذا خروجًا عن القانون. فهذه حريتك الخاصة . . . . "

اقتربت سونينغ منها ، وقالت فى خضوع واستسلام : " يانغ تشيانغ يون ، ماذا دهاك؟ ماذا أصاب مزاجك اليوم ؟ إننى أتشاور معك ، ليس أكثر " .

دفعتها تشيانغ يون وهزت رأسها فى حزن وأسى.

"حقيقة إننى لم أتوقع ذلك أبدا ، واعتـقدت أنك يمكن أن تسيرى قدما للأمام بتوليك رئاسة فريق الغناء الجماعى ،حـتى بلغت بى الحماقة أن فكرت فى ترشيحك لعضوية الرابطة خلال هذه الفترة الدراسية . خلاص ! أعرف أنك تأثرت بأسرتك، حيث إن صحتك تكون أحيانا على غير ما يرام ، كنت أعتقد أن ما يصيبك لا يعدو أن يكون صداعا أو سعالا أو التهـابا فى الحلق وما إلى ذلك ، وما هــى إلا بضعة أقـراص من أيه بى سى حتى تشـفى ، وكانـت النتيـجة أنك تعـاطيت الأفيـون - الكاثوليكية -! آمل أن تعيـشى حياة زاخرة رائعة ، وأتمنى أن أفـعل كل ما أستطيع من أجل ذلك.

أحيـانا أراك فى قمـة السعـادة والاجتـهاد وأيضا الرغـبة فى العـمل من أجل الآخرين ، حينذاك أكـون أكثر سعادة من سعـادتى أنا نفسى إذا قمت بشىء طيب يبعث على السعادة .

فكرت ما أروع سونينغ ، فقد تزاملنا واجتزنا معًا المرحلة المتوسطة ، أحيانا كان يعتريك بعض الحزن والأسى ، فكنت أحزن من أجلك أكثر من حزنى على نفسى! آه ، لا يجب على أن أقول هذا الكلام ، ثم هدأت لهجتـها الحادة وقالت ، "أنت ترغبين فى دخول الكنيسة ، جميل ، اذهبى ! "

"مالك ؟ ألست صديقتى ؟ كان أخى قبل مغادرته يطلب منى أن أسمعك، ولماذا تقسين علىّ هكذا ؟ "

مسحت سونينغ العرق الذى تصبب من جـبينها ، فتركت عليه ما فى يدها من أثر حبر الطباعة .

سمع رنين جرس العشاء "تن ، تن . . . . . . "؟

"اذهبى لتناول العشاء ، فقد ذهبت كل الزميلات " .

"لن أذهب " ، وانطلقت تشـيانغ يون دون أن تلتـفت خلفهـا ، وما هى إلا لحظة حتى توارت عن الأنظار.

لاحقتها سونينغ "خذى وعاءك ، وعاء غسيل الوجه ! "

لكن تشيانغ يون لم تجبها . جموع الزميلات تمررن من أمام الشباك فى طريقهن إلى المطعم . الهـدوء يسود الحجـرة عند تناول الوجـبات ، ولكن سونيـنغ مازالت كأنهاتسمع صدى صوت كلمات تشيانغ الغاضبة.

ضربت سونينغ الأرض بقدمها من فرط غـيظها ، الدموع تحوم فى عينيها وهى تمسك بوعاء غـسيل الوجـه الخاص بتشـاينغ يون ، تناولت فوطة الوجـه من الوعاء وأرادت أن تمسح بها وجهها ، لكنها لم تمسح بل أعادتهـا. غادرت الحجرة الصغيرة - مقر اتحاد الطالبات - إلى عنبر نوم تشيانغ يون لتعيد وعاء غسيل الوجه.

* * *

خرجت تشـيانغ يون من باب المدرسـة ، وأخذت تجوب الحـارات هائمة على وجهها . الشمس جنحت للمغـيب ، لم يسدل الظلام ستائره بعد ، كل شىء يقبع فى هدوء بين آخر خيـوط النهار وأول خيوط الليل . وكان هناك لحـام معادن يلحم إبريقا يجلس إلى جوار باب صـغير مقشور الـطلاء وهو يسابق الزمن لإتمام عمله ، يلبس نظارة سـوداء صنعت خصيـصا لهذا الغـرض ، وهو يحرك نيـران الفحم فى سرعة وخفة .

اقتربت منه تشيانغ يون ، وأخذت تنظر إليه كيف يستخدم كلتا يديه فى مداواة جرح الإبريق . رآها اللحام وقد مكثت إلى جواره وقتًا طويلاً ، فرفع رأسه وقال لها :

"إذا كنت تريدين لحام إبريق أو خـلافه ، أحضريه فى الغد ، فـالرؤية لم تعد واضحة ، وقد انتهيت من عمل اليوم" .

انصـرفت تشيـانغ يون وهى تضحك . وواصلت المسيـر إلى الأمام ، وما إن رفعت رأسها حـتى شاهدت شيئا أسود اللون معلقًا على أسـلاك الكهرباء . اقتربت منه ونظرت فإذا به طائرة ورقية على شكل خفاش . تمزق نصف جناح هذه الطائرة، بينما يرفرف الورق الذى يغطى ذيلها فى حركات ضعـيفة لا حول لها ولا قوة وكأنه ينعى لتشيانغ يون حظه العاثر .

فكرت تشيـانغ يون هل لهذه الطائرة الورقـية صفـارة ، إننى أحب صوت هذه الصفارة وما شابهها من أصوات الصفارات المصنوعة من البامبو المجوف. ولكن لماذا أحب هذه الأصـوات بالـذات ؟" وأخـذت تقـدح زناد فـكـرها، "نـعم ،هذه الأصوات تسمع دائمًا بعد عـيد الربيع ، وتعتبر إحدى موسيـقات نهاية هذا العيد. وبعد سماع هذه الأصوات ، من يريد شراء القرع العـسلى أو تفجير المفرقعات لابد وأن ينظر ينتظر حتى يجىء رأس العام الجديد .

فى الوقت الذى طلب فـيه اللحام من تـشيانغ يون أن تحـضر فى الغـد للحام إبريقها ، فى الوقت الذى شـاهدت فيه الطائرة الورقية معلقـة فوق أسلاك الكهرباء ترفرف كالذبيح كأنها تشكو لتشيـانغ يون سوء حظها ، فى الوقت الذى تذكرت فيه أصوات صـفارة الطائرة الورقيـة وصفارة البـامبو المجـوف، فى ذلك الوقت أحست تشيانغ يون بشعـور غريب ومفاجئ يجثم على صدرها ، حيث شـعرت أنها قضت وقتهـا بعد ظهر اليوم بصورة سيـئة ، باهتة لامعنى لها . فـما إن آوت إلى الفراش حـتى نامت ثلاث سـاعـات كـاملة ، وأصـابهـا الـدوار والصـداع من هذا النوم. واستـمعت إلى حـديث ووتشانغ فـو وتشوشيـا لينغ الأجوف الذى لا مـعنى له ، والشائعـات التى تختلقـها ووتشـانغ فو حول تشـن بوا. ذهبت فى منتهى السـعادة لتساعـد سونينغ فى طباعـة كلمات الأغنية، وخرجت من عندها فى منتـهى الضيق والألم . تشاجرت مـعها بصوت عال ، ولكن ذلك أيـضا لم يفد فى شىء . وفى نهاية الأمـر ليس أمامها سـوى أن تراجع أسلوبها ومواقفـها. إن أحزانها وأفـراحها

وحماسـها أكثر من غـيرها ، ولكن ما تقوم به ومـا تحصل عليه قليل جـدا. تشعر أحيانا أن حبها للآخرين يفيض عليها . إنها دائما تقدم الكثير وتحصد القليل .؟ إنها طوال يومـها تساعـد هذه وتمد يد العـون لتلك. فهى لم تذهب إلى اللحـام بإبريق معدنى قديم ، وليس عندها وقت لتطيـر طائرة ورقية ، فهى فى الأصـل لا تلـقى بالاً إلى أمورها الخـاصة ، ولكنها قـالت فى نفسـها : "إننى أيضا فى حـاجة إلى رعاية، فى حاجة إلى اهتمام . . . .

ومن أحد جـنبات هذه الحارة ، انـبعث صوت جـهورى ينادى "سـمك ذهبى كبير، سمك ذهبى صغير . . . كله للبيع"

ما إن تردد هذا النـداء ثلاث مرات فى أرجاء الحـارة من جانب إلى آخـر حتى اخترق حجب الهدوء والسكون الذى كان يخيم عليها.

رأت شابًا يافعًا قوى البنيان يحمل وعاء به السمك الذهبى والأعشاب البحرية والقواقع النيلية ، ويضع يده اليسـرى على أذنه ويميل عنقه وينادى كأنه يغنى "أقبلوا . . أقبلوا"

وسرى مع الريح الشرقية الزكيـة صوته ذو النغمات الحلوة المعبق بروائح الريف الجميلة فى فصل الربيع .

تقدمت بضع خطوات ، فإذا بها من حـيث لا تدرى أمام الباب الخلفى لحديقة بيخاى . فرحت تشـيانغ يون، ما أحسن أن أزور حديقة البيخاى مـساء اليوم يا لها من سعادة . لقد جاء الربيع ، ولم تفكر فى الذهاب للتنزه بحديقة بيخاى . أشجار الحور البيـضاء الضخمة تقف شامـخة على جانبى الطريق ، أوراقها حـديثة الظهور شديدة البريق تتلامس فى خفة ودعة ، فتصدر عنها سيمفونية السعادة وكأنها تهمس بكلمـات الترحيب بالزائـرين . تشيانغ يون تجـرى وتقفـز هنا وهناك وهى تمرق بين الأشجار، ورفعت يدها ترد على هذه الأشجار بقولها:

"يا أشجار الحور البيضاء المخلصة، هل بدأت من جديد فى تقديم تحياتك الصادقة التى لا ينضب لها معين؟ ليس عندى وقت للمزيد من زياراتك ، لكنى دائما أشتاق إليك "

تقدمت تشيانغ يون نحو شاطئ البحيرة ، وكانت تعد أعمدة الدرابزين المتجمدة واحدًا تلو الآخر، وتنقل أقدامها فى خطى وئيدة متهادية، محيط القلعة البيضاء والجوسق المحلى بالتنانين الخمسة يتواريان فى الظلام شيئا فشيئا ، ولم يعد لها وجود سوى فى المياه حيث يمكنك أن ترى ظلالهما المهتزة ، هلال القمر الأصفر يلوح فى الأفق البعيد، يكسو سطح البحيرة ضوء خفيف خافت ، فتبدو هادئة وجميلة ، عدد الزوار غير قليل ولكنهم اختفوا فى الظلام، أصواتهم وضحكاتهم فى هذا الأفق الرحب تبدو وكأنها تتهادى من بعيد ، إن تلك التى تقضى معظم وقتها فى حيز ضيق بين جدران الفصل الأربعة تشعر بسعادة وراحة كبيرة عندما تبرح هذا المكان. أغصان الصفصاف كثيفة ، عبير الزهور يتزاحم فى المكان، المروج الخضراء تكسو الأرض فى كل مكان ، فعل الربيع مفعول السحر فى نفوس الناس ، وجلب معه كثيرًا من المظاهر الجديدة ، ولم تكن تشيانغ يون قد شعرت بهذا الربيع أو استمتعت به بعد ، ومن ثم أخذت نفسًا عميقًا ، وعبرت لهذا الربيع المخلص عن أسمى آيات الشكر والتقدير. وفى لحظات ، سيطرت على تشيانغ يون كلمات أغنية قادمة تتهادى من فوق صفحة البحيرة:

" أزهار الكمثرى تتفتح فى كل مكان

ستار الضباب الخفيف، يتراقص فوق النهر . . . . "

إنها أغنية "الكاتيوشا " ، مرت فى البحيرة عدة قوارب صغيرة ، وهناك شخص يحمل أكورديون والجميع يغنون معه فى صوت خفيض وعلى نحو من الحرص والحذر وكأنهم يخشون أن يزاح هذا الستار.

" مدافع الكاتيوشا تسير فوق المنحدرات الحادة،

أصوات الأغنيات تبدو كالربيع المشرق الجميل . . . . "

انتهوا من غناء فقرة ، ولكن النغمة لا تبدو أنها نغمة نهاية الأغنية ، ومن ثم عادوا يكررون هذا المقطع من جديد.

لم تتمالك تشيانغ يون نفسها من مشاركتهم فى الغناء.

فهذه أول أغنية روسية تعلمتها ، وهى تحب هذه الأغنية كثيراً لأنها جمعت بين الموسيقى الصاخبة ذات الإيقاع السريع ومشاعر الحب العميقة والرقيقة ، مثل مشاعر الجندى عندما يمر ببلده المحبوب، مثل عدو الفتيات فوق المروج الخضراء . . . . . .

صوت تشيانغ يون قوى وجهورى ، المركب الصغير الذى يقل العازف على الأوكرديون يتجه نحوها ، مجدافا فى المركب يرتفع أحدهما وينخفض الآخر ، ويسمع صوتهما وهما يمخران عباب الماء. وقد نهض شاب سمين ولوح بيده لتشيانغ يون قائلا لها بلهجة أهل كانتون:

"تفضلى إلى مركبنا لتشاركينا اللهو واللعب"

ابتسمت تشيانغ يون ووضعت يدها على شفتيها على شكل بوق قائلة:

متأسفة ، شكراً ! "

تمايل المركب الصغير فجأة ، وترنح ذلك الشاب الواقف فى مكانه وتشبث بكتف جاره فى ذعر فانطلقت ضحكات كل من بالمركب عالية مدوية.

تعبت تشيانغ يون من الوقوف ، فسعت إلى جبلاية وجلست فوقها ، وإلى جوارها تقع جنبة عطرة الزهر ، مليئة بالأزهار الصغيرة المتفتحة البيضاء والقرنفلية اللون، وتصدر عنها رائحة عبقة تخلب الألباب . قطفت تشيانغ يون بأظافرها عصبة

صغـيرة من هذه الورود ، أخـذت تشمهـا ، ثم وضعـتها فى راحـة يدها وراحت تتلمسها فى رقة وهدوء فسقطت منها عند طرف ثيابها.

عبر بضـعة عشرة طالبا فى ضـجيج وصخب بأسفل منحـدر الجبلاية ، غطت ظلالهم المختلطة على أشعـة الضوء التى كانت تتراقص فوق صـفحة الماء ، وأثاروا التراب من خلفهم.

تسلق طفل صغيـر هذا المنـحدر ، ولم تره تشـيانغ يون إلا عندما اقترب منها ، يحـمل فى يده مسدسـا صغيـرًا من الخشب ، وأخذ ينـظر حوله فى ترقب وحذر ، وما إن رأى أن تشـيانغ يون ليست "عدوا " حتى اندفع فجـأة نحو الأمام مارًا بجانبها .

غطت القمر سحابة خفيفة ،يتهـادى من بعيد صوت نفير سيارة وصوت القطار المدوى . شبكت تشيانغ يون يديها، ونظرت فإذا بهـا وحيدة ، أحيانا تكون الوحدة أفضل ، حيث يمكن للإنسان أن يطلق العنان لعواطفه ويسترسل فى أحلامه ، يمكنه أن يفكر أولا يفكر ، يمكـنه أن يتكلم أو لا يتكلم ، ويسـتطيع أيضـا أن يغنى أولا يغنى.

تذكرت ما جاء فى أحد مـقالات لوشين من أن بكين ليس بها ربيع. حيث كانت الرياح المزمجرة تهب بضعة أيام ، ثم تسود الطقس حرارة شديدة بعد ذلك.

أما الآن فى الوقت الذى تجلس فـيه تشيانغ يون بمفـردها فى الليل على شاطئ بحيرة تايه تـبدو الرياح نســمة رقراقة والزهور تكسو المكان ، أليس هذا هو الربيع بعينه مائة فى المائة ؟

تذكرت تشيانغ يون وقت التزحلق على الجليد ، تلك الثلوج الصلبة التى ذابت وكونت هذه البحيرة ، أين تشيانغ شى تشون ؟ هل هو إنسان طيب؟

ثم بدا كأن تشانغ شى تشون قدم حاملاً حذاء التزحلق على كتفه ، وتذكرت حديثه الشيق الفكه ، وشعوره بالزهو والسعادة .

مضت أيام تساقط الجليد،

نعم مضت وانتهت . . . . .

أخذت تشيانغ يون تدندن فى صوت خفيض ، وقد أحنت رأسها نحو صدرها، تشتت خواطرها . . . . وانسدلت خصلة من شعرها فألقت ببتلات الزهور فى الجنبة العطرة إلى الأرض الطينية.

غاب القمر . وأفاقت تشيانغ فجأة ، أيمكن أن أكون قد أخذنى النوم مرة أخرى فى هذا المكان ؟.

خرجت تشيانغ يون مسرعة من الباب الخلفى لحديقة بيخاى لا تعبأ بمشاهدة أى شىء ، نسَت أن تحيى أشجار الحور ،ونست أيضا أن تودع مياه الربيع ، صعدت فى عجالة إلى الترولل باص . أسرعت نحو المدرسة . يا للطامة الكبرى!

لقد مضت خمس عشرة دقيقة على موعد إطفاء الأنوار ، وأغلق باب المدرسة الرئيسى

نادت أولاً بصوت خفيض فى خوف وحذر ، فلم يجبها أحد . لا مخرج ، اضطرت تشيانغ يون إلى أن تعلو بصوتها، بل دفعت الباب حتى سمع له صوت .

صاح العامل لاوخو "من بالباب؟"

وهذا العامل من مقاطعة شاندونغ ، يحب الثرثرة بعض الشيء ، ومن حظها أن تصادفه اليوم.

وبعد أن فتح لها الباب، بدأ يثرثر ، "ياه ، حتى طالبة السنة الثالثة لا تعرف النظم واللوائح ، إنه شيء لا يحتمل ! "

عضت تشيانغ يون على شفتيها ومرقت من الباب ، وقالت كلمة "متشكرة" ، ولم ترفع رأسها واندفعت نحو عنبر النوم.

"يا آنسة ، ألا يصح أن تغلقي الباب من خلفك؟" .

نكست تشيانغ يون رأسها وكأنها ارتكبت جريمة ، وعادت فأغلقت الباب وقالت لعامل البوابة في صوت خفيض : "من فضلك ، أيمكن ألا تناديني بكلمة آنسة ؟"

وانفجر لاوخو فيها قائلاً : "أتحضرين متأخرة دون شعور بالقلق ، ولا تقبلين مني أن أتفوه بكلمة؟، ماذا دهاك أيتها الطالبة؟ " ولم يتوقف حتى خرجت مديرة العنبر وبث لها شكواه ، ثم عاد إلى حجرة الاستعلامات.

دخلت الغرفة ، الزميلات لم يأوين إلى النوم بعد، وأخذن جميعا يسألن تشيانغ يون في اهتمام ، "ماذا حدث؟ كيف تعودين في هذا الوقت المتأخر ؟" لم تجبهن تشيانغ يون ، ورقدت فوق السرير ، حتى ملابسها لم تخلعها ، وأخذت فقط تحملق في سقف الحجرة.

(٢٣)

تلقت يانغ تشيانغ سيلاً من النقد اللاذع بسبب ما حدث فى مساء ذلك اليوم. وفى اجتماع المدرسة الأسبوعى الذى يعقد كل يوم اثنين، قدم الأستاذ تشانغ رئيس قسم التوجيه تقريرا حول النظام ،وأشار إلى أن طالبات الصف الثالث لايلتزمن بالنظم المدرسية على النحو المطلوب ، فمثلا عند أداء تمارين الصباح فى فناء المدرسة لا يلتزمن بأداء هذه التمارين ، وعند تناول الطعام يدخلن إلى المطعم دون الوقوف فى طابور ، وما إلى ذلك . وأشار على نحو خاص إلى يانغ تشيانغ يون كمثال لذلك ، فقال:

"مساء أمس ، كان يتعين على الطالبات المقيمات بالمدرسة حضور حصة التعليم الذاتى ، لكن يانغ تشيانغ يون الطالبة بالصف الثالث لم تحضر هذه الحصة دون سبب، ولم تستأذن أيضا ، فقد ذهبت إلى المنتزه ومن أجله لم تحضر هذه الحصة ، وهذا أمر لم يحدث من قبل ولم تعد إلا بعد انطفاء الأنوار ، وكان يجب وفقا للوائح ألا يفتح لها الباب. والأكثر نم ذلك أنها بعد عودتها لم تقدم الاعتذار والاعتراف بالخطأ بعقل مفتوح ، بل تشابكت مع عامل غرفة الاستعلامات ...."

أخذت عيون جميع الزميلات تجوب المكان بحثًا عن تشيانغ يون، وأشارت إليها بعض من يعرفنها حتى تتعرف عليها الأخريات وهن يقلن ، " إنها هى " . ملامح الحيرة والارتباك تصارع ملامح الضيق والخجل فى وجه تشيانغ يون ، وأخذت تنظر إلى المنصة فى شىء من الشك والريبة وكأنها لا تعى مغزى كلام الأستاذ تشانغ رئيس قسم التوجيه بالمدرسة.

بعد ذلك عقدت اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة بالمدرسة اجتماعا خاصا بمشاركة لوى تشن لنقد تشيانغ يون . كان الاجتماع بغرض النقد هذه المرة مختلفًا فى بعض الوجوه عن غيره من الاجتماعات . فخطأ تشيانغ يبدو بسيطًا سهل الإدراك ، ولكن شرحها للموقف أثناء الاجتماع لم تفهمه بعض الزميلات ولم يقتنع به البعض الآخر.

قالت : "لقد أخطأت ، وأنا مستعدة لتلقى الانتقاد والاتهام من الجميع . لست أدرى ما حدث فى ذلك اليوم . . . هل أننى أعرضت عن المذاكرة من أجل النزهة المتواضعة؟ لا ، ليس الأمر كذلك ، إذن ما هو السبب ، لقد فكرت طويلا، ولكنى لم أهتد إليه .والآن لست أدرى ماذا أقول . . . .

أبدت الجماعة التى لم تقتنع بهذا التبرير اعتراضها على الفور قائلة ، هذا "ستار للخطأ"

كانت سونينغ هى العنصر الرئيسى فى فض هذا الاجتماع ، فبعد أن انضمت الكثير من الزميلات إلى تأييد تقرير الأستاذ تشانغ رئيس قسم التوجيه وبدأن شن حملة النقد على تشيانج يون، نهضت سونينغ التى لم تتكلم من قبل قط فى اجتماعات اللجنة وانبرت تقول:

"الزميلات أعضاء الرابطة ، إننى السبب الرئيسى فى الخطأ الذى وقعت فيه تشيانغ يون . . . . " نهضت تشيانغ يون فى ذلك الوقت تنكر هذا الكلام إنكارا قاطعًا. وطلب الجميع من سونينغ مواصلة الحديث ، لكنها لم تستمر. وفى النهاية انفض الاجتماع بعد أن تحدثن عن أهمية النظام وعدم التساهل مع من يخالفن هذا النظام.

كانت تشيانغ تتلقى الاتهامات التى تكاثرت عليها بضمير مستريح ونفس راضية. حتى إنها فى الأونة الأخيرة كانت تقول فى نفسها فى سعادة : "كان

ينبغى أن ينتقدونى بشدة وقسوة . ألم يحدث أن وجهت إلى انتقادات كثيرة من ذى قبل؟ وإن السبب فى الخطأ الذى وقعت فيه مؤخرا يكمن فى قلة الانتقادات التى وجهت لى .

ولكنها أيضا تغيرت بعد جلسة توجيه النقد بعدة أيام . فقد لاحظ الجميع أنها تشرد كثيرا وتتكلم وتضحك قليلا . كانت تعمد إلى أن تبدو فى غاية الود وأن تبدو طبيعية جدا عندما تصادف أولئك الزميلات اللاتى انتقدنها بحدة وقسوة . وكان أكبر هذه التغيرات قد طرأ على شفتيها ، حيث شعرت مؤخرا أن شفتها أصابها جفاف شديد.

أخذت تتحسس شفتها السفلى بيدها ، فإذا هى ببساطة تشبه كعكة القمح المحروقة. فقد ظهر عليها كثير من القشور البيضاء، وما أن تلمس تشيانغ يون هذه القشور حتى تنزعها بلا رحمة . وعندما تنزع هذه القشور الجافة ، تبدو شفتها رطبة ولكنها هزيلة ضعيفة فى الوقت نفسه . وفى اليوم التالى تكونت قشرة جافة أخرى فنزعتها تشيانغ يون من جديد. وكانت النتيجة أن تورمت شفتها ، وأصبح يصدر عنها صوت "صفير" عند الكلام. قالت تشوشيا ولينغ لتشيانغ يون "أسرعى وانظرى فى المرآة ، انظرى لترى ماذا أصاب شفتك؟ إذا استمرت على هذا النحو سوف تصبح أشبه بشفة حيوان آخر. وانطلقت تجرى ، بينما لم تكن تشيانغ يون تفكر فى معاقبتها.

بعد ظهر اليوم ، بينما كانت سونينغ تحمل حقيبة كتبها وتتأهب للعودة إلى البيت أعطتها تشيانغ يون ورقة كتبت فيها :

"صديقتى العزيزة سونينغ ، سامحينى ! فقد ارتكبت كثيرًا من الحماقات فى ذلك اليوم، حماقات يمكن الصفح عنها ، ولكنك تعرفيننى جيدا، أليس كذلك ؟ سونينغ ، إن حياتك فى الفترة الأخيرة تمضى على أحسن وجه ، هذه حقيقة ،

ولكن لماذا فى بعض الأحيـان . . . . ؟ أخبـرينى ، إذا كنت تثـقين فى كـلامى . "أمازال هناك قرح لم يندمل بعد ؟."

وضعت تشيانغ يون الورقة فى يد سونينغ ، وانصرفت .

ذراع سونينغ الهزيلة الطويلة ترتعش بالوريقة الصغيرة.

عادت تشيانغ يون إلى الفصل واستمرت فى تنفيذ الرسم الهندسى ، فقد بدأت العمل به بعـد انتهاء جلسـة النقد ، كان يراودها فى بادئ الأمـر شعور بالرغـبة فى عقاب النفس وكبح جماح المشاعر ، فكانت فى كل مرة عندما تقيس ، تعيد القياس وتقارن ثم تعيد المقـارنة، وتحاول جاهدة رسم خط مستقيـم، أو عندما ترسم محيط دائرة فى خفة وسلاسة ، كثيرا ما كـانت قدماهـا تلعبـان داخـل الحـذاء ، وكثيرا ما كانت تطالب نفسها بالالتزام بشعار "يجب أن أقهر النفس حتى أتقدم ! "

إنهـا تتعـامل مع هذا الرسم كـما لو كانت هناك عداوة بينهـا وبينه ، تبحث عن كل عيب به ، تفكر حـينا فى تعديل هذا ، وحينا آخر فى تصـحيح ذلك ، ثم تفكرفى إعـادة الرسم من جـديد، كانـت تصارع نفـسـها أثناء هذا الـعمل الدقـيق والشاق، وقد هدأت بعض الشىء نفسها الكسيرة التى أرّقها الشعور بالخزى.

والآن ، انتهت من الرسم ، قطبـت جبينها وأخـذت تنظر إلى كل نقطة ، إلى كل خط ، إلى كل دائرة وكل نصف دائرة ، إن كل خط من خطوط هذا الرسم يمثل مقـدار ما لاقته من آلام ومـعاناة وتحمل ، وشـيئا فـشيئا ، انفـرجت أسارير وجهها وهدأت نفسهـا ، وشعرت أن هذا الرسم رسم دقيق ، حتى إنها لا تلحظ به عيبا ! الألوان زاهية وبراقة، درجة اللون الغامق والفاتح متناسقة ، وباختصار القول إن هذا الرسم فى مجـمله جاء أجمل من المناظر الطبـيعية!نظرت بطرف عـينها إلى نصف الدائرة وهى تتخيل نصف الدائرة الآخر الذى لم يرسم ، وقالت فى نفسها : "يالها من دائرة ، إنها رائعـة الاستدارة . . . . "

لم تطق صبرا وذهبت تبحث عن "عبقرية الرسم" يوان شن تشى. كانت شن تشى مشغولة بكتابة موضوع إنشاء . لم تشأ تشيانغ يون أن تزعجها ، فانتحت جانبا. تنبهت شن تشى إلى وجودها ، فأغلقت كراسة الإنشاء وسألتها:

"أتريدينني فى شىء ؟ "

أومأت يانغ تشيانغ يون برأسها .

وأخذت يوان شن تشى من يدها إلى خارج الفصل ، واستندتا إلى السور . وأعطت تشيانغ يون رسمها ليوان شن تشى لتطلع عليه.

أمالت شن تشى رأسها ونظرت إلى الرسم نظرة عميقة ثم أثنت عليه قائلة "رائع ! ".

ابتسمت تشيانغ يون وقد احمر وجهها ، وشعرت بسعادة مثل التلميذ الصغير الذى يمتدحه أستاذه عندما يكتب الإملاء لأول مرة.

وقالت يوان شن تشى وهى تشير بخنصرها "فقط عندما اقتربت من نهاية هذا الخط ، جاء سميكا بعض الشىء ، ولا شىء غير ذلك. "وكانت تشيانغ يون تمضى ببصرها مع شن تشى فى اهتمام ، وتكاد تنبرى دفاعًا عن رسمها قائلة إن هذا العيب لا يمكن ملاحظته بسهولة ، ولكنها فى مواجهة يوان تشى ، اضطرت إلى أن تبلع كلامها.

تذكرت يوان شن تشى ، وقالت فى تعجب وهى تداعب شعر تشيانغ يون بإصابعها "ولكن ماذا جرى ؟ إن هذا الرسم من واجبات الفترة الدراسية الماضية ! قد سبق أن درسناه من قبل . كيف تملكتك فجأة فكرة رسمه من جديد؟"

ردت يانغ تشيانغ فى حزم : "إننى لم أسلم هذا الرسم إلى الأستاذ من قبل . فقد بذلت فيه قصارى جهدى ولم أرسمه جيدا. وبعد ذلك مضى الوقت دون أن

أقوم بهذا العمل . وقد تذكرته مؤخرا من جديد، فقد كان عبئا على كاهلى لمدة نصف عام ، واليوم فقط تمكنت من إنجازه، ولكن لا فائدة من هذا الرسم الآن فالأستاذ لن يتسلمه.

"بل هناك فائدة ، نعم له فائدة !"

أومأت شن تشى تعبيرا عن إدراكها ، "ماذا أصاب شفتك ؟ وأعادت السؤال ماذا أصاب شفتك ؟ ما لها قد تورمت كثيرا بهذا الشكل ؟ يجب أن تذهبى إلى العيادة الطبية بالمدرسة " وكانت هى فى الوقت نفسه تصفف لها شعرها وتمسكه بمشبك الشعر.

"أولاً دعيك من شفتى ومن تورمها ، وأخبرينى ! واستطردت تشيانغ يون التى رفعت رأسها ونظرت بعينيها اللامعتين قائلة فى صدق وإخلاص ، "يوان شن تشى، لماذا يأتى رسمك بهذا المستوى الرائع؟ لماذا يكون أداؤك لهذا النوع من الأعمال على هذا النحو من المهارة والدقة ؟ إننى أدرك يومًا بعد الآخر أنك منفذة موهوبة ، وأن لديك يدين ماهرتين !

ضربت يوان شن تشى تشيانغ يون بيدها ضربة خفيفة ونهضت واقفة . أمسكت تشيانغ يون بيدى شن تشى بسرعة وتبعتها واقفة هى الأخرى قائلة : " إننى أغبطك على يديك هاتين ، إنهما قادرتان على القيام بالواجبات الدراسية والرسم وإعداد الطعام والقيام بالأعمال المنزلية ، ولديهما القدرة والمهارة أيضًا فى أعمال التطريز والنحت وزراعة الزهور ... . "

"كفاك ، إن يدى تستطيع أن تصنيع تمثالاً من المعجون وأن تصنع الطائرة أين ذلك الذى تدعين ! كفى هزوا. . . "

قالت تشيانغ يون فى أسف "لكن لديك نوعاً من القدرات الخاصة التى ليس لى منها أدنى نصيب! "

كانت يوان شن تشى تعتقد فى بادئ الأمر أن إطراء تشيانغ يون لها لا يتجاوز حد التهريج والمزاح ، ولكن تشيانغ يون كانت تسعى إلى أخذ النصح والمعرفة فى صدق وإخلاص ، ومن ثم فكرت شن تشى قليلا ثم قالت لها:

" لا ، ليست لدى قدرات خاصة ، إننى إنسانة عادية جدا ، استحضرى فى ذهنك طالبات فصلنا ، ولن تجدى بينهن من هى أقل منى مقدرة. وإذا كانت هناك بعض الأعمال التى أقوم بأدائها على نحو طيب، فهذا لا يعتبر موهبة على الإطلاق ، بل إنه أمر طبيعى، وقد تعودت على مثل هذه الأمور منذ الصغر ، فلم تعتد يداى أن تكونا عاطلتين عن العمل. فإذا كنت أسير فى الشارع ورأيت شيئا من القاذورات على زجاج نافذة أحد المحال، فإننى أشعر بالحرج وعدم الارتياح كأن هناك بقعة من الحبر على وجهى ، ولا أجد مناصا من الاندفاع إلى داخل المحل والاقتراح على العاملين به إزالة هذه القاذورات . وإذا قطع ثياب واحدة من الزميلات فإننى أرتقه لها عن طيب خاطر . تشيانغ يون ، إننى أقل منك مقدرة ، فهناك الكثير والكثير من الأمور التى لا أستطيع فهمها ولا أستطيع التعبير عنها . فسواء كنت حزينة أو سعيدة ، كل شيء يظهر من خلال يدى . إننى أتذكر عندما كنت طفلة صغيرة – فى الحقيقة لم أكن صغيرة جدا – كان عمرى اثنى عشر عامًا ، وقتها توفيت جدتى ، وحزنت العائلة من أجلها حزنًا شديدًا . كانت تحبنى حبا جما ، وكثيرا ما كانت تصحبنى إلى شارع لونغ فوتسى لنأكل السرغوم [(١)] . فى تلك الأيام كان أفراد العائلة مشغولين بأحزانهم، لا توجد من تعد الطعام أو من تكنس البيت أو من تغسل الملابس . كنت فى غاية الحزن والألم فى تلك الأيام ، وأخذت على عاتقى القيام بكل الأعمال المنزلية . أخذت إجازة لعدة أيام.

(١) نبات كالذرة يستخرج من بعض أنواع عصير سكرى .

وكنت كل يوم أشعل النار وأحضر الماء وأكنس الحوش، وأعجن العجين وأخبز الفطير وأطهو الطعام من الصباح حتى المساء، وأعمل أكثر من المعتاد، أخبز كل أنواع الفطير: فطير بالسمسم وفطير بالبصل الأخضر وفطير بالسكر ودهن الخنزير وفطير باللحم المفروم والفطير المخلوط بالخميرة .... تعجب كل أهل البيت من أمرى، لماذا لا أبكى ولا أحزن، بل أنشغل طوال اليوم بعمل الفطير، قال أبى إننى ليس عندى ضمير وإننى لا أعبر عن البنوة، وقالت أمى إن قلبى من حجر صوان، وكنت وحدى فقط التى أعرف قدر معاناتى، فكان الحزن يكاد يودى بحياتى، ولكن هل منعنى هذا الحزن من غسل وجهى وتمشيط شعرى وجعلنى أقف باكية إلى جوار النعش؟ لا، لم أفعل ذلك، بل كنت أخبز الفطير رغم أننى حزينة مكلومة، كفى فلا داعى للخوض فى هذه الأمور، وعندما أكون سعيدة أقوم أيضا بعمل بعض الأشياء، وعندما أكون متأثرة عاطفيا، لا أكتب الشعر العاطفى، بل أصنع الفطير المحشو بالبصل الأخضر، وهكذا أكون إنسانة عادية جدا! ثم أطلقت يوان شن تشى تنهيدة وهى تهز رأسها .

أمسكت تشيانغ يون بيد يوان شن تشى وأخذت تدقق النظر فيها إنها صغيرة، شديدة النظافة ولكن على عكس صاحبتها، ظهر يدها شديد النعومة، وبطنها بها شىء من الخشونة، أظافرها مقلمة ولكنها مستوية وناعمة، غير أنها تركت ظفر خنصر يدها اليمنى طويلا بعض الشىء، سحبت شن تشى يدها، ونظرت تشيانغ يون إلى يوان شن تشى فى تقدير واحترام وقالت: "أى فطير محشو بالبصل الأخضر وأى شعر عاطفى ذلكما اللذين تتحدثين عنهما، لقد جذبنى حديثك فى الفقرة السابقة أكثر مما يجذبنى الشعر، ربما كان حديثك هذا لونا آخر من ألوان الشعر، لكننى لم أقرأ مثل هذا الشعر قط، ربما ينتمى إلى شعر أسطورى أو ما يشابهه، إننى لم أتم كلامى بعد، إنك لا تجيدين استعمال يدك فحسب، بل إننى أشعر أنك تتمتعين بأسلوب دبلوماسى! صدقينى، لا أجد وصفا أفضل من

هذا أصـفك به ، فلم يحـدث قط أن توترت العلاقـات ينك وبين الآخـرين. إننى أعتقد أن لديك القدرة - إذا هجم عليك نمر أن تروضيـه وتجلسيه يستمع إلى إحدى الحكايات التى تقصيها عليه.

قالت تشى وقد بدا عليها الضيق "كـيف لك أن تقسى علىّ هكذا؟ وكلما مضيت فى الحديث كان كلامك مضحكًا مناف للعقل."

لم تستوعب تشيانغ يون كلام شن تشى ، واستمرت تقول فى تأمل : "حقيقة إنك عظيمـة، تستيطعين أن تكونى كبـيرة وصغيرة فى آن واحـد - كبيرة كـالأستاذ وصغيرة كالطفل الصغير.

إن الأمور ستكون أيسر كثيرا إذا استطعت أن أكون مثلك. ولكنى لا أجيد شيئا غير أن أنطح رأسى وقرنى فى أى شىء يقابلنى.

"كفى ، خـلاصة القول ، متى سـتذهبين إلى العيـادة الطبية بالمدرسة ، فـقد لاحظت أثناء حـديثنا أن شفـتك زادت تورما بنسـبة واحد ونـصف على سبـعة من البوصة."

ضحكت تشيانغ يون حـتى آلمتها شفتها فراحـت تتمتم عليها وتتحسسـها بخفة بأصابعها الثلاثة . أحنت وسطهـا وتناولت الرسـم ولفته جـيدا ، ثم قـالـت : "لا تخيفينى".

إننى واثقة أن شفتى سـوف يخف تورمها بعد حديثى معك. أما العـيادة الطبية فهى أكثر الأماكن كراهية بالنسبة لى ، ولا يمكن أن أذهب إليها على قدمى !"

"إنك أقل شجاعة من أختى الصـغرى فى مثل هذه الأمور فـهى إذا مرضـت لا تخشى أبدا من الذهاب لتلقى العلاج فى المسـتـشفى ، يا تشيانغ يون ، يجب أن تهتمى بنفسك بعض الشىء، لقد أصابتك حـمى فى الفترة الأخيرة، وأقترح عليك أن تشترى بعض الكمثرى وتأكليها مسلوقة.

"حسنا بعد تناول الطعام نذهب لنشترى ، فالكمثرى المسلوقة لذيذة الطعم."

عادتا إلى الفصل ، وضعتا كل شيء فى مكانه ثم ذهبتا إلى المطعم يدًا فى يد. لم تتوقف عينا تشيانغ يون عن إمعان النظر فى شن تشى وكأنها تحاول فى كل نظرة أن تكتشف فيها شيئا جديدا. وبينما كانتا تمران أمام حجرة الموسيقى، شدت شن تشى طرف ثياب تشيانغ يون ، فالتفتت ورأت تشن بوا تقف جامدة تحت شجرة الصفصاف الضخمة أمام الفصل وقد أحنت رأسها ، وراحت قدمها اليمنى تصنع خطوطا غير منتظمة على الأرض ، وفى يديها إحدى أوراق الصفصاف الرقيقة الطويلة التى راحت تلفها حول إصبعها تارة وتنزعها تارة أخرى.

كانت ترتدى ثيابًا طفلية اللون ، وقد لفت انتباه تشيانغ يون أن رأتها غيرت الملابس ذات الألوان الفاتحة فى مثل هذا الوقت المبكر. ثم صاحت تشيانغ يون بصوت عال:

"تشن بوا ، فيم تفكرين؟"

(٢٤)

من يعرف ذلك الذى يدور بخلد تشن بوا ؟ إنها هى نفسها لا تعرف . وإليك فيما يلى بعض يوميات تشن بوا فى الأيام الأخيرة.

يوم الاثنين السابع من أبريل

لم أسجل يومياتى من وقت طويل . وفى حقيقة الأمر ينبغى ألا يفوتنى تسجيل هذه اليوميات . فمثلا ، أثناء المشى فى عرض الطريق ، لا يمكن ألا يكون هناك أثر للأقدام ، والحياة الجميلة يجب أن يكون لها أيضا أثرها .

لقد حضر تيان لين لزيارتى فى صباح أمس الباكر ، إنه شاب نشيط ، شعره مثل الحشائش المنكوشة ، وملابسه بحاجة إلى الغسيل من وقت طويل ، لكنه يلبس حذاء جلديًا جديدا لامعا مزركشا وبه ثقوب ضيقة وكأنه موديل أجنبى.

صحبته إلى العنبر ، كان فى البداية مترددا بعض الشىء كأنه يشعر بشىء من الحرج . لكنه ما إن دخل حتى تعرف على صديقاتى . كان أثناء حديثه يومئ برأسه إيماءات خفيفة وقد وضع ساقا على ساق حيث يريد أن يبدو كأحد الكوادر القديمة. إنه يجيد المزاح وإطلاق النكات إجادة تامة ، فقد جعل ووتشانغ فو تكاد تقع من على السرير من فرط الضحك ، وكان فى كل مرة يثير كلامه الضحكات، يلتفت إلىّ ولكنى دائما مثل لوح من الخشب ، لا أضحك أبدا ، ومن ثم يومئ إلى بإيماءة تعبر عن الاعتذار.

بعد ذلك ، غنى أيضا إحدى الأغنيات ، ولم يكن فى بادئ الأمر يرغب فى الغناء . . . . لكن صوته جميل ، فلماذا إذن لا يعلو بالغناء؟

بعد ذلك مضينا فى أحد الشوارع ، ولا أدرى لماذا لم أنطق بكلمة واحدة آنذاك، لكنه تكلم كثيراً . . . . . . يمضى فى الشارع ترولل باص ، وسيارات . . . . وأحد الأطفال . . . .

إننى غاضبة ، كيف لا أجيد تسجيل يومياتى مثل الحساب اليومى؟ لقد كنت أفكر من قبل فى تسجيل الكثير ، واليوم أبادر بكتابة أحداث اليوم، أما أحداث الأمس فيمكن أن أواصل تسجيلها غدا.

لقد وجه الأستاذ تشانغ رئيس قسم التوجيه بالمدرسة انتقادات إلى فصلنا خلال الاجتماع الأسبوعى ، وخاصة إلى يانغ تشيانغ يون ، لماذا ؟ بعد ذلك عقد جلسة لتوجيه النقد،وقالت سونينغ إنها تتحمل المسئولية ، ولم يدرك الجميع حقيقة الأمر ، شعرت أننى ملومة فى هذا الأمر ، فأنا أقضى معظم وقتى مع يانغ تشيانغ يون ، لكننى لا أهتم بها كثيراً فى الوقت الذى تعاملنى فيه أحسن معاملة.

كسرت تشوشيا ولينغ طبقًا أثناء تناول عشاء اليوم ، كيف سيتصرف فصلنا ؟ ارتبكن جميعا وسادهن الحزن بسبب هذا الأمر.

الثلاثاء الثامن من أبريل

لست أدرى كيف صحوت مبكراً اليوم ، كأن شيئا أيقظنى ، كان النوم لذيذا ، فتحت عينى ، فإذا بى أرى إشراقة الصباح ، والعصافير فى الفناء تدعونى : "هيا، هيا اخرجى بسرعة ! ، الملابس المعلقة على الشماعة تستحثنى قائلة : "ألم تلبسينا بعد ؟ !" الشمس ترسل أشعتها نحوى وقد احمر وجهها ،بدأت أيامى المشرقة ، وابتسمت لى الدنيا وفتحت ذراعيها.

فى الحصة الأولى ، طلبت منى الأستاذة تشونغ أن أجيب عن أحد الأسئلة ، لم يخالطنى شىء من الارتباك ، جاءت إجابتى شافية شديدة الوضوح ومنظمة أيضا، ابتسمت الأستاذة وقالت : "رائع ، تفضلى بالجلوس" ، وكان كلامها وديا للغاية، جلست وصوتها يرن فى أذنى . بعد الحصة رقصت الزميلات رقصة جماعية، وانضممت إلى حلقة الرقص ورقصت معهن ، وكنت فى كل مرة تقريبا

تدعونى إحدى الزميلات للرقص حتى تصببت عرقا . شعرت أن صحتى جيدة للغاية وأننى أتمتع بالشباب والحيوية . إننى مثل زميلاتى ، كلنا شابات سعيدات، ولكن سعادتى تبدو أكثر قليلا ، وأعمق قليلا ، أليس كذلك؟

بعد الظهر ، لعب فصلنا مباراة كرة سلة مع طالبات الصف الثانى ، لم ألعب ، لكنى وقفت بجوار الملعب أشجعهن بحماس . بح صوتى ، وتورمت كفاى ، وكانت النتيجة أنهن انهزمن . شعرت وقتها بالخجل الشديد ، والآن فكرت فوجدت أن الأمر بسيط ، إن الحياة فى أساسها جميلة وممتعة ، ولا ضير من مواجهة بعض العقبات البسيطة.

فى وقت الغسق ، وبينما لم تظلم الدنيا بعد شاهدت نجما ذهبيا ساطعا. تمشيت فى المعلب ، كانت هناك نسمة رقيقة ، تذكرت عندما كنت فى المتنزه مع تيان لين أول أمس ، كانت هناك نسمات رقراقة أيضا، وبعدها تساقط رذاذ المطر . ذلك الرذاذ الخفيف الرشيق الذى أسقط كثيراً من بتلات الزهور ، كان يراقب المطر، يحبه كل هذا الحب ، كأنه . . . . كأنه ماذا ؟

الخميس : العاشر من أبريل:

لم أتمكن أمس أن أوفر وقتًا لكتابة اليوميات.

بعد انتهاء حصة التعليم الذاتى المسائى أمس ، كانت أضواء الكشافات الكهربائية تتحرك فى الفضاء ، أغلب الظن أنها تستعد لعيد "أول مايو" ،وقفت فى الفناء ورفعت بصرى وأخذت أتفرج وقتا طويلا.

"ما سر جمال الجو فى هذه الأيام؟ إننى فى مثل هذا الطقس الجميل ،أشعر كأننى فى أحضان أمى ، أشعر بالدفء والسعادة الشديدة. ولكن هل أستحق أنا مثل هذا الجو الرائع؟ بعد ظهر اليوم عندما ذهبت إلى حجرة الغلاية لأحضر المياه ، اصطدمت قدمى بأحد ترامس حجرة التحضير الخاصة بالأساتذة ، فسمع صوت

انفجار وانكسر التجويف الزجاجي من الداخل . أخبرت قسم الشئون العامة ، وقال المسئول إنه لا حاجة للتعويض ، استبد بي الحزن حتى قاربت على البكاء . ولكن ذلك لم يكن من أجل الترموس وحده. إنني في هذه الأيام أتوق إلى مزيد من عمل الخير، وأتوق إلى أن يعرف الآخرون مدى إخلاصي وطيبة قلبي ، لكني لم أفعل . أريد أن أغني ، أحسن الغناء ، لكني وقت التدرب على الأغنية بعد ظهر أمس، عجزت وحدي عن غناء نصف النغمة غناء سليمًا، وأتعبت سونينغ بأن أخذت تعلمني بمفردي. إنني أريد الحديث مع يانغ تشيانغ يون ، فمنذ أن عدت من المتنزه يوم عطلة الأسبوع ، وأنا أريد الحديث معها ، لكنها لا تنصرف عن تصميم الرسم، ولم يكن يليق بي أيضًا أن أسعى إليها في ذلك الوقت . إنني أفكر في هذه الأيام بالذات أن أتصور صورة ، ولكن مازال هناك شيء من الحرج . . . .

يا لجمال الحياة ! كأنني شعرت أخيرًا أنني أعيش في المدرسة الثانوية السابعة للبنات. أشياء كثيرة، ربما كانت صغيرة ، لم أفطن إليها من قبل ، لكنها أصبحت الآن تثير اهتمامي . مثل أن تدخل إلى قاعة كبيرة ، فتدندن إحدى الجمل الغنائية بصوت هامس فتسمع صدى الصوت على نحو سريع . أو عندما تمشين في الطريق، لا ترغبين في رؤية من يقترب منك ، بل تنظرين بكل ما وسعك النظر إلى الصديقات المتشابكات الأيدي القادمات من بعيد فتشعرين براحة كبيرة.

وهناك أيضًا أوراق الشجر التي يختلف لون سطحها عن ظهرها . وهناك أيضًا لي تشون بنت مقاطعة سيتشوان التي تنطق كلمة "الزميلة" مثل نطق كلمة "جردل الثلج " وهناك أيضًا السقف الذي تنبت بين أحجاره الحشائش الصغيرة ، وشال أزرق فاتح لمديرة المدرسة وضفيرة يوان شن تشي القصيرة ، والحصى الصغير على الأرض ، أصوات صفير القطار التي تتهادى في جوف الليل ، وأيضًا موسيقى برنامج تمارين الصباح في الراديو في الصباح الباكر. . .

لماذ أكتب عن هذه الأمور؟ ربما أكون ساذجة ، ولكن دعينى يا مذكراتى أكتب مزيدًا من هذه الأمور الصغيرة.

هل أنا جميلة أم لا ؟ لقد ارتديت اليوم ملابس ذات ألوان فاتحة . وعند تمشيط شعرى وقفت طويلا أمام المرآة ، ونظرت إليها وابتسمت . مازال حاجباى طويلين ، وفى عينى جاذبية وبريق ، لكن أنفى وطىء أفطس.

إننى لست جميلة ، ليس لى أدنى حظ من الجمال. ولكن ، ألست غير قبيحة أيضًا ؟ أين هو هذا القبح ؟ إننى أشعر أمام المرآة أن، تشن بوا مازالت لطيفة وخفيفة الظل .

تشن بوا ، يا تشن بوا ، يا لك من فتاة . . . .

انتهت كتابة اليوميات ، ومازال القلب غير مستريح ، يجب أن أسجل شيئا آخر . مازالت هناك عشر دقائق على موعد انطفاء الأنوار ، يجب أن أسرع فى الكتابة . وددت لو أن هناك متسعا من الوقت لاستمر فى كتابة ثلاث يوميات ، وأخرج ما فى القلب.

فى هذه الأيام ، كل شىء فى الكون ، سواء أكان الطقس او الشمس، القمر والنجوم ، الزهور والطيور ، الحشرات والأسماك ، زميلاتى وأساتذتى أو حتى العامل الذى يمضى فى الشارع ، كل هؤلاء يتركون عندى انطباعات وتأثيرات متداخلة ومتشابكة . إن قلبى يستعر، يكاد يحترق . كل يوم أمر بكثير من الأحداث التى لا تنسى وحالات لا تحصى من الأفراح والأتراح . أدق الأصوات يكون وقعها على أذنى مثل صوت الرعد ، مثل طبول الحرب، مثل سميفونية الأوركسترا . النهار يمضى بسرعة ، فأشعر أننى كبرت ونضجت بعض الشىء عن اليوم السابق. هناك أيضا ما يثير بعض المخاوف، أيمكن أن يمر هذا اليوم هكذا بمثل هذه البساطة ؟ (ولأنه لا بديل لى عن كتابة اليوميات) فإننى أشعر أحيانا أن الحياة لوحة كبيرة ، ترى ماذا أكون أنا داخل هذه اللوحة ؟ إننى أود أن أتصور هيئتى وأنا

جالسة أطالع كتاب، أو روحى المعنوية عندما أجهر بالغناء ، بل عندما أمزح ، عندما أفكر فى صمت . . . . لقد كنت قلما أفكر فى نفسى فى الماضى ، وإذا حدث فبطريقة تقليدية روتينية ، واحد ، اثنان ، ثلاثة ، فوق ، وسط ، تحت، وأصنف الميزات والعيوب وأعد "المسائل التى يجب الاهتمام بها"

"والاجتهاد من الآن فصاعدا " . هذا الوقت كان أفضل وأخف وقعا على النفس من الآن . لا ، لا ، لقد كنت حمقاء ، وكنت مثل البلهاء التى لا تعى عن الدنيا شيئًا . . . .

قرأت فى "صحيفة الشعب اليومية" مقالا يصف حادث استشهاد الشهيد تشيوشاوين فى معرك شانجا نلينغ ، فذرفت عيناى الدموع ، وأسرعت بتجفيفهما ، فالبكاء أمر مشين ، فقد قدم حياته فداء للحياة الجميلة والناس الطيبين والعالم البديع، وهذه هى السعادة . حقيقة كنت أتمنى أن أخوض الحرب الكورية ، وأبدًا لن أبخل بدمى إذا دعانى الوطن فالحياة فيه أعظم وأنبل وأخلد شىء ، وهذا الذى يجعلك فى صلابة الحديد.

خرجت تشن بوا من المطعم وظلت فى انتظار تشيانغ يون لتخرجا معًا تتمشيان فى الشارع الرئيس .

عندما خرجتا من المدرسة ، كانت الشمس تجنح للمغيب من ناحية الغرب ، تمضى فى الأفق موجات من السحب ذات اللون الأحمر الداكن ، وفى الشرق تمتد خيوط من السحب التى تحمل مزيجا من اللون الأرجوانى الفاتح واللون الرمادى الداكن فتبدو كأنها ظلال لوحة رسمت بالحبر الأسود وقد بدا عليها نوع من الأصالة والمهابة. جميع أنواع السيارات والدراجات تتزاحم فى الشارع المعبَّد الفسيح ، وتجرى بسرعة كبيرة كأنها فى سباق رهيب على أمل الوصول إلى الجهة المقصودة قبل أن يسدل الظلام ستائره ، ومازال العاملون الذين انتهت نوبة عملهم يقطعون الطريق فوق رصيف المشاة عائدين من مواقع عملهم إلى بيوتهم ، وقد تزايدت أعداد أولئك الذين خرجوا للتنزه بعد تناول العشاء.

باعة أطعمة الليل الخفيفة دفعوا عرباتهم واتخذوا أماكنهم وأضاءوا أنوارهم ، وقاموا بكل الاستعدادات اللازمة ، لاستقبال الليل الذى أوشك أن يرخى سدوله . استطاعت هذه الظواهر العادية للشارع الذى يقبل على المساء أن تحرك أعماق تشن بوا بصورة مفاجئة ، أدركت هذه الأعداد الغفيرة من الجماهير ومصائرهم المتعددة، وأدركت الحياة الصاخبة التى تمضى فى سرعة دون توقف ، فماذا تفعل تشن بوا فى هذه الحياة؟ تحمل أفراحها وأتراحها المختلطة المتزاحمة وتنخرط وسط هذه الجموع الحاشدة من الجماهير . شعرت تشيانغ يون أن الحياة تشدها إليها بقوة.

ضربت تشن بوا براحة يدها على مرفق تشيانغ يون قائلة لها : "عزيزتى يانغ، أخبرينى برأيك فى شخصى" .

ردت تشيانغ يون وقد اتسعت عيناها ، وهى تشير إلى نفسها ثم تشير نحو تشن بوا ، " أنا ؟ أقول رأيى فيك أنت ؟ " .

كررت تشن بوا قولها فى صوت خفيض ، "قولى انتقاداتك لشخصى" .

مرتا بأحد محال بيع الأطعمة ، ودخلت تشيانغ يون واشترت نصف كيلو كمثرى، وقالت لتشن بوا ، هذه نصيحة دكتر [1] يوان شن تشى ، فقد طلبت منى أن آكل الكمثرى الناضجة لخفض الحرارة . لماذا تطلبين رأيى فى شخصك؟ لقد وُجِّه إلىّ النقد منذ قليل ، بل ألا يجب عليك الآن أن توجهى إلى اللوم الشديد؟ "

" لا ، إننى أغبطك يا تشيانغ يون. إن عندك بعض الجوانب التى تستحقين اللوم عليها، ولكن سرعتك فى التغلب على الصعاب مثل سرعة انعكاس أشعة اشمس على ساحة الجليد، وهذا ليس صعبا على الإطلاق . . . . "

(١) دكتر : كلمة روسية بمعنى طبيب .

أوقفتها تشيانغ يـون قائلة ، "لا داعى لهذا الكلام ، فإننى فى حاجة إلى نوع آخر من الكلام ، مازال عليك أن توجهى لى اللوم والنقد الشديد . . . . "

قالت تشن بوا وهى تـنظر إلى شفة تشـيانغ يون الغليظة "المرة القـادمة ، المرة القادمـة ، اتفقنا ؟ وابتسـمت تشن بوا ، واستمـرت تتمتم من فـرط تأثرها قائلة ، "الآن ، دعينى أتم كلامى ، إننى أغبطك على حمـاسك المتوقد ، وروحك المقدامة الشجـاعة التى لا تخـشى شيئًـا، حتى الموت تتـقدمين إليه فى ثـبات وشجـاعة ، تلــتزمــين بواجبــك ولا تلتفتين إلى الوراء . بصماتك فى كل مكان ، وأنت محل الأنظار أينما كنت ، أنت تحلقين فى السماء ، أما أنا فلا أستطيع سوى السير علــى الأرض . أنــت تنطلـــقــين نحــو الأمــام ، أمــا أنا فكثـــيرا مـا أكـون "مكبلة الخطى . . . .

انبـرت تشيانـغ يون ترد فى قوة " لا ، أبدا ، إننى لم أصل إلى هذه الـدرجة الرفيعة ، إن ذلك فقط من وحى أفكارك . "

" إننى كثيرا ما أرى فى الآونة الأخيرة أننى مثـل فقاقيع الصابون ، ربما كانت براقة ومتعـددة الألوان ولكن بريقها وتألقها ليس نابعا منهـا، علاوة على أن عمرها قـصيـر. إننى من السهـل أن يثيـرنى أى شىء ، ومن ثم فـإننى كثـيراً مـا أسعـد وأستمتع، وقـليلاً ما أركن إلى العمل الجاد. إننى أشعـر بقابلية وحب لكل شىء ، ولكن لا شىء يترك أثرًا عميقًا فى نفسى . أذكر فى صيف العام السادس من عمرى أن سـقطت ذات مـرة أمطار غـزيرة ، وكنت ألعب مع أحـد أطفـال الشـارع تحت الأمطـار، وأهاننى هذا الطفل بأن دفعنى وأوقعنى فى مـياه الأمطار ، فما كان منى إلا أن نهضت وأمسكت بحجـر من القرميد ورميته به فـبـطحت رأسه وسالت منها الدمـاء . وبعد عـودتى إلى البيت ، ضـربتنى أمى فمـرضت ورقدت فى الـفراش وارتفـعت حرارتى إلـى أربعين درجة. بعـد ذلك شـفيت مـن مرضى ، وسـقطت الأمطار مرة أخرى ، وذهبت أبحث عن هذا الطفل لنلعب معًا . . . إلى أين وصل

حديثى ؟ وهكذا حالى ، شقية طائشة منذ نـعومة أظـفارى ، لا أخشى شيئا على الإطلاق ، كانـت أمى تقول إننى أحب اللعب طول حـياتى . وإننى حـتى الآن لم أتغير كثيراً لكننى كبرت أيـضًا . وإلا فما معنى ذلك ؟ لا بأس ، فإننى أعتقد أيضًا أننى أستطيع أن أترك بصـمات عـنـد بعض الناس ، وأجعلهم يحبون ويستـمتعون بالحياة ، ولكن ذلك يحـدث لأن معارفهم ضحلة .وأنهت تشيـانغ يون كلامها دون توقف، ثم أخرجت حبة كمثرى من جيبها وقضمت منها قضمة ، ثم أخرجت حبة أخرى وأعطتـها لتـشن بوا . وراحت تشن بوا تلعقـها بلسانهـا، ثم تذكرت فـجأة وقالت ، ألا ينبغى أن تأكليها بعد سلقها ؟ ردت تشيانغ يون :

" لا بأس ، مازال معى حبتان. "

هزت تشن بوا رأسها وهى بين الشك واليقين .

"تشيانغ يون ، أريدك أن تغنى لنا. "

"أنا؟ وفى الشارع ؟ "

"نعم ، أنت ، أو لتـحكى بعض الحكايات أو حتى بعض المواقف الـتى مرت بك ، أى شىء ، كله ممكن. "

" تشن بوا ، لقد عرفت الموضوع الذى تودين الحديث عنه ، أليس كذلك ؟

"دعكِ منى ، وتكلمى ، تكلمى . "

نظرت تشيـانغ يون حولها من جـميع الجهات . فـإذا بهما أمـام الباب الخلفى لإحدى دور السينـما ، مشترو التـذاكر يصطفون فى طابور طويل ، وقفـت تشيانغ يون تحت صورة الإعلان الضخم وقالت :

"علينا أن نعود"

غيرا وجهتهما ، وقالت تشيانغ يون : "سوف أقول لك شيئًا ما كان ينبغى قوله وأستحلفك ألا تقوليه للآخرين!"

ربتت تشن بوا بيدها على كتف تشيانغ يون.

"فى يوم الأحد قبل الماضى ، جاء شاب يبحث عنى ، قال لى إنه اشترى تذكرتى سينما ليذهب هو وزميله لمشاهدة أحد الأفلام ، وفى منتصف الطريق أصاب زميله مغص مفاجئ ، وعاد إلى البيت وخشى هو أن تضيع التذكرة سدى، فلم يجد أمامه سوى أن يسعى إلىّ للذهاب معه"

"من هو ؟ أخبرينى من هو ؟ "

"إنه هو تشاوتشن الذى جاء عشية بداية العام الجديد نيابة عن اتحاد طلاب المدرسة رقم ٥٦ الثانوية للبنين ليقدم لنا التهنئة بهذه المناسبة ، كان كلامه يفيض بالصدق فى ذلك الوقت ، فذهبت معه وأثناء مشاهدة الفيلم كان يجلس إلى جوارى ، وكان لا يستقر فى مجلسه مثل النمل فى الجحر شديد الحرارة ، كان قليلا ما ينظر إلى شاشة العرض، بل ينظر نحوى دائما ، حينئذ زادت عندى درجة اليقظة، وسألت نفسى ، ماذا يدور فى رأسه؟ "

"وبعد أن انتهينا من مشاهدة الفيلم ، كان العرق يتصبب من جبينه ، وطلب منى أن أذهب معه إلى حديقة بيخاى ، لم أوافق ، فأخذه الغضب وقال إنه يريد أن يتحدث معى فى أمر هام ، قلت له إذا كان عنده كلام يمكن أن يقله ونحن وقوف فى الشارع ، قال إنه لا بديل عن الذهاب إلى بيخاى . واشتد به الغضب ، واستجبت لطلبه بأن يتحدث فيما يريد فى عشر دقائق ثم ذهبنا ، اشترى لى تذكرة دخول ، وأنا لا أريد الدخول أبدا .... قال .... يالك من فتاة متعبة، وقال إنه عرفنى جيدا منذ لقاء عشية العام الجديد، لكنه لم يستطع أن ينسانى ، بل إن ذلك حرك مشاعره ، وقال إننى فتاة لطيفة، لطيفة جدا ، ببساطة ليس هناك من هى أكثر

منى لطفًا . . . . . آنذاك اشتد بى الغضب حتى عجزت عن الكلام ، حاولت جاهدة أن أكبح جماح غضبى وألقنه درسا لا ينساه.

قلت له : "هل تعرف من أكون وماذا أفعل ؟ أنا طالبة عندها تخلف فى ثلاث مواد ومهددة بالفصل من الدراسة ، وقلت له أيضًا ، "إنك شاب حديث العهد ، وعليك أن تلتفت إلى دورسك وتتقدم نحو الأمام . إنك الآن مغرور وتهيم فى عالم الخيال ، وهذا أمر مؤسف إلى حد بعيد . وسألته ، لقد التقيت بى لقاء عابرًا، فالإم تستند إذن فى هذا الكلام الفارغ ؟ ثم سألته عن أحواله الدراسية ، وهل هو عضو الرابطة أم لا ، قال إنه يسعى الآن للانضمام إلى الرابطة ، ثم أخبرته بعد ذلك عن كيفية الانضمام إلى عضوية الرابطة . . . . . "

قالت تشن بوا بلهجة تنم عن عدم الرضا "عزيزتى يانغ ، لقد تجاوزت الحد بعض الشىء " نظرت تشيانغ يون إلى تشن بوا فى استرحام وليس فى عينيها أدنى قدر من الحقد والضغينة ، وليس فيهما شىء من السخرية أيضًا ، بل تفيضان فقط بالضيق . تلك النظرة التى جعلت تشن بوا لا يمكن أن تتهم تشيانغ يون بشىء أبدًا بعد ذلك.

"بل إن أكثر الأمور حرجًا حدثت بعد ذلك فقد تلقى هذه الإهانات دون أن يتحرك له ساكن ، ثم أخرج من جيبه صورة وأعطاها لى ، صورته وهى يرتدى فانلة بيضاء ويمسك بمضرب تنس فى يده . وما إن أخذتها ونظرت فيها حتى مزقتها إربا"

"كيف يصل بك الغضب إلى هذا الحد؟"

"غضبت ؟ لقد كدت أبكى . تعتقدين ، ماذا قال بعد ذلك ؟ قال ، حيث إنه أعطانى الصورة ، وحيث إن الصورة مزقتها يداى ، فإنه راض بذلك تمام الرضا . آنذاك تفككت أعصابى وخارت قواى ، ونظرت إليه نظرات ملؤها الحقد والغيظ . . . . "

"لا ينبغى هذا ، ما كان لك أن تجرحى مشاعره . . . . "

صاحت تشيانغ يون فى دهشة "أنا جرحته ؟ إننى فقط كنت أخشى أن تقع منى أمور غير جادة . . "وكانت الدموع تترقرق فى المآقى وتكاد تنحدر من عينيها .

وربتت تشن بوا على يدى تشيانغ يون ، لم تفهم تشن بوا شيئًا : يانغ تشيانغ يون ، تلك الفتاة المرحة المنطلقة ، بعد أن تحكى هذه الحكايات الثلاثة المضحكة بأسلوب فكاهى رائع ، لماذا أجدها ، هى نفسها ، تبدو هكذا يسيطر عليها الضيق والحزن إلى هذا الحد؟ "

أخرجت يانغ تشيانغ يون حبتى الكمثرى المتبقيتين ، ومدت يدها بواحدة لتشن بوا التى تمنعت قائلة : "مازال عليك أن تأكليها مسلوقة ، أليست هذه روشتة يوان شن تشى ؟ "

لم تتكلم تشيانغ يون ، وراحت تقضم إحدى الحبتين ، ويدها لا تزال ممدودة بالحبة الأخرى أمام صدر تشن بوا ، ولم تجد تشن بديلا عن تناولها .

وهذا هو حال تشن بوا ويانغ تشيانغ يون ، مختلفتان فى كثير من الأمور وصديقتان متآلفتان فى آن واحد ! فتقول يانغ تشيانغ يون " إننى مثل الأرض، والحياة مثل أمطار الربيع التى تبعث النشاط فى نفوس الشباب . هذه الأمطار تنسج شبكة متشابكة الخيوط ، عندما تخترقها أشعة الشمس ، يظهر قوس قزح الجميل" .

بينما تقول تشن بوا "إننى أنا الأرض، والحياة مثل شجرة خضراء سامقة ، ترمى بذورها نحو صدرى ، فأبذل كل ذرة من جهدى ، حتى تنبت هذه البذور وتصير براعم ثم تنمو السيقان والأغصان ، ومن أجل ذلك أضحى بنفسى وتظهر فى جسدى التشققات التى تودى بحياتى.

السيارات تنطلق سيارة تلو الأخرى ،

والناس يمضون جماعة بعد الأخرى ،

والرياح تهب موجة تلو موجة .

قضمت تشيانغ يون قضمتين من حبة الكمثرى ثم ألقت بها فى سلة المهملات، وأخذت تحدق النظر فى تشن بوا عن كثب وقالت : "تشن بوا ، أخبرينى حدثينى عن مكنون أسرارك ! "

هزت تشن بوا رأسها ، وجذبت تشيانغ يون من إحدى يديها ، ثم راحت تضرب كفها بكف تشيانغ يون . قالت تشيانغ يون مشيرة بأصابع الاتهام : " لا ، لا تخفى عنى الحقيقة ، فإننى أدرك أن شيئًا ما قد طرأ على حياتك . . . "

" لا شيء على الإطلاق . "

"إذن . . . . وترددت تشيانغ يون لحظة ثم تشجعت وقالت "ماذا عن تيان لين ؟ "

تساءلت تشن بوا فى تعجب "تيان لين ؟ " وأشرقت الحقيقة أمامها فجأة ، فسرى الدم فى وجهها ، وقالت فى لهجة قاطعة : "هل وصل تفكيرك إلى هذا الحد؟ غير صحيح ، لا يوجد شيء على الإطلاق . . . . " ثم اقتربت من أذن تشيانغ حتى سرت أنفاسها الساخنة فى أذنها وقالت لها : "يا عزيزتى يانغ ، إننى أقطع على نفسى عهدًا أمامك ، إذا حدث شيء من هذا القبيل فى المستقبل ربما بعد عشر سنين أو عشرين سنة ، ستكونين أول من أخبرها بذلك ، فماذا عنك أنت؟ وأنهت كلامها وقد ازداد وجهها احمرارًا.

"أنا ؟ " وقالت تشيانغ يون دون أدنى اهتمام "أنا لن أعيش هذه التجربة أبدًا"

"أضاءت كل أعمدة الإنارة على جانبى الطريق فجأة ، وانبعثت الأضواء تنتشر فى كل مكان وكأنها عيون المدينة التى لا تحصى ولا تعد.

قالت تشن بوا . "يجب أن نعود ." وأعادت حبة الكمثرى الصغيرة التى كانت لا تزال فى يدها إلى تشيانغ يون.

وما إن دخلتا الباب ، حتى جاءت ووتشانغ فو متسللة تخبر تشيانغ يون ، "عادت لى تشون لتوها من الخارج ، وانزوت تبكى فى الحجرة.

قالت تشيانغ يون : "كفاك افتراء . . . . أقسمت ووتشانغ فو قائلة ، "لست بإنسانة تفترى على الآخرين ،وإن كلامى هذه المرة ليس افتراء على الإطلاق! "

تعجبت تشيانغ يون بشدة ، لأن لى تشون شد ما تكره البكاء ، بل إنها فى الفترة الأخيرة على خير ما يرام ، وأسرعت إلى الحجرة فشاهدت لى تشون وقد أحنت ظهرها وراحت ترتب سريرها.

نادت عليها تشيانغ يون بصوت خفيض "لى تشون !" التفتت لى تشون ، ونظرت تشيانغ يون إليها بإمعان فإذا بعينيها بهما احمرار كما كان متوقعا .

اقتربت منها تشيانغ يون وسألتها، "هل تبكين ، هل أنت غير سعيدة؟"

استدارت لى تشون ، ولم تجبها . وفجأة دفنت وجهها بين يديها.

"لى تشون ، أخبرينى ، ماذا بك ؟ "

" لا شىء ، لا شىء . . . . . . "

لم يخطر شىء ببال تشيانغ يون، وأخذت تسألها سؤالاً تلو الآخر:

"هل أصابك مرض ؟

"هل حدث خلاف بينك وبين أحد ؟

"هل هناك صعوبات فى استعدادك للخطابة؟

" . . . . "

مضى وقت طويل قبل أن تقول لى تشون فى غموض وارتباك: "النظارة ، يجب أن أضع نظارة على عينى ، وأنا لا أرغب فى ذلك ، ذهبت اليوم إلى المستشفى السادس ، وقال الأطباء إننى أعانى من قصر نظر شديد ، ولا بديل عن النظارة . . . . "

تشيانغ يون لا تدرى أى الخيارين أفضل ، أن تشجعها أو لا تشجعها، وانصرفت فى هدوء .

(٢٥)

وقفت سونينغ ويانغ تشيانغ يون عند مدخل الحديقة وقالت سونينغ وهى تشرح لصديقتها "هذه هى حديقة بيتنا الصغيرة ، ألم تشاهديها فى المرتين السابقتين؟ "

عند البوابة هذه تكعيبة عنب ، لا يرعاها أحد ، ثمارها صغيرة وذات طعم لاذع ، لكننى أحب هذا النوع من العنب. وجنوب تكعيبة العنب أشجار مشمش، انظرى ، أزهار المشمش توشك على السقوط. وفى هذا الركن شجرتان ، إحداهما نخلة بلح ، والأخرى أيضا نخلة بلح.[1] نظرت تشيانغ يون إلى معطف سونينغ ذى اللون الأخضر وإلى فكاهاتها وهى تشعر بأحاسيس غير عادية ، ثم نظرت إليها نظرات تنم عن الاستفسار.

قالت سونينغ موضحة "إننى سعيدة بعض الشىء اليوم فقد تلقيت رسالة من أخى ، إن حياته فى قوانغتشو تمضى على خير ما يرام . وقال نقلاً عن الطبيب إنه يمكن إن يشفى من مرض السل الرئوى . وقال إن عنده أمل وثقة فى الحياة.

"رائع جدا "

" صحيح ، وقد طلب منى أن أبلغك السلام"

"هه ، أفى حديقة منزلكم مكان للجلوس ؟ فى ذلك الجانب مقعد خشبى على وشك أن يتفكك ويتهاوى ، هيا نذهب إليه ، هذه الحديقة لا يرعاها أحد من بادئ الأمر ، وتنمو فيها الأعشاب البرية الطويلة.

نفذتا من تحت أغصان شجرات المشمش ، وجلستا فوق مقعد خشبى قديم يجاوره صنبور مياه ، قالت تشيانغ يون ويدها تداعب إحدى أزهار البرقوق الممتدة أمام صدرها : "إن ثيابك جميلة حقا ، كيف لم أرك تلبسينها من قبل ؟

(١) على حد تعبير لو شين فى مقالة (ليل الخريف) .

ردت سونينغ فى خجل : "لقد فصلتها قبل التحرير ، وأخشى أن ألبسها فيقول الناس إنها من موديلات هونج كونج ، ضحكت تشيانغ يون قائلة : "لا يعنيك هذا فى شىء !"

استندت تشيانغ يون إلى سونينغ ، وأغمضت عينيها ، أشعة شمس الظهيرة تتسلل من بين أوراق الشجر ، تسطع على وجهها حينا وتختفى حينا آخر ، فتشعر براحة كبيرة.

وسألتها : "هل فى بيتكم عامل آخر؟"

"ماذا حدث؟"

"عندما حضرت إلى بيتكم اليوم ، فتح لى الباب رجل غريب ، يربو على الأربعين ،قصير الشعر ، توجد بؤرة صلعاء فى وسط رأسه، فى عينيه علامات البلاهة ، يرتدى ثيابًا قديمة بالية وحذاء جلديًا متهالكا .مظهر رأسه يوحى بأنه مستخدم ، عيناه تبدوان كأنهما عينا شحاذ ، ملابسه مثل ملابس المثقف الفقير ، حذاءؤه مثل حذاء موظفى الحكومة ، وتسمعين كلامه فكأنه رجل مخضرم عجوز.

سرت حمرة الخجل فى وجه سونينغ ، ولم يكن أمامها من خيار سوى أن تقول : "إنه أبى "

"ماذا تقولين ؟" وقفزت تشيانغ يون من مكانها ، وجلست قرفصاء أمام سونينغ ، ورفعت وجهها وقالت "لماذا تبدو ملابسه على هذا النحو السىء ؟"

لوت سونينغ سروالها قائلة بقوة : "أنا أيضا لا أعرف السبب ! فلديه الكثير من الملابس الغربية الممتازة ، وكذا لديه جلباب طويل جميل ، لكنه منذ شهر مصمم على أن يلبس هذه الملابس . كان من قبل يفتح مصنعًا خاصًا، وفى الآونة الأخيرة أغلق هذا المصنع ، فراح فى كل مكان يشكو الفاقة ، وكأن الدنيا قد ضاقت عليه بما رحبت . . . . . "

"وإذا لم يفتح هذا المصنع ، فماذا سيفعل بعد ذلك؟"

"لقد سألته نفس السؤال ، فقال إن عنده مخرج ، وأى مخرج هذا ؟ لم يخبرنى ،ولم أهتم أنا الأخرى . ،

نهضت تشيانغ يون ،واتجهت نحو شجرة المشمش الضخمة، تلك الشجرة التى تغطى أغصانها مساحة كبيرة ، نحل العسل يحوم فى جماعات حول زهور المشمش دون أن يبرحها .اقتربت منها سونينغ ، وفجأة تذكرت شيئا ما ، فأخذت تدور حول شجرة المشمش وهى تبعد الأغصان والفروع عن ساق الشجرة وراحت تنظر وتبحث ،فسألتها تشيانغ يون "عم تبحثين؟"أجابتها "لقد حفرت اسمى على هذه الشجرة قبل عشر سنوات ، انتظرى حتى أريك."وأحنت ظهرها وأخذت تبحث وقتا طويلا، والنحل يحوم حولها ويطن فى أذنيها ، بينما تساعدها تشيانغ يون بأن تطرد عنها النحل، بحثت وقتًا طويلاً حتى تصبب عرقها من فرط التعب ، ولم تعثر له على أثر ، وأخيرا قالت فى يأس "لم أجده،كيف يمكن للاسم المحفور على الشجرة أن ينطمس ؟"

مشت تشيانغ يون قليلا ، وجلست فوق النجيلة، فرشت سونينغ منديلاً ، وجلست إلى جوارها ، وقالت "قبل عشر سنوات ،كنت كثيرًا ما ألعب فى هذه الحديقة ، فى ذلك الوقت كنت فى غاية النشاط والحيوية !" واقتربت من تشيانغ يون واستطردت قائلة فى إثارة لا يمكن مهما تخيلت أن تتصورى كيف كنت فى الطفولة ، كنت أرتدى الملابس الغربية القصيرة شعرى ممشط ومضفر فى ثمانى ضفائر قصيرة ، كان غزيرًا وأسود اللون ، وفى الربيع كنت وأخى نزرع الزهور فى هذا المكان كل منا يخص نفسه بقطعة مستقلة من أرض الحديقة ، نزرع زهور الياسمين ، وأعشاب البلسم. كنا نقول ، هيا نستبق ونرى من يزرع أفضل ، وكان يكبرنى بعشر سنوات ومن الطبيعى أنه كان يجيد الزرع، بعد ذلك سمعت أن من يغرس غرسًا عليه أن يسمده ،ومن ثم كنت أتسلل مساء كل يوم لأضع المخلفات فى المنطقة التى زرعتها. . . .

وذات مرة رأت أمى هذه المخلفات ، فـاعتقدت أن كلب الجـيران قد تسلل إلى الحديقـة وقضى حاجتـه بها ، وأخذت تكيل الشتم والسـباب . . . . ثم هذه النخلة ، كنت أتسلقها فى فصل الخريف من كل عام ، وأحمل فى يدى عصا طويلة من البامبو وأضرب بها عشوائيا فيتساقط البلح الأخضر والأحمر ، وعندما يحل بى التـعب ، أجـمع الكبـيـر منه من على الأرض وأتناوله. وذات مـرة زحـفت على ساعدى حشرة "يانتسزى" - هل تعرفينها؟ إنهـا حشرة صغيرة ، تنمو على جسمها شعيـرات طويلة كالإبر ذات لون أخضر ضارب إلى الصـفرة ، وعندما تزحف على جسم أحد ، تتسلل هذه الشعيرات لتدخل إلى جسمك من خلال المسام وقد كانت لسعتها لى هذه المرة أكثر إيلاما من عضة السحلية.

وأيضا هناك صنبور ، المياه القائم إلى جوار الدكة الخشبية التى كنا نجلس عليها منذ قليل ، لقـد كان أحب اللعب إلى قلبى ، فكنـت عندما يحل الصـيف ، أقوم بفتح هذا الصـنبور وأغلـق فـمه بيـدى إلا فتحـة ضيقة فيندفع منها الماء لمسافات بعيدة . . . . وكنت آنذاك أشعر بسعادة بالغة، لست أدرى لماذا كبرت وشببت عن الطوق؟ "

ظلت يانغ تشيـانغ يون فى مكانها مـشدوهة شاغرة الفـم ، ويدور بخلدها أيضا أن سونينغ منذ نعومة أظفـارها تمسك يسراها بعروسة لعبة مـستوردة من الخارج ويمناها تضع المنديل على فـمها. وأخـذت تنظر إلى شعـر سونـينغ المجعد ، وحـاجبيـها الطويلين ومعطفـها الصوفى الأخـضر ، وهى لا تستطيع بأى حـال من الأحوال أن تتخـيل سونينغ الصـغيـرة المـدللة وهى تتـسلق النخلة وتحضر الـبلح . استطردت سـونينغ : "إننى كثـيـراً ما أفكر فى أنه لـو أن الطفل استـمـر فى النمو حـتى سن الثـامنـة ثم توقـف بعد ذلك ، لن يكون هنا فى الدنيا أكثر منه سعادة . . . . "

وراحت تداعب ذقنها بطرف إصبعها ،واستمرت تقول فى براءة : "إننى أود لو كنت طفلة ، وأود أيضا لو كنت كبيرة ناضجة ، وأود أيضا لو كنت سيدة عجوز – ذات خبرة طويلة ومعارف غزيرة .

"إنك بطبيعة الحال قوية فى كل الجوانب ، أما أنا . . . . . "

"أتكررينها من جديد ! ، كيف تروق لك دائما عبارة "أما أنا " ؟ وكأنك دائما أقل من الآخرين . . . . . "

ومدت تشيانغ يون يدها وانتزعت أحد الأعشاب وعصرتها حتى سال منها عصير أخضر.

"وكيف يمكننى أن أكون مثل الآخرين ؟ تشيانغ يون ، دعينا نتجاذب أطراف الحديث. إننى أعرف أنك تودين مساعدتى ، ولكنى دائما لا أكون عند حسن ظنك . . . . . ليس لأننى لا أريد أن أتقدم ، ومن تلك التى لا تتمنى أن تكون مثلك؟ قوية البنيان ، قلبك عامر بالسعادة ، تتقدمين بسرعة . لكننى ، آه لقد عدت من جديد إلى كلمة لكننى . . . . . فمثلا ، أغنية (وداع أخته فى رحلة الألف ميل) التى رددتها عن غير قصد ذلك اليوم ، ما كان ينبغى أن أرددها لأنها إحدى الأغنيات الصفراء فى عهد ما قبل التحرير. هكذا كان الحال ، وأنا فى بيتنا قبل التحرير، صباح كل يوم وأنا بين النوم واليقظة أسمع صوتًا مثل هذه الأغنية يتهادى من بعيد. وحينذاك أريد الاستيقاظ ولكنى لا أستطيع .

وأشعر كأن هناك شيئا ما يجثم على صدرى . وكنت أرى فى ذلك الوقت أبى وهو يشرب حتى الثمالة ، وهو يصفع أمى على وجهها ، وأتذكر أمى وهى تبصق فى وجه الشغالة، وأتذكر مرض السل الذى يعانى منه أخى الأكبر ، والليلة التى لم تعد فيها أختى. لقد تعايشت مع هذه النغمة الحزينة وأحببتها . حتى بعد التحرير ، كثيرا ما أذكر هذه الأغنية ، أرددها فتذكرنى بأسرتى التى تفتقد كل قواعد الأصول

والنظام. تشيانغ يون لا تنظرى إلىّ هكذا ،إنك بطبيعة الحال لا تشعرين بميل لهذه الأغنية ، لأن حياتك القديمة لم تذقك هذه الصنوف من العذاب ، وبعد التحرير انتقلت إلى الحياة فى بيئة جديدة تماما ، ولكننى مازلت حتى اليوم أستنشق هذا الهواء المسموم فى كل مرة أعود فيها إلى أسرتى ، وأعيش مع ذلك الأب الذى يشبه الشحاذ فى نظراته والمثقف الفقير فى ملابسه ! "

أومأت تشيانغ يون تعبيراً عن تعاطفها معها قائلة : "تمهلى ، تمهلى قليلا . "

استطردت سونينغ " لا بأس ، إننى أريد أن أقول كل ما عندى اليوم ، وربما كان كلامى اليوم أكثر منه قبل شهر مضى. إننى سوف أشعر نحوك بالأسف إذا لم أقل هذا الكلام.

أين توقفنا من لحظات؟ نعم ، عند أغنية (وداع أخته فى رحلة الألف ميل)، إننى لا أفضل هذه الأغنية البالية القديمة على الإطلاق ، لكنها تستطيع التعبير عن بعض أحزانى : أسرتى ، الماضى الذى عشته ، طفولتى البريئة ، وصباى المعذب، هل يمكن أن تمحى جميعا بجرة قلم ؟ "

"نعم ، يمكن . "وقالت تشيانغ يون فى نفسها فى صدق وإصرار " " يجب أن أكون هادئة وصبورة هذه المرة ! "

وأردفت تقول : "إننى لا أتفق معك ، فكل إنسان فى ماضيه أشياء جديرة بالتقدير ، وعليه أن يظل يذكرها إلى الأبد. وهناك أيضا أشياء يجب نسيانها برمتها دون الاحتفاظ بأى أثر لها . هل إذا أصبت بقرح فى مؤخرة الرأس هل يمكن أن تحتفظى بهذا القرح على إنه ذكرى أبدية ؟ لقد مضى وقت طويل ، حتى إن اسمك الذى حفرته على جذع شجرة المشمش قد انطمس ، فكيف إذن لم يبدد نور شمس التحرير المشرقة منذ أربع سنوات الظلام الجاثم على قلبك.؟ "

قالت سونينغ وهى تستجمع أنفاسها " لقد أشرقت علىّ شمس التحرير بطبيعة الحال "، أخرجت تشيانغ يون منديلاً وجففت لهـا عرقها ، ومضت سونينغ تقول: "إن حالى هذه الأيام يمضى على النـحو التالى ، عندمـا أكون مع الزميلات نحضر الدرس ، أو نغنى سويا ، أكون فى قمة السعادة ، ولكننى فى بعض الأحيان عندما أتقلب فى فراشى فى الليل ، فأسمع صفيـر القطار أو وقع عجلاته على القضبان ، أو عندما تصيبنى نزلة برد أو وعكة صحية خفـيفة ، حينئذ أشعر بالحزن والمرارة كأن سحابة قاتمة تخيم على سمائى.

"مرارة !، لم تتجاوزى الـثمانية عشر ربيعـا وتتحدثين عن المرارة . . . . "

"نعم ، ثمانية عشر ربيعا ، ولكننى منذ . . . . " واستطردت تقول وكأن فى حلقها غصة تمنعها من الكلام ، "لقد عرفت المرارة فى هذه السن المبكرة ! إننى لست مثلكن . . . . "

قالت تشيانغ يون وقلبها يخـفق بسرعة "كيف أنك لست مثلنا ؟ ردت سونينغ وقلبها يخفق هى الأخرى "لست مثلكن! "

كانت تريد أن تخـبر يانغ تشـيانغ يون بكل شىء ،لدرجة أنهـا أعدت نفسـها لذلك ، وفكرت كيف يمكن أن تخبر أعز صديـقاتها ، ولكنها عجزت عن الكلام، كان الموت أهون عليها من أن تقول لصديقتها إنها . . . . ! واحمر وجهها كأنه قطعة من الجمر .

"سـونينغ ! وسحـبت تشيـانغ يون منديلهـا وأخذت تـعض عليه بأسنانهـا ، وحسمت أمرها قائلة: "سونينغ ، لقد علمت بمأساتك ! وسرت رعشة فى كيانها ، ولم تستطع أن تغالب دموعها ، وتجاذبت يداها المنديل بقوة حتى تمزق فيما بينهما!

نظرت سونينغ إلى تشـيانغ يون ، وتحول وجهـها فجأة من اللون الأحـمر إلى اللون الأصفر الشاحب . . . .

ربتت تشيـانغ يون على كتف سـونينغ ، وأخذت تداعب شـعرها وتعـدل لها ملابسها ، وقالت فى حب وإخلاص لا حدود لهما: "سونينغ لقد عرفت ، أخبرنى أخوك ، ولا عليك! ولا تخـشى شيئًا أبدا ! دارت الأرض بسـونينغ ، وارتمت نحو تشيانغ يون التى أسرعت تأخذها بين ذراعيها ، واستطردت تقول : "وماذا يعنى هذا الأمر ؟ إننا نكرههم ، أولئك الأوغاد الشياطين ، ونكره ذلك المجتمع البائد ! يجب أن تكون حياتنا أكثر سعادة، وأكـثر جمالاً وروعة من أى شخص آخر ! فنحن الآن نرتوى من تعاليم الزعـيم ماو ، ونعيش فى كنفـه ، ويده الحانية تستطيع أن تضـمد جروح بلادنا ، ويمكن أن تعـالج قلبك المكلوم ونفسك الكسيـرة . لماذا تهولين من شأن هذا الموضوع ؟ لماذا تدعينه يجثم على أنفاسك؟ "

والنتيجـة أنك دائما تستخدمين لفظة "ولكننى " التى تفـصل بينك وبين جمال الحياة وروعـتها . . . . ، وأى مسيـحية تلك التى تريدين اعتناقـها ، كيف تريدين أن تؤمنى بالأديان ، إنك تريدين ملاذًا تلجئين إليه فقط.

انهضى ، انهضى من مجلسك ، ابتسمى للحـياة ! لقد تغيرت كل الأوضاع ، وبمقدورك أن تصـبحى فتاة اشـتراكية جمـيلة ذكية لهـا دور فعال . . . . إن حديثك عن هذه الأشياء مثل حديثك عن حشرة "يانتسيزى" عندما لدغتك بذنبها ! وإننا يجب أن نبيـد هذه الحشرة ، ولكننا أنفـسنا علينا فى الوقت نفسـه أن نضحك ونبـتسم ! "ورغم أن تشـيانغ يون قـالت لها "لا عليك " ، وقـالت ، "يجب أن نبتـسم للحياة " إلا أن دمـوعها مـازالت تنهمـر فوق خديهـا دون توقف ، ذالكما الخدان اللذان يضيئان تدريجيًا بابتسـامة مشرقة . وارتمت سونينغ التى تكاثرت عليها هموم السنين فى أحضـان تشيانغ يون وانفجرت فى البكاء بصـوت عال مثل الطفلة الذليلة المهانة عندما تلمح أمها.

مضى وقت طويل ، طويل ، وقصرت ظلال شجرة المشمش شيئا فشيئا ، وانتشرت جموع النحل النشيطة الكادحة ، حينئذ توقفت سونينغ عن البكاء . ورفعت رأسها ، وقالت وهى تتشنج : "إنى أخاف . . . . . . " سألتها تشيانغ يون ماذا تخافين ، لكنها لم تجب . وكررت تشيانغ يون السؤال على مسامعها مرة تلو الأخرى ، حتى قالت فى النهاية والخجل والحرج يسيطران عليها : "إننى أخشى فى مستقبل الأيام ألا يحبنى أحد !" واختتمت كلامها ثم عادت تنكس رأسها من جديد.

انتاب تشيانغ يون شعور مفاجئ بالضيق والغضب ، وقالت : "إذا كان هناك مثل هذا الشخص الذى لا يحبك لهذا السبب ، فإنه أحمق ووغد ! وليس لدى أمثاله أدنى قدر من الفكر الجديد والأخلاق الجديدة ، وعقولهم فاسدة جوفاء . . . . " ولوحت تشيانغ يون بقبضتها وهى تفكر فى كلمات أكثر ملاءمة وأكثر ضراوة للتعبير عن شعورها .

مضت لحظة ، وعادت تشيانغ يون تقول "ولكن ، أيتها الشابة الحمقاء ، فيم تحتاجين إلى حب الشباب الآخرين ؟ إن هذا أمر كريه ! أرى أننى أستطيع أن أحيا بلا حب ، سونينغ ، صديقتى العزيزة ، لتحب كل منا الأخرى ، ولتكن فى غير حاجة إلى أى من هؤلاء الحمقى الأوغاد !"

رفعت سونينغ رأسها ، وظهرت ابتسامة صارمة على وجهها الذى أغرقته الدموع . هبت الريح ، وأخذت أزهار الشمس المتفتحة تتساقط من حولهما.

وكانت تشن بوا فى صبيحة يوم الأحد المشرق هذا مثل النحلة فى نشاطها وحيويتها فى الصباح الباكر ، دعت مارى ليقوما معًا بأداء الواجبات الدراسية . انتهت من أداء الواجبات بسرعة ، كان لديها نوع من الطاقة يجعلها خفيفة ورشيقة ومفعمة أيضا بالحيوية والحياة . أحست مارى بذلك ، ورفعت رأسها عدة مرات لتنظر فى عينى صديقتها. انتقلت إليها عدوى الشعور بالسعادة ، وقالت لتشن بوا :

"اليوم ، حـدث لى شىء يبعث على السعادة : فـقد أكلت شيئًـا لم آكل مثله من قـبل قط ، ويـاله من شىء لذيذ الطعم ! إنـهم يدعـونه الكعك . أعـطانى القس واحدة ، لونها أحمر قـرمزى ، ويغطى وجهها لب البطيخ المقشر ، مـا إن تضعيها فى فيك حتى تحسى أنها سائغة الطعم حلوة المذاق وقد أضيف إليها قليل من الزيوت النباتية ، حـقا إنها لذيذة الطعم جدا . تـشن بوا ، هل أكلت مثل هذه الكعكة من قبل؟

فتحت تشن بوا عينيـها وراحت تحملق فيها ، ولم تستطع أن تغـالب إحساسها بالتعجب ، ولم تـتمالك نفسهـا من أن تهز رأسها قائلة: "لا ، لـم آكلها من قبل ومن المؤكد أنها لذيذة الطعم جدًا " . فلم يكن ممكنا أن تحبط شعور مارى بالسعادة نتـيجة تناول هـذه الكعكة . . . .

بعد ذلك تحدثت تشن بوا مع مـارى فى كيفية قضاء يـوم "عيد أول مايو " لم يسبق لمارى أن شـاركت فى مسيـرات واحتفالات عـيد العمـال فى "أول مايو ، أو العيد الـوطنى فى "أول اكتوبر"،ولا تفكر فى الاشتـراك هذه المرة أيضا . ومن ثم حشـدت تشن بوا كل قواها من أجل شـحنها مـعنويا ، ومن عادة تشن أنهـا عندما تتكلم قلما يتوافر لديها مثل هذا الحماس والمشاعر المتدفقة ، وفى النهاية قالت مارى فى تردد : "دعى الأمر حتى يحين الوقت" .

وبعد أن ودعت مارى ، أسرعت تشن بوا إلى الملعب بحـثًا عن تشوشيا ولينغ للتدرب على الوثب العـالى. لقد تعلمت وثبة المقص ، ووثبـة الدحرجة ، وزادت وثبتها من تـسعين سنتيمترًا إلى مائة وعـشرة سنتيمـترات ، كانت فـى كل مرة تقفز فيها يخالطها شعور بسعادة غامـرة . حتـى حل التـعب بتشوشيا ولينغ ، بينما لم تشعر هى بتعب بعد.

بعـد ذلك انطلقت تعـدو ، وشاهدت لى تشـون تجلس تحت إحـدى أشجـار الصفصاف على جانب التراك وهى تطالع كتابًا وقد فردت ساقيها ، واتخذت وضعا فى جلسـتهـا يتفق مـع القراءة ، وضـعت تشن بوا يديهـا على عينى لى تشـون ، وحاولت أن تفـزعهـا ، ثم سألتهـا عن أحوالهـا ، أخذت تشكو لها وتـلعن قسم التوجيه والإشراف ، قـالت إن مجموعتهن المصغرة لمادة الفـيزياء تريد تصنيع جهاز راديو ، ولم يرفض القسم مـساعدتهن فقط ، بل وصلت به الدرجـة إلى أن يمنعهن من استخـدام الأجهزة والوسائل فى معـمل الفيزياء ،قالت لها تشن بوا تعـبيرا عن تعاطفـها معهـا : إنها سوف تنقل هـذا الأمر إلى لوتشن ، وتطالب اللجنة الفرعـية لرابطة الشبـيبة بمساعـدتهن فى حل هذه المشكلة ، ثم عادت فـسألتها عن مـوضوع مسابقـة الخطابة ، قالت لى تشون إنها انتهت من كـتابة المسودة ، فاقتـرحت عليها تشن بوا أن تبـدأ من الأسبـوع المقبل فى القـراءة أمام زميـلاتها فى الـفصل أولاً ، تمتمت لى تشـون بأنه يجب ألا تضيع وقت زميلاتهـا فى الفصل ، قـالت تشن بوا قولاً قاطعًا : "ألقيها علينا أولاً ، فـأنا على سبيل المثال ، من المؤكد أننى لن أدخر جهدا فى طرح آرائى."

وتقول كل من الزميلات رأيهـا أيضًا ، ويكون فى ذلك فائدة وعوناً لك ، ولم تجد لى تشون غيـر أن تومئ برأسها تعبيراً عن الاسـتـجابة . عادت تشـن بوا إلى عنبـر النـوم ، كـانت ووتشانغ فـو لا تزال تغسل ملاءة السـرير ، عرضت عليـها تشن أن تقوم بمساعدتها . . . . وكانت تشن بوا قامت بالكثير من الأعمال فى صبيحة ذلك اليوم ، رفعت طرف قميصها فى سعادة تمسح به عرقها ، الوقت يمضى فى إيقاع سريع مثل إيقاع العزف الرشيق على آلة الجيتار.

(٢٦)

تقوم فرق الفتـيات بالتدريب منذ عدة أيام استعـداداً لمسيرة يوم "أول مايو" . وبعد ظهر ذلك اليوم ، ما إن انتهت تدريبات طالبات الصف الثالث حتى تجمعن فى فصلهن لعـقد اجتـماع الفصل . قـبل أن يخلعن فانلات التـدريب الملونة، وضعن الجـواكت الزرقاء على أكـتافـهن، وقبل أن يفكـكن تنوراتهن ، أسرعت الطالبـات اللاتى يخشين البـرد وأنزلن أرجل سراويلـهن ، ولم يكن قـد خلعن هذه السراويل من بادئ الأمـر ، بل اكتفين بتـشمـير أرجلهـا إلى أعلى قليلا. وعلى هذا الـنحو نجدهن يلبسن مـلابس ذات أشكال غريبة ، وقد رحن ينتظرن قيـام لى تشون بعمل بروفة على إلقاء كلمتها داخل الفصل .

تضع لى تشـون على عينيـها نظارة جديدة، مما زاد مـن روح القراءة والاطلاع عندها . ومن وراء عدسات هذه النظارات راحت عيناها تجوبان وجوه الجميع .

كان نموها سريعًـا فى الفترة الأخيرة ، فبـدت طويلة ممتلئة ، تقدمت فى خطى وئيدة ووقفت فى مواجهة الزميلات ، وأخرجت المسودة من جيبها ببطء ، وحاولت أن تبدو طبيعيـة حتى وصلت إلى درجة الفـتور ، فجاءت النتيـجة عكسية وظهرت غير طبيعية بعض الشىء .

بادرت قائلة وقد قطبت جبينها وبدا عليها الاضطراب "حقيقة، الأمر صعب ، كيف ألقى الخطبة هذه ؟ " .

أجابتـها الزميـلات : "بفمك طبعـا ! " وبدأت تلقى خطبتهـا وسط ضحكات الجميع ، وكان موضوع الخطابة الذى أعدته هو "حب المعرفة" .

" . . . . إن الدراسة هى المهمة الكبرى والرسالة المقدسة للطلاب. إذن أين تكمن دوافع الدراسـة؟ هل فى الحصول على مـائة درجة ومن ثم كـسب رضاء وثناء الوالدين، أم " من أجل الوطن " ذلك الشعار الذى يلهب الشعور الوطنى ؟

ثم توقفت لى تشون لحظة . آنذاك أحنت ووتشانغ فـو وسطها وركضت خلسة حتى أصـبحت بجوار تشوشـيا ولينغ ، ولكزتها لكزة ثم قـالت لها : "هذا الكلام صعب الفهم"

وهمست تشوشيا ولينغ هى الأخرى ، "إنها تستخدم فى كلامها تركيبات لغوية معقدة للغاية " وأفسحت مكانًا لووتشانغ فو وجلستا معًا على مقعد واحد.

نقرت لى تشون على المنضـدة بإصبعها الوسطى ، واستـمرت قائلة : "لا ، ليس الأمر كذلك. بل إن مـا يدفعنا للدراسة هو طلب المعرفـة . إننا نريد أن نفتح كنوز المعرفة ونكشف أسرار الكون ، ونتسلق إلى قمة المعرفة يومًا بعد يوم .

"إن إنسانًا بلا معرفة ، هو إنسان عـادى جدا ، نظرته للأشياء من حوله تكون نظرة سطحية بسيطة : الماء هو الماء، والنار هى النار ، والروائح الجميلة هى الروائح الجـمـيلة ، والروائح الكريهـة هى الروائح الكريـهة ، المربـع فى نظره هو المربع ، والدائرة هى الدائرة . . . . لا يسـتطيع مـعرفـة أي شيء آخـر خارج حـدود الإدراك ، إنه إنسان مسكين فارغ العقل .

"أين تكمن إذن قوة العلم ؟ فى البحث واستجلاء آفاق جديدة لم يتوصل إليها الأسلاف ، بـل والتوصل إلى أدق أسـرار ما سـبق أن توصلوا إليه . إننـى لا أذكر على وجه التحـديد قائل هذه العبارة : " يمكن رؤية العـالم فى حبة رملٍ ، نعم ، يستطيع العلماء الحصول على أسرار لا حصر لها حتى من حبة الرمل، من حركتها، من أشكالها المتعددة، من دراستها فيزيقيا وكيميائيا وجيولوجيا . . . . وغيرها من أفرع الدراسات العلمية الأخرى . . . . إلخ إلخ "

الهدوء يسود الفـصل ، وصوت لى تشون يرتفع شيـئا فشيئـا حتى غطى على أصوات إيقاع تدريبات الرقص الجمـاعى ، وضحكات ووقع أقدام الزميلات فى فناء المدرسة . أخـذت ووتشانغ فو تسـمع بتركيـز وانتـباه ، وقد سندت بإحـدى يديها على تشـوشيا ولـينغ ، ورفعت رأسـها ، وفتـحت فاها .أمـا درج يوان شن تشى

فتوضع عليه الزهور الورقية المعدة للمسيرة والتى صنعتها بنفسها ، وقد راحت تسمع بينما تلصق وتدبس الأجزاء التى لم تنته منها بعد. أما يانغ تشيانغ يون فقد قطبت جبينها قليلا ، وراحت تشاهد الطالبات اللاتى يتدربن على الرقص من النافذة ، لكنها فى نفس الوقت لا تفوتها كلمة واحدة من كلام لى تشون.

نافذتا الفصل مفتوحتان ، تتدافع منهما نسمات رقيقة ، تملأ منها الطالبات صدورهن فى ارتياح ، وتستنشقن رائحة زهور "الوستاريا [(١)] التى تحملها معها.

" . . . . . . إن دراسة علم الفلك تجعل الإنسان يشعر بالزهو والنشوة ، بذلك الجسم الضئيل يسعى الإنسان وراء كشف الفضاء اللامحدود ، الإنسان لا يساوى أى من الجروثومات الدقيقة بالمقارنة مع الأجرام السماوية الضخمة وقد علمنا من علم الفلك أن الأرض هى إحدى الكواكب الصغيرة البسيطة التى تدور فى فلك المجموعة الشمسية . ويعادل قطر الشمس مائة وتسعة أضعاف قطر الأرض .

بل إن هناك بعض النجوم الثابتة العملاقة ، مثل نجم العقرب الذى يعادل قطره خمسمائة ضعف قطر الشمس تقريبا. وقد علمنا أيضا من علم الفلك أن كل النجوم متحركة مهما كانت تسمى النجوم الثابتة ، وأن المجموعة الشمسية كلها تدور بالتناوب مع نجم قيفاوس الملتهب بسرعة عشرين كيلومترا فى الثانية الواحدة . . . "

وبعد أن انتهت لى تشون من إلقاء هذه الكلمة ، لوحت بيدها قائلة : "إن هذه المعارف الحديثة فى واقع الأمر معروفة للجميع من قبل "ثم أخذت بعد ذلك على سبيل المثال تذكر المعارف غير الشائعة عن رحلة الفضاء مثل وجود أو عدم وجود الأحياء فى نجوم نوفا [(٢)]، وسوبرنوفا ، والمريخ .

(١) الوستاريا : نبات متسلق له زهور بنفسجية متهدلة .
(٢) نوفا : نجم يتعاظم ضياؤه فجأة ثم يخبو فى بضعة شهور أو بضع سنين .

وبعد أن انتهت لى تشون من الحديث عن علم الفلك ، راحت تضرب أمثلة لعلم الفيزياء الحديثة وبحوث الطاقة النووية ، وعلم الأحياء ، والكيمياء العضوية ، والبحوث البيولوجية أيضا . . . . كانت تحكى هنا وهناك بعض القصص المثيرة المبالغ فيها لزيادة التأثير عليهن (ومنها بعض قصص الخيال العلمى) ، وجهها يشع بالنور من فرط الإثارة ، زميلاتها محدقات العيون فاغرات الأفواه ، مشدوهات مأخوذات.

"إن دراستنا مستمدة من هذه الكنوز الزاخرة ، وذلك البحر الخضم العميق . إن المعرفة تدعونا إلى التقدم !

" لقد قدم أسلافنا للبشرية خدمات جليلة ، وذلك بوصفهم منبع العلم والمعرفة، كان دائما فى حوزتهم معارف مدنية وعسكرية فى آن واحد فتقع عليهم عدة وظائف فى وقت واحد.

وعلى سبيل المثال نجد أن دافنشى الذى دعى مجلس السلام العالمى إلى تكريمه وإحياء ذكراه ، كان فى نفس الوقت عالمًا فى علوم الفلك والفيزياء ورساما ، وأديبًا، وفيلسوفا . . . . . ومن أعماله لوحتا : الموناليزا ، " العشاء الأخير " الشهيرتان .

وقد صنع دافنشى آلة لقياس الأرصاد الجوية وبلغ به الأمر أن صنع ساعة بنفسه، وعن أول ساعة صنعها بنفسه كتب جملة تفيض شاعرية وعمقا ، كتب يقول :
" إننا نملك وسائل كثيرة لنقيس ونقدر أيامنا العسيرة . . . "

" الزميلات الأعزاء إننا نحب العلم والمعرفة ، ومن ثم علينا أن نعلى صرح البناء العلمى فى بلادنا ، نأخذ تراث الأسلاف ونضيف إليه الجديد ، ونلاحقهم ، بل علينا أن نتجاوزهم ، إننا - أبناء هذا الجيل - بناة الاشتراكية والشيوعية !

" أيمكن أن يكون هناك سعادة أكثر من ذلك ؟"

وبعد انتهـاء كلمتها ، توقفت لحـظة وهى تحنى رأسها محيـية ، ثم عادت إلى مقعدها فى ثقة وهدوء وسط تصفيق الزميلات .

وفجـأة ضج الفصل بالحركـة والهمس ، والنقاش ، وراحـت بعض الطالبات تسأل الأخريات عن بعض الجمل التى لم يسمعنها ، وبعضهن رحن يمتدحن الأجزاء التى أعجـبتهن من الخطاب ، بينمـا أخذ البعض الآخر يـتوقع مدى مقـدرتها على تحقيق النجاح فى مسابقة الخطابة . . . . . .

ولم يهدأ الفصل إلا بعد أن صفقت يوان شن تشى على يدها طالبة منهن إبداء آرائهن .

ساد صمت طويل دون أن يـتكلم أحد ، ومنهن من اختصـرت الأمر وقالت : ليس لى تعليق ، إلقاء جميل ، يمكن أن تستمرى عليه .

نهضت ووتشـانغ فو من مجلسها فـجأة ، اصطدمت بالمنضدة أثناء وقـوفها ، سندت بيدها على كتف تشوشيا ولينغ مما جعلها تتألم وهى ذات البدن السليم والبنية القوية .

وتذكرت أنها هى التى رشـحت لى تشون للاشتراك فى مـسابقة الخطابة ، لذا فهى شديدة الحـماس بالنسبة لهذا المـوضوع ، وقالـت : " أيتها الزمـيلات ، لقد شعرت بالارتياح يسرى فى بدنى كله وأنا أستمع إلى خطبة لى تشون ، وكأنها نسمة رقيقة لا باردة ولا حارة تنساب من هذا الجانب إلى ذلك الجانب . "

إن الموضوعات والمعانى كثـيرة ومتنوعة مثل ما يتعلق بالدراسـة والمعرفة وماهية المعرفة والدراسة ، كلماتها وعباراتها كثـيرة ومتنوعة أيضا ، وربما كان بها الكثير من الكلمات التى لم أسمعها من قبل ، زد على ذلك أن هيئتها رائعة ، فهى تبدو على العكس منى تماما عـميقة رزينة وقورة . وخـاصة كلمة : " أيمكن . . . . ،

تلك التى قالتهـا فى نهاية الخطاب . أيمكن أن يحدث شيء ؟" استفـهام استنكارى عميق المعنى كـبير المغزى ، يجعلك عندمـا تنتهى من خطابها تشعرين بمتـعة ونكهة كـأنك تناولت دوفو سـوتشـو الجاف . ومن الـطبيـعى أن يكون هناك أيضـا بعض المآخـذ . . . . . ونظرت حولها فى كل اتجاه ، وتعبيرا عن العدل والإنصاف وإتمام رأيها قـالت : " إن هذه المـاخذ تتمثل فى أنهـا تتكلم بسرعة ، كـبيرة كأنها تـقفز قفزات متلاحقة ، مما يجعل آذان الآخرين غير قادرة على ملاحقتها .

قالت تشـوشيا ولينغ وهى جـالسة : " وهناك عيب آخـر ، هناك بعض الجمل المفرطة فى الطول وعـدم السلاسة ،لا تتفق مـع حديثنا اليومى العادى ، بل كـأنها منقولة من إحدى رسالات الدكتوراه ، أتمنى أن تصححى ذلك الأمر أيضًا .

أومأت برأسها تعبيرا عن الموافقة والامتنان .

رفعت يانغ تشيانغ يون يدها قائلة : الآنسة رئيسة الجلسة ، عندى سؤال .

ردت يوان شن تشى ، " تفضلى ، اطرحى سؤالك " ونظرت إليها نظرة ذات معنى عميق .

" إن سؤالى هو ، أليس موضوع لى تشون مبـهمًا ، أوعلى حد قولها : سرًا غامـضا ؟ إن المسافة شـاسعة بين الموضوعـات التى تناولتها وبينـنا كطالبات بالمرحلة الثانوية .إننا نـحب المعرفة ، هل فـقط لأن هذه المعرفة فى حـد ذاتها تثيـر الدهشة بغموضها ورهبتها الشديدة ، دعونى أضرب مثالا ، إننا نحب حفلات المنوعات حبا كثيرًا ، حيث إن فقراتها تجذبنا إليها بشدة ، غير أن طبيعة حبنا للمعرفة تختلف عن طبيعة حبنا مشاهدة حـفلات المنوعات ، إن كلامى أنا الأخرى غير واضح . . . . . وجلست تشانغ يون دون أن تتم كلامها .

همهمت ووتشانغ فو قائلة : " نعم ، إن كلام لى تشون غامض إلى حد كبير . وجاء صوتها عاليًا فسمعها كل من بالفصل " .

وبعد لحظة من التوقف ، برزت إحدى الزميـلات المتعاطفات مع لى تـشون ، وتحب أن تناديها الأخريات " الأخت الكبرى " ، وقالت :

" لقد شاركت من قبل عدة مرات فى مسابقات الخطابة وما شابهها . وفى كل مـرة كان الوقت قـصيـرًا جدًا ، وأنت تلقين خطـبتك وأنا ألقى خطبـتى ، والكل مشـدود ومتعجل ، ولا أحـد يهتم بتحليل المضـمون تحليلاً دقيـقًا . والأهم هو أن تستطيعى شد انتباه الحـاضرين ، ولا بأس أن يكون هناك بعض من الغموض ، فهو ميزة إذا استطاع لفت الأنظار . ويجب أن تتسم الخطابة بمهارة الإلقاء ، وهذه المهارة يجب ألا تفرض عليها قيود ، وزيدى فى الإفـاضـــة مما تحـــبين واختــصرى فيما لا ترغبين . . . . . . "

سمعت لى تشـون هذا الكلام ، وقالت فى نفسها : " يا لسـوء الحظ لقد جاء دفاعها أسوأ من عدمه " .

وكما كان متوقعا ، تركن مـوضـــوع خطـبة لى تشون ، ورحن يفـــندن آراء " الأخت الكبرى " فى الخطاب .

تبادلت تشـن بوا ومارى الرأى بصوت خـفيض ، حاولت أن تـقنع مارى بأن تتكلم ، لكنها رفـضت فوقفت هى وقالت : " لقد تـبادلت الرأى الآن مع مارى ، ورأينا أن لى تشون فى كلمتها لم تربط بين المعارف العلمية ودورها فى بناء المجتمع. لقد كان كلام مارى لى منذ قليل رائعًا بحق قالت : " . . نعم ، لما لا تقولين أنت بنفسك ؟ "

(وجذبت مارى حتى أوقفتها ثم جلست هى .)

قالت مارى فى صوت هامس : " إن ، رأيى هو ذلك الذى أعلنته تشن بوا . . . . تركت يانغ تشيانغ يون مقعدها ، وأخذت تروح وتجىء وتتكلم مع الأخريات . نظرت لى تشـون إليها وهى على هـذا النحو من القلق فـاستبـد بها غـضب شديد وعادت تشيانغ يون تتكلم من جديد ، قالت :

" لقد تذكرت شيئـا آخر ، هناك مثل هندى ، فى أغلب الظن أن معناه هو : "إذا اعتليت سلما لمائة طابق ، يجب أن يكون ما تبذلين من جهد فى اعتلاء الطابق الأول هو نفس ما تبذلينه فى اعتلاء الطابق التاسع والتسعين . . "

وانتقدتها بعض الزميلات " كلما تكلمت زاد الأمر التباسا ! "

" انتظرن ، فكلامى لم ينتـه بعد ، إن حب سـماع المعـارف التى ذكرتهـا لى تشون يـبدو فقط كـأنه إشارة إلى لحظة تكلـل الجهود بالنـجاح ويتم صعـود الطابق التاسع والتسعين . "

ولكننا نحب العلم والمعرفة ، ولا يجب أن نحب النتائج المشـرفة المبهرة فقط ، لكن علينا أيضا أن نحب كل مراحل البحث والدراسة .

وجلست يانغ تشيـانغ يون ، لكنها لم تستطع إلا أن تنهض من جـديد وتحاول بكل السبل أن تشرح وتحلل كلمتها .

وقد مضى وقت طويل ، ومن ثم طلبت يوان شن تشى من لى تشون أن تدلى برأيها الشخصى وبدأت لى تشون تقول فى روية :

" لقد جاءت الآراء والتعليقات التى طرحنها صحيحة تمامًا ، وخاصة آراء يانغ تشيانغ يون ، حقيقة آراء رائعة . "

فى حقيقة الأمر إن إسنادكن لى المشاركة فى مسابقة الخطابة جاء فوق طاقتى ، ولا أستطيع أن أنظر إلى المسائل نظرة شاملـة ، فضلا عن ذلك تنتظرنى بعض المهام مثل مجموعة الفيزياء المصغرة صحتى فى الأيام الأخيرة ليست على ما يرام ، وأرى أن علينا أن نستغل فترة الأسبوع المتـبقية على "أول مايو " ، وإنه من منطلق تحقيق المجد الجـماعى لفصلنا أرى أن تتـولى زميلة أخرى مهـمة الخطابة فمـثلا هناك يانغ تشيـانغ يون ، لها دراية طويلـة وعميـقة فى هذا الموضـوع ، إننى أتعهـد بأنها إذا

شاركت فى المسابقة ، سيكون إلقاؤها جميلاً بكل تأكيد . وإننى أعتقد أن موضوع الخطابة ليس مسألة شخصية ، ويجب أن يكون من منطلق المصلحة الجماعية . . . ،

قلبن الموضوع من كافة جوانبه ، ثم ساد الصمت لحظة .

أرادت تشيانغ يون أن تنهض فجأة وتتكلم ، لكنها لاحظت نظرات يوان شن تشى ، ومن ثم غالبت نفسها وقالت فى أسلوب جديد لم تعتده من قبل ينم عن الخبرة والحنكة :

" صحيح ، إننى أميل إلى هذا النوع من الخطابة ، ومن جهة أخرى لدى بعض الآراء نحوها ، وبطبيعة الحال قد تكون هذه الآراء بعضها صائب وبعضها خاطئ . وإن رغبتى فى طرح هذه الآراء ليس إلا رغبة فى تقديم بعض المساعدة إلى لى تشون أما أن تفيد هذه المساعدة أو لا تفيد ، فهذا بطبيعة الحال أمر آخر .

وقد استعدت لى تشون لإلقاء هذا الخطاب من فترة ، وقد بحثت عن كثير من المواد الشيقة والطريفة ، ومن ثم فإننى أرغب فى الاستعداد خلال هذه الفترة معًا مع لى تشون . . . . .

والتفتت نحو لى تشون وقالت : " إذا كان رأيى سليمًا ، فلك أن تقبليه ، وإذا كان مخطئا ، فلك ألا تقبليه ، وأكون أنا مساعدة لك ، فماذا ترين ؟ " .

ضحكت جميع الطالبات وهن يثنين على فكرة تشيانغ يون ، وبدا أن لى تشون تعارض الفكرة ، ولم تنبس ببنت شفة .

بعد اجتماع الفصل فى هذه المرة ، كانت يانغ تشيانغ يون كثيرًا ما تذهب إلى لى تشون لبحث موضوع مسابقة الخطابة . ولم تكن لى تشون ترحب بها كثيراً ، كان رأيها " إما أن تلقى أنت الخطبة أو ألقيها أنا ، بينما كانت فكرة تشيانغ يون " أن أساعدك على الإلقاء" وإذا كانت تشون تريد حقيقة إلقاء هذه الخطبة ، أيمكن لها أن تكون فى غنى عن مساعدة يانغ تشيانغ يون ؟ . ثم إنها كانت وقت

إلقاء يانغ تشيانـغ يون أراءها ، كانت تهمهم ، كأنها تسمع أولا تـسمع كأنها توافق أو لا توافق . ويبدو أن تـشيانغ يون لم تـلحظ هذه الأمـور ، وأخـذت تطـرح كافة الآراء على لى تشون فـى حماس شديد ، حتى إنها لفرط حـماسها أرادت أن تعيد بدأ صياغة المسودة . ومن ثم بدأت تشون - التـى كانـت بعيدة عنـها تمـاما فى أول الأمر - تـناقش الآراء التى طرحتـها تشـيانغ يون ، وكلمـا احتدم الـنقاش والجدل زادت سعادتها ، وفى النهاية وافقت على بعض هذه الآراء .

(٢٧)

" أول مـــــايو "

" يوم العيد العالمى للعمال "

فى المساء ، أوت الطالبات المغبرات إلى فراشهن ، وأخذن يتحدثن فى حماس عن مسـيرة هذا العام ، وهن ينتظرن مـوعد تناول العشـاء ، وبعد ذلك يذهبن إلى الحفل المسائى الذى ينتظرنه فى شوق ولهفة .

جلست تشن بوا على السرير ، وأسندت ظهرها إلى الحائط ، ووضعت قدميها فى الماء الساخن ، إنها تعانى من التهاب بسـيط فى المفاصل ، وشعرت بآلام مبرحة فى ساقيـها بعد انتهاء المسيـرة ، أما تشوشيا ولينغ فقـد تمددت على بطنها ووضعت ذقنهـا على المخدة ، وراحـت تداعب شعـرها بإحـدى يديها ، بيـنما فـردت يدها الأخرى ، وساقيها اللتين كانت تحركهما لتحك إحدهما بالآخرى من حين لآخر .

وتمددت ووتشانغ فـو على ظهرها ، ووضـعت فوطة مبللة بالمـاء الساخن على جبـينها كأنها مـريضة .(قالت إنها لا يـزول عنها التعب إلا بهذه الطريقـة) ، وقد ضمت لى تشون ساقيها ساقا فوق الأخـرى وأمالتهما جانبا ، وأخذت تستريح وهى تجلس نصف جلسة ، أخرجت منديلا وراحت تمسح عـدسة النظارة ، ولأنها كانت أول مرة تضع نظارة على عـينيها ، تركـت أثرًا أحمر على جـانبى الجزء الأعلى من أنفها .

وكانت تشـيانغ يون فـقط هى التى لم تعتل السـرير ، حيث سحـبت مقـعدًا صغيرًا، وجلست عليه إلى جوار سرير تشوشيا ولينغ.

" إن مدرستنا هى أكـثر المدارس سوءًا ، (وعليك أن تبذل جهدًا جـهيدًا حتى تميز أن هذا الصوت صادر من لسان ووتشـانغ فو ، فهى تتكلم الآن دون أن تتحرك

عضـلات وجهها أدنـى حركة)، " فقـد بذلنا جهدا كـبيرا . عندمـا جاء الوقت ، وجدنا أن ملابسنا قبيحة المنظر ، وأن ملابس طالبات المدارس التى كانت خاصة من قبل مازالت هى الأجـمل ، فمثلاً طالبـات المدرسة الثانوية الثانيـة عشرة ، يرتدين جونلات بيضـاء ناصعة البيـاض ، مثل الثلج ، مثل زهرة المنغوليـا ، مثل الدوفو، ومثل اللبن ، وعليها شرائط حمراء ، شديدة الحمرة مثل الورد البلدى . . . . . . ،

" أغلب الظن أنها مثل الدوفو بالصلصة ! ، واندفعت تشوشيا ولينغ قائـلة : "إن ووتشانغ فو عند وصفها لأى شىء تتطرق دائما إلى الدوفو ، أبيض مثل الدوفو الأبيض، وأحمر مثل الدوفو بالصلصـة ، وحامض الطعم مثل الدوفو المفلفل . . . . . . كلام فارغ . شعرت أن ميدان باب السلام السماوى صغير ، استعددنا جيداً ، وتدربنا ، واشـترينا الملابس وأعـددنا الزهور ، وأخذنا ننتظر وننتظر طـوال اليوم ، وأخيرا جاء يوم أول مايو، ووصلنا أمام ميدان باب السلام السماوى بشـق الأنفس، وما هى أو أقل من خمس دقائق حتى مضينا وانصرفنا ، إنه وقت قصير جدا .

وقالت يانغ تشيـانغ يون : ". إن الاستعدادات التى تمت قبل المسيـرة واسترجاع لذتها بعد انتهائها أكثر إثارة وتشويقا من لحظات المسيرة نفسها . لقد نسيت كل شىء لحظة أن مررنا من الميدان ، ثم بدأت بعد ذلك أتذكر كل شىء .

حقا ! ، لقد كانت عروض اليوم رائعة الجمال !

وضـعت لى تشون النظارة على عـينيـها وأضـافت قائلة من وجـهة التـحليل النظرى: " إن يومى " أول مايو " ، "أول أكتوبر" ، همـا مصدرا الإثارة والسعادة فى حياتنا ، وبدونهما تفقد الحياة طعمها ، ونشيب نحن قبلَ الأوان .

لم تنطق تشن بوا بكلمة ، ولبـست الجورب بعد أن انتهت من غسل قدمـيها اللتين تسرى فيهما موجات من الألم كأنما قد وخذتا بالإبر .

وفجأة هبت الرياح ، إنها الرياح الشمالية محملة بالأتربة ، وبدا صوت فرقعة يصدر عن نوافذ العنبر الزجاجية .

صاحت تشيانغ يون قائلة : " ياله من جو منعش ، ونهضت واتجهت نحو النافذة ، وراحت تحلق ببصرها فى الأفق البعيدة ، فرأت سحابة كثيفة تغطى السماء وتحجب الشمس قادمة من ناحية الشمال الشرقى .

سألت ووتشانغ فو " إلى أين تتجه السحب ؟ " .

"أجابتها تشيانغ يون : " إلى الجنوب الغربى " .

" حظ عاثر ! . ونهضت ووتشانغ فو التى كانت متمددة على ظهرها واتجهت نحو تشيانغ يون ، ووقفت إلى جوارها ، وأخذت ترقب حالة الطقس وهى تردد فى نفسها إن تتجه السحب جهة الجنوب تنهمر الأمطار الغزيرة فوق المراكب ، أما إذا اتجهت نحو الغرب غمرت الأمطار قاعدة المبنى . من المؤكد أن مساء اليوم سوف يشهد أمطاراً غزيرة ،وسوف يفسد ذلك حفلنا الراقص !

"لن يحدث ذلك . ونهضت تشوشيا ولينغ - التى كانت تتمدد على بطنها وتفرد ساقيها منزعجة وأضافت : " لا تقولى إن المطر سوف يهطل ، فلابد أن يذهب الجميع للرقص فى ميدان باب السلام السماوى يوم أول مايو حتى لو أمطرت السماء سكاكين صغيرة ! "

لم تمض لحظات حتى انهمر المطر كما كان متوقعا . كان غزيراً منذ البداية ، وعندما يسقط على الأرض تصدر عنه أصوات ويترك أثرا خفيفًا نديا على الأرض ، سرعان ما انعدم التمييز بين هذه الآثار حيث ابتلت الأرض وتشربت بالماء . . . . وما هى إلا لحظات أخرى حتى يتجمع الماء مكونا بركا صغيرة وتظهر الفقاقيع ، وبعد ذلك تكون مجرى من الماء يندفع نحو البالوعات والمصارف .

لم يأكلن إلا قليـلا وانتظرن ربما يتـوقف المطر . ولكن المطر كان يزداد غـزارة بمرور الوقت ، انتظرن لحظة ثم قمن رغم كل شيء بارتداء أحـذيتهن القديمة وارتداء ملابس المطر وحمل شمـسية اتقاء المطر واندفعن إلى ميـدان باب السلام السماوى ، ولم تتخلف سوى تشن بوا بسبب آلام ساقها .

بعد عودة مارى من المسيرة ، استدعاها الكاهن جوزيف لى .

" أين ذهبت اليوم "؟

وصوب جوزيف لى نظرات عـينية الغائرتين نحو مارى ، كـان كالعادة يرتدى ملابسه السوداء ، ويجلس معتدل القامة ، ومرفقه الأيمن يستند إلى المنضدة بينما يده تتحرك حركات خفيفة ، حجرته التى يقـيم فيها مظلمة ورطبة ، تختلط فيها رائحة الكتب القديمة مع رائحة كريات الكافور والنفتالين .

أجابت مارى وقد أحنت رأسها : "كنت أشارك فى المسيرة " .

سألها جوزيف لى فى استنكار " أى مسيرة هذه ؟ "

" مسيرة يوم أول مايو " .

رفع جوزيف صوته واقترب من مارى سائلاً : " لماذا لم تخبرينى ؟ "

" أنا ، أنا . . . . . ، " وشعرت مارى المرتبكة بأنها لا تجد موضعا ليديها ، فكرت أن تسحب مقعدا لتجلس عليه ، لكنها لم تجرؤ على الحركة .

" لم أكن عازمة فى أول الأمر على المشاركة فى المسيرة ، وذهبت إلى المدرسة فى تردد لاستطلاع الأمور ، وما إن وصلت حـتى أخذتنى الزميلات - اللاتى كـن

ما زلن متجمعات – إلى صـفوفهن فى نشوة وسعادة ولم أستطع أن أرفض الذهاب هذه المرة أيضا ، وكانت النتيجة أن شاركت فى المسيرة .

" الزميلات ؟ من هن هؤلاء الزميلات ؟ "

بينهن أعضاء فى الحزب الشيوعى لرابطة الشبيبة ؟ " .

" نعم ، يوجد . "

صاح جـوزيف لى فى غضـب : " اسمعى ! " وقـد دفع إبريق وكـوب الشاى الموضوعين فوق المنضدة جانبا ونهض واقفًا واقترب من مارى ، وأصبح وجهه الذى يبدو عليه وقار الشيخوخة مواجها لوجه مارى الخائف المرتعد .

" لقد وقـعت فى حبـائل الشـيطان ، وسـرت فى الوحـل واتبـعت غواية الأعداء ، ودنست روح الصداقة الصافية ومبادئها السامية أنت . . . ، "

هكذا اتهمها جـوزيف فى لى لهجة تتسم بالغطرسة والتهـديد والوعيد ، بينما تتراجع مارى إلى ركن الحجرة من شدة الخوف والرعب .

تنهد جوزيف لى تنهيدة طويلة ، ثم ترك مـارى جانبا وراح يقطع الحجرة ذهابا وإيابا ، ويصدر عن كل خـطوة وقع أقدام ثقيل ، مما يجـعل مارى ترتعد خـوفًا ، ومن آن لآخر تقطع أصوات وقع أقدام متثـاقلة إيقاعات الرقص الجماعى المتسللة من النافذة فى سرعة وخفة .

لا تعرف مارى كم مـضى من الوقت ، غير أنها شعـرت أنه وقت طويل كأنه الدهر كله ، جلس جوزيف لى على فراشه ، وأسند رأسه إلى عـمود السرير ، وظل وقتا طويلاً بلا حـراك ، مـارى مـا زالت منـزوية فى ذلك الركـن ، تنظـر إلى الكاهن جوزيـف فى قلق وتوتر ، وفجـأة سمـعت صوتًا يشـبه أصـوات الحروف الحلقـية والحروف الاحتكاكية التى تصدرها البـومة ، ومع استمرار الأصوات ، رفع الكاهن

رأسه ، ونظرت مارى فى دهشة إلى تلك العينين الغائرتين اللتين أخذتا تبرقان شيئًا فشيئًا ، ثم ذرفت عيناها الدموع ، وتحرك فك الكاهن بشفتيه المكتنزتين وذقنه ذى اللحية القصيرة وكأنه يمضغ شيئا من الحشائش ، ومن ثم انكمش قلب مارى رجفة وهلعا

وقال وهو يشير لها بيده " أقبلى ، يا مارى . "

وجلست مارى إلى جواره فى خوف .

" لقد وجهت لك الإدانة والاتهام الآن ، وهذا من أجل إنقاذ نفسك ، وحتى تندمى وتثوبى إلى الله . " قالها جوزيف فى صوت أجش ، ووسط صوته الخفيض العميق ظهرت فجأة نبرة حادة تشبه الصوت الصادر عن تمزيق قطعة من قماش الحرير ، ودفع يده اليمنى من جديد وراح يشيح بها فى الهواء ، وقال فى صوت مفعم بالسحر والتأثير : " إنَّ البابا الكاثوليكى لا يخطئ أبدا فقد تنبأ من قبل قائلا إن الكوارث قادمة ،وإن الكنيسة فى خطر محدق . إننا نواجه عدوا جائرا - الحزب الشيوعى ! إن بغية هذا الحزب هى إبادة الكنيسة ، فمنذ أن سيطر الشيوعيون على البلاد طردوا لى بى لى [(١)]مبعوث الفاتيكان ،وأغلقوا الجمعية الكاثوليكية [(٢)] ، وأزالوا الكتائب المقدسة الأكثر مجدًا [(٣)]، وتم إلقاء القبض على عدد كبير من إخواننا فى العقيدة ، وقتل كثير من العاملين فى الكنيسة ، واستغلوا الحب الأعمى للوطن عند بعض من رفاق العقيدة غير المستنيرين وجندوهم لخيانة العقيدة وضرب الدين عن طريق أسلوب الذوات الثلاث (الإدارة الذاتية للنشاطات الدينية والاعتماد على الذات فى تطويرها وتجديد الذات فى نشرها) ، لقد حلت النكبة ، وبطبيعة الحال لا خوف على الكنيسة لأنها قائمة على قواعد صلبة . . . لكنك أنت تذهبين للمشاركة فى مسيرة الحزب الشيوعى. ويتدلى فوق صدر

(١) قنصل الفاتيكان قبل التحرير ، وبعده تم طرده لقيامه بأعمال معادية للثورة .
(٢) منظمات رجعية تتستر وراء الدين .
(٣) منظمات رجعية تتستر وراء الدين .

الكاهن صليب مهيب الشكل وهو يقول ، " إننى سـوف أبلغ الخمسين هذا العام ، وقد دخلت الدير وأنا فى التـاسعة من عمـرى وأقمت به أربعين عامًا حـتى اليوم ، إننى فى الأصل أنتمى إلى مقـاطعة شاندونغ ، وقد لقى أبى وأمى مصرعـهما على أيدى عصابة حـركة " إيخه " فى المرة السابقـة ، وقد أنقذ حياتى مـسيحى أجنبى يدعى لوتشن خوا . . . . إن الفـضل يعود إلى الكنيـسة لكل ما أنا فـيه ، ولكننى أيضا وهبت نفـسى لهذه الكنيسـة على مدى أربعين عامـا . وأنت أقرب الناس إلى قلبى ، حبى لك تجاوز حبى لابنتى ، إذا لم أسـتطع حمايتك ، كيف يمكننى إذا أن أحمى الكنيسة ؟ إنك إذا تجاوبت يومًا بـعد يوم مع إغراءات الشياطين ومن ثم قذف بك فى النهـاية إلى الجحيم ، كـيف يمكننى إذًا ارتقاء الجنة بمفـردى ؟ وحينئـذ سال الدمع من عينيها مرة أخرى .

التفت الكاهن جـوزيف ونظر إلى مارى ووجـدها قد ركعت على ركـبتيـها ، وتجمدت عيناها

وأخذت تنتحب دون أن يصدر عنهـا صوت ، قال الكاهن جوزيف فى صوت فيه مهابة وخشوع

" يا رب . . . . اصـفح عن . . . . عبـادك المذنبين . . . . . . ثم رسم صليبًـا على رأس مارى ، وبعـد أن قام بهذه الأعـمال نيابة عن الرب ، رفع ثيـابه السوداء الفضفاضة يمسح دموع مارى المذنبة التائبة فى عطف وحنان أبوى .

قام اتحـاد طالبات المدرسة المقيـمات بالعنبر السكنى بتنـظيم حفلة مسائيـة حتى تتمكن الزمـيلات المريضات واللاتى يخـشين المطر من الاستمـتاع بقضاء ليلة العـيد العالمى للعمال . " أخذت تشن بوا تلعب مع طالبات الإعدادية لعبة لمس الأنف (١) ، ولكن قلبها مـا زال معلقا بميدان باب السلام السمـاوى ، وتشعر بشىء من الأسف لأنها لم تسـتطع الذهاب مع زميلات فـصلها إلى هناك ، وعندما دق الجـرس معلنًا

(١) لعبة يستخدم فيها نموذج لحيوان ذى أنف بارز وتقف إحداهن على مسافة منه وتغمض عينيها وتدور زميلاتها عدة دورات ثم يطلبن إليها لمس أنف نموذج الحيوان .

الساعة التاسعة ، دخلت إلى القاعة إحدى عضوات فريق الطلائع الصغيرات وقالت لتشن بوا : " هناك من يسأل عنك . " وأخـذت تشن بوا طريقـها نحو الباب وقد استولى عليها شعور بالغرابة .

ما زال المـطر يهطل بغزارة ، والمياة الراكدة ، تنعكس عليها الأنوار ، وتنعكس عليها أيضًا ظلال حوائط الأبنية .

حجـرة الاستعـلامات تزدحم بالزميـلات اللاتى يردن استـعمال التلـيـفون ، وحجرة استقبال الضيوف يجلس بها أيـضا كثير من الضيوف ، والطالبات الخارجات أو الداخلات إلى الممر المؤدى إلى الباب يتوقفن عنده لفرد الشمسيات وتغيير ملابس المطر .

وصلت تشن بوا عند منطقـة الباب الصاخبـة ، ونظرت فى كل الاتجاهات فلم تشهد ذلك الشخص الذى يبحث عنها .

خرجت من البوابة الكبيرة ، فـرأت تيان لين يقف إلى جوار السور الخارجى ، يرتدى قميصـا قشدى اللون ذا ياقة منشاة صلبة ، وبنطلون بوليـستر رمادى اللون ، ويربط رابطة عنق أيضا ، لم يكن مـعه شمسيـة المطر ، ولا يرتدى معطف المطر ، وماء المطر يسيل من شعره على حاجبيـه وأذنيه ونظارته ، وعلى ياقة وطرف قميصه . . . . حمَّل بثـقله كـله على قدم واحدة ، وبدت عليـه علامات الضيق والضـجر والانتظار .

رأى تشـن بوا ، ولم يتقـدم نحـوها ، ومن ثم اندفعت هى نحوه ، ولاقت مثل ما لاقاه من بلل مـياه الأمطار ، حياها فى حرج وارتباك ، واحمـر وجهه كأنه ارتكب خطأ ما ، دعاهـا للخروج معًا إلى ميـدان باب السـلام السماوى ، وراح ينظر إليها فى انفعال وارتباك .

قالت تشن بوا : إن ساقى تؤلمنى ، ولن أستطيع الذهاب ، هيا ندخل ونمرح داخل المدرسة ، عض تيان لين على شفتيه وكاد يبكى ، وأحنى رأسه ووقف ساهما لا يتكلم وكأنه تلميذ صغير وقع عليه تأنيب من أستاذ ، ومضى وقت طويل قبل أن يتوسل إليها قائلا بصوت خفيض : " من فضلك ، اذهبى معى . . . . ، وتحركت شفتاه ، كأنهما تحجبان فى نفسه كل ما كان يريد قوله من الكلام .

وتحت مياه الأمطار المنهمرة بغزارة ، ووسط أصوات موسيقى العيد الصاخبة ، وإلى جوار الفتيات اللاتى يغدين ذهابا وإيابا فى حللهن الجميلة ، فى هذه اللحظة فقط ، ظهر أن تشن بوا بدأت تفهم تلك الأمور التى كانت تقترب منها وتتعمد تجنبها ، والتى كانت تحس بها وتتعمد إخفاءها من ذى قبل ، ولم تستغرق تشن بوا طويلا فى التفكير ، وأغمضت عينها اليسرى قليلا ، وفتحت عينها اليمنى كثيراً ، واندفع الدم من عروقها ، وابتسمت وهى تراودها أحاسيس مختلطة من السعادة والضيق .

وقالت فى ود وصدق : " أعندك رغبة شديدة فى الذهاب ؟ حسنا لا تتضايق، هيا بنا نذهب ، وشدت على يد تيان لين فى لطف ورقة .

لم تأخذ معها أدوات اتقاء المطر (من شمسية ومعطف) بل وضعت على كتفيها فقط سترة خروج ذات لون رمادى باهت ووضعت على رأسها قبعة قديمة من الخوص ، ومضت مع تيان لين ، قطرات المطر من آن لآخر تضرب فى وجهيهما ، فى عيونهما وفى أنفيهما فيقوما بمسحها أولاً بأول ، أصوات وقع مياه المطر ترتفع حينا وتخفت حينا آخر ، الجو يسوده الدفء تارة ثم يعصف بالبرد والكآبة تارة أخرى ، يختلط فيه الحابل بالنابل تارة ، ويسوده إيقاع رتيب تارة أخرى ، شوارع الحوارى الترابية مليئة بالحفر والمطبات ، والسير فيها غير مريح ، الآن زادها الطين سوءا . تشن بوا تبذل جهدا جهيدا فى الظلام لكى تميز المكان وتتجنب الحفر التى يلمع فيها الماء ، وما إن يطأ حذاؤها المشبع بالماء أرض الشارع الطينية اللينة اللزجة حتى تصدر عنه أصوات قرقعة ، وآلام ساقها تزداد شيئا فشيئا .

وكان تيان لين فى غاية السعادة لأن تشن بوا لبت مطلبه . وقد زالت عنه الملامح والأحاسيس الغريبة وبدأ يتكلم ويضحك بصوت عال ، بل وأطلق بعض الفكاهات . ولكن تشن بوا ظلت مقطبة الجبين ولم تتكلم بسبب الآلام الشديدة التى تشعر بها فى ساقيها. لفحت الرياح ملابسه المبللة بالماء ، فارتعد تيان لين من شدة البرودة .

أقبلت من الخلف جماعة من الزميلات ، خمس طالبات تحت شمسية واحدة ، رؤوسهن تجتمع معًا تحت حماية الشمسية ، بينما أجسامهن خارج هذه الحماية ، نادين على تشن بوا ، فقالت : "إننا نمشى معًا . ساد العبوس والغضب وجه إحدى الزميلات وقالت : لا ، إننا نمشى بسرعة ، ولن تستطيعا ملاحقتنا " وضحكن وانطلقن نحو الأمام . " أنتما ، ماذا يعنين بكلمة " أنتما ، إنه أمر غير حميد ! فقد أعلنت فى بادئ الأمر أنى لن أذهب ، والآن ذهبت ، ولكن مع تيان لين وحدنا . . . . وأحست تشن بوا بندم شديد .

عادت مارى إلى حجرتها ، ورقدت منهمكة خائرة القوى ، وأخذت تحملق ببصرها ساهمة دون أن تجد عيناها سبيلا إلى النوم .

انقطع سلك التنجستين داخل المصباح الكهربائى ، فلم يعد يضىء ، وليس هناك ضوء للقمر أو النجوم ، وساد المكان ظلام دامس وانعدمت الرؤية . والمطر يهطل بغزارة حينا ويخف حينا آخر دون أن يتوقف ، يسمع صوت وقع قطرات المطر على الدرجات ، وعلى قصارى نبات اللوتس ، وأوراق الشجر . سقف الحجرة قديم ، يرشح منه الماء قطرة قطرة على فترات متباعدة ، هذه الحجرة الشرقية تعتبر مخزنًا وحجرة نوم لمارى فى نفس الوقت . حيث بها صندوقان خشبيان كبيران ، وحقيبة ، وشباك كرة سلة وكثير من الأدوات المنزلية القديمة ، ومنها قدر عمل القهوة الثمين الذى كان يستعمله الكاهن جوزيف فى الماضى .

ووسط الظلام ، كانت مـارى تشعر أن هذه الأشيـاء تكبر شيئـا فشيئـا وكأنها حيوانات مـتوحشة متزاحـمة ، بينما هى نفسهـا تنكمش شيئا فشيـئا ، وتفوح من حولها رائحة فضلات الفئران التى تعيش بالحجرة .

وهذا هو حال مارى ، لا تنام فـى الليلة التى يسقط فيها المـطر ، فهى تخشى سقوط الأمطار وخاصة فى اللـيل ، وتخشى أن يسقط بيت أحد الناس ، وتقلق من أجل الرعاة فـى المرعى الذين لا يجدون مكانًا يحـتمون به من المـطر ، وتخاف أن يصعق البرق أحد الصبية فى الغـابات . حتى إنها تخشى أن يندفع مجرى المطر إلى داخل عش دجاجـة آمـنة وادعة ، فـتحطم الحيـاة السعيـدة الحالمة لأم وكتـاكيتـها الصغار، وتصبح هذه الكتاكيت خائفة مذعورة ، إنها أيضا تخشى أن تجتاح الأمطار والعـواصف الزهور فتـعصف بهـا . . . . . إنهـا تعرف أن الدنيـا بها كـثيـر من الكائنات الحيـة الضعيفـة الواهنة التى لا تحتمل الرعـد والعواصف والمطر . . . . . وراحت مارى تفكر فى أحداث صـبيحة اليوم ، فهذه أول مـرة تشارك فى المسيرة ، وأول مرة تشهـد فيها هذا الحشـد الكبير من الناس السعداء ، وهذه المشـاعر الرائعة المختلفة . فقد خرجن من المدرسة ، يتقدم الصفوف مدرس التربية الرياضية بصفارته التى تصم الآذان ، والزميلات يغنين وهن يمشين فى خطوات منتظمة.

كلهن متهللات الوجه ، ومعنوياتهن فى السماء . وأدركت مارى اليوم فقط أن زميلاتها - بشىء يسير من التـزين - على هذا القدر من الجمال . حيث ترتدى يانغ تشيانغ يون بـلوزة من قماش القطن ذات اللون الأزرق ، وبه ورود بيضـاء وصفراء وذات لون أرجوانى فاتح ، وكـأنها زهور برية صغيـرة متفتحـة فى أحد المراعى فى فصـل الربيع ، وترتدى جونلة ذات لون أزرق سـماوى مطبـوع على طرفهـا دوائر وخطوط ونقط بيضاء تبـدو فى جمالها مثـل البحر الكبير الذى تكسـرت عليه صور القمر والنجـوم عندما هبت عليها ريح شديدة . وقد ربطت تشـيانغ يون شريطة من الحرير القرنفلى اللون فى شعرها الكثيف . حاجباها يتحركان حركة خفيفة ، عيناها

تبرقان دائما بالسعادة وروح الحيوية والانطلاق ، سليمة البنيان ، ممتلئة القوام لكنها رشيقة ، ذراعاها وساقاها العاريان يبدوان أكثر نعومة ونضارة وبريقًا ، حتى إن ماري شعرت أن الوقوف لحظات بجانب يانغ تشيانغ يون يعتبر شيئًا مريحا للغاية .

أما قميص يوان شن تشى فإنها تلبس فوقه بلوزة صوفية ذات لون أحمر قانٍ ، ذلك القميص الحريرى ذى اللون الأبيض الناصع ، وأزراره الصغيرة الصفراء اللون مثل الكهرمان المصفوفة على الصدر من جهة اليسار فقط يجب ألا تلبس من الرأس. وأزرار بلوزتها الصوفية من نوع خاص هى الأخرى ، زرقاء اللون وكبيرة ومثبتة على الصفين ، حتى إذا أزررت بلوزتها بهذه الأزرار الدوارة ، أصبح من الصعب معرفة من أين تفك هذه الأزرار ، ترتدى جونلة ذات لون أرجوانى من الصوف غالى الثمن . . . . .ولم يكن هناك بين الصفوف من لا تزال ترتدى زى الخروج الأزرق القديم سوى مارى ، فبدت مثل قرص عباد شمس قطف قبل عام وسط فيض من الألوان المشرقة الزاهية ، وأثناء فترة الراحة فى وسط الطريق ، حملت إليها سونينغ كعكة وأكلتاها معًا ، ثم اكتشفت أن كثيرا من الزميلات يأكلن مثل هذا الكعك ، بينما هى لم تتناوله إلا هدية من الكاهن قبل عدة أيام ، ومن ثم أحست مارى - الصادقة المخلصة التى تشعر بالقناعة والرضا من خلال تعبدها وطاعتها - أحست الآن فقط بقلب جريح كسير، إن حياتها بائسة بينما حياة زميلاتها أكثر سعادة ومرحا وغبطة.

توقفن لأخذ قسط من الراحة فى شارع تشانان الشرقى ، وينتظرن بداية اجتماع المسيرة .

فتحت نوافذ فندق بكين ومبانى الإدارات التابعة للجنة المركزية على الجانبين ، وراحت جموع الناس تنظر إليهن وتحييهن . وقفن فى دائرة ورحن يلعبن لعبات "تساى ليشيو " ، " دون لوبوا " ويرقصن رقصًا جماعيًا ، وفى ظل حب واهتمام الزميلات ، تعلمت مارى هى الأخرى إحدى الرقصات، تحرك قدميها حركة

متثاقلة، ولا تستطيع أن تندمج فى الرقص . أعدادهن تتزايد شيئا فشيئا ، واتسعت الدائرة حتى أغلقت الشارع . جلسن القرفصاء وراح أفراد الإسعاف والإرشاد والتوجيه ، يعبرون من فوق رؤوسهن ، وتجمعت حولهن الطالبات صفوفا ، من بينهن صف كامل يعلق طالباته عقود الزهور فى أعناقهن ، وصف آخر يحملن سلال الزهور الصغيرة فى أيديهن وإذا نظرت بعيدا يمكن أن تشاهد صفوف طلاب الجامعات ، وذلك صف طلاب الكلية الجوية الذين يرفعون فوق رؤوسهم نموذج ضخم لطائرة نفاثة . . . انظرن ، وبدأت مارى تشعر فجأة أنها لا تحتمل كل هذه الانطباعات . تريد أن تحصى عددهم ، لكن العدد لا يحصى ، تريد أن تصيح استحسانا ، ولكن الصيحة لا تخرج . فوقفت فى مكانها تنظر مندهشة ذاهلة ، ثم بدأ الاجتماع ، وارتفعت مئات الألوف من الرؤوس متحدين الريح والعواصف ، وبدأت تتوالى أصوات طلقات المدافع التى تهز أرجاء المكان ! وارتفع العلم الأحمر مرفرفًا ، وبدأ عزف السلام الوطنى والنشيد العالمى ، ورقصت سحابة بيضاء فى علياء السماء ، ورمى آلاف من الناس أزهارهم نحو باب تيان آن من ، وطارت بالونات وحمامات فى الهواء ، واهتزت الأرض بأصوات الترحيب والهتاف " عاش الرئيس ماو ! ، شعار واحد أصبح هتاف الملايين وهتاف الملايين توحد فى شعار واحد. وأخذت مارى تصيح مع الجماهير وهى تترنح وكأنها تسير وسط بحر متلاطم الأمواج . الشمس ترسل أشعتها من خلال قطع السحب الخفيفة المتحركة فى صفحة السماء فيبدو وكأن هناك عشرات الألوف من الخيوط الضوئية تسطع فى ميدان باب السلام السماوى. أغمضت مارى عينيها ، فهى لاتعرف إلى أى مكان وصلت ، حرك المشهد العظيم مشاعرها حتى إنها لم تعد تحتمل ، وكادت تهوى إلى الأرض .أمواج الجماهير الجامحة المتدفقة تجرفها ، إنها لم تعد تحتمل ، وكادت تهوى إلى الأرض . أمواج الجماهير الجامحة المتدفقة تجرفها معها إلى الأمام ، وهى تحاول جاهدة أن تحتفظ بتوازنها.

وأثناء عودتها من شارع نا نتشانغ ، سمعت فجأة من ينادونها باسمها ، ورأت مجموعة من الطلائع الصغار المتزاحمين فوق الرصيف يلوحون لها ، أخذتها الدهشة لحظة ، ثم تذكرت فجأة ، يا إلهى ، إنهم صبية دار الرحمة ، مضت ثلاث سنوات، اشتد فيها عودهم ، وانخرطوا فى صفوف الطلائع ، لقد تغير كل شىء إلى مثل هذا الحد الخطير .... والتفتت فإذا بفرق الموسيقات العسكرية بين صفوف المسيرة يقرعون الطبول بأصوات تزلزل الآذان.

* * *

ألقت مارى بنفسها فوق الفراش منهكة خائرة القوى ، لم تتناول طعام العشاء أيضًا ، ، راحت بين أصوات وقع المطر تفكر فى كلام جوزيف لى ، وفى خطئها الجسيم ، وتفكر فى كيفية حماية الكنيسة المقدسة . لكنها لم تستغرق فى ذلك ، حيث كان يقطع حبل أفكارها الرايات المرفرفة التى لا تحصى ولا تعد حينا ، والفتيات اللاتى يمضين حاملات باقات الزهور حينا آخر ، وأصوات الهتاف الحماسية التى تشبه الرعد تارة ، وتلويح أيتام الماضى الذين أصبحوا الآن أعضاء فى تنظيم الطلائع .... هل يمكن أن يكون كل ذلك من إغراءات الشياطين.؟

الشيطان ، جهنم ، فناء الروح ، كل هذه الكلمات تتراقص أمام عينيها ، وتجتمع لتكون سحابة داكنة تزحف عليها . إذا كان كل ما فى ميدان باب السلام السماوى ألاعيب شيطانية ، وإذا كانت يانغ تشيانغ شيطانة ، وكذلك يوان شن تشى، وكذلك أيضا الممرضات اللاتى يرفعن شعار الصليب الأحمر ، والطلائع الصغار الذين يلوحون لها بالتحية،إذا كانوا كلهم شياطين فلماذا إذن يبدون على هذا النحو من اللطف والدعة ؟ هل يمكن أن يكون الشيطان قد بدل قلب مارى؟ لماذا تشعر مارى بأنهم أناس طيبون ، بل تحبهم ؟ وتحب مسيرة عيد "يوم أول مايو" ؟ وإذا كانت كل زميلاتها من الشياطين ، هل يمكن أن تكون مارى المسكينة هى

وحدها حصن الدفاع عن القديسة العذراء؟ لماذا يحيا الإنسان ؟ هذه الشياطين الكثيرة تغريك، حتى يلقى بك فى جهنم بعد الموت . . . .

والعالم كله ، بما فيه جوزيف ومارى نفسها مهدد بالانهيار ، وكأنه يقف على حافة الهاوية ، مائة علامة استفهام بل ألف علامة استفهام تتقافز فى حيرة داخل هذه الحجرة الشرقية الصغيرة المليئة بفضلات الفئران.

إن أصوات الموسيقى التى تتهادى مع الريح قادمة من ميدان باب السلام السماوى تشبه النيران فى حماستها، سمعت صوت خفيف فى الفناء،إنه صوت دفق المياه من قصارى الزهور الخالية على السلم الخارجى بعد أن امتلأت بمياه الأمطار.

الأضواء تتلألأ فى ميدان باب السلام السماوى الذى يموج ببحر من البشر، عندما وصلت تشن بوا وصديقها ، لم يكن عرض الألعاب النارية قد انتهى بعد ، أصوات الفرقعة تدوى والشرر يتطاير فى السماء ، اللون الواحد يتحول إلى عدة ألوان وشعاع الضوء الواحد يصبح رقعة ساطعة ، تنشر فى صفحة السماء أضواء رائعة متلونة ، ثم لا يبدو لها أثر فى لمح البصر ، ولا يتبقى إلا مساحات من الدخان تنتشر مع الريح هنا وهناك.

وهناك أيضا الشرر الصغير الذى يتطاير ويعلق بالباراشوتات الورقية التى تحلق فى السماء فيبدو مثل النجوم الصغيرة فى بداية ظهورها فى سماء يوم مطير.

ماذا يعنى المطر بالنسبة لمباهج العيد؟ إن هذا المطر لم يمنع أحدا من الذهاب ، بل على العكس ، زاد الصراع مع المطر من مظاهر البهجة والسعادة ، فكثيرا ما كانت المعاطف الحمراء التى يرتديها البعض تبهت اللون الأحمر على القمصان البيضاء التى يرتديها البعض الآخر أثناء الرقص الجماعى ، وكثيرا ما كان الشباب المتزاحمون يدوسون بأحذيتهم المبللة والملوثة بالطين على أقدام الفتيات ، أو ينفضون

المياه من هذه الأحذية عن قصد أو عن غير قصد لتستقر على ذيل التنورات الناصعة البياض وتلطخها ببقع من الطين .

أحست تشن بوا بالسعادة ، فرغم آلام ساقها ، إلا أنها جاءت إلى مكان يعج بمظاهر السعادة والجمال ، إنه ببساطة يبدو مثل قصور الأساطير : فالميدان يجذب الأنظار بأضوائه المبهرة المتلألئة من حول الباب الأمامى لمبنى مصلحة البريد، ويرتفع نجم أحمر كبير مهيب فوق النصب التذكارى لأبطال الشعب الذى يجرى بناؤه. أضواء الكشافات تتشابك وتتعانق فتكون شبكة هائلة من الضياء تدور وتمتد لتملأ سماء بكين . والأمطار الغزيرة تخترق هذه الشبكة فتبدو كأنها خطوط بيضاء كثيفة متزاحمة. أصوات الموسيقات الراقصة المبتهجة المتوالية التى تذاع من المحطة أقوى مائة مرة من صوت وقع المطر .

بحثت تشن بوا عن زميلاتها، فوجدتهن مع طلاب المدرسة الثانوية رقم ٦٥ للبنين وقد راحوا يرقصون معًا فى دائرة ترددت لحظة ، ثم تركت تيان لين واندفعت نحو الدائرة، شاهدتها زميلاتها ، فرحن يصافحنها ويحضنها ويضربنها على كتفيها وشددن يدها إلى داخل الدائرة ، وهن يعاكسنها : "أيتها الشقية ، أخيرًا وصلت إلى هنا ، يا له من شيء سار ! "

وكأن شيئا غير متوقع قد حدث أو كأنهن لسن معها على الدوام. ووقف تيان لين حائرًا خجلان فى أحد الجوانب ، الجماعات المتحركة تحتك به من آن لآخر ، الجميع يمرح ويرقص متشابكى الأيدى ، لكنه رفع عينيه ونظر فلم يقع بصره على شخص واحد يعرفه . . . . تعمد تيان لين أن ينظر شرقا وغربا ، فرأى فتاتين تقبلان نحوه وتلوحان له بيدهما.

إنهما يانغ تشيانغ يون ، وتشوشيا ولينغ ، ملامحها الجميلة تبدو أكثر جمالاً تحت شبكة الأضواء المتقاطعة الساطعة المتلألئة . . حبات المطر تلمع فوق ملابسهما وعلى جبينهما . دعوتا تيان لين للرقص معًا، لكنه هز رأسه بالرفض.

وبدت تشيانغ يون كأنهـا فهمت الأمر ، فمدت يديها البـاردتين بسبب تبللهما بماء الأمطار وجذبت تيان لين من يده ، قائلة بصوت خفيض : "هيا ، هيا لترقص معنا ، ماذا يضيرنا لو ازددنا واحدا؟

وبعد أن أحـس بالصدق وحـسن النوايا من جانبـهمـا ، اشترك تيـان لين فى الرقص على مضض ورقص "رقصة الدعوة البسيطة".

وعندما دعته إحدى فتيات الطلائع للرقص مـعها ، ارتبكت حركة قدميه ، مما جعلها غير قادرة على مقاومة الضحك.

وبدلا من العودة إلى الدائرة ودعوة شـخص آخر للرقص ، هرب تيان لين من الدائرة ، ووقف على بعد خـشية أن يدعوه شخـص آخـر للـرقـص . وما هــى إلا لحظـات حتـى عادت تشيـانـغ يون مـن جديد ،حاولت الكلام مع تيان لين ، لكنه انعقد لسانه ولم ينطق بكلمة.

انتهى عـرض الألعاب النارية ، وبدأ المطر يتوقف تدريجـيًا ، وراحــت أبواق الإذاعـــة تعلن : "دخلنا الآن فى النصف ساعة الأخير ، وليرقص الجـميع بكـل ما أوتى من حماس ! صدرت عن الطلاب أصوات الـتعجب ، فوقت نفض الهموم يمضى بسرعة كبيرة ثم راحوا يرقصون بحـماس أكبر. والتهبت كل حلبة من حلبات الرقص . ازدادت آلام سـاق تشن بوا لدرجة لا تحـتمل ، كأن الألم سـرى فى كل أعصابهـا . وشعرت أيضا بالإرهاق ، لكنهـا تحملت كل شيء وراحت ترقص بكل طاقتها ، واخـتلطت مياه الأمطار بقطرات العرق. وقالت فى نفـسها : "اليوم أول مايو" ، يوم من الأيام الرائعة ، وليس لى الحق فى أن أحرم نفسى من السعادة، أو أن أقسـو عليها فـى هذا اليوم. علىّ أن أرقص ، وأرقص ، ما دام الرقـص لم ينته بعد وليرنى الجميع وليعلموا أننى أرقص رقصًـا سريعًا وجميلاً ! إننى لا أعرف ماذا نواجه فـى حـيـاتـنا ، ربما الـسعـادة ، وربما عـدم الـسعـادة ، لكننى لا أخشى شيئا ، ولا أعبأ بشيء أيضا ، لماذا أريد أن ، فجأة ؟ إن الوقت يمضى بسرعة ، ولم أرقص بعد بالدرجة الكافية. . . . إننى أرقص منذ طفولتى. . . . . "

لم تتوقف الموسيقى الراقصة ، ولم ينتـه الحفل ، عزف الفتية على الأوكرديون وراحـوا يغنون ويرقصـون بأنفـسهم ، وفى النهـاية لم تسـتطع تشن بوا أن تواصل الرقص ، فقد بدأت تترنح كـأنها شربت حتى الثمالة ، وأخـذت طريقها عائدة إلى المدرسة.

سأل تيـان لين نفسـه : "لماذا أعذب نفـسى؟ فقـد وقف على قدمـيه أكـثر من ساعتين وتركته تشن بوا جانبًا وذهبت حتى دون أن تنظر نحوه نظرة واحدة ، الرياح شديدة البـرودة وقميص تيـان لين القشدى اللون المبلـل بماء المطر يلتصق بجسـمه ، ورباط العنق الذى ربطه حول عنقه خصيصا هذه المرة كم يبدو مضحكا !

توقفت تشن بوا بعـد أن قطعت عدة خطوات التـفتت وتلفتت حـولها فى كل مكان ، نسى تيان لين كل شىء وانطـلق نـحـوها كأنه يطير ، ها أنا ذا ، أنا هنا ، هل نعود ؟

. . . . . . وصلت مارى إلى جـوار سور دار الرحمـة العاليـة ، استندت إلى جزع شجـرة تين مزهرة ، يوجد بئر أسـفل هذه الشجرة ، نظرت مارى إلى فـتحة البئر فإذا بأصوات موسيقـى تنبعث من الداخل ، وبعد لحظات صعد من البئر شىء ذو لون أحمـر قرمـزى ، إنه بالون ، مدت مـارى يدها لتمـسك بها ، لكنـها لم تستطـع وراحت البالونة تحوم حـول شجـرة التين ، هبطت البالونة شـيئا فـشيـئا ، واقتـربت منها مارى فـإذا بها ليـسـت بالونة بل هو طفل صغيـر ، شعره مجـعد بعض الشىء ، وشفتـاه منفوختان متورمـتان بارزتان، ويحتضن بين ذراعيـه حمامة السلام ، وهو يبتسم لمارى .

"من أنت ؟ "

" . . . . "

"من أنت ؟"

" . . . . "

لم يأبه هذا الطفل بها ، مضت مارى نحوه وراحت تنظر إليه من رأسه حتى إخمص قدمه ومن إخمص قدمه حتى رأسه ثم صاحت فى سعادة :

"ماوماجواى! "

ابتسم ماوما جواى ، وأطلق حمامة السلام التى طارت عاليًا فى السماء وهى لا تتوقف عن الهديل . لكنه مازال صامتا. احتضنته مارى وقبلت شعره وعينيه ويده الصغيرة ، وقالت مارى وهى تبكى " :إننى كثيرا ما أذكرك ، كثيرا ما أتذكرك . . . . " وتساقطت دموعها على الأرض حتى كونت نهرا صغيرا تنساب فيه الدموع ، لكن ماوما جواى مازال يلتزم الصمت . وفجأة أدركت أنه ليس ماوما جواى ، ولكنه ذلك السكير صاحب الأنف الأحمر ، الذى مد يده ذات الشعر الكثيف ليمسك بمارى ، وقال بصوت عال أنا زوجك ، أنا يامينغ ! . . . .

* * *

استيقظت مارى منزعجة فى منتصف الليل ، وأخذت تستند على الحائط وهى تتحسس طريقها نحو الفناء . توقف سقوط المطر ، وهبت الريح من جديد . أضواء الكشافات تتلألأ فى السماء ، انسياب المياه الراكدة ما زال مستمرا ويحدث أصوات خرير خفيضة ، السحب تنقشع شيئًا فشيئًا وكشفت بعض النجوم عن وجهها ، تبينت مارى ظلال الصليب الغامض الكائن على قمة الكنيسة الصغيرة . وما إن رأت الصليب فى جو بارد مظلم ، حتى كاد قلبها يتوقف عن النبض ، وودت لو تدخل الكنيسة - حتى لو كان ذلك زحفًا على الأرض - وأن تشعل المصباح الأخضر فوق تمثال السيدة العذراء ، حارت عينا مارى ، ودب الضعف والوهن فى جسدها ، وركعت على ركبتيها أمام تمثال السيدة العذراء طالبة منها العون والنجاة :

يا ينبوع الصدق والطهر والخلق القويم ، اروى نفسى الظمأى من نور الحقيقة الأبدية ،

. . . .

لقد قهرت الشر والموت ،

ليتك تبعدين عنى هذا الشر حتى لا أبرح الرب أبدا ،

ولا أصبح سجينة جهنم . . . . "

راحت مارى ترتل هذه الدعوات والابتهالات وجسدها يرتج وكأنها عثرت على طوق النجاة وسط موجات البرد اللاذع . رفعت رأسها ، وسال الدمع على وجهها، وتصببت عرقا ، ونظرت إلى ملامح العذراء التى تفيض بالرحمة . وراحت العذراء الطاهرة تبادلها النظرات الوادعة الصادقة ، فهدأت نفس مارى بعض الشىء . . . . حيث اكتشفت فجأة أن السيدة العذراء هى الأخرى مسكينة ، وحيدة لا مؤنس لها ، تقبع وحدها فى الظلام ، تفيض عيناها حزنا وأسى ، وتحنى رأسها فى وهن وضعف ، وراحت تنظر إلى فتاتها الصغيرة ، إلى فلذة كبدها فى غير حول ولا قوة وهى تقاسى الأمرين من آلام الحياة التى لا حدود لها .

العنبر يسوده ظلام دامس ، وعندما عادت تشن بوا ، كان الجميع قد أسلمن أنفهسن للنوم. اتجهت نحو سريرها ، أعصابها مكدودة متعبة ، غير قادرة على المسير ولو خطوة واحدة أخرى .

الألم فى ساقيها كأنه نيران ملتهبة ، ويبدوان متيبستين كأنهما قطعتان من الخشب وتشعر بالخدر والتنميل يسرى فيهما من الداخل ، حتى إنها تود لو تقطعهما. التقطت أنفاسها وهى تخلع الحذاء الذى كان مليئًا بالماء ، قلبت الحذاء، فإذا بالماء يسيل منه . وبهت لون الجورب فانطبع على قدميها الصغيرتين .

وتورم مشطا قدميها وكعباها من أثر الماء ، وابيض لونهما مثل لون خبز المانتو المغموس فى الماء ، توقف المطر تماما ، وهبت الريح من جديد ، تلك الريح التى

تدفع السحب بسرعة ،القمر يطل برأسه على استحياء ، وضياؤه يتسلل إلى النافذة من علياء السمـاء ويسطع على فراش تشن بوا التى سحبت اللحـاف المحشو بالقطن على ساقيها وأسندت رأسها إلى الوسـادة وأغضمت عينيها وراحت تفكر فى صمت عميق .

" لقد كان عيد " أول مايو " رائعا هذا العام ، فقد قضى الجميع هذا اليوم فى مرح وحيوية ، أيمكن أن أكون قد عاملت تيـان لين على نحو غير لائق ، لقد سعى إلى من بعيد ، ولم يكن من الواجب أن أسبب له حرجًا . ولكن ذلك . . . . . لم يكن ممكنا . . . . . فهو شخص طيب إلى حد كبير ! ولكنه أيضا غير مطيع . ماذا أملك من حيلة ؟ ساقى اللعينة لماذا تؤلمنى فى ذلك اليوم بالذات ، لقد تعبت كثيرا، ففى هذا اليوم كانت الأشياء السارة وغير السارة من الكثرة حتى لا يمكن إحصاؤها، إننى لم أعش من قبل يومًا مزدحمًا مـثل هذا اليوم . حقا ، يجب أن أكون صريحة مع نفسى ، إننى ذات عزيمة ، ولا أخاف شيئا .

إننى لم أبذل جهدا فى المذاكرة فى الآونة الأخيرة . . . . .

مـا لأفكارى تتـشـتت رويدا رويدا ؟ ربما أننى أريد النوم ، فـلأنم . . . . . . سعلت تشوشيـا ولينغ ، مما جعل تشن بوا تستيقظ من جديد . شعـر تشوشيا ولينغ المبلل بالماء منثور فوق المخدة ، إنه شعر طويل ، دفـعت اللحاف بقدمها فاتقشع عن كتفيـها . مشت تشن بوا وهى تتحسس طريقهـا بذراعيها وقدميـها وشدت اللحاف وغطت صدر تشوشيـاولينغ . عندما اقتربت من سرير شياولينغ اكـتشفت أن فراش تشيانغ يون مـا زال خاويا ، أين ذهبت إذًا يانغ تشيانغ يون ؟ وكـيف لم تعد بعد ؟ وجلست تشن بوا حائرة قلقـة على فراش تشيـانغ يون تـنتظـرها بعـض الوقت ، ثم أخذها النوم وهى فى فراش تشيانغ يون .

(٢٨)

وفى ليلة عيد "أول مـايو" بحثت يانغ تشيانغ يون عن تـشانغ شى تشون فى كل مكان فى ميدان باب السلام السماوى.

وأثناء المسيرة التى أقيمت فى النهار توقف صف طالبات المدرسة الثانوية السابعة للبنات على ناصيـة حارة "جنيـو" ليـفسـحن الطريق لبـعض صفـوف من طلاب الجامعة. وأصبحت طالبات المـرحلة المتوسطة اللاتى يأخذن قسطا من الراحة ناقدات لمسيرة طلاب الجامعـات وتجمعن جماعات متفـرقة وهن يبدين آراءهن وملاحظاتهن حول صفوف الجامـعيين مستعينات بإشارات الأيدى فى التعبـير، وشاهدت تشيانغ يون عن غير قصد طالبا يضع شارة "كلية جـولوجيا بكين" ، فأسرعت تبحث بقية الصـفوف عن تشـانغ شى تشـون، نظرت إلى الخلف فلم تجـده ! آه ، لقد مـضى تشانغ شى تشون إلى الأمـام ! يرتدى قميصًا أحمر وسـروالاً رياضيًا أبيض اللون ، ويحمل علمـا أحمر كـبيرا ويمشى فى خطوة رسـمية مـهيبـة ، وقد أثار منظره هذا ضحك تشـيانغ يون التى صـاحت بصوت عـال: "تشانغ شى تشـون ! نادت عدة مرات حـتى التفت برأسه ، رأت وجـهه الأسمـر اللامع ، لكنه لم يرها، فى ذلك الوقت دوى نفير صفارة طويل ، وواصلت صفـوف طالبات المدرسة الثانوية السابعة المسير.

لقد تركت هيئة تشـانغ شى تشون المهيبة وهو يحمل العلم الأحـمر الكبير لدى تشيانغ يون انطباعـا بالرضا والسعادة الشديدة ، تلك الهيـئة التى لا يمكن أن تنساها من بين كل أحداث المسيرة ،فقررت أن تبحث عنه فى مساء اليوم نفسه، ميدان باب السلام السـماوى واسع فـسيح ، قـصده فى المسـاء مائتا ألف شـخص على الأقل للمشاركة فى الاحتفال كيف يمكن إذن أن تبحث عنه ؟ ولكن لم يسمع قط من قبل أن تشيانغ يون إذا أرادت أن تفعل شيئا يمكن أن تتراجع عنه..

تحدثت تشيانغ يون مع تيان لين لبعض الوقت.

إنها تتعاطف معه تعاطفًا شديدا ، وكان يتحدث معها بلا رغبة وبلا حماس. أطلقت تنهيدة طويلة وانصرفت.

إذا أردت البحث عن تشانغ شى تشون ، يجب أولا أن أبحث عن حلقة الرقص الخاصة "بكلية الچيولوجيا" ، ومن ثم راحت تشيان يون تنظر حولها فى كل الجهات .كان المكان شديد الزحام أمام الميدان فى ذلك الوقت ، وكان المارة ذهابا وإيابا يضطرون إلى الاستناد بأيديهم على أكتاف الذين أمامهم فيشكلون صفا متماسكا يتحرك مثل الثعبان الطويل . وقفت تشيانغ يون فى وسط أحد ممرات المشاة، فعرضت نفسها لتدخل أحد المتطوعين لتنظيم المرور الذى قال ، "أيتها الرفيقة لا تعوقى الطريق من فضلك"

انتحت تشيانغ يون جانبا ، ورأت الشارة الحمراء التى يضعها المتطوع لتنظيم المرور. فسألته بسرعة : أين يرقص الزملاء من طلاب "كلية الجيولوجيا" ،هز ذلك الشخص رأسه مبتسما ، وذهب يؤدى عمله فى جانب آخر. ولم يكن ممكنا أن تتركه تشيانغ يون يمضى بسهولة فلاحقته وقبضت على كتفه بيدها وهى تلح ، "إذا سمحت ، من فضلك ، من فضلك ! وكانت تمسك به بينما تناديه بكلمة من فضلك. التفت المتطوع ونظر لتشيانغ يون نظرات تفيض غضبًا، انحنت انحناءة بسيطة لتحيته وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة . لم يستطع إلا أن يقول لها : "اذهبى واسألى مركز القيادة عند أعمدة المدخل الغربى" .

كانت تشيانغ يون تقاوم تدافع المزاحمين لها وتزاحمهم فى جسارة وشجاعة وهى تشق طريقها نحو المدخل الغربى .الأرض منزلقة ، وجموع الناس غفيرة ، والكل يتدفق من هنا وهناك، مما يجعلك دائما غير حر الحركة ، فردت تشيانغ يون ساعديها بمحاذاة جسمها وراحت تمضى فى تعاريج ومنحنيات وتقترب من مقصده .

* * *

يا حامل العلم ، خـمن من أنا ؟ وكانت يانغ تشـيانغ يون قد وضـعت يديها على عينى تشانغ شى تـشون الذى كان يقف خارج حلبة الرقص ليـأخذ قسطًا من الراحة .

لم يخمن تشانغ شى تشون وتركها تستمر فى وضع يديها على عينيه ، بل ولم يتعجل إبعـادهما "وتحرير نفســه" وبعد لحظة فض يدى تشيانغ يون البـاردتين بيديه القويتين دون أن يتفوه بكلمة.

"آه ! أطلقها تشانغ شى تشون الذى اكتسى وجهه بمياه الأمطار وبدا أكثر صحة وحيوية كلمـا لمع تحت وهج ضياء الكهرباء ، وكأن كل عضلة وكل جـزء فى وجهه قد انصهر وتجـمد ونحت بدقة متناهية . وراح ينظر إلى تشيانغ يون وفـمه فاغر فى سذاجة وبراءة ، ولكنه عندما يبتلع ابتسامته يصدر من عينيه تعبير يوحى بالغضب.

سألها تشانغ شى تشون فى شىء من الريبة والسخرية : "أمازلت تذكريننى ؟"

"ما هـذا الكلام !؟ ، هل تعرف كـيف وصلت إليك هنا ؟! وراحت تشيـانغ يون تسـرد له فى تأثر جم المعاناة والصـعاب التى تغلبت عليـها فى "رحلة الـبحث الطويلة عنه " وكانت تتكلم بينما تنفض الماء من على قميصها وسروالها.

نهض تشانغ شى تشـون فى يقظة واهتمام ، وراح يضـرب الأرض بسن حذاء قدمه اليمنى فى رفق ولين وهو يحجب الابتسامة ، وكأنه يقول : "آه ، يا فتاة إنك تعتقـدين أن بحثك عنى أمر شاق ، لكنـك لا تعرفين أن بحثى عنك أكثـر صعوبة ومشقة . . . . "

كانـت هـذه المجموعة من طلاب الجامعة يرقصون رقصة الصداقة ، ويعزفون على بعض الآلات الموسيقـية الغربية مثل النفخ فى الكلارنيت والتـرمبون، والعزف على الجيتار ، وقرع الطبول ، وكانوا يرقصون أزواجا فى رقصات جميلة رائعة.

سألها تشانغ شى تشون "هيا ؟ " فأومأت تشيانغ يون برأسها وانطلقا للمشاركة فى حلقة الرقص"

وسـألها : "هل أنت على ما يرام ؟ " وكان صوته رنانا مثل الجرس .

أبـانت تشيانغ يـون عـن أسنـانها النـاصـعة البيـاض وهى تقول : "نعم ، أنا على ما يرام ، وانحدرت قطرة من مياة المطر إلى فمها فأدارت رأسها وبصقت.

قـال تشانغ شى تشـون وهو يرقص بخطوات بطيئة : "إنك مقـصرة ، مضى نصف عام دون أن ترينى " .

لاحـقتـه تشيـانغ يون فى دعـة ورقة : "لكننـى أفكر فيك دائمًـا " . " إنك ترقصين رقصا جيدا " .

"لقد انتقلنا إلى مبنى جديد ، فى ضاحية المدينة . "

"وكيف أبحث عنك؟ "

قـال تشانغ شى تـشون وقـد أبطأ الخطى حـيث يتقـدم خطوة واحـدة مع كل نقرتين: "المبنى الشرقى الثالث حجرة رقم ٥٠٣ "

"ماذا ؟ "

"المبنى الشرقى الثالث حجرة رقم ٥٠٣ "

أخذت تشيانغ يون تردد هذا الرقم فى نفسها ، وقد أغلقت فمها كأنها تبتلعه ، ثم قالت : "حسنا ، لقد حفظته" .

"هل تجيـد الرقص فى اتجاه واحد مـثل عقـارب الساعة ؟ إن كل أهل شـمال شرق الصين يرقصون هذه الرقصة" .

هز تشانغ شى تشون رأسه وهدأ إيقاع الخطى بطريقة رقيقة مهذبة.

"إذن أقودك لترقص هذه الرقصة"

لم يرد تشانغ شى تشون ، فهو يرى أن هذه الفكرة تمثل إهانة له، لذا أمسك بها وظل صامتًا دون حراك" .

وفجأة قالت تشيانغ يون : "لقد أصبح مستواى فى رسم الخرائط رائعا فى الآونة الأخيرة . "

قال تشانغ شى تشون فى صدق ودون أدنى استعراض "أهنئك" وأضاف أن إدارة المدرسة أثنت عليه ثناء حسنا فى الفترة الدراسية الماضية "

أخذا يرقصان رقصات هادئة ، لم تطق تشيانغ يون صبرا وقالت وهى تستحثه : "لماذا تبدو رقصاتك على هذا النحو التقليدى المتكلف؟ "

لم يسمعها تشانغ شى تشون بوضوح .

"إنك ترقص مثل المسنين من كبار رجال الأعمال ، أو مثل ضابط روسى برتبة فريق متقاعد فى القرن السابع عشر ، هل تخشانى؟"

أثار كلامها غضب تشانغ شى تشون الذى انطلق يدور بها بسرعة شديدة دون أن يومئ بإيماءة واحدة ويده اليسرى تقبض بشدة على يدها ، بينما تلف يده اليمنى خصرها بشدة ، ومع كل فاصل موسيقى يدور ثلاثمائة وستين درجة .

كانت تشيانغ يون تركز بأصابع قدمها على الأرض ، وتدور معه دون أن تبذل جهدا وهى تلتقط أنفاسها بينما تقول ضاحكة : "أسرع مزيدا من السرعة ! "

"در ، لا تكف عن الدوران ! "

" لا جدوى منك ، هل تعبت؟ أصابك الدوار ؟ "

" لا تدس على قدمى ، يالك من لبخة "

احمر وجه تشانغ شي تشون البرىء ، وراح يدور باستماتة ، لم يعبأ بهيئته ، بل ترك كل فنون ومهارات الرقص جانبا. وبعدها لم يعد يسمع شيئا حتى الموسيقى، ولم يهتم ما إذا كانت رقصاته تنسجم مع الفواصل الموسيقية ، بل راح فقط يدور ، ويدور ، ويدور. شعرت تشيانغ يون بيدها تؤلمها من جراء قبضته عليها فسحبتها منه، ومالت بجسمها مستندة إلى ذراعه اليمنى وراحت فقط تركز على طرفي قدميها وهي تتحرك في خطوات خفيفة متلاحقة وتدور في خفة ورشاقة . وكانت كلما ضاعف تشانغ شي تشون من جهده ، خفضت هي من جهدها ، وكانت ترفرف بيده كأنها تريد أن تطير من على الأرض .منظر ميدان باب السلام السماوى يداعب العيون باستمرار ، الأضواء المبهرة تتلألأ فى السماء كأنها آلاف من التنينات الذهبية الراقصة . وما إن يظهر أمام أعينها زوجان من الراقصين حتى يختفيان بسرعة ،وهما يرقصان كأنهما يكادان يطيران ، ينظر إليهما الآخرون فلا يشعران.

وهكذا ظلا يرقصان حتى ظهرت تباشير الصباح

* * *

وفي صبيحة اليوم الثانى من مايو ، كانت تشيانغ يون قد بدأت تغط فى نوم عميق ، رأت فى المنام أن ثعبانًا صغيرًا يزحف على ذراعها الأيمن ، فتململت وتقلبت ثم واصلت النعاس . لكن مازال هناك شيء ما يحتك بذراعها. ويمنعها من النوم ، فأخذها الغضب ، وأرادت أن تلفظ ببعض الشتائم ، لكن فمها لم ينفتح ، ثم أخذها النوم وكأنها سقطت فى هوة سحيقة مظلمة ، تغوص فيها شيئا فشيئا . . . . . وفجأة أحست بشيء يحتك بها من جديد ، فتحت عينها وهى تغالب نفسها ، رأت أمامها شيئا بنى اللون يظهر منه رأس إنسان ينادى بصوت يشبه طنين البعوض يانغ تشيانغ يون ! . أغمضت عينيها ثم فتحتهما ، فإذا باللون البنى يتراجع ، ورأت سونينغ واقفة إلى جوار فراشها .

يانغ تشيانغ يون ! وكان باديا على وجـه سونينغ علامات الاضطراب والقلق ، ولم تكن قد ارتدت ملابسها جيدا ، فياقة قميصها مثنية إلى الداخل .

أطلقت تشيانغ يون تثاؤبة شديدة ، حتى إن زفيرها مرق بجوار أذنى سونينغ ، ودفعت الغطاء وجلست ، وقالت ورأسها مـحنية نحو صدرها: " ياه ، كيف رقدت فى فراش تشن بوا ؟"

كانت قد نامت دون أن تخلع ملابسها المبللة بالماء ، قميـصها الجميل وجونلتها الأنيقة مكشكـشان ومنكسران كأنهمـا جبين سيدة عجـوز . تطريز الوسادة ترك أثراً أحمـر على خدها ومازالت آثار الطين على قـدميهـا " استندت بيدها على عـارضة السرير وسألت سونينغ فى صوت لا يخلو من الخشخشة : " ماذا وراءك ؟".

" أريد أن أقول لك شـيئـا ". قالتهـا سونينغ بصـوت خفـيض ، وما زالت الزميلات فى الحجرة نائمات .

أومـأت تشيـانغ يون برأسهـا إيماءة مـؤكدة . لبـست حذاءها ، ونهـضت من مجلسها ، ولم تكد تعتدل حتى استندت إلى سونينغ وعادت تجلس على السرير من جديد .

" ماذا حدث لك "؟.

أفاقت تشـيانغ يون تماما الآن ، وراحت تدور بإصبـعها أفقيـا فى الهواء وهى تقول : " إننى أشعر أن كل شىء يدور من حولى . " وسعلت وضحكت .

أحضـرت سونينغ إناء غـسل الوجه لتشـيانغ يون ، أخـذته منها تشـيانغ وهى تشكرها .

الشمس أشرقت لتـوها ، الحشائش النضرة التى غـسلها المطر تمد على الأرض ظلالهـا الطويلة ، برك مـياه الأمطار فى كل مكان ، تتـبـخر ببطء علي أثر حـرارة

شمس الصباح . ألقى المطر بلوحتى الإعلانات اللتين علقهما اتحاد الطلاب على الأرض حتى لم يعد لها أثر واضح . السماء صافية ، غير أن هناك قطعا من السحب المروحية الشكل التى تبدو فى الجنوب من بعيد . أولئك الذين كانوا فى سعادة ومرح مجنون فى الليل ما زالوا غارقين فى أحلامهم ، ولا تسمع أصوات الصفارات والأجراس ، فقط هناك أصوات الترويللى باص تسمع من حين لآخر . وبعد مرور يوم " أول مايو " الملىء بالحماس الملتهب ، يبدو اليوم هادئًا على نحو خاص ، وكأن الجو الذى انهمر بالمطر ليلة أمس يبدو فى غاية الصفاء والسكون فى اليوم التالى . لم يكن فى الفناء سوى البواب الذى راح يلعب مع طفل صغير .

لوح الطفل الصغير الذى يرتدى شورتا بحمالات إلى تشيانغ يون قائلا : " عروس ، عروس "

" ماذا تقول " .

قال الرفيق البواب موضحًا فى سعادة وكأنه لا يذكر سوء التفاهم الذى وقع بينه وبين تشيانغ يون : إنه ابن حضرة الناظرة ، وعندما يرى فتاة جميلة الملبس يصيح قائلا إنها عروس . "

اقتربت سونينغ من هذا الطفل الصغير وأخذت تداعبه ، بينما ذهبت تشيانغ يون لتغسل وجهها .

غسلت وجهها . صعدتا إلى شرفة المبنى الدراسى حديث التشييد ، وقد أمكنهما من هذه الشرفة رؤية أسقف الحجرات الرمادية المتزاحمة النظيفة ، والملاعب الفسيحة ، وبوابة المدرسة المعلق عليها أقواس الزينة الملونة ويتوسطها العلم الوطنى . وإذا نظرنا بعيدا بعض الشىء يمكن أن نرى ملتقى الطرق وشرطى المرور الذى يعمل فى دأب وإخلاص ، ويصدر إشارات بيمناه ويسراه ، تذكرت تشيانغ يون رقصات ليلة أمس الدائرية ، وتذكرت ملامح ذلك اليوم السعيد ، فابتسمت وتنهدت تنهيدة خفيفة وهى تقول ، لقد انتهى عيد يوم أول مايو .

ابتعدت سونينغ عن أشعة الشمس ، وأخذت تشيانغ يون وجلستا فى أحد جوانب الشرفة ، وقالت دون إعمال للذهن : " تشيانغ يون ، خبرينى كيف أتصرف ؟ أليس ذلك خروجا على القانون . . . سألتها تشيانغ يون " ماذا حدث ؟ هاتى من الأول . وهى تحاول إزالة الطين عن ساقيها ، وذكريات وانطباعات الليلة المطيرة وأضواء الكهرباء ، والرقصات الدائرية تداعب خيالها .

" كنت قد أخبرت أسرتى أننى سأعود بعد الساعة الثانية عشرة ولكننى تعبت بسبب هطول الأمطار بصفة مستمرة ، فعدت أدراجى إلى البيت فى الساعة العاشرة، وصلت إلى البيت ، وكان الباب مغلقا ، ولكن الشيء العجيب أن الباب الجانبى الصغير كان مفتوحا ، وهو باب حديدى مغلق لم ينفتح منذ قيام الثورة ، فكيف أراه الآن مفتوحا ؟ اقتربت من هذا الباب الجانبى الصغير ، فرأيت عربة يد فى مكان غير بعيد مغطاة بغطاء من البلاستيك، أخذتنى دهشة شديدة، دخلت من الباب الصغير ، فوجدت النور مضاء فى الحجرة الغربية التى تخزن بها الأشياء القديمة ، تلك الحجرة التى كان يوضع بها تابوت جدى وجدتى ، لقد كانت دائما مغلقة بالقفل ، اندفعت إلى داخل هذه الحجرة دون تفكير ، فشاهدت شخصين . . .

" من هما ؟ "ورفعت تشيانغ يون حاجبيها فى تعجب ودهشة ، وبعد أن بدد كلام سونينغ ذكرياتها الجميلة عن يوم العيد .

استطردت سونينغ تخبر تشيانغ يون بأن الشخصين كانا أباها وشخص آخر غريب عنها ،وإن أكثر ما أثار دهشتها أن الحجرة كانت مليئة بأكياس الدقيق ، بها ما لا يقل عن عدة مئات منها. منها جزء وضع حديثا، وهذا الشخص الغريب يضع قطعة من القماش على كتفه، الأضواء الصفراء الباهتة تكشف عن جو مليء بغبار الأتربة وذرات الدقيق المتطايرة ، ويمكنك أيضا أن تشمى رائحة هذا الدقيق الجديد ،

وقد ارتبكا لمجيء سونينغ والتفتا في خوف كأنما أصابهما مس من الشيطان ، وظهرت على وجهيهما علامات القلق والضجر وتعرف عليها والدها ، فقال لها فى لهجة حادة

" فيم جئت إلى هنا ؟ "

ردت فى ارتباك "أنا ؟ رأيت . . . . "

"ماذا رأيت ؟ "

أجابت سونينغ . "رأيت النور مشتعلاً ، فدخلت . "

وشاهدت فى ضوء هذه الأنوار الخافتة الباهتة لوحا خشبيا موضوعا على الأرض ومصايد الفئران على جوانبه الأربعة ، رأت أيضًا مقعدا يوضع عليه كثير من الأكياس الفارغة . أرادت أن تتحقق من هذا الشخص الغريب ، لكنه أعطاها ظهره، واندس مختفيا خلف أكياس الدقيق دون أن يصدر له نفس وكأنه غير موجود.

قال والد سونينغ آمرًا "اخرجى ! "

وسألت سونينغ والدها فى ثبات "أبى ، لماذا اشتريت كل هذا الدقيق ؟ وهل يمكن أن نأكل كل هذا ! "

قال فى شيء من الرفق واللين وهو يطردها مرة أخرى "لا شأن لك بذلك ، انصرفى "

"أعتقد أنهما كانا يفعلان شيئا مخالفًا للقانون. تشبثت سونينغ بقميص تشيانغ يون المكرمش وهى تستطرد قائلة لم أجد إلى النوم سبيلا من الخوف ، فالكل يلهو ويمرح أمام ميدان باب السلام السماوى ،ولكن بيتنا . . . رقدت فى

الفراش بعضا من الوقت ثم ذهبت لأرى ما حدث ، انطفأت أنوار الحجرة الغربية ، وأقفل الباب بإحكام بالقفل ، حتى إن الشك ساورنى فى أن ما سردته الآن كان من قبيل الأوهام.

استيقظت قبل أن يطلع النهار ، وذهبت لأرى هذا الباب الحديدى ، فشاهدت من الآثار ما يبين أنه انفتح ، واستبد بى الخوف . . . . "

"ماذا تخافين ؟ أبلغى البوليس ! ولكن لماذا يكون أبوك على هذا النحو ؟ إن عامة الرأسماليين الآن . . . . "

قطبت سونينغ جبينها فى غضب قائلة : "أنت لا تعرفين شيئا ، إنه ليس رأسماليًا عاديًا ، لقد سمعت من أمى أنه قبل أكثر من عشرين عاما كان يقوم بعمل شديد الخصوصية ، حيث كان يقوم بتمييز اليوان الفضى الصحيح عن نظيره المزيف. كان يرمى اليوانات الفضية من يمناه إلى يسراه ، فإذا كان بينها يوانات فضية مزيفة مصنوعة من النحاس فإنها تحدث رنينا عاليًا ، ومن ثم يمكن التقاطها . وأثناء عملية نقل اليوانات الفضية بين يديه ، يكفيه فقط إذا التقط يوانا مزيفًا أن يضرب على حافته بظفر إصبعه الوسطى ليتأكد من تزييفه . . . . بعد ذلك جاء اليابانيون إلى البلاد ، افتتح وكرًا للمخدرات ، ألا تفهمين ؟ محلاً لبيع الأفيون. بعدها جاء الكومينتانغ ، افتتح مصنعا خاصا فى عهد قريب . . . . بينما يمكث الآن فى البيت بلا عمل من الناحية الشكلية. وعندما كنت قد بدأت إدراك ما حولى ، كان قد أثرى ثراء فاحشا ، لكنه مازال شديد البخل ، كان يجلس مساء كل يوم على الأريكة بعد تناول العشاء ، يعد أوراق العملة الصغيرة ، ويصنف الفكة ويرصها جيدا ، وكانت هذه هى سعادته الكبرى . . . . لقد حصل على الابتدائية فقط ، لكنه بعد استسلام العدو اليابانى دفع بعض المصروفات لكى يتعلم اللغة الإنجليزية فى إحدى المدارس التكميلية الخاصة ، لكن صاحب هذه المدرسة كان

محتالاً ، حيث جمع هذه المصروفات وهرب بها . . . . وقال أبى إن هذا هو المقلب الوحيد الذى شربه طوال حياته . . . . . . "

نهضت تشيانغ يون من مجلسها وأخذت تروح وتجيء فى غضب ، فهى لم تصادف فى حياتها مثل هذا النوع من الناس .

استندت بيديها إلى سور الشرفة ، وراحت تلقى نظرة على الشوارع النظيفة. فكرت فى نفسها فى شيء من الألم والمرارة أيمكن أن تكون قدما مثل هذا الرجل قد وطأتا أرض هذا الشارع النظيف الجميل؟ وتذكرت ذلك الرجل برأسه المسطح الأصلع ، وجلبابة الرث القديم . . . . وفجأة رأت تشن بوا تمر أسفل الشرفة ، فنادتها بصوت عال، قفزت تشن بوا السلم وصعدت إلى الشرفة ، كانت قد ارتدت الملابس الرسمية الزرقاء المتواضعة ، وعيناها المتقدتان ترسلان نظرات قلقة غير مستقرة .

" عزيزتى يانغ ، هل عدت سالمة ؟ ياه ، لست قادرة على فتح عينيك . آه سونينغ أتحضرين فى مثل هذا الوقت المبكر .

سألت تشيانغ يون وهى تنظر إلى سونينغ طلبًا للأذن :

" تشن بوا ، ما رأيك فى هذا الموضوع ؟ " ، أومأت لها سونينغ تعبيرا عن الموافقة ،ومن ثم بدأت تشيانغ يون تسرد لتشن بوا ما حدثتها به سونينغ لتوها .

وفى النهاية عبرت تشيانغ يون عن رأيها بقولها " أرى أنه يجب كتابة بلاغ إلى السلطات المختصة . "

نظرت سونينغ إليها فى شيء من الضيق ، ثم نظرت إلى تشن بوا .

فقالت تشن : " لقد مضت سنوات أربع على تحرير البلاد ، فكيف يستمر هذا الرجل فى ذلك ؟ "

أخبـرتـها تشيـانغ يون قائلة : "إن أباها ليس رأسمـاليا عـاديًا . . . "

سـألت تشن بوا سونـينغ " أترغبين فى إبـلاغ السلطات عن والدك إذا ارتكب عملاً مخالفًا للقانون ؟ " وقـد جلست هى الأخرى فى مواجهة سونينغ ، وراحت تداعب أصابع قدمها فى خفة ورقة .

أجابتها سونينغ فى صوت خفيض " طبعًا . . . . "

"فكرى ثانيـة فى هذا الأمـر ، حاولـى أن تثـنيـه عــن ذلك ، ولا بأس أن تحادثيـه عن هذا الأمر بصـراحة ، قولى له إن من يرتكب إثمـا، لابد أن ينكشف أمره فى النهاية ، وحـينئذ سوف يلقى أشد العقـاب ، وإذا لم يستمع لك ، يمكن بعد ذلك أن تبلغى عنه " .

قالت تشيانغ يون فى غـضب : " سونينغ ، من المؤكد أنك يجب أن تخوضى نضالاً شاقًا معهم ، فقد أضرت بك أسرتك هذه ، يجب ألا تضعفى . . . . . . "

"إننى لا يمكن أن أراه بأم عـينى وهو يستمـر فى ذلك ، وإذا تستـرت عليه ، فإننى أكون مواطنة غير صالحة ، اطمئنى"

ثم قالت سونينغ لتشيانغ يون وحدها بصوت خفيض :

"إننى لن أخيب أملك هذه المرة . . . . . . "

وبعد انصراف سونينغ ، سألت تشـن بوا تشيانغ يون : "متى عدت ، أنمت أم لا ؟ لقـد جلست فى فـراشك حتى منتـصف الليل ، وانتظـرتك طويلا ، وأخيـرا أخذنى النوم " .

قالت تشيـانغ يون فى زهو وكبرياء وعيناها تتراقـصان "كنت أرقص طول ليلة أمس ، واسـتندت إلى سور الشـرفة وهى تقـول ضـاحـكة : " أرقـص هكذا ، وهكذا . . . . . . "

"علام تضحكين ؟ "

" أضحك بسبب . . . . الأمطار الهتون . . . . والرقص . . . . لقد كان شيئاً ممتعا للغاية وأعطت تشيانغ يون ظهرها للسور واستندت إليه براحتيها ، وسرت فى وجهها حمرة قانية من الضحك ، وقالت : "كيف يتسنى لك أن تعاملى تيان لين أمس بهذا الشكل؟ تغرقينه فى المطر ، وتذنبينه وقوفا فى ميدان باب السلام السماوى".

ارتفعت الشمس فى السماء ، الجو فى شهر مايو مشرق وصاف مثل الزجاج ، وبدأت الشمس التى أشرقت بعد الأمطار الرعدية فى إرسال الضوء والدفء الشديدين دون موانع وبقوة وروح الانتصار على السحب والغيوم ، لم ترد تشن بوا على كلام تشيانغ يون ، وراحت تفك الزرار الأعلى من سترتها الزرقاء البسيطة ، وهى تقول : "حر ، حر . . . . "

"أخبرينى ، ماذا بينك وبين تيان لين ؟ لقد كان واضحًا أمس أنكما . . . . . "

هزت تشن بوا رأسها قائلة : "لا تكملى ، لا تتحدثى عنه "

لم تتكلم تشيانغ يون ، ولكنها فى واقع الأمر لم ترض فضولها ، بل إنها شعرت بأنه يجب عليها أن تفعل شيئا من أجل تيان لين ، ذلك الذى أغرقته مياه المطر ، ومن ثم قالت : "رغم أننى لا أعرفه تماما ، إلا أننى أشعر أن تيان لين إنسان طيب ، ولكنك أمس . . . . "

لاحقتها تشن بوا بصوت متهدج : "كفاك ، لا تتكلمى " ، وراحت تنظر إلى تشيانغ يون فى صمت ، وعضلات وجهها ترتعد وتنكمش كأن حشرة ما قد زحفت عليه ، وفجأة أدارت رأسها وانصرفت من الشرفة دون أن تبالى بتشيانغ يون.

(٢٩)

قبل أن تصل إلى المدرسة بمسافة ، استمعت خوان لى تشينغ إلى أصوات الآلات الموسيقية وأصوات قرع الطبول ، ورأت الرايات الملونة معلقة على بوابة المدرسة ، والأطفال المتزاحمين على الباب يتفرجون واضعين أصابعهم فى أفواههم . لم تتمالك نفسها من أن تسرع الخطى حتى تصل إلى مدرستها الأم حيث قضت عهد حياتها الدراسية ، وانطلقت من هنا إلى الدخول فى معترك الحياة.

وعند الباب طالبات ودودات متحمسات ، أخذن خوان لى تشينغ من يدها إلى دفتر التوقيعات لتسجل اسمها . وعندما اقتربت من منضدة التوقيعات رأت زميلة دراستها القديمة أليو وهى تسجل اسمها فوضعت يدها على كتفها .

"ياه ، يا إلهى ، أتيت ؟ كنت أخشى ألا تحضرى ، أين تعملين؟ لقد أصبحت بدينة لا ، بل نحيفة . . . . "

"إن سعادتى بالغة بأن أقابلك لدى دخولى المدرسة ، فلم نلتق منذ التحرير "

"لا ، لا ، بل رأيتك مرة أثناء الاجتماع الذى عقد فى قصر تايخه . . . . . . "

أخذت خوان لى تشينغ طريقها إلى داخل المدرسة وهى تتحدث حديثا ضاحكا مع زميلتها القديمة التى لم ترها من زمن طويل.

لبست المدرسة حلة جديدة من الديكورات والزينة ، هناك لافتة مكتوب عليها بخط كبير "مرحبا بالأخوات الكبيرات فى مدرستهن" وتعلق أعلى نوافذ الفصول الشرائط الورقية وأوراق الزينة المقصوصة وأوراق سعف النخيل ، وفى مكان صحيفة الحائط ، لصقت مجلة خاصة للترحيب والاحتفال بعيد الشبيبة فى "الرابع من مايو" "ويوم الخريجين" ، ألوان المجلة زاهية ومشرقة لدرجة تؤذى العيون.

مستوى النظافة رائع ، فالأرض تبدو كأنها مسحت بفوطة ، لدرجة أنه لا يمكن أن تثار ذرة واحـدة من الغبار حتى إذا أقـيم سباق للخـيل فى هذا المكان. وأخذت طالبات الإعدادية ينظرن إلى "رفيقات المدرسة" فى نظرات مغلفة بالغبطة والخجل ، وراحت طالبات ثلاث يتـشاورن فيمـا بينهن ، ثم دفعن طالبة ذات ضـفيرة قصـيرة سوداء ، تقدمت نحو خـوان لى تشينغ وسألتها : "أختى الـكبرى ، هل حضرتك . . . . قائد طائرة ؟. "

أجابت خوان وقد أوقعها هذا السؤال فى حيرة "لا "

"هل أنت كاتبة ؟ عاملة نموذجية ؟ إحدى أفراد فريق التنقيب ؟ "

أدركت خوان لى تشينغ أن هؤلاء الفتيات الثلاث يبحثن بين الخريجات القدامى عمن يعملن فى وظائف غير عادية، ومن ثم قـالت لهن معتذرة إنها تعمل الآن فى عمل إدارى بسيط ، ووعدتهن أنها إذا وجـدت بين الزميلات القدامى من تعمل فى قيادة الطائرات أو ما شابه ذلك سوف تقدمها لهن بكل تأكيد.

شعـرت خوان لى تشينغ بحـماسة وهى تشهـد المكان الذى قضت فيـه خمس سنوات من عمـرها، والتلميـذات فى الإعدادية اللواتى بدأن فى هذا المـكان القديم حياتـهن الجديدة . ثم اعتراها شىء من الشـعور بالخجل فى الوقت نفـسه. وتحول مزيج الذكـريات الكثيـرة فى إثارة لا سبيل لمقـاومتهـا ،لكن من أين جاء شـعورها بالخجل ، هل ذلك لأنها ليسـت طيارة أو عاملة نموذجية عند عودتها إلى مـدرستها الأم؟.

قدمت إحدى المرشدات الأحوال لخوان لى تشينغ قائلة "المكتبة تقيم معرضًا عن تاريخ المدرسـة ، وتجرى الآن فى الـقاعـة مسـابقـة الخطابة ، وبعـدها يبدأ حـفل المنوعات، حيث تقدم الطالبات البرامج التى أعددنها بأنفسهن ، وفى معمل الكيمياء

معرض للمنتجات اليدوية العلميــة للطالبات ، وفى الملعب تقام مباريات كرة القدم. ويمكن لحضرتك أن تذهبى إلى أى مكان ترغبــينه. وإذا تعبت يمكن أن تأخذى قسطا من الراحــة فى استــراحة المــدرسين ، حيث يمكن شـــــرب الشاى ولكن لا توجـد سجائر ".

ووفقــا لإرشادات المرشــدة ، ذهبت خوان لى تشــينغ أولاً إلى المكتبــة لمشاهدة معرض تاريخ المدرسة ، وما إن دخلت حتى سمعت صوت تشن بوا.

كان ظهر تشن بوا للباب ، وتشير بعصــا من البامبو وهى تتحدث عن نشاطات منظمة الحكم الذاتى الطلابية قبل التحرير وكأنها تسترجع شيئا من الماضى :

"هذا هو صندوق الاقــتراع الذى اســتخــدم عند انتخــاب لجنة الحكم الذاتى ، كانت الطالبــات تضع بطاقات الاقتــراع على منظمتهن الخــاصة فى هذا الصندوق ، تلك المنظمة التى قاومت السياسة الرجعية لحزب الكومنتانغ، وهذه هى العريضة التى كانت قــد تقدمت بها الطالبات نظرا لأن تــكوين المنظمة الخاصة كــان محظوراً لدى المدرسة فى ذلك الوقــت،وقد وقَّع عدد من المدرسين أيضــا على هذه العريضــة وقد عثــرنا عليها بعد الثــورة فى سلة مهمــلات الناظرة السابقة ، وقــد أصبح الصندوق منقــوصا بعــد أن تآكل الجانب الأعلى منه ، وهذا هو آخــر منشور مــطبوع بالحــبر الأسود من سلسلة المنشورات الصادرة عن المنظمة، وهذا العدد يحتوى على مكتوب المنظمة للزميلات بعنوان "واجهوا العاصفة (وكان العملاء قد ضربوا جامعة المعلمين لتوهم فى ذلك الوقت) ، وبه أيضا رسالة كتبــتها طالبة تدعى تشيانغ بعــنوان "لماذا لا توجد أجهــزة فى المعمل " ، وقصيــدة شعرية لزميلة أخــرى تدعى خوان بعنوان "لا نطيق صبراً . . . . "

خفق قلب خــوان لى تشينغ بشدة بين ضلوعــها - فإنها هــى الزميــلة خــوان التى تتــحدث عنهــا تشن بوا - كل الحضــور فى المعرض ينظرون إلى هذه الشــواهد

البسـيطة التى ترمز إلى النضال البطولى لجيل من الشبـاب بمزيج من مشاعـر المهابة والاحترام .

وعندما كانت خوان ترى هذه الأشـياء من جديد والتى رأتها من قـبل مـرات لا تحصى ، شعـرت بأن هناك قوة وعزيمة كبـرى تسرى فى كيانهـا ، مما جعل الدم يتدفق فى عروقها .

" . . . . . . وهذا سكين - وتهـدج صـوت تشن بوا من التـأثر حـيث رأت خـوان لى تشينغ - فى يوم ٢٩ أبريـل من عام ١٩٤٨ ، أقـام أتحاد منظمـة الحكم الذاتى فى مدرستنا ونظيـرتها فى المدرسة رقم ٦٥حفلة مسـائية ، وقبل أن تتم هذه الحفلة أفسدها الجواسيس المندسون بيننا وبعض العناصر الرجعية من الطلاب.

كانوا يهتفون : "لماذا لا تعلقن صـورة الرئيس جيانغ ؟ " ، إننا نعارض منظمة الحكم الذاتى تحت سيطرة عصابة الحزب الشيوعى . .

هذه هى السكين التى استخدمها الجواسيس آنذاك فى ضرب عضوات المنظمة ، وقد أصـيبت الرفيـقة ليوجون يان - الـتى تعمل الآن فى وزارة التربيـة والتعليم - أصيبت فى ساقها.

أحكمت خوان لى تشينغ قبضتيها فى شدة .

وبعد أن انتهت من الشـرح والتقديم ، أسرعت تشن بوا نحـو خوان لى تشينغ وقالت لها :

"إننا نقوم بالتقـديم بالتناوب ، وقد انتهى دورى . "أخذت خـوان لى تشيانغ تنظر فى اهتمـام إلى شعر تشن بوا ، فقـد فرقته إلى جزئين وربطت كل مـنهما من أعلى بشريطـة حريرية سوداء ، وهذه هى الخطوة الأولى لعـمل ضفـيرة . ونظرت تشن بوا هى الأخـرى إلى شعـر خوان لى تشيـنغ الذى أعملت فـيه مكواة الشـعر فأصبح مجعدا ، ولكنه جميل . ثم تبادلتا النظرات وضحكتا

"انظرى إلى مدرستنا ، كم هى جميلة . . . . . "

صححتها خوان لى تشينغ : "بل مدرستنا جميعا !"

"نعم ! مدرستنا جميعا . لقد تغيرت معالمها تماما، وأنت يا زميلة المدرسة ، يا عديمة الضمير ، لم تفكرى مرة واحدة فى زيارتى ! فقد تم بناء مبنى دراسى جديد فى الفناء الشرقى وتم شراء الصيدلية الواقعة فى الجانب الغربى لتوسيع الملاعب ، وعدد الطالبات بالمدرسة يزيد على ألف طالبة بينما كان لا يتجاوز أربعمائة طالبة فى عهدك . . . . . . "

لم يفتر بعد حماس تشن بوا عندما كانت تقدم المصروفات فى معرض تاريخ المدرسة ، وراحت تقدم دعاية عن التقدم الذى طرأ على المدرسة لخوان فى عبارات مثيرة ومشجعة . خوان لى تشينغ تومئ برأسها وهى تشعر أن صديقتها أصبحت تتكلم أكثر من ذى قبل ، ففى الماضى كان كلامها ينساب فى هدوء ، أما الآن، فأصبح يتدفق فى سرعة. وقالت خوان وهى تبتسم :

" كم يكون جميلا إذا استطعت الالتحاق بالثانوية مرة أخرى من جديد ! "

قالت تشيانغ يون - التى تحمل فى يدها حبة كمثرى كبيرة - موجهة كلامها إلى لى تشون الواقفة أمام المرآة فى الحمام تتدرب على إلقاء الخطابة : "ايا عفريتة ، أهنا تختبئين ! لم يعد سوى ثلاثين دقيقة ثم تلقين خطبتك ، لقد كنت أعتقد أنك تختبئين فى دورة المياه . . . . "

شعرت لى تشون أن تشيانغ يون اكتشفت استعداداتها الجدية الكبيرة ،فساورها شيء من عدم الارتياح وقالت وهى تتمتم "ماذا تقولين ؟ " مدت تشيانغ يون بحبة الكمثرى التى تعادل حجم قبضة اليد وذات اللون الأصفر الذهبى إلى لى تشون

وهى تقول ، "لقـد خرجت إلى الشارع منذ قليل لشـراء ورق ،فقابلت عـجوزا ذا لحية بيضـاء يدفع أمامه عربة يد ويبيع الكمثرى ،لوح لى بيـده قائلا، " يا فتاتى ، تناولى كمـثرى بلا ثمن ، ما مـعنى ذلك ؟ ، قال : " كـيف أنك لا تعرفين ؟ فى واقع الأمـر أننى لم أكن قد تعـرفت عليـه حتى ذلـك الوقت ، قال إنه يعـرفنى ، والأكثر من ذلك أنه قـال إنه وقع وهو يتزلق على الجليد ذات مـرة قبل عام ونصف عام وأننى التى ساعدته وأوقفته، وهو مصر على ذلك ! وأخيرًا اشتريت حبة كمثرى كبيرة ، وفكرت ثم فكرت فوجـدت أنه من الواجب أن أعطيها لك تأكلينها ، فأكل الكمثرى سيجعل كلامك حلوا شديد الحلاوة !

حملقت لى تـشون فى وجه تشـيانغ يون ، فرأتهـا مازالت تلهث ، وحـبات العرق تتقـاطر من جبينها ، ثم نظرت إلى حـبة الكمثرى الكبـيرة والبقع ذات اللون البنى المتناثرة على صفحة قشرتها اللامعة .

نظرت لى تشون إلـى تشيانغ يون فى تأثر شـديد ، وابتسمـت ويدها ترتعد . وكسرت حبة الكمثرى بيدها نصفين وتقاسمتها مع تشيانغ يون .

بينما كانت تشـيانغ يون تأكل الكمثرى لمعت عيناها بفكرة مـاكرة وقالت "أريد أن أكون شـخصا من نـوع يوان شن تشى. " ثم راحت تفحص مـلابس لى تشون وملامح وجهها ، وهى تشـير إلى طرف أذنها الذى مازال ملوثا ببعض من الطين ، ثم راحت تشجع لى تشون بروحها المرحة الخفيفة ، ثم ذهبتا معًا إلى القاعة .

وفى المساء تناولت قدامى الخريجات الطعـام مع الطالبات ، وكانت المدرسة قد أعدت للخريجات طعامًا أكثر تنوعًا.

وكـانت هناك اثنتـان من الخـريجـات تتـجـاذبان أطراف الحـديث بما ينم عن مؤهلاتهما وخبراتهما : "هل رأيت منتجات الطالبات اليدوية من الوسائل التعليمية؟ نعم رأيتهـا . إن طالبات المرحلة المتـوسطة فى هذه الأيام ذوات مستـوى رائع ، أما أيامنا . . . . . . "

"إن طالبات المرحلة المتوسطة يحبون التصفيق والهتاف إلى حد كبير ، فقد استقبلننى بترحاب وكأنهن يستقبلن شخصية عالمية صديقة . . . . "

ذهبت إحدى الرفيقات ممن ترتدين الزى العسكرية ، وشعرها مضفر بضفيرة طويلة ، وتحمل وسام مساندة كوريا ضد العدوان الأمريكى ، ذهبت تبحث عن الأستاذ يوان.

"الأستاذ يوان !" وقد انحنت أمامه انحناءة كبيرة .

"آه أنت . . . . أنت . . . . . " ومد الأستاذ يوان يده فى خجل وارتباك .

" هل نسيتنى حضرتك ؟ إننى لى يوفن ، خريجة دفعة ١٩٤٨ ، ذات مرة تناولت شيئًا من الطعام خلسة أثناء حصة حضرتك . . . . "

أجابها الأستاذ يوان " آه ،آه ، وفى حقيقة الأمر إن عدد الطالبات اللواتى شاهدهن الأستاذ يوان يأكلن أثناء الحصة لا يقل عن عشرات.

انتقلت إحدى الطالبات اللاتى التحقن بالجامعة فى العام الماضى فقط إلى مائدة طعام طالبات الصف الثالث وهى تقول: "إننى لست خريجة المدرسة بل أنا فيها فأنا طالبة بالمرحلة الثانوية ، أشعر دائما أننى لا زلت طالبة ثانوية ، وأرغب فى تناول الطعام هنا على هذه المائدة فيالروعة المدرسة الثانوية، أود لو ظللت بها على طول الدوام. لقد بكيت فى بداية التحاقى بالجامعة ،فلم أكن اعتدت الحياة بها بعد ، ففى الجامعة يرقصون رقصة الصداقة فى نهاية الأسبوع ، والموت أهون علىّ من الرقص ، كان المسئول عن نشاطات التسلية يشجعنى فاشتركت فى حفلة رقص ومعى كتاب مبادئ الرسم الهندسى ، لكن "مالوتشن " كانت قد أصبحت سيدة الرقص، هه . . . . "

وبعـد أن تناولت خوان لى تشـينغ الطعام ، وأثناء خـروجهـا من باب المطعم أصابها غـثيان و سعال ، ولكنها لم تتـقيء الطعام ، بل تقيأت كثـيرًا من المياه التى تشبه رغوة الصابون والتفت حولها بعض الزميلات ، وانحنت خوان لى تشينغ قليلا واستندت إلى الحائط وهى تهز رأسها قائلة :

"لا شيء ، لا شيء على الإطلاق ." وبعـد ذلك صـحـبتـهـا تشن بوا إلى حجرتها لتستريح.

لم يكن فى العنبر سواهمـا . وبدت خوان لى تشينغ أكثر نشـاطا وحيوية لدى دخولها الحجرة حيث أخذت تتحسس السرير وتنقر بيدها على الحوائط وتفتح النوافذ وهى تقول : " سبق لى أن سكنت فى هذا العنبـر . . . . " نظرت إليها تشن بوا فى اهتمام وسألتها :

"ماذا أصابك ؟ فقد تغير لونك تغيرًا شديدًا حتى أصبح مثل الشمع الأصفر. "

أطلقت خوان لى تشينغ ضحكة عالية "لا تثيرى مخاوفى . اسمعى لقد كنت أسكن فى هذه الغـرفة عـندما كنت فى الصـف الأول الثانوى . ألا تصـدقين ؟ لم تكونى قد التحقت بالإعدادية بعـد . وكان سريرى هنا ، "وأشارت إلى مكان خال بجـوار البـاب ، وكانـت تقيم إلـى جوارى آنسـة ، كـان والدها عـضـواً باللجنة التشـريعية،وذات مرة وبينمـا كنا نغط فى نوم عميق فى منتـصف الليل ، صرخت فجأة بصوت عال وهى تنتحب ، فأيقظـت كل من بالحجرة فزعات ، كانت ترتعد كأنما أصـابتهـا حمى الملاريا ، وتقـول وهى تبكى "انظرى ، انظرى . . . . . . " وكانت قد رأت خنفسـاء فوق السرير ! وكانت بعد ذلك كثيـرًا ماتعذبنا فى أنصاف الليالى ، تبكى وتصرخ ، ومن ثم كنا نضطر لاستدعاء المسـئول عن العنبر. وطبيبة المدرسة وكان ذلك يحدث لأنها رأت قطة فى المنام ذات مرة ، ولأنها سمعت صوت الرعد فى السماء مرة أخرى ، ومرة ثالثـة لأنها أصابها الفزع من غطيط زميلة تدعى

ليو . . . . بـعد ذلك سمـعن أنها أصـيبت بمرض الـتهاب البـليورا (ذات الجنب) ، وماتت .

"كانت طالبـات المرحلة المتوسطة فى ذلـك الوقت . . . . . . " وهزت خوان لى تشينغ رأسها وقالت فى إيجاز : "لا أعرف كيف أتحدث عنهن ! "

"لى تشينغ ، استريحى قليلا على فراشى "

" لا داعى لذلك ، لقد جئت معك إلى الحجـرة لنتحدث معا وليس من أجل النوم "

"ألا تجلسين إذًا على السرير ؟ إن عندى لك كثيرًا من الأسئلة . "

قالت خـوان لى تشينغ ضـاحكة وهى تجلس على سرير تشن بـوا : "أسئلة ؟ أهو امتحـان إذن ؟ " وقد أخذت تصفف شعرها بـيدها ، وهى ترتكز على الفراش وتحرك ساقيها المعلقتين خارج السرير بصورة طبيعية .

تناولت تشن بوا مقـعدا ، وجلست فى مواجهة خـوان لى تـشينغ ، وراحت تنظـر إلى وجـهها فى إمعـان واهتمام ، فقد بدت عند طرف عينيها تجاعـيد رقيقة جدا ، وبدا وجـهها مـصفرا ، كـأن شيئـا ما قد سـحب منه كرات الدم الحـمراء . وراحت تشن تحك ذقنهـا بأحد أصابعـهـا ، وردت خوان لى تشـينغ على تشن بوا بنظرات هادئة ودودة ، وهكذا اسـتخـدمتـا هذه النظرات بديلا عن التـحيـات التى تتبادلها صـديقتان افترقتـا طويلا، وعبرت كل منهما عن حيـاتها للأخرى من خلال هذه النظرات أيضا. نظرات تشـن بوا بريئة ، وادعة ، لكنهـا تتـقد حماسًـا ، أما نظرات خوان لى تشينغ فهى نظرات متسائلة وباسمة ، وبها شىء من الحصافة بسبب عمق التفكير.

وراحت خوان لى تشيغ تشد بيدها ملاءة السرير وهى تقول: "فيم تسألين؟"

"كنت سآتى إليك إذا لم تحضرى اليوم ، فعندى لك عدة أسئلة."

"ما هى ؟"

ابتسمت تشن بوا من فورها وراحت تداعب الزر الثانى فى معطفها بإبهامها وهى تقول : السؤال الأول ، لماذا كنت متأثرة بهذا الشكل وأنا أتحدث عن منظمة الحكم الذاتى أكثر من أى شىء آخر أقوم به الآن ؟ . . . . " وأضافت وهى تفرك أصابعها ، "لماذا أكون أكثر حماسًا وتدفقًا شعورياً عندما ألتقى مصادفة مع الرفيقات اللاتى كن معى معًا قبل التحرير . . . أتفهمين ما أقصد ؟"

عقدت خوان لى تشينغ يديها على صدرها وقالت : "نعم ، نعم أفهم ، أثناء دخولى مدرستنا سألتنى إحدى فتيات الطلائع ، "هل حضرتك طيار ؟ ،" إنهن يحلمن بكل ما هو جميل وهن فى غاية السعادة ، لكننى لا أحسدهمن على ذلك . أما نحن فقد ذقنا مرارة الحياة ونحن فى مثل أعمارهن ، وواجهنا بعض المصاعب والعقبات . إن النضال المرير يجعل الإنسان ينضج أسرع من الناحية المعنوية، ورغم أن ما فعلنا ، ليس إلا شيئًا قليلا ، إلا أنه أسدى لنا كثيرا من التجارب والخبرات . لقد فهمت كلامك على هذا النحو : تريدين أن نذكر إلى الأبد كل التعاليم التى تلقيناها ونحن نمضى أولى خطواتنا على طريق الثورة ، تلك التعاليم والمبادئ التى تجعلنا نتسم بروح النضال الحماسى سواء كنا فى ساحة الحرب أو فى معركة بناء السلام ، سواء عند اقتحام حصار البوليس العسكرى أو عند فرد الشعر بالمكواة (وراحت تداعب شعرها بيدها) . وبعد أن انتهت عادت تتم كلامها ، "وهذا ليس سهلا بطبيعة الحال."

وعادت تشن بوا تقول : "ولكننى متأثرة على نحو خاص . . . . "

وابتسمت خوان لى تشينغ "تأثرى كما تحبين "

"السـؤال الثانى ،ونهـضت تشن بوا ، واستـدارت برأسهـا "هل تكون هناك مـآسى إذا سلك الجمـيع مسـلكًا سليمًـا؟ ، وهل يمكن أن يتـسبب أحـد فى إيذاء الآخرين ، إذا كان الجميع فى خدمة بعضهم البعض؟"

ألقت خوان لى تشينغ نظرة ثاقبة على تشن بوا وسألتها: "أتتكلمين عن الحب؟"

التفتت تشن بوا وقالت فى شجاعة : "ربما ، وفى لحظة واحدة انطلق كثير من التعبيرات والتخمينات من أعماق خوان لى تشينغ فحركت عينيها وقالت:

"أيتها الشيطانة الصغيرة . . . . "

"لى تشينغ ! "تقدمت تشن بوا وأخذت تتحـسس ياقة قميص خوان لى تشينغ كأنهـا طفلة صغيرة وهى تقـول : "سوف أخبرك بكل شىء " لكنهـا لم تقل سوى كلمة واحدة . . . . تيان لين . . . . " وتوقفت عن الكلام.

وحينئذ كانت مشاعر خوان لى تشينغ كأنهـا هى نفسها تواجهها مفاجأة تذكرت ابن خالتهـا، تذكرت قوامه النحيل الطويل ، ونظارته البراقـة اللامعة ، نظرت إلى ضفـيرة تشن بوا التى كانت تتـأهب لضفرها وقالت مـرة أخرى : "أيتهـا الشيطانة الصغـيرة . . . . " ، سكتت تشـن بوا ونهضت من مكانهـا وأخذت تتـمشى ذهابًا وإيابًا.

تلاشت كل عـلامات عـدم الاستـقرار من على وجـه تشن بوا وراحت تنتظر جواب خوان لى تشينغ فى هدوء.

رغم أن خوان لـى تشينغ قـد تزوجت إلا أنها كانـت تشعر دومـا أن تشن بوا مازالت صغيرة شقية.

أما الآن فقد كبرت تشن بوا وأصبح لها حبها الخاص بها ، وأصبح لها أيضا همومها ومشاكلها الخاصة التى تشغلها . نعم ، من الطبيعى أن تكبر الفتيات وتنضج . . . .

ولا غرابة فى ذلك . غير أن خوان لى تشينغ لم تقدر ذلك حق التقدير ومن ثم شعرت أن "الوقت يمضى كالسيف !" بينما هى نفسها لم تشعر بهذا الشعور عند زواجها .

سألت خوان لى تشينغ وهى تستند بيدها اليمنى على بسطة النافذة وقدمها اليسرى ترتكز على حافة قدمها اليمنى: "ماذا حدث ؟"

قالت تشن بوا وهى لا ترغب فى أن تحكى لها شيئا : "أجيبنى على سؤالى."

فكرت خوان لى تشنيغ طويلاً، ثم قالت : "إن أسئلتك من نوع تجريدى مثل تلك التى كان يطرحها أفلاطون على سقراط . . . . ماذا قلت ؟ . تتحدثين عن السلوك الصحيح والمآسى . . . . . إن الحياة مستمرة وتمضى بعيوبها وطموحاتها، ومن الممكن ألا يلقى السلوك الصحيح قبولاً كبيراً عند الناس ، وخاصة الحب الأول مثل أبيات الشعر الأولى ، وإن الدموع فى كثرتها مثل الابتسامات ، "وتنهدت تنهيدة طويلة" "ولكن ،لا بأس أن تفتحى ذراعيك للمرح أينما وجد فهو يجعلك أكثر سعادة وإذا وجدت العقبات والمآسى ، عليك أن تتزودى بالصبر وتتغلبى عليها، فذلك يجعلك أكثر عزيمة وصلابة ثم تكبرن وتنضجن شابات يافعات ، شقيات. . . ."

" لم تكملى إجابتك بعد ، " ولم تكن تشن بوا تستمع إلى كلمات خوان لى تشينغ فحسب ، بل كانت تمتصها بقلبها وعقلها كما يمتص الإسفنج المياه.

"لم أكمل إجابتى ؟ " وفكرت خوان لى تشينغ ثم قالت ، "آه ، آه، لقد ذكرت إيذاء الآخرين ، أى إيذاء ؟ إننى لا أفهم ما تقصدين ، دعينى أقولها

صريحـة إننى أرى أن لحسن النية نـتائج طيبـة دائما مهـما كانت تتـحقق عن طريق متعرجة . . . . "

"السؤال الثالث - إن أسئلتى كثيـرة - بقول الناس إنى أتسم بالتعقل إلى درجة كبيرة ، فماذا ترين ؟ "

"تعقل ؟" وكررت خوان لى تشـينغ الكلمة ، ثم سحبت الكرسى إلى مكان سريرها القـديم عندما كانـت طالبة وجلست عليه هناك وأمـالت رأسهـا على مسند الكرسى الخلفى ، ثم سلبت عينيهـا وراحت تنظر إلى سقف الحجرة ، ثم تنظر من النافـذة على المبنى الجـديد. ثم رفعت رأسـهـا وسألت فـجـأة : "كيف إن سـقف حجرتكن بهذا الارتفاع ؟ "

سألت تشن بوا مستوضحة "ماذا تقولين ؟ "

"إننى أسأل ، ألم يتم تشيـيد هذه الحجرة من جديد ؟ إن السقف يـبدو أكثر ارتفاعًا من ذى قبل. "

"نعم لقد أجـريت عمليات ترميم ، ودهان الحـوائط ولصق السقف بالورق ، وتم تغير زجاج النوافذ، ولكن ارتفاع السقف كما هو لم يتغير . "

أمعنت خوان لى تشنيغ النظر طويلاً من جديد ، وقالت:

"ربما أكون أخطأت التـقدير ، لكنى أشعر كأن السـقف أصبح أكثر ارتفاعًا . فقد كـان منخفضًا أيام كـنت أقيم هنا فى هذه الحجرة ، كـأنه يطبق على صدرى، وربما كان ذلك بسـبب ضعف الإضاءة ، وعدم شـفافيـة الزجاج فى ذلك الوقت . إنها حجرة غريبة ، فعندما كـانت تهب الرياح فى الشتاء ، كان بابها يصدر أصواتًا كأن هناك من يبكى خلفه ، وعندمـا نستيقظ من النوم نجد وجوهنا قد غطتـها طبقة من التراب. "

تساءلت تشن بوا فى دهشة "أصحيح هذا الكلام ؟ وكيف لم يحدث ذلك فى حجرتنا أبدا فى هذه الأيام؟".

"حقيقة لم يحدث ؟" سألتها خوان لى تشينغ فى دهشة هى الأخرى ، وأضافت "هل أخطأت ؟ لا ، ليس كذلك ، دعينا من هذا ، فقد أصبحت ذكرياتى عن هذه الحجرة وعن المدرسة كلها ذكريات قديمة ، ولا طائل من ورائها، ولنعد إلى حديثنا عن العقلانية . فإن أسئلتك المجردة الشاردة هذه تجعلنى أتميز من الغيظ . وأود فقط أن أقول لك رأيا فى ذلك :

" إن السعادة التى تتفق مع العقل والمنطق ،هى فقط السعادة الحقيقية قوية البنيان .

إتسعت عينا تشن بوا ، واستندت بيدها على السرير من خلفها كى تحفظ توازن جسمها المائل ، وكأنها استمعت إلى أنشودة جميلة . وما هى إلا لحظة ، حتى هزت رأسها وجلست ، وقالت وهى تنفض التراب عن طرف ثوبها:

"أما السؤال الرابع فهو خاص بك ، ويتجسد فى شخصك."

ردت خوان لى تشينغ وهى تشير إلى نفسها دون أن تدرك الكلام "خاص بى أنا ؟ "

"خوان لى تشينغ ، أجيبينى ، لماذا تزوجت ؟"

وارتبكت خوان أمام هذا السؤال ، فهى لم تكن تتوقع أبدًا أن يطلب منها أحد أن تعلل زواجها ، فحتى الرفيق المسئول عن تسجيل حالات الزواج فى حكومة الإقليم لم يسألها عن ذلك. ومن ثم قالت : "ما هذا السؤال . . . . . . "

عبرت لها تشن بوا عن رأيها فى صراحة وسذاجة قائلة:

"أعتقد أنك ثورية محترفة . . . . . ."

ردت خوان لي تشينغ ساخرة في سرعة "ألا يمكن أن أتزوج وأصبح عروسا محترفة؟ ، ثم اقتربت من تشن بوا في ود وإخلاص واستطردت تقول : "الرفيقة العزيزة طالبة الثانوية ، إنك مازلت فتاة صغيرة ! ثم قالت في لهجة قاطعة ، انظري إليّ مازلت على الدرب . وشكرا لك ، فأنا أعرف خوفك من أن يتغير أسلوب حياتي بعد الزواج ، وإن الأمر لا يسلم من وجود مثل هؤلاء الرفيقات ، لكني لست كذلك ! قالت مؤكدة ثم أردفت في لهجة لا تخلو من الجد والهزل معًا : وربما كنت قد صرفت النظر عن هذه الزيجة ، إذا جاء سؤالك هذا مبكرا بعض الشيء .

ثم ابتسمت ابتسامة ماكرة .

عندما كانت لي تشينغ تغادر مدرستها الأم ، كانت هناك آلاف المصابيح المتلألئة مثل النجوم في السماء . وتزاحم الأساتذة والطالبات على الباب يودعون الخريجات في حرارة ، بينما مازالت الخريجات اللاتي بعدن عن المكان تلتفتن ملوحات الأيدي. تشعرن بمشاعر الدفء والوفاء تملأ قلوبهن ، وهن يقضين هذا الوقت القصير في مدرستهن الأم بعد أن تركنها بسنوات عديدة . خرجن جميعًا معًا في بادئ الأمر، ثم تفرقن شمالا وجنوبا بعد خروجهن من الحارة . . . .

وتفرق مَن إتجهن جنوبا مرة أخرى عند مفترق الطرق ، وفي النهاية سارت كل منهن في طريقها في ليالي شهر مايو ، تنتشر رائحة أزهار البرقوق في كل مكان ، تلك الزهور البسيطة الصغيرة التي ينبعث منها عبير أكثر عبقا من روائح زهور الفاونيا والورد البلدي. وتتساقط الأزهار التي نضبت رائحتها على جانب رصيف المشاة ، ثم تدحرجها الرياح الجنوبية فيستقر بها المقام أسفل الحوائط والجدران ، أو تنتظر حتى يكنسها ويحملها عمال النظافة في اليوم التالي . السماء تبدو صافية ،

والجو عطرا مشرقا ، ويبدو المشى فى هذا الجو مثل سباحة الأسماك فى الماء، الفتيات يرتدين القمصان ذوات الأكمام القصيرة والتنورات القصيرة أيضا، بشرتهن النضرة المعبرة عن الصحة تلمع وتبرق فى ضوء المصابيح المتلألئة ، وكانت خوان لى تشينغ تقطع الطريق وهى تفكر فى تشن بوا ، وتفكر فى صداقة وحب الأيام الخوالى ، تذكرت قو مينغ ، وتذكرت يوم أن ركبت معه القارب ذات مرة، وأغلب الظن أن ذلك كان فى أحد أمسيات مايو أيضا ، وطيور الماء تطير فوق صفحة البحيرة على ارتفاع منخفض ، وقومينغ يعمد إلى الإبطاء فى التجديف ، يريد أن يتحدث فى شىء ما ، لكن لى تشينغ لا تدع له الفرصة ليتكلم ، بل تحثه دائما أسرع ، أسرع ! ومن ثم راح قومينغ يجدف بسرعة كأنه أصابه الضيق والضجر ، وقد أغرق نفسه بالماء ، ونفس الحال بالنسبة إلى خوان لى تشينغ ، وبعد أن انتهى التجديف، راح يلتقط أنفاسه اللاهثة ، وأرخى قومنيغ يديه ، وقد تشبعتا برذاذ الماء، وسألها : "أتخافيننى ؟"

فهزت خوان لى تشينغ رأسها ، لكنه قال : "لكنى يساورنى بعض الخوف منك . " . . . .

قدم رجل عجوز يضع على رأسه قبعة قديمة من الخوص، ويحمل فى يده سلة مليئة بالفراولة الحمراء، اشترت منه خوان لى تشينغ بعضًا منها ، فهى تحب أكل الأشياء ذات الطعم الحامضى ، انقضى أسبوعان على خروج قومينغ فى رحلة عمل فى الجنوب ، وأحست خوان لى تشينغ فجأة ،ولأول مرة ، بالاشتياق الشديد له ، وشعرت بالحب الملتهب الذى كانت تشعر به كثيرًا قبل الزواج ، والذى قلما تشعر به بعد الزواج تذكرت خوان لى تشينغ حالة الغثيان التى أصابتها اليوم ، فقد ولد اليوم داخل أحشائها الشابة مخلوق صغير عجيب ، إنه منها ومن قومنيغ.

"أيا شباب . . . . " ووقفت خوان لى تشينغ لحظة تحت إحدى أشجار البرقوق وهى تستمع إلى دقات قلبها.

لكنها لم تطل فى الفكر والتأمل مثلما يفعل الشعراء وفى النصف الثانى من طريق عودتها إلى البيت ، أخذت تفكر- بصفتها إحدى الكوادر السياسية - فى كيفية التحدث فى اليوم التالى على انفراد مع أحد الكوادر الذى يجد الآخرون صعوبة فى توجيه النصح إليه .

(٣٠)

وبعد ظهيرة يوم السابع من مايو، تم إعلان نتائج المشتركين فى جميع مسابقات يوم "الرابع من مايو " وأقيمت مراسم توزيع الجوائز وقد لقى فريق الصف الثالث هزيمة ثقيلة. (فقد مرضت "لاعبة الارتكاز" فارعة الطول فى الفريق ولم تشترك فى المباراة) وقد فاز فريق الغناء الجماعى "الكورال " بالمركز الثالث على مستوى المدرسة، وفى حقيقة الأمر لم يشترك فى هذا السباق سوى سبع فصول ، غير أن هذه النتيجة تعتبر نتيجة طيبة بوجه عام.

ويرى الجميع - وفقا للتقييم - أن مضمون خطبة لى تشون كان غنيا خصبا ، وكان صوتها مجلجلا ، ونبراتها طبيعية ، ولكن أستاذ مادة السياسة ، أشار بقوله : لقد اختلطت عليها بعض الأسماء على نحو مربك ، وأشار أستاذ الفيزياء أنها أفرطت فى استخدام المعلومات العلمية مع الافتقار إلى ترتيبها على النحو الملائم ، وعلق أستاذ اللغة قائلا: "إن الأسلوب أميل إلى الصبغة الغربية !"

ومن ثم قرروا منح لى تشون المركز الثانى فى مسابقة الخطابة.

وعندما سمعت لى تشون أن اسما غير اسمها يحتل المركز الأول، "دارت" رأسها ، حتى كادت تفكر فى التسلل من مكان مراسم توزيع الجوائز . وجاء اسمها فى المركز الثانى، لم يبد عليها شيء من مظاهر الحزن أو السعادة، تسلمت الجائزة ، إنها "دفتر يوميات ملون" يتسم بالدقة والروعة ، لم تنظر إلى الجائزة ، لم يصل شعورها إلى الإحساس بالسعادة ، ولم ينحدر إلى الإحساس بخيبة الأمل . ولكنها انتظرت حتى عدن إلى الفصل ، وراحت تتلقى التهانى الحارة من الزميلات. واستقبلنها جميعا بالتصفيق هى وسونينغ ، وقامت يوان شن تشى بمصافحتها نيابة

عن مجلس الفصل، وقالت : "هذا شرف عظيـم لفصلنا" . وعادت سونينغ تحمل عَلَمًا صغيرا من القماش ، وفي حقـيقة الأمر إن هذا العلم مصنوع من القماش ذي اللون الأحمر ، ليس جميلاً ولا هو غالي القيمة ، ولكن الزميلات أسرعن ووضعن دكـة فوق الأخـرى وصعـدن فوقـهـا وعلقن هذا العلم في أبرز مكان على حـائط الفصل. تصفحت جـميع الزميلات دفتر يوميـات لي تشون الملون ، وقلن إنه دقيق ورائع الجمال.

وقالت إحدى الزميلات : "سوف أذهب غدا لأشترى واحدا" .

وردت عليها أخرى وهى تمط شفتيـها ، وماذا يعنى أن تشترى واحدا؟ إن هذه الجائزة ذات مغزى غير عـادى !" ووسط هذا الجو ، بدأت لى تشون تنتعش وتشعر بالسعادة شيئا فشيئا ، وراحت تفكر فى نفسها : "إن الأمر ليس بسيطًا ، فهن يقلن إننى حقـقت للفصل إنجازا مـشرفا !" ومن ثم دست يدها فى جـيب سروالها كـما يفعل الشبان.

وكـانت تشوشـيا ولينـغ هى وحدها فى حـالة يرثى لهـا ، فلم يعرها أحـد اهتمامًا، سمعت واحدة تسأل "وماذا عن فريق كرة السلة ؟" فردت عليها الأخرى: "لا تحدثينى عنه" . ومن ثم توارت خلفهن وهى تشهد سونينغ باسمة الثغر ، ولى تشون السعيدة المبتهـجة، وقد راحت تعض بأسنانها على قلم رصاص كان فى يدها كأنها تعض على عود مغلف بحلوى قـوانغدونغ الشهيرة [١] ، اسود لسـانها من أثر الرصاص ، وتركت أسنانها أثرا عميقا على قشرة خشب القلم الجديد.

وبعد أن حيتها كل الزميلات ، وجـهت لى تشون التحية إلى تشيانغ يون قائلة لها ، "من قبيل المصادفة أن عمى قد أرسل لى شـيئا من المال ، هيا بنا نشترى شيئا نطعمه . وشكرا لك ، فقد أسديت إلىّ كثيرا من العون فى الخطابة هذه المرة. "

(١) عصا ملفوف حولها حلوى مخلوطة بسكر الشعير .

دخلتا إلى محل الفكهانى ، سألتها لى تشون : "ماذا تحبين ؟ "

اليوم نشترى وفقا لرغبتك ، وكان هذا السؤال محيرا وليس من السهل الإجابة عليه ،ذلك لأن تشيانغ يون ، سبق أن قالت أحب تناول كل ما يمكن أن نأكله، "راحت شيانغ يون تجوب بناظريها كل صنوف الفاكهة المجففة والطازجة، تريد اختيار نوع رخيص الثمن، حتى وقعت عيناها فى النهاية على نوع كانت تأكله كثيرا وهى صغيرة قبل أن تلتحق بالمرحلة الابتدائية : الفشار [١]

فأشارت نحوه قائلة : "أحب هذا الفشار" قالت لى تشون للبائع ، "أعطنى بخمسة ماو [٢] فأخذته الدهشة حيث يأتى إليه الأطفال الصغار فى العادة للشراء بواحد فن أو بفنين، فكيف لهما إذن أن تشتريا بخمسة ماو ؟ وعادت لى تشون تكرر : "أعطنى بخمسة ماو " فأتى البائع بكيسين كبيرين من الورق ، يصل حجم كل منهما إلى نصف حجم كيس الدقيق ، وملأهما بالفشار، وحملت كل من تشيانغ يون ولى تشون كيسا بين يديها وخرجتا من المحل.

وقالت لها تشيانغ يون وهى تضحك " يالك من مجنونة ، كيف تشترين كل هذا ، الكيس لا يمكن أن تقبض عليه يد واحدة ، وليست لنا من حيلة لتناول هذا الفشار ! "

لم تستخدم لى تشون يدها ، بل راحت تمد رأسها وتلتقط الفشار بفمها من الكيس ، وهى تشير إلى تشيانغ يون : هكذا يجب أن تأكلى ، فقالت تشيانغ يون: "علينا أن نتجنب المسير فى الشوارع الكبرى بأسرع ما يمكن ، وإلا فسيعتقد الآخرون أننا باعة فشار" .

(١) حب الذرة الجافة يشوى حتى يتفتق .
(٢) الماو = عشرة فن = عشرة قروش مصرية .

ردت لى تشون قائلة فى غير وضوح وهى تمضغ الفشار : "إننى هكذا دائما ، إذا أردت الشراء أركز على شراء شىء واحد ، بخلاف ووتشانغ فو التى يمكن أن تشترى بالماو الواحد عشرة أشياء ، كل فن واحد تشترى به شيئًا مختلفا" .

رغم أن الفشار كان كثيراً ، إلا أنه تناقص بسرعة ، فقد أكلنا بعضه ، ووضعنا ما تبقى فى جيوبهما ، وأفرغنا أيديهما. سألتها تشيانغ يون " ألست سعيدة بنجاحك فى مسابقة الخطابة ؟" .

لم ترد لى تشون ، وراحت تقذف بحبات الفشار من يدها إلى فمها واحدة تلو الأخرى حتى يمتلئ ثم تمضغه وتأكله دفعة واحدة . وسألت تشيانغ يون : "ألا يمكن أن أكون سعيدة بذلك ؟" .

وأخذت تشيانغ يون تنظر إليها فى تساؤل وريبة.

عاجلتها لى تشون قائلة : "أعتقد أن كل شىء يبدو جميلا رائعًا . الفوز بالمركز الثانى فى مسابقة الخطابة ، بل والحصول على جائزة ، ومصافحة يوان شن تشى نيابة عن مجلس الفصل ، وحبة الكمثرى الكبيرة التى أعطيتنى إياها ،وأيضا الفشار الذى نأكله الآن معًا . كأن المناخ العام قد تغير ، ولقد كنت أكثر طالبات الفصل أسى وسوء حظ فى العام الماضى ، وكنت شخصية منبوذة مكروهة وخاصة من جانبك . وطلب إلىّ أن أقوم بعمل النقد الذاتى فى اجتماع اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة .

وكلما تحدثت عن شىء كنت تقومين بدحضه وتفنيده . . .
. . . .

وفى إجازة الشتاء ، تحدثت مع الأستاذ يوان ، وفكرت : ما العمل ؟ وماذا يحدث لو أننى قومت جوانب النقص عندى؟

ثم بدأت أصحح نفسى ، وتحسنت مـعاملتكن لى أيضًا ، كأنكن رأيتن أنه إلى جانب نقائصى التى تستحق النقد أصبحت أتحلى ببعض من المميزات.

وقد اجتـهدت فى دراستى كالعـادة . ولم تعد تصدر عنى تصرفـات لا تحترم الآخرين. وأصبحت رئيسًا لجمـاعة الفيزياء، ودبت فى نفسى روح النشاط والعمل. وطلبتن منى الاشتراك فى مسابقة الخطابة، فبـذلت كل جهدى فى الاستعداد لها. أيمكن أن أكون بذلك قد حققت تقدمًـا أكيدًا، وراحت تنظر إلى تشيانغ يون نظرات استفزازية .

توقفت تشـيانغ يون عن أكل الفشار . سـرعة رد فعلها ليست مـثل لى تشون التى تنقلت بين الحـديث عن المركـز الثانـى فى الخطابة ، والفشـار وغـيرهمـا من الموضوعات الأخرى. استندت إلى أحد أعـمدة الإنارة ووقفت تنتظر حتى تنتهى لى تشون من الكلام.

مازالت لى تشون تـقذف بحبات الفشـار فى فمها واحدة تلـو الأخرى بطريقة آلية، واسـتطردت تعزف على الوتر الحسـاس قائلة: "لن تجدن سـبيلاً إلى تغيـيرى قسرا، وإذا نشدتن هذا التغيير عليكن أن تنتظرن حتى أفعل بنفسى ، فإذا أردت أنا، حدث على نحو طيب وبصورة طبيعية . "

"ويمكننى أيضا إذا كنت سعيدة أن أقدم شيئا من أجل الجماعة. "

" وإن مسـابقـة الخـطابة فى حقيقة أمرها ليست بالحدث الخطير ،وقد أثارت جماعة الفيـزياء فى نفسى شوقا ومتعة كبيرة ، وقـد أصبحنا على وشك الانتهاء من تجميع جهاز الراديو الخاص بنا !"

واصلتا السيـر ، وأخرجت تشيانغ يون من جيبـها حبة فشار وقرضـت نصفها وهى تقول : "ماذا حدث ؟ كنت أعتقد وأنا صغيرة أن هذا الفشار هو ألذ شىء فى الدنيا ، بينما لا أشعر بلذة كبيرة وأنا آكله الآن".

وعادت لى تشون تقول بصراحة " ربما كـان الشجار الذى دب بيننا فى الفترة الدراسية الماضية- كما قال أستاذ اللغة- نقطة سوء فهم فى عمل غير متقن ؟ " .

وألقت تشـيانغ يون بنصف حـبة الفشـار المتبـقية عـلى الأرض ، وهى تجوب تشيانغ يون بناظريها من أعلى إلى أسفل وسألتها : "ماذا دهاك؟" .

ردت لى تشون وهى لا تفهم ما تقصده "لا شىء " .

" إننى فى شوق إلى معرفة الدور الرائع الـذى لعبته "أجندة المذكرات " الملونة ذات الغـلاف المزركش بالنسبـة لروحك المعنوية . . . . . . ولا يأخـذك الغضب ، فأنت التى بدأت . إننى أوافق على أنه يجب علينا أن نكون يدا واحدة ، لقد كانت هناك بعض التجاوزات من جانبى فى الماضى، وأنا أعترف بذلك ، ولكن هناك نقطة ، وهى أنك تفتقرين إلى ذلك القلب المفعم بالمشاعر النبيلة الحقة وبحب الآخرين ،وهذا ليس سـوء فهم ، فالقلب لـيس من السهل التعـرف على أسراره ، ولكن لا يمكن إخفاؤها أيضـا ! فإذا كنت تفعـلين شيـئا من أجل الجـماعة ظاهريا فقط دون أن تحبى هذه الجـماعة ، هل تعتقدين أنه يمكن الاعـتماد على هذا اللون من الإيجابية؟

وهل تظنين أننى لن أتشـاجر مـعك ؟ بل انتظرى ، ولا تأخذك الطمـأنينة إلى هذا الحد ! "

أحنت لى تشون رأسها ، فلم تكن تتوقع أن تتكلم تشن بوا عنها بهذه الطريقة حتى ذلك الوقت ، قلب مفـعم بالمشاعر النبيلة الحقـة؟ إن منهج لى تشون الفكرى بسيط للغاية ، فهـى تعتقد أن توجيه النقد إليـها شيئًا مثيـرًا للأسى ، وأن حصولها على جائزة يبـعث على الارتياح . . . . وقد شـتتت كلمات تشـيانغ يون هذه أفكار تشن بوا المتواضعة البسيطة. ثم أدركت : إنها لم تحقق هذه النـتيجة البسيطة المتـواضـعـة فى مـسـابقـة الخـطـابة إلا بمسـاعـدة الزمـيلات . وعـلى وجـه

الخـــصوص يانغ تشيانغ يون ، ومن ثم فإن الكلام غير المســـئول الذى ذكرته على مسامع تشيانغ يون هو فى حقيقته ليس كـــلاما أمـــينًا . . . .

"حسنا ، آمل أن تشـتمينى ، " ومـدت لى تشون يدها إلى تشيـانغ يون وقد كست وجهها ابتسامة.

"ماذا تفعلين ؟ أتعلنين الحرب ؟"

أومأت لى تشون برأسها ، وتصافحـتا وأكلت تشيانغ يون الفشار مـع لى تشون حتى آخر حبة ، أكلتا منه حتى امتلأت بطونهما ، وعندما عادتا لم يتناولا سوى قليل من الطعام فى وجبة العشاء.

انتهين من أداء الواجبات المسائية ، ولـم يعد هناك سوى نصف ساعة على موعد النوم ، عنابر النوم بهـا ضجيج وعـجيج، الجـميع ينشغل بفـرش الملاءات وتنظيف الأسرة ، وغسيل الأقدام، اصطحبت تشن بوا تشيانغ يون وخرجتا معًا إلى الملعب.

كانت إحدى الليالى الأولى من فصل الصيف ، النجوم تنتشر بكثرة فى صفحة السماء، ويمـكن رؤية الشرر الأزرق الناتج عن احتكاك سارينة التـراموای فى الأفق الأدنى ، وكـأن هناك سحـابة سـاحرة من الضـبـاب تسبح فى الـفضـاء. أغصـان الصفصاف الكثيفة تتراقص فى دلال وخـيلاء مثل الأمواج ، وتبدو فى الظلام كأنها شعر فتاة حسناء ،جلست تشن بوا تحت الشجرة ، ووقفت تشيانغ يون إلى جوارها، قوائم كرة السلة أمـامها تبدو أكثر طولا ، مـنتصبة كأنها أقـواس النصر ومن إحدى الحوارى الصـغيـرة يصدر صـوت بائع أطعمـة الليل الخفيـفة وهو ينادى : "الفـطير الملدن" ، وبعد يوم عـمل ، حمل البواب دلوا مليـئا بالماء وقدم من إحـدى جنبات إحدى جبنات الفناء وهو يغنى فى سعادة وبطريقة عفوية :

" الجواد ينطلق خارج حدود شى ليانغ . . . .

الدموع تسيل على الصدور،

تلقائيا من حين إلى حين . . . . . . "

اقترب منهما وألقى عليهما التحية قائلا : "تشن الكريمة ، ألم تنامى بعد ؟"

ويعبر استخدام كلمة "كريمة" عند مخاطبة طالبة عن تقدير واحترام كبيرين.

وكانت تشن بوا تسند بقبضتى يديها على خديها فى خفة وهى ترقب النجوم فى السماء وتنصت إلى كافة الأصوات الصادرة فى المساء لوقت طويل دون أن تتكلم .

قالت لها تشيانغ يون فى اهتمام وجلد "تكلمى"

فردت تشن بوا كأنها تتلو عن ظهر قلب "أفكر فى أن أكتب خطابا لتيان لين"

حبست تشيانغ يون أنفاسها .

وأضافت تشن بوا وهى تنظر إلى تشيانغ يون فى ود وصدق ، وكأنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا بموافقتها : "أريد أن أقول له ، أستأذنه . . . . فى ألا يأتى لزيارتى مرة أخرى" .

طار خفاش من فوق شجرة صفصاف بسرعة البرق دون أن يترك وراءه أثرا.

سألتها تشيانغ يون وكأن قلبها بدأ يستشعر شيئا فشيئا "كيف ؟ ولماذا ؟"

لم تجبها تشن بوا.

قفزت إلى مخيلة تشيانغ يون صورة تيان لين الذى اغرورق بمياه المطر ، فأصبح مثل الديك البلدى الذى يسقط فى الحساء ، وسألتها: "هل هو شاب سيء ؟

"لا ، بل هو شاب طيب"

"هل دب بينكما شجار؟

"لم يحدث "

"ماذا لا يعجبك فيه ؟"

"لا يوجد فيه مالا يعجبنى "

"لماذا إذن تريدين ذلك؟"

أحنت تشن بوا رأسها ، ولم تجب . قطفت تشيانغ يون ورقة صفصاف ، ولفتها على شكل صفارة صغيرة، ووضعتها فى فمها وأخذت تنفخ فيها.

لوحت تشن بوا بيدها فى غير عنف قائلة "كفاك صفيرا . . . ."

قالت تشيانغ يون وهى فى حيرة "إننى لا أفهم شيئا . لكننى أشعر أنك على حق" .

قبضت تشن بوا على يدى تشيانغ يون فى تأثر شديد

وفيما يلى نص خطاب تشن بوا لتيان لين:

" الرفيق تيان لين :

كان يجب أن أبكر بكتابة هذا الخطاب ، وإرسال التحية إليك ، والتفكير مليا فى مثل هذه الأمور ، لكنى لم أستطع ، لذلك فقد أخطأت.

لقد سعيت إلىَّ بصدق وشفافية ، ولم أتأثر من قبل مثلما تأثرت بذلك - لقد ترك قلبك الطيب الذى لا تشوبه شائبة فى نفسى أثرًا لن ينمحى طيلة عمرى، ولا يمكن أن أسامح نفسى إذا سببت لك حرجا .

لقد أدركت من مجريات الأمور شيئا فشيئا قولك لى :

"فكرى جيدا أيتها الفتاة الصغيرة الساذجة ! "

مازلت صغيـرة ساذجة ، وقد كانت كلماتك هذه لى أثناء عـودتنا من احتفال مساء يو م "أول مايو " ، رغم إنها كانت مقـتضبة ، إلا أننى فهمتها تماما . ومن ثم كبحت جـماح نفسى ، وفكرت بتأن وعمق شـديدين ، وتأكدت أن ذلك الأمر ليس ممكنا.

فإننى مـا زلت فتاة صغيـرة . وقد أضاعت على صـعوبات وعقبات المجـتمع القديم عامين دراسيين ، وقد التحـقت هذا العام فقط بالصف الثالث الثانوى . وقد بدأ مد البناء العظيم لتوه فى الـبلاد ، والتى تتطلب من الشباب مساهمـات لا مثيل لها ، بينمـا معارفى لا تزال فـقيرة محـدودة تدعو للرثاء ، أشعـر أننى سأظل دون المستوى بكثير حتى إذا انكببت على الـكتب أربعًا وعشرين ساعة فى اليوم ، فكيف يمكننى إذن أن أنصرف الى غير ذلك من الأمور .

نـعم ما زلت فـتـاة صغيـرة ، لم تتفتح زهور حـياتى بعد ، تيـان لين ، ماذا ترانى فاعلة ؟ إننى لا أستطـيع تحديد دورى فى مستقبل الـبناء الاشتراكى العظيم ، هل أذهب للتنقيب عن المعادن فى المناطق الواقعة على الحدود ، أم أبحث فى بتلات الزهور تحت المجهر المكبـر ؟ هل أرتدى بالطو الطبيبة الأبيض ، أم أمسك الممـسحة بيدى لأنظف السبورة ؟ كل ذلك غـير محدد ، وكل ما أفعله مجـرد استعدادات ، هل يمكننى أن أحدد شيئا ما فى مثل هذا الوقت ؟

لقد اكتشفت خلال الفـترة القصيرة التى اختلطنا فيها معـا أنك أكثر منى نضجًا بمراحل لا تقدر، وأنك "رجل" حنكتك الحياة وتنقلت بين أمـاكن كثـيرة ، بيـنما لا يتوفر لدى شىء من ذلك .

لقـد شعـرت منذ البداية أن مـا بيننا من تفاهم قد تجـاوز كل المراحل ، ولكن هل يمكن أن يكون ذلك كافيا ؟ وكيف يمـكن إذن إرضاء جوانب التفاهم الروحى إذا كنت جادا صارما ؟

أستحلفك بكل غال ، ألا يأخذك الحزن وأن تصفح عنى !

وأن تلقى بكل شيء خلف ظهرك وتتقدم نحو الأمام ، فأنت جندى جسور شجاع وطيب القلب حسن الطوية . ودعنى أقولها بصراحة إنك - من وجهة نظرى - لست شخصا عاديا ! وإننى على ثقة من أنك ستحقق نتيجة رائعة. وحينذاك ، هل يمكن ألا أشاركك الفرحة ؟ لا ، بل سوف أشاركك.

ولن أطيل عليك فى الكتابة ، فأنت ذو عزيمة صلبة .

وقد كنا ومازلنا وسنظل أوفى صديقين ، وستمضى السنون والأيام ، وتبقى الصداقة الخالدة صامدة فى وجه الزمان.

ولا عليك ، فالحياة سوف تحنو علينا بدفء جناحيها الطويلين القويين ولن تتركنا فريسة البرودة والوحدة أبدا.

وإلى لقاء ! " **تشن بوا فى التاسع من مايو**

وبعد عدة أيام من تلقيه الخطاب ، اتصل تيان لين هاتفيا بتشن بوا ، طالبا إليها أن تذهب إليه مساء يوم السبت.

حلق تيان لين شعره ، وذقنه ، واستحم ، ولبس آخر ما اشترى من الملابس . وظل طيلة ظهيرة يوم السبت مشغولا بتنظيف مكتبه ، وأحضر مقعدا جديدا من قسم الشئون العامة ، وبعد تناول العشاء ، خرج لشراء الشاى والفاكهة.

دخلت تشن بوا إلى مكتب تيان لين الذى استقبلها بأدب جم ووجه مشرق متهلل كما يستقبل أى صديق يأتى لزيارته. جلست تشن بوا على المقعد الجديد، وأدهشتها درجة نظافة الحجرة. على الحائط صورة مدرسة وبعض فتيات الطلائع ينظرن إلى نموذج للكرة الأرضية ، خلفية الصورة عبارة عن أشجار ضخمة فى

فصل الصيف ، وبنظرة أبعد ترى الأرض المقسمة أفقيا ورأسيا ، ويعلق إلى جوار الصورة تمثال نصفى من الجص لـ "لوشون"[1] .

وأسفل لوح الزجاج الموضوع على المكتب يوجد جدول الاجتماعات وصورة أخذت من الجنب لتيان لين عندما كان فى الجنوب ، وورقة انتزعها من يومياته مكتوب عليها من أشعار لوشون:

" الشوق إلى الثورة الديمقراطية ملء القلوب والعقول ،

الأنواء والأعاصير تجتاح الوطن الكبير .

الشعب يئن من ظلام العبودية وظلم الإقطاع،

وأنا بروحى ودمى أفديك يا بلادى " .

أحدث المكتب البسيط لديها نوعاً من الشعور بالراحة والسعادة.

ولاحظت تشن بوا أن تيان لين انتهى لتوه من تنظيف هذه الحجرة بعناية شديدة، غير أنها لاحظت أيضا أن تيان لين ليس "ربة بيت " ممتازة ، فقد مسح الزجاج بقطعة قماش مشبعة بالماء، فسالت عليه خيوط الماء الوسخ ، وكذلك لم ينفض الأتربة من أركان الحجرة . فابتسمت تشن بوا .

"إن مكتبك جميل للغاية"

"شكرا على هذه المجاملة " وابتسما معا ابتسامة خفيفة.

وراح تيان لين يتحدث مع تشن بوا حديثا عفويا باسما وكأنه لم يحدث بينهما شيء مؤثر ، كان يخفى مشاعره بحيث لا يظهر عليه أثر لشيء ، وبعد لحظات ، تعجبت تشن بوا من أمره أيمكن أن يكون قد استدعانى فقط لتبادل بعض عبارات ضاحكة ؟

(١) لوشون هو أعظم مأديب ومفكر فى تاريخ الصين الحديث ، ولد عام ١٨٨١ ، وتوفى عام ١٩٣٦ .

ثم سألته تشن بوا : "هل وصلك خطابى؟"

رد تيان لين وقد غطى الوجوم وجهه "نعم ،تلقيته"

"وأنت . . . . هل أنت سعيد هذه الأيام ؟"

"لا ، ولست حزينا أيضا"

"قالت تشن بوا متوسلة " ولم لا تكون سعيداً ؟"

نظر تيان لين إليـها دون أن يحرك ساكنا ، تشن بوا ترتدى بنطلونا قصيرا ذا فتحة ضيقة تبين عن بطن قدمها الدقيق النحيل . وتبدو أصغر سنا . وكان تيان لين يحاول أن يعمق هذا الانطباع فى قلبه وهو ينظر نظرات مليئة بالحب إلى تشن بوا الصغيرة ذات السروال القصير فهو يدرك أنه ربما لا يلتقى بها كثيرا بعد ذلك . لم يعد بمقدوره النظر إليها مرة أخرى لأن الدموع حارت فى مآقيه .صب لها الشاى،وأحضر الفاكهة.

"ماذا تفعل ؟ . . . . . . " واعتذرت تشن بوا عن تحيته فى أدب ، وفى نفس الوقت احمر وجهها وهى تخرج من الكيس بضعة أصابع من الموز ،وهى تقول له فى أسف : "لقد أصاب العطب بعضها . هل تأكل ؟" .

"شكرا لك ، وأخذ تيان لين الموزة منها ، وقشرها وقضم منها قضمة ، وقال وهو يحكم وضع نظارته:

"قرأت خطابك ، وليكن لك ما تريدين ، شكرا لك ، وأرجو ألا تلقى علىّ باللوم . . . . . . "

"أنا لن ألومك . . . "

كانت لهجة تيان لين فى الحديث هادئة ، وهذا ما لم يحدث من قبل أثناء لقائه بتشن بوا ، وبعد أن أنهى كلامه ، أشعل سيجارة ، وراح ينفث الدخان فى الهواء

فى ضيق وغضب ، تذكرت تشن بوا عندما التقت به لأول مرة أثناء زفاف خوان لى تشينغ وهى تحـاول أن تثنيه عن التـدخين . والآن عاد تيان لـين يدخن من جديد ، ولكنها لا تحاول منعه من ذلك.

سألت تشن بوا نفسها ، يخامرها شعور ثقيل على النفس

"لماذا يبدو تيان لين هادئا على هذا النحو ؟

وشيئا فشيئا ، عاد الحديث مـتدفقا من جديد ، وأخذا يتحدثان عن الصيف ، وعن حمام السباحة شيشا خاى ، وعن آخر عدد من "صحيفة الشباب" اليومية.

وأثناء وداعه لتـشن بوا ، استـمعا إلى أصـوات موسيـقى راقصـة صادرة من القاعة، قال تيان لين : "هيا نرقص إذا كـان لديك متسع من الوقت ، فدائما يكون عندنا هنا حفل راقص مساء كل سبت ، وهزت تشن بوا رأسها وهى تبتسم .

اعـتلت تشن بوا دراجتـهـا والتفـتت ملوحة بيـدها ،أسـرع تيان لين نحـوها "صافحينى ، فصافحته تشن وهى تمسك جدون الدراجة بيدها اليسرى. استدار تيان لين ثم عاد مسرعا.

قوة انهمرت دموعه كأنها ينبـوع متدفق ، تلك الدموع التى كان يغالبها بكـل ما أوتى من قسوة عندما كان يصافحها . وعاد إلى حجرته ، وراح يشد شعره بكلتا يديه ، وقد استند إلى المنضدة دون أن يتحرك له ساكن.

* * *

وبينما كانت عجلتا دراجتهـا تدوران بسرعة على الأرض ، كان شريط ذكريات حياتها بكل ما فـيه من معان ، وتأثر ، وكل ما دفعته من ثمن يزداد وضـوحا شيئا فشيئا أمام عينيها .

كانت تشن بوا تحرك جدون الدراجـة باستمرار لتفادى السـيارات التى تسير فى ليل آخـر الأسبوع، وتخـترق الشـوارع المزدحمـة .أضواء مـصابيح النيـون تشكل

تشكيلات من الألوان التى تبهر العين . محل الأطعمة به أصناف كثيرة ، أطباق الجيلى المحلى بالذعرور البرى الأحمر مرصوصة فوق بعضها على شكل مكعب منتظم الشكل. السلال تمتلئ بثمار الليتشه بأوراقها ، وأعلى كل سلة توجد عدة ثمرات مقشرة ، فيظهر لحم الثمرة التى يتقاطر السائل على سطحها،بشكلها نصف الشفاف ذات الجاذبية الكبيرة . وتحت أضواء النيون ، يلتف الشباب فى حلل الصيف الجديدة حول أكداس الفاكهة ، وضحكاتهم التى لا تنقطع تجعل كل شىء أكثر جمالا . . . .

لماذا لم تستطع تشن بوا أن تستمتع فى هدوء بروعة هذه الحياة غنية الألوان سريعة الإيقاع ؟ لماذا لا يهدأ قلبها ؟ لماذا جعلت تيان لين - الذى استحوذ على كل حبها واحترامها - يعود ودموعه فى المآقى ؟ ألا يمكن أن تأخذ الأمور شكلا آخر ؟ وإذا حدث ذلك . . . !

ومع صراع الخواطر والمشاعر ، كانت الدراجة قد بعدت كثيرا عن مكان تيان لين . وتشن بوا تفكر فى إصرار : لكن ذلك ليس لى ، نعم ليس لى !"

وصدر عن العجلة الخلفية للدراجة صوت "قرقعة" ، حيث احتك إطار الكاوتشوك بالحمالة احتكاكا شديداً ، ولم تعد العجلة تدور ، وليس هناك حيلة لسحبها أيضا ، كان الوقت قد تأخر وأغلقت محال إصلاح الدراجات أبوابها . فاضطرت تشن بوا إلى حمل دراجتها ، ومضت بمزيد من الجهد والعناء . وبعد لحظات شعرت بتنميل فى ذراعها ، وأخذت تلهث وقد تصبب عرقها تذكرت نظرات تيان لين التى تنضح مرارة وهو يصافحها لآخر مرة . . . .

فعضت تشن بوا على أنيابها ، وحملت دراجتها وأخذت طريقها إلى المدرسة بخطى متثاقلة مكدودة . وهكذا هدأت موجات المشاعر فى قلب الفتاة الصغيرة لأول مرة .

* * *

(٣١)

التزمت مارى الصمت بعد عيد أول مايو "كأنها حجر أصم "، كانت تراوغ كل زميلاتها وتهرب منهم ، وخاصة تشن بوا، (وكانت تشن بوا سعيدة بذهاب مارى للمشاركة فى المسيرة).

وكانت مارى تحمل حقيبة كتبها وتنصرف كل يوم حتى قبل أداء التحية لمدرس الفصل ، وقد بلغ بها الأمر أنها لم تذهب إلى المدرسة يوم الاحتفال بعيد المدرسة.

كانت تشن بوا تذهب إليها لتذاكرا معًا كالعادة ، كانت مارى تهز رأسها رافضة فى خوف واضطراب ، وتود أن تنصرف ، سألتها تشن بوا "ماذا دهاك؟" فردت قائلة :

"سامحينى !"

لم يهدأ قلب تشن بوا ، فهيأت لنفسها فرصة أخرى وسعت إلى مارى وسألتها: "أخبرينى لماذا لا تعيرينى اهتماما؟

ماذا ارتكبت من أخطاء ؟ "

أجابت مارى فى ارتباك : " لا ، لا شىء . . . . "

"إذن لماذا تفعلين ذلك ؟"

أخيرًا قالت مارى " لأن الكاهن . . . . . . " وتوقفت وهى ترنو ببصرها إلى تشن بوا كأنها تنتظر حكمها .

أدركت تشن بوا الأمر .

وسألتها فى غضب : "أنا لا أفهم ، كيف أن كاهنًا كهذا يريد أن يبذر بذور الشقاق بين الزميلات ؟ "

شعرت مارى بالخوف والفزع وردت "ماذا تقولين؟"

"أقول إنه يبذر بذور الشقاق ! وإنه بذلك يكون مخطئا ، وإننى لم أسئ قولا إلى كاهنكم ، فقط عليه ألا يقطع أواصر الصداقة بينك وبيننا ، وإننى أعرف أنه لا يوجد فى المسيحية ما ينص على عدم وجود الصديقات والزميلات والاكتفاء بحياة الوحدة والعزلة . . . . . "

قالت مارى وهى تكز على شفتيها "كفى . . . .

تشن بوا ، أنا أعرف أنك إنسانة طيبة ، أكثر طيبة من الجميع ، وأنك تعاملينني معاملة حسنة وذلك من أجلى . . . . ولكن ذلك ليس ممكنا ، لا أستطيع مخالفة كلام الكاهن ، انتظرى قليلا ، انتظرى وقتًا آخر فسوف أخبره عن أخلاقك الحميدة ، وأطلب منه السماح ،ولكن . . . . "

ردت تشن بوا فى عمق وأسى "لا ، لا تحدثى كاهنك عنى فإننى أشعر أنه إنسان غير طيب . "

وفى يوم الاثنين التالى ليوم نهاية الأسبوع الذى ذهبت فيه تشن بوا إلى تيان لين ، لم تذهب إلى المدرسة.

واستدعت مديرة المدرسة تشن بوا فى وقت الظهيرة ، وما أن وصلت حتى دعتها للجلوس على وجه السرعة ، وأشارت إلى لوحة اشترتها حديثا طالبة رأيها فيها ، ثم صبت لها كوبا من الماء وراحت تتجاذب أطراف الحديث معها حول شئون وأحوال الفصل . وكانت حضرة الناظرة قو تنظر إلى تشن بوا نظرات مختلطة ، ربما لا تخلو من الشعور بشىء من "ضيق الصدر " ولم تكن السيدة قو ناظرة المدرسة فحسب ، بل كانت سكرتيرا للجنة الحزب الفرعية أيضا . مهامها المتعددة كثيرة،ونشاطاتها فى داخل الحزب كثيرا ما تكون فى جماعة غير جماعة أعضاء الحزب من الطالبات ، وكانت تقول : "إن اهتمامنا ورعايتنا لعضوات الحزب

الشابات هؤلاء يعتبـر بسيطًا للغاية " . لكنها كانت تحب عـضوات الحزب الشابات في المدرسة المتوســطة على قلة عددهن ، فقد كـانت روحهن المعنوية ترتفع وتنضج نضجـا سريعا بسبب صــدقهن وإخلاصهـن تجاه قضايا الحــزب ، وكن يحملن على كواهلهن في هذه السن الـصغيرة مـهاما ثقـيلة جسيمـة . إنها تشعـر دائما أن من واجبها أن تفعل من أجلهن أكثر مما تفعله من أجل الطالبات الأخريات ، لكنها لم تفعل ، ومن ثم تجاذبت أطراف الحديث مع تشن بوا ومـزحت معها في ود وحرارة - على سبيل التعويض - قبل أن تخوض معها في شئون العمل.

قالت حضرة الناظرة بروح الأمومة " لقد صرت نحيفة ! "

أنكرت تشن بوا " لا ، لست نحيفة "

"كيف حالك ؟ لقد سمعت . . . . . . "

وقصت عليها تشن بوا حكايتها مع تيـان لين ببساطة ، حتى إنها قالت : "لقد أصبح كل ذلك في طي الماضي. . . . . . "

تنحنـحت حضـــرة الناظرة وقالت " ولماذا لم تستمرا في علاقتكما ؟ "

ثم نقرت بإصبــعها على المـكتب بخفة ، واستطردت تقول بسرعة .

إن مــا فعلتــه هو عين الصواب ، هو الأفـضل . هيــا ننتقل إلى الحـديث عن الأمور الأخرى ، هل حضرت ماري دروس اليوم؟

"لا ، لم تحضر . "

فقالت مديرة المدرسة في صوت خفيض "إذن فالأمر كذلك ، فقد جاء شخص من مصلحـة الأمن العام يقول إنه تم في الصبـاح الباكر إلقـاء القبض على الكاهن الكاثوليكي جـوزيف لي - الذي يرعى مـاري - لأنه من العناصـر المناهضة للثـورة تحت ستار الدين " . .

ونهضت الناظرة من مجلسها ، وأحكمت غلق الباب ، وقطبت جبينها واستطردت تقول : "إنهم يقولون إن تصرفات مارى كانت سيئة للغاية ، فقد احتضنت الكاهن جوزيف لى وراحت تبكى بشدة وهم يلقون القبض عليه ، وكان أسلوبها شديد السوء والقسوة مع رجال الأمن ، وأنهم يريدون استجلاء الأمر ومعرفة المشاكل التى تواجهها مارى. . . . . . . "

فكرت تشن بوا قليلا فى شىء من التوتر ، ثم قالت وهى تجزم: لا شىء ، إننى أشعر أن مارى إنسانة طيبة جدا ، وسيئة الحظ جدا" .

أومأت حضرة الناظرة "نعم ، إننى أشعر بذلك أيضا ، وإذا كانت مارى تكرهنا ، فذلك لأننا لم نؤد واجباتنا خير أداء ، ولم نمح تأثير وأفكار جوزيف لى - ذلك الوغد - من قلبها . ولم يمض على التحرر سوى سنوات ثلاث، بينما هى قد أمضت معه عشر سنوات ، وليس بالأمر اليسير فك كل القيود والأغلال التى كبلها بها.

ولكن الظروف تحسنت الآن ، بعد القبض على ذلك الوغد المدعو جوزيف لى!

"إنى أرى أن مارى فتاة لا بأس بها ، إننا كثيرا ما نتحدث معًا ، وقد شاركت أيضا فى مسيرة عيد "أول مايو " هذا العام. ولكنها ابتعدت عنى شيئا فشيئا فى الآونة الأخيرة ، وقالت بنفسها إن جوزيف لى لا يسمح لها بالاختلاط مع زميلاتها .

"بل علينا نحن أن نقترب منها .وقد بحثت ذلك الأمر مع الأستاذ يوان رائد فصلكن واتفقنا على أن تبحثى عن زميلة أخرى وتذهبا معه بعد ظهر اليوم لزيارة مارى والاطمئنان عليها ، فنحن لا نعرف كيف حالها وهى وحيدة بمفردها. ومهما كان من أمر ، علينا أن نحتمل ونصبر ، فعدم إدراك مثل هذه الفتاة لوطنها حتى الآن ، يعتبر مأساة بمعنى الكلمة . . . . "

ولدى خروجها من مكتب حضرة الناظرة ، أقسمت تشن بوا على نفسها قائلة: "سوف تتحسن حالة مارى بكل تأكيد"

وودعتها الناظرة بنظرات تعبر عن التأثر والامتنان.

ذهبت لى تشون وتشن بوا مع الأستاذ يوان لزيارة مارى ، كانوا يمضون بسرعة، يتبادلون بعض الكلمات أو يغرق كل منهم فى التفكير فى قضاء هذه الزيارة غير العادية، وراحت لى تشون تنظر إلى تشن بوا ثم تنظر إلى الأستاذ يوان ، ويتولد لديها شعور جديد تجاه الأمر الذى يقدمون عليه ، خطر ببالها أنه يمكنها بسهولة - كسهولة قلب الكف - أن تساعد مارى فى استكمال الدروس التى فاتتها اليوم، وفى الوقت نفسه تتمنى أن تستخدم مكانتها "كطالبة مثالية" ولباقتها وحكمتها فى تشجيع مارى وإقناعها ، والأستاذ يوان يحاول أن يوسع الخطى ، فهو يعجز عن ملاحقتها قليلا، فكم مرت من السنين، وهو يقوم بزيارات لعائلات مختلف ألوان وأنواع الطلبة والطالبات - منهم لصوص ،وآنسات غنيات ، وأنصاف بلهاء . . . . .

ولكنه لم يعرف بعد مكنون قلب مارى التى تؤمن بالديانة المسيحية بصدق وإخلاص ، لذلك يساوره شيء من القلق خشية عدم أداء مهمته على النحو المطلوب، وكانت تشن بوا منهكة متعبة بعض الشيء لأنها لم تنم جيدا طيلة الليالى الثلاث الماضية ، ومازال قلبها ينشغل بتيان لين من وقت لآخر - ومن يدرى - ربما نتيجة لذلك ترغب بشدة فى أن تقدم شيئا لمارى، ساروا فى عدد من الشوارع الملتوية، حتى دخلوا فى حارة مسدودة ، حيث وصلوا مقصدهم. .

كان معلقا على باب "منزل " مارى لوحة قديمة ، مكتوب عليها "جمعية زهد باوسقاو المقدس " ، وكان يقف بالباب جندى تابع للأمن العام يحمل سلاحه فى يده ، مما أفزع لى تشون ومن معها ، قالوا إنهم يبحثون عن مارى ، فأشار لهم

الجندى بالدخول وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ، حيث إنه ليس هناك أى قيود على الخروج والدخول والزيارة. وكان يقيم فى الجزء الأمامى من الفناء عامل تريسكل وإسكافى، والطبال الذى يعزف لتشجيع البهلوان "الشبح العملاق" فى معبد البرج الأبيض . أخذوا يجوبون بأنظارهم تشن بوا ومن معها فى شك وريبة ، وأجابوا عن تساؤلهم وأخبروهم أن مارى وجوزيف لى فى الحوش الأخير. وعندما وصلوا مفترق الطرق فى الفناء الخلفى ، شاهدوا ثلاثة أطفال فى ملابس قديمة رثة يمطون أعناقهم ويختلسون النظرات إلى رجال الأمن العام المشغولين بأداء عملهم ، وأشار أحدهم إلى الحجرة الشرقية التى تقطنها مارى مرشدا أستاذها وزميلتيها.

نادت تشن بوا "مارى ! " فلم يرد عليها أحد.

ودخلوا هذه الحجرة الصغيرة الرطبة الضعيفة الإضاءة فجثمت الأشياء المتزاحمة المختلطة على صدور الضيوف الثلاثة.

ولدى دخولهم وجدوا مارى مستلقية مكومة فى الفراش،وظهرها نحوهم . بجوار السرير منضدة متهالكة متآكلة الأرجل، يوضع على سطحها المتعرج غير المستوى رغيف من خبز الذرة المنضوح على البخار وإناء به قليل من حساء الفجل ، وشرائح الفجل الرقيقة القليلة تطفو على سطح الحساء الخفيف الذى لا يوجد به دهون أو زيوت. الرغيف مقطوع منه جزء لم يؤكل موضوع إلى جوار حساء الفجل. نادى الأستاذ يوان مرة أخرى "مارى ، وقالت لى تشون هى الأخرى : "انظرى ، لقد جاء الأستاذ يوان بنفسه لزيارتك ، استدارت دون أن يصدر عنها صوت ،وجلست ، وراحت تحملق فيهم بنظرات جامدة.

حالة مارى النفسية والمعنوية جعلتهم يرتعدون خوفا.

شعرها مبعثر منكوت ، وعيناها متورمتان ، وآثار الدموع تركت خطوطا سوداء وأخرى بيضاء على وجهها . شفتاها جافتان ومتشققتان ، وكأن الدم قد

انسحب منهما ، ملابسها التى بدت واسعة فضفاضة ، متكسرة ومكرمشة ، تبدو كأنها تريد أن تنخلع عن هذا الجسد النحيف الهزيل. كل هذا ، وخاصة نظرات مارى الجامدة التى تطل منها مشاعر الألم والحزن الدفين ، وحالتها النفسية التى تدعو للأسى والرثاء ، كل ذلك ترك إحساسا هذا بالألم والمرارة عميقاً فى نفس زميلتيها وأستاذها - أولئك الذين اعتادوا رؤية وجوه الشباب المشرقة المتهللة السعيدة التى تفيض صحة وحيوية.

وبادر الأستاذ يوان قائلا: "ابنتى مارى ، أليست صحتك على ما يرام ؟ لم لاتذهبين إلى الفصل اليوم ، والجميع قلق عليك . . . . "

ولم ترد مارى

"مارى ، دعينى أساعدك فى كتابة ما فاتك من دروس اليوم، فقد درسنا كثيراً من التاريخ الأجنبى على نحو خاص".

لكنها مازالت تلوذ بالصمت .

ليس هناك ما يثير ضيق الإنسان وألمه أكثر من الصمت ، وقد جعل صمت مارى ثلاثتهم يشعرون كأن هناك آلاف الكيلوجرامات من الأحمال التى تثقل كواهلهم ، تشجعت لى تشون واقتربت من مارى ، ووضعت يدها على كتفها ، وسألتها بصوت عال :

"كيف لا تتكلمين ؟ لقد جاء إلى زيارتك الأستاذ يوان بنفسه أيضا . . . . "

ردت مارى وصوتها به حشرجة جعلتها تضطرب مثلهم تماما :

"ماذا أقول؟ " وقد دفعت يد لى تشون ، وقالت فى حقد وكراهية :

"لن أذهب إلى المدرسة ، لم أذهب اليوم ، ولن أذهب غدا ، ولن أذهب بعد ذلك أبدا، وتراجعت لى تشون إلى الخلف.

" ابنتى مارى ، إننا نعلم أن حالتك النفسية ليست هادئة تماما. "

استريحى اليوم جيدًا ، لتحضرى غدا إلى المدرسة . إن إلقاء الحكومة القبض على جوزيف لى بوصفه عنصراً مناهضًا للثورة ، أمر ليس له علاقك بك أبدا ، فأنت طالبة مجتهدة ، وقد أصبحت على وشك التخرج ، والمستقبل يبدو أمامك مشرقا عريضا . . . . "

قاطعت مارى الأستاذ يوان ، وقالت فى لهجة تنم عن روح التحدى والجدل لم تستخدمها من قبل : "يا أستاذ ، حضرتك تقول إنه ليس هناك علاقة بينى وبين الكاهن لى ، فإلام تستند فى رأيك هذا ؟ واننى أريد أن أسأل ، أليس صحيحا أن الحكومة تريد القضاء على الكاثوليكية ؟

"بالطبع لا "

"لماذا إذن تلقى القبض على كاهنى وكل أهلى - الكاهن جوزيف لى ؟"

"إن كل من يخرج على القانون ، أو يرتكب عملا معاديًا للثورة يقع تحت طائلة قانون البلاد ، بصرف النظر عما إذا كان كاهنًا أو أى شخص آخر " .

"وأنا ، ماذا أفعل ؟"

"أنت طالبة وطنية ، ويجب عليك مساندة الإجراءات الحكومية ، وأن تشعرى بسعادة إزاء تصفية العناصر المندسة فى الكنائس والمناوئة للثورة . . . . . "

صرخت مارى ، مارى الرقيقة الهادئة دائما ، التى كانت نادرا ما تتكلم عدة كلمات على بعضها ، صرخت "سعادة؟" ، إن هذا لشىء مخيف . وراحت تبكى وتتكلم فى صوت خشن أجش والحزن يعتصر صوتها ، "سعادة؟"

يا أستاذ ، إنكم مستريحون كثيرا ، وسعداء كثيرا ، فلكم ما شئتم من السعادة، وإننى أدعو رب السماء أن يديمها عليكم . . . . ولكن هل تعلمون

مأساتى؟ إننى يتيمة بلا عائل ولا سند، مسيحية معتدلة متواضعة ، أتعرفون أحزانها ومأساتها ؟ واختنق صوتها من الدموع وواصلت حديثها وهى تترنح : "تشن بوا ، لى تشون ، زميلتاى، إننى لست مثلكما ! إن لكما أب وأم ، رددت مـارى "أب" و "أم" ، هاتـين الكلـمتين الغـربيـتين عليـهـا فى ألم وحـسرة ، "يرعـونكمـا، يحبـونكم، يحنون عليكما ، يضعون عـليكما الغطاء إذا برد الجو ، ويدفئـون لكما الماء إذا ألم بكمـا مرض ، ولـكن هل من أحد أخـبـرنى بمن تكون أمى ومن يكون أبى؟ آه ، ولكنى حييت ، ومـازلت أحيا ،وكبرت ، بل وأصـبح بمقدورى أيضا أن أدرس معكن أنـتن اللاتى بلغ حظكن عنان السمـاء، فعـلام أعتمـد فى كل ذلك ؟ على الكنيسة والكاهن فقط.

لقد بدأت أعمل فى الخامسة من عمرى ، انحنى ظهرى من العمل فى التطريز بالإبرة ،وانبرت يداى من غسل الملابس . وأنا فى الخامسة ، أتدريان ما الخامسة ؟ ربما كنتمـا آنذاك ما تزالان فى أحضـان أمهاتكمـا تأكلان البـسكويت . . . وعندما تجاوزت العاشرة بقليل، كدت أتزوج ، أتدريان من أنقذنى ؟ إنه الكاهن جوزيف.

إننـى لا أملك شيئا حتى هذه اللحظة ، ليس عندى معطف قطنى ، البنطلون القطنى مضت عليـه خمس سنوات ، الأيام التى تسقط فيهـا الثلوج بغزارة تبين عن احمرار ساقى الصغيرتين من شدة البرد .

ولا أمتلك شيئًـا من الأدوات المدرسية ، أستعير قلم حبـر من إحدى الزميلات عندما أريد الكتـابة ، ولا أمتلك مالاً ، وليس لى أقارب . . . قـبل عدة أيام أكلت نصف كعكة ، فتصورت أنهـا ألذ وأشهى طعام فى الدنيا بأسرها . . . . فلمـاذا إذن أقـول ذلك ؟ ولا تتصوروا أننى ألعن حظى ، لا ، أبدا ، إننى سـعيدة أيضا ، لأن لى رب ، ولى عـقيـدة ولى كـاهن ، وهذا الكاهن هو الذى يفـيض علىّ من نور الجنة، مما يجعلنى أقبل على الحـياة فى عـزيمة وإصـرار ، ولكن . . . . . .

وكلــمــا تكلمت ازدادت تأثرا ، حتى اخــتنق صوتهــا من البكاء ، لماذا ، لماذا يلقون القبض على كاهنى ؟! "

وانكفــأت على الفراش ، وراحت تبكى فى حــرقة ، وتحــول هذا البكاء شيـئا فشيئا إلى نشيج ، ثم سحبت طرف الملاءة المتسخة ومسحت دموعها .

أثارت شكوى مارى المتفجرة مــستمعيها الثلاثة ، حــتى كأن عيونهم قد ذرفت الدموع أيضا ، وراح الأســتاذ يوان يهز رأسه ويتنهــد فى غير احتمــال . فلم يتفوه أحدهم بكلمة واحدة طوال حديثها ، حتى عندما ذكرت كلمتها الأخيرة - التى تعبر فيهــا عن ولائها الصادق وحــبــها لجــوزيف لى - تلك الكلمة الســخيفة التى تثـير الضيق والغضب .

نهضت مارى فى قفزة واحدة ، وانحنت أمام الأستاذ يوان تعبيرا عن التحية ، وكــذا فعــلت أمام تشن بــوا ، وأمام لى تشــون ، وقــادتهم وهى تقــول : " شكرا لحضرتك يا أستاذ يــوان ، شكرا تشن بوا المخلصة ، شكرا لى تشون . أرجوكم أن ترفقوا بى وتأخذكم الرأفة بحالى ، وهيا نذهب جــميعا نتوسل إلى المسئولين بالأمن العام ليطلقوا سراح الكاهن لى. . . . . . ،

خيم الصمت على لى تشون والأستاذ يوان من هول الصدمة .

وأخذت تشن بوا تكبح شــيئًا فشيــئًا عددا لا حصر له مــن المشاعر والأفكار ، واستقامت فــى وقفتها وأمسكت بيد مــارى ، ومسحت لها دموعهــا بيدها ن وقالت لها :

" اهدئى ، هدئى من روعك قليلا . . . . .

صاحت مارى فى تشن بوا : "

إننى أريد الكاهن . ،

هزتها تشن بوا من كــتفهــا ، وقالت لها والكلمات تــخرج من فمهــا كطلقات الرصــاص : " أنت مخطئــة تماما ، فكرى كــم أن الأمور مــختلطة عليك ، كــانت

حـياتك الماضـية قـاسيـة ، هل يمكن أن تكون هى الحـياة التى منحـها لك الحـزب الشيـوعى ؟ لا ، إن حزبنا العظيم يحـاول أن يجفف دموعنا ، وأن يخلق السـعادة للشباب ، وإن كلامك غـير صحيح ، إننى عندما كنت فى الخامـسة من عمرى لم أكن بين أحضـان أمى آكل البسكويت بـالسكر ، بل كنت فى ذلك الوقت أنا وأمى نحـرق الأوراق[1] من أجل أبى ، ذلك الذى تمزقت أحشاؤه تحت عـجلات سيارة جـيب أمريـكية . . . . . ولاذت تشن بـوا بالصمت حـتى تمضى لحظات الـتأثيـر والحزن.

حينذاك أكملت لى تشون فى حزن : " فى الخامسة من عمرى ، كنت أنا يتيمة الأبوين أيضًا ثم وضعت يديها على عينيها .

ثم استطـردت تشن بوا تقول : " . . . . . لقـد كان الأطفال غـير سـعداء فى المجتـمع القديم . ولكن الآن ؟ فى مسـاء يوم " أول مايو " رقصنا لـيلة بطولها ، نتبادل النظرات فلا تنقطع الضـحكات ، وذابت كل ذكريات الطفولة الحزينة دون أن يتبـقى لها أثر ، تماما مـثلما تذوب الثلوج تحت الشمس السـاطعة . . . . وبطبيـعة الحـال ، إنك أكثـر منها مـعاناة ، واهتـمامنا بـك قليل للغاية أيضًـا ، وذلك لأن جوزيف أضـرّ بك ، إنه عـدوك الأكـبر . فقـد غرر بك وهددك ، وفـرض عليك القيود ، وجـعلك عاجزة عن الحياة فـى سعادة فى هذا العالم الجديد الجميل . . . . فأنت تعيشين فى عاصمة الصين المحررة ، لكنك لا تدركين أحوال وطنك . وتدرسين فى المدرسة الثانوية الرابعة للبنات ، ولكن تـبدين كأنك من خارج الفصل حتى إنك لا تجرؤين على الحديث مع زميلاتك ، ولذلك لا سبيل أمامهن لمساعدتك أيضا. عزيزتى كلنا أهلك ، كل زمـيلة فى فصلنا ترغب أن تكون أهلا لك ، لكن جوزيف طلب منك أن تبتعدى عن كل الأصدقاء ، لقد دمرك ، بل قتلك معنويا ، وتطلبين العفو عنه ذلك الفاسد الذى ارتكب جريمة لا تغتفر ! "

(١) أوراق على شكل أوراق مالية وتحرق اعتقادا من أهل المتوفى أنه سوف يستخدمها فى العالم الآخر .

ثم صوبت تشن بوا نظرها مباشرة نحو مـارى فى حـزم وفى غير شفقة .

منذ يوم "أول مـايو" فـصاعـدا ، سيطـرت على مارى كل مـشـاعر التـردد والتوجس والخـوف . وانقلبت الدنيا كلها فى عينيـها ، وكأن السمـاء ستنطبق على الأرض ، حتى إن المنضدة والكرسى أصابتهما الرعشة والاعوجاج ، كل ذلك علاوة على حياة مارى البائسة القاسية جعلهـا تتطلع تطلعاً مشوشا إلى التحدى والمقاومة ، وربما كان أحرى بها أن تصرخ وتعلو بالبكاء. وجهت غضبـها ولومها وكراهيتها إلى الحزب والحكومة بعـد إلقاء القبض على جوزيف ، ثم أخذت مـارى الوديعة المهذبة تزأر فى وجه الحزب ، لكن تشن بوا أوقفتها فى حزم.

ربما كانت "فوائد" جوزيف بالنسبة لها مـحدودة جدا فى حقيقة أمرها ، وربما يوجد فى نفسـها شىء من عدم الاقتناع به أيضـا ، ولكن إحساسها بافـتقاده وتطور الأحداث جعلاها تتوجس خيفة ، ثم ضاعفا من شعورها بقيمته مئات المرات.

ومـنـذ سنوات طـويلة وجوزيف فـى نظرها هو رسول رب الـسمـاء ، وهو الذى يجسد قيم وأخـلاقيات مريم العذراء ، وتنحنى أمامه كـأنها تنحنى أمام يسوع المسيح ، أيتهـا الفتاة المسكينة إنك تجملين بقلبك الطيب البرىء ذلك المخـادع القبيح فى الأصل ، ألا تكون النتيجة دائما أن تجعلى نفسك مخدوعة.

وبينمـا كانت مـارى تتلقى انتـقـادات تشن بوا اللاذعـة ، شعـرت أن رأسهـا مخدرة، كـأن هناك عدداً لا حصر له من الإبر الصـغيرة غير المرئـية توخزها فى أم رأسها .

استدارت وجلست فى حالة من الإعياء.

وقال الأستاذ يوان وهو يتنحنح : "كـلام تشن بوا صحيح ، وإننى أعرف أنك أسلمت قياد قلبك تماما للدين. وأن الشباب متحمس ويتصف بالصدق والإخلاص، ولكن يتعين عليك أن تصونى نفسك من الجواسيس الذين يتسترون تحت رداء الدين،

الذئاب الذين يبدون فى ثوب حمل ، فقد تعاملت عن قرب مع مثل هؤلاء أيضا ، إنهم يتحدثون عن الرب بكلمات رنانة معسولة ، لكنهم فى حقيقة الأمر أحقر الناس . . . . "

استمعت مارى لكلام الأستاذ يوان ، ولم ينته من كلامه حتى تلاشت نيران الحقد والغضب من نظرات عينيها التى تفيض بالحزن والأسى ،ولم يتبق سوى الوجه الشاحب والملامح الهزيلة ، استندت بإحدى يديها أولاً، ثم أمالت رأسها ببطء ، وهوت على الفراش ، وغابت عن الوعى .

وبعد لحظات ، اقتربت منها تشن بوا ، وقالت بصوت خفيض : "لقد نامت، وسحبت عليها الغطاء.

وسألت لى تشون " هل أكمل لها ما فاتها من الدروس ؟ "

وأشار الأستاذ يوان إلى رغيف الخبز وحساء الفجل المتواضع وقال : "إنها لم تتناول طعامها بعد " .

تشاور ثلاثتهم بصوت خفيض وقرروا أن تدون لى تشون الدروس نيابة عن مارى، ويخرج الأستاذ يوان ليشترى لها بعض المأكولات الخفيفة ، وأن تعود تشن بوا إلى المدرسة لتحضر بطانية وتأتى لتنام مع مارى، وكانت لى تشون تصر فى أول الأمر على أن مزاج تشن بوا ليس معتدلاً، وعلى أن تقوم هى برعاية مارى ، لكن تشن بوا شعرت أنها مازال باستطاعتها مواصلة الحديث مع مارى ، ومن ثم توصلوا إلى القرار السابق ، وقد اتفقوا أيضا على أن يتوسلوا إلى مارى فى صباح الغد لتنتقل إلى الحياة فى المدرسة .

. . . . استيقظت مارى فى الليل ، فرأت شخصًا ينام على الأرض ، لم تنتظر تشن بوا سؤالاً ، ونهضت وقالت : "أنا تشن بوا " .

"لماذا تنامين هنا ؟"

"خشيت أن يصيبك تعب ، أو تحتاجى شـيئا ، تناولى شيئا من هذه المأكولات الخفيفة لقد اشتراها الأستاذ يوان من أجلك . . . . "

هزت مارى رأسـها ،ومـدت يدها الملتهـبة الحـرارة وأمسكت بيـد تشن بوا ، ونهضت من رقدتها فجأة وجلسـت وسألت : "ما هذا ؟ " ثم رقدت خائرة القوى من جديد.

نظرت تشن بوا حولها فى كل مكان فلم تجد شيئا ، بينما عادت مارى تقول : "اذهبى إليك عنى . . . . آه ، كـيف أشـعر بألم إلى هذا الحـد . . . . "وتحسـست رأسـها بيـدها وراحت تتقلب فى الفراش.

قالت تشن بوا وهى تدلك لها أصـابع يدها واحدًا تلو الآخـر "عليـك بالنوم يا صديقتى الـعزيزة ولا تنزعجى ، فعندمـا تستيقظين سيكون كـل شىء قد أصبح مشـرقا، ويكون كل شىء على مـا يرام ويزول وعنك الكابوس ، سوف نـنتقل إلى المدرسـة فى صبـاح الغد ، ونسـتمع إلى الفكاهات من ووتشـانغ فو ، وتشـاهدى تشوشيا ولينغ وهى تلعب كرة السلة أو نذهب ونلعب مـعها ، ثم يبدأ الأستاذ يوان شرح الدرس، ويا له من شرح جميل . . . . "

لم تعد مـارى تتحرك ، وكانت تشـهق من حين لآخر مثل طفلة ذليلة كـسيرة الجناح لاقت كـثيرا من الضـرب، وشيـئا فشـيـئـا انتظمت أنفاسهـا ، وتلاشت كل أحزانـها وشكواها وكلمـاتها البـالية ، تلاشـت تحت جنح الليل الحالك الظلـمة . أصاب الـنعاس تشن بوا أيضًـا ، تثاءبت تثـاؤبة واحدة ، وفـتحت فـمهـا طويلا، ونسيت ما تقـوم به هى نفسها، وتمددت على الأرض غيـر المستوية والتـى لا تخلو من بعض المستنقعات، وراحت تستمع بدقة وإمعان إلى حركة تنفس مارى .

(٣٢)

كانت لى تشون تشعر بالكآبة وهى تطوف بالحوارى والأزقة الصغيرة المتعرجة بعد أن انتهت من تكملة الدروس لمارى، وخرجت من هذه الحجرة الضيقة . فهى لا تحب البكاء ،وتصيبها الحيرة والارتباك إذا رأت الدموع . وكم كان بكاء مارى مرًا محزنا! ولم تكن لى تشون تتصور من قبل أبدًا أن يصادف مارى التى تدرس معها فى نفس الفصل ، والتى تسلم الواجبات معها فى نفس الوقت مثل هذا الحظ العاثر. فقد كانت حدود معرفتها بالزميلات من قبل لا تعدو نطاق معرفة نتائج الامتحانات ، وكانت تنظر إليهن فقط على أنهن شريكات لها فى إجراء التجارب ومنافسات لها على الدرجات . أما الآن فقد أدركت الكثير من الأمور بعد إزاحة الستار عن حياة إحدى الزميلات . وتولد فى قلبها نوع من الحب العميق والاهتمام الصادق المتواضع تجاه الصديقات . وعندما كانت تدون الدروس لمارى ،كانت تكتب الرموز بخط منظم أشبه بخط المطبعة ، لم تستخدم الممحاة قط، وكانت أكثر اهتماما مما لو كانت تدون دروسها نفسها . وقد جعلتها حياة مارى تفكر فى نفسها، أو ليست هى الأخرى يتيمة من وقت طويل ؟ ولاقت كثيرا من المضايقات من زوجة عمها ! وقد كانت بطبيعة الحال أحسن حظًا من مارى ، فقد شعرت أن الحياة فسيحة رحبة ، وشعرت بالحرية ، وعقدت العزم على أن تصبح عالمة. ولكنها كانت تستغرق طوال اليوم فى حساباتها الهادئة ومصالحها الفردية ، ولم تتعرف تمامًا على زميلاتها ، ولم تكن أبدًا صديقة قريبة منهن ، (انظرى إلى تشن بوا وهى تقول: "مازال يمكننى الحديث معها") وإنه لأمر غير جميل أن يكون الإنسان شريكًا يمكن الاستغناء عنه عندما يتعلق الأمر بحياة الزميلات الخاصة ومصائرهن، حتى إنها قليلا ما تجلس إلى نفسها تتحدث حديث القلب إلى القلب. . . . وعادت إلى المدرسة وهى تحمل بين حناياها عاطفة متأججة لم تكن تتوافر لديها من قبل ، وشرحت حالة مارى لزميلاتها اللاتى رحن جميعا يلعن جوزيف فى حقد وكراهية.

* * *

إن المتاعب لا تأتى فرادى ، ففى الوقت الذى انتقلت فيه مارى إلى المدرسة ، مرضت سونينغ ونقلت إلى المستشفى.

وعندما سألت سونينغ والدها عن موضوع الدقيق المكدس ، رفض أن يعطيها ردًا شافيًا ، وهددها فى عنف وجفاء ، فقررت أن تكتب خطابًا بذلك وترسله إلى إدارة الشئون الصناعية والتجارية بالحكومة البلدية.

وفى مساء ذلك اليوم قامت إدارة الشئون الصناعية والتجارية بالحكومة البلدية ، وجمعية الصناعة والتجارة باستدعاء والد سونينغ ، وسألوه عن هذه الأمر ، فأنكره فى بادئ الأمر ، فقالوا له فى حزم

"سو هونغ تو - إن الدقيق فى بيتك ، ولن يمكنك التخلص منه إذا أردت ذلك، وأنت تريد افتعال أزمة فى هذه السلعة، هل يمكن أن تنكر ذلك ؟ لقد استدعيناك إلى هنا ، وهذه هى آخر مرة نعاملك فيها بمثل هذه السماحة والكرم ، وكان يجب أن تعاقب على تصرفاتك الدائمة غير المشروعة وفقا لأحكام القانون . وعليك أن تدرك أنك فى وقت المقاومات الخمس ظهرت مخادعًا محتالاً ، وكيف افتضح أمرك!

وكانت النتيجة التى تمخضت عن هذا الحوار هى إعطائه ليلة واحدة مهلة يراجع فيها نفسه ، ويقر بخطئه ويعترف عن شركائه فى هذا التصرف غير المشروع ، ثم يصحح نفسه.

انحنى سوهونغ تو أمامهم انحناءة كبيرة ثم خرج من مقر الحكومة البلدية ، وهو يفكر فى نفسه : "لو كنت أملك سكينا لاقتتلت معكم ، ولو قتلت ، وليس بخسارة إذا قتلت منكم واحدا ، ولفزت إذا قتلت اثنين ، حتى أوفر على نفسى هذا الغضب ، وقرص فخذه وهو يشتم ، كيف عرف هؤلاء الملاعين بأمرى ، إن الخناق يشتد حول عنقى شيئا فشيئا ، ومر فى الطريق بكشك لبيع السجائر ، فاشترى علبة سجائر ، مزق طابع الدمغة وألقى به على الأرض ، هه ، علبة السجائر ثمنها ثلاث ماوات وعليها ماو ونصف ضريبة ! إنه استغلال ، لكن من يستغل من ؟

الرأسماليون يستغلون العمال ، لكن الحكومة تستغل الرأسماليين ! ثم راح يدخن سيجارة وهو يقدح زناد فكره ، كيف أمكن لحكومة البلدية أن تعرف إنه يتاجر فى الدقيق.

عاد الأب سوهو نغ تو إلى المنزل وهو يحمل زجاجة من الخمر وزوجاً من الجمبرى كبير الحجم ، أسرع إلى الحجرة البحرية - التى كانت حجرة استقبال للضيوف وهو يأكل ويشرب ويصيح . تلك الحجرة التى لم يعد بها ما يشير إلى أنها حجرة استقبال الضيوف ، فقد بيعت المقاعد والمنضدة المصنوعة من خشب الصندل لسداد مصاريف نقل الحبوب، شرب شربة من الخمر اللاذع ، وود لو كسر بأسنانه الكاس الذى بيده ، زوجته تكلمه ، بينما هو ساهم شارد مثل الأبله ، وبعد التاسعة مساء ، طلب من العمة تشاو أن تنادى له سونينغ .

قال لها وقد صوب نظره نحوها: "لقد لقننى الرفاق فى الحكومة البلدية درسا انفراديا اليوم، فصدر عن سونينغ صوت تعجب.

"إننى عنيد متصلب الرأى ، غايتى الوحيدة تحقيق الربح ، وقد خرجت على القانون عدة مرات ، وارتكبت أشنع الجرائم! "

نظرت سونينغ إليه فى شك وريبة ، لاتدرى ما إذا كان هذا الكلام حقيقة أم زيفا .

شرب سوهونغ الخمر عن آخرها ، وبدا يحاول السيطرة على نفسه وهو يلعق كأسه الفارغة .

" أبى ، أليس من المسموح لحضرتك أن تعمل بالتجارة إذا كنت تمارسها وفقا لقواعد القانون ؟ "

" بلى ، لكنى خارج على القانون ، ولست مواطنًا صالحًا ، ابنتى العزيزة ، يجب أن أشكرك فقد أنقذتينى . . . . . . "

" ماذا ؟ "

لقد أخبرنى الرفاق بالحكومة البلدية أنك أنت التى أبلغتهم عنى وقلت كلمة الحق ولو على أهلك ! ، قال سوهونغ تو بطريقة محرجة : فى واقع الأمر ، كان يتعين عليك أن تسدى إلىّ النصح أولا ، بدلا من التفكير فى الذهاب للإبلاغ عنى!

" لقد توسلت إلى حضرتك ، لكن حضرتك لم تسمع . . . ،

وقف سوهونغ تو فى تثاقل ، واستند الى الكرسى واقترب من سونينغ ، وكانت الخمر قد لعبت برأسه حتى كاد يجن جنونه ، " ابنتى العزيزة ، عديمة الضمير . . . . . " وصفعها على وجهها صفعة قوية .

ثم انهال عليها لكما وضربًا دون أن ينتظر حتى تفهم سونينغ ما حدث ، وأخذ سوهونغ تو يوبخها قائلا : " ابنتى العزيزة: لن أربيك لوجه الله تعالى ! لقد وقفت ذليلاً أمام الحزب الشيوعى خارج المنزل ، أيمكن أيضًا أن أكون هكذا أمامك داخل المنزل ؟ لا أستطيع ضرب الآخرين ، ألا يمكننى أن أضربك أيضًا ؟! ،

ورغم أن سونينغ لاقت الكثير من الظلم ، إلا أنها لم تلق من قبل قط هذا الضرب الوحشى المبرح ، وقد ارتبكت فى البداية فلم تدافع عن نفسها فأشبعت ضربا حتى نزفت دما من أنفها ومن لثة أسنانها ، من ثم هبت تدافع وتحمى نفسها بغريزتها وأخذت تصرخ ، " الحقونى، الحقونى . . . . . . "

أثار صراخ سونينغ ضيق وثورة أبيها سوهونغ تو فاقد الصواب ، مما دفعه بمشاعر الغريق الذى لا يخشى البلل ، ومشاعر من يواجه النهاية إلى أن يلكمها لكمة أفقدتها الوعى .

وعندما رأى يده ملطخة بدماء ابنته ، قلب المنضدة ، وركل الكرسى ، وعندما جاءت والدة سونينغ مندفعة نحوه تبكى وتصرخ ، مد يده ليضربها هى الأخرى ، فصدمته الأم بالحائط مباشرة فأفاق من سكره .

نقلت سونينغ إلى مستشفى الجراحة ، واحُتجِز سوهونغ تو فى نقطة البوليس .

وذهبت يانغ تشيانغ يون ، ويوان شن تشى ، وتشوشيا ولينغ الى المستشفى لزيارة سونينغ . تقضى اللوائح بألا تزيد زيارة المريض عن ساعة واحدة بل إن ثلاثتهن سيدخلن إلى العنبر واحدة تلو الأخرى على التوالى ، حيث إنه ليس مسموحا بدخول اثنين أو ثلاثة فى وقت واحد ، دخلت تشيانغ يون أولا ، ارتدت القناع الأبيض وفقاً للقواعد المعمول بها ، ودخلت العنبر الأبيض الذى تفوح منه رائحة كحول ثقيلة ، ونظرت عدة مرات حتى تعرفت على سونينغ ، الأربطة والجبائر ملفوفة على عنقها مما جعل ملامحها النحيلة تبدو غليظة متورمة .

لوحت تشيانغ يون بيدها وهى تنادى : " سونينغ . " وأسرعت نحو سريرها ، وبددت بوقع قدميها على الأرضية السكون الذى كان يلف العنبر .

ترقرقت دموع الامتنان والتأثر فى عينى سونينغ ، كأنما رأت أقرب الناس إليها وأكثرهم اهتماما بها وبدت فى حالة معنوية جيدة للغاية ، قالت : " إن جرحى ليس خطيرا ، ويمكننى مغادرة المستشفى بعد يومين . " وقالت لتشيانغ يون ، " إن هذا العنبر رائع ، نصف المرضى به أعضاء بالحزب الشيوعى ، والجميع يتبادلن عبارات السلوى والتشجيع ، والنقد أيضا ، فقد حدث أن انتقد الجميع إحدى المريضات بسبب أسلوبها غير المناسب فى التعامل مع الممرضة ، وليس هذا فحسب، بل قلن إنهن يقمن هنا حفلاً مسائيًا مساء كل يوم سبت.

إنه لمن عجائب الأمور ، أن تشعر سونينغ – التى يستولى عليها الضيق والكآبة فى أى بيئة – بدفء الحياة فى عنبر المستشفى .

سألتها تشيانغ يون " ألست حزينة لضرب والدك لك ؟

أستندت سونينغ إلى الوسادة الكبيرة المريحة ، وأطبقت جفنيها وهزت رأسها بالنفى .

فى تلك الليلة ، استدعانى والدى ، وكان يحتسى الخمر ويأكل الجمبرى ، ويبدو عابس الوجه يلعن نفسه لأنه ارتكب أبشع الجرائم .

شـعرت فى ذلك الوقت على غـير المتوقع بشىء من الحـزن والأسى ، لدرجة أننى أحسست بالتعاطف معه ، كيف يمكن لإنسان طيب أن يصبح على هذا النحو ، كنت أتمنى أن يصبح عضوًا صالحًا خيّرًا بعد هذه المرة.

لكنه مد لى يد الانتقام والأذى . . . .

ولم تتمالك سونينغ من أن تمد يدها تتحسس الرباط الذى يلتف حول رأسها . دعت تشيانغ يون للراحة قليلا ، وصبت لها كوبًا من الماء.

حتى أنـا نفسى لم أكن أتوقع ألا ينتـابنى ألم وحـزن بسـبب الضرب ، فـقد أعددت نفسى لأى شىء عندما كتبت خطاب الإبلاغ عن أبى. وعندما صفعنى على وجهى تلاشت مع أول صفـعة البقية الباقيـة فى قلبى من حب تجاه هذه الأسرة التى عانيت منها كثيرا.

أشعر فقط أن صحتى سيئة لـلغاية، وأننى ضعيفة هزيلة ، لقد كان هناك شىء من الظلم والقسوة فى الضرب الذى لقيته هناك دون جدوى . . . . . . "

شعرت كل من يوان شن تشى ، وتشوشيا ولينغ بالضيق وعدم الرضا وهما فى انتظار خروج تشـيانغ يون من العنبر، لأنهـا وحدها أخذت اربعين دقيـقة من وقت الزيارة ، ولم يتبق سوى عشرة دقائق لكل منهما ترى فيها سونينغ .

* * *

دخلت والدة سونينغ إلـى حجرة ابنتهـا وهى تحمل طبقـا به حساء الشـعرية ، وقالت : "صنعته لك بنفسى وأضفت بيضتين . "

وكانت سونيـنغ قد عادت إلى بيتهـا صباح اليوم ، بعـد أن ظلت حـجـرتها أربعة أيام بلا صاحب وغطت طبقة من التراب كل مكان فـيها ، صورة جويا الزيتية التى علقتها تشوشيا ولينغ فى أعلى الركن الأيمن من الحجرة فى العام الماضى أنزلت زاويتها اليسرى العليـا من مكانها ، المقلمة البامبو التى يحبهـا سوجون مقلوبة فوق المنضدة . الجو حار ، وهناك ذبابة تحوم حول النافذة .

سونينغ تقبع فى الفراش ، تلقت الحساء من والدتها ،ورشفت منـه رشـفة ، إنه شديد السـخونة ، وضعت الطبـق على المنضدة البامـبو ، ومدت يدها فـعدلت وضع المقلمة .

انتحت والدة سونينغ جانـبًا وجلست عاقدة يديها على صدرها ، تبدو ضـعيفة وبدينة فى الوقت نفـسه ، فى ذقنهـا شامـة سوداء تكبـر وتصغـر تبعًـا لانفراج أو انكماش عضلات الوجه.

قالت وهى تضرب بيدها العريضة على ساقيها "لقد جاء مسئولون من الحكومة أول أمس وقاموا بتشميع كل الدقيق الذى كان بالحجرة الغربية .

" . . . . "

وتنهدت الأم واسـتطردت تقول " لقد أرسل والدك خطابًا ، إنه يشعـر تجاهك بالأسف الشديد ، وقد كان مخموراً فى ذلك الوقت ، وهو يرجوك ألا تكرهيه.

همهمت سونينغ فى سخرية.

" لقـد رفعت المحكمـة الدعوى ، وهـو يقول إن هذه المرة لن تسلم الجـرة ، ويتـوسل إلينا أن نسارع فى إيجـاد طـريقـة لمسـاعـدته وقد انتـهـت الـتجـارة ، والدقيق لا يمكن نـقـله أيضًا ، الأمـوال السـائلة فى أيدينا قليلة للغاية ، مع وجود إنفاق دون وجود دخل فى الوقت الحالى . . . . "

تتناول سونينغ حساء الشعرية ، وهى تستمع إلى ثرثرة أمها دون أن يظهر عليها أى رد فعل ،وكأن هذه الأمور لا تمت لها بصلة من قريب أو بعيد.

" والناس هذه الأيام أمرها عجيب ، ما إن سمعـوا بما حدث لوالدك ، حتى تكاثروا ، كل يطلب دينه. قبل يومين جـاء "ده جويونغ" يطلب ثمن صلصلة فول

الصـويا ، وأرسل "يون فاخـو" رسولاً يقـول إننا اشتـرينا فى الربيع الماضى مـائة وخمـسين كيلو جرامًـا من الفحم نمرة واحـد ولم ندفع ثمنها . . . . ببـساطة إنهـا أمور لا يمكن تجاهلها ، ولا يمكن تحملها.

أخذت أم سونينغ تتكلم بطريقة مشوشة ، مما جعل الكآبة تزحف على الحجرة، ودعت سونينغ إلى إضاءة مصباح الكهرباء.

"إننى لا يهنأ لـى نوم فى هذه الأيام أيضًـا ، حـيث إن جـفن عـينى اليـمنى يتراقص باستمـرار وليست لى شهية لتناول الطعام ، فـفى المساء تناولت قطعة من خبز المانتـو ، ثم أرجعتها لأنى أحـسست طعمها مرًا ، وصـنبور الماء بالمطبخ أصابه عطل، تنزل منه المياه قطرة قطرة ، دون أن يتم إصلاحه . . . . . . "

ومـضت لحظة دون أن يسـمع فى الحـجرة سـوى صـوت سـونينغ وهى تأكل الشعرية وتشرب الحساء ، ثم عادت والدتها تقول:

"لقـد طردت الـدادة تشـاو . . . . .إننى أفكر دائمًـا هذه الأيام ، مـاذا نفعل نحن الاثنتـان إذا صدر الحكم ضد والدك ؟ إننى أفكر أن نبيع المنـزل حينئذ ، وننتقل لنقيم فى بيت جدك فى جينان ، حتى يمكن أن يرعى كل منا الآخر.

وتحركت سونـينغ عندما سمعت عن بيع البـيت ، فهم يعيشـون فى هذا البيت منذ أكثر من عشرين عامًا ، وولدت سـونينغ وعاشت فيه ، وعندما كانت فى المرحلة الابتدائية ، كانت تتردد على بيوت كثير من زميلاتها ، فوجدت أن أيًا منها لا يرقى إلى مستوى بيتهم روعة وجمالاً . . . .

وسألت أمها فى شك وريبة:

"ألا يمكنك إذن الاستمرار فى الإقامة فى بكين ؟

"إننى أخشى الوحدة هنا ، ثم إنه ليس حـلاً أن ننفق بلا عمل ، لأن ما لدينا سينفد وإن كان جبلاً من ذهب ، علينا أن نعود . . . .

" لا ، لن أسافر ، إننى على وشك التخرج ، وبعد ذلك أتقدم للامتحان للالتحاق بجامعة بكين .

تساءلت الأم فى دهشة : "أتلتحقين بالجامعة ؟

"ماذا ؟ " واندهشت سونينغ لدهشة أمها .

"يا ابنتى ، ليست المسألة أننى لاأرغب لك مزيدًا من سنوات الدراسة ، ولكن انظرى إلى أحوالنا ، أيمكن تمويل مصاريف تعليمك بالجامعة ؟ ثم إن صحتك ضعيفة ودروس الجامعة مرهقة ، وربما لا تحتملين مشقتها ، وقد تقدم العمر بوالدتك أيضا ، ولست أدرى متى يدركنى الجوع . لتبحثى عن عمل بعد تخرجك من الثانوية ، ويمكنك تحقيق دخل فى وقت مبكر عدة سنوات.

"أتفكرين حضرتك فى عدم التحاقى بالجامعة ؟ هل هذا معقول ؟! "

تنهدت الأم من جديد ، وفركت عينيها ، فسالت منهما الدموع، وسعلت وهى تقول ، زيدى على ذلك أننا لا نعرف فى أى مكان من البلاد يتم توزيعك بعد التخرج ، وإننى لن أستطيع الحياة إذا ابتعدت عنك . . . . ابنتى ، لقد أبلغت عن والدك ، وأنا لا أوجه لك لومًا ، لأنك كطالبة فى مدرسة الحزب الشيوعى لا يمكنك أن تفعلى غير ذلك. ولكن - وقد انتهى والدك - لا تتخلى عن والدتك ، يجب عليك أن توليها رعايتك ، لنذهب إلى جينان بحثا عن عمل هناك . . . . . .

أم سونينغ لا تبارى فى قدرتها على ذرف الدموع حيث يمكنها استدعاء الدموع فى أى وقت ، ولكن هذه الدموع دائمًا قادرة على أن تقلق سونينغ وتثير شجونها . وهى تحب ابنتها كثيرًا ، وهذه حقيقة لا جدال فيها ، لأنها عندما يثور لديها دافع عاطفى للحديث عن شجون الماضى ، تكون سونينغ أكثر من تنصت إليها وهى تحكى كيف أنها ذاقت "مرارة الحياة" ، وكيف تكون الخادمة ذات مكر وحيلة ،

وكيف فقدت مستلزمات الملابس من الحقيبة ، إلى آخر ذلك . ولكنها الآن وهى تناقش مستقبلها هى وسونينغ فى تأثر وحزن ، نجدها بجسمها البدين الثقيل مع صوتها الضعيف ذى النبرة الحزينة ، تثير فى سونينغ نوعًا من الشعور بالرغبة فى الضحك ، ناهيك عن أنها تجعلها مضطربة فى حيرة من أمرها .

"أماه لا تعقدى الأمور ، إننى الآن أستمر فى دراستى على نحو طيب ، كيف إذن تطلبين منى أن أتوقف عن الدراسة بمنتهى البساطة وأكون بصحبتك لأبعد عنك الضجر والملل ؟ سوف أذهب غدا إلى المدرسة ، وإننى أنوى الإقامة بها ، وأتقدم فى المستقبل لامتحان القبول بكلية الهندسة ، وأحسن صحتى بممارسة التمرينات الرياضية ، على أى حال سيكون باستطاعتى متابعة دروسى الجامعية . أما بالنسبة للصعوبات المالية ، فيمكن أن أقدم التماسا إلى صندوق مساعدة الطلاب.

اكتشفت والدة سونينغ أن كلام ابنتها منذ خروجها من المستشفى دخلت عليه نغمة لم تكن موجودة من قبل قط .

وهذه النغمة التى سيطرت عليها تماما هى أنها أصبحت لا تكن حبا لأسرتها ، وتؤمن بمستقبلها إيمانا لا يتزعزع .

دخلت عليهما الدادة تشاو فكسرت جمود الموقف ، قدمت التحية لسونينغ ، وتوجهت إلى "الست " تبلغها قائلة:

"لقد كنست حجرة المخزن ونظفتها تماما . وبناء على طلب سيدتى ، استدعيت تاجر الروبابكيا مساء اليوم ، وبعت له الأحذية البالية وزجاجات البيرة الفارغة وسكاكين المطبخ القديمة والأجولة التى لا تستخدم وإسطوانة حديد خردة، بعتها كلها بيوانين ونصف اليوان . . . .

مدت الدادة تشاو يدها إلى صدرها بصعوبة لإخراج الفلوس ، واستغرقت وقتًا طويلا دون أن تفعل .

"خذى اليوانين ونصف لك ، أنـت على وشـك الرحيل ، وليـس لـدى ما أعطيك إياه من أشياء أخرى .

تأثرت الدادة تشاو تـأثرًا كبيـرا لهذه الهدية التى جـاءت فى الوقت المناسب ، حكت أنفها بقوة وقـالت فى صوت متهدج : "سيدتى ، لم أر مثـيلا لحضرتك فى هذا التعامل الـرائع مع الخدم أبدا ، إننى أتمنى ألا أفارق حضرتـك ، وأتمنى لسيدى كل الخير والسلام . . . . . . "

قاطعتها أم سونينغ ، وصحبتها إلى الخارج.

لم تأكل سونينغ سوى نصف طبق الشعـرية ، ووضعته وبه النصف الباقى على المنضدة ، ونسيت أمهـا أن تحمله معها ، وتبدو هذه الحجرة أكثـر اتساعا وكآبة تحت أضواء المصباح الكهربائى وخاصة ذلك السرير النحاس الكبير السمج ثقيل الدم الذى تنام عليه سونينغ ، والذى لا يماثل ما تنام عليه الفتـيات الصغيرات فى مثل سنها. وهناك ذبابة كريهـة تحوم فى هذه الحجرة باسـتمرار ، بحـثت سونينغ عن المذبة فلم تجدها .ومنذ أن عادت سونينغ من المسـتشفى وهى تشعر أن بيتهن قـد تغير أيضا ، هذا البيت الفسيح المريح عالى الأسقف الذى قضت فيه سونينغ عهد الطفولة بما فيه من دفء ، وغربة ، ومـرارة . . . . . . أصبح الآن مثل جـسد ميت متـيبس وذى رائحة كريهة ، وأصبحت أمها هى الأخرى قبيحة المحيا تفتقد إلى العقل والحكمة ، أما الدادة تشاو فقد كرهتها سونينغ من قبل.

تسـاءلت سـونينـغ وهى تضع يدها تحت ذقنهـا : "أيمكـن أن تكون هذه هى النهاية؟ وهى تنظر إلى البـاب المتعرج وتفكر فى هدوء بعد أن ذهبت أمهـا بعيدًا مع الدادة تشاو.

(٣٣)

الليل يزحف على الفناء شيئًا فشيئًا ، المصباح الصغير ذو الضوء البرتقالى - الذى بذلن جهدًا كبيرًا حتى علقنه خارج الغرفة - أصبح ضوؤه أصفر باهتا . المناضد والمقاعد وضعت على شكل بيضاوى ، وفرشت عليها ملاءات الأسرة من كل لون ، وتجمعت الزميلات للترحيب بالزميلتين اللتين انتقلتا حديثًا إلى العنبر . حفل الترحيب تقوم بتنظيمة لجنة المبنى السكنى لطالبات المدرسة ، ولكن تشارك فيه كل زميلات الفصل تقريبا .

أمام كل زميلة من الزميلات ، توضع أربع حبات من المشمش ذات اللون الأحمر الضارب إلى الصفرة وكوب من الماء المذاب به سكر لتكون بمثابة مأكولات ومشروبات خفيفة فى حفل الاستقبال ، وبينما هن على وشك بداية الاحتفال تهادت أصوات ضعيفة كثيرة مختلطة من " طنين " حشرة " زير الحصاد " التى جاءت قبل موعدها ، شأنها شأن الثلوج الأولى البيضاء وكلك أزهار الخوخ المتفتحة قبل الأخرى ، فكلها قادمة فى وهن ووجل وعلى استحياء ، فى الحقيقة أخذت أوراق الأشجار الكثيفة هى الأخرى تعلن عن مقدم فصل الصيف بحركاتها البطيئة المتثاقلة .

ثم انبرت مقدمة برامج سمينة تعلن قائلة : " أيتها الزميلات ، الهدوء ، الآن تتفضل الرئيسة الشرفية للعنبر الكبير - وتتشانغ فو - بإلقاء كلمة الافتتاح . . . . . .

وما إن سمعت تشانغ فو بأنها هى " الرئيسة الشرفية " حتى خالجها نوع من الشعور بالفخر لا يدانيه شعور آخر ، وعدلت من ثيابها ونهضت لإلقاء الكلمة، وقد رفعت كعبيها عن الأرض نظرًا لقصر قامتها :

" . . . . . . أولاً إننى - نيابة عن قدامى الزميلات المقيمات بالعنبر - أرحب ترحيبا قلبيًا حارًا بالزميلتين الجديدتين مارى ، وسونينغ ! وضج العنبر بتصفيق حار من الجميع ،

ثانيا أبدأ بتقديم المميزات التى يتميز بها عنبرنا : " أولا ، نحن نعلم أن الجنوب (قبلى) له مميزاته ، وأن الشمال (بحرى) له مميزاته أيضا ، ولكن هذا العنبر يجمع بين الاثنين ، حيث إن له بابًا على الشمال ، ونافذة على الجنوب ، بمعنى أن هواءه متجدد دائما ، دفىء شتاء ولطيف صيفا .

ثانيا ، إن العنبر كبير بطبيعته ، تبلغ مساحته حوالى ثمانين مترا مربعا ، وتقيم به كل طالبات الصف الثالث المقيمات بالمدرسة ، وكلما كان العدد كبيراً كان الأمر يسيرًا ، وليس هنا أدنى قدر من الضيق والملل ، لأن الحياة فى عنبرنا هذا غنية متجددة ، بما فيها الظروف الصحية والنظافة ، التسلية وحفلات الترفيه ، إلقاء الشعر والقصة ، والنقد والنقد الذاتى ، كلها تتم فى حيوية بالغة ، ثالثًا: فى عنبرنا هذا وحدة وتضامن ، والحياة به تمضى فى حرارة وحب بين الجميع ؛ فما إن تنتقل الزميلات اللاتى توجد أسرهن فى مناطق بعيدة إلى هذا العنبر حتى يتغلبن تمامًا على صعوبات البعد عن الجو العائلى . . . .

قالت تشوشيا ولينغ "كلام جميل " وهى تأكل وتشرب ، وبذلك تكون قد خرجت على "النظام" ، إذ أنها قضمت حبة المشمش ذات الطعم الحامضى اللاذع، دون انتظار الإعلان عن بدأ تناول "المشروبات والمأكولات الخفيفة"

* * *

كانت مارى قبل عدة أيام تنظر إلى الدنيا وهى منهكة متعبة عبر بحر من الدموع ، فترى كل شىء من حولها مختلطا ، غير واضح المعالم ، لا قيمة له ولا معنى . وبعد أن اجتازت هذه الهزة العنيفة ، استعادت توازنها، وأذعنت للانتقال إلى المدرسة وحضور الدروس وسماع شروح الأساتذة والمذاكرة والراحة حسب الأوقات المحددة . لا تشعر بحب ولا تشعر بكراهية أيضا ، حتى حماسها للدين أصابه بعض الفتور ، فقد أحبت ،وكرهت ، وتحمست كثيرًا عندما كانت فى عهد الطفولة . نشرت الصحف خبر إلقاء القبض على مجموعة من العناصر

الإمبريالية المتسترة بستار الدين الكاثوليكى ، إنهم بقـايا تنظيم "فريق الفداء للوطن داخل الأديان " الذى كونه الجـاسوس الكبيـر شانغ جيـان يوان فى محافظة شـيان بمقاطعة خـابى ، ومن بين هـذه الأسماء يوجد اسم جـوزيف كمسئـول عن أعمال الدعاية والإعـلام ، طالعت مارى الصحيـفة ،وقرأت حقـيقة جوزيف الإجـرامية. وحارت بين الشك واليقين.

"طوبى للذيـن آمنو ولم يروا[1] ، هذا الكلام إشارة إلـى الرب ، ولكن ماذا عمـا بين الناس ؟ أصدق أم لاأصدق ؟ ومن أصـدق؟ وهكذا وجدت مارى نفسـها حائرة بين أمرين دون أن تميل لأحدهما رغما عنها. ولم تشعر بشىء سوى التعب ، وانكسار القلب وفتور الهمـة : إذا رفعت يدها وجدتها تهبط لا إراديا ، وإذا هزت رأسها ، رغبت فى أن تواصل هزاته إلى الأبد . . . .

فى يوم الأحد ، استقلت مارى الترامورى إلى الكنيسة الشرقية لحضور القداس، حيث يوجـد فى بكين أربع كنائس كبـرى فى الشرق والغرب والشـمال والجنوب ، هذه الكنائس أكبر وأرحب وأكثر إشراقا من الكنيسة الصغيرة التى توجد فى "جمعية باو سقاو المقدسة"

صوت الأرغن الدقيق ينساب فى خفـة ، القس ذو العباءة الطويلة السوداء يقود تراتيل القداس فى صـوت جهورى أجش. والصليب الفضى المعلق فى عـنقه يتلألأ تحت الضوء الخافت.

جلست مارى على ركـبتيـها بين صفوف المؤمـنين ، وأثنت على الرب القدس المجيد ، فشعرت أن روحانية الدين المقـدس قد أعادت الهدوء والطمأنينة إلى نفسها العلية مـثل التنويم المغناطيسى ، مما ساعـدها على أن تلقى بحيـاتها المعقدة الماضـية خلف ظهرها.

(١) انظر الاصحاح العشرين من إنجيل يوحنا ، عندما جاء اليسوع لأول مرة بعد البعث لزيارة الحواريين - بعد أن كان قد قتل مصلوبًا - لم يكن يوجد توما بينهم فى ذلك الوقت ، ولما دعا أخبره أحد جواره ببعث اليسوع ، لكنه لم يصدق حدوث هذا الأمر ، وبعد ثمانية أيام رأى توما اليسوع رأى العين ، فقال له اليسوع : " لأنك رأيتنى يا توم آمنت ، طوبى للذين آمنوا ولم يروا "

انتـهت كل مـراسم القـداس ، وتراجع كل المصلين تبـاعـًـا إلى الخلف، وهم يتلمســون بأيديهم الصليب المعلق على البـاب فى احترام ، ثم يعـودون فيرسـمون صليبا على صدورهم . بينما تقدمت مارى وحدها إلى الأمام نحو القس العجوز

"سيدى أريد الحديث مع حضرتكم ، هل يمكن ذلك ؟"

جلسا فى قـاعة الضيـوف، وأخذت مارى تحدق النـظر فى ذلك القس الغريب عنها ، لقـد بلغ من العمر عتـيا ، منحنى الظهر ،أصلع الرأس، مـصاب بالـربو ، ولاعجب أن أنفاسه كانت مـتقطعة متهدجة أثناء إلقاء التراتيل. أصابعـه الدقيقة النحيلة ذات العقل المتصلبة تمتد فوق المنضدة، وترتسم ابتسامة على شفتيه الغليظتين الكثتين:

" يا رفيقة الدين الشابة ، هل أنت طالبة؟"

"اسمى مارى ، طالبة بالصف الثالث الثانوى ".

"واسمى خوان . أليست هذه أول مرة تحضرين إلى هنا ؟"

"لقد كنت أؤدى القداس من قبل فى جمـعية زهد "باوسقاو المقدس " . . . . ولكن الكاهن قبض عليه مؤخرًا .

"من هو "

"جوزيف "

"هو ! " وقد راح القس خوان يتحسس شعر ذقنه بأصابعه النحيلة .

"هل تعرفه حضرتكم؟"

"بل حدثينى أولاً "

قالت مـارى وعيناها تبرقـان من الخوف "كانت زمـيلاتى يأتين لزيارتى ،ومن بينهن عضـوات فى الحزب الشيـوعى ، غير أن الكاهن جـوزيف لم يكن يسمح لى

بالاقتراب منهن ، وقد انتقلت الآن لأقيم فى المدرســة ، وأستذكر دروسى معهن ، هــل أكون بذلك قد جافيت الرب ؟

"يا رفيقة الدين الشابة ، هل نشأت فى دار الرحمة ؟"

"نعم ، حضرتك . . . . "

" لقد كنت أنا الآخـر أخدم الرب فى دار الرحمـة ، أطفال هذه الدار جميـعا مصابون بالضعف والهزال ، ويتضح هذا من أول نظرة.

إن دار الرحمة مكان مخيف

"أحضرتك الذى تقول هذا ؟"

"نعم ! لقد كنت كل يوم أرى بضع عشرة جثة من جثث أطفال دار الرحمة ، حـيث كان الأجـانب يدعـوننى لأداء الصلوات عليـهم ، إنه أمـر مؤسف ، فـهم يشغلون الأطفال ويتاجرون فيهم، إنهم فريسيون(١)

"ماذا ؟" وقد تعجبت مارى واندهشت لسماع هذا الكلام من القس .

رمقـها القس خوان بنظرات حـادة صارمة ، كأنه يخـتبر مـدى استماعـها إلى حديـثه ، ثم اسـتطرد قائلا وهو يتنهـد فى تأثر : "لم أطق صبـرًا ، فتـركت هذه الدار، وجدت ذات مرة أنه جاءت فتاة صغـيرة تعلن عن توبتها ، قالت إنه كان لها صديق طيب صغـير - وقد كان اسم صديقـها هذا اسما غـريبـا ، مازلت أذكره ، نعم اسمه ماوما وجوان ،قالت إنه مات من جراء عقاب الراهبة وتعذيبها له ، وأنها بكت من أجله ، ومن ثم تكون قد أذنبت وأنها تتمنـى لنفسها الموت . . . . . ماذا أصابك ؟

(١) انظر الإصحاح رقم ٢٣ بإنجيل متى ، حيث يعدد اليسوع مساوئهم وجرائمهم .

وكانت مــارى قد اصفــر وجـهها وتحدرت دموع الحسرة والمرارة من مــآقيها ، وسالت على خديها .

وتصل خدها

وقالت مارى فى صعوبة "هذه الفتاة هى أنا "

"شكرًا للرب ، فقد التقينا مـرة أخرى " . وقد أحنى القس خوان رأسه وراح يتلو بعض تراتيل الشكر لله، وسمع صوت مارى الحزين المبتئس وهى تقول :

"أيهــا القــس خوان ، لقـد التقيت بحضرتكم من جـديد ، لأكفر عن ذنبى أيضا . . . . "

"لست أنت المذنـبـة ، ولكنهم هؤلاء الـفـريسـيـون ، الدخــلاء على الدين المسيحى، الذين يسعون إلى السلطة ويمارسـون العبث والفساد ، يا للخزى والعار ! بعد استســلام العدو اليابانى بوقت قصيـر ، أخذ الكاردينال تيان فنغ شن يصلى من أجل تشانغ كاى شـيك ، حيث أدى صلاة القداس لمدة ثلاثة أيـام ، فعرفت آنذاك أنه فـاسد ! وكنت قـد تقدم بى العـمـر ، ولا أنطق الكلام بوضوح . يوجـد أهل السوء، هذه حقيقة ! ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحدًا ، ومتى حصـل تصنعونه ابنًا لجهنم أكثر منكم مضاعفًا . . . . " هل تحفظين؟

"نعم أحـفظ " ، وأخذت مـارى ترتل عن ظهر قلب فى صـوت خفـيض ، "تتقون خارج الكأس والصفحة وهما من داخل مملوآن اختطافا ودعارة . . . . هكذا أنتم أيضا من خــارج تظهرون للناس أبرارًا ولكنكم من داخل مشـحونون رياء وإثما . "(١)

"صدق اليسوع " ورســم القــس خــوان صليـبا بيــده واستطــرد يــقــول ، " وأحـسنت قـولاً . وإن دار الرحمـة لهى الرياء بعـينه ، والمشــاركـة فى الأنشطة السياسية المناهضة للحكومة هى الإثم . "

(١) انظر نص الاصحاح الثالث والعشرين من إنجيل متى .

"هل تحب حضرتكم الحكومة الحالية ؟"

"أيمكن أن تسألى القس يحب أو لا يحب ؟ إنه يستمع إلى أوامر الرب" .

"إذن هل يمكن أن أختلط بزميلاتى ممن لا عقيدة لهن ومن أعضاء الحزب الشيوعى ؟ "

"كيف يمكن أن تختمر ثلاثة أكيال من الدقيق ، إذا نزعت منها الخميرة " (١)

أقبل الترامواى ، نهض أحد رفاق جيش التحرير وأجلسها مكانه ، استدارت برأسها وأخذت تنظر عبر زجاج النافذة إلى المحال والأبنية والمسارح . مازالت هناك غشاوة من الدموع تكسو عينيها ، لكنها عندما تذكرت العناية الفائقة التى توليها زميلاتها لها فى الفترة الأخيرة ، انخلعت على وجهها ابتسامة من أعماق قلبها .

وقبل أن تكمل ابتسامتها ، تحول فكرها إلى جوزيف والفريسيين . . . . . إذا صح هذا الأمر يكون قد خدعنى خديعة كبرى ! ثم أخذ الضيق والشكوك يستوليان عليها من جديد . . . . وأخيراً استطاعت أن تطرد هذه الأفكار المؤرقة من رأسها من خلال توجيه الشكر لزميلاتها ، وبعيداً عن الدموع ، رأت العالم أكثر رحابة وإشراقاً . . . . " ربما قلقت تشن بوا من طول انتظارى ؟ وهى تنظر إلى الساعة المتلألئة خارج السوق .

* * *

أنهت ووتشانغ فو كلمة الترحيب بروح الفكاهية الماهرة ، وانطلقت أصوات الضحكات مجلجلة فى الفناء . وقد جاء دور الحديث إلى مارى وسونينغ .

(١) تفسير للمثل ٣٢ من الاصحاح رقم ١٣ فى إنجيل متى ، حيث شبه الدين بالخميرة ، وشبه البشر بثلاثة أكيال دقيق ، وأن هذه الخميرة قادرة معلى التفاعل داخل الدقيق ، والقس خوان يقصد هنا أن يشجع مارى على عدم العزلة عن الجماعة .

نظرت مارى إلى الحضور فى وجل وخوف ، وشجعتها الزميلات على الحديث خلال نظرات الود والحب والثقة ، فانبرت تقول : "ميلاتى الأعزاء . . . ." ثم أخذت تتأتئ دون كلام .

"تكلمى ، تكلمى يا مارى ! "

" لا بأس ، تحدثى على سجيتك . "

شجعها الجميع ، ومنهن من شدت طرف ثوبها بخفة.

وواصلت حديثها ، "شكراً لجميع الزميلات ، وشكراً لووتشانغ فو التى أثارت كلمتها ضحكات الجميع ، إنها خفيفة الظل بحق ، وتبدو هذه الضحكات بالنسبة لى كأنها شىء غريب ، حقيقة ، ولكن عنبركن هذا - لا - بل عنبرنا جميعا، يموج بالضحك كل يوم ، لذلك أشعر أننى تغيرت كثيرا رغم أنه لم تمض سوى عشرة أيام على انتقالى إلى المدرسة ، أشعر كأن الحياة بدأت من جديد ، وأن الأحداث المؤلمة تتلاشى شيئا فشيئا ، فى وقت من الأوقات ،كنت حمقاء، بلهاء، جثم سوء الحظ والنحس على أنفاسى ، آنذاك أظلمت الدنيا فى وجهى . . . . كل ذلك مضى وانقضى . . . فالجميع يعاملنى معاملة طيبة ، وليس بوسعى إلا أن أقول: الزميلات العزيزات إننى الآن أستطيع أن أعيش ، نعم لدى الثقة فى أن أعيش ! "

تشن بوا تنظر إلى مارى نظرات قلق وانتظار ، ماذا عسى مارى أن تضيف ؟ . . . . . . هل انتهت كلمتها ؟ إن توتر تشن بوا وقلقها لا يقل عن مارى نفسها . وهكذا أطلقت مارى التى عاشت تسعة عشر عامًا من عمرها لا يتحرك لها ساكن ، أخيرا أطلقت حنجرتها التى لم تشف من سقمها بعد أول شعار لها فى نبرة مؤكدة ومجلجلة . . . .

مضت لحظة هدأ فيها الجميع ، حتى ليمكن أن تسمع أصوات أنفاسهن . ثم كانت تشن بوا أول من أقبلت على مارى، واحتضنتها ، وصافحتها ، وتبعها فى ذلك كثير من الزميلات ، يحتضنها ويضحكن ويقدمن لها المشمش.

وعندما دب النشاط فى ساحة الاجتماع من جديد ، نهضت سونينغ ، وقد احمر وجهها من فرط التأثر ، ترتدى ملابس جميلة : بلوزة ذات لون بنفسجى فاتح، وتنورة طويلة تكاد تلامس قدميها من الحرير الأزرق اللون.

"ليس عندى ما أقوله الآن ، فقد سبقتنى مارى إلى ما كنت أريد الحديث فيه واستطردت وقد ظهرت فى صوتها نبرة صوت رجالى غير معتادة ، إن لى مطلبين أريد أن أطرحهما الآن : المطلب الأول ، هل يمكن أن تقبلنى تشوشيا ولينغ كلاعبة احتياطية عند تشكيل فريقها ؟ إن صحتى سيئة للغاية ، فقد كنت دائما "أهرب" من حصة التربية البدنية، آمل أن توجهنى توشيا ولينغ مثل فتى صغير يتعلم حرفة . . . .

لم تنتظرها تشوشيا ولينغ حتى تنتهى من كلامها وصاحت قائلة : "شىء رائع ، وأهلا بك !

"أما المطلب الثانى ، وقد أحنت سونينغ رأسها كأنها لم تعتزم الكلام بعد ، ومضت لحظة قبل أن تبدأ كلامها فى تؤدة: "ربما أكون أنا الطالبة السلبية التى لا تتقدم بسرعة فى فصلنا ، ولكننى عقدت العزم على الانطلاق نحو الأمام. فقد عشت من قبل بين أنات بلا مرض ، وانكسار معنوى وعزيمة واهية دون سبب واضح وضاعت كثير من أوقاتى الثمينة سدى . . . .

ومن الآن فصاعدا لن أكون معصوبة العينين ولن أترك زمام نفسى ومقاليد حياتى للآخرين، إننى أطلب . . . . . . أن تقوم رابطة الشبيبة الديمقراطية بتوعيتى، وإننى أريد الانضمام إلى صفوف هذه الرابطة !

أنهت كلمتها وأسرعت بالجلوس دون النظر إلى من حولها ، وجاء الرد على طلبها عاصفة من التصفيق الحار.

" طالباتى العزيزات ! " ورفع الأستاذ يوان النظارة ثم وضعها على عينيه من جديد فى سعادة ، "بينما نحن نجتمع هنا، يمضى بنا الوقت دقيقة بعد الأخرى ، وبعد مضى ثلاثين يوما ، أو أكثر من أربعين ألف دقيقة - باستخدام الطريقة الحسابية التى درستمونها - تتخرجن من هذه المدرسة . وها نحن قبل التخرج . نعقد هنا مثل هذا الاجتماع الذى يعبر عن روح التضامن والسعادة والذى لا ينسى . حقيقة ، لقد تعلمت منكن - وأنتن طالباتى - خلال هذا العام الذى كنت فيه رائدًا لفصلكن أكثر مما علمتكن ، وهذا أمر يدعوا إلى الخجل الشديد . . . . وعلى مدى سنوات عديدة ، قدم إلى مدرستنا طالبات كثيرات دفعة تلو الأخرى ، وتخرجن منها دفعة تلو الأخرى أيضا ، لكننى لم أشهد أبدًا فصلا على هذا النحو من السعادة مثل فصلكن هذا . لقد رأيتن بأمهات عيونكن كيف ينهار المجتمع . ذلك وأنتن طالبات بالمرحلة المتوسطة ، عندما كانت أجسامكن وقلوبكن الشابة تنمو بسرعة ، وفى الوقت الذى هبت فيه على بلادنا عاصفة شديدة ورياح تغيير قوية .إننا نرحب بماري وسونينغ ، ليس لأن انتقالهما للإقامة فى المدرسة فيه ما يدعو إلى الزهو والكبرياء ولكن لنجاحهما النضالى . وقد رأيتن فى الوقت نفسه الحياة الجديدة وهى تقام على أنقاض الماضى ، ورغم أن بناء البلاد بدأ حديثا ، ورغم إننا أثناء الاجتماع لم نأكل سوى المشمش لاذع الطعم ولم نشرب سوى ماء مذاب به سكر ، إلا أننا نشعر بالسعادة والدفء والشقة ونشعر أن الحياة تنبض بالنشاط والحيوية إلى الأبد . . . .

والآن ، دعونا نحمل كؤوس الماء بالسكر وننهض لنشرب نخب وحدة فصلنا وتقدمه ، ونخب صحة الزميلات المقبلات على الحياة . . . . "

وقبل أن يقول الأستاذ يوان "فى صحتكن " ، وقبل أن تنهض الزميلات وقوفًا، جاء صوت يقول "انتظروا ! "

توقف الجميع ، وراحوا يبحثون عن مصدر الصوت - وجدوا لى تشون تقف فى أحد الأجناب التى لا يسطع فيها الضوء بصورة قوية ، ويبدو وجهها مختفيا فى الضوء الخافت :

" أريد أن أقول كلمة أنا الأخرى قبل شرب النخب ، معذرة على أنى سوف أزيد من متاعبكن ، يمكن أن تقلن إننى أحب الأضواء . . . . . . ، وأضافت لى تشون ساخرة من نفسها ، حتى إن نبرة حزينة ظهرت فى صوتها : " إننى أشعر بالخجل من نفسى ، وأنا أرفع كوب الماء المذاب فيه سكر ، وذلك لأننى لم أقدم شيئا من أجل وحدة فصلنا وتقدمه . فقد كنت أعتقد دائما أننى الأكثر ذكاء ، لأننى كنت لا أهتم بالآخرين ، وأركز كل جهودى من أجل نفسى فقط ، وأتمنى أن أحقق لنفسى مكانة رفيعة فى الفصل ، وأحظى بالاحترام والطاعة من كل الزميلات . ورغم أننى عضو برابطة الشبيبة إلا أننى أشعر أن هذه الرابطة مشغولة دائما دون أن تحقق شيئًا .

حسنا ، إننى مجتهدة ، وأعرف كيف أحصل على درجات عالية ، ولكننى لا أعرف كيف أكون إنسانا - تمامًا كما قال لى الأستاذ يوان - إننى لا أدرك شيئًا فى الحياة ، ولا أفهم أن الحياة تكون معقدة ومليئة بالصراعات وإن كانت بين زميلات شابات .

أما الآن ، وفى وقتنا هذا ، يجب ألا أكون متكبرة ، وألا أكون بمعزل عن الجماعة أبدًا . ربما أكون قد شططت بعيدًا ، إننى أحترم سونينغ لإبلاغها العادل عن أبيها الى السلطات ، وأتعاطف مع مارى فى حظها العاثر ، وأشعر بالتأثر أكثرلتلك الرعاية التى توليها جماعتنا لكل عضو بها ، ومن ثم أشعر أيضًا أننى كنت متكبرة ونفعية إلى حد كبير ، وأريد أن أتقدم فى ركب الزميلات ، وأرغب أولاً أن أصافح أكثر الزميلات سبًا وشتمًا لى - يانغ تشيانغ يون . . . . . ،

صافحتها يانغ تشيانغ يون وقالت فى صوت على : لا ، لقد جاء كلامها مبالغًا فيه الى حد كبير ، فهى تحب الكدح والعمل الجاد ، وهى قدوة لنا جميعًا ، ولعل من بين الزميلات من لا تعرف أن اتحاد الطلاب أعلن أن جهاز الراديو الذى صنعته بالاشتراك مع زميلة أخرى ، سوف يرسل ليعرض فى معرض المنتجات العلمية للطلاب على مستوى البلاد ! "

بعد ذلك وقفت جميع الزميلات فى نشوة وسعادة ، ورفعن الأكواب المليئة بالماء والسكر إلى أفواهن وأنزلنها فارغة فى مرة واحدة .

وبينما كن على وشك الانصراف ، رفعت يانغ تشيانغ يون يدها فى عجالة ، " آنستى رئيسة الاجتماع دعونى أطرح فكرة . . . نظر الجميع نحوها .

قالت تشيانغ يون : " إن اجتماعنا شيق ورائع للغاية وجو الليل جميل ، إننى أقترح من أجل الاحتفال بفصلنا ، وعهد الدراسة الثانوية الذى يكاد ينقضى أن نرفع جميعا الشعلة ونخرج فى تظاهرة فى الشارع الكبير ، ربما كان اقتراحى هذا خيالى، أليس كذلك .؟ وبهذا الصدد يمكننى أن أقوم بالنقد الذاتى فى اجتماع جماعة منظمة الشباب ، لكننى أريد أن أقترح على الأقل أن نتجول معًا فى أنحاء المدرسة ، تلك المدرسة التى ترعرعنا فيها واحتضنتنا ست سنوات من عمرنا وقضينا فيها حياة متلونة كاملة كل طريق وكل ممر ، بالمدرسة ، مشينا عليه عشرات بل مئات المرات ، لكننا لم نحب مدرستنا على النحو المطلوب بعد ، لدرجة أننا لم نتجول بها خصيصا لمشاهدتها ، فهل يمكن أن يحدث ذلك ؟ هيا نمضى معًا ، فربما استطاع ركن أو مكان ما فيها أن يوقظ ذكرى جميلة ، ويجعلنا ندرك أن الحياة فى تقدم ، وتغير ، ويثير عواطفنا تجاه مدرستنا . . . . . "

وهكذا مضت الزميلات ثلاث أو خمس يتفقدن مدرستهن ويزرنها ، ويتجولن فى الملاعب ، ويتحدثن عن طموحاتهن ، وعن صداقتهن ، وامتحان التخرج ، ومشاعر النبل والنقاء والصفاء تسيطر على حديثهن السامر الذى لا يحده أفق ، اقتربن من كل أنواع الأجهزة والأدوات الرياضية ، تقافزن ولمسن شبكة كرة السلة ، وضربن بأيديهن على المفاصل الحديدية فى قوائم كرة الطائرة ، ولمسن الحواجز التى تم تركيبها حديثا .

واقتربن من القاعة حيث كانت طالبات الصف الثانى يقمن حفلاً مسائيا مع طلاب إحدى المدارس وحيث تمتزج الضحكات والأغنيات . . . . . وأخيرا ، وحتى

لا يزعجن أخـواتهن الصغيرات المجـتهدات ويعكرن صفـوهن ، مشين على أطراف أقدامـهن ، ومضين فى خطى حـثـيثـــة من أمام فصل الـصف الأول الإعدادى ، وشـــاهـــدن أعـــضاء فـريق الطلائع الصغيرات فتـذكـرن الأيـــام الأولى لقــدومهن إلى المدرسة . . . . .

(٣٤)

إننى أبحث دائمًا عن لون من ألوان الحياة المشرقة الرائعة الغنية الخصبة . وهذه الحياة تنتشر من حولى ، إنها حياة الطلاب فى مرحلة التعليم المتوسطة .

. . . . كانت إحــدى ليالى الشتاء حـيث الرياح والثلوج ، والنجوم فى السماء ترسل ضوءًا باهتـًا خافـتـًا يبعث على الكآبة ،والشوارع انكمشت وراحت فى ثبات عميق ، ومرت مـصادفة سيارة ماركة "جيس" تتســاقط من أنبوب العادم بها بضع قطرات من الماء . دخلت إلى صالة فسيحة ، واجهنى مزيج من دفء أصوات ضـحكاتهن المخـتلطة بدفء مـوقـد الفحم،خـلعت معطـفى ، ورأيت الفـتيـات الصغيرات الإحــدى عشرة ، كلهن فى حوالى السابعة عشرة من عـمرهن ، تتبادلن النظرات البراقة المفعمة بالشباب والحيوية، أصوات الضحكات تقرقع فيما بينهن هنا وهناك. بينهن فتاة تكبرهن قليلاً فى العمر ، ربما تكون قد تجاوزت العشرين ، تعلق على صدرها شعار إحدى الجامعات.

يتحدثن جميعا عن مسابقة هوكى الجليد التى جرت أمس فى بحيرة شيشخاى، وإحدى القصص الشعرية المنشورة فى العدد الأخير من مجلة (الأدب الشعبى) دقت ساعة الحائط تمام الثامنة ، ساد الهدوء المكان فى التو واللحظة ، وأخرجت كل منهن - بما فيهن الطالبة الجامعية - منديل الرقبة الأحمر من جيبها ، وربطنها جيداً حول أعناقهن ، ومن بينهن فتاة صارمة جادة علقت على ذراعها الأيسر شارة رئيس فريق طلائع الشابات الصغيرات. بل إن ربة هذه الأسرة رفعت هى الأخرى العلم الخاص بالطلائع . . . .

هيا يا أطفال الصين الجديدة

يا طلائع النشء الجديد . . . . . .

واتجهت "رئيسة فريق الطلائع " إلى تلك الطالبة الجامعية قائلة:

"لقد تمت الاستعدادت للاحتفال بيوم الطلائع الواحد والأربعين لفريق الطلائع الذى فاز بجوائز شرفية أربع مرات وأطلق على نفسه اسم البطلة ليو خولان ، وإننا نطلب إلى المشرفة أن تأذن لنا ببدأ يوم الطلائع.

"تفضلن ، مع تمنياتى لكن بالنجاح ! ورفعت المشرفة يدها لترد التحية.

وقبل عامين ، كُنَّ أعضاءً فى فريق ليو خولان بالمدرسة رقم ٢١ الإعدادية للبنات ، وبعد أن تخرجن منها ،تفرقن ، وكبرن ، وتركن فريق الطلائع . ومن منطلق تقديرهن لفريق طلائع ليو خولان، وللصداقة التى تربط أعضاء الفريق، قررن أن يتجمعن فى إجازة الشتاء من كل عام ، ويمضين يوم الطلائع معًا ، يربطن المناديل الحمراء حول أعناقهن ، وتضع رئيس الفريق شارة على ذراعها ويدعون المشرفة السابقة قبل الموعد لتقوم "بالإشراف " آنذاك تقوم "الأعضاء " - اللاتى تفرقن بين المدارس الثانوية والمدارس الفنية ومدارس المعلمين - بالإعلان أمام الصديقات.

لقد مضى عام ، فأى سبيل سلكنا لنضيف إلى أمجاد فريق طلائع ليوخولان أو لنسىء إليه .

"كانت الأمطار تسقط بغزارة فى ذلك اليوم ، وتضرب فى عينيك حتى لتعجز عن الرؤية ، استطردت تسوى لى ذات البشرة السمراء تحكى ، "زلت قدم أحد الأطفال ، تسرع من الخلف عربة لورى ، استندت أمه إلى شجرة فى رعب وهلع ، وأسرعت أنا نحوه لأنقذه ، فزلت قدمى أنا الأخرى وجذبته بعيدًا جذبة قوية . . . . . . سألنى رجل المرور عن اسمى ، أجبته : "عضو فريق طلائع ليوخولان"

عزيزى القارئ ، لماذا تضحك ؟ إن الثقة فى مشاعر الحب الودى والحماس والصدق فى الحديث فى عهد الطفولة ، هى جميعًا أكثر الأمور أهمية وجدية فى حياة الإنسان.

* * *

لنتحدث قليـلا فى أمور الأطفال الذكور ، فـإننى أشعر بالأسف لأن ما كتـبته عنهم قليل للغـاية ، لقد شـاركت ذات مرة فى إحدى جلسـات النقد للمـجمـوعة المصغرة لرابطة الشبيبة ، لقـد كانت جلسة لا تنسى ، رغم أن مجالس النقد ليست من الأمور النادرة فى حياتنا .

نهض فتى ذو شعر مجعد قصيـر ، مازال فى عمر الطفولة ، عيناه تتقدان ذكاء وبساطة ، يطل منهما شعاع لا يحمل الخوف وفتور الهمة ، ولكنه يحمل مشاعر ألم ومرارة إدانة النفس ، ومشاعر الترقب والانتظار كأنه يدعو زملاءه لتوجيه الاتهامات إليه ، وقد تعلقت ابتسامة على طرف شـفتيه من الصعب أن تنفرج ومن الصعب أن تزول أيضـا ، وأصابعـه تقبض بإحكـام على طرف المنضدة ، وقـد هرب الدم من أنامله.

وتكلم فى صوت خفيض وعميق فقال :

"لقد ارتكبت خطأ أثناء امتحانات هذه المرة . . . .

ثم عرفت بعـد ذلك أنه اختلس النظر إلى ورقة تلمـيذ آخر أثناء امتـحان مادة الرياضيـات ولم يكتشف ذلك أى من الأسـتاذ أو التلمـيذ ، وحصـل على درجات ممتازة ، لكنه لم يحتمل ذلك ، وأعلنه على الملأ :

" لقـد خرجت على التـقاليـد والنظم المدرسـية ، وتذكـرت كيف كـان تشن شاديون يحترم هذه النظم . . . ، وعندما ذكر اسم تشن شاديون ، رأيت جـسمه يرتجف ، وحاول عدة مـرات أن يواصل الكلام ، لكنه لم يجد سبيلا إلى فـتح فمه الذى أغلق بإحكام ، جفنه ينسدل فوق عينه رويداً رويداً ثم يرتفع فى صعوبة ، لم يبك ، فالبكاء نادر عند الرجال ، لذا كان تأثره أشد وأعمق . "

سانده كثير من الزملاء بقولهم " شد حيلك . قوى الهمة !

استمر في صمته المطبق ، تناول رئيس اللجنة المصغرة للرابطة ورقة من دفتر مذكراته ، وكتب له هذه الكلمات فى عجالة : " عليك أن تظهر الخطأ ، ولا تخف شيئًا ! ووصلته الورقة عبر أيدى الزملاء .

ولا عجب أن يشير كبار المسئولين فى رابطة الشبيبة دائما " جنوح " الطلاب نحو اليسار فى أثناء عمليات النقد والنقد الذاتى ، وهذه هى حقيقة الأمور ، لكننى أستطيع وسط هذا الهدوء المشوب بالتوتر الزائد أن أسمع خلجات كل قلب من القلوب الطامحة الى الكمال ، والتى لا تدع ذرة من دنس تتسلل إليها .

وبعد ذلك جاءت الكلمات الجادة الصادقة من الأعضاء الآخرين فى لجنة الرابطة المصغرة، وجهوا له الانتقادات الحادة ، ثم أعربوا تباعا عن ثقتهم فيه أيضا ، وثقتهم فى قدرته على تجاوز الخطأ الذى وقع فيه وفى أن يصير أكثر كمالا وإتقانًا ، كان يسجل قدر طاقته ، حيث سجل أراء جميع الزملاء . كان يرفع رأسه ويومىء فى تأثر وامتنان من حين لأخر . وكان أحد المتحدثين قد تشاجر معه فى الماضى ، وعلاقتهما ليست طيبة ، وساوره شعور بالشماتة فى أول الأمر ، ثم مالبث أن انتقل إليه الشعور بالصدق والصفاء الذى يسود جو الاجتماع ، وراجع نفسه ثم صافح زميله . وصفق لهما جميع الحضور . وقفزت معنوياتهم فجأة من القاع إلى القمة ، وبعد الانتهاء من النقد راحوا يتحدثون عن انطباعاتهم عن جلسة النقد نفسها ، ومكاسبهم وخبراتهم تزداد شيئا فشيئا ، وشعر الجميع بحب أكبر تجاه جماعة الرابطة المصغرة ، وازدادوا قربا من بعضهم البعض . وفى ختام جلسة النقد نهض الجميع وأخذوا يغنون ، نشيدًا قويا حماسيا وكأنه عاصفة رعدية عنيفة.

* * *

وفيما يتعلق بكل أنواع الفترات الفاصلة فى عهد الحياة الطلابية ،ليس هناك أجمل وأكثر إثارة من إجازة الصيف.

ففيها ينتحى ناظر المدرسة ومدرسوها جانبا بصورة مؤقتة ، ويؤول الوقت للطلاب أنفسهم ، ويبدأ سباق فى حكمة وفلسفة الحياة - حيث يرغب الكل فى أن تكون إجازته أكثر جمالا وسعادة وقيمة.

فى شهر يوليو، تسقط أمطار صيفية ، لكن الشمس ما تلبث أن تجفف الأرض من جديد . حرارة الجو الملتهبة من حولك فى كل مكان ، فقط قبل الفجر تهب نسمات باردة منعشة تمنح الأحلام السعيدة لمن يغطون فى نوم عميق . فى ذلك الوقت تزدحم الشوارع بطلاب المدارس المتوسطة . فهذه فتاة تندفع بسرعة بدراجتها من شنشياو فى الشمال نحو الجنوب كأن وراءها أمرًا عاجلاً ، وإذا سألتها ، أجابتك وهى تتطلع نحو الأمام : "أريد أن أرى ميدان تيان آن مين وقت بزوغ الفجر ، أنا وحدى "

وهذه مجموعة من الجنود تصيح "واحد ،اثنان " ثم تنطق ، آه ! إنهم ليسوا جنودًا ، بل طلاب يرتدون الزى العسكرية ، لقد نظموا "سرية الصدام الأحمر"وطلبوا إلى أحد الضباط أن يقوم بتدريبهم. وهؤلاء خمس فتيات يمضين سيرًا على الأقدام بمحاذاة خط فنشا "للسكك الحديدية متجهات إلى خزان مياه " قوانتينغ " ، إنهن أعضاء فى جماعة صيانة الموارد المائية ، من المتوقع أن يصلن مساء اليوم بعد أن قطعن يومينسيرًا على الأقدام ، وكان كثير من ذوى القلوب الطيبة يقولون لهن وهن يقطعن الطريق : "اركبن السيارة ، لا داعى للتعب ! "

وكلما قالوا لهن هذا الكلام ، ازدادت عزيمتهن وإصرارهن على المضى على الأقدام ، أشرقت الشمس ، الساعة تمام السابعة والنصف ، تفتح "أسرة الإجازة الصيفية " لكل مدرسة أبوابها ،قام طلاب المدرسة بتنظيف الفصول ، وأحضروا من بيوتهم ساعات الحائط ، المخطوطات واللوحات المصورة ، وقصارى الزهور ، ومقاعد البامبو ، والمفارش المشغولة وأجهزة الجرامفون ، والأرائك ، والأنتيكات ،

والجندب الأمـــريكى [(١)] ، والرفـــراف [(٢)] . . . . وتم تزيين المدرسـة حـتى أصبحـت "بيتًا جماعـيًا يفوق فى روعتـه وجماله ومسـتـوى الـراحة به أى بيت آخر. ومن يأتون إلى هذا البـيت كثيـرون ، منهم من يستعـير الكتب ، أو يستعـير شطرنج ومن يستمع إلى الموسـيقى . لم يدخر الطلاب القائمون على الخـدمة اليوم وسعًـا فى العـمل ، لأن بعض الزميـلات سيـأتين لزيارة المدرسة . كل المتنـزهات والمناطق الريفية علـى أطراف المدينة تعج طوال اليوم بزوارها من الطلاب . وأولئك الذين يتسلقـون جبلاً بالقـرب من جسر تشنغلـونغ ، هـم مـجموعة من الشـباب المفعم بالحيوية المتأجج بالحماس ، لقد نظموا " مجموعات ضحك ومرح مصغرة" ، هدفهـم من الإجازة بسيط جـدًا ، إنه الضحك ، والـضحك فقط . فـهم فى هذه الرحلات يقـضون تسـعة من عشـرة أجزاء من وقتـهم فى مطاردة بعضـهم البعض والجرى وبذل العرق ويقضون جزءًا واحدًا من الوقت فى الاستمتاع بمباهج الطبيعة . وليس أجمل من أن يهطل مطر غزير، فيغـرق ملابسهم تمامًا ، ويعودون إلى المدينة مثل الدجاج الذى سقط فى وعاء الحساء، ومن المؤكد أنهم حينذاك سوف يضحكون بلا انقطاع " ها ها ها . . . . . "

وبطبيـعة الحال أن يكون الليل هو أجـمل شىء ، ليالى الصيف المليـئـة أنـسا وبهجة . فى هذا الجانب أوشك عرض "السـينما الصيفى " ، أن ينتهى وفى ذلك الجانب بدأ العرض المسرحى للفرقة المسـرحية لطلاب الثانوية - يا لسوء الحظ ، لقد سقطت لحـية "العجوز" وهو يـبكـى بمرارة. وعند نهاية العرض ، نسى "المسـئول عن غلق السـتارة ، أن يسـحبـها مـن فرط الضـحك . كل ذلك - والذى لم تكن المسرحيـة بحاجة إليه أصلاً - زاد من نتائـجها ونجاحها . وفى البـيوت يقوم طلاب الثانوية بتنظيم كل أعـضاء الأسرة فى مجمـوعة تجلس على مقاعـد خشبية صـغيرة ويقيمون حفلاً موسيقيا ، فتغنى الجدة " شكوى الأخت يانغ سان " ، ويغنى الأخ الصـغير " القـطة الصغـيرة تصطاد السـمك " . وفى العنبر ، جلس أحـد الطلاب

(١) نوع من الجراد الصغير ذى قرون الاستشعار الطويلة يعرف بالقبوط .
(٢) طائر يعيش قرب الأنهار ويقتات بالأسماك .

المجتهدين يرتب مذكراته التى كتبها عن مراحل بناء القصر الإمبراطورى أثناء زيارته له نهاراً ، وأنت؟ اذهب إلى الملعب ، حيث طلاب عدد من المدارس يقيمون معًا " حفلا راقصًا على ضوء القمر" ومصدر الضوء فى حقيقة الأمر، ليس ضوء القمر فحسب ولكن هناك أيضًا الحباحب(١) ، الزميل الذى يعزف على الأكورديون يكاد تصيبه الثمالة من فرط النشوة ، لكن زميله عازف الأرغول ، على العكس تماما حيث يتحلى بالوقار والرزانة ويبدو معتدل الهيئة والقامة ، كانوا يعزفون موسيقى رقص هى منظومة سانبو لأطفال كوريا "القوارب البيضاء الصغيرة"

" مياه النهر الفضى فى السماء الزرقاء

ليس بها سوى قوارب بيضاء صغيرة . . . "

تطلع إلى السماء الزرقاء ، القوارب البيضاء الصغيرة تسبح فى بحور السحب ، إنها تثيرك أيضا حتى ترغب فى الرقص ، حسنًا ، غير أنه عليك ألا تضم أيا منهن بشدة ، حيث يشعرن بالخجل لأنهن من طالبات الثانوية اللاتى قليلاً ما يشاركن فى رقصة الصداقة.

لن تودعهم إلا بعد أن يبلل الندى ملابسك وتقضى يوم صاخبًا لاهيا من أيام الإجازة الصيفية . وبعد أن تنتهى من آخر فقرة من "الحفل الراقص على ضوء القمر" تمضى فى الشارع ، وكأنك تشعر لأول مرة بأن حياتنا كم هى رحبة ، متجددة ، ساحرة ، وكم أن الإنسان حر طليق . . . . .

* * *

وخلال إجازة الصيف ، يكون البعض مشغولا ومقيدا ، نعم إنهم خريجو المدارس الثانوية ، ففى الصيف من كل عام، كم من الطلاب يودعون مدارسهم وزملاءهم ، ويتطلعون إلى الغد فى شجاعة وسعادة ، وشعور بألم الفراق أيضًا .

(١) حشرة سراج الليل .

وفى الوقت نفسه هناك كثير من الطلاب الجدد الذين يساورهم شعور بالخجل والغربة وهم يتأهبـون للانخراط فى الحياة المدرسـية، وينظرون بطرف عيونهم فـى فضول . وعندما تبـدأ المرحلة الدراسية المقـبلة ، تتغير منـاظر الزملاء ومظاهرهم. وهذه هى سنة الحياة نفـسها ، فهى دائما مـتجددة لا تستقـر على حال ! فعند التخـرج تتباين المشاعـر بين السعادة والضيق ، وتجـمع بين ذكريات مرارة النهاية والـفراق والأحلام الوردية الكثيـرة ، عند التخرج تكون جـميع القلوب قلقة غـير مستـقرة . . . . . . عـزيـزى القارئ دعـنا نفـتح آخر الصفـحات وأكـثـرها أهمية وبريقـا فى حياة طلاب المرحلة المتوسطة . . . .

(٣٥)

مضى الوقت بسـرعة ، وأدت طالبات الصف الثـالث الثانوى امتحـاناتهن قبل موعـدها المحدد ، وبدأن من جـديد فى مراجعـة دورسهن مـراجعة حـرة وجادة ، يراجعن كل مـا درسنه فى سنوات التعليم الثـانوى الثلاث الماضـية من كتب علمـية ومقررات دراسية ومذكرات ، يذاكرن باستماتة ، ويحفظن عن ظهر قلب، ويجرين العمليات الحسابية ، إنها فترة شديدة الأهمـية فامتحانات القبول بالمعاهد العليا على الأبواب .

لقد أصدرت لجنة قـبول الطلاب قوائم تسجيل الرغـبات، تطلب من كل طالبة أن تملأ أربع رغبـات ، وهذا أمر خطير لأنه سيـحدد مصيرهن طول الـعمر، زاغت أبصـارهن وحارت عـقولهن ، لا يعـرفن أى الاختـيارات أفـضل ، الرغبـات التى يسجلنها فى الصباح يغيـرنها فى المساء ، الحديث والمشاورات واستطلاع الآراء تدور فى كل مكان . . . . كل هذا عـلاوة على أعـبـاء المذاكرة ، مما أصـابهن جـمـيعـا بالضعف والهزال.

أخذت تشوشيـا ولينغ تضج بالشكوى فى كل مكان، وفى ذلك اليوم وبعد أن انتهت من المراجعة المسائية ، جلست على طرف المنضـدة أمام ووتشانغ فو تقول لها للمرة الثالثة :

" صديقتى ، أى أنواع الدراسة أفضل لى فى رأيك ؟ إننى أريد أن أدرس التربية الرياضيـة ، لكن يعز علـى نفسى أن أترك الرياضـيات والفيـزياء والكيمـياء، فـقد استنزفوا كثيرا من جهدى وطاقـتى ! وأفكر أيضا أن أدرس الجيولوجيا ، فالكفاءات قليلـة فى هذا المجـال ، ولكن العمل الجيـولوجـى يبدو غير واضح المعـالم ، لا أستطـيع أن أوضـح مـا أرمى إليه من معنى ، إننى بطبيـعتى أحب الشىء من

الألف إلى الياء، وأن أعـرف بدايته ونهـايته أيضا ، بينمـا العمل الجـيولوجى ليس سوى فتح الطريق أمام الآخرين . وقد استمعت أثناء إجازة الربيع إلى تقرير الطلاب الجامعيين العائدين من التدريب الميدانى بمصنع آنشان للحديد والصلب ، حقيقة أريد أن أعمل بجوار فرن صهر الحـديد ، لكنى أخشى الحرارة، بل إن ذلك ليس بالعمل البارز . إننى أحب التـربية الرياضيـة وإذا درستهـا يمكن أن أكون لاعبـة محتـرفة، ويمكن أن أدرس هذه المادة للطالبـات . . . . ولكن كيف يكون الحـال فى كلية التربية الرياضية؟

لا أعرف . يا للحـيرة ، أى الرغبات يمـكن كتابتهـا الآن ؟ إن أفضل شىء أن تسمح لى كل الكليات والأقسام العلمية أن ألتحق بكل منها مرة ، وبعد ذلك أعرف أى أنواع الدراسة أفضل؟

أشاحت ووتشانغ فو برأسها واتهمت شيا ولينغ قائلة :

"أنت من الصعـب أن يعجبك شىء ، انظرى إلىّ ، إننـى أريد فقط أن أدخل الجامـعة ، بصرف النظر عـن القسم والكلية والمكان ، آمين يـا رب العالمين ! ولكن هل تصل درجة استيعابى للدروس لمستوى الالتحاق بالجامعة أم لا ؟

ومن سوء الحظ أن هناك ثـلاثين ألفا من العاملين بإدارات الحـكومة قد تقـدموا لامتحانات الالتحاق بالجامعة هذا العام. قضى الأمر ، لن أنجح ، لن أدخل الجامعة . . . . "

تشوشيا ولينغ تتحدث عن الصعوبات فى اختـيار رغباتها ، وتشانغ فو تتحدث عن مخاوفها من امتحان القبول بالجامعة ، كل ينعى همه . واستمرت تشوشيا ولينغ تقول فى غير كلل و لا ملل :

"خلاصة الأمر ، ماذا أدرس ؟ حقيقى شىء غير أخلاقى !

أى كاتب ذلك الذى يصف اختيار الفتيات لرغباتهن ؟ الآنسة الأولى تقول ، أريد أن أكون معلمة ، والثانية تقول : أريد أن أكون طبيبة ، والثالثة : ربما ترغب فى أن تكون راقصة بالية أو شيئًا من هذا القبيل . كلام فارغ ، أين يحدث ذلك بمثل هذه السهولة والبساطة ؟ إننا خريجات المدارس الثانوية لا نعرف أى نوع من الدراسة أفضل ، ونخشى ألا نوفق فى امتحانات التأهل للجامعة ، وتكاد رؤوسنا تنفجر من شدة الضيق ،بينما يصفنا الكاتب برقة وسلاسة وعبارات معسولة رنانة ، من طلب منه أن يصف أحوالنا ؟ إنهم أصلاً لم يعيشوا تجارب الآخرين بدرجة كافية!

عبرت ووتشانغ فو عن تأييدها التام لشياولينغ : "إن الأمور ليست كما تعتقدون ، لقد قلَّ زادى ، من خمس قطع مانتو إلى أربع قطع ونصف فى الوجبة الواحدة ، ونقص وزنى من تسعة وخمسين كجم إلى ثمانية وخمسين ونصف ! "

"ثمانية وخمسون ونصف كجم ؟ أنت ثقيلة الوزن يا صديقتى !

* * *

كانت تشيانغ يون تتمشى فى الملعب . ذلك الذى أصبح ذا أرضية مستوية تماما بعد بعض الأعمال والإصلاحات التطوعية من أعضاء الطلائع ، شمرت تشيانغ يون عن ساقيها وأخذت تقفز وتعدو خطوات قليلة وشعرت براحة من نوع خاص.

قالت تشيانغ يون فى نفسها : "يجب أن أواظب على النهوض مبكرًا، وأن أواظب على الجرى ! "ولو كانت قد واظبت على العدو أربعمائة متر فى الصباح الباكر يوميًا طيلة ست سنوات ، على مثل هذا المضمار الجميل ، فى مثل هذا الملعب الرائع ، كانت عضلاتها قد صارت أقوى وأكثر نموًا وأطرافها أكثر رشاقة وحيوية ، علاوة على الكفاءة الحيوية للرئتين ، كم كانت ستستنشق من الهواء النقى العليل ! ولكن المؤسف أنها كانت تبدأ ممارسة التمارين الصباحية عدة مرات ، ثم تعود فتتوقف بعد كل مرة.

هذا قائم الكرة الطائرة ، لامست تشاينغ يـون بيدها الحلقة الحديدية التى تعلق بها الشبـكة ، وتذكرت مباراة كرة الطائـرة ضد فريق إحدى مدارس البنـات القريبة وهى طالبة بالصف الأول ،وتذكرت كـيف كانت تنبطح على الأرض لتنقذ الكرات الساقطة حتى أصيـبت ركبتها . لماذا لم تستمـر فى التدريب على هذا النحو المنتظم بعد الصف الثـانى ؟ ألم يكن من الممكن أن تصبح رياضـية لا يشق لها غـبار على نحو تشوشيا ولينغ ؟

نظرت تشيانغ يون من الملعب إلـى فصول الصف الثالث عبر النافـذة بحثا عن مكان المقـعد الخـاص بها - الاسم : يانغ تشـيانغ يون ، رقم الـشارة : ٥٨٠٢ ، وطبيعى أن يتغير الحال فى العام القادم ، فيصير لون المنضدة قاتما كئيبا شيئا فشيئا ، وتتغير صـاحبتها أيضا . فـوق هذا المقعد قرأت تشيانغ يون الكتب واسـتمعت إلى الدروس ورسمت الخـرائط ولعبت الشطرنج وسجلت اليـوميات ، وكم من أعـمال كثيـرة أنجزتها فى هذا المكان ! فوق هذا المقـعد ، كانت تستطيع أن تنجـز الكثير ، فبالنسبة لتسجيل اليومـيات مثلا ، كانت تسجل يوماً بيوم وهى فى الصف الأول ، وكل أسبوع وهى فى الصف الثانى ، وفى الفـترة الأولى من الصف الثالث ، كانت كلما تذكرت شيـئا تسجله ، أما فى الفترة الثانيـة ولمدة نصف العام لم تسجل سوى ثلاث يوميات. ولماذا لم تكن تسجلها كل يوم ؟ يجب أن تحيا حياة واضحة المعالم، ويكون لكل خطوة أثرها ! وكم يكون شـيئًـا قيمًـا إذا توفرت مـثل هذه اليومـيات لسنـــوات المرحلة المتـوسـطة الست ، لتكون بمثــابة الرسـائل ، والمكـاتبـات ، والانتقادات والتشجيع الذى يوجهه الإنسان إلى نفسه !

فى لمح البصر ، مـضت ست سنوات ، حوالى ألفين وأربعمائة يوم بليـاليها ، أكثر من ثلاثمـائة أسبوع ،إنه وقت غيـر قصير ! لقد أمـضت تـشيانغ يون الصف الأول من المرحلة الإعدادية فى ذلك الفصل ، والصف الثانى هنا ، والثالث هناك ، ولا يفصل بين فصل وآخر سوى عشرات الخطى. وثمة مسافة طويلة بينها الآن وبين الوقت الذى التحقت فيه بهذه المدرسة !

ولكل إنسان رغبة فى مسايرة تيار المجتمع ، فى المرحلة الإعدادية يتطلع إلى المرحلة الثانوية وإذا ما التحق بالمرحلة الثانوية لم يجد شيئا. فهم فى هذه المرحلة إذا ما فكروا فى التخرج خفقت قلوبهم ، وإذا ما تحدث أحد عن التخرج ودخول الجامعة ، قال له الزملاء فى سعادة وخوف فى الوقت نفسه:

"كفاك ، لا. تتكلم فى هذا الموضوع ! . . . . والآن يتم التخرج ببساطة، الامتحانات ، تسليم الصور ، الكشف الطبى ، توزيع شهادات التخرج وشهادات التقدم للامتحان ، وبعد ذلك يراجعون ويذاكرون فى جو شديد الحرارة ويستخدمون مرهم البلسان االمزيل للصداع ، أبمثل هذا الأسلوب تمضى الأمور ؟ "

يبدو أن عندها كلام كثير ، ولكن لا تعرف إلى من توجهه وتشعر تشيانغ يون بشيء من القهر والضيق .

وأخذت تشيانغ يون تنظر إلى الفصول والمعامل والمكتبة التى تتوارى جميعا فى الظلام ، وتستمع إلى رنين صوت الجرس الكهربائى الذى يقود الحياة اليومية والعمل والدراسة لآلاف الأشخاص داخل المدرسة ، هذه المدرسة العادية حتى إنه يمكن اعتبارها مدرسة قديمة ، كل ما فيها كل عود حشيش ، كل شجرة ، كل حجر ، وكل طوبة تحولت جميعها فجأة إلى أشياء جديدة تنبض بالحياة وذات مغزى عميق ومعنى كبير . إذا قدر وبدأ عهد الدراسة المتوسطة مرة أخرى من جديد :سوف نقرأ الكتب كلمة كلمة ، ونقطع مسابقة مائة متر عدو خطوة خطوة ، ونغنى الأغنيات مقطعًا مقطعًا ، باختصار سوف تمضى الأيام يومًا بعد يوم ، ودقيقة بعد دقيقة فى نظام ودقة كبيرة !فالحياة الحقيقية لا تكون إلا من خلال الحياة الجادة ! . . . . وداعًا عهد المرحلة المتوسطة ! لقد أدركت تشيانغ يون الآن كثيرًا من الأمور،وغدًا تكون فى وضع جديد ، وعليها أن تنتظر حتى وقت التخرج من الجامعة ،وقتها لن تشعر بأدنى قدر من الأسف و المرارة ، ولن تبدأ المحاولة من جديد ، وتودع الماضى فى كبرياء ودون أدنى قدر من الحنين.

وتغنت تشيانغ يون بواحدة من أحب الأغنيات لطالبات الثانوية :

مثل جماعات الطيور فى الربيع . . . .

مثل مياه نهر اليانجشى فى شهر مايو . . . .

إنها على يقين أن أغنياتها وضحكاتها ، حماسها وأشواقها لا يمكن أبدا أن تتلاشى كما يذوب الملح فى الماء ،وذلك على الرغم من عدم وجود جهاز تسجيل ، وعدم التوقيع السخيف باليوم والشهر ، حتى موعد حفر اسمها على لحاء شجرة بطريقة زائفة . سوف تترك شيئًا ما فى سماء المدرسة وأرضها وأركانها الكبيرة منها والصغيرة ، حتى على الأقل فى أحد الأركان الصغيرة ، ذلك الشىء الخالد الباقى هو السنوات الرائعة التى قضتها هنا فى مرحلة الدراسة المتوسطة.

وفى طريقها إلى العنبر ، سلمتها سونينغ رسالة ، وما إن وقع نظرها على الرموز المكتوبة بخط كبير وغير دقيق حتى عرفت صاحبها .

أهنئك على التخرج.

صديقك فى يوم ٢٩ / ٦

أثارت كلمات تشيانغ شى تشون القليلة أحاسيس تشيانغ يون وامتنانها بدرجة يصعب وصفها ، قرأت هذه الجملة العادية البسيطة مرة تلو أخرى ، وفى كل مرة تصل إلى مغزى جديد . . . . . . "فعند التخرج" لم ينس تشيانغ شى تشون صديقته ، وتذكر الوقت الذى تخرجت فيه ، من مثل تشانغ فى اهتمامه بالآخرين فى الوقت المناسب ، واستخدام حماسه فى إلهاب حماسهم ، واستخدام مشاعره فى إحماء مشاعرهم ؟

"أهنئك - صديقك " نعم ، التهنئة والمؤازرة والتحية ، كم إن هذه المشاعر كلها مرغوبة ومطلوبة لكل من يريد أن يمضى قدمًا على طريق الحياة ! وأى صديق

ذلك الذى لا يسأل عن صديقه ؟ وهل يكون هناك معنى للتقدم فى الحياة دون سؤال الأصدقاء وتهانيهم؟

تسلمت تشيـانغ يون الخطاب ، وهرولت عـائدة إلى العنـبر ،وقلبـهـا يطير من السعادة.

(٣٦)

اليوم ١٥ يوليـو ، انتـهت أمس الأول امتحانات القـبول بالجامعـات والمعاهد العليا .

اختفى جو التوتر توا ، الساعة الثامنة صـباحًا، كثير من طالبات الصف الثالث بالعنبر الكبير مازلن يرقدن على الأسرة ، وبعضهن يقلد لهجة مراقب الامتحان فى كسل ووخم ،ويقلن بالسخافة باعة الآيس كريم الصائحين خارج ساحة الامتحان ، وصاحب موضوع الإنشاء .

وينطلق فى العنبر الكبـير من آن لآخر مزيج من أصوات التـثاؤب والضحكات الرنانة ، فقد تحول امـتحان التأهل للجامعة الذى كان مـصدر قلق وازعاج لهن قبل يوم واحد ، تحول الآن إلى مادة للتسلية والضحك .

تبدو تشن بـوا حزينة مكتئـبة ، فـقد نهضت من فـراشهـا فى هدوء وبعد أن غسلت وجـهها راحت تغدو وتجيء داخل المدرسـة ، انفتح باب مكتب رئيسـة قسم التوجيه ، انحنت يانغ تـشيانغ يون انحناءة خفيفة واسـتدارت خارجة من المكتب ، رأت تشن بوا ، هرولت نحوها مسرعة وأمسكت بيدها قائلة :

"أريد أن أتكلم معك . . . . "

دخلتـا الفصل، ولم تنتظر تشـيانغ يون حـتى تجلسا ، وعـاجلتهـا "هل أنت تعانين من التهاب فى المفاصل ؟"

حملقت تشن بوا فيها فى حيرة وتعجب ، وأجابتها : "نعم ، بعض الشيء آه . . . . . . "

وجلست تشيـانغ يون فى عزيمة واهنة ، وبدأت تقـول " لقد أخبرتنى رئيـسة قسم التـوجيه أن المدرسـة سوف ترسلنى أنا ويوان شن تشى إلى القـسم التمهـيدى

لامتحانات البعثات للدراسة بالخارج ونذهب مستقبلاً للدراسة خارج البلاد ، وتعجبت من تجاهل اسمك ، فقالت لى إن مفاصلك . . . . . . كيف يكون ذلك !

كان لهذا الخبر وقع سىء على تشن بوا ، لكنها أخفت ذلك ، مرت ظلال الحزن والكآبة على وجهها ، وقالت وهى تحاول أن تهدئ من نفسها : "أهنئك ، شىء رائع أن تدرسى فى الخارج .

إننى فى أغلب الأمر لن ألتحق بالجامعة .

تساءلت تشيانغ يون وقد اتسعت عيناها "لماذا ؟"

"لماذا تتعجبين بهذا الشكل ، وماذا فى ذلك ؟ إننى أريد أن أعمل مدرسة ، وتوقفت لحظة ، واستطردت تقول فى ارتياح وبساطة ، "أخبرتنى رئيسة قسم التوجيه بالمدرسة أن عدد الطلاب تضاعف عدة مرات بعد التحرير ، وأن عدد المعلمين قليل غير كاف ، وأن الإدارة التعليمية قررت هذا العام أن تستبقى بعضا من خريجات الثانوية ليعملن معلمات بالمرحلة الإعدادية ، وطلبت رئيسة قسم التوجيه رأيى فى ذلك فوافقت على البقاء والعمل معلمة .

"أنت تبقين للعمل مدرسة ؟ وكانت تشيانغ يون مازالت غير مصدقة .

أومأت تشن بوا

ذكرتها تشيانغ يون قائلة "لكن رغبتك التى سجلتها هى بناء الجسور !"

وضعت تشن بوا يدها على خدها ، وقالت فى تأمل : "لقد قالت رئيسة قسم التوجيه بالمدرسة إن هذا الأمر اختيارى وبمحض الإرادة ، لكننى أشعر أنه لا بديل أمامى سوى البقاء هنا . لأنه إذا كان عدد المدرسين قليلاً ، لن يمكن قبول عدد كبير من الطلاب وبالتالى سيكون هناك أطفال تضيع فرصتهم فى التعليم . إننى فقدت هذه الفرصة قبل الثورة ، وأعرف ما يحس به الأطفال الذين يرغبون فى

التعليم ولا يستطيعون عندما يسمعون جرس المدرسة ، يجب عليّ أن أشيد نوعا آخر من الجسور يعبر عليه الأطفال إلى الثقافة والعلم والوعى . . . . "

وما هى سوى لحظة حتى قطبت تشيانغ يون حاجبيها ، وقالت فى ضيق وغضب : "هذا ليس عدلاً ! أذهب أنا للدراسة فى الخارج ، بينما لا تلتحقين أنت بالجامعة ، هذا ليس من العدل فى شىء ! سأعلن لرئيسة قسم التوجيه أننى لن أذهب إلى مكان ، وسأبقى معك نعلم الأطفال معًا !

" شىء مضحك . . . . " وقد شعرت تشيانغ يون من لهجة تشن بوا وهى تقول هذه العبارة أنها أصبحت بالفعل مثل المدرّسة ، "كم أن السفر إلى الخارج أمر جميل ورائع ! وكم أن الأفق أمامك رحب وواسع ! وكم تتعلمين من أشياء كثيرة ومفيدة ! - أفلا تذهبين إذن ؟

"أى مزاح هذا ، ولأنه أمر جميل ، فلن أذهب ، وأحنت تشيانغ يون رأسها وقد احمر وجهها وأضافت إننى أشعر أن القدر شديد القسوة عليك . "

ساد جو من الصمت . شعرت تشيانغ يون أن كلامها قد تجاوز الحد ، غير أن الطلقة قد انطلقت ولا يمكن استعادتها، وأخذت تنظر فى اضطراب وقلق إلى تشن بوا التى راحت تهز رأسها هزات خفيفة ، وأسبلت عينها اليسرى ، بينما اتسعت عينها اليمنى وهى تفيض بريقا ولمعانا.

وقالت تشن بوا : "كلام فارغ ، إنه ليس قدرا ولكنها إرادتى هى التى أملت عليّ ذلك ، أيمكن أن يعنى عملى معلمة أننى لا يتوفر لى حظ طيب ؟ إن تفكيرك هذا . . . . لیس فكرًا ساميًا بدرجة كافية ! "

أدركت تشيانغ يون أن كلمات تشن بوا الحادة اللهجة لا ترمى إلى انتقادها بقدر ما ترمى إلى طمأنتها ، فأسرعت تفسر قائلة :

" لا ، لا إننى لم أقصد هذا المعنى ، وليس أكثر من أن الظروف مواتية بشكل أكبر أمام الالتحاق بالجامعة أو الدراسة بالخارج من غيرها . . . . "

" وكـيف تكون تلك الظروف ؟ " واسـتطـردت تشـن بوا فـى إصـرار : " الظروف المواتية تريح الإنسان ، والظروف غير المواتية يمكن أن تصقل الإرادة "بل إننى أريد ان أدخل فى منافسة معك يا طالـبة بعثـة الدراسة بالخارج فى مـستـقبل الأيام، ونرى ما إذا كنت سأتخلف عنك أم لا "

أثار أسلوب تشن بوا الاستفزازى النادر من نوعه حمية تشيانغ يون ، فقالت : " لك ما تريدين ، إننى شد ما أحب المنافـسة ! " ثم عـادت تفكر ، وتقـول : " ولكن نجـاحى فى اجـتـيـاز امتـحـان التـأهيل للدراسـة بالخـارج ليس مـؤكـدًا . . . . "

" انتهـزت تشن بوا هذه الفـرصة لتـضحك منهـا ، وأشارت الى أنفـها وهى تقول: " انظرى لازلت ترغبين فى الدراسة بالخارج ! "

وضحكتا معًا .

وفى هذه اللحظة ،قـفز فكر تشـيانـغ يون إلى التفكيـر فى الغد ، وتذكـرت الفراق،وتذكرت أن كلا منهما سـتمضى فى طريق مختلف ، وفكرت فى السفر إلى الخارج بالقطار ، وفى مكاتب التحضير المزدحمة الخاصة بالمدرسين ، وتنهدت .

وقالت : " تشـــن بوا ، أخبرينى ، هل سنظل على صـداقتنا الطيـبة هذه إذا انـفصلنا ؟ أم أن هذه الرابطة ستزول شيئًا فشيئًا. . . . . "

"لا، لن يحدث ذلك . "

" هل هذا من الممكن ؟ ومن تلك التى سمـعنا أنها احتفظت بصـداقة المرحلة الثانوية لفـترات طويلة ؟ إننى عندما أفكر فى أننا سوف نفترق ، وأنه ربما لا يعرف كلانا شيئا عن الآخر بعد ذلك ينتابنى شعور بالخوف والقلق ! "

أخـذتها تشن بوا بين ذراعـيها وقالت ، " لماذا تفكرين فـى الآخرين ، سوف نظل صديقتين ، أجابت تشيانغ يـون وهى تغمغم " أثق ، أثق " وقد أمالت رأسها إلى كتف تشن بوا حتى انتـابها الشعور بالتنميـل فى وجهها والذى أثاره فيهـا شعر تشن بوا الطويل "ثم رفعت رأسها وابتعـدت وعدلت من شعرها ، وقالت : " أريد أن أذهب إلى خارج المدينة ، والآن "

وانطلقت تعد وخـارج الفصل دون أن تلتفت ، لاحقـتها تشن بوا وسألـتها ، أعائدة إلى البيت ؟

صاحت تـشيانغ يون : "لا" فـقالت تشـن بوا : " لا تتأخرى فـى المساء !" واختفت تشيانغ يون عن الأنظار

" يالهـا من فتـاة ! " وضحكت تشن بوا ونظرت إلـى الجرس ، واسـتدارت وذهبت إلى مكتب حضرة الناظرة .

" أيتهـا الرفيقـة تشن بوا ،تفضلى بالجلوس . " وأكـدت السيدة قـو " مديرة المدرسة على كلمة " الرفيقة " ، لتوضح أنها لم تعـد تستخدم معها أسلوب حديث الأستاذة إلى الطالبة .

ورفعت إبريق الشـاى عاليا وراحت تصبـه فى الكوب فى صوت يشنف الآذان وهى تقول : " هذا هو شاى مـاركة بئر تنين البحيرة الـغربـية الأصلى ، أحضره لى أحد الأصدقاء العائدين من مدينة هاتشو . . . . . "

واستطردت الناظرة تقول فى غـير كلفة " سوف نصبح زميـلات مهنة ، بعبارة أخرى ، ستكونين زميلة لنا ، هل أنت سعيدة بذلك ؟

إننى أتمنى أن أعمل معلمة . "

" حقـيقى ؟ هنـــاك بعض الناس لا يرغبون فى العمل بهذه المهنة ! "

وفندت تشن بوا لحضرة الناظرة الأسـباب والدوافع التى شرحتها ليـانغ تشيانغ يون من قبل .

أثنت الناظرة على كـلامهـا " نعم ، هذا صحـيح ! " ثم عادت تـهز رأسـها وتقول : " ولكن الشعور العميق بالواجب والمسئولية كان أقوى من جاذبية المهنة فى دفعك لاتخاذ هذا القرار، أليس كذلك ؟ "

فكرت تشن بوا ، واعترفت فى أمانة : " نعم ، هذا صحيح . "

استندت مديرة المدرسة إلى ظهـر الأريكة ، ونظرت إلى تشن بوا نظرات فاحصة، وسألتها : "احكى لى، كيف قضيت مرحلة الدراسة المتوسطة بسنواتها الست ؟ "

قالـت تشن بوا فى حيـرة : " من أين أبدأ ؟ الفتـرة طويلة والأحـداث كثـيرة .... "

أغلب الظن أنك فكرت فى بعض الأشـياء عند التخرج ، كـلما تذكرت شيـئًا منها ، احكى لى عنه " .

أومأت تـشن بوا ، لقد فكرت طويلا مـساء الأمس ، حـقيـقة ، مـرت هذه السنوات الست مرور السحاب وقد كانت هذه المرحلة ممتعة وشيقة للغاية بالنسبة لنا، كانت جـادة وسلسة ، معقـدة وبسيطة فى نفس الوقت ....لا ، إن كلامى ليس متقنا . " ولم تهـتد تشن بوا إلى ما تريد قوله بعد . "جادة وسلسلة ، معقدة وبسيطة ، " وأخذت النـاظرة تكرر وتعيد كلمات تشن بوا هذه عن ظهر قلب فى إعجـاب ، وقالت : " آه ، كلامك رائع ،و جـميل . اذكرى على مـسامعى بعض المواقف المجسدة التى لا تنسى......... "

بينما كانت تشن بوا تشرب الشاى وتستنشق رائحته الأصلية الذكية ، فكرت طويلا ، ثم وضعت الكوب ، وراحت تتكلم وهى تتحسس مغزى ومعنى كل كلمة ، " فى ذلك اليوم كنت أشارك فى احتفال اللجنة الفرعية بالصف الأول الثانوى بيوم رابطة الشبيبة ، وقد شارك أعضاء اللجنة بالصف الأول احتفالاتهن عالِم كبير ذو لحية طويلة ، كن يرفعن أيديهن ويضربن بها على المناضد فى سعادة وكأنهن يقرعن طبولاً صغيرة ، بعد ذلك رحن يلهن ويلعبن ، ويضحكن بجنون ....وفكرت فجأة ، كم أن هناك تغيراً كبيراً ! وكانت حركة مساندة كوريا ضد العدوان الأمريكى عندما انتقل فصلنا إلى المرحلة الثانوية ، ومازلت أذكر الاجتماع الذى انعقد فى القاعة الصغرى بمدرستنا فى شهر نوفمبر من ذلك العام لإدانة العدوان الوحشى للإمبريالية الأمريكية ، فى ذلك الوقت لم تكونى حضرتك قد وصلت بعد .وأذكر أن سماء ذلك اليوم كانت ملبدة بالغيوم ، وسقط كثير من الثلوج ، وكنت آنذاك أرتدى سروالاً وجلبابا من القماش الأزرق ....
ولقى أبى مصرعه تحت عجلات عربة جيب تابعة للجيش الأمريكى ، اعتليت المنصة لأعلن الإدانة ، لم أبك ، فقط ضربت الأرض بقدمى فى غضب و ضراوة ، وبينما أنا فى وسط الحديث ، سقطت إحدى طالبات الصف الأول الإعدادى مغشيا عليها.
وحتى وقتنا هذا ، كلما أغمضت عينى رأيت وجهها الذى يشبه صفحة بيضاء يشوبه قليل من الزرقة الخفيفة . ورقدت تحت رعاية إحدى الممرضات ،وأذكر ايضا ثياب هذه الممرضة البيضاء الفضفاضة ، كانت تقوم على تمريضها ورعايتها كما لو كانت أمها .

بعد ذلك عرفت أن أم هذه الزميلة الصغيرة انتحرت بعد أن اغتصبها البحارة الأمريكيون فى مدينة تشنغداو ، ولم تكن تتحدث هى عن ذلك لأحد قط .... وبذا كان الحقد والكراهية أول درس لنا عند انتقالنا إلى المرحلة

الثانويـة ! وكان مسـرح فنون الشبـاب يقدم فى ذلك الوقت مـسرحيـة وذهبت كل أعضاء الرابطة لمشاهدة العرض ، وبعـد عودة الطالبات اللاتى يقمن بالعنبر لم يأوين إلى النـــوم ، وظللن يـتناقشن طوال الليل : " كـيف نهب أنفـسنا لقضـية تحـرير البشرية ؟

وفى مساء اليوم التالى تم تأسيس فريق ليوخولان النضالى ، وشارك فى هذا الفريق سكرتيـرة لجنة المنطقة لرابطـة الشبـيبـة ، وبدأت الزميـلات يدرسن بمحض إرادتهن الشئون العسكرية والإسعاف والدفاع الجوى .... وقررنا جميعاً " الزحف إلى الجبهة الأمامية وقتمـا تستدعى الحاجة " ورفعنا أيدينا اليمنى ونحن نقسم : إننا فى خضم الـنضال المجيـد لمساعـدة كوريا ضد الـعدوان الأمريكى يجب أن نـتحلى بعزيمة ليوخولان وأمانتها .... "

وقد انســابت الدموع على الخدود أثناء أدائنا لهـذا القسَم ، وفى النهاية جـففنا دموعنا ورددنا الشـعارات البطولية . وأثناء ذهابى إلى لجنة الامـتحان أمس الأول ، شاهدت نائبة رئيس فـريق ليوخولان النضالى مرة أخرى ، لقد الـتحقت بالجيش ، وتعمل معلمة لمادة الثقافة .... لقد مرت كل هذه الأحداث ، ولكننى سأظل إلى الأبد أذكر وأحب هذه الحياة الحماسية الملتهبة كما النيران ، فقد صقـلت عـزائم الصـبـية ، وإنـنى حتـى الأن ، ما إن أتحـدث عن الوطن، الـبناء ، هاتين الكلمتين البسيطتين ، حتى أتوق إلى أن أهب نفسى بما تملك من أجلهما .

وقد اخـتلف الحال بالنسبـة لطالبات الثانوى الآن ، فهن لا يـثير اهتمـامهـن شىء، فقد تم توقيع اتفاقية الصلح فى حرب كوريا مؤخرا ...

هذا العصر يجب أن يكون فى كل مـدرسة متوسطة جرس كـبير ، ندقـه كل يوم حتى يوقظ صـوته هؤلاء الصبية ناعـمى البال قريرى العـين ، ويذكرهم بماضى بلادنا الملىء بالصـعـاب ، والنضـال البطولى ، والبناء الـذى يجرى تحت حـصـار الأعداء، نجعلهم يسمعون صوت هذا الجرس ، ثم يغنون معه النشيد العالى :

أيها العبيد ، يا من يعانون الجوع والبرد ، انهضوا

أيها الشعوب المنكوبة فى كل العالم ، انهضوا

. . . . "

انتهت تشن بوا من حديثها ، ونهضت الناظرة من مجلسها وقطعت الحجرة ذهاباً وإياباً فى عجالة ، وانحنت وهى تقول :

" أخبرينى ، ماذا تعلمتن من الأساتذة فى هذه الحياة الحماسية الملتهبة كالنيران ؟ "

"هذه . . . . " وتلعثمت تشن بوا ، " فى هذه السنوات ، نقل الأساتذة إلينا المعرفة ، ولكن إذا تحدثنا عن النمو الفكرى والخلقى ، استفادتنا منهم كانت قليلة " .

" نعم ! " وأطلقت الناظرة تنهيدة ، وهذا أمر ليس سليما ، فالأستاذ يجب أن يكون هو المرشد والمسئول الأول عن الطلاب من النواحى البدنية والمعرفية والنفسية والمزاجية والهوايات وغيرها من النواحى الأخرى ، وهناك كثير من الأساتذة لا يفعلون ذلك فى الوقت الحاضر.

إن الطلاب ينمون بسرعة كبيرة ، ومشاعرهم خصبة وجميلة ، ويبدو الأساتذة عاجزين بعض الشىء أمام الطلاب الذين يقفزون قفزات سريعة متلاحقة ، وهذا ما آخذة على العاملين بالتعليم ،" وتوقفت " الناظرة ، وتشابكت يداها فى بعضها البعض واستطردت تقول " ما أروع مرحلة الدراسة المتوسطة! وما أعظم أهميتها فى حياة الإنسان !وما أشد حاجتنا إلى معلمين من الطراز الممتاز ! وإذا كنت تعتزين كثيراً بمرحلة الدراسة المتوسطة التى انتهيت منها ، فإن عليك أن تعتزى أضعافًا مضاعفة بالحياة الدراسية لأولئك الأطفال الذين يصعب حصرهم ، كونى لهم خير

معلمـة ، ساعديهم وأرشـديهم ! أو كـما ذكرت ، كونى طارقـة الجرس التى تدق الناقوس "تن تـن " لا تعلمى جـيل الشباب مهارات بناء الـوطن فحسب ، ولكن أيضا تلهبين حماسهم ومشاعرهم !

" نعم ! " وقد أقنع كلام الناظرة الحمـاسى تشن بوا ، ويمكن القول أيضا إن تشن بوا شجعت نفسها بنفسها وتذكرت مرحلة الدراسة المتوسطة بالنسبة لها وبالنسبة للأخريات ، وفكرت فى أنها نفسها سـوف تعمـل مدرسة فـى المرحلة المتـوسطة فـفاض قلبها بمشـاعر لا توصف من السعادة وظهر بريق فى عينيها الـلتين اغرورقتا بالدمـوع، وبدت عـلامات القـوة فى وجـهـها الوديع وقـالت : " أريد أن أعـمل مدرسة، أريد أن أكون تلك التى تدق الجرس ! "

وبعد ذلك تعانقت زمـيلتا المستقبل - اللتان يوجـد فارق كبير فى عمـريهما - عناقا دافئا حاراً وأنثوياً أيضاً .

(٣٧)

السماء صافية والأفق رحب والشمس تضيء الأرض الفسيحة المترامية الأطراف، وتبدو الطرق المشيدة حديثا على مشارف المدينة ملساء ناعمة ،العربات الكارو تمضى فوقها وتنطبع عليها آثار عجلاتها وأقدام حيوانات الجر،وعمال صيانة الطرق يدفعون عربة الخلطة ويقلبونها على الأسفلت مجرفة . مجرفة دارت من حولهم دراجة ثم انطلقت فى شموخ وكبرياء كأنها تطير .

اندفعت يانغ تشيا نغ يون وهى تمسك بجدون الدراجة بيد واحدة ، تركت المدينة المزدحمة انطلقت على الطريق الفسيح الذى لا يدرك البصر مداه ، وبينما تحرك عجلة الدراجة بسرعة تنظر ذات اليمين وذات الشمال إلى المناظر المتنوعة الكثيرة ، ظلها القوى يلازمها وهى فوق دراجتها وعلى جانبى الطريق تنتشر مساحات شاسعة من الأرض الخضراء وتنتشر فى وسط هذه المزارع الخضراء أبنية كبيرة مما تم بناؤه ومما لم ينته العمل به بعد ، الضباب يحوم فى الأفق البعيد .... وهكذا كانت كل صورة من هذه الصور المثيرة البسيطة تتوافق مع الحالة المعنوية لتشيانغ يون، تثيرها وتريحها فى آن واحد .

أو ليس قلب يانغ تشيانغ يون التى أنهت لتوها مرحلة الدراسة المتوسطة رحبا مثل الأفق ، مشرقا مثل الشمس ، متقدا بالحماس والحمية مثل الأرض ، مخضوضرا مثل الزروع ، مفعما بالحيوية والقوة مثل الأبنية الجديدة ؟ ناهيك عن أن هذه هى المرة الأولى التى تذهب فيها إلى الحى الثقافى فى بكين الذى يجرى بناؤه على نطاق واسع وناهيك عن وجود أقرب الأصدقاء إليها فى هذه المنطقة.

وفى ليلة عيد " أول مايو "من هذا العام وبينما كان ميدان تيان آن مين (باب السلام السماوى) يعج بالرقص والمرح كان تشانغ شى تشون قد أخبر تشيانغ يون

عن عنوان إقامـته " المبنى الثالث الشرقى حـجرة ٣٠٥ " ونقشته تشـيانغ يون فى ذاكرتها ، والآن تدخل من باب معهد الجيـولوجية ببكين ، الحقيقه أنه ليس بابا بل حلق بوابة تم تركيبه مؤقتا ، ومـضت فى طريـقها داخل المعهـد ، والحـقيـقة أنه لا يوجد طريق إنما هو ممر صـغير تكون بصـورة طبيعيـة بين أسياخ حـديد التسليح ومونة الخرسـانة وأكشاك إقامـة العمال وبرك المياه ، وراحت تسـأل عن مكان إقامة تشانغ شى تشون وفقا لذلك العنوان.

وصلت إلى الحجرة رقم ٥٠٣ ، رأت اسم تشانغ شى تشون مكتوبا على بطاقة ملصوقة على باب الحجرة ، ابتسمت تشيانغ يون واقتربت من الباب وأخذت تسترق السمع ربما سمعت ضحكات ذلك الشاب الصغير .

طرقت الباب لم يجـبها أحد ، طرقتـه مرة ثانية ولم يرد أحد أيـضًا ، دفعت الباب فرأت طالبًا طويلاً نحيلاً يأخذ سنة من النوم ، سمع وقع أقدام وهو غير مفيق نهض جالسًا فجـأة ونظر فإذا بفتاة غريبة عنه، اسـرع بارتداء القميص وتناول المشط وراح يصفف شعره .

لم تتمالك تشانغ يون نفسها من الضحك كيف أن هذا الأخ الكبير يسارع أولاً إلى تصفيف شعره عند لقائه بالآخرين؟

أريد تشانغ شى تشون

تريدين تشانغ شى تشون ؟ هو ليس موجود

" آه " أطلقتها تشيانغ يون فى يأس.

أسرع الطالب الطويل القامة قائلاً : تشانغ شى تشون ليس فى العنبر ، إنه فى المكتبة ، اهبطى إلى أسفل المبنى . . . . حسنا بل أذهب أنا بدلا منك

ولم يعد فى الحجـرة النظيفة التى تنتشـر فيها رائحة زيـت الدهان سوى تشانغ

يون وحدها ،

اتجهت نحو النافـذة ونظرت فى سعادة وحبور إلى السـقالات المعلقة لبناء المبنى الرئيسى المكون من سبعة طوابق ، وفى هذا الجانب تصدر أصوات خلاط المونة .

تشـانغ شى تشـون يـدرس وسط جـو البناء هذا ، كم أنه يسـتـحق الغـبطة . . . . وما إن خفضت تـشانغ يون رأسها حتى رأت قصة مـوضوعة على قاعدة النافذة. . .

إنها القـصة القصيـرة (الحب الأول) للكاتب توجونيف، كـتب على صفحتـها الأولى " اشتراها تشانغ شى تشون من الحى الغربى فى يوم ١٤ يوليو عام ١٩٥٣" لقد اشـتراها بالأمس فقط ، هل قـرأ هذا الفتى مثل هذه القـصة ؟! وراحت تقلب صفحاتها ، ووجدت بها مجموعة من الصور الرائعة مرسوم فيها فتاة روسية صغيرة العمر وصبية ومنتزهات وأوراق لعب ملفوفة بخيوط الصوف وشخص يمتطى جوادًا . . . . وما إن وصلت إلى آخر صفـحتين حتى قفزت أمـام عينيها هذه الكلمات فجاة :

" أيهـا الـشـاب ، إنك لا تتـأثر بشىء . . . . تتلمس الـسلوى من الأحزان ، وتستـمـد العون من المآسى ، واثق من نفـسك ومقدام ، تـقول: انظروا ليس على الأرض غـيـرى . . . . أغلقت تشانغ يـون الكتاب وحـاولت أن تتذكـر أين سمـعت هذه الكلمات ، تلك الكلمـات المألوفة القريبـة التى تمس أوتار القلب مثل شمعة تحت وهج الشمس . . . . غير صحيح ، هذا غير صحيح بالمرة ، لماذا يسخر توجو نيف من الشـباب ؟ إن العمر لن يمضى هباء فمـبنى معهد الجيولوجـيا يجرى بناؤه ، والشـجيرات الصغيـرة التى زرعت مؤخرا بجـوار بحيرة شيـشخاى آخـذة فـى النمـو ويانغ تشانغ يون الـذكـية قـويـة الإرادة ستكون طالبة جامعية .

ثم استمرت تقرأ :

ربما كان سر جاذبيتك لا يكمن فيما يمكنك أن تفعله بل يكمن فيما تستطيع أن تفكر فى القيام به. . . . . "

ابتسمت تشانغ يون فقد وخزها هذا الكلام مثل وخز الإبر !

وأعادت الكتاب إلى مكانه وفتحت النافذة ونظرت فإذا بطلاب الجامعة منهمكين فى أداء أعمالهم ، الطلاب والطالبات يقمن معًا بتنظيف الأرض من الأحجار المبعثرة والأتربة المكدسة ، ويبنون من الحجارة المكسرة حوض زهور على شكل قوس ، ويزرعون فيه شجيرات السرو وبعض الزهور الأخرى التى لا يعرفون أسماءها الطلاب المترفون الذين يلبسون ساعات فى معاصمهم وأصلهم من جنوب الصين يتفوقون على الآخرين بضحكاتهم وأصواتهم الرنانة المجلجلة

رأت تشانغ يون ذلك فأحسست بنشوة ، سمعت شخصًا يناديها باسمها بصوت عال ،إنه تشانغ شى تشون يلوح بيده من بعيد وأخذ يهرول مسرعا نحو المبنى وهو رافع ناظريه نحو تشانغ يون الواقفة خلف النافذة :

قال تشيانغ شى تشون ، وكأنه انتظر طويلاً ، لقد جئت أخيرًا ، أخيرًا ، يا لك من فتاة طيبة! وهو يصافحها بقوة وحماس بينما يلتقط أنفاسه ·

خشيت ألا أجدك . . . .

" أكيد " مؤكد إنك ستجدينى ، ولكن تعالى هنا لقد طالت قامتك وأضاف تشانغ شى تشون كأنه كشف شيئا يعجبه " قامتك أطول من ذى قبل كثيرًا "

أحست تشيانغ يون أن نظرات تشانغ شى تشون المستمرة لها وكلامه الذى لا يتوقف عن طول قامتها يخفى وراءه عبارة "أنت جميلة . " وأى فتاة تلك التى لا تستشف نظرات الإعجاب والإحساس بجمالها ؟ استدارت تشيانغ يون فى دلال وكبرياء وشىء من الخجل وجلست على حافة السرير ثم امتلأت الحجرة بأحاديثهما التى لم تتوقف منذ لقائهما .

قال تشانغ شى تشون : كنت أعتقد أنك لن تفكرى فى أمرى مرة ثانية ولم أتوقع.........

أجابت تشيانغ يون : "هه " أما زلت تتحدث عن ذلك ، فى مساء أول مايو من الذى سعى إلى الآخر ؟والآن من أيضًا الذى سعى إلى الآخر ؟

لقد جئت اليوم فى الوقت المناسب تمامًا فسوف نرحل من هنا مساء غد ، نذهب فى تدريب عملى إلى العين الساخنة ومنطقة تشوكودين [1]وهذه هى المرة الأولى التى نخرج فيها فى عمل ميدانى .... لماذا لاتخبرنى عندما تخرج فى دراسة عملية ؟

صحيح أنا لم أسألك بعد ؟ فى أى تخصص أديت الامتحانات ؟

الصناعات الميكانيكية ....

يا للخسارة ،ولماذا لم تؤدين امتحانات التأهيل لمعهد الجيولوجيا ؟ إن الكفاءات الجيولوجية الآن مثل الذهب ! لقد كانت أول عبارة فى حديث نائب وزير الجيولوجيا إلينا هى نداؤه لنا" سادة وسيدات الأرض فى مستقبل الأيام .... " إن مبنى معهدنا شامخ وضخم ، ولم ينته منه حتى الآن سوى جزء واحد من سبعة أجزاء ....

إن معهد الجيولوجيا رائع ولكن للأسف - انقضت الامتحانات - ولقد فكرت أيضا آنذاك فى كتابة معهد الجيولوجيا كرغبة أولى ولكنى نسيت وقتها كيف تكتب كلمة "جيولوجيا".............

" أكاد أتميز من الغيظ " !

(١) منطقة أثرية تقع على مشارف بكين ، اكتشف فيها آثار عظام إنسان بكين .

" .... "

" .... "

ومن يدرى كم احتـوى هذا الحديث الذى بدأ بـالمزاح من مشـاعـر الصداقـة الحميمة الخالصة ، ومن دفء وحرارة المرح الكامن فى نفوس الشباب !

... وبعد الظهر انطلقا إلى ضفة نهر سـوتشو بجانب الجبل الخلفى فى قصر الصيف ، وهو مكان هادئ وجميل ، على جانبيـه تنمو الحشائش والأعشاب البرية التى يصل ارتفاعها إلى ركبة الانسان ووسط هذه الأعشاب تنمو زهور بيضاء صغيرة، حجم هذه الزهور فى ربع حجم ظفـر خنصر فتاة صغيرة ، تنحنى عليـها الفراشات تقبلها وتمتص رحيقها ثم تتمطى بظهرها نائية عنها ، سعت يانغ تشيانغ يون، ومعها تشانغ شى تشون إلى صخرة صغيرة بجوار هذه الزهور وجلسا عليها تظللهما أشجار الباراسول الصينية بأوراقها المستـديرة ، نظرا إلى أسفل فشاهدا مياه النهر تنساب فى نعومة وهدوء وسلاسة ، وطيور اليعـسوب وغيرها من الحشرات الطائرة الأخرى من ذوات اللون القرمـزى تبحث عن سيـقان نباتات جافـة بارزة عن سطح الماء لتستـقر عليها ، قـفزت ضفدعة فـوق الطحالب الطافية ثم انزلقـت من فوقها، عادا فـرفعا رأسيهما ورأيا كثيرا من المعابر الخشبيـة الحمراء الصغيرة وفوقها تسبح قطع السحب البيضاء فى الفضاء البعيد ، وتحت هذه السحب تصدح طيور العقعق وفوق قمة جبل قريب وفى هذا المكان الفسيح بين السمـاء والأرض تهب نسمات رقيقة ، وكل شىء يبدو فى وضـعه المناسب وهنا أخـذت يانغ تشانغ يون قـسطا من الراحة الحـقيقـية وتوقفت أحلامها المحمـومة مؤقتا وتراجع حماسها المتأجج بـصورة مؤقتة هو الآخر وقضت وقتا خالية البال قريرة العين .

أغمـضت عينيـها وراحت تسـتمع فى هدوء الى أصـوات أنفاسهـا والى طنين اليعسوب وخـرير الماء وأزيز محركات الطائرات التى تحلق على ارتفاعـات منخفضة

ونباح الكلاب الضالة فى القرى وأصوات التدريب على المدافع الصادرة من فيلق عسكرى على مشارف المدينة، وبعد أن فرغا من سماع هذه الأصوات راحا يشمان مزيجا من روائح نبات الافسنتين البرى والأتربة وروائح طمى النهر التى تطفو على سطح الماء ، وخليط من الروائح الذكية المتصاعدة من القوارب، وقد نسيت تشانغ يون ، لقلقة النافذة الصبر دائما نست نفسها الآن وانغمست تماما فى سماع وشم مزيج من الأصوات والروائح الطبيعية والبشرية لا تفكر فى شىء ولا تحرك ساكنا ، فقط قطفت غصن شجرة جاف وقذفت به إلى سطح الماء فتكونت تموجات دائرية الشكل ومتوالية تفرقت على أثرها الأسماك الصغيرة لشدة خوفها.

أقبلت جماعة من الطلاب من فوق أحد المنحدرات الجبلية على شاطئ النهر ينادى قائدهم : هيا واحد اثنان ثلاثة غناء ، ثم يغنون جميعا فى صوت واحد باللغة الكورية. إلى جوار عين المياه حملقت تشانغ شى تشون فرأت مركبا من الطراز الكلاسيكى القديم يظهر فوق سطح النهر عند أحد الانحناءات ، المراكبى يستخدم مجدافا من البامبو فى دفع المركب الذى يجلس به مجموعة من الأصدقاء الكوريين يلوحون ويشيرون بأيديهم، يهتمون باستطلاع ومشاهدة كل ما حولهم، وهذه سيدة فى ملابس جميلة تخطف .

الأنظار تحت ضوء الشمس الساطعة ، غنى الأولاد لهم غناء جماعيا باللغة الكورية ولوحوا لهم قائلين : " أهلا وسهلا بالرفيق الكورى "!

سُر الأصدقاء الكوريون غاية السرور واندفعوا جميعا صغارا وكبارا الى هذه الجهة من المركب وراحوا يهللون بصوت عال ويرفعون، زجاجات المياه الغازية الفارغة ويطرقون عليها طرقات ارتجالية فقد المركب توازنه ومال بشدة نحو هذا الجانب فضحك كل من بالمركب ومن على الشاطئ ضحكات عالية مجلجلة

قال تشانغ لهم فى لهجة استفزازية " إنكم - أيها - التلاميذ - مهذارون"

كلامك فارغ بل هذا مرح وانطلاق !

ولم يستمروا على هدوئهم بل انطلقوا يتحدثون بحماس فى كافة الأمور ، وتحول التلاميذ من مجرد إلقاء التحية على الأصدقاء الكوريين الى الحديث معهم فى أخلاقيات الناس والحديث عن التفاؤل والأدب والأغنيات وضرورة دراسة اللغات الأجنبية . . . .

أمسى اليوم شيئا فشيئا واستعدت تشانغ يون للرحيل وقالت لتشانغ شى تشون :

تشانغ شى تشون هناك أمل فى إرسالى للدراسة فى الخارج

قفز تشانغ شى تشون متهللا فى سعادة حقيقية ؟ رائع رائع أهنئك ! ومد يده العريضة مصافحا تشانغ يون فى قوة حتى جعلها تهتز وتترنح .

يقال إننى إذا سافرت سوف أمكث بالخارج سبع سنوات وكم يكون اشتياقى إلى قصر الصيف هذا!

لا تنزعجى ، سوف تذهبين للاستجمام فى الخارج ، حيث تنتشر المتنزهات الرائعة على شواطئ البحار !

سوف أترك بكين وأغادرها إلى مكان بعيد

بعيد ماذا ؟ ! إن سفرك فى مجتمع شيوعى من بكين إلى أى مكان فى العالم سيكون مريحا مثلما تنتقلين من المدرسة الثانوية السابعة للبنات إلى معهد الجيولوجيا

نعم واتفقت تشيانغ يون معه فى ذلك

أكثرى من كتابة الخطابات إلىَّ فى المستقبل

" لن أكتب " بل اكتبى ، اكتبى ، حتى لو كان خطابًا واحدًا فى العام " ثم وارب تشانغ شى تشون عينيه ونظر للشمس وهى تجنح نحو الغروب وقال فى

صراحة ووضوح: أحيانا أخشى الفراق ، فمثلا يكون الشخصان صديقين حميمين فى أول الأمر ويفترقان فيتبادلان الرسائل فى البداية مرة واحدة أسبوعيا ثم شهريا وبعدها سنويا ، وفى نهاية الأمر تنقطع الصلة تدريجيا ويصبحان غرباء ويقع الجفاء ولا يذكر أحدهما الآخر .

وقد فضفض هذا الشاب - طويل القامة رابط الجأش فى لهجة من يفهم حقائق الأمور فهما كبيرا - عن بعض المشاعر الحزينة الساذجة مما دفع تشيانغ يون إلى الضحك

أدرك تشانغ شى تشون أنها تسخر منه لأنه تحدث فى وقار كمن يتحدث فى أمر جلل فبادر قائلا وبطبيعة الحال هناك أحيانا أخرى أحب الفراق فيها : مثلا لو أن أحد أصدقائى أنت مثلا سافرت الى مكان بعيد فاننى سوف أفكر فى أن العالم كم هو كبير وكم أن الحياة رحبة وأقول امضى فى سبيلك ، اذهبى إلى مكان بعيد جديد، شقى طريقك وواصلى نضالاتك وكفاحك وليس مهما أن تكتبى رسائل أو لا تكتبى، ولتفصل بيننا الآف بل وعشرات آلاف من الأميال بينما نحن مشغولون ليلا ونهارا فى العمل من أجل قضية مشتركة !

امتدحته تشيانغ يون قائلة : رائع إن هذا الكلام يفرح القلب ويشرح الصدر ثم نهضت واقتربت من الشاطئ وسألت شخصاً على ظهر المركب السياحى ممن يضع ساعة فى معصمه عن الوقت ، وعادت تقول أريد أن أنصرف ، الى اللقاء وصافحها تشانغ شى تشون بحرارة

كل إنسان يواجه مثل هذه اللحظة التى لا تحدث سوى مرة واحدة مشاعر الشباب وأحاسيسهم الصادقة تتفجر مثل ينابيع الماء

يودون فى ذلك العهد أن ينشدوا مائة أغنية فى اليوم الواحد، كل أغنية منها تثير المشاعر والأفكار والأحاسيس النابضة بالصدق، ويوم أخر يودون لو سجلوا عشرات اليوميات يسجلون فيها أفراحهم وتطلعاتهم وشكاواهم، إن أبسط أمور الحياة

كنوبة من المطر، نسمة من الريح، قصيدة شعر جميلة يمكن أن تثير شعورا دائما من السعادة والحزن، فـى هذه الفترة تطغى الأمنيات التى تحقق للإنسان الـسعادة وتسدى له نفعا على كل ما عـداها ، وإلقاء كلمة التحية أو حتـى إطلاق نكتة يمكن أن يعبر عن لطف وذكاء لانظير لهما لكن الصديق الحمـيم فى عهد الشباب حتى لو التقيت به صدفه وحـتى لو تعارفتمـا للحظة واحدة ، إذا أسعدك الحظ وصـادفت مثل هذا الشخص وأدركت شـيئا فـشيئـا أن له نفس طباعك ويبادلـك نفس الحب ويشاركك الرغبة فى تكريس حياته من أجل الآخرين فان كل ذلك يصبح ذكرى خالدة على مر الزمان ، وكلما كان الـفراق طويلا زمانا ومكانا كانت الذكرى متـجددة جميلة ، إن الحياة دائما تباعد بين أصدقاء الصـبا حيث يمضون كل فى طريق ، ويتبدد كل شىء وينقشع مـثلما تتـبدد السحب وينقـشع الضباب ولا يبـقى غير الـذكرى ولكن يانغ تشيانغ يون وتشانغ شى تشون عندما يجىء هذا اليـوم ويكون قد شاب منهما الشعر خلال رحلة النضال الشاقة وزحفت تضاريس الزمـان على الوجه والجبين، سيجدان أن الصداقة التى أرسياها هذا العام لا تزال باقية تجمع بينهما، آنذاك إذا قدر لهما أن يلتقيا صدفة فى أحد الاجتمـاعات الكبرى أو يسمع أحدهما خبرا عن الآخر من هنا أو من هناك فإن ذلك يؤجـج مشاعرهمـا من جديد ويوقظ ذكـرياتهما الجـميلة يانغ تشيانـغ يون تخطب بصوت عال بجوار نيـران ، المعسكر وتشانغ شىء تشون يـنتقد ويعلق على كل شئ وهو واقف على سـاحة الجليد بينـما نجد أن الانكسـار النفسى والشعور بالتـعب وعدم الاكتراث بشىء ، ذلك الذى ربما يكون من صـفات المسنين سوف يختفى فى هدوء ويفـقد وجوده تحت أشعة الـشمـس الربيـــعية التى تشرق مرة أخرى .

(٣٨)

عادت تشيانغ يون الـى المدرسة فى الساعة السابعة والنصف الزمـيلات يتوافدن على فناء المدرسة استعدادا للتـجمع ، منهن من تطلق النكات وتشرب الشاى ومنهن من راحت توزع ما تـبقى معـها من لب البطيخ على الزمـيلات الآخريـات ، بينما أخذت بعضـهن تساعد الآخريات فى ضـفر شعورهن بشكل جـميل ،وما إن رأين يانغ تشيا نغ يون حتى أحطن بها جميعًا

أيتها الشابة ! لقد قلقنا عليك قلقا شديدا ! أين ذهبت ؟

وما العمل إذا كنت قد تأخرت ؟

أسرعت يوان شن تشـى وأمسكت بيد تشـيا نغ يون واتجهـتا نحـو العنبر وهى تقول : أسرعى غيرى ملابسك بسرعة ولكن هل تناولت طعامك ؟

سحبت تشيانغ يون يدها وأومأت وهى تتمتم

صحبتها يوان شن تشى وقالت فى سـعادة وحماس لقد أعلنت الزميلات أنهن يجب أن يرتدين اجـمل ما يمـلكن من ملابس ويظهـرن فى أبهى صـورة مـسـاء اليـوم . . . .

عندئذ فـقط نظرت تشيـانغ يون إلى يوان شن تشى بإمعـان فرأتهـا قد ارتدت وكأنها تعلن التحدى : بلوزة ذات لون قرنفلى مبهر وياقة مستديرة ، تنتشر فى هذه البلوزة نقط صغيرة ذات ألوان خضراء وصفـراء وبيضاء وربطت شريطة بيضاء حول الياقـة وضفرت شعـرها فى عدد كبـير من الضفـائر الصغيرة ثـم ضفرتها مـعا فى ضفيرتين اثنتين كبيرتين طويلتين وربطت فى طرف كل منهما شريطا حريريا أبيض ،

ويوجد على جانب التنورة ذات الداير السفلى الأبيض التى ترتديها تطريز على شكل ورقة لوتس عـريضة ، من الجـانب بها عـروتان ذاتا لون أخضـر على هيئـة بتلات اللوتس وزراران صغـيران من الزجاج ذى اللون الأزرق الداكن يشـدان التنورة حول وسطها .

وبدت يوان شن تشى فى ملابس زاهية جميلة ونظيفـة وظهرت عليها علامات البراءة والنضج فى آن واحد ومن ثم استندت تشيانغ يون إلى كتـفها وامتدحتها قائلة يا سلام حقيقى رائعة الجمال وأنت تلفين مثل هذه الشريطة !

داعبت يوان شن تشى الشريطة ولمعت عيناها بالذكاء وقالت مفسرة إننى أخشى من التراب . . . .

ابتسمت تشيانغ يون واقتربت من صندوق ملابسها الصغير

ورغم إعجابها بملابس يوان شن تشى الا أنها لم تلق بالا لتجميل وتزيين نفسها فقد ارتدت قميصا أبيض عاديا جـدا وذا ياقة مقلوبة دون أن تعبأ بمعارضة يوان شن تشى الشـديدة لذلك ، وشمـرت كمى القـميص وأبانت عن الندبة التى تـوجد فى ذراعها اليمنى (أثر الشقاوة فى عهد الطفولة)

شعـرها ليس طويلا ، ربطت يوان شن تشى العقـصة اليمنى مـنه بشريطة من الحرير ، وما كان من تشيانغ يون إلا أن نزعت هذه الشريطة ولمت شعرها بتوكة من المطاط وتسللت لتنظر الى نفسها فى المرآة : شعرها كث وكثيف ، حاجباها يرتعدان ونظراتها تبدو قلقـة وغير مستقـرة وشعرت بالخجل من الوقوف أمـام المرآة أكثر من ذلك فارتدت تنورة قصـيرة غير مكسوة ذات داير أبيض وخطوط طويلة مـزركشة ، وهى أحدث موديل من صناعـة تيانجين لبست فى النهاية حذاء صيـفيا من الجلد ذى اللون الأبيض ونظرت الى يوان شن تشى فى اعتذار وهى تقول : معقول ؟

قادت يوان شن تشى يانغ تشيا نغ يون وخرجتا تتفقدان ملابس الزميلات ، فوقت التخرج يختلف عن كل الأوقات العادية ولقد كبرن وزادت جرأتهن فى اختيار وارتداء الملابس ، فقد ارتدت لى تشون التى لم تكن تهتم بملبسها من قبل فستانا طويلا ذا لون أصفر برتقالى وبدون ياقة ، يبين عن جزء صغير من صدرها وظهرها، ويالها من فتاة رائعة الجمال إذا لم تضع النظارة على عينها ، وهذه تشن بوا وقد بدت رائعة للغاية ، فهذه هى المرة الأولى التى تضفر شعرها الطويل فى ضفيرتين قصيرتين ، وقميصها الذى يجمع تصميمه بين زهور صغيرة متداخلة ذات ألوان زرقاء وصفراء ورمادية يبدو جميلا ملفتًا للأنظار .

والعجب كل العجب لسونينغ ، أو ليست هى القادرة دائما على ارتداء الملابس الفاخرة ؟ إنها على العكس ترتدى اليوم قميصا بسيطا من القماش ذا لون أصفر سادة بلون الأرز وتنورة زرقاء بينما ، لم ترتد تشوشيا ولينغ سوى شورت ذى لون أزرق غامق وقد أبانت عن فخذيها السمراوين المكتنزين فى زهو ودلال

وما زالت مارى ترتدى السروال الطويل ذا اللون الباهت ، فهى لا ترغب فى أن ترى الزميلات الجسأة (الكالو) التى تكونت على ركبتيها من جراء كثرة السجود

لكنها بدت أيضا فى شكل ومنظر جديد عندما ارتدت لأول مرة تلك البلوزة المزركشة التى اشترتها من حصيلة ما وفرته فى صندوق إعانة الطلاب .

بدت يوان شن تشى فى غاية السعادة والحيوية ، وأخذت تتحاور وتتناقش ، وتثنى على ملابس الزميلات التى تتفق مع شعار "دع مائة زهرة تتفتح " وتشيانغ يون تبدى إعجابها بابتسامة مستترة وكأنها ترى أنها تجاوزت مرحلة المراهقة التى لا تستقر على حال ،وبدأت أنظارها تتعلق بشىء أكثر أهمية .

وفى الثامنة والنصف ، تجمعن جميعا فوق أحد المرتفعات بجوار الباغودا البيضاء بحديقة بيخاى .وقالت إحداهن : "التزمن الهدوء ، لنلق نظرة أولاً من هنا

على المدينة " ، واقترين إلى جانب الباغودا حيث يمكن رؤية مدينة بكين بأسرها ، كـان الليل قد أرخى سـدوله ، وأخذ لون الـغسق الأحـمر الذى يلوح فى الغـرب يتحول تدريجيا إلى اللون القرمـزى ثم الرمادى ثم إلى اللون الأسود ،ثم اختفى فى نهاية الأمر . وفى الحال أضـيئت الأنوار فى الشوارع وأضاءت بعدها تبـاعا مصابيح المحال التجارية والمنازل . يخيم ضباب أبيض فوق كوبرى مقوس أبيض يوجد عندما طرفه سلحـفاة بحرية مذهبـة، أضواء كشـافات السيارات المارة فـوق الكوبرى تظهر متقاطعة ، وتحمل الرياح الجنوبية أصـوات نفيرها " . حشرات زير الحصاد "الطائرة تملأ الحديقة ، ويعلو طنينها على نحـو خاص عند الغروب .وفى الظلام يزداد أيضا حفيف أوراق أشجار الحور وأشجار البتولا.

ونظرن قريبـا تحت أقدامـهن ، فإذا بالأشجـار الخضـراء والحوائط الحمـراء قد اختفت وأصبحت غير واضحة الرؤية ، والأضواء القليلة الخافتة تتمايل على صفحة البحيرة اللامعة .

وانطلقت فى آن واحد ضحكات الشبـاب المجلجلة أولئك الذين يحتفلون بيوم الشبيبة بجـوار مقصورة وولونغ ممتزجة بأصوات اللعب والغناء المنبـعثة من فوق ماء البحيـرة . وإذا ألقينا نظرة على الأفق البعـيد ، شاهدنا الباغـودا البيضاء الصـغيرة للمعبد البوذى فى جهة الغـرب ، وفى الشمال نشاهد برج دق الأجراس وبرج قرع الطبـول ،ونرى القصـر الذهبى الشامخ المهـيب فى الجنوب. . . . . ورغم أننا تحت جنح الظلام ، إلا أنه يمكن التمـييز بين الأشياء بوضـوح . ومضين على هذا النحو ، حيث انتشـرن فوق قمة الباغودا البيـضاء ، تحاول كل منهن أن تبحث عن موقع بيـتها ومـدرستها والسـوق التجارية التى تـتردد عليها كـثيرا ، والمكتـبة ودار السينما، وكـذا الشوارع والميادين التى شاركت فى العمل الـتطوعى بها ،حتى إنهن أردن البحث عن الأمـاكن التى اصـطدمن فـيها بأشـخاص عندما كن يـتدربن على

ركوب الدراجات ، وعن حافة الرصيف التى كن يسترحن عليها دائما أثناء مسيرات الاحتفال بالعيد الوطني .

. . . . وقد اهتـدين جمـيعـا إلى الأماكن التى يبـحثن عنهـا على وجه التحديد ، ورحن يشرن بأيديهن فى يقين لا ريب فيه ، إنه المكان ، هذا المكان ! ثم يتعرفن جميعا على هذه الأماكن المنتشرة .

" هنا ، وهناك ! "

وقد بدت المدينة العريقـة – التى منحتهن كثيراً من السـعادة وهن يقفن هنا فى هذا المكان ، والتى بدأت حياة جديدة . كأنها تهمس فى آذانهن قائلة :

" هل أنتن بخـير ؟ أهنئكن ! انظرن إلىّ بدقـة وإمعـان ، فربما نفـترق ، أنتن تحبـوننى ، أعرف ذلك ، لقـد شيـدتنى سواعد أجـدادكن تشيـيـدًا كامـلاً وصلبًا ورائعاً، وانتزعتنـى سواعد آبائكن وإخوانكن من براثن الأعداء ، ثم عاد إلىّ الشباب على أيدى أبناء جيلكن ، ولكن ما أصبوا إليـه ، أشد ما أصبو إليه هو أنتن ، أتمنى أن تكبرن فى سعـادة ، وأن تضفين علىّ لمسات الزينة والجمال مـثلما زينتن أنفسكن قبل قليل

واتجهت مـارى وحدها نحـو الشرق ، تنظر إلى المبـانى حديثة التـشيـيد وإلى مداخن المنطقة الصناعية فى الحى الشرقى ، تهب عليها نسمات باردة منعشة . كانت دائما لا تشاركهن الضحك عندما يتضاحكن فى سعادة ، وكأنها ينقصها أشياء كثيرة دون بقية زميلاتها . أو ليست قد استقر بها العيش مع زميلاتها ؟

أو ليست قـد انتصرت على الحـزن والأسى وأعلنت أنها " تستطيع الحـياة "؟ نعم، إنه من الواضح الآن أنهـا لا تختلف عن زميـلاتها فى شيء ، وقد أخـتـارت لنفسها طريقًا جديداً بلا تردد ، ولكن الذكريـات الطويلة تجثم على أنفاسها ، مثلما

يعجز الإنسان الذى يهاجمه كابوس فى نومه عن الشعور بالسعادة حتى بعد اليقظة ، وإن أخطر ما تعانى منه هو خطر الفتور والبرود الذى يزحف على عقيدتها ، فعندما كانت تؤدى الصلوات أمس الأول ، تسللت إلى نفسها فكرة خطيرة : " أليس كل ذلك من قبيل خداع النفس ؟

" ألم يكن جوزيف يؤدى التراتيل والصلوات كل يوم ؟ " ثم ارتعدت فرائصها خوفا من هذه الفكرة الشيطانية ، وندمت ندمًا شديدًا على ذلك من وقتها حتى اليوم .

لم تتركها يوان شن تشن تنفرد بنفسها طويلا ، واقتربت منها ، وسألتها فى حنو واهتمام " إلام تنظرين ؟ " ثم استطردت تقول فى براءة دون انتظار رد منها :

" هل ترين أن بكين جميلة ؟ أن الأبنية كثيرة فى الحى الشرقى ، أتعرفين ؟ إن رغبتى هى دراسة هندسة العمارة ، عندما أرى الأبنية حديثة التشييد فى بكين كثيرة بهذا الشكل ، أخشى أن تضيع فرصتى التى خططت لها بعد التخرج ، إننى إذا خططت هذه المدينة ، فسوف أخطط بناء قلبها على شكل زهرة ، بحيث تقوم الشوارع التى تشبه الخطوط الإشعاعية بتفتيح بتلات هذه الزهرة ، ويكون المبنى الشامخ فى المركز بمثابة السداة ، وإذا نظرت من أعلى وأنت تركبين الطائرة . . . .
. . . .

كانت لى تشون تجلس بجوارها مع يانغ تشيانغ يون تحت شجرة صنوبر عتيقة ، عندما قالت لى تشون :

" عزيزتى يانغ ، حقيقة ، إننى أشعر أكثر فى وقت التخرج أنك أعز الصديقات وأقربهن إلى نفسى ، وما أروع النقد والمعارك الفكرية التى كانت تنشب فى عهد المرحلة المتوسطة . إننى حقيقة آمل أن نظل معًا إلى الأبد ، وما أجمل أن

يكون هناك من يشير إلى مثالبى وعيوبى فى صراحة وقوة وفى الوقت المناسب ، وبعبارة أخرى ، إننى أحتاج الى من يشتمنى دائما

وفى جانب آخر ، كانت تشوشيا ولينغ لا تزال تسأل ووتشانغ فو

" أخبرينى ، كيف يكون الإحباط وفتور الهمة ؟ لقد شهد كثير من الزميلات حالات من هذا الإحباط المعنوى ، ثم تقدمن بعد ذلك ، لكننى لا أستطيع ذلك ، لقد ذكرت اللجنة الفرعية لرابطة الشبيبة عند التخرج أننى ذات فكر متواضع ، وهذه حقيقة فانطباعاتى وردود أفعالى تبدو كأنها قليلة للغاية حتى فى هذا الوقت . . . . . .

أومأت ووتشانغ فو برأسها فى شعور بالتعاطف .

حان الوقت ، وقفت يوان شن تشى فوق صخرة وصفقت بيدها داعية كل زميلاتها للتجمع . القمر يتعامد فوق الرؤوس ، ويرسل أضواء خافته ، وقفت شن تشى منتصبة القامة ، منتفخة الصدر ، شامخة الرأس ، قالت فى تأثر :

" الزميلات الأعزاء، دعونى نيابة عن جميع زميلات فصلنا أن أعلنها على مدينتنا الحبيبة . ووطننا الحبيب ، وعلى كل ما حولنا : لقد تخرجنا

" لقد تخرجنا ، قالتها جميع الزميلات فى صوت واحد مفعم بالحماس ، وراح صدى الصوت يتردد فى المكان ، " . . . . تخرجنا. تخرجنا " .

واستطردت يوان شن تشى تقول : " لقد تخرجنا ، ونحن نعتز ونزهو بذلك، بعد أن أمضينا ست سنوات دراسية ناجحة فى العاصمة بكين وفى كنف الزعيم ماوتسى دونج ، ونقف الآن على أعتاب مرحلة جديدة من مراحل الحياة : الغد يفتح لنا أحضانه بالكثير من الأمل والنور والزهور ، وبالكثير من المسئوليات

والتبعات أيضًا ، هذا الأمر لم نستوضحه تماما بعد ، لكننا جميعا نعرف معرفة اليقين معالم طريق المستقبل ، حيث سنقدم كل شيء من أجل الوطن ، ومن أجل الاشتراكية "

صفقت الزميلات تصفيقا حارا حتى التهبت أكفهن .

واستطردت يوان شن تشي : " سوف نبدأ حياة جديدة تماما ، لا نعرف كم ستحوى من الصعوبات والتعقيدات ، والمستقبل يفتح لنا ذراعيه ، ولن يمضى طويلا حتى نفترق ، وهناك بعض الزميلات ستودعهن مدينتنا ، والآن ، دعونا نمضى معا آخر اللحظات وأجملها وأسعدها أيضا فى عهد مرحلة الدراسة المتوسطة، دعن قلوبنا تتوحد وتتآلف الى الأبد . الزميلات العزيزات هكذا تبدو حياتنا جميلة ورائعة ،الآباء والإخوة والأخوات كلهم ينظرن ألينا بعين الغبطة والسرور ، العمل والإنجاز يدعوننا ، يطلبان منا تقديم كل ما كنا نتحلى به فى المرحلة الدراسية المتوسطة من حماس وذكاء وروعة وجمال ، وأن نغنى ونرقص بكل قوة وحماس . لا يزعجنا أن تهتز الأرض تحت أقدامنا ما دامت لن تخرج عن مدارها المستدير " .

وراحت الطالبات يغنين فى صوت جماعى"نحن نرفع الكؤوس" هذه الكلمة التى تم تعديلها إلى : " سوف تكون هذه الصداقة أكثر قيمة إذا استطعنا أن نلتقى فى المستقبل . . . . " وصافحت بعضهن البعض ، وتبادلن التهنئة ، ورحن يعزفن على الأكورديون والفلوت المصنوع من البامبو ، ويلقين واحدة تلو الأخرى ما يروق لهن من أبيات الشعر - ألقين كل صنوف وألوان الشعر ، ما كتبه بأنفسهن، وما كتبه الشعراء من الصينين والأجانب ، حديثهم وقديمهم من قصيدة "تمجيد عهد المرحلة المتوسطة الذهبى" الى "رحلة ممتعة فى ساحة الحرب القديمة تثير فى القلب مشاعر كثيرةً حتى " أسخر من نفسى لأن رأسى اشتعلت شيبا " [1]،من أصنع لنفسى نصبا تذكاريا ليس من صنع البشرً ، إلى " يامطرقتى ، وأبيات شعرى امدحى أرض الشباب الفسيحة " .

(١) انظر ديوان الشعر الغنائى لسوشه .

. . . . وألقين أيضا بعض أشعار الزعيم ماوتسى دونغ :

" كان زملائى من الصبية فى عمر الزهور ، ينتقدون كل شىء فى العالم بروح المثقفين . . . . . "

إنهن لا يعرفن على وجه التحديد معنى كل كلمة من هذه الكلمات ، غير أنه، ما دام شعـرا جيدا فإنه يمكن أن يتـفق مع ما يشعرن به اليوم مـن مرح وسعـادة ، وما دمن يلقين الشعر فـقد أستطعن التعبير عن مشـاعرهن . وبينما كن غارقات فى إلقـاء الأبـيات من الشعر ، وصل إليهن الأسـتاذ يوان لاهثا بعد أن انتهى لتوه من أحد الاجـتماعات ، ممسكاً فى يده رغـيفًا من الخـبز الجاف اشتـراه فى الطريق وقد تخلص اليـوم من التحـفظ الذى يتسـم به المدرس ، تحول تمامـا إلى طالب من بين الطلاب المفعـمين بالشـباب والحيـوية ، وأطلق حنجرته وراح يغنى أغنيـته " اللون الأحمر يغطى النـهر كـه " ليـويفى وهى - على حد قوله - أغنية سمعها من أبيه قبل أربعين عاما .

انتصف الليل ، والزميلات يمشين الهوينا فى عرض الطريق .

عربات رش المياه انتهت من دورتها الأخيرة ، والنـسمات الرطبة المنعشة تنبعث من على سطح الطريق ، وهناك بعض الـعمال يقـومون فى الليل بإصـلاح قضـبان التـراموى المخلوعـة كى يضـمنوا سيـر المواصلات فى الـيوم التـالى ، أنبوبة لحـام الأكسجين تصدر صـوت " أزيز " ، والشرر الأزرق يتطاير ويتساقط على الأض فى هدوء .

شرطى المرور عاد إلى بيتـه ، وترك مصباحا كهربائيا وحـيدا على واجهة نقطة المرور التى تشبـة كلها فطر عش الغـراب ، هذا المصباح يضىء حـوض زهور على شكل نصف دائرة حول النقطة . وتظهر زهور صغيرة متفتحة مستديرة عديدة الألوان وسط مساحة من الحشائش الخضراء.

قالت تشـيانغ يون لتشن بوا : "إن مـوقع هذه النقطة رائع ، حيث يوجـد مثل هذا الكم الكبير من الزهور التى لاتشبه زهور الصيف ، بل تشبه زهور الخريف " .

" ولماذا تشبه زهور الخريف ؟ " .

" فى الربيع ، تبدو زهور أشجار الخوخ والبرقوق الكثيفة مثل مساحات شاسعة من النيران ، وفى الصيف تتفتح أزهار الموتان والفـاونيا وتنتشر بكثرة وغزارة . وفى الخريف توجد بـكثرة زهور مجد الصبـاح وزهور الياسمين ، وهذه الـزهور أوراقها كثيفة وحجمها صغير وتتفتح وتنتشر فى كل مكان " .

" ليس ذلك بالضرورة ، فالفتاة الجميلة تزبل ثم تتفتح فى الخـريـف ، لكنك تتصفين بالدقة والقدرة على التـذوق والإعجاب معا ، لذا فمن المؤكد والمؤسف فى الوقت نفسه وقوع حوادث طريق إذا عملت هنا فى نقطة المرور هذه .

ابتسمت تشيانغ يون ، وداعبت شعرها بأصـبعها ، وقالت فى لهجة تجمع بين الهزل والجد : " لا بأس يجب عليّ إذن أن أدخل فى صراع مع قدرتى على التذوق والإعجاب " .

" صراع؟ "

" نعم ، لأن هذه القدرة سوف تشتت ذهنى ، وتؤثر على عملية توجيه حركة السيارات " لكنك لست شرطية مرور ، ولم تدرك تشن بوا تماما ما تفكر فيه تشيانغ يون ، فشعرت أن هناك ما يدعو إلى الضحك .

قالت تشيانغ يون فى عناد " نعم ، صـراع ، نفس الأمر ينطبق على أى عمل آخر " .

وفى الأمام شـاهدن عدداً آخر من العمـال يقومون بإصـلاح وترميم الطريق ، حيث يقومون أولاً بتسوية السطح المتعرج المتشقق وكسر الدبش ثم يضعون فوقه مادة

البيتـومين (الأسفـلت) الأسود الذى ينبـعث منه الدخان والرائحـة التى تزكم الأنوف .

وهكذا الحال فى كل ليلة ، بينما يكون الشباب سـعيد الحظ يحلم أحلاما هانئة سعيدة ، يكون هناك كثيرمن العمال الذين يعملون من أجل راحة أهالى العاصمة ، يالهم من كادحين ، تشاورن فيما بينهن ، واقترحت تشوشيا ولينغ قائلة : " انتبهن، سأعد واحد ، اثنين ، ثلاثة فـتصحن جميعا فى صـوت واحد أيها الرفاق : شكرا لكم على عـملكم الكادح ،ثم عـدت واحد ، اثنان ، ثلاثة " فـهـتفت الطالبـات جميـعا بالنداء ، وضحك العمال لهـذا الحماس غير المتـوقع ، وراحو يلوحون لهن جماعة بعد الأخرى ، ومنهم من قال وهو يلوح بالتحية " أهلا وسهلا

سألت تشن بوا فى عدم مـعرفة " عزيزتى يانغ ، أخبـرينى ، لماذا تقولين هذا الكلام ؟" أجابت يانغ تشيانغ يون وهى تبطئ فى الكلام حينا وتسرع حينا آخر وفقا لوقع خطواتها " لقد فكرت فى أمور كثـيرة وقت التخرج ، فأدركت آنذاك فقط كم أن حدود مـعرفـتنا غيـر كافـية وسطحـية . . . . . . لقـد ذهبت اليوم إلـى إحدى الجامـعات ، وجـدتها تختلف عن المدرسـة الثانوية فى كل شىء : فـكم أن الأبنية شاهقة ، والأفنية واسـعة . . . . . كنت أزور صديقا لى هناك . . . . . . كم أتمنى بعد الالتحـاق بالجامعة أن أتغيـر الى الأفـضل ، أتغـير لـدرجة لا يعرفنى مـعها أحد ، أدرس وأعمل الفكـر بكل ما أوتيت من حماس وقوة ، وفـى إجازة الصيف أذهب أيضـا إلى المكتـبـة للمطالعـة . . . وفـيمـا يتـعلق بالقـدرة على التـذوق والإعجاب ، فقد تذوقت وأعجبت وتأثرت بما فيه الكفاية . وأصبح العمل الحقيقى هو أهم شىء الآن

" وفقـا لكـلامـك هذا ، ماذا نفعل إذا أردنـا أن نعمل عملا حقيقيا . . . "

ولم تمهلها تشيانغ يون حتى تنتهى ، وانبرت تؤكد قائلة : " حقيقة ، آمل أن أتغير فى كل شىء ، أتغير لدرجة لا يعرفنى معها أحد " .

" تتغيرين فى كل شىء ؟ حتى قسم عهد الشبيبة ؟ " سألتها تشن بوا فى شك وريبة .

" القسَم لن يتغير ، ولكن تتغير من ستحقق هذا القسم ، فلن تركن بعد اليوم إلى الحماس المؤقت . . . " وقبل أن تنهى تشيانغ يون كلامها ، صرفت بصرها عن تشن بوا وراحت تنظر إلى امتداد الطريق .

وعلى حين فجأة تقدمت تشيانغ يون الى الأمام، والتفتت، وصاحت فيهن : " أيتها الزميلات ، دعونا لا نمشى مبعثرات متفرقات بهذا الشكل ، ما رأيكن فى أن نتغنى بإحدى الأغنيات وقد تماسكت أيدينا جميعا ؟ "

" حسنا " !

ثم وقفن فى صفوف وقد تشابكت سواعدهن ، وأخذن يغنين بأصوات مجلجلة فى عرض الطريق ذات الأرض المسطحة المستوية وتحت السماء التى تزدحم بالنجوم ، أيقظت أصواتهن شابًا صغيرًا ينام فى أحد محال إصلاح الدراجات ، ففتح الباب الى الخارج ، وألقى نظرة بعينيه اللتين لم تبرحا النعاس بعد على هؤلاء الطالبات ، وتثاءب بصوت عال ، ثم سحب رأسه ودلف الى الداخل . ورحن يضحكن فى رضا واقتناع مثل الصغار عندما يمزحن مزاحا طبيعيا .

لاح أمام عيونهن ميدان تيان آن مين (باب السلام السماوى) الذى أصبح شعارا ورمزا للحياة عند الأطفال والشباب ، ياله من عظيم !

بوابة السلام السماوى تنتصب شامخة ، وشارع تشانغان الجميل الممتد شرقا وغربا يمثل الجانبين القويين الطويلين لهذه البوابة والميدان الواسع الفسيح هو

واجهتها وصدرها الرحب وقد فتحت ذراعيها نيابة عن الوطن ونيابة عن بكين لترحب بهؤلاء الفتيات اللاتى أنهين مرحلة الدراسة المتوسطة .

وقد أصبح ميدان تيان آن مين مهيبا وقريبا إلى النفوس منذ إقامة الاحتفال الكبير بإعلان قيام الصين الجديدة . فى هذه اللحظة المجيدة ، أعلن الزعيم ماوتسى دونغ قيام دولة الصين الحديثة ، ثم دوت طلقات المدفعية تهز العالم ترحيبا بهذه المناسبة .

وتدفق طلاب وطالبات المدارس المتوسطة على الميدان يلوحون بالزهور والرايات ويشكلون موجات حمراء متلاحقة ومتدفقة . بعد ذلك كن يذهبن فى عز وكبرياء الى ميدان تيان آن مين ، فى أيام الشمس المشرقة والسماء الصافية ،وفى أوقات هطول الأمطار الهتون أو فى مناسبات عيد العمال والعيد الوطنى ، لتمزجن هتافاتهن بالنداء التاريخى بالتقدم نحو المجد والعزة والقوة والرخاء .

وفى فصل الصيف حيث تكسو الخضرة وجه الأرض ، يذهبن الى متنزة تشونغشان لسماع الموسيقى ، أو الى قصر ثقافة الشعب العامل للرقص . وهذه الأماكن التى يقصدنها قريبة من تيان آن مين ، ومن ثم كن يلوحن إليه بالتحية فى ود ومحبة . أما الآن فقد جئن أليه فى الليل ، ذلك الميدان الذى يوقظ فى النفوس ذكريات الماضى الملىء بالبطولة ، ويجعلها تحلم بالمستقبل المشرق المجيد . أمام هذا الميدان يتحول الجبان الى واثق بالنفس ، وضيق الأفق الى شخص واسع الأفق ، أيضا يفكر الإنسان البسيط فى بعض الأحداث والأمور العظيمة . . . .

وعندما اقتربن من الميدان ، شاهدن مجموعة من الطلاب يقفون إلى جوار سور جسر المياه الذهبية المصنوع من الرخام الأبيض وهم يصفقون ويهتفون ، ثم سمعن أحدهم يقول :

" الآن ، نبدأ إطلالتنا الجليلة على تيان آن مين ! ثم تفرقوا وراح كل منهم ينظر فى زهو وخيلاء .

وسألهن أحد الطلاب فى دهشة : "فيم أتيتن ؟" .

فردت عليه إحداهن السؤال فى دهشة وتعجب أيضًا : " ماذا تفعلون هنا ؟ " .

" نحن خريجو إحدى مدارس المرحلة المتوسطة " .

ونحن أيضًا ! .

ثم انضموا معًا وتشابكت أيديهم ، وراحو يرقصون رقصة جماعية فى دائرة كبيرة وقد أحسوا بالسعادة من أجل هذا اللقاء غير المتوقع ومن أجل التقاء خططهم المشتركة .

لم يعرفوا كم مضى من الوقت وسط هذه النشوة والسعادة ، ظهرت سيارة صغيرة ذات لون رمادى تقطع شارع تشارنغان من الغرب الى الشرق .

أثارت السيارة المسرعة فى منتصف الليل دهشة الطلاب ، تساءلوا : " من ذا الذى بالسيارة ؟ وفى مثل هذا الوقت المتأخر . . . . " .

وبادرت يوان شن تشى تخبرهم فى تأثر : " أنا أعرف ، إنه بالتأكيد الزعيم ماو "

سرت فيهم كلمة يوان شن تشى بسرعة سريان التيار الكهربائى فى الجسم كله، فأثارت الحماس فى قلب كل منهم ، وأخذهم الهدوء لحظة ، وشعر كل منهم بالزعيم ماو إلى جواره ، فتجمعوا بطريقة آلية ، واتجهوا أسفل صورة الزعيم فى الميدان ، وهتفوا : " الزعيم المحبوب ماوتسى دونغ ، لقد تخرجنا " .

" وعلينا أن نعمل بجد واجتهاد " ثم رددوا جميعا فى صوت واحد دون أن يعرفوا مصدر هذا الصوت : " نعم ، علينا أن نعمل بجد واجتهاد "

قاومت مارى دموعها بشدة ، ورفعت رأسها بصعوبة فقد شاهدت عينى الزعيم ماو اللتين تفـيضان حنواً وعطفًا ، وتجاعـيد وخطوطًا فوق العين التى تفـيض حزما وعـزمـا ، أليس الذى رأته فى هاتين العـينين هو الوطـن بعيـنه ؟ أليس هو الوطن الحبيب ، الوطن الذى كـانت تفتقده دائما من قـبل ، الوطـن الذى سيـــحنو على أبنائنا الى الأبد ؟ .

ورددت مـــارى بصوت هامـــس " شكرا لك ، أيـــها الـــزعـيـــم القائد " .

وعدن الى المدرســة وهن يغنين بصوت عــال ، ومشين فى ضــوء الغسق الذى يلوح فى الميـدان عند الغروب ، وأطراف السقـالات العاليـة التى تستـخدم فى بناء النصب التذكارى لأبطال الشعب تعكس الأشعة الذهبية .

خاتمة

هل يمكن لمن اجتاز غابات الصنوبر الكثيفة أن تسترعى انتباهه الحشائش الصغيرة ؟ وهل يمكن لمن اعتلى رياح وأمواج البحار والمحيطات أن تلفت انتباهه قطرات الندى على أوراق الشجر ؟.

كان ذلك فى عام ١٩٥٢ ، قبل ربع قرن من الزمان ، كنت آنذاك فى التاسعة عشرة من عمرى وكانت أول مرة أمسك فيها القلم وأقدم على كتابة هذا العمل الأول ، وبعد أن طالعته الآن ، وجدت كم أن هذا العمل ساذج وبسيط .

مضت خمسة وعشرون عاما ، قطع فيها حزبنا وبلدنا وشعبنا مسيرة طويلة مجيدة ، قطع الكاتب خلالها ، خطوات على طريق التحامه مع العمال والفلاحين والجنود ، وتحويل وجهة نظره للعالم الخارجى ورغم أنها خطوات قليلة، إلا أن الأحوال قد اختلفت كثيرا.

اختلف العصر ، وشهدت الحياة كثيراً من المتغيرات ، فمثلا كان هناك فى ذلك الوقت عدد غير كبير من طلاب المرحلة المتوسطة يتم ترقيتهم ليصبحوا أعضاء فى الحزب ، لكن ذلك لم يعد يحدث الآن .

كان هذا يحدث فى ذلك الوقت بناء على متطلبات النضال الثورى ، كانوا آنذاك يرقصون رقصات الصداقة ، وكان طلاب المرحلة المتوسطة والجامعة يدعون أستاذهم بلقب " السيد " ، وكانوا يسمون " المجمع السكنى رقم كذا " لإقامة الطلاب " النزل رقم كذا " . وفى هذا الوقت أيضا كانت تتولد بين الزملاء والزميلات من خلال احتكاكهم ببعضهم البعض ، بعض المشاعر والعواطف المشوشة والغريزية والتى بحاجة الى إرشاد وتوجيه . . . . . . ألا يمكن لكل هذه الأمور أن تثير دهشة جيل القراء من شباب اليوم ؟

ولكن لماذا جاءت كـتابتى للرواية على هذا النحو من الدقـة والتفصـيل ؟ أليســت هناك بعض الأجزاء التى وصلت إلى حد الاستطراد والإفاضة ؟ لماذا لم أبرز سمات وملامح العـصر بشكل أرحب وأوسع؟ ولماذا لم أجســد الإنسان الاشتـراكى الجديد بشكل أقوى وأعمق ؟ .

وقد كان الكاتب فى ذلك الوقت شـابا فى ريعان الشباب تماما مثل شـخصيات روايته الذين تناولهم بالوصف ، فـقد كتب عن بعض طالبـات المرحلة المتوسطة فى المدينة واللاتى اشـتركن أيضًـا فى الثورة الديمـقراطية الشـعبـية ، أحـببن الحزب ، وأحببن المجتمع الجديد ، لكن مـفهومهن عن الثورة وقضية الاشتراكـية كان سطحيا وضحلا للغاية ، تماما مثل الطفل الصغير الذى يحب والديه ، لكنه لا يفهم مكنون نفسيهما على الوجه الأكمل .

غيـر أن هذا النوع من الحب هو فى النهاية حب جمـيل ، وثمين وصــادق . ألا تزال بعض التقاليد الرائعة والذكريات الجميلة فى حياة الطلاب فى الخمسينات ، (مثل : الدعوة إلى التطوير الشامل سياسيًا ومهنيًا ، وأنشطة رابطة الشبيبة والأنشطة الجماعـية للفصل المتـعددة الألوان والأشكال والأعمال المفـعمة بالنشاط والحـيوية ، والصــداقة والـتعـاون المتـبادل بين الـطلاب وما تعكـسه من شكل العـلاقـات بين الأشـخاص فى المجـتمع الجـديد ، والنمـوذج الجديد فى العـلاقات بين الأسـاتذة والطلاب الذى بدأ يسود فى المدارس ، وعـلى وجه الخـصوص الشعـور العـميق اللا محـدود من جانب جيل من الشـباب تجاه الحـزب ، وتجاه الزعيم مـاو ، وتجاه الوطن الاشتراكى . . . . . .) ألا تزال جـديرة بالاستعـراض والمراجعة والتذكار ؟ حتى بعـد أن دمرت لين بياو " عـصابة الأربعة " كل ذلك وأفـسدوه ، فى الوقت الذى نحتاج فيه الى إعادة كل شىء الى نصابه لتحقيق القرار الاستراتيجى المتمثل فى تحقيق العصريات الأربعة .

زد على ذلك أن الإنسان فى مسيرة حياته منذ الصغر حتى الكبر يدرك بنفسه أن هناك كثيرا من المتغيرات ، منها تغير نوعى ، ووقفات وانطلاقات بصورة مستمرة. إلا أن الناس يحتفظون من الصغر ببعض الأشياء ويتوارثونها ، فالأشياء الجميلة يجب تطويرها ، والأشياء الفاسدة يجب الحذر منها والتغلب عليها ، وعلى ذلك هل نجد إذا ما استعرضنا حياة وأفكار ومشاعر طلاب بعض المدن من جيل الخمسينات أنها كانت خاوية ولا معنى لها ؟

وهكذا الأمر ، فقد وافقت أخيراً أن تلتقى الحشائش الصغيرة المبللة بقطرات الندى مع القراء ، فكثيرا ما استطاعت أن تعكس بهاء الشروق على الصين الجديدة.

وإننى أهدى هذا الكتاب إلى أصدقاء معسكر ما تروسوف الصيفى من المرحلة المتوسطة بمنطقة دونغ سى بمدينة بكين فى عام ١٩٥٣ ،وقد أصبحت واحدة من طالبات هذا المعسكر الصيفى عالمة فيزياء مشهورة فى الوقت الحالى ، وقد قام الرفيق تشن لوتشينغ الموسيقار المتحمس - بناء على طلب عدد من الطالبات - بتلحين "أغنية المعسكر " وتقول كلماتها :

لنا صديق عزيز ،

إنه ماتروسوف جندى بسيط ،

وهب حياته فداء لوطنه .

. . . . وإننا نحب وطننا ،

ونحب شعبنا.

أستعرض الأمس بمشاعر التقصير ،

وأتطلع إلى الغد فى همة وعزيمة .

بكين فى أكتوبر ١٩٧٨ م .

تمَّ بحمد الله ،،،

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التـوازن بين المعـارف الإنسـانيـة فى المجـالات العلمـيـة والفنيـة والفكرية والإبداعية .

٣- الانحيـاز إلى كل مـا يؤسس لأفكار التقـدم وحضـور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستـعـانة بكل الخـبـرات العـربيـة وتنسـيق الجـهـود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ - الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألتجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ - ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ - لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ –نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣–الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيثل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامپوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازار	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سي . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	روموڵو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان روافو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – رحلة إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديڤيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

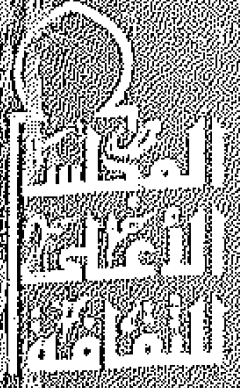
٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام.
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خابير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	آ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كلينباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

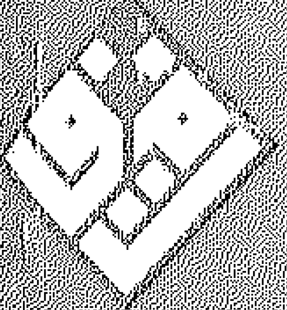
٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٣٣١ – عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ – الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ – لقطات من المستقبل	آرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ – عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ – متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ – فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٣	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ – اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ – قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ – سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ – العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ – الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ – الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ – سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ – الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ – مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ – قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ – الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ – الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ – التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ – الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ – متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ – محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٣٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ – تلميذ باينبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ – حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبري محمد حسن
٣٦٤ – حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ – سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

٣٦٧ - القلم الجرىء	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادى رضا
٣٦٨ - المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ - المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ - الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ - المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ - عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٧٢٥٥ / ٢٠٠٢





عاش الشباب

من روائع الأدب الصيني

رواية «عاش الشباب» من عيون الأدب الصيني الحديث، وهي باكورة الإنتاج الأدبي للكاتب والروائي الكبير «وانغ مينغ». وقد شرع في كتابتها في عام ١٩٥٣، حيث كانت إرهاصات العمل الوطني في البناء والتعمير آخذة في التبلور، والمجتمع يشهد تحولاً كبيراً، والآمال والطموحات التي تصاحب قيام الثورات والتحرر بدأت تراود الناس وتحرك مشاعرهم. كل ذلك دفعه إلى كتابة هذه الرواية تعبيراً عن تلاحم جيل الشباب مع الثورة ومع التحرير ومع الحزب، وتعبيراً عن أفكارهم واتجاهاتهم وروحهم الوطنية وآمالهم العريضة في بناء الصين الجديدة.

وقد اختار الكاتب طالبات أحد فصول المدرسة الثانوية السابعة للبنات في بكين كشخصيات رئيسية لرسم أحداث هذه الرواية. وتمكن قلمه الرشيق من سبر أغوار الحياة الطلابية خلال هذه الفترة بما تعكسه من آمال وطموحات وأحلام جميلة في غد مشرق.

وباختصار شديد يمكن القول إن رواية «عاش الشباب» هي إحدى الإبداعات الأدبية المهمة التي واكبت قيام الصين الجديدة، وعكست حياة المجتمع الصيني بما فيه من آلام وآمال وسلبيات وإيجابيات خلال تلك الحقبة من حياة هذا الشعب العظيم.